« التقاريظ »

لما كان هذا التفسير قد قرظه كثير من علماء الشرق والغرب وأطنبوا فى مدحه رأينا أن ننشرها تباعا تتميما للفائدة

التقريظ الأول

جاء فى جريدة المقطم يوم ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٤٥ هجريه تحت العنوان التالى مانصه :

كتاب (الجواهر)

فى تفسير القرآن الكريم

تأليف الأستاذ الفيلسوف حكيم الاسلام الشيخ طنطاوى جوهرى

المدرس سابقا بدار العلوم والجامعة المصرية

اذا كنا بحاجة الى كتب مفيدة نافعة تناسب حالات العصر وتتسق ومانحن عليه من اختراعات واستكشافات وظهور مافى الطبيعة من مكنونات . فان حاجتنا أعظم الى تفسير كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام لمافى ذلك من تثقيف العقول وتفجير ينابيع الرحمة فى قلوب الخلق . ولقد طالعنا كتب التفسير فلم نوفق الى تفسير يشفى العلة وينقع الغلة حتى صادفنا «الجواهر» وهو تفسير للقرآن الكريم وضعه الأستاذ الجوهرى فأذابه يمتاز على غيره من التفاسير بكثير من المزايا . منها ان عبارته سهلة مشوقة لايملها المطالع . وانه جمع فأوعى فكأنه دائرة معارف جامعة . وفيه أكثر من مائة مسألة من مسائل العلم الحديث تضمنها القرآن وسبق اليها وهى معجزة النبوّة . وانه ألمّ بقصص الأنبياء فأظهر أن المقصود منها نتائجها والاتعاظ بها . وأنه نظر الى المسلمين نظرة حكيم وحضهم على الاكباب على العلوم العصرية والأخذ منها بقسط وفير . وانه لم ينسج على منوال أولئك الذين يبذلون جهدهم فى الجدل اللفظى وشرح الكلمات شرحا مملا . وانه راعى تطبيق الآيات على خلاصة الفلسفة العصرية والعلوم الحديثة وماتضمنت من الرياضيات والفلكيات والمعدنيات والنباتيات والحيوانيات . وانما سبيله فى التفسير أن يبدأ السورة بحصر مقاصدها ثم بيانها اجمالا ثم يأخذ فى تلخيص تلك المقاصد اجمالا حتى ان المطلع بهذا يدرك ملخص السورة . ثم هو من بعد ذلك يشرع فى تفسير تلك المقاصد مبتدئا بكتابة المقصد من القرآن بخط مشكل ليقرأها المطلع قبل تفسيرها ثم يفسر مافى المقصد من ألفاظ ثم يعقب على ذلك بمافى الآيات من أحكام شرعية عامة وماتضمنت من العلوم جميعها فنعم العمل وحبذا الهمم

التقريظ الثانى

جاء فى مجلة (المرشد) وهى مجلة علمية أدبية دينية تصدر بمدينة بغداد بتاريخ (١) محرم سنة ١٣٤٦ هجريه تحت العنوان التالى مانصه :

تفسير الجواهر

لاينكر ماللعلماء المسلمين اليوم من النزعة الى تفسير القرآن واظهاره بشكل يلائم روح العصر الحاضر ،

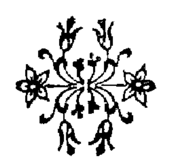
التقريظ الخامس

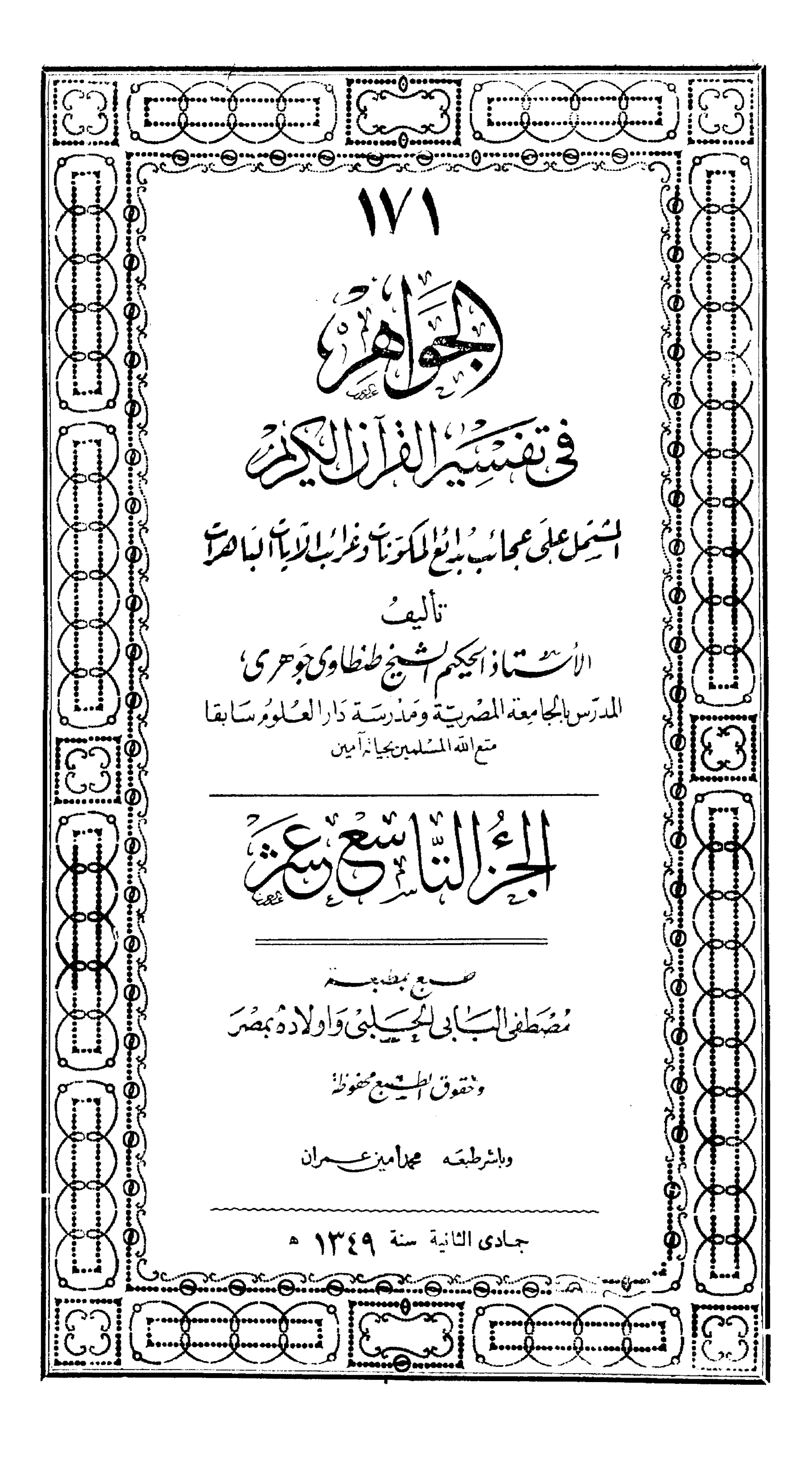
جاء فى مجلة المجمع العلمى العربى الشهرية التى تصدر فى دمشق فى الجزء الخامس والسادس من المجلد العاشر بتاريخ ١ ذى الحجة سنة ١٣٤٨ هجرية ما يأتى

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

أهدانا السيد مصطفى البابى الحلبى صاحب المطبعة المشهورة بمصر الأجزاء التى صدرت الى اليوم من التفسير النفيس المسمى (بالجواهر) وهى ستة عشر جزءا تأليف العلامة الأستاذ «طنطاوى جوهرى» وقد قضى الأستاذ سنين طويلة فى تحبير هذا التفسير ولما يتم . وقد بلغ فيه سورة فاطر . ومن تصفحه أدرك سعة علم الأستاذ كما أدرك مبلغ العناء الذى كابده فى وضع هذا التفسير والعناية التى بذلها فى جمع مواده ، وتنسيق مباحثه . وأوّل ما يخطر للناظر فيه أنه لا ينظر فى تفسير قرآن وانما هو ينظر فى « دائرة معارف » على القرآن تضمنت شرحا لآياته ثم تاريخا وأدبا وأخبارا وفلسفة وسياسة واجتماعا وزجرا ووعظا وتنبيها وتحذيرا حتى انه لم يخل من ذكر نظرية «انيشتين» والاستشهاد بها على ماهو بصدده من تفسير الوحى الالهى ، وكثيرا ما يقع نظارك على بحث فى ثنايا الكتاب فتعجب لذكر مثله فى تفسير القرآن حتى تراجع صفحات كثيرة سبقت فيتبين لك اذذاك وجه المناسبة ولو ضئيلة بين هذا البحث و بين الآية المفسرة . افتح مثلا الجزء العاشر ص ٢٢٩ يقع نظرك على مسائل تحت أرقام متسلسلة ثم تقرأ تحت الرقم الأوّل مانصه (الشعوب التى هى جديرة بالاستقلال التام . ويجب أن تتمتع به فى الحال . و بينها الصين ومصر وسورية والعراق) فلا تكاد تصدق أنك تقرأ تفسيرا للقرآن فترجع أدراجك الى ما سبق من المباحث مبحثا مبحثا فتجد نفسك فى تفسير قوله تعالى (والتى أحصنت . . . . وجعلناها وابنها . . . . ان هذه أمتكم . . . . كل الينا راجعون)

فتفسير (الجواهر) لم يؤلف للطالب العجول . ولا للضجر الملول . وانما ألف للزميت الوقور . الجليد الصبور ونرجو أن يكثر أمثال هؤلاء بين أبنائنا . وانا لنشكر للمؤلف الفاضل خدمته كما نشكر للطابع الناشر هديته جزاهما الله عن أمتهما خير الجزاء





١٧١

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

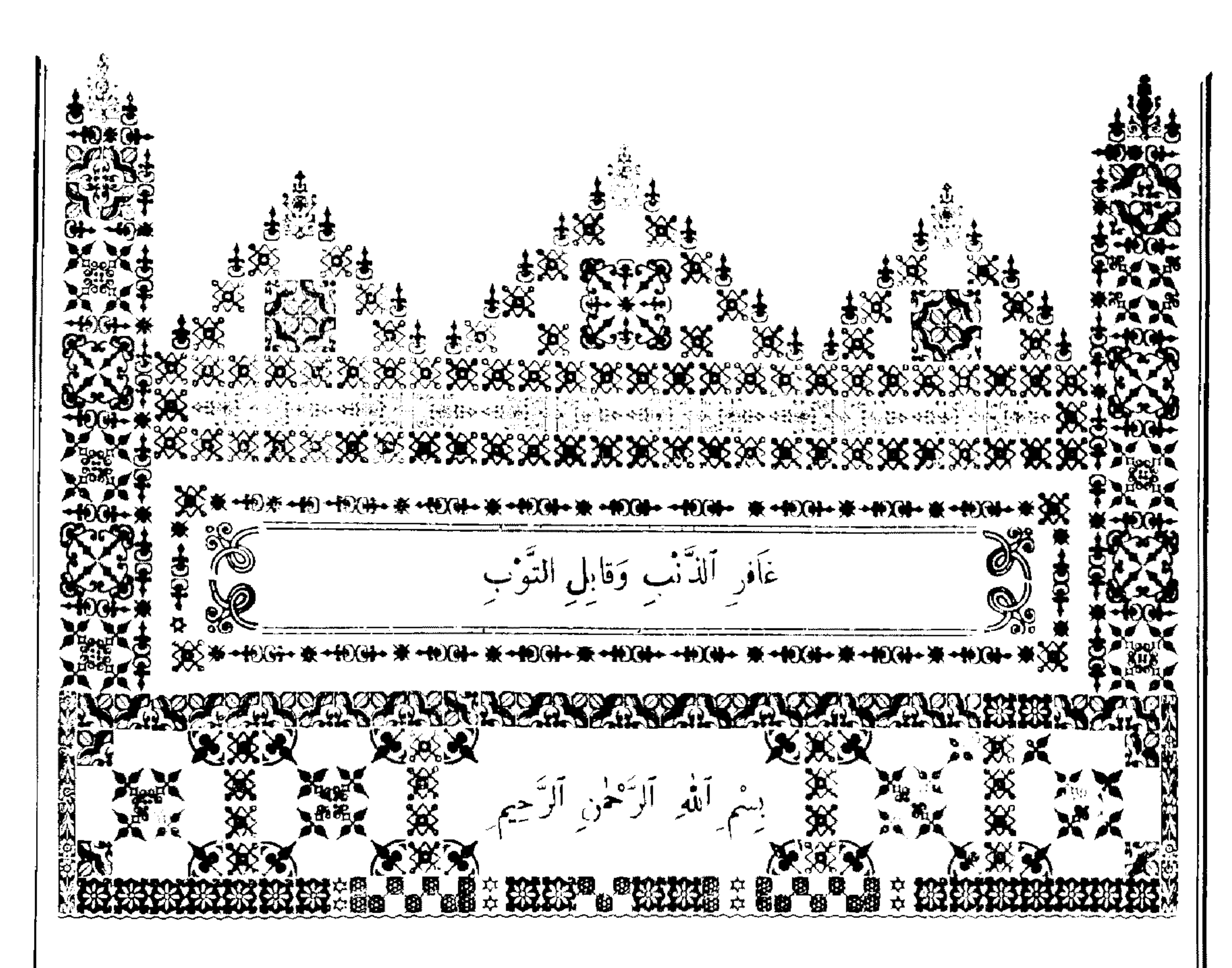
الجزء التاسع عشر

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وباشر طبعه محمد أمين عمران

جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ هـ



تفسير سورة غافر

(هي مكية)

إلا آيتي ـ إنّ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ٭ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكنّ أكثر الناس لايعلمون ـ فمدنيتان

(آياتها ٨٥ ـ نزلت بعد الزمر)

يروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « إنّ مثل صاحب القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلا فمرّ بأثر غيث فبينما هو يسير فيه و يتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات فقال عجبت من الغيث الأوّل فهذا أعجب منه وأعجب ! فقيل له : إن مثل الغيث الأوّل مثل عظم القرآن ، وأن مثل هذه الروضات الدمثات مثل آل حم فى القرآن » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لكل شئ لباب ولباب القرآن الحواميم » اهـ

﴿ هذه السورة أربعة أقسام ﴾

« القسم الأوّل » فى تفسير البسملة

« القسم الثانى » غلب فيه وصف حملة العرش واتصال عالم الملائكة بعالم الانسان إشراقا وتعليما وتنظيما لمناسبة مافى آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ من أوّل السورة الى قوله ـ إن الله هوالسميع البصير ـ

« القسم الثالث » الاعتبار بالأمم الماضية وتخصيص موسى بالذكر عليه السلام و بنى اسرائيل والمؤمن من آل فرعون من قوله ـ أولم يسيروا فى الأرض ـ الى قوله ـ وسبح بحمد ربك بالعشىّ والابكار ـ

« القسم الرابع » غلب فيه النظر فى عجائب الحكمة الإلهية من قوله — إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان — الى آخر السورة ، فيرجع معظم أجزائها ومقصودها الى العالم الروحى الأعلى فالأنبياء السابقين فعجائب العالم المحسوس

﴿ القسم الأول فى تفسير البسملة ﴾

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والتوفيق ومعرفة بعض العجائب القرآنية والرحمات النورية والبهجات الحكمية والسعادة العقلية والجمال والبهاء والسرور بالابداع ، أريتنا أن بين سورة الزمر والمؤمن المتعاقبتين مناسبة بديعة ، ففى آخر الزمر أن الملائكة حافون من حول العرش ، فهناك ذكر للعرش وملائكة حافون وتسبيح وتحميد ، وههنا فى سورة المؤمن ذكر الملائكة والعرش والتسبيح والتحميد ، وهكذا ذكر العرش مرة أخرى فيها — رفيع الدرجات ذوالعرش — وبين ماذكر فى آخر سورة الزمر وماذكر فى أوائل سورة المؤمن من العرش والملائكة والتسبيح والتحميد جاءت البسملة وفيها اسم الله واسم الرحمن الرحيم . ههنا رحمة جاء ذكرها متخللا ذكر العرش وما معه ، وكما أن الرحمة العامة فى البسملة فى أوّل ﴿ سورة ص ﴾ كان اتجاهها إيقاظا لصفة الاخلاص المذكور معناه فى آخر سورة الصافات وفى أوّل سورة ص هكذا هنا الرحمة العامة فى البسملة متجهة الى إفاضة العلم والحكمة وتعميم الهداية فى نوع الانسان فان أولئك الملائكة الحافين من حول العرش المسبحين بحمد ربهم يستغفرون للذين آمنوا والله الذى أبدع العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ، والرسل بينه و بين الأنبياء هم الملائكة

واعلم أن عروش الملوك لاتقوم إلا على دعامتين : دعامة هى أبهة الملك وعظمته وترجع الى القدرة والجاه ودعامة هى العلم الذى به نظم ذلك الملك ، والمملكة التى لاقوّة فيها ولانظام لها مفككة الأجزاء معطلة واهية ذاهبة ، فكل عرش انما يقوم على القدرة وعلى العلم . والقدرة تكون بالمال و بالرجال . والعلم يقوم بنظام الحياة الطبيعية والحياة السياسية . فله إذن فى أرضنا أربع دعائم . وعرش الله عزّوجل مشروح فى آية الكرسى ومبناه فيها العلم والقدرة . فاذا كان الله سبحانه لاتأخذه سنة ولا نوم وهو يعلم مابين أيديهم وما خلفهم وهم لايحيطون بشئ من علمه الخ فذلك كله راجع للعلم وكونه له مافى السموات ومافى الأرض ولايشفع عنده أحد إلا باذنه فذلك راجع للقدرة . ولقد جاء ذكر العرش فى آخر ﴿ سورة التوبة ﴾ فى آية — فان تولوا فقل حسبى الله لاإله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم — وجاء فى أوّل ﴿ سورة يونس ﴾ — إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر — فالاستواء على العرش بالقدرة وتدبيرالأمر بالعلم . وجاء فى أوّل ﴿ سورة هود ﴾ بعدها — وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء — والمقام هناك واضح فى معنى العرش الذى سقنا له الكلام هنا إن كل عرش لايتم إلا بعلم وقدرة . واذا كان العرش فى آخر التوبة وفى أوائل سورة يونس وهود يذكرنا بأن الأمم الاسلامية تولت عروش أمم وقامت بحفظ بلادها . وتلك الأمم هى المذكورة فى سورة يونس وهود . فتكرار العرش هناك فى السور الثلاث وتخلل ذكر الرحمة فى البسملة فى أوائلها قد أعقبه أن ملك المسلمون تلك العروش التى فى أرض مصر المشار اليها بقصة موسى وهرون فيها وأرض الجزيرة ومابين النهرين من بلاد الآشوريين والبابليين . فهذه كلها الآن بلاد اسلامية وهذه البلاد مشار إليها بقصة يونس إذ كان فى نينوى وهى من تلك البلاد . وقد فصلت فى سورة هود قصة نوح . ولقد كانت سفينته هناك عند (جبال ارارات) وهذه فى تلك الناحية التى قام فيها الكرد اليوم . وهم يريدون الخروج من الدولة التركية . وهذه الجبال فى بلاد العراق مما يلى بلاد الترك . ولاجرم أنها بلاد اسلامية الى الآن . وهكذا فصلت قصة عاد وثمود وقصة

ابراهيم ولوط ومدين وموسى . ولاجرم أن هـذه البلاد كلها عربية وهى اسلامية اليوم . فلوط ببلاد الشام وهكذا ابراهيم وعاد وثمود فى بلاد حضرموت وما يليها ومدين حوالى بحرالقلزم وهوالبحر الأحمر من جهات الشرق . فهذه العروش كلها أصبحت عروشا اسلامية . هذا ماتقدم فى سورة التوبة ويونس وهود

وهكذا هنا فان العرش الذى ذكر فى سورة الزمر وفى سورة المؤمن قد ذكرنا بالهداية العامة والملك كما تقدم . ألاترى الى قوله تعالى ــ يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ــ فالملائكة الحافون من حول العرش لهم حالان : تنزيه الله عما لايليق بجماله واستغفارلمن فى الأرض . ومن طلب المغفرة لأحد أحب هدايته والملائكة هم الذين يلهمون الناس الخير وهم الذين يكونون سفراء بين الله وبين أنبيائه فهم ملقنون الوحى للأنبياء وهم ماهموا الخير للمؤمنين . وترى هذا الأمر واضحا فى قوله تعالى ــ ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما ــ فذكر الرحمة وذكر العلم . ثم يقولون ــ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ــ الخ

وهذه الصفة العامية هى إحدى الدعامتين اللتين تنقسمان الى قسمين آخرين كما تقدم . وتكون هذه الأربعة الدعائم للعروش والدعامة الأخرى هى القدرة ولقد غلبت هنا فى ذكر الأمم السابقة ــ أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض ــ الخ وفصل بعضهم فى خلال قصة موسى إذ قال ــ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ــ فهذه القصص مفصلة ومجملة ترجع للقصص التى فى سورة يونس وهود بعد سورة التوبة وكلها ذات عروش والعروش قد أصبحت للمسلمين . ذكر العرش فى التوبة ومابعدها وذكره فى الزمر وسورة المؤمن إشارة الى ماوصفنا من أن هذه العروش فى تلك البلاد لاتزال الى الآن فى أيدى المسلمين

واعلم أن هذا ان لم نتبعه بنصائح للمسلمين لا يكون العلم به نافعا ، فانه اذا كان ذكر العرش فى هاتين السورتين مشيرا الى ذلك كما أشار فى السور الثلاث السابقة وهى هود ومابعدها من غير عظة تلحقه وعمل يتبع العلم ، بقى المسلمون على ماهم عليه يفرحون بما يفتح عليهم من أسرار القرآن ولكنهم لايحركون ساكنا ويتركون حبل الأمم على غاربها ، ونحن نقول أيها المسلمون : هذه العجائب ومعرفتها ليست تجزينا وحدها فالعلم إن لم يتبعه العمل لم يفد الناس . فاذا سمعت أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض فذلك تذكيرلنا أن نبرع فى ﴿ أمرين : الأمرالأول ﴾ المعرفة العامة بالعلوم الطبيعية والرياضية حتى ندرك جمال الله وجلاله فى السموات والأرض بدراسة علوم جميع الأمم حولنا مع اضافة مباحثنا العقلية ، وبذلك وحده ندرك معنى قوله تعالى ــ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ــ فكيف يكون التنزيه بلاعلم بالآثار التى أبدعها ، وكيف يكون حمد على نعم نجهل تفصيلها ، فالحمد اللفظى عبادة والحمد الحقيقى علم ولاعلم إلا بالدراسة ومعرفة الحقائق ، والعابد الجاهل قليل المنفعة والعالم هو الذى اتبع الأنبياء وقلد الملائكة المسبحين بحمد ربهم ﴿ الأمر الثانى ﴾ أن نكون نافعين للناس فلاتكون حياتنا وقفا على العلم وحده لأن ثمرة العلم إفاضة الخير على الناس والملائكة الحافون حول العرش كما أنهم يسبحون بحمد ربهم يفيضون الخير على أهل الأرض ، ولاجرم أن لنا ضمائر وعقولا هى محل إفاضة الخير من الملائكة علينا ، فلنقم بالعلم ولنقم بالعمل والعالم كله متشابه متسق ، فليكن العلماء فى الأمم الاسلامية بعدنا متحلين بجمال العلم بهذا الوجود تفصيلا على قدر امكانهم أولا وليكونوا مفيضين على الناس من علومهم ، ويجب أن تكون علومهم شاملة لخيرى الدنيا والآخرة حتى يتم حمدهم والحمد يكون على نعمة ونعمة الدنيا مشاهدة محسوسة . ومن جهل المحسوس جهل المعقول . ومن حمد بلاعلم فحمده رياء وقول لفظى ضئيل . واذا لم يقم العلماء فى الاسلام بهذه الشرائط واستمر المسلمون على نومهم العميق وسلموا أعناقهم وخضعوا للجهلاء ممن لايعقلون بدائع هذه الدنيا وحكم

خالقها الحكيم فإن العروش المذكورة فى ﴿سورة المؤمن﴾ المتصلة فى سورة يونس وهود التى هى فى أيدى المسلمين تميد و يملكها أمم غيرها وهذا آخر انذار فى هذا التفسير للمسلمين

الملائكة يسبحون و يعلمون الناس الخير وهم حافون حول العرش هكذا العلماء حافون حول عروش الأمم الاسلامية . اذا هم لم يقوموا بحق العروش من العلم الجم وافاضة العلم على أمم الاسلام . وهذا العلم يليق لاقامة العروش و بقائها فان هذه العروش ساقطة فى أيدى الأمم الأخرى . ولقد سقطت عروش الأندلس التى كانت مفرّقة عشرين دولة ولم يكن لهم من الدين مايزعهم والشعراء كان لهم بينهم القدح المعلى وقبل ذلك سقطت بغداد التى كان لها السلطان على هذه العروش المذكورة فى يونس ومابعدها وهى سورة المؤمن

واذا كان عرش الله وهوالقائم على كل نفس بما كسبت تحفه الملائكة المسبحون المستغفرون لايفارقونه فكيف يقوم عرش الانسان الضعيف إلا بعلم و بافاضة على الخاضعين للعرش

ومن العجب أن فى ﴿سورة التوبة﴾ ذكرا لما يوافق اسمها من أن الله تعالى تاب على النبى ﷺ والمهاجرين والأنصار الخ وتاب على الثلاثة الذين خلفوا الخ فهناك توبة وههنا توبة وغفران للذنوب المذكورين فى قوله تعالى ــ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ــ ههنا ذكر للعقاب الشديد وذكر للمغفرة وماأنسب هذين بالعرش لأن المستوى على العرش يدبر الأمر ومن يدبر الأمر يعاقب تارة و يغفر أخرى و يتوب على من يشاء وهذا شديد المناسبة بالعرش ولذلك ذكر فى آخر سورة التوبة . فالملك يناسبه ذلك غفران وتوبة تارة وعقوبة تارة أخرى وذلك يكون على مقتضى العلم . والعرش انما يبنى على العلم وعلى القدرة ومظاهر هذين تسبيح الملائكة وحمدهم واستغفارهم وهم حافون حوله فعلمهم وافاضتهم الخير على الناس مظاهر وآثار لما فوق ذلك من علم الله وقدرته المتين بآثارهما أقيم العرش . فالله قادر وعليم والملائكة استمدوا منه والمؤمنون لاسيما علماؤهم يستمدون من الملائكة . وفى هذه السورة من المباحث أنواع :

(١) فجاج الأرض الواسعة ومافيها من حكم وعجائب فى آية ــ أولم يسيروا فى الأرض ــ الخ

(٢) والسموات والأرض فى آية ــ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ــ

(٣) تفصيل النوع الأوّل فى آية ــ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء ــ . وهنا ذكر صورنا وحسنها

(٤) تفصيل النوع الثالث فى آية ــ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ــ ففى هذا تبيان نموّ الانسان حالا بعد حال

(٥) بيان الأنعام التى نركبها والتى نأكلها

(٦) وختم السورة بما يلخص السورة كلها من انه أرانا آياته كلها ومن أن سيرنا فى الأرض يعرّفنا عاقبة الأمم الخ

(٧) وفى السورة الالتجاء الى الله ــ فادعوا الله مخلصين له الدين ــ

(٨) وفيها ان الله ينصر رسله وتابعيهم ــ إنا لننصر رسلنا ــ الخ وفيها ــ فوقاه الله سيآت مامكروا ــ

(٩) وفيها تبيان أن الضعفاء يحتجون بأن المستكبرين أضلوهم ويجيبهم المستكبرون ويقع الجميع فى العذاب

(١٠) وذلك لأن المدار على الأنواع السبعة السابقة من النظر بالعقل فى السموات والأرض ، وخلق الانسان والأنعام . فاذا احتج انسان بأن غيره أضله فحجته داحضة لأنه يقال له : أين عقلك إذن ؟ فلك أيها الضعيف عقل كالمستكبر فكيف أتبعته ؟ ولماذا لم تسر فى الأرض وتنظر العواقب أفليس من عجب أن يكون الله برحمته أنزل القرآن وعلم المسلمين فيه تربيتين : تربية لاذكر للأسباب

معها غالبا وهى الصلوات وأنواع العبادات وهى التربية العملية ، وتربية علمية وهى المباحث التى تكون بها الهداية ، وهذه هى النظرية كالنظر فى الأنفس والآفاق الخ وهذه لايغتفر فيها اهمال لعقل ، وبهذه يتحاج المستكبرون والضعفاء ويقع الجميع فى العذاب ، ولقد علمت أيها الذكىّ فيما نقلناه عن (كانت) الألمانى فى كتاب التربية : « أن التربية العملية أوّلا تكون بلا ذكر للأسباب فاذا كبر الصبى علم الأسباب » وهنا فى القرآن ــ ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة ــ فهذا أمر فى نفسه مذموم وهكذا فى القتل جاء فى سورة المائدة ــ من قتل نفسا بغير نفس أوفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ــ الخ وجاء فى سورة البقرة ــ ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب ــ

هذه فى التربية العملية فهى اشتملت على مالم يذكر معه سبب وعلى ماذكر معه السبب وهذا هو الذى قرّره علماء التربية فى عصرنا ، فأما التربية العلمية فلاتصح إلابالنظر العقلى ولذلك لماتحاج أهل النار لم ينفع الضعفاء الاحتجاج بالذين استكبروا

أيها المسلمون : إن القرآن مملوء حكمة وأنتم التاركون لها ، وهذه الآيات فيها عجائب ولكن الله تعالى حرمها على النائمين الساهين اللاهين الذين لايفكرون ، فكم ذكر الله محاجة الكفار فى النار فى هذه السورة وفى سورة سبأ وفى سوركثيرة ، كل ذلك ليوقظ شعور المسلمين الذين ناموا نوما عميقا فيفكروا بعقولهم . إنى أنذرالمسلمين بهذا التفسير . أنذرهم قبل فوات الفرصة . إن هذا الكتاب قد جاء بين عهدين كبيرين : عهد النوم العميق للأمم السابقة وعهداليقظة للأمم المستقبلة . وسيستقبل المسلمون أيام العلم والعمل بعد أن استدبروا أيام الجهل والكسل والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . كتب صباح يوم الخميس ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠ انتهى القسم الأوّل فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

﴿ القسم الثاني من السورة ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

حٰمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ * مَا يُجَادِلُ فِى ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلَادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ * قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ * ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ * هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ * فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) تقدّم الكلام على الحروف كلها فى أوّل ﴿ آل عمران ﴾ وفى أوائل ﴿ العنكبوت ﴾ ومابعدها ويختص الكلام على حم هنا بأنها تشير الى حمد سبق فى آخر الزمر وحمد يأتى فى هذه السورة ، والحمدان صادران من الملائكة والمؤمنين كما رأيت فى آخر الزمر وكما سترى هنا عند قوله تعالى ــ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ــ الخ فرجعت هذه الاشارة العجيبة الى استكمال قوّة العلم وافاضته على المتعلمين فان الحمد وتمامه ليس يكون إلا باستكمال قوّة العلم ، وكيف يحمد الانسان على نعمة يجهلها ، وكما كانت الم تشير فى العنكبوت ومابعدها الى تحقيق المباحث العنصرية والوقوف على حقائق هكذا هنا يراد بالحاء والميم استكمال قوّة العلم فى جميع الفروع إذ لاحمد كاملا إلا بعد علم بالمحمود عليه ولاتعليم بصدق إلا لمن استكمل العلم ، وهذا هوالذى تشير له حم ولذلك أردفها بقوله (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) بكل المعلومات ، وحمد العبد تابع لعلمه بما أبدعه الله تعالى والله يحب من تخلق بأخلاقه والعلم منها (غافر الذنب) ساتره (وقابل التوب) أى التوبة (شديد العقاب) فالأوّل لمن آمن وأطاع والثانى لمن كفر وعصى (ذى الطول) ذى السعة والغنى والفضل والنعم (لااله إلا هو) فليقبل الانسان بكليته عليه (اليه المصير) فيجازى كلا بما يستحق ، وهذه الصفات جمعت بين الترغيب والترهيب لئلا ييأس الناس من

الرحمة ولا يأمنوا مكر الله ، فلما حقق أمر التنزيل سجل الكفر على المجادلين فيه بالباطل . فقد قيل « إن جدالا فى القرآن كفر » فأما الجدال لايضاح الملتبس فهو مرغوب فيه فقال (مايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلايغررك تقلبهم فى البلاد) فلايغررك إمهالهم وتقلبهم فى بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة فانهم سيؤخذون قريبا كما أخذ من قبلهم (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) والذين تحزّبوا على الرّسل بعد نوح كعاد وثمود (وهمّت كل أمة) من هذه الأمم (برسولهم ليأخذوه) ليقتلوه أوليأسروه (وجادلوا بالباطل) بما لاحقيقة له (ليدحضوا به الحق) ليزيلوه به (فأخذتهم) بالاهلاك جزاء لهم (فكيف كان عقاب) أى فكيف كان عقابى إياهم ، ألم يكن مستأصلا مهلكا وأنتم تمرّون على ديارهم وترون آثارهم وفيه معنى التعجيب (وكذلك حقت كلمة ربك) وعيده وقضاؤه بالعذاب (على الذين كفروا) لكفرهم (أنهم أصحاب النار) بدل من كلمة ربك ، ابتدأ الله السورة بصفات العزّة والعلم والقدرة الواسعة ، وبذكر الرحمة والعقاب ، ثم أتبع ذلك بمن استوجبوا العقاب وأعقبهم بذكر من هم على النقيض من حالهم فهما على طرفى نقيض ، كفار فى أسفل دركات الشقاء وحملة العرش فى أعلى دركات العزّ والهناء فقال (الذين يحملون العرش ومن حوله) أى حاملو العرش والحافون حوله وهم الكروبيون أعلى طبقات الملائكة وأوّلهم وجودا ولامعنى للحمل إلا الحفظ والتدبير وذلك يستلزم قربهم من ربهم ومكانتهم عنده وعلوّهم على العالمين . ألاترى أن كل من كان فى الناس أغزر علما وأحسن تدبيرا يكون أرقى منزلة ، فهؤلاء (يسبحون بحمد ربهم) أى يذكرونه بمجامع الثناء :

(١) من صفات الجلال التى هى عبارة عن التسبيح أى التنزيه عن مقام المحدثين ككونه لاأوّل له ولا آخر لبقائه وانه مخالف للحوادث فى ذاته وصفاته وأفعاله

(٢) ومن صفات الاكرام كعلمه وقدرته وارادته وكلامه ، فالاشارة للأوّل بالتسبيح وللثانى بالتحميد فالصفات الأولى كمال والثانية مشتملة على التكميل كالخلق والرزق والهبة والهداية وما أشبه ذلك

وقوله (ويؤمنون به) انما ذكر للدلالة على اظهار فضيلة الايمان والاخمل العرش لا يكون إلا بكمال العلم ، ولا كمال للعلم إلا بعد مبدأ الايمان ، وذلك لأن المقام مقام إبراز أمة وابرازها انما يكون أوّلا بالايمان ثم يتبعه العلم ، فلذلك قصر الكلام على ذلك فقال (ويستغفرون للذين آمنوا) أى يسألون الله المغفرة لهم ومعنى ذلك انهم يحملونهم على التوبة ويلهمونهم مايوجب المغفرة ، إن هؤلاء الملائكة ممتعون بالقرب من ربهم فهم مدبرون للعالم نظاما جسميا وارشادا علميا ، فالوحى منهم للأنبياء بأمر ربهم ، والالهام منهم لذوى الفطر القابلة للخير ، ولايصدّهم صادّ عن إلهام الخير لامرئ من الناس إلا اذا كانت فطرته تصدّه عن القبول منهم فيتولى الشياطين هدايته الى طريقهم المؤدّى الى الفساد ثم بين الاستغفار المذكور المعبر به عن إلهامهم بما يكون نتيجة له من حيث شمول الرحمة الإلهية العامّة لهم والمغفرة وادخالهم الجنة مع آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم اذا صلحوا كصلاحهم ، وهذا البيان هو قوله يقولون (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما) فان كل حيوان مثلا قد ألهم مابه صلاحه الموافق له وفطر عليه والانسان بعدت طرقه ونحن نجد فى هدايته الى الصراط المستقيم بالالهام والارشاد (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) لاستعداد فطرهم لقبول الهداية من الرسول وخلفائه ومن الالهامات التى نوجهها اليهم (وقهم عذاب الجحيم) واحفظهم عنه (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) إياها (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم) عطف على هم من أدخلهم (إنك أنت العزيز الحكيم) الملك الذى لايغلب وأنت مع ملكك وعزّتك لاتفعل شيأ خاليا عن الحكمة ومن موجب حكمتك أن تدخل معهم من صلح من آلهم ليتمّ سرورهم وأن تتمّ وعدك الذى وعدت (وقهم السيآت) أى المعاصى فى الدنيا (ومن تق السيآت يومئذ فقد رحمته) ومن تقها فى الدنيا فقد رحمته فى الآخرة (وذلك

هو الفوز العظيم) أى النعيم الذى لا ينقطع فى جوار مليك لا تصل العقول الى كنه عظمته

﴿ فصل فى ذكر نتائج الكفر ﴾

لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكافرين فى الدنيا ، و بين موجبات الهداية والعناية المبذولة من حملة العرش وصفوف الملائكة بالالهام مع تدبير الملك واهتمامهم بهداية الناس أتبعه بما هو النتيجة اللازمة لذلك وهى ان هؤلاء يندمون حين يوضعون فى الدركات التى هم أولى بها فى جهنم فقال (إن الذين كفروا ينادون) يوم القيامة وهم فى النار وقد مقتوا أنفسهم حين عرضت عليهم سيآتهم وعاينوا العذاب فيقال لهم (لمقت الله) إياكم فى الدنيا والآخرة (أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون الى الايمان فتكفرون ۞ قالوا ربنا أمتنا) إماتتين (اثنتين وأحييتنا اثنتين) أى أمتنا فى الدنيا ثم أحييتنا فى القبر للسؤال ثم أمتنا فى البرزخ وأحييتنا للبعث لأن الانسان عند الموت يخلع هذا الهيكل الجسمى وتبقى الروح بالجسم الأثيرى اللطيف المماثل لأجسامنا الأرضية ، فهذا موت وانتقال من حال الى حال مغاير كل المغايرة ، وهناك يرى الانسان العجائب الكامنة فى جسده الروحى ، و يرى صور أعماله السابقة من سيئة بادية العار والشنار ظاهرة القذارة والحقارة فيلحقه منها خزى لا يطاق وعذاب روحى ونار جسمية ملازمة له ملازمة الظل للشبح والهواء للأجسام الأرضية ، ومن حسنة تظهر مونقة بهجة متلألئة بهية تبهج من رآها كالكواكب الدرية تسر الناظرين ، ثم إن هذه الحال البرزخية يحصل فيها انتقال وتغير ، وربما ظهرت حال جديدة للأرواح تتبدل فيها تبدلا عظيما كالتبدل الذى حصل بموت الأجسام فيعتبر موتا ثانيا ثم يبعث الناس فتكون حياة ثانية ، فاذن يكون هناك موتان بين الأول والثانى حياة برزخية وبعد الثانى حياة يوم القيامة ، وعلى ذلك تكون لنا أنواع ثلاثة من الحياة لأن الحياة الدنيا لم تذكر فى هذا المقام وربما كانت تبدلات الانسان فى الحال البرزخية كثيرة جدا لسرعة أحوال الأرواح فنبه على ذلك بذكر أعظم تبدل فيها فسماه موتا والا فالأنفس حية فى الحياة الدنيا و بعد مفارقة الأجساد و يوم القيامة ، وهذه الآية فيها رموز عجيبة سيظهرها المسلمون بقراءة علم الأرواح واستحضارها بعد مفارقتنا هذه الدنيا ورجوعنا الى الحال البرزخية لأنهم اليوم ونحن أحياء ليس عندهم من الوقت ما يتفرغون به لمثل هذه العلوم ، وأمم الغرب اليوم تطاردهم وسيخلصون منها إن شاء الله قريبا و بعد ذلك يقرؤن هذا التفسير وأمثاله قراءة أتم و يشرعون فى المباحث العلمية و يدخلون جنة علمية عالية فى الدنيا ثم يتمتعون بروضات الجنات البرزخية ويلحقوننا إن شاء الله تعالى هناك جيلا بعد جيل

ولما كانت أحوال الأنفس البشرية وتقلباتها فى البرزخ و يوم القيامة تكون قد أملت عليها دروسا عالية قاسية لظهور الحقائق لها تحملهم على الاعتراف وطلب الخروج من النار أعقبه بقولهم (فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج) من النار (من سبيل) طريق نسلكه فيجابون بأنه لا سبيل الى الخروج (ذلكم) العذاب (بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به) غيره (تؤمنوا) أى تصدقوا ذلك الشرك (فالحكم لله العلى) الذى لا أعلى منه (الكبير) الذى لا أكبر منه (هو الذى يريكم آياته) عجائب مصنوعاته لتكملوا أنفسكم بمعرفتها (و ينزل لكم من السماء رزقا) أى المطر لأنه سببه ، فعجائب المصنوعات لأمرين : ترقية العقول ، وتربية الأجسام ، والثانى عام ، والأول خاص وهذا قوله (وما يتذكر) يتفكر فيرقى نفسه بهذه العجائب (إلا من ينيب) يرجع عن الانكار بالاقبال عليها والتفكير فيها ، ولما كان فريق المنيبين هو الذى تتجه العناية لارتقائه فى القرآن والحكمة أردفه بما يناسبه فقال (فادعوا الله مخلصين له الدين) من الشرك الخفى والجلى (ولو كره الكافرون) اخلاصكم وشق عليهم هو (رفيع الدرجات) أى هو مرتفعة درجات كماله فوق المحسوس والمعقول ، وهكذا مراتب مخلوقاته الجسمية رفيعات درجاتها طبقا عن طبق وكذلك الروحية من صفوف النفوس الانسانية والملائكة فهؤلاء جميعا درجات بعضها فوق بعض ارتفاعا الى أن تقف دونه العقول (ذو العرش)

الذى هو أصل العالم فهو فى قبضة قدرته ، وقوله (يلقى الروح من أمره) خبر رابع لقوله — هو الذى يريكم —
يقول الله انه يرينا العجائب وهو مرتفع الدرجات ورافع درجات الخلق والعرش فى قبضته و يلقى الوحى بأمره
(على من يشاء من عباده) أى من يختاره للنبوّة (لينذر يوم التلاق) إذ تتلاقى فيه أهل السماء وأهل الأرض
والعمال والأعمال (يوم هم بارزون) خارجون من قبورهم وظاهرون لا يسترهم شئ وأعمالهم وسرائرهم
مكشوفة لا يحجبها نفاق ولا رياء (لا يخفى على الله منهم شئ) من أعمالهم وأحوالهم ، وحينئذ تنطق الحال
بهذا السؤال (لمن الملك اليوم) واذن تجيب هى (لله الواحد القهار) فهو وحده قهر الخلق بالموت و بالبعث
و بالحشر ، ولا جرم أن إلقاء الوحى بهذه المعانى على الأنبياء انما يكون لرفع درجات النفوس الأرضية ولحوقها
بما هو أعلى منها ، فاذا كان الله رفيعا درجات كماله رافعا عالم الكواكب طبقات بعضها فوق بعض كما رأيته
فيما مضى فى هذا التفسير ورافع درجات الأرواح والملائكة فانه بهذه النفوس الرفيعة والأرواح الشريفة يحيى
نفوسا أخرى لتلحق بها فيوحى بواسطة الملائكة الى الأنبياء والناس يستمعون الوحى فيرتفعون الى درجات
أرقى مما هم عليه ، هذا هو الذى يقتضيه نظام الآية منسجما عجيبا ، ثم ذكر نتيجته فقال (اليوم تجزى كل
نفس بما كسبت) فلا يرى المرء إلا ما كوّنه فى نفسه من عقيدة أو علم أو حال فيرى كل ذلك منقوشا مصوّرا
فى جسمه كما يحس الآن فى هذه الحياة بذلك من حسد وعداوة وطمع وشره وكبرياء ، فكل ذلك منغص
للانسان فى حياته لاحق به بعد موته بحيث يحس الانسان به و يشعر ويكون سوائل معنوية فى عالم الأثير
مختلفة كاختلاف ألوان النبات وروائحه وهكذا أنواع العلم والحكمة والفضائل الخلقية من الكرم والصفح
والآداب جميعها ترى لها سوائل أثيرية معنوية أشبه بالسوائل المغناطيسية ترشح من النفس ولا تفارقها كما
لا يفارقها فى هذه الدنيا من هذه الصورة الجسمية أشكالها وألوانها وأطوالها ونسبها وقبيلتها ، وذلك كله
جاء فى علم الأرواح فى العصر الحاضر ، وهذا معنى قوله (لا ظلم اليوم) وذلك لأن الله لما كان رفيع الدرجات
وقد رفع درجات العوالم الروحية فهاهوذا سخرها لترفع الأرواح التى هى ضعيفة فى الأرض تعيش مع الحيوان
وهى فى نظام كله هرج ومرج الى عالم أرقى من عالم الأجسام ، فاذا ماتت ظهرت بمظهرها الذى وصلت اليه
على مقدار طاقتها كما يظهر الطفل بمظهره عند أبويه من النقص والضعف ، فالعذاب الذى يعترى النفوس
الانسانية بعد الموت هو من لوازمها وهكذا النعيم ، إن الله تعالى مربى العالمين ورافعهم من أدنى الى أعلى ،
وفى أثناء رفعهم يرسب بعضهم وتظهر فضائحه وقبائحه أثناء سفره و يحصل للمجرمين عذاب لا يطاق فان الانسان
اذا ظهر بعد الموت بمظهر قبيح اشمأزّت منه نفوس أصحابه ورأوه بغير العين التى كانوا يرونه بها وأصبح فى
ذلّ لا يحتمل واشتعلت النار الجسمية والمعنوية معا ، وقد يرى الأمير أن عبدا من عبيده فضل عليه بأخلاقه
التى اكتسبها وطار الى العلا وخلفه مع العجماوات ، فأىّ ذل وأى عار وأى مهانة بعد هذا كله ؟ فلا ظلم إذن
فكما انا لما خلقنا فى الأرض وكان منا نساء ورجال ، وكان فينا الجميل والقبيح والقصير والطويل والمريض
والصحيح وما لا يتناهى من الأوصاف والأحوال ، لم نقل إن هذا الاختلاف ظلم والا لكان معنى ذلك أن
الوجود كله خطأ ، هكذا نقول فى أحوال الأرواح بعد الموت فكلّ يكون على شاكلته الروحية الحقيقية ،
فكما لا اعتراض فى الاختلاف الجسمى هكذا لا اعتراض فى الاختلاف الروحى فيكون قوم فى نعيم وقوم فى
جحيم ولا اعتراض كما لا اعتراض اذا قلنا فى الأرض فراش وابل وحيوانات برّية وأخرى بحرية وآساد فاتكة
وغزلان مأكولة مع ان الانسان لو قيل له : أتموت أم تكون ناموسة أو جرادة ؟ لا يرضى إلا بالموت وكذلك
الجرادة لا تطلب أن تكون انسانا لأنها تجهله ، فاذا عرفت الجرادة والنملة والحمامة مرتبة الانسان وحرمت منها
فهناك الطامة الكبرى والعذاب والذلة والمهانة وهناك تكون نار الخزى ونار العذاب ، فالأرواح الأرضية بعد
الموت التى هى ضعيفة ليست كالجراد فى الحياة الدنيا بل هى تحسّ وتعرف المراتب ، وهنا تتجلى نار الخزى

ونارجهنم ، ولكن نارالخزى أشد كما يحس الانسان فى الدنيا بالعار اذا لوثت سمعته وضاع صيته ومجده وشرفه ولكن فى الدنيا يتخلص بالموت ولكن فى عالم الأرواح لايقدر على التخلص من الحياة فيه . وهذا يفهمنا قوله (إن الله سريع الحساب) فيصل كل الى مايستحقه سريعا . ولهذا المعنى الذى قررته لك تفهم قول سيدنا علىّ كرم الله وجهه لما سأله سائل : « كيف يحاسب الله الناس كلهم ؟ قال كما يرزقهم كلهم » وقوله (وأنذرهم يوم الآزفة) القيامة سميت بذلك لازوفها أى قربها (إذ القلوب لدى الحناجر) إذ ترتفع عن عن أماكنها فتلتصق بحلوقهم من الخوف فلاهى تخرج فيموتوا ولاترجع الى مواضعها فيتنفسوا ويتروّحوا حال كون أصحاب القلوب (كاظمين) على الغم أو ممسكين بحناجرهم (ما للظالمين من حميم) قريب مشفق (ولاشفيع يطاع) ولاشفيع مشفع (يعلم خائنة الأعين) النظرة الخائنة كالنظرة الثانية الى غير المحرم واستراق النظراليه (وماتخفى الصدور) من الضمائر (والله يقضى بالحق) وقد عرفته فيما مضى فى هذا المقام (والذين يدعون من دونه لايقضون بشئ) تهكم بالأصنام لأنها جماد (إن الله هوالسميع البصير) فيعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور وأما الأصنام فلاسمع لها ولا بصر فكيف تقضى بحق أو باطل ؟ انتهى التفسيراللفظى للقسم الثانى من السورة والحمد لله رب العالمين

﴿ لطائف : فى قوله تعالى حم وفى قوله ــ الذين يحملون العرش ومن حوله ــ الخ وقوله تعالى ــ رفيع الدرجات ذوالعرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ــ ﴾

تبين لك فيما تقدّم فى هذا التفسير أن الحروف فى أوائل السور قد جعلت رموزا وعرفت فى كثيرمن السور كيف كانت تشيرالى مقاصد لرقىّ المسلمين كما ترى فى ﴿سورة البقرة﴾ ــ ا ل م ــ للتنبيه على جهاد بنى اسرائيل فى قوله ــ ألم تر الى الملأ ــ الخ والتوجيه الهمم الى بحث حقائق العجائب الكونية فى قصة الخليل والعزير كما سبق شرحه مرارا وهكذا فى ﴿سورة العنكبوت﴾ فقدرجع رمزها الى البحث فى عجائب العناصر وكيف كان لها نظام كشفه العلامة (مندليف الروسى) وتبعه العلماء وهكذا فى يس وص . فأماهنا فان الأمر أعجب . وكيف لا يكون أعجب ونحن نرى فى آخر ﴿سورة الزمر﴾ قول الله تعالى ــ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ــ وقد وضعوا مراتب كما جعلت أرواح الناس مراتب فى الدنيا وهم يسبحون ويحمدون ، وقد عرفت أن ذلك كله عبارة عن العلم بالجلال والاكرام ، ولا معنى لمعرفة صفات الاكرام إلا بدراسة العجائب الالهية ﴿وبعبارة أخرى﴾ دراسة العلوم التى امتازت بها أوروبا علينا . هذا هوالذى يفهم من التسبيح والحمد ، فأما الملائكة فعلومهم طبعا فوق طاقتنا ، وترى السورة ختمت بقول الملائكة والمؤمنين « الحمد لله رب العالمين » وكيف يحمد المؤمنون ربهم حمدا حقيقيا إلا اذا عرفوا نظام المخلوقات إذ لايحمد المحسن إلا على مقدارماعرف الحامد من آثاره الواصلة اليه والى غيره . هذا هوالذى جاء فى آخر ﴿سورة الزمر﴾ ثم قال فى أوّل ﴿سورة غافر﴾ ــ حم ــ حرفان من الحروف الأربعة عشر مشيرا الى الحمد أى حمد المؤمنين وحمد حملة العرش ﴿وبعبارة أخرى﴾ مشيرا الى العلوم الطبيعية والفلكية التى هى أقرب الينا نحن فى الأرض . فانظرماذا تم بعد ذلك ؟ أعاد الكرّة فى أوائل السورة فذكر حملة العرش وتسبيحهم بحمد ربهم واجتهادهم فى ارتقاء أهل الأرض وحبهم لاسعادهم

انظروتعجب ، فانى سأريك الساعة عجبا عجابا ، بل أريك معجزة القرآن الحقة . وكيف نطق من ألف وثلثمائة سنة بما نقرؤه اليوم فى كتب الفرنجة . أنت اذا كنت من الذين تتبعوا هذا التفسير لاتنكرماسأقوله الآن ، ولكن اذا كان هذا أوّل نظرك له فانك تقول : إن العالم اليوم أصبح كله راقيا وأنتم أيها المسلمون مخرّفون ، إن العالم كله مادّى أوّله وآخره ، وأنا لم أر ملكا ولاروحا يرقينى . فما هذا القول ؟ ومن هم حملة العرش ؟ وأى رموز تقولونها ؟ دعونا دعونا ، وانى أجيبك ناقلا لك عن علماء الشرق وعلماء الغرب فأقول

جاء فى « اخوان الصفاء » أن الأساتذة والآباء والمعلمين اذا ماتوا كان كل عملهم انما هو الارشاد والتعليم لتلاميذهم وأولادهم . وهذا التعليم الالهامى يرقى الروح لعملها والحى المتعلم فهو نافع للحى والميت

وقال الفخر الرازى فى سورة النازعات (وسأذكره هناك إن شاء الله) « أليس الابن قد يرى أباه فى المنام فيهديه الى كنز مدفون »

أليس ان جالينوس قال : « كنت مريضا فعجزت عن علاج نفسى فرأيت واحدا فى المنام أرشدنى الى كيفية العلاج »

وقال أيضا : « أليس ان الغزالى قال ان الأرواح الشريفة اذا فارقت أبدانها ثم اتفق أن انسانا شابه الانسان الأول فى الروح والبدن فانه لايبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة إلهاما ونظيره فى جانب النفوس الشريرة وسوسة » اه

هذا ما قاله علماؤنا . فاذا أبيت إلا علماء أوروبا فانى أقول لك انهم أغرقوا فى هذا العلم اغراقا ونبغوا فيه وفاقوا الشرقيين لأن الشرقى اليوم يظن انه بانكاره هذه العلوم يعد فيلسوفا . أما الاوروبى فهو حر والآراء تقال بلانكير . فلأسمعك ما قاله أكبر علماء الطبيعة فى بلاد الانجليز فى خطبة خطبها فى مجمع العلماء فما قاله : « وليس من العقل أن يقال ان النفس تضمحل اذا تلف الجسد بل سنظل موجودين بعد موتنا وانتهاء أعمارنا القصيرة على هذه الأرض . أقول لك ذلك مستندا الى أدلة علمية . أقول لأنى تحققت أن بعض أصدقائى الذين ماتوا لايزالون موجودين إذ انى قد ناجيتهم . ثم قال : إنى مقتنع بأننا لانضمحل عند الموت وأن الموتى يهتمون بأمر هذا العالم و يساعدوننا و يعرفون أكثر مما نعرف بكثير »

ومن قوله فى نفس الخطبة : « وعندى أن فى الوجود كائنات نسبتنا اليها كنسبة النمل الينا ونحن نتسكع بين أرجلها غير عارفين عنها شيأ » انتهى ما أردته منه . وقد تقدم هذا القول مطولا تارة ومختصرا أخرى لمقاصد مختلفات فى هذا التفسير . وسيأتى نفس هذا القول فى ﴿ سورة النازعات ﴾ عند ذكر قول الامام الرازى أن أرواح الناس تصبح من المدبرات أمرا

أفلست ترى أن مايقوله علماؤنا وما تموج به الجمعيات النفسية فى أوروبا قد أصبح تفسيرا لهذه الآية . انظر كيف يقول العالم الانجليزى : « ان هناك عوالم نسبتها الينا كنسبة النمل الينا » وقوله « إن الأموات يهتمون بأمر هذا العالم » . ياعجبا : أليس هذا هو عين ماقاله الامام الرازى والغزالى واخوان الصفاء . أليس هذا عينه هو نفس هذه الآية . بل أليس هذا معجزة . وأى معجزة أكبر من هذه ا تموج المجامع النفسية بهذه الفكرة فيقول الناس فى مجالسهم : « ان فوقنا أرواحا تلهمنا وتعلمنا وتهتم بنا ونحن نمل بالنسبة لها »

أليس هذا عينه هو قوله تعالى ـ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ـ ولقد عرفت أن الأمر راجع للعلم . وقوله ـ و يستغفرون لمن فى الأرض ـ فهل لهذا معنى إلا الالهام والتعليم فيعلمون الأنبياء و يعلمون كل واحد منا الآن بالالهام ، واذا كنا أصبحنا جميعا من جهلاء وعلماء مؤمنين بعالم الحيوان الذرى المسمى بالمكروب وانه هو الذى يأتى لنا بالطاعون والحمى والجدرى والحكومات فى الأرض كلها تؤمن وتمتثل لقول الأطباء فى ذلك مع ان تلك الحيوانات لم نرها قط ولكنا آمنا بها مع ان الموت والمرض لايحتاجان الى فاعل يفعلهما ، فان المرض نقص والمادة فى تحول دائم والموت خراب الجسم وخراب الجسم لايحتاج الى فاعل يفعله بحسب النظر الظاهرى ، ولكن العلم اليوم أثبت ذلك . وأن الموت أيام الوباء والأمراض الكثيرة كالحمى والجدرى والحصباء انما يكون بأحياء لانراها تحدث تلك الأمراض الكثيرة المنتشرة . فما أسهل أن تعرف أن الخير والشر تأتى بها عوالم تسمى ملائكة أوأرواحا . فالأرواح العالية لالهام الخير

والارواح

والأرواح السافلة للوسوسة . ههنا تجلى الأمر وظهر وعرفنا سر الحاء والميم اللذين جيء بهما بين حمدين : حمد في آخر ﴿سورة الزمر﴾ صادر من الملائكة وأرواح المؤمنين . وحمد صادر من الملائكة في ﴿سورة غافر﴾ مصحوب بالتسبيح والملائكة يفيضون الخير على المؤمنين . وهذا كما ستراه في ﴿سورة النبأ﴾ إذ جاء في آخرها ـ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ـ وفسر ابن عباس الروح بأرواح العباد يصطفون كما تصطف الملائكة وههنا ظهر معنى الاصطفاف إذ الأرواح تلاميذ الملائكة فأصبح الأمر كله راجعا للعلم والدراسة . فاذا تعلمنا اليوم فهو مقصود الحمد المذكور في السورتين وأصبح التسبيح والتحميد معناهما الارتقاء العلمي والارتقاء العلمي للملائكة وهم يرقون أرواحنا في الدنيا كما نرى الأساتذة يعلمون تلاميذهم والآباء أبناءهم فاذن ارتقاؤنا في الدنيا بالعلوم والملائكة ملهمون . ونحن اذا متنا نكون في تلك العوالم المدبرات أمرا كما فسره الامام الرازي في ﴿سورة الصافات﴾ وكما رأيته في كلام فلاسفة الشرق والغرب . هنا يظهر لك مقصود الحاء والميم في هذه السورة . فهما من الحمد والحمد راجع للعلم الذي يلقيه الأعلى الى الأدنى ومبدؤه من الله رفيع الدرجات ذي العرش وهو الذي يرقي الأرواح والأجسام . فترى صفوف الكواكب طبقة بعد طبقة كما ترى صفوف الأرواح صفا بعد صف

(ذكر الأحاديث والآثار الواردة في هذا المقام)

فاذا سمعت ما ورد أن حملة العرش اليوم أربعة فاذا كان يوم القيامة أردفهم الله بأربعة أخر كما قال ـ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ـ فلتعلم أن ذلك إشارة الى ازدياد عدد الأرواح المرتقية . واذا سمعت قول ابن عباس : « حملة العرش ما بين كعب أحدهم الى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام » وما يروى أن أقدامهم في تخوم الأرضين والأرضون والسموات الى حجزهم فلتعلم أن معناه إحاطتهم علما وتدبيرا بهذه العوالم باذن ربهم . واذا سمعت انهم يقولون : « سبحان ذي العزة والجبروت . سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت . سبوح قدوس رب الملائكة والروح » فاعلم أن هذا اشارة الى علمهم بصفات الجلال وصفات الاكرام التي هي تشمل سائر العلوم والى أنهم مقرون بأن الله رباهم بقولهم «رب الملائكة» وانهم هم مربون الأرواح التي هي أقل منهم بأمر ربهم . واذا سمعت انهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفا من أهل السماء السابعة وهؤلاء أشد خوفا من التي تليها وهكذا فذلك على مقدار العلم فان الخشية تتبع العلم ، ومن عرف جيلا وملأ عينه حسنا وجمالا وبهجة وحكمة فانه يدهش منه ويخشاه ، ولا ينبغي ذلك لمن يجهل أمره . واذا سمعت انه ﷺ حدث عن ملك أن ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام فذلك ان صح لاتساع دائرة علمه وتدبيره للعوالم التي تؤهل أنت اليوم للقيام ببعضها على ما عرفت . واذا سمعت عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده انه قال : « ان ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية كخفقان الطير المسرع ثلاثين ألف عام فذلك إشارة الى عظمة ملك الله . وهذا أصبح اليوم معروفا في علم الفلك الحديث كما تراه في ﴿سورة البقرة﴾ وغيرها . واذا سمعت أن العرش يكسى كل يوم ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى فهذا ظاهر اليوم لأن ملك الله تجلى اليوم كما في هذا الخبر وظهر على هذا النحو ، وأما ألوان النور فانك لو بحثت لوجدت أن الأنوار لا يحصى عددها بألف ولا بآلاف كل يوم ، ولوانك فكرت في عدد الأنوار التي تسطع على أرضنا من النجوم وان لم نرها لدقة نورها واحتجابه عنا بالشمس نهارا لرأيتها تعد بمئات الملايين وهي تسطع على الأرض وأصحاب الأرصاد يميزونها تمييزا حقيقيا ، وان أردت بالأنوار العلوم فهي أوسع مدى فان تغير العوالم لا يكون إلا بعلوم قامت بنفوس الملائكة والأرواح المدبرات . وقوله لا يستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى فهو ظاهر . ان

الشموس التى لانهاية لعددها ظهراليوم أن أنواركثيرمنها من أضوء الشمس بمراتب كثيرة فلايستطيع الناس أن ينظاروا اليها لوكانوا هناك ، ولكن الأقرب للحديث أن تلك الأنوار هى العلوم التى فى نفوس الملائكة وهى محجوبة عمن عداهم ولايعرفها غيرهم إلا اذا ارتقى الى مراتبهم

واست أقول لك ان هذه الأحاديث أو الآثار ذكرتها لك على أنها صحيحة أوحسنة أوضعيفة انما المقام مقام ذكر ماقيل بدون نظرالى مقدارصحته لتعلم كيف كان التعبير الذى يعبر به عن عظمة ملك الله ، ومادام المقام مقام مجاز فلابأس بذكرذلك كله . واذا سمعت قول وهب بن منبه ان حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش ، يقبل هؤلاء ويدبرهؤلاء ، ويدبرهؤلاء ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام ، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف صف من الملائكة وذكر انهم يقولون : « سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك الخ » وأن كلا منهم يسبح بتسبيح لايسبحه الآخر فان ذلك أصبح معلوما لك لأنهم مراتب وصفوف ودرجات لايعرف مقدارها عبرعنها بذلك العدد . واذا كانت الكواكب بلغت مالايعرف له عدد فكيف يكون عالم الأرواح ؟ فأما التسبيح والتحميد فهوالعلم الذى أمرت بدراسة مقدّماته فى الدنيا وأشير لذلك بالحاء والميم والحمد فى السورتين وفى سورة فاتحة الكتاب . واذا سمعت قول وهب بن منبه : « إن الله احتجب عن الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجابا من نار وسبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور وسبعين حجابا من درّ أبيض ومثلها من ياقوت أحمر ومثلها من زبرجد أخضر ومثلها من ثلج ومثلها من ماء ومثلها من برد ومالايعلمه إلا الله عزّوجل » فذلك معناه على سبيل المجاز نقص مراتبهم عن مرتبة ربهم لأنه هوالعلىّ الكبير

فانظركيف كان الأوّلون يضربون للناس الأمثال بعظمة ملك الله تعالى ليوسعوا خيالهم حتى اذا جاءت الحقائق وكشف القناع اتسعت له العقول وأقبلت عليه وقال السامع نعم قد تخيلنا هذا من قبل فى الآثار الواردة عن آبائنا الأوّلين . فالتعبير بأن العرش جوهرة خضراء وأن الأنوار تكسوه ونحو ذلك كله للدلالة على الجمال والبهاء والاشراق والعظمة والعلم والحكمة . ولعلك الآن فهمت قول ابن مسعود : « اذا وقعت فى آل حم وقعت فى روضات الجنة أتأنق فيهنّ »

أقول : وهل روضات الجنات إلا العلوم ؟ أوليس نفس الحاء والميم هذان الحرفان هما اللذان فتحا هذا الباب كله ، إن حم إشارة الى المحامد ولامحامد بلاعلوم ، فالأمة الاسلامية اليوم عليها أن تقوم بدورها فى الحكمة والعلم فقد خبأ الله لها كنوزا فى الأرض ستظهر بأعمال المسلمين ، فليقوموا بدورهم . هذا كله معنى — حم —

﴿ صلاتنا معاشر المسلمين ﴾

لقد علمت أن الملائكة يسبحون ويحمدون وأن معنى ذلك انما هوالعلم بالعالم العلوى والسفلى الذى هو داخل فى صفات الاكرام الذى اتصف به الله تعالى . والمسلم فى صلاته عند الركوع يقول « سبحان ربى العظيم » ثم يقول « خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين » ومعنى ذلك أن يدرسه ويفقه سرّه . وكذلك فى السجود يقول المسلم « سبحان ربى الأعلى » ثم يقول « سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين »

فاذا ظنّ الناس أن تسبيح الملائكة وتحميدهم عبارة عن ألفاظ فليفهموا أن تسبيحنا وتحميدنا ألفاظ لاغير . فاذا أرادوا الجدّ فليعلموا انه جاء فى هذه السورة قول الله تعالى بعد ذكر حملة العرش وتسبيحهم والهامهم للذين آمنوا ودعائهم لهم فالحمدلله العلىّ الكبير . وبين منارالحمد فقال — هوالذى يريكم آياته وينزل

لكم من السماء رزقا ـ فجعل مدار الحمد ترقية العقول بالعلوم وتدبير الأجسام بالرزق . هذا هو مقصود الحمد ومقصود (حم) ومقصود القرآن

ليعلم المسلمون بعد اليوم أن المسألة جدّ لاهزل فيها . وأن الملائكة تأهلوا لمرتبتهم بالعلم . وأن الناس لايسعدون فى دين ولادنيا إلا بالعلم وإننا نسبح بحمد الله كما ان الملائكة يسبحون بحمده . ذلك ظاهر فى صلاتنا إذ نبدأ بالتسبيح ونتبعه بذكر النعم التى أنعم بها علينا فى سمعنا و بصرنا الخ . كل ذلك ليعلم المسلم انه ملزم بالعلم والحكمة اللذين يرجعان الى معنى التسبيح والتحميد . هذا هو سرّ الفاتحة التى يتلوها المسلم صباحا ومساء . يقول الحمدلله رب العالمين و يفصل بعض النعم فى الركوع والسجود و يقسمها فى الرفع والاعتدال فيقول « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شئ بعد » ومعلوم أن العوالم لاتخرج عن هذه . فالفاتحة علم والركوع علم وآل حم علم وتسبيح الملائكة علم وتحميدهم علم وتشبهنا بهم فى ذلك علم

فليفطن المسلمون فقد انقضى دور الهزل وجاء دور الجد . وأظهر الله السرّ الذى خبأه . وأبان لعباده عجائب الدنيا بالعلوم والدين بالفهم والالهام . وبهذا تمّ الكلام على القسم الثانى من السورة

﴿ القسم الثالث من السورة ﴾

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءاثَارًا فِى الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ ءالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِى ءامَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ

قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ
حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
مُرْتَابٌ * ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ ٱللَّهِ وَعِنْدَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ٱبْنِ لِي
صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا
وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ * وَقَالَ
ٱلَّذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ
وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ
مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ
لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ
فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ
مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا
وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ * وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ
ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
فِي الْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

سُوءُ الدَّارِ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) أى مآل الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود (كانوا أشد منهم قوّة) قدرة وتمكنا (وآثارا فى الأرض) كالقلاع والمدائن الحصينة (فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق) يمنع العذاب عنهم (ذلك) الأخذ (بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات والأحكام الواضحات (فكفروا فأخذهم الله إنه قوىّ) متمكن مما يريده غاية التمكن (شديد العقاب) كل عقاب دون عقابه

﴿ قصص موسى عليه السلام و بنى اسرائيل ﴾

قال تعالى (ولقدأرسلنا موسى بآياتنا) المعجزات (وسلطان مبين) وحجة ظاهرة (الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذّاب) يعنون موسى . ذلك تسلية له ﷺ (فلما جاءهم بالحقّ من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) أى أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم من قبل كى يصدّوا عن اتباع موسى (وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) أى وماصنع فرعون وقومه إلا فى ضياع فان هذا كله لم يمنع موسى من إقامة دينه وخذلان فرعون وجنوده (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى) وقد كانوا يكفونه عن قتله تهوينا لأمره ويقولون اذا قتلته ظنّ الناس انك عجزت عن اقامة الحجة . ثم قال (وليدع ربه) إظهارا بعدم المبالاة به مع انه لم يمنعه من قتله إلاشدّة الهول والفزع من ذلك لعلمه انه نبىّ (إنى أخاف أن يبدّل دينكم) أى يغير ما أنتم عليه من عبادتى وعبادة الأصنام (أوأن يظهر فى الأرض الفساد) أى ما يفسد دينا من التحارب والتهارج (وقال موسى) لقومه لما سمع كلامه (إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب) ذكر اسم الرب اشارة الى التربية وليحضهم على موافقته فى الدعاء لأن اتجاه أرواح كثيرة لغرض واحد أقرب للاجابة (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) من أقاربه (يكتم إيمانه أتقتلون رجلا) أى أتقصدون قتله (أن يقول) أى لأنه يقول (ربى الله) وحده (وقد جاءكم بالبينات) الكثيرة (من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه) لايتخطاه (وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) أى فلا أقلّ من أن يصيبكم بعضه (إنّ الله لايهدى من هو مسرف كذاب) ولوكان مسرفا كذابا لخذله الله ولكنه لم يخذله فأعطاه المعجزات والآيات البينات (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) غالبين عالين فى أرض مصر (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) أى فلاتفسدوا أمركم ولاتتعرّضوا لبأس الله تعالى (قال فرعون ما أريكم إلاماأرى) أى ماأشير عليكم إلا بما استصوبه من قتله (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) وما أعلمكم إلا ماعلمت من الصواب (وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم) فى تكذيبه (مثل يوم الأحزاب) مثل أيام الأمم الماضية أى وقائعهم كما يقال أيام العرب (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود) مثل جزاء ما كانوا عليه دائبا أى دائما فكانوا لايفترون عنه (وما الله يريد ظلما للعباد) أى وما الله يريد أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنب ولايخلى الظالم بغير انتقام لأنه ربهم (وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد) أى يوم ينادى فيه بعضهم بعضا ويتصايحون (يوم تولون) من الموقف (مدبرين) منصرفين عنه الى النار (ما لكم من الله من عاصم) يعصمكم من عذابه (ومن يضلل الله فماله من هاد * ولقد جاءكم يوسف) ابن يعقوب (من قبل بالبينات) وبخهم بأن يوسف جاءهم بالبينات على التوحيد من قبل موسى فشكوا فى أمره وبقى

شكهم الى زمن موسى وهذا قوله (فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) أى وذلك حكمكم من عند أنفسكم من غير برهان (كذلك يضل الله) أى مثل هذا الاضلال يضل الله كل (من هو مسرف) فى عصيانه (مرتاب) فى دينه (الذين يجادلون) بدل من مسرف لأنه بمعنى كل مسرف (فى آيات الله) فى دفعها وابطالها (بغير سلطان) حجة (أتاهم كبر مقتا) أى عظم ذلك الجدال بغضا (عند الله وعند الذين آمنوا كذلك) هكذا (يطبع الله) يختم (على كل قلب متكبر جبار) عن قبول الحق والهدى (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا) بناء مكشوفا عاليا من صرح الشئ اذا ظهر (لعلى أبلغ الأسباب) الطرق ثم بينها فقال (أسباب السموات فأطلع الى إله موسى) أراد أن يبنى له رصدا فى موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التى هى أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها مايدل على ارسال الله إياه ، أوقصد بذلك التمويه على الجهلاء يريهم أن إله السموات الذى يقول به موسى انما هو إله كالآلهة التى هى عبارة عن تماثيل فى مصر يراها الناس الآن بقيت من ذلك الزمان لتضليل عقولهم (وانى لأظنه كاذبا) فى دعوى الرسالة (وكذلك) مثل ذلك التزيين (زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) سبيل الرشاد وموه على الناس بهذه التمويهات (وما كيد فرعون إلا فى تباب) أى خسار (وقال الذى آمن) أى مؤمن آل فرعون (ياقوم اتبعون أهدكم) بالدلالة (سبيل الرشاد) لأن ماعليه فرعون غى (ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) تمتع يسير لسرعة زوالها (وان الآخرة هى دار القرار) لخلودها (من عمل سيئة فلايجزى إلا مثلها) عدلا من الله (ومن عمل صالحا من ذكر أوأنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة (و ياقوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار) كرر النداء إيقاظا لهم من سنة الغفلة ثم أبدل منه قوله (تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به) بربوبيته (علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار) أى من كملت قدرته وغلبت ولا يكون ذلك إلا بعلم وارادة فهو قادر على التعذيب والغفران (لا) رد لما دعاه اليه قومه (جرم أن ماتدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولافى الآخرة) جرم فعل بمعنى حق وأن ومابعدها فاعله أى حق ووجب بطلان دعوته أى ان ماتدعوننى اليه ليس له دعوة الى نفسه قط ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد الى طاعته وما تدعون الى عبادته لايدعو هو الى ذلك ولايدعى الربوبية فكيف تدعوننى الى عبادة مالا يسمع ولايبصر ولاحق له ولايدعو اليه هذا جهالة فلاأتبعها وعطف على فاعل جرم قوله (وأن مردنا الى الله وأن المسرفين) فى الضلالة والطغيان (هم أصحاب النار) ملازموها (فستذكرون) أى فسيذكر بعضكم بعضا عند معاينة العذاب (ما أقول لكم) من النصيحة (وأفوض أمرى الى الله) ليعصمنى من كل سوء (إن الله بصير بالعباد) فيحرسهم ثم فر من بينهم فطلبوه فلم يقدروا وذلك قوله تعالى (فوقاه الله سيآت ما مكروا) شدائد مكرهم (وحاق بآل فرعون) بفرعون وقومه (سوء العذاب) وكأنه قيل ماسوء العذاب فقال هو (النار) ثم استأنف مبينا فقال (يعرضون عليها) وعرضهم عليها إحراقهم بها ، يقال عرض الامام الأسارى على السيف اذا قتلهم وقوله (غدوا وعشيا) أى فى هذين الوقتين يعذبون بالنار وينفس عنهم فيما بين ذلك ويدوم ذلك الى يوم القيامة (ويوم تقوم الساعة) يقال لخزنة جهنم (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أى عذاب جهنم ، قال علماؤنا : وهذه الآية دليل على عذاب القبر وقد ظهر ذلك العلم فى المجامع النفسية وأوضحناه مرارا فى هذا التفسير وشرحناه تكرارا وصارهذا القول حقا فى علم الأرواح ، وفى حديث البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وان كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى اليه يوم القيامة » وهذا المعنى هو الذى أطلت به الأرواح لماسألوها بتفصيل فاقرأه فى كتابى المسمى « الأرواح » ثم قال تعالى (و) اذكر

لقومك يامحمد (إذ يتحاجون) أى يختصمون أى أهل النار (فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا) وهذا تفصيل للمخاصمة (إنا كنا لكم تبعا) أتباعا كخدم جمع خادم (فهل أنتم مغنون) دافعون (عنا نصيبا من النار * قال الذين استكبروا إنا كل فيها) أى كلنا فيها لايغنى أحد عن أحد (إن الله قد حكم بين العباد) قضى بينهم فأدخل قوما الجنة وقوما النار (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما) قدر يوم شيأ (من العذاب * قالوا) ملزمين لهم الحجة (أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) توبيخا لهم (قالوا بلى قالوا فادعوا) فانا لانجترئ عليه إذ لم يؤذن لنا فى ذلك (ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال) ضياع لايجاب والمقصود من مساق هذه القصة أن عادة الله نصر الرسل والمؤمنين فى الدنيا والآخرة ووعده بالنصر حق ، ثم أمر نبيه ﷺ بالصبر وأن يجد فى الاستغفار والتسبيح حتى يأتى له نصر الله وهذا قوله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) كما مر فى هذه القصة (فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) أى فى الدارين ولا ينقض ذلك بما كان لأعدائهم من الغلبة امتحانا أحيانا لأن المدار على العواقب ، والأشهاد جمع شاهد كالملائكة والأنبياء والمؤمنين (يوم لاينفع الظالمين معذرتهم) بدل من يوم الاول (ولهم اللعنة) البعد من الرحمة (ولهم سوء الدار) جهنم (ولقد آتينا موسى الهدى) مايهدى به فى الدين من المعجزات والصحف والشرائع (وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب) التوراة (هدى وذكرى لأولى الألباب * فاصبر) يامحمد على أذاهم (إن وعد الله حق) فى اظهار دينك وفى تأييدك وتأييد كل صادق فى دينك كما أيدت موسى ومن صدق من أتباعه (واستغفر لذنبك) أى وأقبل على أمر دينك وتدارك فرطاتك مثل ترك الأولى الذى لايعد ذنبا عند غيرك لأن حسنات الأبرار سيآت المقربين وتدارك ذلك يكون بالاستغفار ، وهكذا اذا خالجك اهتمام بأمر الأعداء فافزع الى الاستغفار لأن الله تعالى كافيك فى النصر واظهار الأمر وهكذا كل صادق فى وجهته الدينية والمنفعة العامة (وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار) ودم على التسبيح والتحميد لربك ، وذلك مطابقة لما جاء من تسبيح حملة العرش الذين هم فى الملأ الأعلى . فعلى أهل الأرض أن يحذوا حذوهم والله ينصر رسله القائمين بدعوة الخير الذين يحذون حذو الملأ الأعلى . والى هنا تم الكلام على القسم الثالث من السورة وتفسيره اللفظى والحمد لله رب العالمين

﴿ القسم الرابع من السورة ﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَاهُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ

رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَاتِ
اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ
الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ
أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا
أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * أَلَمْ تَرَ
إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ
رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ
فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا
بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ
نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا
عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ

وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (إنّ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) سواء أكانوا هم مشركى مكة أم اليهود الذين قالوا : « لست أنت الذى وعدنا بك بل هو المسيح ابن داود يبلغ سلطانه البرّ والبحر وتسير معه الأنهار » أم غيرهم ، فهؤلاء (إن فى صدورهم إلا كبر) أى إلا تكبر عن الحق فلا يتفكرون ولا يتعلمون ، وإنما يقولون الملك والنبوّة فينا (ماهم ببالغيه) أى ببالغى مقتضاه من الرئاسة والنبوّة (فاستعذ بالله) أى فالتجئ اليه من كيد من يحسدك و يبغى عليك (إنه هو السميع البصير) بعملك وعملهم (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) ذلك لأنهم كانوا يجادلون فى البعث ، فمن قدر على خلق السموات والأرض مع عظمها فهو على خلق الانسان أقدر (ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون) لا يتأمّلون لغفلتهم (وما يستوى الأعمى والبصير) الغافل والمستبصر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء) أى والمحسن والمسىء ، فاذن لابد لهم من حال فيها يظهر التفاوت وذلك بعد البعث ، فهاهنا ﴿ برهانان : البرهان الأوّل ﴾ لجواز البعث الثانى لوجوبه اقناعا (قليلا ما تتذكرون) أى تذكرا قليلا تتذكرون (إن الساعة لآتية لاريب فيها) فى مجيئها لما تقدّم من الدليلين (ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون) لا يصدّقون بها لقصور نظرهم (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) أى اعبدونى أثبكم . وروى انه ﷺ قال وهو على المنبر « الدعاء هو العبادة ثم قرأ — وقال ربكم ادعونى أستجب لكم — » (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) صاغرين (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) لتستريحوا فيه بأن خلقه باردا مظلما ليؤدى الى ضعف الحركات وهدوء الحواس (والنهار مبصرا) يبصر فيه أو به (إن الله لذو فضل على الناس) لا يوازيه فضل (ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون) لجهلهم بالنعم واغفالهم مواقعها وجهلهم بالمنعم (ذلكم) الذى اتصف بتلك الصفات (الله ربكم خالق كل شئ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) فكيف ومن أى وجه تصرفون عن عبادته الى عبادة غيره ! (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون * الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوّركم فأحسن صوركم) بأن خلقكم منتصبى القامة ، أعضاؤكم متناسبة ، متهيئين للعلوم ، وللصناعات ، واكتساب الكمالات (ورزقكم من الطيبات) النافعات واللذائذ (ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) وكل ماسواه مربوب مفتقر اليه (هو الحىّ) المنفرد بالحياة (لا إله إلا هو فادعوه) فاعبدوه (مخلصين له الدين) الطاعة من الشرك والرياء (الحمد لله رب العالمين) . ولما طلب الكفار منه عليه الصلاة والسلام عبادة الأوثان نزل (قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى) بالوحى والقرآن (وأمرت أن أسلم) أن أستقيم وأنقاد (لرب العالمين * هو الذى خلقكم من تراب) بخلق أبيكم آدم منه أو بخلقكم أنتم من تراب انقلبت عناصره بالتغذية نباتا فحيوانا فكان منهما غذاؤكم ومنه كانت أجسامكم فكان منها نطفة فعلقة فمضغة فتخرجون أطفالا وهذا قوله تعالى (ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا) أى يخرج كل واحد منكم طفلا ، وقد وضح هذا المقام فى سوابق هذا التفسير (ثم) يبقيكم (لتبلغوا أشدّكم ثم) يبقيكم (لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل) من قبل الشيخوخة ، أومن قبل بلوغ الرشد (و) يفعل ذلك (لتبلغوا أجلا مسمى) وهو وقت الموت (ولعلكم تعقلون) مافى تقلبكم فى تلك الأدوار من العبر والحجج فان أبلغ الحجج ما أحسّ به الانسان من نفسه (هو الذى يحيى و يميت فاذا قضى أمرا) أى أراده (فانما يقول

له كن فيكون) فلايحتاج فى تكوينه الى عدة أو كلفة (ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون) عن التصديق به ، وانما كرّر ذم المجادلة لأنها هى الغالبة على نوع الانسان تكبرا وعنادا وتقليدا وتمسكا بالعادات (الذين كذبوا بالكتاب) بالقرآن (وبما أرسلنا به رسلنا) من سائر الكتب (فسوف يعلمون ٭ إذ الأغلال فى أعناقهم) أى فسوف يعلمون جزاء تكذيبهم وقت ماتكون الأغلال فى أعناقهم واذ للماضى عبر بها عن المستقبل لتيقنه كقوله ـ أتى أمر الله ـ ثم قال (والسلاسل يسحبون) بها (فى الحميم) فى الماء الحار (ثم فى النار يسجرون) يقال سجر التنور اذا ملأه بالوقود ، ومعنى ذلك انهم فى النار فهى محيطة بهم (ثم قيل لهم) أى تقول لهم الخزنة (أين ما كنتم تشركون ٭ من دون الله) يعنى الأصنام (قالوا ضلوا عنا) غابوا عن عيوننا فلانراهم (بل لم نكن ندعوا من قبل شيأ) أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيأ ، تقول حسبت فلانا شيأ فاذا هو ليس بشئ ، وذلك اذا خبرته فلم تر عنده خيرا (كذلك يضل الله الكافرين) أى كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلالة على الهدى (ذلكم) العذاب الذى نزل بكم (بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) أى بسبب ما كنتم تبطرون وما كنتم تختالون (ادخلوا أبواب جهنم) السبعة (خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) عن الايمان جهنم ، ثم خاطب النبى ﷺ قائلا (فاصبر إن وعد الله حق) بنصرك على الأعداء ، أقول لاجرم أن ذلك النصر يمتد الى كل صادق فى نصر دينه (فاما نرينك بعض الذى نعدهم) من العذاب فى حياتك كالقتل يوم بدر فذاك (أو) أن (نتوفينك) قبل ذلك (فالينا يرجعون) يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) الى أممهم (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) ولم نذكر لك حال الباقين منهم ، ومامنهم من أحد إلا أعطى آيات ومعجزات وقد جادله قومه وكذبوه فيها وماجرى عليهم يقارب ماجرى عليك كما جاء فى مثل سليمان عليه السلام «ما تحت الشمس من جديد» وكما يقول العلماء «التاريخ يعيد نفسه» وقد صبروا ونصروا فاصبر وستنصر ، يقال ان عدد الأنبياء ١٢٤ ألف نبى والذين ذكرت قصصهم أشخاص معدودة (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله) وهل المعجزات إلا عطايا قسمت بينهم كسائر العطايا والمنح ليس لهم فى هبتها مدخل (فاذا جاء أمر الله) بالعذاب فى الدنيا والآخرة (قضى بالحق) باسعاد الحق واشقاء المبطل (وخسر هنالك المبطلون) المعاندون باقتراح الآيات . ولما كانت الآيات المقترحات ليس لها إلا نتائج ظاهرية كما شرح فى هذا التفسير ، وانما الأمر يرجع الى النظر فى العجائب أردفه بقوله (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون) فان من جنسها مايؤكل كالغنم ، ومنها مايؤكل ويركب وهو الابل (ولكم فيها منافع) كالألبان والجلود والأوبار (ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم) أى تحمل أثقالكم من بلد الى بلد فى أسفاركم وحاجاتكم (وعليها وعلى الفلك تحملون) أى وعلى الابل فى البر وعلى السفن فى البحر (ويريكم آياته) دلائل قدرته كما قال فى أول السورة ـ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ـ وسيأتى قريبا لماذا قال هنا ويريكم آياته بعد ذكر الأنعام (فأى آيات الله تنكرون) فتقولون انها ليست من عند الله وهذه هى الدلائل القائمة فى أنواع المخلوقات من الحيوانات ، ثم أردفها بدلائل آثار الأمم الظالمة وكيف كان التكذيب بالآيات الكونية سببا فى خراب الأمم فقال (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض) قصورا ومصانع (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى لم ينفعهم كسبهم (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا) رضوا (بما عندهم من العلم) كأن يقولوا لن نبعث ولن نعذب وكأن يقولوا نحن نحسن علوم السياسة والزراعة والصناعة والامارة ونظام المدن فهل بعد هذا علم ؟ (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم (فلما رأوا بأسنا) شدة عذابنا (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) يعنون الأصنام (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما

رأوا بأسنا) أى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم (سنة الله التى قد خلت فى عباده) أى سن الله ذلك سنة ماضية فى العباد وهذا مصدر مؤكد (وخسر هنالك) أى وقت رؤيتهم البأس فهو اسم مكان استعير للزمان (الكافرون) انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة

---

١ - ﴿ لطيفة فى قوله تعالى - ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون - ﴾

ذكر الله الأنعام وأعقبها بذكرانه يرينا الآيات ، وقد جاء فى أول السورة - هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب -

تبين فى سور كثيرة فى هذا التفسير أن الرزق والحكمة متلازمان ، أنزل الله الأنعام والزرع لرزقنا الجسمى والعقلى ، كرر الله ذلك فى القرآن ليبين لنا أن هذه الحياة لم تكن لهوا ولعبا ، اننا مخلوقون فى عالم كله جمال وكمال وحكمة وعلم ، فالويل لمن استمرأ المرعى وغفل عن نظامه ، إن الأمر جد فلينتهز المسلمون الفرصة أيام حياتهم ، ولينتهلوا من تلك النعم رزقا وعلما ، ومن لم يوجهوا عنايتهم الى اقتحام الأخطار وتجشم المشاق ودرس هذه العوالم وبحثها لاينالون دنيا بها يتمتعون ، ولا آخرة بها يرقون ، فليشمر المسلمون عن ساعد جدهم - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين -

ثم ارجع الى هذا المقام فى ﴿ سورة النحل ﴾ تأمل هناك كيف ذكر الأنعام وانه خلقها لنا لنستدفئ بأصوافها وأوبارها وأشعارها ، وننتفع بلحمها وشحمها ولبنها ، وانها لنا جمال فى غدوها ورواحها ، وانها تحمل أثقالنا الى بلاد نائية ، وكيف ذكر الخيل والبغال والحمير ، وانها للركوب والزينة ، ثم قال - ويخلق مالاتعلمون - . فانظر كيف يقول هناك - ويخلق مالا تعلمون - عقب ماذكر ويقول هنا - ويريكم آياته - ويقول فى ﴿ سورة البقرة ﴾ بعد الكلام على ذبحها - كذلك يحيى الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون -

انظر : لماذا يقول هناك - ويريكم آياته - ويقول فى النحل - ويخلق مالاتعلمون - ويقول هنا - ويريكم آياته - الفعل مضارع فى الجميع ، واقد علمت الاجابة فى ﴿ سورة البقرة ﴾ أن الأرواح لها وجود وهى تكلم الناس فارجع اليه ، فهذا رمز لما حصل فعلا فى هذا الزمان من مخاطبة الأرواح ، وكذلك مر بك فى ﴿ سورة النحل ﴾ كيف كان ذلك إخبارا بما حصل فعلا فى أيامنا من الكهرباء والآلات المحركات بالبخار فان الكهرباء أصبحت تعطى الناس ماتعطيه الأنعام من حرث ونقل فى البر والبحر ، فهذا معنى قوله هناك - ويخلق مالاتعلمون - وأشار له هنا بقوله - ويريكم آياته - أى التى بها تنالون ماتلتموه من الأنعام النافعة لكم فى حياتكم (انظر هذا المقام واضحا فى سورة النحل وتفطن)

* * *

لقد تبين لك أن (حم) تشير الى الحمد ، وأن الحمد مرجعه العلم كما شرح فى هذا التفسير مرارا ، وآية ذلك انه قد تكرر الحمد هنا ، فبينما تراه فى آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ اذا هو فى حيز الكلام على حملة العرش يسبحون بحمد ربهم ، ثم فى قوله تعالى آمرا لرسوله ﷺ واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار . وأخيرا فى الكلام على عجائب الحكمة من جعل الأرض قرارا والسماء بناء وتصويرنا فى أحسن صورة ورزقنا من الطيبات إذ ختم هذا المقال بقوله « الحمد لله رب العالمين »

﴿ تذييل التفسير فى سورة حم غافر ﴾

والكلام فيه على « مقصدين : المقصد الأول » فى قوله تعالى - وصوركم فأحسن صوركم - وقوله تعالى - الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها - الخ « المقصد الثانى » فى قوله تعالى - النار يعرضون عليها غدوا وعشيا -

ولنخص الكلام على التنفس فنقول :

﴿ التنفس الرئوى فى الانسان والحيوان ﴾

التنفس انما يكون فى الحيوان برئات هوائيـة مثـل رئة الانسان . والرئة تكون فى الحيوانات الرخوة كهيئة شبكة العنكبوت ، وأرقى من ذلك فى الضفادع فهى فيها وعاآن ، وفى الحيات كيس مستطيل فيه خلايا كثيرة ، وفى ذوات الثدى والطيور عضو اسفنجى البناء كالبقر والجاموس ، وللطيور رئة تناسب حالها فى طيرانه

﴿ صفة الرئة العامّة ﴾

جسمان اسفنجيان موضوعان فى الصدر ، وظهر كل منهما متصل بباطن الأضلاع و يتصلان بالفم بقصبة غضروفية يدخل فيها الهواء ، وهذه القصبة متى وصلت الى الرئة تتحوّل الى شعبتين كل شعبة تدخـل رئة تصير شعبا كثيرة منبثة فى الرئة اليمنى والرئة اليسرى ، و يصـير كل فرع من الفرعين فى كل رئة من الرئتين مشبها بكيس وهذا الكيس متصـل بالهواء الخارجى بأنبوبة صفاقية تخترق الرئة حتى تخرج منها فى أعلى الصدر ، و باجتماع الأنبوبتين تكون القصبة الغضروفية . والدم اذا عاد من أطراف الجسد بواسطة الأوردة يصب فى الأذين الأيمن من القلب و يسير منه الى البطين الأيمن و يخرج من البطين الأيمن المذكور بشريان كبير يقال له الشريان الرئوى وهو يسير الى الرئتين و يتفرّع فيهما كما تتفرّع شعب القصـبة فتنتهى الشعب بالأنابيب الهوائية وتنتهى الشرايين بالشبكة الشعرية . فاذا دخل الهواء فى المسالك الهوائية وانتهى الى الخلايا الهوائية أصبح مجاورا للدم فى الأوعية الشعرية . فاذن يمتص الدم الاكسوجين من الهواء و ينفث فيه حامض الكربونيك بقوّة حيوية لم تدركها عقول الناس . وحينئذ يدخـل الدم فى البطين الأيسر والأذين الأيسر و يتفرّع فى سائر الجسم اهـ

لعلك تقول نحن الآن فى تفسير القرآن والقرآن سهل . وهـذه الألفاظ التى سمعناها الآن لانفهم . فما هو البطين وماهو الأذين وما معنى هذا المقام ؟ أقول لك : إن هذا المقام مقام العجائب والحكمة . انظر الى القلب . انه فيه أربع تجاويف كأنها أربع غرف غرفتان فى أعلى وهما صغيرتان وغرفتان فى أسفل وهما كبيرتان . والصغريان تسمى كل منهما (أذين) أعنى أذن صغيرة تشبيها لها بالأذن . والكبريان يقال لكل منهما بطين أى انها كالبطن والبطن أكبر من الأذن . هكذا هاتان أكبر مما فوقهما

ولعلك تقول قد فهمت . إذن أقول لك ان لنا حنجرة وهى القصبة الهوائية . وهـذه القصبة تتفرّع فرعين كل فرع يدخـل رئة من الرئتين كما تقدّم . والفروع المتفرّعة من الفرعين تكون منتهية بما يشـبه الكيس يدخل الهواء فيه من الفم . وهذا الهواء الآتى من الفم معدّ لتطهير الدم والدم يأتى من أطراف الجسم فى العروق التى يقال لها الأوردة لأن الأوردة تحمل الدم الذى يحتاج الى الاصلاح وهو الدم الوريدى والشرايين تحمل الدم الشريانى أى الذى حصل اصلاحه بالهواء كما سترى . فهذا الدم الذى جاء من طريق الأوردة يصل الى الاذين الأيمن . وهناك فتحة بين الاذين الأيمن والبطين الأيمن تفتح وتقفل والقلب أشبه بالآلة الماصـة الكابسة فينزل الدم من الاذين الأيمن الى البطين الأيمن تحته و يخرج من البطين الأيمن فى الشريان الرئوى وهو يمتد الى الرئة و يتفرّع فيها فروعا شعرية دقيقة . وقد علمت مما مرّ أن القصبة الهوائية لها فروع منبثة فيها هواء . فههنا تجاورت الفروع الهوائيـة الآتية من الفم والفروع الشعرية الآتية من الشريان الممتدّ من البطين الأيمن . وهناك يتلاقى الدم والهواء و يحصل التفاعل بينهما

فانظر كيف جرى الدم وسار فى مسالك فى الجسم ثم جرى الى الاذين الأيمن والبطين والشريان الرئوى

وانتهى الى الهواء الآتى من الخارج . وكيف استمرّ هذا العمل ليلا ونهارا والناس لايعلمون بل ربما يعيش الانسان ويموت وهو لايدرى عن هذا ولاعن غيره شيأ ، ومتى طهر الدم سار فى كل من الاذين الأيسر والبطين الأيسر وخرج الى الجسم فى الأورطى وهو يتفرّع الى فرعين فرع يمتدّ الى أعلى الجسم وفرع الى أسفله ويتفرّع فروعا لاتحصى فى سائر الجسد لتغذيته وهكذا ، ومتى اتصلت بالحويصلات الجسمية وتغذت بها رجعت عكارة الدم المتحدة بالمادّة الفحمية وهو الكربون الى القلب بطريق الأوردة وهكذا ، وانما أطلت لك فى هذا المقام لأن المدار ليس على كثرة العلم بل المدار على الفهم والتعقل وهذا مقام دقيق يحتاج الى البسط والشرح

الدم جاء من الأغذية الداخلة من الفم الى المرىء الى المعدة الى الامعاء وخلاصته تذهب فى الأوعية الشعرية وتدخل الكبد ويطبخ هناك وتخرج منه الصفراء ويخلص منه السوداء والماء ويتجه كل الى مقرّه فالأولى فى المرة الصفراء والثانية فى الطحال والثالثة تذهب الى الكلية ويبقى الدم فيدخل مع الدم الشريانى فى الدورة ، فهذا الدم الآتى من الغذاء محتاج الى الهواء لتجديد مادّة الحياة فيه فهو للدم أشبه بالماء بالنسبة لظاهر الجسم من حيث ازالة المضار فكما أن الماء نشربه ونتطهر به هكذا الدم يتطهر بالهواء ويأخذ منه مادّة الحياة كلما ضعفت . هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين

---

٢ ـ ﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ النار يعرضون عليها غدوّا وعشيا ـ ﴾

قد ذكرت لك أن علماءنا رحمهم الله قالوا « إن هذه الآية تدل على عذاب القبر » واذن لابدّ أن أذكر لك شذرات من كتاب الأرواح الذى ألفته لهذا الغرض وانى أحمد الله عزّوجل إذ جعل بينى وبين تفسير القرآن حائلا مدة نحو (١٣) سنة مع انى كنت أدرسه فى مدرسة دار العلوم وكانت الفرصة سانحة لتتميمه فأراد الله أن يسلط رجال السياسة علىّ وأنا فى (دار العلوم) فوشوا بى وقالوا للانجليز انه يعلم تلاميذه الوطنية فنقلت من تعليم طلبة دار العلوم الذين يفهمون الى تعليم تلاميذ الثانوى اللغة العربية لاغير وانقطع التفسير وبقى ما كتبته محفوظا عندى حتى انتهت الحرب العظمى ودارت الأيام وانتهيت من أعمال الحكومة وفى أثناء هذه السنين اطلعت على علم الأرواح وألفت فيه الكتاب المذكور ، فلولا نعمة الله التى كانت بحسب ظاهرها نقمة وهى تأخير التفسير مع مسيس الحاجة اليه وشغف الطلبة والعارفين به ما أمكن شرح هذا المقام ولا اظهار ما أبرزه الله فى العالم الانسانى من الخبايا الروحية التى تنطق بمصداق القرآن ، فكم لله من نعمة اختبأت فى ظواهر النقم ، فلأشرع فى نقل شذرات من ذلك الكتاب الذى ألفته لهذا المعنى ، فقد جاء فى مقدمة ذلك الكتاب ما يأتى :

ألافليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن المحافل الروحية والمجامع النفسية فى البلاد الاوروبية قد نطقت فيها الأرواح على مرآى ومسمع من مجالس شوراهم والملأ من قومهم ومجالس الشيوخ والأعيان فى أمريكا وغيرها كما سترونه مفصلا ومبينا أيما تبيان ، لقد شرحت الأرواح ماشاهدته فى عالم البرزخ من نعيم وبؤس وهناء وعناء وخاطب الأموات الأحياء والآباء الأبناء فأنصت الجمع وكفكف الدمع وجاءت البشرى بالحياة الأخرى وقال الأموات للأقارب والاخوان « وان الدار الآخرة لهى الحيوان » فصدق الله وعده ونصر عبده وأعزّ جنده ، وجاء الحق وزهق الباطل ، وفرح المسؤل وقنع السائل

فهل نقف نحن معاشر المسلمين أمام هذا الحادث صامتين ، إنه لعيب فاضح وخطأ واضح وشين مبين ، نحن أحقّ بهذا العلم من الغربيين ، إن الأمر جلل يعوزه كتب تؤلف ومجامع تحتشد وعلماء تنتقد ، أنا لست فى كتابى هذا أثبت العالم الروحى فحسب ، فلقد سبقنى اليه من نشروا الفكرة وأذاعوا أمره بين اخوانى المصريين ، انما الذى أدهشنى ماعثرت عليه من المحاورات بين الأرواح الناطقة من عالم الغيب وبين الأحياء فى المجامع العلمية . وكيف كانت آراؤها وتعاليمها تذكرنى كثيرا بما طالعته فى أمهات الكتب الاسلامية وماجاء

عن السادة الصوفية . أليس من واجبي أن أنشر تلك المطابقات العجيبة بين أئمتنا الاسلامية . انه لحرام على أن أغمض العين ولا أنتهز الفرصة فأذكر كل حادثة من حوادث الجانب الروحية بما يطابقها من كلام أئمتنا الاسلامية مبينا الكتاب والصفحة واسم المؤلف

سيعجب المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها اذا جاءهم هذا النبأ الذى عنه يتساءلون من ذا الذى كان يدور بخلده أو يهجس بخاطره أن ما جاء من نعيم القبر وعذابه فى ديننا يعرض اليوم عرضا على المجامع الأوربية النفسية كمثل الحاكم الالمانى بيلون الذى مات وعمره ٧٩ سنه وقد استغاثت روحه من اضطهاد يتيمين له وحققوا فوجدوا ثبوت غدره باليتامى فى دفاتر الحكومة فى تلك الأقطار

أم من ذا الذى يسمع بحادث مدينة ونبرج اذ تجلت روح محاسب ارتكبت الخيانة فطلب أن تساعده أرملته اذ دلها على المكان الذى أخفيت فيه تلك الدفاتر ففعلت ما طلب وخف عنه بعض ما يجد من العذاب المهين

بل من ذا الذى يسمع بحادثة مدينة انجولبم ولا يكون من الموقنين وهى من حوادث لا عداد لها فى المجامع النفسية الروحية . ذلك انه مات غنى بخيل فأحضرت الجمعية روحه فقال هاتوا لى ذهبى ومالى لم أخذتموه فى حديث طويل ستقرؤه مفصلا فى الكتاب

أنا لست فى كتاب الأرواح أسرد الحوادث المنقولة سبهللا ولكنى أجد ذلك يطابق ما نص عليه الغزالى وغيره بطريق الكشف وكيف قال ان عذاب القبر على هذا الأسلوب وستراه مفصلا فى الكتاب

من وقف على أسرار دين الاسلام فى أمهات الكتب العلمية عرف ما للذنوب القلبية من الحسد والكبرياء والطمع والجشع من الأثر فى العذاب وان العلاقة متينة ثابتة مؤكدة بينهما عند الممات . وكذلك ليس للمرء من كمال الا بالأعمال العظيمة لبنى الانسان . لما قرأت محادثات الأرواح التى ستراها ألفيتها جاءت مصدقة لما قرأته فى كل كتاب فأبنت المطابقة فى هذا الكتاب . وفى الحديث : من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة أفلا يجب نشر هذا التفصيل لاخوانى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ان ذلك يأمر به الدين

نعم لقد بزغ بزوغ الشمس للورى قوله تعالى ـ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ـ وثبت بالبراهين و يقين الصدق . قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ

وجاء فى صفحة ٣٣ منه وما بعدها ما يأتى :

قال العلامة زين الدين محمد المدعو عبد الرءوف تاج العارفين ابن زين العابدين الحداوى القاهرى المعروف بالمناوى المولود سنة ٩٥٢ المتوفى بالقاهرة صبح يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر الخير سنة ١٠٣١ على قصيدة النفس لابن سينا صفحة ٣٢ ناقلا عن الغزالى ما يأتى :

والعالم من محرك الفلك التاسع من الصفحة التى تلى جهة فوق الى التى تلى جهة أقدامنا مملوء جنودا وملائكة وما يعلم جنود ربك الا هو الى أن قال ولا ينبغى أن ينكر منكر ذلك وقد شهد شعاع الشمس وروحانيته وبساطته حتى ان قرصها يكون بالغرب وشعاعها بالشرق فما هو الا أن يغيب خلف جبل فينقطع الشعاع الذى بالمشرق بلا زمان فلو كان جسما ما انقطع فى عدة سنين واذا أخذت مرآة وعكست بها الشعاع انعكس الى حيث شئت ثم تعطفه لا فى زمان . وجوهر الشعاع بالاضافة الى جوهر النفس كثيف فليس فى العالم موضع الا وهو معمور بما لا يعلمه الا الله ولذلك أمر الشارع بالستر فى الخلوة وعند الجماع والعالم مشحون بالأرواح اه

(ثانيا) قال المناوى نفسه فى الكتاب المذكور نقلا عن الغزالى رحمه الله صفحة ٨٠ ما ملخصه أنه قال قد ظهر بالمشاهدة ظهورا أوضح من العيان أن أصناف عذاب القبر ثلاثة أقسام فرقة المشتهيات وخزى خجل الفاضحات وحسرة فوت المحبوبات

وهذه

وهذه أنواع روحانية تتعاقب على الميت الى أن ينتهي الى النار الجسمانية . ففرقة المشتهيات وهو أولها وصورته المستعارة من عالم الحس والتخيل التنين الذي وصفه الشرع وعدد رءوسه وهي بقدر الشهوات ورذائل الصفات الى أن قال . والثانى خزى خجل الفاضحات فاذا تطاول الزمن بعد الموت وقد احترق الفؤاد بفراقه ما تشتهيه النفس من الأهل والأحباب والمال تخبو نار ذلك الفراق بطول الزمن فتبدو إذ ذاك نار الخزى فى القلب بما ارتكبت من الذنوب والآثام ويرى نفسه فى خزى وفضيحة أمام خالقه والعقلاء فاذا طال الزمن ألف الفضيحة ثم تظهر آخر الأمر نار حسرة فوت المحبوبات من الأعمال العظيمة والعلوم اليقينية التى يرى غيره بها ارتقى وذلك آخر ما يلقى من العذاب قبل ما يلج النار فى الآخرة هذا ملخص ما ذكره المناوى نقلا عن الغزالى صفحة ٨٠ و٨١ ومما قال فيها بالحرف

ولا تظن أن الله يغضب عليك انتقاما ثم تخدع نفسك برجاء العفو فتقول لم يعذبني ولم تضره معصيتى . إذ يلزم العذاب من المعصية كما يلزم الموت من السم . وهذه الحسرة دائمة لا تزول أبدا انتهى المقصود منه بالحرف الواحد

(ثالثا) : قال فى إخوان الصفاء الجزء الثالث صفحة ٣٦٢

واعلم ان النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة فاذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هى شياطين بالقوة فاذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها الى الفعل كما قال تعالى ـ شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ـ فشياطين الانس هى النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد وشياطين الجن هى النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجبة عن الأبصار وقال قبل ذلك ما ملخصه . ان هذه النفوس الشريرة لما فارقت الجسد وكانت معلقة بالدنيا وسلبت الحواس وآلات اللذات حزنت وتمنت لو رجعت للذات كرة أخرى فحينئذ تصبح النفس كأنها لا حية ولا ميتة كما قال تعالى لا يموت فيها ولا يحيا وتقول . ياليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل . ياليتنى كنت ترابا . هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا . وقال تعالى ـ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا وانهم لكاذبون ـ لما ركب فيهم من الأخلاق الشائنة وتبقى تلك النفوس متعلقة بأبناء جنسها المتجسدة توسوس لهم وهكذا شأن الغافلين انتهى ملخصا من اخوان الصفاء

ثم جاء فى صحفة ٣٨ ومابعدها ما يأتى

قال شير محمد عندى سؤال آخر هام لا طاقة لى على كتمه ولا مندوحة لى من فهمه وذلك أنى قرأت أحاديث كثيرة فى أمر عذاب القبر ونعيمه وانها أمور جسمية لا معنوية وكيف يقنع المسلمون بقولك هذا وكأنى بمن يسمع كلامك يقول هذا كلام فلاسفة خارج عن الدين وما تقول فى قوله ﷺ « المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا ويضىء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيماذا أنزلت « فان له معيشة ضنكا » قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسع وتسعون حية لكل حية تسعة رءوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه الى يوم يبعثون

قلت ياشير محمد ان لنا فى الجواب عليه وجوها ثلاثة ذكرها الامام الغزالى فلنسر على منهجه ولننسج على منواله

(الأوّل) أننا نبقى الحيات والعقارب والتنانين على حالها بلا تأويل ونسلم أنها موجودة وجودا غير ما نعهده . ولنا فى ذلك نظائر . ألم تر أن النبى ﷺ كان ينزل عليه جبريل والناس لا يرونه وهم به مصدّقون . لما رأوا من الآثار والعلم والحكمة وقد أجمع رجال الكشف من المسلمين أنهم يشاهدون صورا ويعرفون أمورا يجهلها سواهم وأنت تعلم أن الوسطاء المنوّمين بالفتح يشاهدون صورا وأشباحا ويخبرون بأمور . والناس حولهم لا يدركون منها شيئا . أفليس الميت أوفر حرية وأكثر انطلاقا وأوسع نطاقا . فاذا لم يسعك أن تتصور هذا وشق

عليك فاستمع لما ألقيه اليك فى

الوجه الثانى . ذلك اننا نعتبر بحال النائم فاننا نرى نائمين فى فراش واحد وقد قام أحدهما مذعورا كئيبا وجلا خائفا مما شاهد وقت نومه . وقال الثانى قد كنت فى حديقة غناء مع من أحب وهو مستبشر فرح مما لاقى من المسرات والنعيم فلنتأمل الميت الذى صار أ كثر حرية وأحد نظرا من النائم فتكون الحية والتنين والعقرب موجودة بالنسبة له والحاضرون لا يعلمون . فاذا عسر عليك هذا وأبيت أن تقبل فاستمع لما أقول فى

الوجه الثالث . بأن نقول ان الحيات ليست مؤذية بذاتها وان المؤذى هو السم الذى نفثته من نابها فيدور مع الدم فيكون الألم الشديد بل نفس السم ليس بمؤذ . ألا ترى الى ماحققه الأطباء ان سم الحية ان شرب ولا جرح فى الفم ولا فى مجرى الطعام الى المعدة صار غذاء لاداء قاتلا . وانما يؤذى و يضر الجسم اذا دار مع الدم فى العروق والشرايين . فهنالك الأذى فالحية ليست بمؤذية ولا السم وانما هو الأثر الناجم من السم الملفوظ من الحية فكانت النتيجة أن اللذات والآلام كيفيات قد تصل الى الحس بطريق الأعصاب . والمدار على الأثر لا المؤثر . والآلام قسمان قسم جسمى وقسم روحى . فالجسمى اما من داخل و إما من خارج . والذى من الخارج إما من الحواس الخمس . كالصوت الكريه فى السمع . والمنظر البشع والمحزن أو المخيف فى البصر . والروائح الكريهة فى الشم والمر فى الذوق . والذى من داخل هى الأمراض وهى ترجع إلى انحراف المزاج عن اعتدال الطبائع الأربع وهى الصفراء والسوداء والدم والبلغم . ومن هذه تنشأ سائر الأمراض المتكاثرة

أما القسم الروحى فهو راجع الى الغضب والشهوة والجهل وعدم العدل . ولقد تفرع على هذه فروع كثيرة كتفرع رؤس الحيات وعدد التنانين والحيات . فاذا لم يتزن الغضب بالشجاعة والعلم ولم تخفظ الشهوة بالعفة . ولم يوصف العقل بالحكمة . ولم يكن اعتدال بين هذه القوى . كانت الآلام النفسية الموجعة التى تبقى فى النفس بعد الموت . وهذا انحراف فى الأخلاق كما أن المرض انحراف فى المزاج . فاذا غلب الدم حدثت الأمراض الناجمة عنه . كما أن الغضب فى الأخلاق يحدث عنه أمثال الاحقاد والضغائن واذا غلبت الشهوة حدثت أمور . كالعشق المنحرف عن الجادة ومتى فارق المحب ما أحبه جزع . وهناك موازنة مابين الآلام الجسمية بقسميها ومابين الآلام النفسية . ولنضرب لك مثلا يوضح المقام فنقول لنتخذ حاسة اللمس مثلا فان الآلام الواصلة الى الجسم منها تكون بالضرب أو بالجرح مثلا . ونقابلها بالآلام الروحية لفقد المحبوب من مال وعقار

فلو أن رجلا قيل له أعطنى عقارك وضياعك وضرب ضربا موجعا فانه لا يترك ماملك ولا يدع ما أحب لما يحس من الألم الناجم من فراق المحبوب وهو مايملكه وهو أشد من الألم الناجم من الضرب المؤلم بطريق اللمس . الا أنه لا يزال يوازن بين الألمين و يتحمل الأمرين و يرضى بتمزيق جلده . حتى اذا أصبح ألم الجسم لا يطاق . وكادت تلتف الساق بالساق . هنالك يرى الألم الناجم من الضرب الجسمى أقوى من ألم فراق المحبوب فيتركه على قاعدة « اذا اجتمعت علتان يتبع الأخف »

(قال الامام الغزالى . والصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات فى النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذيا يضاهى انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق فانه كان لذيذا فطرأت عليه حال صار اللذيذ بنفسه مؤلما . حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب مايتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه أحد أنواع عذاب الميت . فانه قد سلط العشق فى الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ منه جميع ذلك فى حياته من لا يريد استرجاعه . فماذا ترى يكون حاله . أليس يعظم شقاؤه و يشتد عذابه و يقول ياليتنى لم يكن لى مال قط ولا جاه فكنت لا أتأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ماحال من كان له واحد ☆ غيب عنه ذلك الواحد

فما

فما حال من لا يفرح الا بالدنيا فتؤخذ منه وتسلم الى أعدائه ثم يضاف الى ذلك الحسرة على مافاته من نعيم الآخرة انتهى المقصود منه

وجاء فى صحيفة ٤٤ مايأتى

﴿ المجلس الرابع ﴾

(فى الروح التى أخبرت بموتها وزمنه وفى قلة علم النوع الانسانى ومقارنات شتى)

بين أقوال الأرواح و بين القرآن والحديث الشريف

فلما أن جاء الشيخ شبر محمد والتأم المجلس شرع يطالبنى بما وعدته فى المجلس السابق فقلت حبا وكرامة أما القصة الأولى فهى ماقاله فى الكتاب المذكور فى صفحة ٦٣ ونصه بالحرف الواحد روى المعلم جاردى نقلا عن أحد الجرائد الروحانية الألمانية الحادث الآتى :

فى اليوم الثالث من شهر آب ١٨٨٢ قعد ثلاثة أشخاص من مدينة . ح . حول طاوله لمكالمتها . فلما استقرت بهم الحال . أخذت المائدة تتحرك اشارة الى رغبتها فى التكلم . فدار بينهم الحديث الآتى :

(س) من الطارق . ج : خياط مقتول

(س) كيف قتلت . ج : مرّ علىّ قطار فداسنى

(س) متى كان ذلك . ج : منذ ثلاث سنين

(س) وأين تم ذلك . ج : فى أونتر بارمن

(س) أى يوم . ج : فى ٢٩ آب سنة ١٨٧٩

(س) ماأسمك . ج : سيجوار ليكو بيسك

(س) أين كان مقرك . ج : فى بارمن

(س) هل والدك فى قيد الحياة . ج : نعم

(س) أكنت معلما أم صانعا . ج : كنت أجير صانع

(س) فى أىّ سنّ قتلت ج : فى السابعة عشرة من عمرى

(س) هل تستحسن أن نبلغ ذلك لوالديك . ج : كلا

(س) لماذا . ج : لأنهما لا يعتقدان الحياة بعد الموت

(س) ربما هذا يقنعهما . ج : لاينو بكم من ذلك الا السخرية

(س) كيف تمّ حادث قتلك .

(ج) كنت ذاهبا لزيارة أنسباء لى فى أونتر بارمن واذ كنت ماشيا فى طريق لم ألمح لضعف بصرى قدوم القطار فمرّ علىّ وداسنى

(س) بماذا تشتغل الآن . ج : لا أستطيع وصف ذلك .

فعجب الحضور من هذه الرواية وقصدوا أن يتحققوا صحتها فكتب أحدهم فى اليوم الثانى الى مديرية بارمن ليستقصى الخبر فورد اليه الجواب من رئيس الشحنة فى ١٧ آب سنة ١٨٨٢ وهاك نصه : اجابة لطلبكم رقم ٨ الجارى أتشرف باعلامكم أننا على اثر مطالعتنا سجلات المديرية وجدنا أن الصانع الخياط المدعو سيجوار ليكو بيسك وله من العمر سبع عشرة سنة بينما كان مارًّا فى طريق اونتر بارمن ليلة ٢٦ آب سنة ١٨٧٩ الساعه ١١ والدقيقة ١٤ مر من فوقه قطار السكة الحديديه فقتله ونسبت قضيته الى تجول القتيل جهلا منه فى طريق القطار . اهـ

اللطائف العامة لأقسام السورة كلها (١)

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى قوله تعالى ـ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ـ الى قوله ـ فانما يقول له كن فيكون ـ مع قوله ـ الله الذى جعل لكم الأنعام ـ الى قوله ـ فأىّ آيات الله تنكرون ـ مع ملاحظة آية ـ خلقكم من نفس واحدة ـ التى فى سورة الزمر الى قوله هناك ـ فينبئكم بما كنتم تعملون ـ وقوله فيها ـ خلق السموات والأرض بالحق ـ الى ـ من الله العزيز الحكيم ـ)

فهمنا خالقنا وخلق أنعامنا ، وانه حكيم ، وانه خلق هذه العوالم بالحق ، وانه يرضى لنا شكر النعمة ولا يرضى لنا كفرها ، ولاجرم أن المجهول لاشكر عليه ، إذن المعلوم هو الذى يكون عليه الشكر ، وعلى قدر جهل الانسان بالنعمة يكون كفرها وعلى مقدار معرفة حقائقها والعمل بها يكون شكرها ، إذن المسلمون اذا جهلوا الأنعام ونحوها فهم كافرون بنعمتها والله لايرضى لنا ذلك الكفر ، وأنت عليم أيها الذكىّ أن شكر النعمة تقدّم تفسيره تكرارا فى هذا التفسير ، ذلك ان شكرها صرفها فيما خلقت له وذلك لا يكون إلا بعد المعرفة فمن عرف نعمة المحسن أحبه وأثنى عليه بلسانه وذلك هو الحمد وأطاعه بتسخير أعضائه كلها له ، إذن هنا قلب عرف فأحبّ ولسان أثنى وجوارح تسخر فى مصالح المشكور والمشكور هنا هو الله والله غنىّ ، إذن يجعل الانسان كل مواهبه مسخرة لعباد الله ، هذا هو شكر النعمة الذى أساسه المعرفة ، والمسلمون اليوم فى أقطار الأرض محروم أكثرهم من معرفة هذه العوالم ، والحرمان من المعرفة يبعث على التقصير فى الشكر فوجب علىّ إذن فى هذا المقام أن أصطفى نبذا جيلة مفيدة للمسلمين كنموذج لمعرفة علم الحيوان ، ولأخصّ من غوامض العلم ماتقع أعين الناس عليها وهم عنها غافلون

لما وصلت الى هذا المقام حضر صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : ماذا تريد أن تقول فى علم الحيوان ؟ ألم تكتب عنه مقدارا كبيرا فى ﴿ سورة النحل ﴾ عند آية ـ وان لكم فى الأنعام لعبرة ـ الخ وفى ﴿ سورة طه ﴾ نبذا جيلة مصوّرة بالصور الشمسية البديعة وهكذا فى آخر ﴿ سورة الحج ﴾ إذ بينت هناك كيف تقسم الحيوانات الى فقرية وغير فقرية ، وجعلت الذبابة المذكورة فى الآية محور التقسيم ناقلا عن العالم الفرنسى الذى كان يحدّث تلاميذه فى أمر الذبابة وانها عند عصرها لايرى لها عظم ولادم والحصان عند تهشيمة يرى له دم وعظم ، وهنالك انقسمت المملكة الى هذين القسمين وهكذا . ثم إنك فى ﴿ سورة النور ﴾ أطلت فى هذا المقام ورسمت الصور الحيوانية والنباتية المقسمة على المناطق الأرضية كلها . وهناك إيضاح تام عند قوله تعالى ـ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ـ الخ وهكذا فى ﴿ سورة النمل ﴾ شرحت أحوال النمل شرحا وافيا كما شرحت أحوال الحشرة المسماة بالأرضة وأبنت عجائبها البديعة فى ﴿ سورة سبأ ﴾ عند آية ـ مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ـ وفى ﴿ سورة الروم ﴾ رسمت صور الحشرات والطيور والثعابين المختلفات الألوان لتبيان أن الألوان التى اتصفت بها هذه الحيوانات كانت سببا فى حفظ ماشا كلها بهذه الألوان من الحيوانات الأخرى التى خلت من سلاح المقاومة والحفظ وهذا كما اتضح فى أوّل الروم فى آية ـ واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ـ واتضح أيضا فى ﴿ سورة المؤمنين ﴾ فى أوّلها عند قوله تعالى ـ وما كنا عن الخلق غافلين ـ فهنالك حيوانات كثيرة مرسومة حفظت بما منحت من الهيئات الخاصة

(١) هذه اللطائف لم تسطر إلا عند طبع هذه السورة ولم يكن لها وجود عند التأليف : المؤلف

والالوان

والألوان المناسبة لحالها بخلاف تلك المرسومات فى ﴿سورة الروم﴾ فان منفعة ألوان الحيوان تعدّت الى حفظ غيره لأن مشابهة ماليس له سلاح لماله سلاح من الحشرات ونحوها هى التى أخافت الحيوانات المفترسة لهذه الحشرات ونحوها فصارت محفوظة ، ذلك كله ظاهر وقد تقدم كما تقدم فى ﴿سورة فاطر﴾ عجائب أنواع الريش فى مختلف الطيور ونحوذلك وهكذا تقدّم هناك عجائب المعدة والامعاء وأعصاب الحس وأعصاب الحركة وما شابه ذلك كله تقدم موضحا أيما إيضاح كما اتضح أيضا فى ﴿سورة السجدة﴾ عند آية ــ الذى أحسن كل شئ خلقه ــ الخ هذا كله تقدم فى هذا التفسير ، فما الذى تريد أن تقوله اليوم فى علم الحيوان ؟ فقلت : أنا أسألك سؤالا فى علم الحيوان . فقال سل . فقلت : ماتقول فى نوع السحالى والبرص والحرباء ، أضارّة هذه أم نافعة ؟ فقال : لا أدرى . فقلت : ما الفرق بين الثعابين السامّة والتى لاسمّ لها حتى نقتل الأوّل ولانقتل الثانى ، وما الثعبان الذى يحمله الحواة فى بلادنا المصرية ؟ وهل هو سام . فقال : لاأدرى فقلت : هل تعلم حيوانا فى الماء يولد فى مكان بعيد عن وطنه الأصلى بعدا شاسعا جدا وهذا المولود وهو صغير يسافر شهورا وشهورا حتى يرجع الى الوطن الذى خرج منه أصله . فقال : كلا . فهذه ماهى إلا ألغاز فقلت : وهل العلق الذى فى الأرض له منفعة ؟ فقال : لاأدرى . فقلت : أضرر الحدأة أكبر أم نفعها حتى اذا غلب ضرّها قتلناها أونفعها أبقيناها ؟ فقال : لاأدرى . فقلت : فلأجيبك على هذه الأسئلة فى هذا المقام حتى اذا جاءت فرصة ذكرت فوائد أخرى وذلك فى ﴿سبعة فصول﴾ فى السحالى والبرص والحرباء والثعابين وثعابين السمك والعلق والحدأة . فقال : ولكن يظهرلى أن الكلام وان حسن فقد خرج عن الموضوع . فقلت : إن الله يقول ــ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ــ فقد ذكر الأنعام والأنعام نوع من الحيوان إذن فلنبحث فى تقسيم الحيوان حتى نستخرج منه الأنعام . فقال : أما هذا فنعم . فقلت : نظرنا فى كتب المتقدّمين فوجدنا أن « اخوان الصفاء » يقسمه الى ناقص الخلقة وتام الخلقة ، وناقص الخلقة مقدّم فى الوجود على تام الخلقة . ثم قال بعد كلام : واعلم ياأخى أن الحيوان هوجسم متحرّك حساس يغتذى وينمى ويحس ويتحرّك حركة مكانية ، وان من الحيوان ماهوأشرف المراتب مما يلى رتبة الانسانية وهوما كان له الحواس الخمس والتمييز الدقيق وقبول التعليم ومنه ماهو أدون رتبة مما يلى النبات وهوكل حيوان ليس له إلاحاسة واحدة وهى اللمس فحسب كالأصداف ، وما كان كأجناس الديدان كلها التى تتكوّن فى الطين أوفى الماء أوفى الخل أوفى الثلج أوفى لب الثمر أوفى الحب أوفى لبّ النبات والشجر أوفى أجواف الحيوانات الكبار الجثة ، وهذا النوع من الحيوانات أجسامه لحمية وبدنه متخلخل وجلده رقيق وهو يمتص المادة بجميع بدنه بالقوّة الجاذبة ، ويحس اللمس وليس له حاسة أخرى لا الذوق ولاالشم ولاالسمع ولاالبصر غيراللمس حسب . وهوسريع التكوّن وسريع الهلاك والفسادوالبلى . ومنها ماهى أتمّ بنية وأكمل صورة وهى كل دودة تتكوّن وتدب على ورق الشجر والنبات ونورها وزهرها لها ذوق ولمس . ومنها ماهى أتمّ وأكمل وهى كل حيوان له لمس وذوق وشم وليس له سمع ولا بصر وهى الحيوانات التى تعيش فى قعر البحار والمياه والمواضع المظلمة ومنها ماهى أتمّ وأكمل وهى كل حيوان من الهوام والحشرات التى تدبّ فى المواضع المظلمة له لمس وذوق وسمع وشم وليس له بصرمثل الحلمة . فباللمس قوام جثته وبالذوق يميزالغذاء من غيره وبالشم يعرف مواضع الغذاء والقوت وبالسمع يعرف وطأ المؤذيات له فيحترز قبل الورود والهجوم عليه ولم يجعل له البصر لأنه يعيش فى المواضع المظلمة ولايحتاج الى البصر ولوكان له بصر لكان ذلك وبالا عليه من حفظه من إغماض العين من القذى ضرورة لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضواولاحاسة لايحتاج اليهاولاينتفع بها . ومنهاماهو أتمّ بنية وأكمل صورة وهى مالها خمس حواس كاملة وهى اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ثم يتفاضل فى الجودة والرداءة

(فصل) ومن الحيوانات مايتدحرج كدودة الثلج ومنها مايزحف كدودة الصدف ومنها ماينساب كالحية ومنها مايدب كالعقارب ومنها مايعدو كالفار ومنها مايطير كالذباب والبق ومما يدب ويمشي ماله رجلان ومنها ماله أربعة أرجل ومنها ماله ستة أرجل ومنها ماله أكثر كالدحال ومما يطير من الحشرات ماله جناحان ومنها ماله أربعة أجنحة ومنها ماله ستة أرجل وأربعة أجنحة ومشفر ومخاليب وقرون كالجراد ومنها ماله خرطوم كالبق والذباب ومنها ماله مشفر وحمة كالزنابير ومن الهوام والحشرات ماله فكر وروية وتمييز وتدبير وسياسة مثل النمل والنحل يجتمع جماعة منهم ويتعاونون على أمر المعيشة واتخاذ المنازل والبيوت والقرى وجمع الذخائر والقوت للشتاء ويعيش حولا وربما زاد وما كان غير هذين من الهوام والحشرات مثل البق والبراغيث والذباب والجراد وماشاكلها فانها لاتعيش حولا كاملا لانها يهلكها الحر والبرد المفرطان ثم يتكون في العام القابل مثلها

(فصل) ومن الحيوان ماهو أتم بنية مما ذكرنا وأكمل صوره منها . وهو كل حيوان بدنه مؤلف من أعضاء مختلفة الأشكال وكل عضو مركب من عدة قطعات من العظام وكل قطعة منها مفننة الهيآت من الطول والقصر والدقة والغلظ والاستقامة والاعوجاج ومؤلفه كلها بمفاصل مهندمة التركيب مشدودة الاعصاب والرباطات محشوة الخلل باللحم منسوجة بالعروق محصنة بالجلدة مغطاة بالشعر والوبر والصوف والريش أو الصدف أو الفلوس وفي باطن أجسادها أعضاء رئيسة كالدماغ والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتين والمثانة والامعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكرش والحوصلة والقانصة وماشاكلها وفي ظاهر البدن أرجل وأيد وأجنحة وذنب ومخاليب ومناقير والحافر والظلف والخف وماشاكلها كل ذلك لمآرب وخصال عدة ومنافع جمة لايعلمها الا الذي خلقها وصورها وانشأها وأتمها وأكملها وبلغها الى أقصى غايتها وتمام نهايتها وهذه كلها أوصاف الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح وبعض حيوان الماء وبعض الهوام كالحيات والأنعام وهو كل ماله ظلف مشقوق والبهائم ما كان لها حافر والسباع ما كان لها أنياب ومخاليب والوحوش ما كان مركبا بين ذلك والطيور ما كان لها أجنحة وريش ومنقار والجوارح ما كان لها أجنحة ومنقار مقوس ومخاليب معقربة وحيوان الماء مايقيم فيه ويعيش والحشرات مايطير وليس له ريش والهوام مايدب على رجلين وأربعة أو يزحف أو ينساب على بطنه أو يتدحرج على جنبيه

(فصل) ثم اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه بأن الحيوانات الكبيرة الجثة العظيمة البنية التي لها عظام كبار وجلود ثخان وأعصاب غلاظ وعروق واسعة وأعضاء كبيرة مثل الفيل والجمل والجاموس وغيرها تحتاج أن تمكث في الرحم زمانا طويلا الى أن تولد لعلتين اثنتين احداهما كيما تجتمع في الرحم تلك المواد التي تحتاج اليها الطبيعة في تتميم البنية وتكميل الصورة والعلة الأخرى كيما تدور الشمس في الفلك وتقطع البروج المثلثات المشاكلات الطباع وتحط من هناك قوى روحانيات الكواكب الى عالم الكون والفساد التي تحتاج اليها في تتميم قوى النفس النامية النباتية وقوى النفس الحيوانية الحاسة ليقبل كل جنس من الكائنات المولدات ماله أن يقبل من تلك القوى كما بينا طرفا من ذلك في رسالة مسقط النطفة . ثم اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه بأن الحيوانات التامة الخلقة الكبيرة الجثة العظيمة الصورة كلها كونت في بدء الخلق ذكرا وأنثى من الطين تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار هناك متساويين والحر والبرد معتدلين والمواضع الكنينة من تصاريف الرياح موجودة هناك والمواد كثيرة متهيئة لقبول الصورة ولما لم يكن في الأرض مواضع موجودة بهذه الأوصاف جعلت أرحام امات هذه الحيوانات على هذه الأوصاف من اعتدال الطباع لكيما اذا انتشرت في الأرض تناسلت وتوالدت حيث كانت وأكثر الناس يتعجبون من كون الحيوانات من الطين ولايتعجبون من كونها في الرحم من ماء مهين وهي أعجب في الخلقة وأعظم في القدرة لأن من الناس من يقدر أن يصور حيوانا من الطين أو من الخشب أو من الحديد أو من النحاس كما هي موجودة مشاهدة في ايدى الناس من

خلقة الأصنام ولايمكن أحدا أن يصور حيوانا من الماء لأن الماء جسم سيال لاتماسك فيه الصورة فتكون هذه الحيوانات فى الأرحام أو فى البيض من ماء مهين أعجب فى الخلقة وأعظم فى القدرة من كونها فى الطين وأيضا ان أكثر الناس يتعجبون من خلقة الفيل أكثر من خلقة البقة وهى أعجب خلقة وأظرف صورة لأن الفيل مع كبر جثته له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان والبقة مع صغر جثتها لها ستة أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء أخر لايدركها البصر وهى مع صغر جثتها مسلطة على الفيل بالأذية ولايقدر عليها ولايمتنع بالتحرز منها . وأيضا فإن الصانع البشرى يقدر على أن يصور فيلا من الخشب أومن الحديد أومن غيرها بكماله ولايقدر أحد من الصناع أن يصور بقة لامن الخشب ولامن الحديد بكمالها وأيضا فان كون الانسان من النطفة بديا ثم فى الرحم جنينا ثم فى المهد ضعيفا ثم فى المكتب صبيا ثم فى تصاريف أمور الدنيا رجلا حكيما أعجب أحوالا وأعظم اقتدارا من كونه يبعث من تراب قبره يوم القيامة وخروج الناس كأنهم جراد منتشر وهكذا أيضا مشاهدة خروج عشرين فروجة من تحت حضن دجاجة واحدة أو ثلاثين دراجة من تحت حضن دراجة واحدة ينقض عنها قشور بيضها فى ساعة واحدة وعدو كل واحدة فى طلب الحب وفرارها وهربها من الطالب لها حتى ربما لايقدر عليها أعجب من خروج الناس من قبورهم يوم القيامة فما الذى منع المنكرين من الاقرار بذلك وهم يشاهدون مثل هذه التى أعجب هى منها وأعظم فى القدرة لولا جريان العادة بها اه

هذا ماجاء فى « اخوان الصفاء » أيها الذكى ولاجرم انك رأيت فى هذا المقال تعريف الأنعام بحسب ما كانوا يرونه والفرق بينها و بين السباع والبهائم ، هذا نوع آراء المتقدمين ، ولما كان هذا التفسير لايقنع أذكياء قرائه بآراء طائفة دون أخرى أردت أن أريك تقسيم المتأخرين للحيوان وهنالك نأتى بالفصول السبعة لتعرف أجوبة المسائل المتقدمة ، وهنالك تعرف أننا فى هذه الاجابة الآتية لم نخرج عن مضمون الآية الكريمة فقد صرح فيها بالأنعام ، وما الحيوان إلا أنعام وغير أنعام ، وهذا الذى سنذكره انما هو بعض المقابل لما فى الآية ، وهذا من مقاصد التفسير ، إذن الفصول السبعة الآتية لاتخرج عن مضمون التفسير ، فهاك تقسيم المتأخرين فى زماننا الحاضر :

الحيوانات إما أولية أى ذات خلية واحدة . واما غير أولية أى كثيرة الخلايا . فذات الخلية الواحدة كحيوان الملاريا الذى لا أعضاء له يتحرك بها فيعيش فى الكرات الدموية الحمراء فى دم الانسان فترتفع حرارته بسبب تكاثر هذا الحيوان بالتناسل وهو يستعين بالناموس فيدخل فيه وهذا ينقله الى انسان آخر فيمرض بهذا المرض . فهذا هو أدنى الحيوان خلق ليكون ضارا بالنوع الانسانى والانسان مكلف بدراسته ليتقيه . فهذه نعمة من حيث انها تحثنا على الدراسة التى بها نعرف مضرة الضار فنتقيه ومنفعة النافع فنصطفيه . فاذا جهلنا فاننا لامحالة مصابون بالضار معاقبون بالحرمان من منفعة النافع . انتهى الكلام على الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة

أما الحيوانات ذوات الخلايا فمنها الاسفنج وهو معروف . ومنها حيوان المرجان . وقد تقدم الكلام عليه فى ﴿ سورة النحل ﴾ وسور أخرى . ومنها الحيوانات ذوات الجلد الشوكى كنجم البحر وهذا تقدم فى ﴿ سورة الحج ﴾ رسمه وقنفذ البحر . ومنها الديدان المفرطحة كالدودة الكبدية والبلهارسيا . ومنها الديدان الاسطوانية مثل دودة الانكلستوما . ومنها الدودة الحلقية وهى دودة الأرض والعلق الطبى . ومنها الحيوانات المفصلية مثل الصرصار والذباب المنزلى الخ . ومنها الحيوانات الرخوة كالقواقع وأم الخلول . ومنها الحيوانات الفقرية التى جاءت ببعضها هذه الآية . والفقرية منها السمك والضفادع والزواحف والطيور والحيوانات الثديية

هذا مجمل أنواع الحيوانات . ولاجرم أن الفصول السبعة الآتية بعضها من ذوات الفقرات كثعابين السمك

وكالحدأة . و بعضها من الديدان الحلقية كدودة الأرض . و بعضها من الحيوانات الزاحفة كالسحالى والبرص والحرباء والثعابين . إذن فلنذكر الفصول السبعة على ترتيب ماقدمناه :

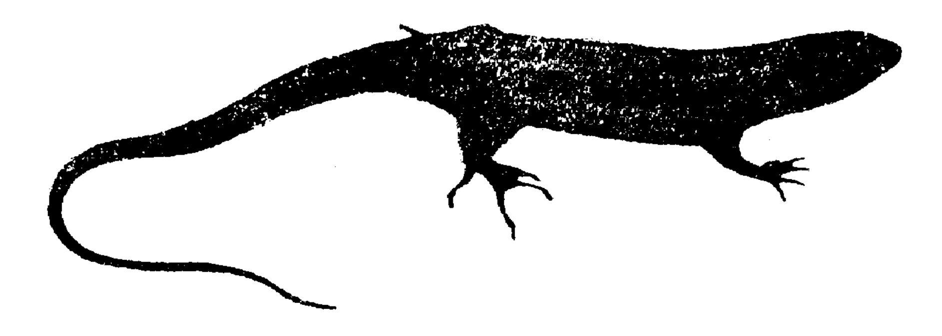
(الفصل الأول فى السحالى)

اعلم أن السحالى من الحيوانات الورلية . وهذه الحيوانات تغطى أجسامها بالحراشيف أوالدرنات . ولها أر بعة أطراف تنتهى أصابعها بمخالب حادة . وهذه الحيوانات فى الغالب نشطة وسريعة الحركة وألوانها زاهية و بعضها يماثل لون الوسط الذى يعيش فيه وهذا يساعدها على الاختفاء عن الأنظار . وأذناب هذه الحيوانات طويلة و يلاحظ أنها تتحرك زمنا بعد فصلها عن الحيوان . ولهذه الحيوانات قدرة خاصة على تجديد بعض أعضائها المقطوعة كالأذناب

تعيش الحيوانات الورلية فى المناطق الحارة عادة و يقل وجودها أو ينعدم فى الأقطار الباردة . وتتغذى هذه الحيوانات باللحوم كالحشرات والديدان وغيرها . وتضع بيضا تدفنه فى الرمال حتى يفقس . وتشمل هذه الفصيلة حيوانات كثيرة مختلفة منها الورل والسحالى والأبراص والحرباء

(١) الورل : حيوان كبير الحجم نوعا يغطى جلده بدرنات خشنة . و يصل طول أكبر أنواعه الى متر أو أكثر . و يعيش بعض أنواعه فى الصحارى وعلى شواطئ الأنهار حيث تغوص فى الماء اذا أزعجت

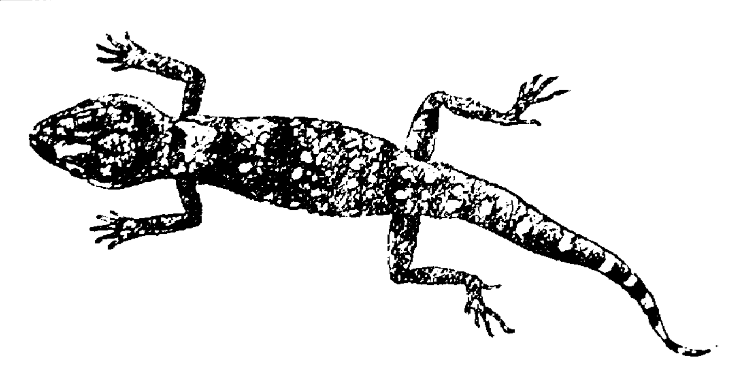
(٢) السحالى : حيوانات كثيرة الأنواع توجد فى جميع جهات القطر فى المزارع وغيرها وتتسلق الأشجار وتتغذى بالحشرات والديدان والحيوانات الصغيرة وجلدها لين فى الغالب وذو ألوان زاهية وتعتبر من الحيوانات النافعة لأنها تتغذى بالحيوانات الضارة (انظر شكل ١)



(شكل ١ ــ رسم السحلية)

﴿ الفصل الثانى . الأبراص ﴾

(٢) الأبراص : زواحف صغيرة تكثر فى المنازل ، ولها أصابع مفرطحة نوعا منتهية بمخالب و يتكون هذا الجزء المفرطح من أجزاء عضلية مستعرضة بارزة موازية لبعضها تقريبا ، فاذا وضع الحيوان قدمه على سطح أملس انطبق سطح هذه الأجزاء عليه انطباقا تاما ، وذلك بطرد الهواء الموجود بينهما و بذلك يتمكن البرص من تسلق الجدران الناعمة والمشى على الأسطح الملساء كالزجاج ، وتتغذى الأبراص بالحشرات الصغيرة فى المنازل كالصراصير مثلا ، ولذلك يعتبر البرص من الحيوانات النافعة والذكور فى العادة أزهى لونا من الاناث ، وتماثل الأبراص لون الوسط الذى تعيش فيه عادة (انظر شكل ٢ فى الصفحة التالية)



(شكل ٢ — رسم البرص)

﴿ الفصل الثالث . الحرباء ﴾

(٣) الحرباء حيوان غريب الشكل متوسط الحجم يعيش على الأشجار ، وللحرباء رأس هرمى وعلى جانبيه عينان براقتان بارزتان وتتحرك كل منهما بمفردها فى جميع الاتجاهات ، وعنقها قصير وعليه ثنيات جلدية ، ولها ذنب طويل ورفيع يلتف عادة حول أفرع الأشجار التى تقف عليها ، وأصابعها معدّة للقبض على أفرع الأشجار . وجلد الحرباء لين و يتغير لونه بسرعة حسب لون الوسط الموجودة فيه الحرباء لتختفى فيه عن الأنظار ، وتصعب رؤيتها حتى من مسافة بسيطة ، ولسانها طويل واسطوانى الشكل و ينتهى بطرف منبسط كالملعقة يفرز مادّة لزجة . وتتغذى الحرباء بالذباب وأبى دقيق والصراصير والحشرات الصغيرة إذ عند ماتقرب منها حشرة ينطلق لسانها بسرعة البرق فتلتصق الفريسة بقمته وسرعان مايعود اللسان بها الى الفم . والحرباء حيوان بطىء الحركة كسول يتربص لفريسته زمنا طويلا حتى يتمكن منها . وتوجد الحرباء فى كثير من بقاع الدنيا القديمة وفى كثير من مناطق الصحارى المصرية حيث توجد بعض الحشائش والأشجار (انظر شكل ٣)



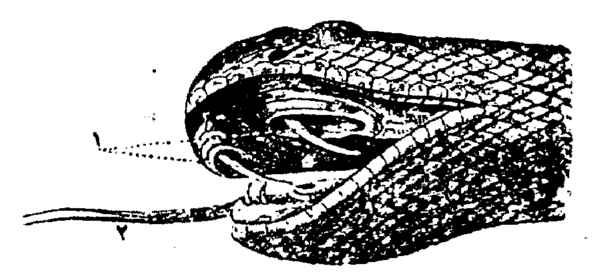
(شكل ٣ — رسم الحرباء)

﴿ الفصل الرابع : الثعابين ﴾

(٤) الثعابين : تميز الثعابين عن الزاحفات الأخرى بطول جسمها وخلوه من الأطراف (توجد الأطراف الخلفية بحالة أثرية تحت الجلد فى البوا والبيتون) ويتناسب شكل الثعابين مع طرق معيشتها حيث تزحف داخل الشقوق والانفاق الضيقة . ويغطى جسمها بطبقة حرشفية . وتغير الثعابين الطبقة الخارجية من جلدها فى فترات منتظمة . وتعيش الثعابين فى جميع بلاد العالم وتكثر على الأخص فى البلاد الحارّة فيعيش بعضها فى الغابات ويتسلق الأشجار . ويعيش بعضها على الأرض فى أنفاق خاصة . ويعيش البعض فى الماء . وأغلب الثعابين المائية سام

توجد بجانبى رأس الثعبان عينان ليس لهما جفون متحركة وهذا مايجعل الحيوان كأنه محدق دائما . ومما يستحق الذكر أن الثعابين لاترى تماما أيام انسلاخها لأن الطبقة الخارجية لقرنية العين تغير أيضا . وبالجزء الأمامى من الرأس يوجد الفم وله فتحة كبيرة ، وتتمكن الثعابين من ابتلاع حيوانات كبيرة بالنسبة لحجمها ، وذلك راجع لعدم التحام بعض عظام الرأس التى يتصل بها الفك الأسفل ، وبهذا يمكن فتح فمها واسعا بدرجة غيرعادية ، ومما يسهل مرور الفريسة الكبيرة الحجم فى القناة الهضمية كون أضلاع الثعابين عائمة أى سائبة من أسفل ولاتتصل بقص متوسط

وللثعابين أسنان حادّة متصلة بالفكين ولسان طويل سريع الحركة وذو طرف مشقوق ويستعمل كعضو للحس (انظر شكل ٤)



(شكل ٤ — رسم رأس ثعبان سام)
(١) النابان السميان (٢) اللسان المشقوق

ويميل أكثر الثعابين للرقاد هادئا ولايتحرك إلا من الجوع أو الخوف . وبعضها نهارى يميل للرقاد تحت أشعة الشمس المباشرة . وبعضها ليلى أى انه لايتجوّل للبحث عن غذائه إلا ليلا . وتتغلب أكثر الثعابين على فريستها بسرعة حركتها وقوّة عضلاتها . وقد وصفها بعضهم بقوله : « إن الثعابين تفوق القردة فى مقدرتها على التسلق والأسماك فى مقدرتها على العوم والزرافى مقدرتها على الوثب وتفوق على أكبر مصارع وتبطش بالنمر الهائج » وكل هذه الصفات ترجع لقوّة مجموعها العضلى

تتغذى الثعابين بالطيور المختلفة وبيضها وفراخها وبالجرذان والسحالى إذ تبتلعها كما هى وتتغذى كذلك بالضفادع والأسماك . وتضع الثعابين بيضا تدفنه فى الرمال وأكوام الأسبخة وفى الأراضى ، وقد ترقد بعض الثعابين على بيضها . ويلد البعض الآخر أحياء كبعض أنواع الحيات . والثعابين إما سامّة أو غير سامة وتتميز الأولى بوجود نابين كبيرين حادّين بالفك العلوى يعرفان بالنابين السميين

يفرز سم الثعبان من غدّتين موجودتين على جانبى القسم الأمامى من الجمجمة بالقرب من عظام الفك العلوى الذى يحمل النابين السميين . ومن المحتمل أن هاتين الغدتين تقابلان الغدتين النكفيتين اللعابيتين متحوّرتين . وتخرج من كل غدة سمية قناة تمتد الى الناب المقابل لها فتنفتح إما فى قناة مقفلة تمرّ فى وسطه أو فى قناة

مفتوحة

مفتوحة هى عبارة عن ميزاب بجانبـه . وفى كلتى الحالتين يمرّ السم الى الجرح الذى سببه الناب فى جسم الفريسة . ولاتختلف الثعابين السامة ذات القناة المفتوحة فى شكلها العام عن غيرالسامة . أما الثعابين السامة ذات القناة الداخلية فتكون ذات ذيل قصير ورأس مثلث ولونها زاه قليلا كما فى الحيات

وسم الثعبان سائل رائق مصفراللون وسريع التأثيراذا حقن تحت الجلد أوفى الدم مباشرة وذلك مايحصل عند مايعضّ الثعبان فريسته . ولايؤثر سم أغلب الثعابين اذا وصل الى القناة الهضمية لأنه يتأثربالعصارات الهضمية كباقى المواد الزلاليـة فيتحلل تركيبه ويفقد خواصـه السامة . وتستعمل الثعابين سمها للدفاع عن نفسها وكذلك لتسميم فريستها حتى تتغلب عليها . وسنذكر هنا بضع أنواع سامة وأخرى غير سامة :

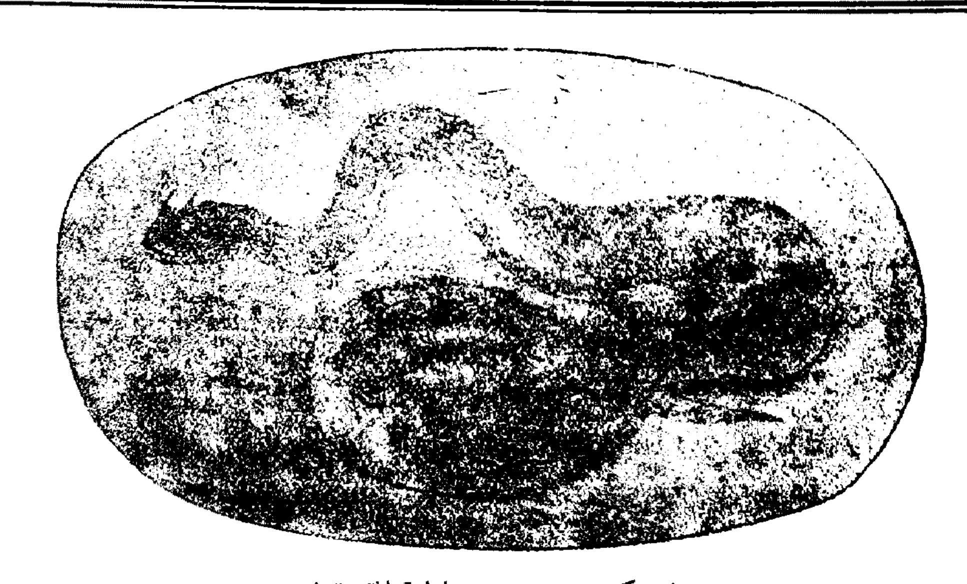
(١) ﴿ الثعبانُ الناشر ﴾ واسمه العلمى (ناجاحاجى) . يعرف هذا الثعبان بالكوبرا المصرى وسمى بالناشر تبعا لانبساط رقبته عرضا عند انفعاله ويوجد فى المزارع فى جميع جهات القطرالمصرى ولونه العام بنى فى سطحه العلوى وأصفر فى سطحه السفلى ويصل طوله الى متر وثلاثة أرباع المتر ويتغذى بالضفادع والفيران وغيرها وربما بالأسماك لأنه يعبر الترع اذا اضطر لذلك . وتضع الأنثى بيضا يختلف عدده من ١٨ الى ٢٥ بيضه فى حجم بيض الحمام وله قشرة جلدية بيضاء . وسم الثعبان الناشر قتال سريع الفعل ويحدث نوع من الكوبرا فى الهند عددا من الوفيات كل عام (انظرشكل ٥)



(الكوبرا المصرى)

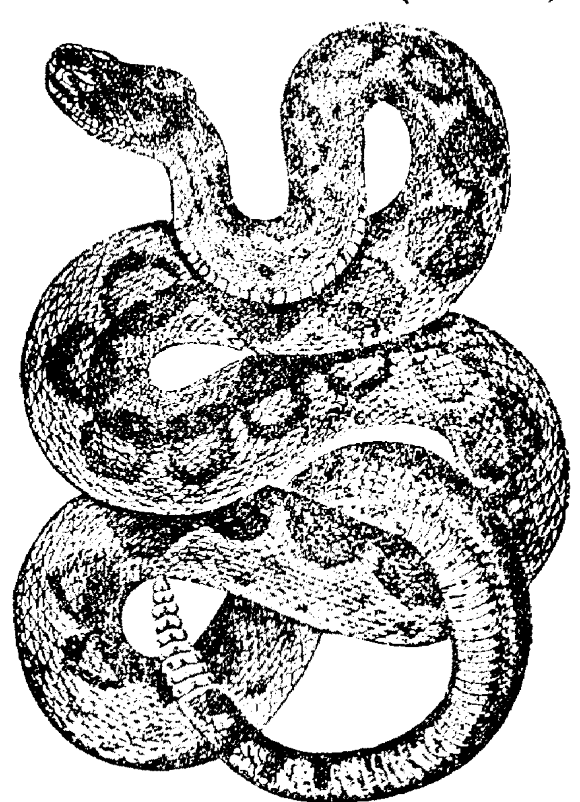
(شكل ٥ ـــ رسم الثعبان الناشر «الكوبرا»)

(٢) ﴿ الحية المقرنة ﴾ واسـمها العلمى (سيراستيس كوزنوتس) وهذا النوع من الثعابين ذوسم قتال للحيوانات الصغيرة ، وليس من المحقق أنه قتال للانسان ، وتعيش الحيات فى الصحارى ولونها مصفر كالرمل وعليها بقع داكنة اللون وتميز بوجود نتوين صغيرين كالقرون على رأسها وتتغـذى بالفيران والحيوانات القراضة الصغيرة التى تجدها فى تلك المواضع كالجربوع مثلا ، ويبلغ طولها نصف مترأوأكثر قليـلا (انظر شكل ٦ فى الصفحة التالية)



(شكل ٦ — رسم الحية المقرنة)

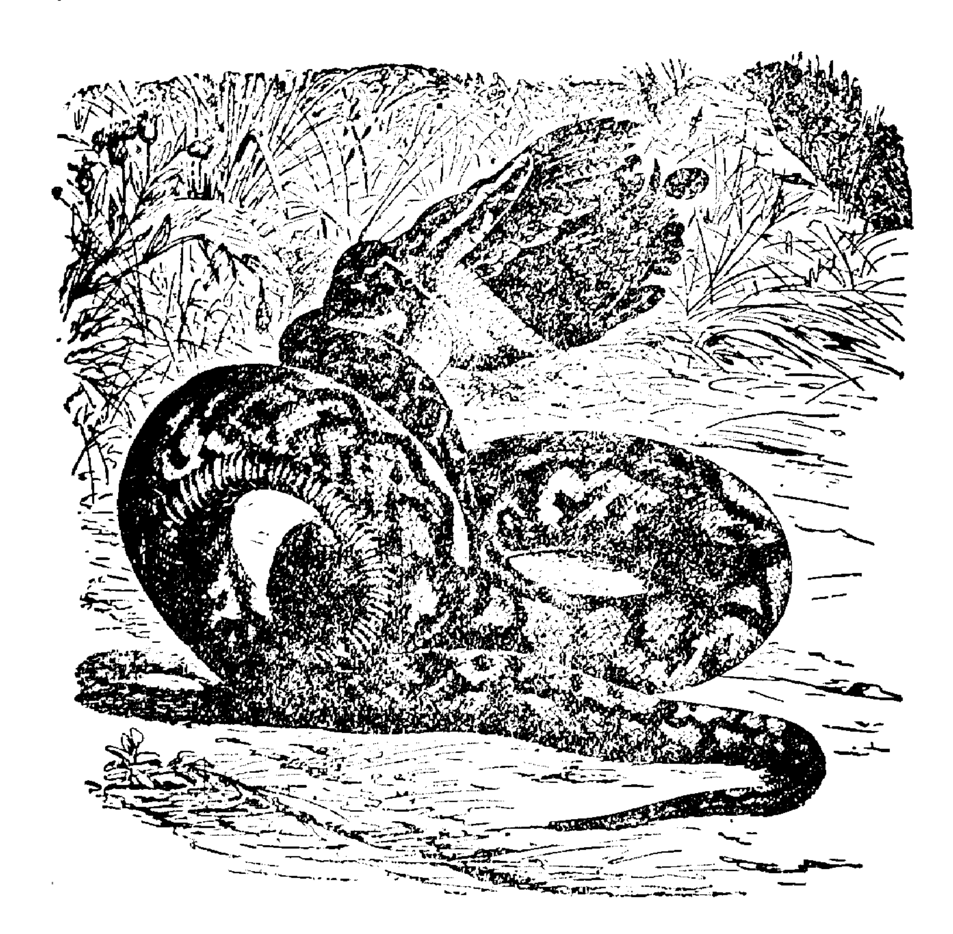
(٣) ﴿الثعبان ذوالجرس﴾ واسمه العلمى (كروتالوس أتروكس) يوجد هذا النوع من الثعابين السامة فى أمريكا ويمتاز بذنبه الذى يغطى طرفه بعدد من حراشيف قرنية جافة ومستديرة تحدث رنينا عند احتكاكها ببعضها أثناء سير الحيوان (انظر شكل ٧)



(شكل ٧ — الثعبان ذوالجرس بالحجم الطبيعى)

(٤) ﴿الثعبان الأرقم﴾ واسمه العلمى (زاميفيس ديادِيما) . هذا الثعبان غير سام وكثير الانتشار فى جميع القطر ولونه العام فى سطحه العلوى رملى مائل الى الاحمرار وعليه بقع ذات لون بنى ، أما سطحه السفلى فذو لون أصفر ، ويسكن فى الجهات الجافة فيكثر وجوده فى الحفر العميقة بجوار الاهرام وعلى حدود الدلتا القريبة من الصحراء وفى الدلتا نفسها فى المناطق الجافة الخالية من المزروعات ، ويوجد هذا الثعبان دائما مع الحواة و يبلغ طوله (١٣٠) سنيمترا تقريبا ويتغذى بالفيران والحيوانات القراضة الصغيرة

(٥) ﴿ البيتون ﴾ هو أكبر أنواع الثعابين إذ يبلغ طول بعضها تسعة أمتار أو عشرة ، وتوجد فى كثير من المناطق الحارة فى افريقيا وآسيا وهى غير سامّة . وتقتل فريستها بكونها تلتف على جسمها وتضغط عليه حتى تموت الفريسة . وتوجد بهذا الثعبان آثار الأرجل الخلفية تحت الجلد كما سبق القول (انظر شكل ٨)



(شكل ٨ — بيتون أفريقى يبتلع دجاجة)

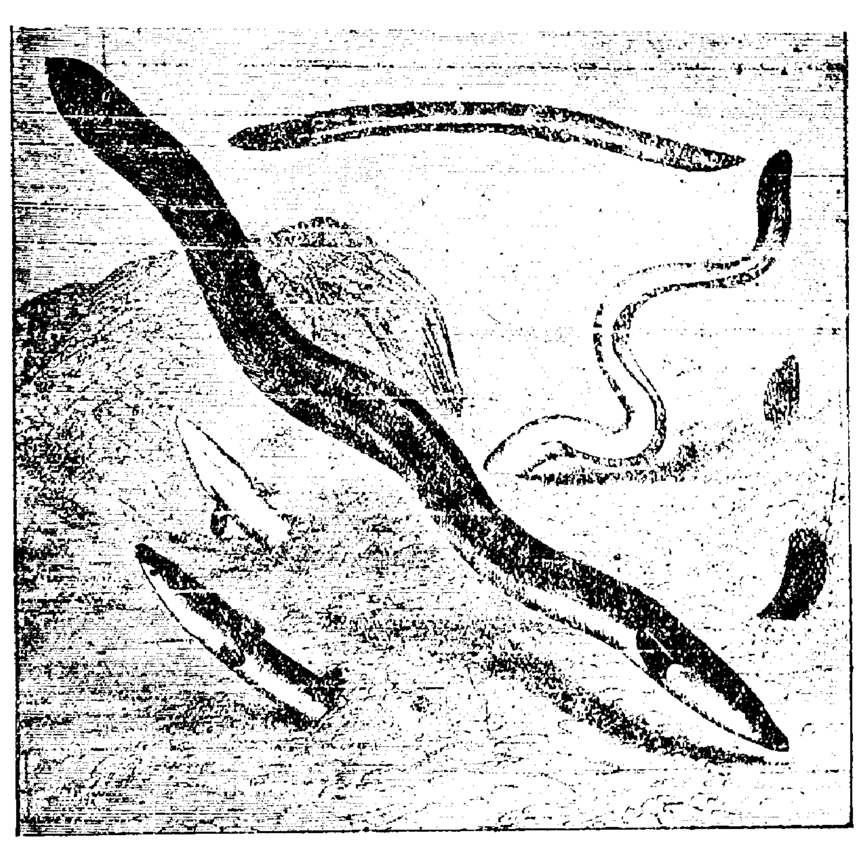
﴿ الفصل الخامس فى ثعابين السمك ﴾

الأسماك حيوانات مائية تحوّرت أجسامها بشكل خاص يساعدها على معيشتها الدائمة فى المياه ولو استثنينا الأسماك المفرطحة كسمك موسى لوجدنا بقية أنواع الأسماك كلها قريبة الشبه بعضها من بعض . فجسمها يشبه القارب ومغطى بقشور متصلة بالجلد من جهة واحدة وسائبة من جهاتها الأخرى . وتغطى القشور بعضها بعضا وكلها فى اتجاه واحد . وهذه القشور من أهمّ مميزات الأسماك كما أن الحراشيف من مميزات الزاحفات والريش من مميزات الطيور . والشعر من مميزات الحيوانات الثديية

من ثعابين السمك نوعان : أحدهما يعيش فى أنهار أوروبا وشمال افريقيا . ويعرف بثعبان السمك الاوروبى الافريقى واسمه العلمى (أنجلا أنجلا) ويعيش الآخر فى أنهار الولايات المتحدة التى تصب فى المحيط الاطلنطى واسمه العلمى (أنجلا كريزيبا)

ويوجد ثعبان السمك بمصر فى النيل والترع الخارجة منه بكميات كبيرة . وهو حيوان اسطوانىّ ذو جلد أملس أى لاقشر عليه ولون ظهره أخضر قاتم و بطنه سنجابىّ وفمه فى مقدمة الرأس و بفكيه أسنان حادّة قاطعة . ويتغذى الثعبان من اللحوم أى انه يأكل الحيوانات المائية التى يتمكن من افتراسها كالأسماك الصغيرة والضفادع والديدان وغيرها . ويختلف طول الثعابين من (٥٠) الى (١٠٠) سنتيمترا . فالقصيرة

فى الطول عادة هى التى تعيش بالقرب من مصب النهر وهى الذكور عادة . أما التى تعيش فى أعالى النهر فتكون طويلة وهى الاناث . وهذه الأسماك ليلية أى انها تختفى بالنهار بأن تدفن نفسها فى الطين أو بين الأحجار وتخرج بالليل باحثة عن غذائها (انظر شكل ٩)



(شكل ٩ — ثعابين السمك ويشاهد بعضها مدفونا فى الطين)

ولا تتناسل الثعابين أصلا فى الأنهار كبقية الأسماك النهرية ومع ذلك فانه يوجد بها كميات كبيرة لاتقل سنة عن أخرى ، وكذلك فانه توجد بين الكميات التى تصاد أفراد كبيرة وأخرى صغيرة ، ويلاحظ فى الوقت نفسه أن الثعابين الكبيرة تهاجر من النهر الى البحر ، أما الصغيرة فتصعد من البحر الى النهر

ويتم نمو الثعابين عادة بعد مدة تتراوح من أربع سنين الى سبعة ، وفى هذا الوقت يتغير لونها فى السطح العلوى من أخضر الى لون مائل للحمرة ، وفى السطح السفلى من سنجابى الى أبيض فضى ، ويكون ذلك فى فصل الخريف ، وعند ذلك تترك النهر مجتمعة فى عدد كبير متجهة الى مصبه ، وفى المساء عادة تنزل الى البحر فتعوم بنشاط وتبدأ رحلة طويلة فتمر من بوغاز (جبل طارق) الى المحيط الاطلنطى وتعبره الى جزائر برمودة القريبة من شواطئ الولايات المتحدة فتصلها فى الشتاء ، وتقوم ثعابين أنهر أوروبا الغربية بنفس هذه الرحلة

وعند وصول الثعابين الى نهاية رحلتها البحرية الطويلة يكون قد تم نمو أعضائها التناسلية فتضع الاناث بيضها فى الماء وتفرغ كذلك الذكور مادتها المنوية فى الماء أيضا فيتم اخصاب البيض بهذه الطريقة وتضع الأنثى كميات كبيرة من البيض تبلغ المليون أو أكثر

أما مصير الذكور والاناث بعد ذلك فمجهول ، ولكن الأرجح أن مصيرها الموت كما هى العادة عند بعض الحيوانات ، وعند مايفقس البيض تخرج منه الصغار المعروفة باليرقات فتبدأ سياحتها راجعة فى الطريق التى أتى منه أبواها ، وتتغذى فى طريقها بالحيوانات المائية الدقيقة ، وفى الوقت نفسه تكون هى معرضة

لافتراس كثير من الحيوانات البحرية ، وتستغرق سياحتها فى الرجوع كما يقال سنة ونصفا أوسنتين

ومما يدل على أن قيام الثعابين التامة النمو بهذه السياحة من الأنهار الى المحيط ورجوع برقاتها من المحيط الى الأنهار فعل غريزى هو أن برقات ثعابين السمك الأمريكية لاترجع إلا الى الأنهار الأمريكية التى تربى فيها أبواها ، ولايوجد ثعبان السمك الأمريكى فى أنهار أوروبا ولاأفريقيا وكذلك الحال مع الثعبان الاوروبى الافريقى ، وعند ماتصل البرقات الى مصب النهر يكون ذلك عادة فى أواخر الخريف أوأوائل الشتاء ، ويبلغ طولها فى هذا الوقت تسعة سنتيمترات ، فتصعد النهر ويعيش بعضها بالقرب من مصبه وهذه تكون عادة ذكور المستقبل ، أما التى تصعد الى أعالى النهر فتكون أناث المستقبل وهى التى يبلغ طولها عند نهاية نموّها مترا تقريبا

أما الباعث لهذا الحيوان على تنقلاته الغريبة من النهر الى المحيط للتوالد ومن المحيط الى النهر للنموّ فلايزال غامضا وكل التفسيرات التى كتبت فى هذا الشأن ليست شافية

﴿ الفصل السادس فى دودة الأرض ﴾

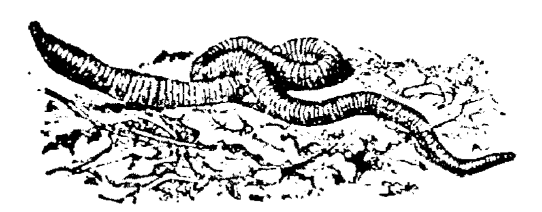
اعلم أن الناس يعيشون ويموتون وأمامهم جمال وعلم وحكمة ولايدرون ماهى ، لقد كنا أيام الطفولة نتوجه الى شواطئ البحار مع الأطفال ونبحث عن العلق فى الأرض فنستخرجه ونضعه فى الشص (الصناره) ونصطاد به السمك ونحن لانعقل ولا آباؤنا ولا اخواننا لم خلق الله هـذا العلق ؟ الله أكبر ! فأرانا العلم أن هذا العلق يصل عدده فى الفدان الواحد كما ستراه الى (٥٣) ألف دودة جعلت فى الأرض لتحرثها حرثا غير حرث الانسان . إذن المسلم اذا عاش ومات وهولايعرف عجائب هـذه الدنيا فقد كفر نعمة الله ولم يشكرها ومن كفر النعمة حرمها . وهذا سبب ضعف المسلمين . إذن فلأسمعك الكلام على دودة الأرض من كتاب «علم الحيوان» وهذا نصه :

(١) ـ ﴿ دودة الأرض ﴾

توجد ديدان الارض بعدد وافر فى الأراضى مهما كان نوعها غيرأنه يلزم أن تكون رطبة لأن الرطوبة من ضروريات حياتها والجفاف قتال لها . ولذلك ينـدر وجودها فى الأراضى الرملية والصحارى . ويكثر وجودها فى الأراضى المغطاة بالنباتات والخضراوات إذ تقيها حرارة الشمس وذلك كما فى أرض الجنائن عادة

﴿ شكلها الخارجى ﴾

ديدان الأرض اسطوانية الشكل ويبلغ طولها ١٥ سنتيمترا تقريبا وطرفاها رفيعان ولكن الأمامى منهما أرفع من الخلفى وجسمها مقسم بخطوط عرضية الى حلقات يتراوح عددها مابين ١٢٠ و ١٨٠ حلقة ، ولون الجسم قرنفلى وعليه أشواك صغيرة متجهة الى الخلف لتساعدها على الحركة دائما الى الأمام وهى أربعة أزواج فى كل حلقة زوجان منها فى كل جانب من الجسم . (انظر شكل ١٠)



(شكل ١٠ ـ دودة الأرض بالحجم الحقيقى)

تغطى دودة الأرض بجلد لين رطب مخاطى ويشاهد بالسطح العلوى للدودة انتفاخ بسيط واضح فى الديدان

التامة النمو يعرف بالسرج و يمتد من الحلقة الثانية والثلاثين الى السابعة والثلاثين و به غدد تفرز مادة مخاطية لصنع الكيس الذى تدع الدودة فيه بيضها . وتوجد بالجسم عدة فتحات نذكرها بالاختصار فيما يلى

(١) الفم فتحة صغيرة بأسفل الحلقة الأولى

(٢) الاست فتحة بيضية فى الحلقة الأخيرة من الجسم

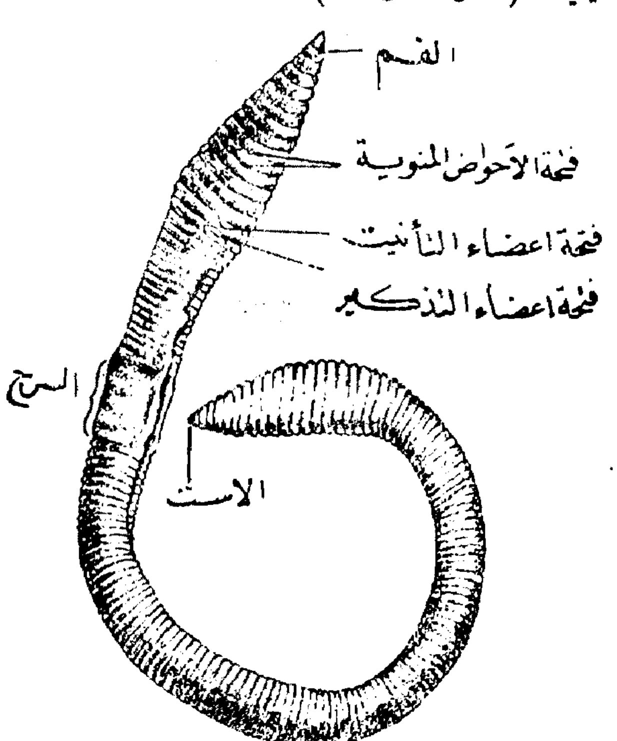
(٣) الفتحات التناسلية أربعة أزواج وهى :-

(ا) الوعاآن الناقلان الآتيان من الخصى ينفتحان على جانبى الحلقة الخامسة عشرة

(ب) قناتا المبيض الآتيتان من المبيضين ينفتحان على جانبى الحلقة الرابعة عشرة

(ج) للدودة أربعة أحواض منوية لتخزين السائل المنوى الآتى من فرد آخر ولها أربع فتحات على جانبى الحلقتين العاشرة والحادية عشرة

(٤) على جانبى كل حلقة من جسم الدودة ماعدا الثلاث حلقات الأولى والحلقة الأخيرة فتحتان بوليتان آتيتان من الكليتين . (انظر شكل ١١)



(شكل ١١ - دودة الأرض مكبرة)

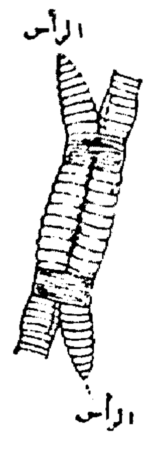
﴿ عاداتها وغذاؤها ﴾

تعيش ديدان الأرض فى الأنفاق التى تعملها فى الأرض . وكيفية ذلك أنها تأكل جزءا من الطين لكى تفسح لنفسها مكانا و يساعدها على ذلك دفع جسمها الى الأمام . وتكون هذه الانفاق عمودية عادة . وتبقى الديدان فيها أثناء النهار الا اذا اضطرها المطر الغزير الى مغادرتها وعند ذلك تهجرها مرغمة وتشرع فى عمل غيرها . وتنشط الديدان أثناء الليل إذ تخرج وتتجول على سطح الأرض باحثة عن غذائها أو أليفها . وكثيرا ما نرى آثارها على الطرق والجسور المبتلة بدريا فى الصباح . و بالرغم من أن الديدان عديمة الأعين نجدها حساسة للضوء وتتجنبه اذا عرضت له . تخرج الديدان بالليل باحثة عن غذائها وأفضله الأوراق والأزهار المتساقطة إذ عند ما تعثر بها تقبض عليها بفمها وتسحبها الى انفاقها لتتغذى بها . وتتغذى كذلك ببذور النباتات التى تجدها فى التربة والكائنات الأخرى كبعض الجراثيم و بويضات الحشرات والديدان الصغيرة حية كانت أو ميتة .

وتكتفى الديدان فى الأراضى غير المزرعة بالمادة العضوية التى تستخلصها من الطين الذى تبتلعه

﴿ التوالد ﴾

ديدان الأرض خناث ولكنها لاتلقح نفسها بل يحصل التلقيح عادة بين فردين وذلك بأن تضع الدودتان سطحيهما السفليين مقابل بعضهما على أن يكون رأساهما فى اتجاهين مختلفين . وعند ذلك تمرّ المادة المنوية من كل منهما وتدخل فى الأحواض المنوية للأخرى حيث تتخزن بها . (انظر شكل ١٢)



(شكل ١٢)
دودتان فى حالة
الاجتماع التناسلى

و بعد هذه العملية تنفصل الدودتان وتفرز كل منهما من السرج مادة زلالية قرنية يتكوّن منها حزام عريض يحيط بجسم الدودة فى هذا الموضع . وعند ذلك تنسحب الدودة من هذا الحزام الى الخلف وعند مايصل الحزام الى الحلقة الرابعة عشرة تنزل فيه الدودة بضع بويضات وعندما يصل الى الحلقة العاشرة تنزل الدودة فى الحزام كمية من المواد المنوية . وعند انسحاب الدودة منه نهائيا ينسد طرفاه فيصبح بشكل حوصلة محتوية على بضع بويضات . وقليل من الحيوانات المنوية كلها مغمورة فى سائل لبنى مغذ يحتمل أن تقوم بافرازه غدد جلدية و فى تلك الحوصلة تخصب البويضات وعند فقسها تخرج الأجنة وتتغذى بالسائل اللبنى حتى اذا ماتمت قليلا خرجت من الحوصلة لتعيد تاريخ حياتها . ولايخرج عادة من الحوصلة إلا جنين واحد يشبه الدودة اليافعة بعض الشبه وتضع الديدان بيضها عادة أثناء فصلى الربيع والصيف ولكنه قد يستمر طول العام

﴿ الأهمية الاقتصادية لديدان الأرض ﴾

(أوّلا) تستعمل الديدان طعما فى صيد الأسماك إذ يبحث عنها الصيادون على جانبى الترع تحت الأحجار والمواسير وغيرها .

(ثانيا) ديدان الأرض غذاء مهمّ لكثير من الطيور .

(ثالثا) تؤثر هذه الديدان تأثيرا عظيما على حياة النبات وذلك انها تتجول فى الأرض فتفككها و بذلك تكون عاملا مهما فى تهويتها وتصفيتها وتساعد كذلك جذور النباتات على التعمق فيقوى النبات و يكبر لاتساع دائرة غذائه

(رابعا) عند ماتأكل الديدان الطين تحدث بمواده المعدنية والعضوية تحليلا يجعلها أكثر صلاحية لتغذية النباتات

(خامسا) تقذف الديدان الطين بعد مروره فى جوفها على سطح الأرض و بعملها هذا تعرض الطبقات السفلية من التربة الى المؤثرات الجوية فكأنها تقوم بعملية حراثة بطيئة

(سادسا) بما أن هذه الديدان تسحب كثيرا من أوراق النباتات تحت سطح الأرض فبذلك تزيد فى خصوبتها عند ماتتعفن هذه المواد العضوية

ولما تحقق الاستاذ تشارلس دارون من فوائدها عنى بأمرها وأجرى تجاربه العديدة لاكتشاف مقدار ماتسببه هذه الديدان من نفع غير مباشر للانسان فقال (كانت هذه الديدان بمثابة المحراث الطبيعى للأرض قبل أن يخترع الانسان محراثا لأنها تؤدى عمله الا أنها أبطأ منه . ومنها فى الفدان الواحد من أرض الجنائن نحو ٥٣ ألف دودة يمرّ من أجسامها عشرة أطنان من التربة فى السنة وهذا القدر كاف لأن يغطى سطح أرض الفدان الواحد بطبقة سمكها نصف سنتيمتر)

لهذه الديدان مقدرة غريبة على تجديد أجزائها المفقودة . فمثلا اذا قطعت الدودة الى قسمين أثناء عزيق الأرض يعيش كل جزء مستقلا و ينمى الجزء المفقود منه فمثلا ينمو للقسم الذى به الرأس جزء خلفى

(٢) - ﴿ العلق ﴾

العلق ديدان مائية تعيش فى المياه العذبة فى البرك والمستنقعات و بعضها فى الأراضى الرطبة . وهى حيوانات طفيلية تعيش على الدم الذى تمتصه من الحيوانات التى تعثر بها وجسمها خال من الأشواك وتتعلق بعائلها بواسطة ممصين موضوعين على طرفى جسمها و يساعدانها أيضا على الانتقال حيث يلاحظ ذلك عند حركتها بتثبيت الواحد منهما قبل رفع الآخر . وهذه الديدان خنثى وتضع بيضها فى أكياس تصنعها لهذا الغرض وأهم أنواع هذه الديدان هو العلق الطبى

أقول : أفليس من المدهش أن نرى فى فدّاننا خمسين ألف محراث تحرث أرضنا قبل أن يضع ابن آدم محراثه فى الأرض ، أوليس مما يدهش أن نرى ماهو حقير فى نظر الجاهل عظيما فى نظر العالم ! وأن هذا الدود الذى كنا نستخرجه لنصطاد به السمك هو أثمن وأغلى فى العلم من الذهب والفضة لأنه به سعادتنا إذ هو يعين على نماء زرعنا ، ولامعنى للذهب والفضة إلا بعد أن يكون عندنا مزارع نأكلها فاذا عدمت الزروع فأىّ معنى للذهب أوالفضة أوالأحجار الكريمة ، الذهب للمعاملة فى البيع والشراء واذا لم تكن حياة بالغذاء فأىّ بيع وأىّ شراء ، والأحجار الكريمة للزينة وأىّ زينة لمن عاش وهو جائع لايجد فى جرابه مضغة . إذن الحياة مملوءة بالجهالة . إذن الموت خير لبنى آدم حتى ينقلهم من هذه الدار التى فيها قلبت الحقائق الى دار أخرى لنعرّفهم تلك الحقائق بعد تمام البحث الممكن هنا . انتهى الكلام على الفصل السادس

﴿ الفصل السابع فى الكلام على الحدأة ﴾

الحدأة طير يعرف عند العامة بالحداية وهو من الطيور الجارحة واسمه العلمى (ملفوس اجبتيوس) وهو منتشر فى كل القطر المصرى ولكنه لايوجد فى مناطق الاسكندرية و بور سعيد والسويس ووادى النطرون الامتجولا . وهو كثير فى مديرية الفيوم

ويبلغ طوله نحو ستين سنتيمترا وطول منقاره نحو أربعة سنتيمترات والنصف الأعلى من المنقار متقوّس الى أسفل كمنقار كل الطيور الجارحة . ويبلغ عرض الطير وهو باسط جناحيه نحو ١٣٠ سنتيمترا . ولون رأسه ورقبته أبيض رمادى يكون فيه شئ من الاحمرار فى أعلاهما . والخط المركزى لكل ريشة فيهما أسود ولون الريش فى أعلى جسمه قاتم . والريش الرئيسى فى الجناحين أسود . والذيل مشقوق ولونه قاتم مائل الى الحمرة فى أعلاه وأعتم فى جنبيه وفيه نحو عشر ريشات . ولون المنقار أصفر و يشاهد أن الحدأة التى لم تبلغ أشدها يكون منقارها أسود وذيلها غير مشقوق و يكون لون أعلى رأسها ورقبتها لونا أصفر يشبه لون الرمل

وكل من القدمين ينتهى بأربع أصابع وكل أصبع بمخلب حاد منحن قوى والأنثى أكبر من الذكر فى الجسم قليلا

و يعشش هذا الطير على الأشجار العالية فى القرى وفى المدن و يصنع عشه من أفرع الأشجار الجافة ينظمها على شكل حفرة و يبطنها من الداخل بالحشائش الجافة وورق الأشجار والورق الصناعى و بعض الخرق البالية وفى بعض الأحيان تحتل الحدأة عشا مهجورا لطير آخر (مثل الصقر)

وتظهر علامات التنبه الجنسى فى شهر مارس حيث يطير الذكر والأنثى متتابعين متلاعبين فى أعلى الهواء راسمين دوائر كبيرة القطر متتابعة على شكل حلزونى غير منتظم . وأثناء ذلك تكاد تكون الأجنحة ثابتة

ولا

ولايشاهد فيها إلا بعض حركات نادرة . فالطير يحلق فى الجو مستعينا بسطح جناحيه الواسع ومستعملا ذيله فى الاتجاه . و يشاهد الانسان إذا لاحظ الحدأة وهى طائرة بجناحيها منبسطين أنها ترتفع فجأة فى الهواء الى منطقة أعلى دون أن تقوم بأدنى مجهود وسبب ذلك أنها تصادف فى سيرها تيارات الهواء الساخن الصاعد من الأرض فترفعها الى أعلى

وتبيض الأنثى نحو ثلاث بيضات ترقد عليها وحدها و يأتى الذكر الى الأنثى بغذائها أثناء ذلك و بعد فقس البيض تبقى الصغار مدة طويلة فى العش ثم حين تطير تبقى مدة أسابيع عالة على أبويها متغذية مما يأتيان به اليها منه . وصوت الحدأة العادى يخالف لصوتها وقت التفريخ

و يأكل هذا الطير صغار الدجاج والبط والاوز و يأكل أيضا الجرذان والضفادع والثعابين والسحالى ودود الأرض والحشرات ولايحجم عن أكل الرمم

ولولم تكن شراهته كبيرة فى افتراس صغار الطيور المنزلية لكان من أهم الحيوانات المفيدة للانسان بأكله الجرذان والحشرات الضارة وهو من أفيد الطيور فى المدن المصرية لأنه ينقى الشوارع من الرمم ومن بقايا الحيوانات و ينقى الاسطح من كل بقايا المأكل ومن فضلات المطابخ التى تطرح عليها

وهذا الطير بطىء الطيران ولوأنه يطير عاليا وله كثير من الدهاء . وحاسة النظر عنده نامية جدا كما يشاهد ذلك من يتتبع حركاته عقدما يسقط فجأة من أعلى منزل مرتفع على قطعة من بقايا لحم الجزارة ملقاة فى الشارع

هذا ما أردته من كتاب «علم الحيوان» والى هنا تم الكلام على الفصول السبعة والحمد لله رب العالمين

كتب فى أوّل أغسطس سنة ١٩٣٠

(خاتمة فى الحيوانات النافعة)

أذكرك أيها الذكىّ بما ذكرته فى ﴿سورة يوسف﴾ من انى كتبت فى مجلة «الملاجئ العباسية» مقالة فى الطيور فحصرتها الحكومة ثم حرّمت صيدها ، وانى كتبت فى ﴿سورة طه﴾ آخر رأى للحكومة المصرية فى الطيور النافعة التى يحرم صيدها وهى :

(القنبرة . وعصفور التين . وأبو فصاده . واللقلاق . والشحفوت . والجليل . والكروان . والسنونو . والزرزور . والدخله . والزّريقه . والحسينى . والدّح . والكركى . والوروار . والبلشون . وأبوقردان . وعصفور الجنة . والهدهد . والبلبل الصغير . والخطاف . وأبو بليقه . وأبواليسر . والزقزاق مطوّق . والزقزاق البلدى . والغراب الزيتونى . وأبوصدر (أبوالحناء) والجيزه . والصعو . والهزار . والقمحية . وأم الهوى . وزقزاق شامى)

هذا ماذكرته هناك ، فلنزد عليه ماذكرناه هنا وهى السحلية والبرص وغيرها من كل حيوان قاتل للحشرات كالعنكبوت

فياسبحان الله : أيليق أن نعيش فى دورنا ونحن نجهل ماحولنا . هاأنا ذا فى العقد السابع من حياتى ولاعلم لى أن البرص يأكل الصرصار وغيره إلا فى هذا الشهر فأخبرت أهل المنزل بذلك وقد كانوا متشائمين منه ظانين انه ضارّ لانافع فنعوا عنه الأذى

اللهم إن جهل هذه العلوم من أكبر ما أضرّ بالأمة الاسلامية ، هذا ولقد تقدّم فى ﴿سورة فاطر﴾ عند آية ــ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ــ الخ انى ذكرت هناك أن الجراد هجم على مصر أيام طبع تلك السورة وكتبت فى جريدة الاهرام أن الجراد تجارة رابحة وانه يعصر زيتا نافعا فى الطيارات ، وأن الجراد الهاجم على بلادنا اذا بعناه كان نعمة عظيمة وثفله ينفع لطعام البهائم ، ثم أرسلت الحكومة البلجيكية خطابا

للحكومة المصرية تطلب منها ذلك الجراد فلم ترد عليها . وهاك ماجاء فى جريدة الاهرام عندطبع هذه السورة يوم (٨) أغسطس سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

(تجارة الجراد فى بلجيكا)

والسعى للحصول على مقادير كبيرة منه للمصانع . عدم اكتراث الحكومة بما كتب اليها بشأنه

منذ أسابيع كتب جناب قنصل البلجيك فى الاسكندرية كتابا الى الحكومة المصرية لمناسبة اهتمامها بمحاربة الجراد يقول فيه مامؤدّاه : « إن فى بلجيكا مصانع خاصة تستخدم الجراد لأغراض صناعية . وقال إن بلاده على استعداد لشراء أى مقدار يقدّم اليها من جماعات هذا الطير المضرّ بعد قتل ارجاله » (كذا)

و يظهر أن السلطة التى كتب اليها بهذا الشأن لم تهتم بالأمر كثيرا ، و يقال انها أهملت الطلب حتى انها لم تردّ على كتاب القنصل بكلمة

وقد فهمنا الآن أن أحد البيوت المالية البلجيكية الكبيرة فى الاسكندرية علم أن العراق مازال يحارب الجراد فى بعض أرجائه فجعل يسعى للحصول على مقدارمنه من تلك البلاد لايقل عن مئة طن . وهناك شروط معينة لتوريد الجراد أخصها انه يجب على المورد أن يضع الجراد بعد قتله فى الماء الحار نحو (١٥) دقيقة وتوضع فى الماء كمية من الملح . و بعد ذلك يؤخذ الجراد و يفرش على الأرض أربعة أيام ثم ينظف و يوضع فى أكياس أوصناديق و يشحن الى (ميناء أنفرس) حيث يتسلمه الطالبون

ولاندرى لماذا لم تهتم السلطة المصرية ذات الشأن بما كتبته اليها القنصلية البلجيكية فى هذا الموضوع فى أثناء محاربة الجراد فى الأراضى المصرية أيام كان الأهالى يهلكون ارجال هذا الطائر و يتلفون كل مايجمعونه منها . وقد كان بالامكان بيع مقادير كبيرة منه لمصانع البلجيك بواسطة القنصلية البلجيكية والكو بتوار البلجيكى . ولو أن الأهالى كانوا يعرفون أن للجراد فوائد صناعية وأن هناك مصانع تطلبه لاهتموا هم بالأمر وباعوا منه مئات الأطنان وربحوا منه المال الوفير

عسى أن لايأتى الجراد الى مصر مرة أخرى والبلاد فى غنى عن هذه التجارة . ولكن اذا الأقدار ساقت الى مصر جرادا فى وقت من الأوقات فيجب أن يكون مفهوما أن فى أوروبا مصانع تحتاج الى مايقتل من هذا الطائر المضرّ بالزراعة . انتهى

هذه حال حكومتنا المصرية التى لها فى الحكم نحوقرن وثلث وهؤلاء حكامها يتباطؤن فى منفعتها فمابالك أيها الذكىّ بغيرها من حكومات الشرق المتأخرة . ألاقليم التعليم النافع بلاد الاسلام فلا يكون تعليما قشريا إن بعض الحكام فى البلاد الشرقية ليس عندهم تهذيب تام ولاعشق للعلوم . إن من عشق العلم يحب الأمة والفضيلة ومن خلا من عشق العلم انصرفت همته الى شهواته فعاش خادما لها بحيث تكون جميع أعماله موجهة الى هذا الغرض وحده فلايبالى برقىّ الأمة وسعادتها والله يهدى من يشاء و يضلّ من يشاء وهو العزيز الحكيم . كل الأمر راجع للتعليم والحمد لله رب العالمين . انتهى ليلة الأحد ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٠

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى أيضا ـ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ـ الى قوله تعالى ـ فانما يقول له كن فيكون ـ مع ملاحظة آية ـ خلقكم من نفس واحدة ـ مع قوله ـ ذلكم الله ربكم له الملك لااله إلاهوفأنى تصرفون ـ التى فى سورة الزمرالى قوله هناك ـ فينبئكم بما كنتم تعملون ـ وقوله فيها ـ خلق السموات والأرض بالحق ـ الى قوله ـ ألاهو العزيز الغفار ـ)

هذه الآية أوّلها وحدة النفس التى منها خلقت نفوسنا الكثيرة وفى آخرها وحدة الله تعالى . ولاجرم أن الوحدة الأولى تدل على الوحدة الثانية وهذه من أعاجيب القرآن . يقول الله ـ خلقكم من نفس واحدة ـ وخلق من هذه النفس نفسا أخرى . ومن هاتين النفسين خلق نفوسا وهكذا . فالوحدة مبدأ الكثرة وذلك كالعدد أسه الواحد وبانضمام آخر اليه ابتدأ العدد لأن العدد يفهم منه التعدّد ولاتعدّد فى الواحد .

واعلم أن العلوم الحديثة المنتشرة فى كرتنا الأرضية هى التى تفهمنا سرّ هذه الآية . ألاترى رعاك الله أن وحدة الانسان ظاهرة بأن له روحا وهذه الروح تتصرّف فى جسمه وفى جميع أعضاء الحسّ وأعضاء الحركة وهى متعددة . ومن عجب أن هذه الوحدة الظاهرة فى الروح المتصرّفة فى الجسم ظاهرة أيضا فى ملكة النمل وجنودها منه . وفى ملكة الأرض (جمع أرضه) بوزن سمكة المرسومتين فى أوّل سورة سبأ . والمرسومتين أيضا فى سورة النحل إذقلت ان هذه الآية تفسرها العلوم الحديثة . أقول لك أيها الذكىّ ارجع فاقرأ ماكتبته على النمل فى ﴿ سورة النمل ﴾ وفيما كتبته على الأرضة فى ﴿ سورة سبأ ﴾ ثم أزيد عليه الآن فأقول :

هاهم القوم فى أوروبا ضغطوا على الزّر فى أوروبا فأوقدوا المصابيح فى استراليا ، فدلّ ذلك على أن هذه العوالم كلها متصلة اتصالا وثيقا ، ولقد تكلم السياحون وهم فوق القطب الجنوبى فى هذه السنة (١٩٣٠) مع من هم فى الممالك المتحدة بطريق البرق الذى لاسلك له ، إذن هذا الجوّ كله مملوء بالأسرار مفعم بالأنوار موصل جيد للأخبار

اذا علمت هذا فاعلم علما ليس بالظنّ أن ملكة النحل وملكة النمل وملكة (الأرض) بوزن سمك متصلات مع رعاياها بواسطة هذه الأسرار الخفية فى الأثير وهى مع مملكتها كأرواحنا مع أعضائنا ، فاذا وصلت أعصابنا أخبار حواسنا الى داخل أجسامنا ، وأوصلت أعصابنا أخبار ملاذنا وآلامنا الى المخ وهو وصله الى أرواحنا فان الجوّ ومافيه من الأثير موصل بلاأعصاب فيه ، فكما وصل أخبار من وصلوا الى القطب الجنوبى لمن هم فى الممالك المتحدة ووصل تيار النور من أوروبا الى استراليا فى لمح البصر بمجرّد الضغط على الزّر بسر الراديوم ، هكذا وصل الأثير أخبار ملكة النحل الى عمالها فكان منهنّ المربية للذرّية والجامعة للعسل والشمع والتى تقف على باب الخلية حتى لايدخلها أحد ، ووصل أخبار ملكة النمل كما تقدّم فى ﴿ سورة النمل ﴾ فكانت مملكتها كأرقى مملكة فى العالم ، فمنهنّ الديدبان والعامل الصغير والجندى والضابط والمربى للذرّية كما تقدّم فى سورة النمل ، وهناك ترى مزارع النمل المنظمة البهجة مرسومة موضحة ، فهل يكون ذلك النظام وتلك الطاعة المدهشة تحت أمرة الملكة بلاخطاب منها ولاتفهيم ؟ كلا . والموصل هو العالم الخفىّ فى الأثير

تباركت ربنا وتعاليت ، أنت جعلت الوحدة فينا أى وحدة أرواحنا ، وهذه الوحدة فى أرواحنا جمعت قوانا وأعضاءنا فكانت عالما واحدا ، وجعلتها نموذجا نفهم به وحدة ممالك النمل والنحل وممالك الانسان بل مملكة الأرض والمجرّات والعوالم كلها كلهنّ متصلات اتصال أعضائنا بأجسامنا التى تقودها أرواحنا واتصال ممالك النحل بملكاتها وممالك النمل كذلك والأرض (بوزن سمك) كلهنّ خاضعات للملكاتهنّ خضوع أجسامنا لأرواحنا ، هكذا العوالم كلها يا ألله خاضعات متصلات متحدات مرتبطات ارتباطا وثيقا وأنت المدبر لها ، وقد ضربت لنا مثلا نفهمه من أنفسنا ومن ممالكنا ومن ممالك النحل والنمل ـ ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض ـ . فاذا دبرت الروح الجسم ودبرت ملكات النحل ممالكها ودبرت ملكات النمل ممالكها وخضعت هذه الممالك كلها لواحد دبرها ، فهاهى ذه مملكتك خاضعة لك دبرتها وأنت واحد

بهذا فهمنا ـ ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة ـ وفهمنا قولك ـ خلقكم من نفس واحدة ـ وقولك فى أوّل سورة الزمر ـ ذلكم الله ربكم له الملك لاإله إلاهو فأنى تصرفون ـ أى فكما لاقدرة للأعضاء

على مخالفة الأرواح ، ولا لأفراد النحل عن الخروج عن أمر ملكاتها . ولا لأفراد النمل عن الخروج عن أمر ملكاتها . هكذا نوع الانسان لاطاقة له أن يخرج عن النظام الأقدس وهو التوحيد الذى أمر به وهو ملزم أن يدرسه و يسير على منواله و يطيع خالقه غاية الأمر ان طاعة الأعضاء للروح وطاعة أفراد النمل لملكاتها وطاعة أفراد النحل لملكاتها وطاعة الأرضات (بوزن سمكات) غريزية طبيعية . وطاعة الانسان ربه يجب أن يكون بالتعليم والتهذيب لاغير . انتهى صباح يوم الاثنين (١٥) سبتمبر ١٩٣٠

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(فى قوله تعالى ــ الله الذى جعل لكم الليل ــ الى قوله ــ فانما يقول له كن فيكون ــ)

جاء فى هذه الآيات :

(١) ذكر الليل والنهار ، و بيان أن الله له فضل على الناس بتعاقبهما ، وأن الناس قلّ شكرهم على هذا الفضل

(٢) بيان أن الله خالق كل شئ بمناسبة تعاقب الليل والنهار ، وأن ذلك محل اعتبار فمن صرف عنه فهو خاسر

(٣) بيان أن الأرض جعلت لنا قرارا والسماء بناء ، وأن صورنا حسنة ، ورزقنا طيب ، فالله تعالى كثير البركات والخير وهو حىّ فوجب حمده والاخلاص له وترك عبادة غيره والتسليم له هو

(٤) بيان نظام خلقنا وتدرّجه فى النشوء

(٥) بيان حياة كل حىّ وموته وتعاقبهما

فى هذه المسائل الخمس تدخل العلم الإلهى فى العلم الطبيعى والفلكى ، فعلوم الفلك فى عدد (١) ان تعاقب الليل والنهار واختلافهما يترتب عليه اختلاف الحرارة والبرودة فى الأقطار . إذن هو الأصل وما بعده من أن الأرض قرار وأن صورنا حسنة ورزقنا طيب وارتقاءنا فى الحياة من تراب الى نطفة الى علقة وتعاقب الموت والحياة علينا كل ذلك فروع . إذن العلوم الطبيعية خاضعات لآثار الأفلاك ، فههنا علمان : الرياضيات والطبيعيات . وهى فروع جة واضحة فى ثنايا هذا التفسير ، وقد تخلل ذلك العلم الإلهى لأن نوعى الرياضى والطبيعى لاثبات لهما إلا بمدبر للعالم ، فلذكر تجده يذكر فى أثنائهما ، فقد قال قبل ذكر علم الفلك ادعونى أستجب لكم وحذرهم من الكبر وخوّفهم من جهنم . ثم يتخلل الكلام على العلمين اظهار فضله على الناس وتبيان انه هو الخالق لكل شئ أى فليست هذه العلوم منفصلة مفككة العرى بل لها من يحفظ كيانها . وأخذ يذم الجاحدين لأن الحركات المنظمة لها منظم . واذا كان هذا العالم مملوءا نشاطا وحياة فمن أين أتت هذه الحياة إلا من أن الخالق حىّ ؛ أفلاتحيا نفوسكم بالاخلاص له وحمده والاعراض عن سواه

أليس هو الذى ينقلكم حالا بعد حال فى الخلق بل يخلق الموت والحياة فيكم وفى غيركم . إذن فى هذا العالم حركات هائلة ليل ونهار وموت وحياة وأرض وسماء وصور حسان فى الانسان مشتقة من تراب لاحياة فيه . هذه نبذة عامة فى مجمل هذه الآيات . فهل لك أيها الذكىّ أن تسمع ما ألقيه عليك الآن من نبأ العمران فى هذه الأرض المبنى على الفلك لتعلم أن الاجمال فى آيات القرآن يعوزه التفصيل . إن الوقوف عند حفظ القرآن جهل عظيم وفهم المعنى اللفظى والوقوف عنده غرور وموت . وقف المسلمون غالبا عند ظواهر الألفاظ وناموا . لا أيها المسلمون . هذا إجمال أما التفصيل فانما يكون بجميع العلوم وليس معنى هذا أن المسلم يقرأ جميع العلوم تفصيلا . كلا . بل يختص كل جماعة بعلوم خاصة واذن يستخرجون منافع أرضهم ويحبون ربهم و يرتفع شأنهم فى الدنيا والآخرة . إن الحرارة والبرودة فى الأرض ترجع الى الليل والنهار ارتفاعا وانخفاضا وعلى

مقتضاها يكون ظهور النبات والحيوان وتكاثرهما تارة وقلتهما تارة أخرى وعدمهما بتاتا . الناس والحيوان والنبات موزّعات على الأرض بقوانين كلها ترجع الى سير الشمس . إن الله كما جعل التوسط فى الأخلاق من شدّة ولين هو الصراط المستقيم هكذا جعل المكان الذى يتوسط فيه وجود النبات على الأرض و يتوسط فيه الحرّ والبرد هو الذى يعيش فيه الانسان . أما المكان الذى كثر حره ونباته أو المكان الذى كثر برده فهما لا يصلحان لسكنى الانسان . إذن القانون واحد قانون الأخلاق بالتوسط فيها وقانون سكنى الأرض . شحنت كتب الديانات وكتب الفلسفة بعلم الأخلاق . لماذا هذا ؟ لأن الانسان لا يعيش مع الناس إلا بخلق متوسط فاذا تغالى فى الشدّة أو تغالى فى اللين نبذه الناس فى الأولى بالخوف منه وفى الثانية بضعفه . والنفوس الانسانية لا تحبّ إلا الاعتدال . ذلك لأنك ستعرف قريبا كيف كان الانسان يستحيل عليه أن يعيش فى الغابات الاستوائية لوفرة الحرارة فيها التى بها كثر النبات فطرد الانسان منها . ولا فى الأقطار الباردة لكثرة البرودة التى منعت أكثر النبات والحيوان فلم يستطع أن يعيش الانسان هناك . إذن الانسان عالم متوسط فى خلقته وحياته . متوسط فى أخلاقه ، إذن هناك تناسب بين خلقته وخلقه والله حكيم عليم

وستسمع قولا عاما على الأرض وسكانها وغاباتها و بدائعها مما لم يسبق له نظير فى هذا التفسير ، وفيها ترى عجائب هذه الأرض وتعرف فيها مالا يعرفه السائح حولها لأن السائح بعقله قد يعرف من التفصيل ما لا يعرفه السائح بجسمه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

فقال صاحبي : لقد شوّقتني الى ماتقول ولكني أريد أن يكون هذا المقال على سبيل المحادثة بيني و بينك حتى تتجلى الحقيقة واضحة ظاهرة ، أنت تريد شرح الحرارة والبرودة وماترتب عليهما من الحياة على الأرض وهذه كلها فروع لأصل والأصل هو البنية الانسانية ، ذلك ان كل مانزل من العلم على قلوب الأنبياء أو الحكماء أو العلماء انما يراد به هذه الانسانية ، ولقد ذكرت أنت فى تفسير البسملة فى ﴿ سورة ص ﴾ ما ملخصه أن الانسان له أعضاء حسّ وهى الحواس الخمس وله أعضاء حركة وهى اليدان والرجلان ، ولقد كان هذا أمرا عجبا ! وهل أعجب من أن خلق الانسان جعل مناسبا للعالم فكأن العالم نسخته أو هو نسخة العالم ، أو كأن العالم شجرة وهو ورقتها ، وقد تقدّم فى ﴿سورة يس﴾ فى المقالة المنقولة من كتاب ﴿علوم للجميع﴾ كيف كانت الشجرة صورة مكبرة لورقة ساقطة تحتها فى بعض الأشجار ، أو الورقة صورة مصغرة للشجرة التى سقطت هى منها ، ذلك ان الزوايا التى تحدثها فروع عروق الورقة مع الخط المتوسط فيها (المشبه فى هذا التوسط فقار الظهر مع الأضلاع فى الانسان والحيوان) تشبه من كل وجه الزوايا الحادثة من أغصان الشجرة مع جذعها والحادثة من الفروع الصغيرة مع أغصانها حذو القذة بالقذة ، فهكذا نجد وضع هذا الانسان مع العالم المحيط به ، ذلك انه (وان غفل جمهوره ونام ولم يعقل حقيقة نفسه ولا بهجة جسمه ولا جمال وضعه ولا حكمة خلقه) بحواسه الخمس التى تقدم القول فيها قد استعدّ لمشاهدة الأنوار والظلمات والحيوان والنبات والعالم العلوى والسفلى و بأعضاء حركته استعدّ لأمرين : أمر الانتقال فى الأرض بالرجلين ، وأمر العمل فى الطبيعة باليدين فيصنع ماشاء صنعه بعقله الذى استمدّ الصور من حواسه ، إذن العالم كله مقسم على أعضاء الحسّ وأعضاء الحركة ، فأعضاء الحسّ للعلم وأعضاء الحركة للعمل . فمنها ماهيئ للانتقال . ومنها ماهيئ للعمل . هذا هو الأساس الذى يبنى عليه كل علم فى الأرض وكل عمل . فما البناء الذى تريد أن تبنيه على هذا الأساس الآن ؟ فقلت أريد أن أبنى بناء حسنا جيلا كما ان هذا البناء حسن جيل . فقال : ففى أى وجهة سيكون بناؤك فى ذلك المقال الذى تريد . فقلت : فى وجهة نظام العالم الانسانى كله . إنى أرى ولاشك فى رأيى وأنا موقن به أن جميع النوع الانسانى يجب أن يكون كهيئة هذا الجسم . وأرى أن هذا الانسان كله الآن جاهل كثير الجهل . كثير الغرور لأن من درس هذا الجسم حقّ دراسته ودرس العالم حوله لم يشك أن هذا العالم

بالنسبة لهذا الانسان أشبه بهذه الأعضاء بالنسبة للروح والروح واحـدة فى الهيكل الانسانى والأعضاء مطيعة لها . فلتكن الانسانية واحدة تطيعها العوالم حولها . فقال : هذا قول حسن وتقدم له نظائر فى التفسير . ولكن الاجمال يعوزه التفصيل . فقلت : إن الانسان سائر الى ما أقوله . فقال : كيف ذلك ؟ فقلت : اسمع ياصاح : أضرب لك مثلا رجلا له أبناء كثيرون فبنى لهم قصرا منيفا وأبدعه أيما ابداع . فجعل الأبنية فيه لاتبلغ إلا نحوالثلث والباقى من الأرض جعـل بركة عظيمة تتخلل تلك الأبنية التى تشبه فى وضعها مدينة البندقية (فينيزيا) فان البيوت يحيط بها ماء البحر والناس ينتقلون فى السفن من منزل الى منزل ثم انه ملأ تلك البركة بالسمك وملا تلك الأبنية بأنواع النبات والحيوان والخيرات . فهو فى أوّل الأمر جعلهم متفرّقين فى المنازل وجعل الماء يفصل بينهم . ثم أخذ يعلمهم كيف يضعون خشبات فى الماء وكيف يركبونها فكان سكان أحـد المنازل اذا ركب فى البركة وقابل آخر من منزل آخر أخذا يتحاربان و يتقاتلان ثم أخذت كل جماعة تحارب الجماعات الأخرى واستمرّ النضال جيلا فجيلا وذلك النضال كان هو السبب فى بحث عجائب منازلهم وعجائب بحارهم فقرّ قرارهم آخرالأمر انهم يجهلون ما أراد بهم والدهم . ذلك ان أحدهم قال : انى وجدت فى حديقتى التى فى منزلى انى لا أنال حظا من ثمارها إلا اذا كانت الطيورتأ كل الدود كأبى قردان و بعض الغربان والعصافيرالمغنية وغيرالمغنية وهكذا مما تعدّ بالعشرات ، ووجدت أن البرص والسحلية وغيرها تأ كل الحشرات فى أرض الحقل ، ومن المدهش انى رأيت العنكبوت تنصب الشباك فى الأشجار ولاتقتصر فى صيدها على الذباب بل هى تصطاد حشرات كثيرة . فياأيها الاخوة : ان أبانا ذوعقل وذوحكمة ، انه لم يشأ أن يقول لنا الحقيقة فباعد فيما بيننا ظاهرا وأراد أن نعرف الحقيقة من أنفسنا وان نعرفها إلا بدراستها ولا دراسة إلا بمقدّمات والمقدّمات هى العـداوات التى كانت بيننا وهى السبب فى تعلمنا ، فالعداوة بيننا كانت أشبه بالجوع فالجوع غير مقصود لذاته بل هومهماز يسوقنا الى الغذاء لنعيش والعداوة مهمازأعلى يسوقنا الى العلم لنخترع مانشاء فى المحاربة وفى نهاية العلم اهتدينا الى مايأتى :

ان كل واحد منا يقتل أخاه ليأخـذ ماله ولكنه فى الوقت نفسه حافظ على عصفور وغراب وأبى قردان وكروان وبرص وسحلية وزقزاق بلدى وزقزاق شامى وعنكبوت فى الحديقة وعلى جاموسة و بقرة وجمل . لماذا هذا كله ؟ لأن كل هذه طعام لنا فيمكننا إبادتها بأكلها فى أيام قلائل ولكن نحن بالاختيار أبقيناها لتساعدنا فى حياتنا . فمنها ماتحرث به أرض الحدائق . ومنها مايجرّ لنا العجلات لأعمال الزرع فى الحـديقة . إذن بقاء هذه كلها وان كانت تحت تصرّفنا خيرلنا من إبادتها ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ إن اللذة الوقتية بأكل هذه الحيوانات شرّ مستطير لأنها تحرمنا من ثمرات لاحدّ لها . إذن ننبـذ اللذة العاجـلة إذ احرمتنا نفعا عظيما مستقبلا

هذه نظرياتنا فى منازلنا نحن هكذا نفعل ، فاذا كان بقاء هذه الدّواب والطيور خيرا لنا (لأنها وان كانت تحتل الجوّ والأرض معنا و بعضها يأ كل مما نزرع و يشاركنا بعض المشاركة فى الأرزاق فبقاؤها خير لنا) أفلا يكون كل واحد منا اذا بقى خـيرا لاخوته وان شاركهم فى المطعم والملبس كما يشارك كلا منا دابته فى أكل بعض الحبوب وفى سكنى بعض أجزاء المنزل ومضايقتـه ، مع ان نفع الدواب محدود ونفع الانسان أوسع وأعظم قدرا

فلما فكر اخوانه فى كلامه قالوا صدقت والله ، وقال آخر منهم : « أيها الاخوان : إن أبانا كان حكيما فلم يفعل معنا مافعلته الطيور تعيش جماعات من غـير تعليم ولاتثقيف ، فهوفرّقنا ظاهرا ولم يشأ أن يجمعنا إلا بجدّنا واجتهادنا وأحاط منازلنا بالماء حتى يكون لنا ميدان تسابق وسهل لنا سبل التواصل والتعقل حتى اذا اجتمعنا بعد الافتراق كان اجتماعنا بعقل فنرتفع فى السعادة الى أعلى منزلة بخلاف الحيوان فانه يقف عند حدّ

واحد وعاشوا بعد ذلك وارتقوا ارتقاء لاحد له

هذا هو المثل الذى أردت أن أضرب به لأهـل الأرض الآن ، فالأبناء تمثيل لبنى آدم ، والأب تمثيل لله عزّوجل ـ ولله المثل الأعلى ـ والمنازل هى القارّات والجزائر والبركة المحيطة بالمنازل هى البحر الملح المقسم الى أقسام كل قسم منها سموه محيطا فيقولون المحيط الاطلانطيق والمحيط الهادى والمحيط الهندى وما أشبه ذلك والخشبات التى ركبها الأبناء هى السفن فى البحار والعـداوات بينهم مثل للعداوات التى بين أهل الأرض ، و بقية القول معقول مفهوم

و بيت القصيد فى هذا المقام أن هذه الانسانية جاهلة غاية الجهل وهى اليوم آخذة فى رقيها ، ثم انظر الى ماقدّمنا فى ﴿ سورة يوسف ﴾ من أن الطيور النافعة كان الاورو بيون يقتلون منها أبا قردان وغيره . وهذه الطيور خلقت محافظة على الزرع تقتات من الدود فى الأرض فيسلم الزرع . فلما كان الاورو بيون فى بلادنا قوما لارادع ولازاجر لامن ضمائرهم ولامن حكوماتهم عاثوا فى الأرض فسادا وقتلوا هذا الطير لتتحلى نساؤهم بر يشه فهلك الزرع . فلما كتبت مقالا فى إحدى المجلات العلمية وقرأه الوزراء صدر الأمر بابقاء الطيور البالغات نحو (٣٠) طيرا مذكوراً كثرها فى ﴿ سورة يوسف ﴾ كما قلنا و باقيها فى سور أخرى

الله أكبر : اللهم إنى أحمدك على العلم وأحمدك يارب على الحكمة ، أنت المنعم أنت المعلم ، يارب ان العلم واضح والعيون تشاهد صوره ولـكن القلوب مقفلة

اللهم إنك تعلم أن الأمم كلها أشبه بالأمة المصرية ، والجهل بمنافع الانسان فى الأرض كجهل قومنا بمنافع الطيور وظهور حكماء فى الأرض يعلمون الناس ثمرات بقاء الانسان على الأرض كظهور المقال الذى كتبته فى فوائد الطيور آكلة الدود وتحريم الحرب والقتال بين الأمم اجتناء لفوائد الأمم كلها كتحريم حكومتنا المصرية صيد الطيور فانتفعنا بزرعنا ، وهل الانسان الحالى إلا كما قال الله تعالى ـ قتل الانسان ما أكفره ـ

هذا هو المثل الذى ضربته من حيث الطيور المصرية وتحريم صيدها استبقاء لمنفعتها ومضاهاة منفعة الانسان ببقائه بمنفعة الطيور ، فشهوة اغتيال أمة لأخرى شهوة وقتية و بقاء الأمة الضعيفة مفيد للأمة القوية كما أفادت الطيور والدواب الانسان وهى ضعيفة أمامه . إذن النظرية التى شاعت وذاعت فى الكرة الأرضية فى القرن التاسع عشر من أن الأقوى يبيد الأضعف وجعلها عامّة نظرية خاطئة ، فلو كان مايقولون حقا لم يعش حيوان نقدر على أكله مع ان الطيور فى منازلنا وحقولنا وكثير منها حرّمنا أكله لمنفعتنا ، إذن هى نظرية جزئية جعلوها عامّة ، وضلال هذا الانسان أكثره يرجع الى تعميم القضايا والحكم بالجزئى على الكلى ـ قتل الانسان ما أكفره ـ

فقال صاحبى : لقد أجدت والله وأنصفت وأتيت بحكمة شريفة وآية منيفة وعلم تام ، ولـكنى أتذكر انك قلت لى « ان الانسانية متجهة الى وجهـة الاتحاد العام » . فهل تشرح لى ذلك ؟ وقلت : « ان أبناء الرجل الحكيم فى قصره الواسع أدركوا أن أباهـم أراد إسعادهم من طريق نصبهم هم لامن طريق المنحة المجانية » فهل تشرح لى الأمرين معا فى شأن هذا الانسان ؟ فقلت : أما الأمر الثانى فهو واضح ألا ترى رعاك الله أن هذا الانسان أعطيت له الأرض وترك فيها وقيـل لآدم وذرّيته ـ اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدوّ ـ

و ياليت العداوة اقتصرت على أن تكون بين الانسان والانسان بل جعلت بينه و بين ماحوله . الأرض دائرة حول الشمس تقرب وتبعـد وفيها مناطق باردة وأخرى حارّة . فلاهو بقادر أن يسكن الباردة ولاهو بمستطيع أن يسكن الحارّة . فالمناطق الباردة قلّ فيها النبات والحيوان . والمناطق الحارة اكتظت بالنبات فطرد الانسان منها والأمطار تهطل ليلا ونهارا فلن يقدر أن يوقد النار فيها فـلابد من أن يعيش فى الأقطار

المعتدلة . وهـذه المعتـدلة تـكون فيها الغابات القوية وتـكاد تمنعه أيضا من ولوجها . ولـكن لما كانت تلك الأقطار يتشابها الصيف والشتاء والخريف والربيع . وكان الخريف والشتاء فصلين يجرّدان الشجر من قوّته بعض التجريد قدر الانسان إذ ذاك أن يدخل فى تلك الغابات وينتفع بما فيها . فهو اذا طرد من القطبين ومن خط الاستواء لم يعدم وسيلة بها يدخل فى غابات الاقطار المعتدلة حيث تساعد أحوال الجوّ على ولوجها واستعمارها والانتفاع بأشجارها

وما هذا أيها الذكىّ إلا مثال واحد من أمثلة أعمـال هذا الانسان . فهو اذا دحرته غابات البرازيل حيث الشمس حارّة فى أمريكا وطردته غابات افريقيا الاستوائية فلم يستطع سبيلا لتذليلها أوالسكنى فى أرضها لقوّة النبات ولا السياحة فى داخلها إلا بمشقة فانه قدر أن يتمتع بنباتات المناطق المعتدلة ويغالب الطبيعة هناك . ثم ان الانسان لم يستطع ذلك إلا بالجوع الـكثيرة منه . فأما الأفراد فلا

ياعجبا : هـذا تفصيل جسم الانسان ، انه مفصـل على مقتضى هذه الدنيا وهذه الدنيا كلها وجدناها مزرعة له ، ثم ألفيناه عقل بعض النظريات العلمية لحافظ على كل حيوان نافع له فأبقاه لأنه نافع له فى اجتناء الفوائد ، وهاهوذا يرى فوائد غزيرة فى الغابات الافريقية والغابات فى البرازيل ، يرى منافع ومنافع وعجائب تحت الأرض فى القطبين ، فهناك الفحم وهناك (غزال الرنه) ومنافع كثيرة ، وكلها موصـدة أمامه تحتاج الى عناء ونصب وعقول وقوى ، أفلاتـكون تلك المنافع القطبية والتى فى الغابات الاستوائية ومنافع الهواء والماء وضوء الشمس التى لاتزال كلها لغزا أمام النوع الانسانى . أقول : أفلاتـكون هذه كلها مضاهية لمنافع زرعنا وتـكون الأمم التى يسـمونها ضعيفة بمنزلة الطيور آكلات الدود لحفظ زرعنا . لا لا . والله ان الأمم الأرضية أعظم نفعا وذخرا فى استخراج ثمرات العوالم المحيطة بنا من أبى قردان فى حفظ زرعنا ومن العنكبوت فى حدائقنا المبيد لبعض حشراتها ، فالانسان الآن جاهل أشدّ الجهل بهذه النظرية العلمية ، وعلى كل من اطلع عليها وكان من أهـل النبل والشرف والجاه والحـكمة أن يذيع العـلم فى أمم الاسلام أوّلا ثم يبث فيهم روح الجدّ والنشاط واكتناه العوالم العلوية والسفلية ، ثم إن المسلمين اذا أشربت قلوبهم الحـكمة يكونون هم السبب فى ارتقاء أهل الأرض لأن أهل أوروبا وأمريكا ينظرون الى الظواهر فيجعلون لون السواد ولون الحمرة فى أبناء السودان ببلادهم وأبناء أمريكا الأصليين من أسباب العداوة ، فلايطيقون أن يروهم فى أماكنهم العامّة ، وهكذا أهل (كلكتا) فهم يطردون السود من بعض مطاعمهم ، و بعض تلك الأمم تنقضّ على الأمم الضعيفة لتأكل خيرها وتذلها كما يفعل الفرنسيون مع أهل مراكش والجزائر وتونس وكما تفعل ايطاليا مع أهـل طرابلس وكما تفعل انـكلترا مع فلسطين ومصر والهند . وهاهى ذه اليوم قد سجنت غاندى الزعيم الهندى الذى قام بالحركة الاصلاحية هناك وطالب بعدم اسراف المـال فى الملابس الأجنبية وعـدم شرب الخمر القاتل للانسانية . إذن هـذه الأمم كلها جاهلة قدر الانسانية فهى لاتصلح لرقيها وقيادتها . إن الأسد لا يصلح لقيادة الانسان وانما يصلح لأكله ونحن نريد أن يحكم الانسان و يعلمه انسان مثله لا حيوان !

الأرض قد بخلت بـما لديها فلم تفرط فيما عندها من غابات خط الاستواء ونحوها ولامن المدخرات فى القطبين ونحوهما إلا اذا كان أبناؤها جميعا يدا واحدة فى استخراج ذلك . وهؤلاء لقلة تبصرهم يتركون الحقائق الـكامنة . و يصدّهم عن هذا النعيم المنتظر للانسانية كلها مظاهر الألوان واختلاف الأديان والأقطار واللغات إذن الانسان جاهل كل الجهل . فليتعلم المسلمون وليعلموا الانسانية . أناموقن أن هذا القول سيخوض البحار و يقرؤه أهل الأقطار وتنقله السفن فى البحار والطيارات والبالونات التى يركبها الناس فى الجوّ وتنتشر الفـكرة و يعم الاتحاد وتخرج الانسانية من جاهليتها

إن

إن الانسانية اليوم استعدّت لفهم هـذا القول . وهـذه الطيارات تطير حول الكرة كلها والسياحون يطوفون حولها فى السفن والقطرات البرّية والعلماء يتسابقون الى الكتابات فى السلام العام كما أكتب أنا الآن إذن اتحد على هذه الفكرة سير السفن فى البحار حول الكرة الأرضية وطيران الطيارات حولها أيضا وكتابة العلماء فى الاتحاد العام . وهذا نوبل مخترع الديناميت المشهور قد أعدّ جائزة لمن ينفع السلام العام . فـأقول اليوم جاء أوانه . فليدل المسلمون دلوهم فى الدلاء . وليقوّموا أنفسهم أوّلا ثم ليقوّموا الانسانية ثانيا والله هو الولىّ الحميد

فقال صاحبى : نعم مافصلت وحسن مادبجه يراعك . ثم أذكرك انك تقول : « إن غابات خط الاستواء وغابات بلاد البرازيل لايمكن اجتيازها لصعوبتها » وذكرت أمورا لايعرفها إلا القليل . فأحب أن تذكرها لنا من مصدر علمى واسع النطاق يشرح هذه المواضيع كلها وما شابهها شرحا واسعا كما وعدت بذلك فى أوّل المقال فقلت اسمع ماجاء فى كتاب « الجغرافيا التجارية الاقتصادية » تحت العنوان التالى وهذا نصه :

﴿ الانسان وتوزيعه على المعمور ﴾

(تكاثف السكان)

شروط صلاحية القطر للسكنى ، مغالبة الانسان طبائع الاقطار التى يسكنها . أسباب قلة سكنى الغابات الاستوائية . مقارنتها فى ذلك بالغابات المعتدلة . التغيرات الفصلية تعد القطر للسكنى ، وكذا التغيرات الدهرية ، الحرف وتأثيرها فى عدد السكان

انظر الى خريطة العالم حيث توزيع السكان على المعمور تر الانسان منثورا فى متفرق النواحى من غير مساواة فى العدد فهذه الصين والهند وما جاورهما غاصة كلها بالسكان وهناك جهات أخرى من العالم الفسيح لايسكنها إلا النفر القليل حتى فى الولايات المتحدة وهى جمهورية واحدة ترى الانسان متجمهرا فى جهة الشرق ثم يرق شيئا فشيئا جهة الغرب وفى جنوب أمريكا تراه كذلك محتشدا فى جهات منتثرا فى أخرى وهاجرا شتى وكذلك فى أفريقية وأستراليا والخلاصة أنك بالتأمل فى الخريطة لاترى الانسان موزعا بانتظام فى أنحاء الأرض بل ترى منها مااختصه بسكناه فتزاحم عليه وربما كان ذلك لعهد قديم مثل مصر ومنها مانضب عدده فيه مثل معظم أفريقية فلماذا كان بعض الجهات أصلح لمقام الانسان من البعض الآخر ؟ هذا مانجيب عنه

الانسان محتاج الى هواء معتدل فالرطب منه جدا والجاف جدا كلاهما لايطيب له ومحتاج أيضا الى مقدار معتدل من الحرارة فالأصقاع الباردة جدا والحارة جدا تضربه ولاتصلح له ومثل ذلك النبات والحيوان ولذا نرى أن الجهات النادرة الحيوان والنبات قل ان تصلح لمقام الانسان فى أواسط القارة المتجمدة وفى أواسط الأرض الخضراء حيث توجد فلوات الجليد قل أن تدب دابة فلا يتسنى للانسان عيشة فيها كذلك فى قلب بعض القارات حيث ترتفع درجات الحرارة وحيث يجف الهواء جدا فينشأ عنه الصحارى القاحلة لاينتظر للانسان عيشة وكذلك سفوح البراكين الحية وأمثالها من سطح البسيطة التى لم يستعمرها الحيوان والنبات ستبقى خلوا من الانسان مفلتة من قبضة يده إلا إذا تغيرت أحوالها وتبدلت أطواره

ومن المعلوم أن لكل صقع مجموعة خاصة من حيوانات ونباتات فكلما ساد الانسان فى صقع وتكاثر فيه كان ذلك على حساب تلك الحيوانات والنباتات الأصلية يزيحها ويحتل مكانها . عمر الانسان البرارى الاسكتلندية

مثلا منذ أقل من قرن فاذا تركت قلل جبالها جانبا ونزلت الى حيث يسكن منها وجدت « الجلنج » قد فنى وليس منه إلارقاع صغيرة فى المراعى ورأيت حقولا من الشوفان والبطاطا واللفت والكلأ ومثل ذلك

وماهى الاحاصلات تافهة فى جانب مايزرعه الفلاح الانجليزى فى الشرق . ولكنها مع ذلك تمثل المطلوب من أن الانسان يكتسح الاجناس الطبيعية السائدة بالصقع الذى يستعمره و يضع محلها نباتاته هى التى يختارها غذاء وكساء . وهكذا كلما تفشى فى صقع عمد الى ذلك العمل على نظام ومنوال أوسع . تطوف بانجلترا وتسيح فى فرنسا فترى الأفدنة الشاسعة من الأراضى الزراعية المخدومة تنبت أنواع الحاصلات المختلفة وهذه هى نفس الأراضى التى كانت فى وقت يحسبه الطبيعى غير بعيد تكتنفه كله الغابات الكثيفة وتشوهها المستنقعات المؤذية فطهرتها يد الانسان بالجد والعمل ومثل ذلك وقع على الحيوانات فاذا ماسرنا فى الأراضى المنحطة من انجلترا واسكتلنده وجدنا من الأنعام والأغنام والخنازير والدجاج والأوز والبط خلقا كثيرا تملأ الضياع هناك وكل هذه الحيوانات المنزلية قد استنفرت الى الروابى ونجاد « ديفون » و « كورنوول » غزلانا كانت تجول فى الأحراج القديمة فى بريطانيا . ومن أجلها أيضا استؤصلت شافة الذئاب العاتية التى كانت تعيث فى الأرض فسادا وتعيش على تلك الحيوانات البرية وقصارى القول أن الانسان لا يمكنه أن يعيش فى هذه الدنيا إلا بقلب طبيعتها واختصاص نفسه فى محله الذى ينزل فيه ببعض الحيوانات دون الأخرى و بمطاردة التى لا تنفعه لتفسح مجالا لما يعوزه و يحتاج اليه

قلنا أن الانسان تتعذر عليه الحياة فى الجهات التى يسوء فيها نمو النبات وصحة الحيوان ولكن قد تكون غزارة النبات من جهة أخرى سببا فى حرمان الانسان من سكنى الجهات الفسيحة فاذا نظرت الى خريطة سكان العالم وجدت جزءا عظيما من البرازيل حيث الشمس حارة وضاحة والمطر وافر غزير يطيب فيه النبات و يزهو و يتكاثف و يعلو فيكون الأحراج الاستوائية ولكنك تبحث عن الانسان فى وسط هذا العالم فلا تكاد تجده إلا قليلا ومثل هذا فى غابات أفريقية الاستوائية فليست قلة الحياة النباتية هى التى تعرقل مساعى الانسان فى استعمار مثل هذه الجهات بل غزارتها ووفرتها الزائدة عن حد الطاقة اذ الغابات الاستوائية هى مايسميه النباتى « بالتآلف المطبق » أى المكان الذى يكون نضال الحياة النباتية فيه شديدا قاسيا لا يتسنى لأجناس جديدة أن تدخل فيه

نعم ان العراك والنضال النباتى كذلك شديد فى غابات المنطقة المعتدلة ولكنه تصحبه فى كل خريف وشتاء « هدنة من الله » اذ تضعف قوى الأشجار و يخمد ماء حياتها فى عروقها فيقوى عليها ساعد الانسان فتكون له الغلبة آخرا حتى اذا جاء الربيع الذى تماثل فيه الأشجار الى القوة والفتوة لم تغلبه ولم تستعص عليه اذ كان قد ذللها من قبل واجتث منها وملك ناصيتها ولا يخفى أن فى الغابات المعتدلة تكون المقاومة بين الأشجار الكبار أما النبت على أديم الأرض فليست له مقاومة تذكر خلافا للغابات الاستوائية إذ التفت الساق بالساق بزاحفات من النبات متعددة قد تكدس منها على أديم الأرض عالم كثير حتى قال أحد السياح أن فى غابة غانة الجديدة الاستوائية اذا سار جماعة فيها ثلاثة أميال فى اليوم عد ذلك أمرا عظيما جدا لأنهم فى الغالب لا يستطيعون قطع نصف هذه المسافة فى اليوم وقال أيضا انه لا يوجد من حاصلات الغابة ما يمكن أن يقتات به الانسان فاذا نفد ما كله تهدده الجوع بالقتل

النضال فى الغابة الاستوائية شديد جدا والظروف الطبيعية هناك توافق حالات النبات لدرجة يتعذر معها وجود حيز فيها غير مشغول فتفرع الأشجار وتبسق الى عنان السماء تطاول الواحدة جارتها . وكلما تناطحتا وحجبتا الضياء عن الأرض تحتهما تسلقت عليهما النباتات الزاحفة طلبا للعلو حيث الهواء والضياء . وقد لا تصل جذورها الى التربة الأرضية بل تجد غذاءها الكافى بين الأوراق البالية . ومن الرطوبة الموجودة فى هواء

الغابة

الغابة الجبل

هذا وعلى ضفاف الأمازون الفائرة حيث يطلب الباحثون المطاط ليرسلوه الى أوروبا لتتخذ منــه اطارات السيارات وغيرها من منافع المدنية يتكبد رواده الشقاء والعناء من تزاحم الشجراذلا يرجون التسيار والتنقل إلا بقرب الضفاف حيث تبعثر الأشجار ويقل عـددها نوعا وفى غابات فرموزا واليابان والصين يطلب الرواد أشجار الكافور ليصنعوه بخورا أوكرات للعثة ولكن جهدهم هـذا يبذلونه أيضا بشق الأنفس لأن أشجار الكافور توجد فى الغابة متفرقة الواحدة عن الأخرى فكلما جمعوا شيئا من بقعة ارتحلوا طويلا الى غيرها وكم فى هذا من عناء وعذاب

فما أكبر الفارق بين هذه الغابات و بين أمثالها فى المنطقة المعتدلة حيث توجد فى بعض جهاتها الرطبة من البحر الأبيض المتوسط مساحات ضخمة كلها من شجر أبى فروة والجوز واللوز والصنوبر والخرنوب وتوجد مساحات ضخمة من الزان والبلوط و يسميها كلها النباتيون « الأجناس المتجمعة » لأنه اذا وجدت زانة وجد من نوعها الكثير فتنسى تربية الخنازير على مقربة يطعمونها من حبه . ومثل هذه الأجناس المتجمعة من الاشجار نادرة الوجود فى الغابات الاستوائية . ولذلك لابد من بذل الجهد فى طول الغابة وعرضها للبحث عن النبات الصالح

كذلك تكثر فى الغابات الاستوائية الحيوانات ذوات الثدى ولكن أفراد كل نوع منها قليلة فلا يوجد فيها مثلا ماعلمناه من وفرة عدد الجاموس البرى ببرارى أمريكا ولا الغزلان بسهول أفريقية ولا الحيوانات الأخرى بسهول آسيا قبل ان تصل اليها قدم الانسان ومايذكر من الأسباب هنا هو ماسبق ذكره عن المطاط والكافور مقارنا بالزان والبلوط ويوجد بغابات البرازيل أنواع كثيرة من القردة ولكن عدد كل نوع منها قليل جدا ويوجد الحيوان البطىء المسمى بالكسلان ولكنه نادر جدا ويوجد بها حيوانات أخرى كآكلة اللحوم تتسلق الأشجار ولكنها قليلة أيضا وحالها هذا مصداق ماسبق قوله

والمقصود من هذا البحث أنه اذا قلت أنواع النبات والحيوان التى من جنس واحد عز بسببها الاستعمار وصعب الاستثمار وقلت السكنى وزد على ذلك أنه يوجد بالغابات الاستوائية الحيات الرقطاء والحشرات السامة ولكنها مع ذلك أقل خطرا من البعوض الذى أغلبه مصاص الدماء ويحمل من فريسة الى أخرى جراثيم الأمراض مثل الملاريا ومرض النعاس ومنــه مايبيض تحت الجلد فيحدث القرح الأليمة . ومن الحشرات مايعض أو يخز والكثير من الهوام والبعوض يتأثر من التعرض لضوء الشمس فى بعض أدوار حياته فيموت فاذا أمكن للانسان أن يطهر الغابة منه زال الخطر وتسنت المنفعة ولكنه فى الغابات الاستوائية الممطرة يحول الجو بينه و بين أعظم مساعد له على التطهير وهو « النار » فاذا كان ثمة صقع يتناوبه الجفاف والمطر (مثل غابات غرب أوروبا) أمكن للانسان انتهاز الموسم الأول فيشعل الحشائش الطوال و يبيد جيشا كبيرا من النبات الملتف فيكون الرماد الناعم تربة خصيبة تكون مهادا لبذور النبات الصالح الذى متى رعاه وتفقده أتى بالخير العميم . ولكن اذا كان الجو دائما دائبا على الأمطار تعذر أشعال النار وغلت يد الموقد

ومن ذلك نرى أن الأصقاع التى يسكنها الانسان يشترط أن تكون عرضة لتغيرات طبيعية صالحة لنمو النبات غالبة مرة ومغلوبة أخرى سواء أكان التغير فى درجة الحرارة كما فى مناطق خطوط العرض المرتفعة فى المعتدلة الباردة أم فى درجة الرطوبة كما فى الهند والصين بسبب التغيرات الموسمية أوفيهما معا كما فى بعض جهات الصين أيضا أعنى أن الممالك التى يكثر فيها الانسان هى التى يروج فيها النبات فى مواسم مخصوصة بسبب تغيرات الفصول وعلى ذلك فالأصقاع شديدة الرطوبة غير صالحة لأن موسم الرواج فيها قصير جـدا أو منعدم بالمرة اذا كانت متطرفة فى شدتها . وكذلك بعض الاصقاع الاستوائية حيث درجة الحرارة مرتفعة دائما والمطر

هطال دائما

ويدخل فى معنى الفصول هذه تلك التغيرات الطبيعية الموسمية التى كانت سببا فى إخصاب أرض مصر وإعدادها للسكنى من زمان قديم وهى جزء من الصحراء فدرجة الحرارة فيها دائما مرتفعة ارتفاعا نسبيا والمطر يكاد يفقد فيها مرة واحدة فتغير الفصول غير مشاهد فيها بالمعنى المراد اذا قارناها « بنيوفوندلاند » مثلا حيث الفرق بين درجة الحرارة فى الصيف والشتاء قد يصل الى ٥٠ درجة ف . من هذه الأسباب كان مورد الحياة فى مصر هو نيلها لاغير يعلو ويهبط سنويا فى مواسم معينة فاذا علا فاض بالماء الذى فيه حياة أهلها وحاصلاتهم واذا هبط حل الجدب الذى فيه موت كثير من أعداء الانسان من العشب غير الصالح وبعض الهوام وفى أثناء هذه الفترة القصيرة يتسنى له أن يجمع حاصلاته وأن يغلب على الماء فيحمله بالقنوات أنى شاء فيتزايد الزرع والحاصل ويموت جيش النبات الضار

والخلاصة أن نباتات أى صقع وحيواناته ماهى إلا مجموعات مرتبطة ملائم بعضها لبعض قد هيأها الله لحالة الصقع من أزمان فكل شئ يضطرب بسببه ولو قليلا هذا التوازن الدقيق يصبح فرصة سانحة لدخول الانسان وتحصل الاضطرابات هذه فى كثير من أنحاء الأرض بسبب دورة الأرض وتغييرات الفصول الناتجة عن تلك الدورة وكلما حصلت هذه التغييرات على نظام أوسع فى صقع ما وسهل على الانسان التدخل كان ذلك الصقع ساحة الوغى التى يجول فيها الانسان ويصول بخيله ورجله ويصل فيها الى أوج المدنية

وقد يكون مع التغيير الفصلى تغيير دهرى يقع فى أثناء الأجيال والدهور فيؤثر فى نتيجة الموقعة القائمة بين الطبيعة والانسان من ذلك انه يظهر فى فلسطين واليونان وفى معظم أواسط آسيا مثلا أن قد تقلب دهور وعصور تغيرت فيها مع البطء الشديد مقادير الأمطار الساقطة هناك فحال هذا التغيير بين الانسان وبين كثير من المنافع التى كانت فى حظوته قديما وأمكنت الطبيعة البرية من أن تسترد كثيرا من أراضيها المغصوبة

كذلك عملت تغيرات أخرى من قرون لاعدد لها على جفاف تربة أوروبا . وفى أواخر عهد الجليد تحسنت حال المصارف فى جزء عظيم من تلك القارة بسبب تأثير الجليد فى سطح الأرض وإيجاده البحيرات ثم انتظمت مجارى الأنهار وفاضت بالطمى فانصلحت الأراضى حتى قال أحد الجغرافيين ان مثل هذه التغيرات الدهرية كانت العامل الأعظم فى التقدمات الباهرة التى حدثت فى القرون الأخيرة بأوروبا وأمريكا إذا كتسح عهد الجليد نوع الانسان القديم كما اكتسح معه حيوانات أوروبا وقد جعل الأرض بما أحدث من التغييرات فيها صالحة لسكنى الانسان المتمدين

ويقولون ان المدنيات القديمة التى يقرؤنها على الحفائر وغيرها فى مثل أواسط آسيا وبلاد العراق وفى مثل فلسطين وحتى فى جهات أمريكا الوسطى كلها تثبت أن الجو فى تلك الأيام الخالية كان غيره الآن . ولولا ذلك مازرع فيها القمح ولاغيره قديما ولاعاش بها انسان فى ذلك الزمان وفى هذا المعنى يقولون أن جو أوروبا الآن وفلسطين وآسيا الصغرى الخ . قد قلت فيه درجة الرطوبة عن قبل أمطارا وثلوجا

وينسبون التغيرات الدهرية الى إرسال الشمس شعاعها المتغير كثيرا أو قليلا على حسب طبيعة جوها التى هى فيه فاذا اشتد شعاعها كثرت عليها السفع . ويكون ذلك رمزا على كثرة الحرارة التى تعترى سطح الأرض من جراء ذلك ثم تكون هذه سببا فى تسخين الهواء واحداث زوابع الأمطار والثلج (أى فى رفع درجة الرطوبة) فاذاشعت الأرض حرارتها جميعها صار سطحها باردا جدا وهذا تعليل برودته ورطوبته قديما

ومما تعرف به التغيرات الجوية الدهرية أعمار الأشجار القديمة ففى غرب أمريكا مثلا توجد أشجار عمر الواحدة منها ألفا سنة أو أكثر وعمر الشجرة يعرف من دراسة الحلقات الموجودة على خشبها . ومن هذه الحلقات يستدلون على مقادير الرطوبة فى تلك العهود وتعرف التغييرات الدهرية كذلك من دراسة مستوى

البحيرات

البحيرات الملحة القديمة فى مثل غرب الولايات المتحدة وخص طبقات الصود يوم والكاوربن هناك إذ يرى لدى الشاطىء حزوز الطبقات فالعالى منها يثبت امتلاء البحيرات الى حده و يدل على كثرة الرطوبة فى وقته والواطىء يثبت انحسار مستوى البحيرة الى حده ويدل على قلة الرطوبة وهكذا

نرى من كل ماتقدم أنه لانبات بريا ولاحيوان وحشيا قد أظهر من القدرة على الانتشار فى العالم مثل ماأظهر الانسان وأنه لانبات ولاحيوان قد تناسل مثل تناسله فالخلنج على البرارى سالفة الذكر قد يكثر حتى يخيل الى الناظر اذا ماوجد هناك أن العالم كله خلنج ولكنه اذا ترك هذه البرارى ونزل الى الوهاد أوالى الوديان البسامة لم يجد للخلنج فيها أثرا مرة واحدة . سر على جبال الألب بين أشجار التنوب وغابات الصنوبر فيخيل اليك أن العالم كله تنوب وصنوبر . ولكنك اذا غادرت موقعهما من الجبال مشيت الأيام والليالى دون أن تعثر لهما على أثر . تكلمنا على الجاموس الامريكى والرشا الافريقى وذكرناهما أمثلة من وفرة النتاج بجهة من الجهات وهما مع ذلك لم يشغلا من سطح الأرض إلاجزءا صغيرا بالنسبة له

انبث الانسان فى جهات الأرض وعمرها وهو وان اضطر الى الفرار من غابات الاستواء وهجير الصحراء و بوادى الأقطاب ومن النجاد والوهاد القاحلة فهو مع ذلك فائز منصور حيث لم يحظ غيره من النبات والحيوان بمثل ظفره وانتصاره سواء عنده جوانب الألب الشامخة وهضاب تبت الباردة والوديان البسامة والسهول الخصيبة فقد عمرها كلها وانبث فيها مصطحبا معه أينما حل قطعانه المنزلية ونباتاته الزراعية قد ذللها جميعها فدانت له وتبعته الى أقصى الأرض حيث لم توجد أجناسها من قبل

هذا والحرف العصرية التى يجدّ العالم فيها و يلج الآن وغدا لها تأثير عظيم جدا فى السكان على المعمور فالأقطار « الزراعية » تجتذب اليها السكان و يتزايد عددهم فيها كلما أخصبت الأرض وأينعت محصولاتها فتفيض عليهم بالأرزاق والأقوات فى مثل الهند والصين وغيرهما والأقطار « العشبية » التى تقوم فيها حرفة الرعى يقل عدد سكانها عن الأخرى الزراعية كما يلاحظ ذلك من الخريطة الخاصة و يرجع السبب فى ذلك الى عدم سخاء الطبيعة بالقوت الكافى للكثير من السكان

وأما أكثر الحرف اجتذابا للسكان فهما حرفة « الصناعة » وحرفة «التعدين» لما تتطلبه كل من كثرة الأيدى العاملة على استثمار المناطق الخاصة بهما ولما ينجم عن مزاولة الحرف الصناعية الآلية من عظيم الأجر وكبير الربح ولذا ترى المناطق الصناعية من انجلترا وألمانيا و بلجيكا والروسيا أغص جهات هذه الممالك سكانا وأكثرها ثراء ويسارا و بدهى أن المملكة التى يتجمع فيها عدد من الحرف يتجمهر فيها السكان بمقادير عظيمة تمثل ماوصلت اليه هذه الحرف من الرقى كما هو الواقع فى شرق الولايات المتحدة ويحسن هنا مطابقة خريطة حرف العالم على خريطة تكاثف السكان . انتهى ماأردته من كتاب الجغرافيا التجارية الاقتصادية

فلما سمع صاحبى ذلك قال : لقد وفيت بالمراد . وأتيت بالعجب العجاب . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم السبت ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٠

﴿ أسرار العلوم المخبوءة فى هذه السورة ﴾

جاء صديقى العالم الذى جرت عادته أن يناقشنى فى هذا التفسير . فقال : لقد فسرت الرحمة فى البسملة وطبقتها على مافى السورة تطبيقا تاما ، ولكن بقى فى النفس شئ . فهل تأذن لى أن أسألك استيفاء لهذا المقام وايضاحا للأنام . فقلت : نعم . فقال : إنّ فى السورة ﴿ أوّلا ﴾ الذنوب ومغفرتها ﴿ ثانيا ﴾ الكفر والايمان ﴿ ثالثا ﴾ محاورة المؤمن من آل فرعون معهم ﴿ رابعا ﴾ محاجة الكفار فى النار من الضعفاء والمستكبرين ﴿ خامسا ﴾ مايقوله بعض المفسرين فى قوله تعالى ــ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق

الناس ـ الخ إذ جعلوا ذلك اشارة الى الدّجال ، ألم تر الى ما جاء فى كتاب « تنوير المقباس » من تفسير ابن عباس المؤلف فى القرن التاسع الهجرى إذ جاء فيه : ـ إنّ الذين يجادلون فى آيات الله ـ هم اليهود وكانوا أيضا يجادلون مع سيدنا محمد ﷺ بصفة الدجال ورجوع الملك اليهم عند خروجه وقوله ـ ان فى صدورهم إلا كبر ـ أى عن الحق ـ ماهم ببالغيه ـ أى يبالغى مافى صدورهم من الكبر ومايريدون من رجوع الملك اليهم عند خروج الدّجال ـ فاستعذ بالله ـ يامحمد من فتنة الدّجال ـ انه هو السميع ـ لمقالة اليهود ـ البصير ـ بهم وبأعمالهم و بفتنة الدجال وبخروجه ، لخلق السموات والأرض أكبر أى أعظم من خلق الناس أى من خلق الدجال ـ ولكنّ أكثر الناس ـ يعنى اليهود ـ لايعلمون ـ فتنة الدجال

هذا مارأيته فى ذلك ، وابن عباس رضى الله عنه شرفه عظيم وعلمه نبوى وقد دعا له رسول الله ﷺ

هذه هى الفصول الخمسة التى أريد منك شرحها وان كان فى ذلك مشقة عليك ، ولكن أنت محب للعلم ومحب لرقىّ العقول ، وحديثنا يقرؤه المسلمون بعدنا ، فالفائدة عامّة فأرجو أن تحدّثنى كيف يكون الله هو الرحمن الرحيم والناس :

(١ و٢) يذنبون أو يكفرون

(٣ و ٤) وكيف عصى آل فرعون من آمن منهم ، وأضلّ المستكبرون الضعفاء ، فأين الرحمة ؟

(٥) وكيف يخرج الدجال فيضلّ الأمم ونحن نستعيذ بالله منه كل حين والله قادر أن يرفع هذه عن الأمم . ولقد تبين لى أن تفسير ابن عباس مؤيد بما ندعو به فى كل صلاة إذ نقول « وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال » فهذه مشا كل نحن فى حاجة الى حلها وطرق يعوزها التعبيد حتى تكون مذللة لنسير فيها على صراط مستقيم

فقلت : لقد تقدم فى تفسير البسملة مايغنى عن الاجابة الآن . انظر رعاك الله الى ماجاء فى تفسير البسملة فى أوّل سورة الروم وأوّل سورة لقمان . فقد ذكرت هناك كيف كانت الآلام التى تعرض لأبدان الحيوان خلقت لمنفعته هو . وكيف كان الضرب والكسر والصدم والجرح والبرد والأمراض والأسقام وكل مايضرّ الجسد ويفسده ، كل ذلك انما جعل منذرا لنا لنصلح مافسد بسبب الأحوال المادّية فى هذه الدنيا وهكذا ذكرت لك هناك أن قتال الفرس والروم والمسلمين مقيس على أحوالنا المرضية . فهذه أمراض اجتماعية تنذرنا باصلاح مافسد من مجتمعنا كما ان الجوع وآلام المرض تحثنا على الطعام والدواء . فالآلام رحمة . إذن الرحمة لها جيشان : جيش الآلام . وجيش اللذات . هما جيشان للرحمة . واذا كانت الرحمة موجهة فقط الى لذاتنا فانها تنقلب نقمة . فاجتماع الآلام واللذات إتمام للرحمة . فاللذات نصف الرحمة والآلام النصف الآخر هذا ملخص ماتقدم

فقال صاحبى : هذا حسن ولكن هذا الكلام إجمالى عام فان فى هذه السورة أمورا أخرى . فيها مؤمن آل فرعون . ولماذا يقص الله ذلك القصص علينا ؟ وأىّ مناسبة بين أمة الاسلام الآن وآل فرعون ؟ ولماذا يقول لهم ـ فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ـ وأىّ بأس أنذرهم به ؟ وهل نزل بهم هذا البأس وفى أى زمن ؟ ولماذا ؟ كل ذلك أريد أن أعرفه حتى ينتفع المسلمون بحديث هذا المؤمن فى زماننا . إن حديث مؤمن آل فرعون لن يتم الانتفاع به لنا فى أمراضنا الاجتماعية إلا بمعرفة ما يرمى اليه وماذا كانت نتائجه ؟ ثم لماذا ذكر الله محاجة المتكبرين والضعفاء بعد محاجة مؤمن آل فرعون ؟ وما المناسبة بينهما ؟ ثم لماذا نرى ابن عباس يفهم هنا مسألة الدجال . وما الملك الذى يبتغيه اليهود ؟ وهل هم يحاولون ذلك الآن ثم لماذا نرى المسلم فى كل صلاة يستعيذ من فتنة المسيح الدجال . كل هذا أمور لاتزال غامضة والمسلمون يصلون وأكثرهم غافلون . والصلاة بلا عقل قليلة الثمرات . واذا لم يفهم المسلمون أدعيتهم فى الصلاة فالذى استفادوه

إذن

إذن ! إن الحياة المبنية على الحفظ بلاعقل حياة أشبه بحياة الجماد . وتكرار الصلوات بلاعقل قد ذمها الله فقال ـ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ـ وقال فى ذم من يقرؤن ولايعقلون ـ أفلايتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ـ وقال فى اليهود إذ كانوا لايعقلون التوراة ـ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ـ الخ

إن بقاء المسلمين على حالهم يصلون ولايعقلون الصلاة ويقرؤن ولايعقلون القرآن أوقعهم فى الغرور كابرا عن كابر جيلا فجيلا وكل جيل ينزل عما قبله حتى أصبح المسلمون اليوم أجهل الأمم التى على هذه الأرض وقد تركوا مواهبهم ، فاذا لم توضح هذا المقام غير مكتف بما قدمت فى تفسير البسملة فان الحال تستمر على ماهى عليه وكل جيل يكون أقل مما قبله وهذا لايرضيك . فقلت : إنى بحمد الله سأوضح المقام على قدر طاقتى وأبينه بما أقدر عليه والله المستعان فأقول :

إن هذه الأسئلة الخمسة التى تريد الاجابة عليها ترجع كلها الى أمر واحد ومتى عرفناه زال الاشكال . فقال : وماهو ؟ فقلت : هوماتقدم فى ﴿ سورة الزمر ﴾ فى أولها عند قوله تعالى ـ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ـ . ألم أقل لك هناك ان الجنين فى الرحم يحيط به ظلمات ثلاث : المشيمة والرحم وبطن أمه . قال بلى . قلت : أليست هذه مع كونها ظلمات جعلت له رحمات . قال بلى . قلت : ألم نقل هناك ان علماء الفلك يقولون إن الغبار فى الجو ودخانه يصنعان فيه (١٦) طبقة حاجبة للشمس عن عيوننا رحمة بنا فيكون ضوؤها الواصل لنا صباحا أقل من الضوء الواصل وقت الظهيرة (١٣٥٠) مرة . قال بلى قد تقدم ذلك . قلت : ومعلوم أن الغبار والدخان ضاران بأجسامنا يدخلان رئاتنا فتضعف أجسامنا وتقصر أعمارنا . قال بلى . قلت : ولكن هذا الضار باجتماعه مع ضوء الشمس صار نعمة . قال نعم . قلت : ألم أقل هناك أن وسوسة الشياطين للناس نقمة ولكنها فى الحقيقة قد جعلت نعمة لهم لأنهم اذا أعطوا العلم دفعة واحدة لايطيقونه . قال بلى ولكن هذا المقام يحتاج الى الايضاح هنا . فقلت نعم أوضحه فأقول : أنا لا أخرج عن هذا المثل وهو مثل الشمس ، انظر ، اذا أشرقت الشمس على الأرض فهل تستوى الأرض والماء فى قبول حرارتها ؟ قال : أنا أرجوك أن تسمح لى بفهم ما تقول . فقلت له : أيهما أسرع قبولا للحرارة الماء أم الأرض ؟ وأيهما أبطأ ، وأيهما أسرع إخراجا لحرارته التى كسبها من الشمس ؟ وأيهما أبطأ فى ذلك . قال الأرض أسرع قبولا للحرارة وأسرع تملصا منها والماء على العكس من ذلك . فقلت : هل تستنتج من هذا شيأ . قال : لست مستعدا لذلك الاستنتاج فى هذا المقام . فقلت ههنا قاعدة ، كل ما كان أتم صنعا كان أدوم وأحسن فائدة ، وكل ما كان أنقص صنعا كان أقل دواما وأقل فائدة ، فهذه الأرض لما أسرعت فى قبول الحرارة أسرعت فى التملص منها ، وهذا الماء لما أبطأ فى قبول الحرارة أبطأ فى التملص منها . فالغنى الذى كسب المال بجده وعرق جبينه يكون غناه أتم وأدوم والذى نال المال بلاجد يكون له مبذرا لأنه لايعرف قيمته . انظر الى القرع والى النخل فذاك لايثمر إلا بعد سنين وهذا يطول ويثمر حالا ولكنه سريع الزوال وانظر الى صغار الحيوان كلما كان أسرع نموا كان أقصر أجلا . ألاترى أن الكلب يتم نموه فى سنة ونصف ولا يزيد غالبا عن (١٢) سنة كما تقدم . وأن الحصان لايتم نموه إلا بعد ثلاث سنين ويعيش (٢٤) سنة وهكذا وكل هذا تقدم وانما نضرب به هنا أمثالا وهذا فعل الله والفعل جيل ولايعرف جماله إلا بالعلم والحكمة فأما المعرفة القولية فلافائدة فيها . وهذا الهرم المبنى فى بلادنا المصرية لما كان أتم بناء كان ثباته ودوامه أتم . وهذه قاعدة مطردة . قال قد فهمتها . فقلت : وقبل أن أرتب عليها الاجابة على ماطلبت أقول ان هذا الاختلاف فى الأحوال قد جعل لغايات شريفة . ألاترى الى ماتقدم فى سور كثيرة أقربها ماجاء فى ﴿ سورة الأحزاب ﴾ عند آية ـ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ✡ وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ـ فقد وازنت

هناك مابين قول النابغة للنعمان ابن المنذر ☆ كأنك شمس والملوك كواكب ☆ ومابين هذه الآية وأن فضائل النعمان لا نسبة بينها و بين الشمس وأن ثمرات فضائل النبوّة تشبه منافع الشمس ؛ وقد ذكرنا هناك الرياح والسحاب ، وكيف كانا ناجمين من الحرارة والبرودة ، وكيف كانت سرعة قبول الأرض للحرارة وضدها و بطء قبول الماء للحرارة والبرودة سببين متضادين أنتجا منافع للناس بالرياح المختلفات ، فلولا هذا الاختلاف لم يكن نسيم البرّ ولا نسيم البحر ولا الرياح الموسمية ولا الرياح التجارية الضدية وهكذا . كل ذلك تقدّم ، فهذا الاختلاف هو الخير والمنفعة والسعادة للحيوان على الأرض ، إذن اختلاف أحوال المادة جعل لفوائد شريفة . اذا فهمت هذا فأقول إجابة على أسئلتك الخمسة :

ما الذنوب ولا الكفر إلا أشبه بما عرفنا فى الماء من انه لايقبل الحرارة بسرعة ، فالكافر والعاصى لم يقبلا الايمان والطاعة لأن فطرتهما ليست سريعة القبول ، فاذا أسلم الكافر بعد ذلك ، واذا أطاع العاصى بعد اقتراف الذنب و بعد الندم الشديد كان ذلك بعد جهاد ومشاق طويلة فيكون صلاحه أتمّ وهذا معنى قولهم « ربّ معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا »

وكم من متوسط الذكاء فاق من هو أذكى منه بسبب طول أناته وصبره وجدّه فى التحصيل فيصير أرقى منه وأقدر وأقوى وأعلم

فقال : هذا حسن وقد فهمناه ولكن ماذا تقول فى العاصى اذامات بلا توبة والكافر اذا لم يؤمن ؟ فأين الحكمة إذن فى ضلالهما الدائم ؟ فقلت : هذا أدع الجواب عليه الآن فانه من المسائل التى ليس يعقلها كل امرئ . ولكن الاجابة عليها فى وقت غير هذا ولكنى أقول لك الآن إجمالا لا يعقل حكمة ذلك إلا حكيم قرأ العلوم الرياضية والطبيعية والالهية ، فاذا لم يعلم ذلك فلايجوز له أن يبحث فى هذا لأنه فوق طاقته وأنت تقدر على الجواب من نفسك لنفسك . فقال : إذن نكتفى بهذا فى الفصلين الأوّل والثانى . فقلت :

﴿ الفصل الثالث فى محاجة مؤمن آل فرعون لقومه ﴾

وملخصها ما يأتى :

(١) ان كذب الرسول واقع عليه وصدقه ان لم يطع القوم أنزل العذاب بهم ، وهذه الحجة تنتج أحد أمرين : إما الاقتصار على عدم أذاه ، واما الزيادة على ذلك باطاعته ، والنتيجة التى يقصدها عدم التعرّض له بالأذى

(٢) الملك لايدوم فاذا تعدّينا على غيرنا فالله لنا بالمرصاد فمن ذا ينصرنا

(٣) ان هناك أمما تقدّمتنا فعلوا مافعلنا فهلكوا أفلانخاف العاقبة

(٤) بل هناك يوم الحساب

(٥) أنتم قوم اعتدتم التكذيب والشك كما حصل منكم فى أمر يوسف

(٦) إن هذه الحياة كسراب بقيعة فكيف نغترّ بها

(٧) والأصنام التى تعبدونها لاقيمة لها

(٨) ونتيجة ذلك أن الله تعالى وقاه سيئات مكرهم ووقع العذاب بالقوم

إذن لنفصل العذاب الذى حلّ بالأمة المصرية بعد زمن المؤمن الذى قال هذا القول من بلادنا المصرية وهذا يحوزه ﴿ ثلاث جواهر ☆ الجوهرة الأولى ﴾ فى مجمل تاريخ قدماء المصريين و بيان انه ثلاثة أدوار ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ فى أن هذا الذى قاله مؤمن آل فرعون كان فى الدور الثالث . و بيان سرّ التنزيل إذ يقول مؤمنهم — فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا — وماهو هذا البأس ﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ فى بيان الأسباب العقلية التى سببت هذا البأس . وكيف كان التقليد وترك العقل جانبا فى أعمال الحياة وفى الدين ينتهى بموت

الأمة وهلاكها . وأن هـذا الدرس متى فهمه المسلمون أقلعوا عن جهلهم لأن أكثرهم اليوم يشبهون هذه الأمة المصرية فى دورها الثالث وأن هذا التفسير هوآخر انذارلهم وهاك بيانها

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

جاء فى كتاب الأدب والدين عند قدماء المصريين مانصه

﴿ لمحة فى تاريخ مصر القديم ﴾

ينقسم تاريخ مصر القديم باعتبار الدول الأصليـة الى ثلاثة أدوار : الدور الأول يشمل الدولة القديمـة . والدور الثانى يشمل الدولة الوسطى . والدور الثالث يشمل الدول الحديثة [1] وتاريخ الدولة القديمة ينحصر فى ثلاثة عصور : وهى العصر الصاوى والعصر المنفى والعصر الهراقليو بولوتينى

(١) – « العصر الصاوى » وتنحصر فيـه الأسرتان الأولى والثانية من (من سنة ٥٠٠٠ الى سنة ٤٤٥٠ ق م) وهو يبتدئ بالملك مينا رأس الفراعنة الذى جمع تحت سلطانه الوجهين البحرى والقبلى . وجعل : عاصمة ملكه تانيس أوطينة (البربة بجوار جرجا حيث توجد قبور الملوك الأولين

(٢) – «العصر المنفى» يبتدئ من الأسرة الثالثة وينتهى الى الأسرة الثامنة (من سنة ٤٤٥٠ الى سنة ٣٣٥٠ ق . م) وكانت عاصمة المملـكة فى هذا العصر مدينة منف أومنفيس (المعروفة) الآن بميت رهينة الواقعة على بعد عشرين كيلومترا جنوبى القاهرة . وكانت فى ذلك الوقت محط الرحال . وكعبة الآمال . غنية بعلومها ومعارفها ، متقدمة بفنونها وصناعاتها . وفى هذه المدة توسعت مصر فى الفتوحات حتى استظلت برايتها بلاد سينا والنوبة والواحات ، واشتهر من ملوك الأسرة الثالثة (من سنة ٤٤٥٠ الى سنة ٤٢٤٠ ق . م) زوسير مشيد الهرم المدرج . وسنفرو مشيد هرمى ميدوم ودهشور . ومن ملوك الأسرة الرابعة (من سنة ٤٢٤٠ الى سنة ٣٩٥٠ ق . م) خوفو وخفرع ومنقرع وهم الذين شادوا اهرام الجيزة . ومن الاسرة الخامسة (من سنة ٣٩٥٠ الى سنة ٣٧٠٠ ق . م) الملوك ساحورع ونوفرارقرع وامنرع واوناس الذين شادوا اهرام أبى صير . وشيدوا بها المعبد الشمسى . ومن ملوك الاسرة السادسة (من سنة ٣٧٠٠ الى سنة ٣٥٠٠ ق . م) تيتى و ببى الأول و ببى الثانى ومنرع الأول ومنرع الثانى الذين بنوا اهرام سقارة ، وقد انتهى عصر هؤلاء الاسر الثمانيـة بوقوع البلاد فى وهـدة الشقاء بسبب الاضمحلال الذى ابتـدأ بالأسرة السابعة (سنة ٣٥٠٠ ق . م) وأخذ يزداد فى الأسرة الثامنة (من سنة ٣٥٠٠ الى سنة ٣٣٥٠ ق . م) التى انقرض هذا العصر بانقراضها

(٣) – « العصر الهراقليو بولوتينى » وهو يشتمل على الدولتين التاسـعة (من سنة ٣٣٥٠ الى سنة ٣٢٠٠) والعاشرة (من سنة ٣٢٠٠ الى سنة ٣١٠٠ ق . م) وفى عهد هاتين الدولتين نشبت الحرب بين ملوك الوجه البحرى وملوك الوجه القبلى

﴿ الدولة الوسطى من سنة ٣٢٠٠ الى سنة ١٦٠٠ ق . م ﴾

لما كان النصر من حظ ملوك الوجه القبلى . اهتم ملوك الانتيف ومنتحوتب . وهم من الأسرة الحادية عشرة

---

(١) يتعذر على المؤرخين تحـديد تاريخ العاديات القديمة العهد تحديدا صحيحا لأن المصريين لم يكن لهم تاريخ معـين بل كانوا يؤرخون الحوادث بسنى حكم الملك الجالس على العرش . فليس لدينا اذن الى الآن كشف تاريخى كامل يجمع أسماء الملوك و يعين مـدة الفترات الواردة فى هـذا الـكشف . فاذا أريد معرفة تاريخ الملوك أو الآثار استعملت أرقام الأسر المالـكة حسب ترتيبها

(من سنة ٣١٠٠ الى سنة ٣٠٥٠ ق . م) بحفظ رونق مدينة طيبة (التى من اطلالها الآن الاقصر والكرنك والقرنة ومدينة هبو) واتخذوها قاعدة لملكهم . وجعلوا إلههم أمون رع سيد جميع الآلهة . وفى عهد الامنحتبيين والأوسرتسيين . الذين هم من ملوك الاسرة الثانية عشرة (من سنة ٣٠٥٠ الى سنة ٢٨٤٠ ق . م) كانت مصر زاهيةزاهرة باهية باهرة . حافظواعلى دولة طيبة الأولى ، وحكموا النوبة حتى الشلال الثانى واحتفظوا بملك سينا . وعمروا أقليم الفيوم . وأقاموا بطيبة المعابد الضخمة . والمبانى الفخمة وشادوا أهراما بدهشور واللشت والفيوم . و بنوا قبور بنى حسن والبرشة . وأقام الملك أوسرتسن الأوّل أمام هيكل الشمس مسلتين من حجر الصوان إحداهما موجودة الآن فى المطرية وطولها نحو العشرين مترا وقد بنى الملك امنمحعت الثالث قصرا شرقى بركة قارون بالفيوم فيه ٣٠٠٠ غرفة وهو المعروف بالتيه المعدود من عجائب الدنيا السبعة . وفى عهد الأسرة الثالثة عشرة (من سنة ٢٨٤٠ الى سنة ٢٤٠٠ ق . م) حافظت مصر على نظامها ومجدها . ثم فى عهد الأسرة الرابعة عشرة (من سنة ٢٤٠٩ الى سنة ٢٢٠٠ ق . م) تجزأت مصر الى عدة حكومات . ونقلت عاصمتها الى سخا بالوجه البحرى . وتردّت بأردية التقهقر والخمول فسقطت فى مهاوى الذل والهوان . حتى أنه فى عهد الأسرة الخامسة عشرة (من سنة ٢٢٠٠ الى سنة ٢٠٠٠ ق . م) لما هاجم مصر الهكسوس (رعاة آسيا) لم يجدوا مقاومة تذكر من المصريين فاحتلوها . ونقل المؤرخون أن الرعاة حكموا مصر ٥١١ سنة وكان منهم فرعون يوسف الصديق

﴿ الدولة الحديثة ﴾

(من سنة ١٦٠٠ الى سنة ٣٤٠ ق . م)

(وهى دولة طيبة الثانية) من سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٣٨٠ ق . م

انضم أموزيس أول ملوك الاسرة الثامنة عشرة الى امراء الأسر الملكية المصرية القاطنين بالوجه القبلى بعد أن أخرج الرعاة الى آسيا ، وتوسع فى الفتوحات حتى بلغ ملكه نهر الفرات شمالا . والى النيل الأزرق جنوبا . واهتمت هذه الأسرة بالمبانى ومظاهر العمران

وفى زمن الأسرة ١٩ (من سنة ١٣٨٠ الى سنة ١٢٢٠ ق . م) التى كان ملوكها رعمسيس الأوّل وسيتى الأوّل ورعمسيس الثانى ومنفتاح احتفظوا بملك فلسطين وسوريا القبلية واستمرت بلاد آسيا والسودان تابعة لمصر حتى آخر عهدهم . ثم استقلت بعدهم حين ضعف نفوذ الملوك وسقطت سطوتهم بينما كان كهنة أمون قد أحرزوا الجاه الواسع والثروة من الهدايا والتحف التى كان يقدمها هؤلاء الملوك الى المعابد . فيأخذونها غنيمة باردة . و بسبب هذه الثروة الواسعة صار لهم النفوذ . وقويت كلمتهم . واشتدت شوكتهم ، ولم يزالوا يمهدون الأمور حتى تولوا الحكم وخلص الملك لهم .

﴿ العهد الصاوى ﴾

(من سنة ٧٢٠ الى سنة ٣٤٠ ق . م)

فى هذا العهد كانت مصر فى حاجة شديدة الى الوئام والوفاق لاتقاء شر الدول المتغلبة ومقاومة الأمم التى كانت استولت عليها . لأن هذه الأمم كانت نهضت لتحريرها وخروجها من نير العبودية ولكنها انقسمت على نفسها وفشا فيها داء التخاذل والتنافر حتى تنقلت العواصم مابين تانيس المعروفة بصا الحجر بمديرية الغربية وتل بسطة بمديرية الشرقية . ونتج من هذا الانقسام فى مصر أن استولى الاشوريون عليها . وبهم ابتدأت الأسرة الخامسة والعشرون (من سنة ٧١٥ الى سنة ٦٦٦ ق . م)

ثم جاء الصاويون وهم ملوك الأسرة السادسة والعشرين (من سنة ٦٦٦ الى سنة ٥٢٥ ق . م)

فاخرجوا

فأخرجوا الأشوريين من مصر واستولوا عليها . وفى عهدهم أصاب مصر من الضعف والوهن ما أصابها عقب حكم الملك بسامتيك والملك نخاو . واستولى عليها الفرس وخضعت لهم سنة ٥٢٢ ق.م

ثم جاء النقتانبيون وهم ملوك الأسرة الثلاثين (من سنة ٣٧٨ الى سنة ٣٤٠ ق.م) فنالت مصر على يدهم الحرية ، ولكنها لم تلبث قليلا حتى استولى عليها اسكندر المقدونى سنة ٣٣٢ ق.م . وقد اتفق المؤرخون أنه من هذا العهد لم يحكم مصر واحد من بنيها . وهكذا الشأن فى كل أمة يسود فيها الانقسام ويروج فيها التنافر والتخاذل وكل نزاع نتيجته الفشل وكل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب . انتهت الجوهرة الأولى

﴿ الجوهرة الثانية والثالثة ﴾

لقد علمت فى الجوهرة الأولى أن أدوار هذه الأمة ثلاثة ، ودورها الحديث كان من سنة ١٦٠٠ ق.م الى سنة ٣٤٠ ق.م

أقول : إن من أشهر ملوكهم (امنحتب الأوّل) من الأسرة الثامنة عشرة واموزيس الأوّل وتحوتمس الثانى من الأسرة الثامنة عشرة ، وتحوتمس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة ، ورعمسيس الثانى من الأسرة التاسعة عشرة ، ورعمسيس الثالث من الأسرة التاسعة عشرة أيضا ، وهؤلاء كانوا أعظم ملوكهم ، ولكن لابد أن نذكر أن رجال الدين زاد استيلاؤهم على العقول فاستولوا على الملك ، إن الرعاة الذين جاؤا الى مصر فى دورها الثانى كانوا أجانب عنها ، فكانوا يقبلون النازلين بمصر على الرحب والسعة ، ومن هؤلاء ابراهيم عليه السلام لما مرّ بمصر وهكذا يوسف واخوته وهم عشرة فانهم انما جاؤا فى أيام الرعاة و بقوا بمصر بعد خروجهم فاضطهدهم المصريون وهذا الاضطهاد حصل فى هذا الدور ، ولكن لاتنس أيها الذكىّ أن العقول فى هذا الدور أخذت ترجع القهقرى ، وذلك بسبب وقوف العقول وتمجيدها التقليد المجرّد و بعدها عن التحقيق وهل أتاك نبأ ما مرّ عليك سابقا فى هذا التفسير فى ﴿سورة النمل﴾ عند آية ـ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ـ وآية ـ إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ـ فهناك ترى كيف اشتركت هذه الأمة المصرية الحديثة والأمة الأندلسية فى أمر واحد وهو الوقوف على الظواهر والتقليد الأعمى والفسوق ، وهكذا ذكرت لك هناك أمم العرب المتأخرة فى بلاد الشام والعراق إذ نقلت عن ابن خلدون أن هذه الأمم العربية لما كانت مستمسكة بالدين حفظت بلاد الله ولما نبذت الدين صارت عالة على الأمم فأزال الله ملكهم إذ ذاك

انظر هذا المقام هناك فانك تجد القوم من مبدأ الأسرة السادسة عشرة اتخذوا الحيوانات (التى كانت دالة على إبداع الخالق ورمزا لجماله) معبودات عبدوها هم وجعلوا المعبود الحق فى الدرجة الثانية فأخذوا يعبدون الطير والسمك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب ، وهناك ترى حربا دارت بين بلدتين إحداهما عبدت السمك والثانية عبدت الكلب ، فالذين لايعبدون السمك أكلوه فاغتاظ عباد السمك وأكلوا كلبا إغاظة فى عابديه ، فعقول هذا شأنها صارت أسفل من الحيوان فى الارض بل هم أضلّ من الأنعام . فلماذا إذن لايدخل البلاد الأجانب ، وهناك تقرأ النبوآت التى أعلنها أنبياء المصريين بزوال ملكهم وخراب دورهم فارجع اليه واقرأه هناك فلاسبيل لاعادته هنا

فهذه العقول لما خربت خربت الديار . ألاترى رعاك الله أن الجيش الفارسى لما أخذ يحارب المصريين أحضر ملكهم قططا وجعلها صفوفا بين الجيشين فتحاشى المصريون ضرب القطط لأنها آلهتهم مع ان اسلافهم كانوا يحترمونها لأمر واحد وهوانها تأكل الفيران فأخذوا هذا التعظيم من حيث هو لامن حيث نتائجه وزادوه حتى صارت نفس القطط آلهة . وبهذه الحيلة دخل الجيش الفارسى مصر . لماذا ؟ لأن تلك العقول

لاتى وانحطت تحت قوة الحيوان الأعجم
هذا هو السرّ فى قول مؤمن آل فرعون لهم ـ ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ـ و بأس الله هو دخول الفاتحين من الآشور يين أوّلا والفارسيين ثانيا والرومان ثالثا وهكذا . وكل هـذا سببه وقوف العقول على التقليد بلاروية ولافكر . انظر اقوله ـ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ـ الخ إذن هم لايفكرون لأن عندهم بينات لم يفكروا فيها . إذن هم قوم مقلدون و بهذا التقليد دخل الفرس بلادهم لانحطاط عقولهم

ومن العجب أن قول مؤمن آل فرعون يشابه قول (ملا كاتب جابى) الذى ألف كتاب « كشف الظنون » فى القرن الحادى عشر الهجرى ، وقال فى حق الدولة العثمانية التركية التى هو مستظل بظلها ناقلا عن الشهاب الخفاجى فى كتابه « الخبايا فى الزوايا » يقول :

« إنّ الدولة التركية لما أفتى أحد علماء الدين بتحريم العلوم والفلسفة أخذت تنحط . ثم قال : وهذا إيذان من الله بذهاب ملك دولتنا » انتهى بالمعنى . وقد تحقق ذلك فى هذه الأيام فدولة بنى عثمان قد انحلت وذهبت كأمس الدابر

ومن عجب انى وأنا مراهق كنت أتعلم فى الجامع الأزهر وأرجع الى القرى فأجد أناسا يأتون بهيئة وقار واحترام وهم من آل البيت الكرام و يأخذون من الناس رزقا سنويا وهم أناس يسيرون تبعا لهم و يبيتون عند الأغنياء و يذكرون ليلا ويأخذون رزقا من الناس يسمونه (العادة) ولقد بطل هـذا فى زماننا فى بعض البلاد

فياعجبا . كل ذلك للجهالة الفاشية ، فالمعطى جاهل والآخذ جاهل . كل ذلك للجهالة الحالة بأمم الاسلام لايجوز أن يكون فى الأمة عاطلون ، وما أولئك الذين يعيشون من كسب غيرهم بحجة الدين إلا كذباب أو حشرات أونباتات طفيلية ، فيجب على العلماء وعلى الأمراء أن لايسمحوا بهذا ، بل يجب أن يعم التعليم لأن الجهل هو الذى أوحى الى الجهال أن يتزيوا باسم الدين و يأكلوا أموال الناس بالباطل

إن شرار أمة الاسلام أولئك الذين يأكلون باسم الدين . إن كثيرا منهم يوهمون العامة أنهم يشفعون لهم عند الله فى جلب الرزق والصحة ولهم التصرّف فى الأنفس فيصرفون عقولهم عن ربهم الى أشخاصهم واذا وجدنا المصريين فى الدولة الحديثة قد جعلوا الحيوانات فى الدرجة الأولى والله المعبود الحق فى الدرجة الثانية فوالله ان الجهل قد أوحى بذلك فعلا الى جهلة المسلمين فما عليك إلا أن تتزيا بزيّ الصلاح والتقوى وتظهر للعامّة أمورا توهمهم بها حتى يعتقدوا هـذا فيك ولم أر حكيما ولا عالما فى أمتنا الاسلامية يرضى بذلك والذى يرضى به هو الجاهل لأن العالم قلبه معمور بالعلم والحكمة . أما الجاهل فلخلوّ نفسه من العلم يدّعيه و يفرح بقول العامة انه قطب زمانه كما يفرح كثير من أولئك التعساء اذا تعلموا فى المدارس العاليـة ولكن الأمة تحتقرهم لفسوقهم وسوء سلوكهم فلايحسون فى نفوسهم بسعادة فيتلمسونها من كلام الناس و يسعون عند الملوك ليعطوهم ألقاب الشرف و يفرحون بقول القائل لهم سعادة فلان وعزّته وهو لاسعادة له ولاعزّة لأن السعادة والعزّة إن لم يحس بها القلب غير ممكنة اللهم إلا الرياء والرياء ليس سعادة بل هو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الآلام فوق الآلام والشقاء فوق الشقاء ظلمات بعضها فوق بعض وعذاب أليم

فقال صاحبى : لقد أقنعتنى وفهمت الحقيقة . وأريد الآن أن تأتى بنبذة من أحوال مصر فى عصرنا هذا استطرادا لنقارن بين وعظ الواعظين فى الدولة الحديثة المصرية منذ (٣٥٠٠ سنة) و بين وعظ الواعظين الآن وانما أردت هذا لأفرح بالموازنة بين عالمين بينهما (٣٥٠٠ سنة) والله تعالى لم يذر أمة بلانذير فكل زمان له

نذير . فمؤمن آل فرعون نذيرقومه . فأريد أن تصطفى عبارة أدبية ليكون ذلك من لطائف مجلسنا فى تفسير هذه الآية . فقلت :

اعلم أن الأمة المصرية الآن اعتورتها الخطوب وانتابتها الصعاب وأحاطت بها الأمم من كل جانب فأوّل من أذلها فى الأزمان الأخيرة الأمة التركية إذ جرّدتها من سلاح العلم وأخذت صناعها منذ (٤٠٠ سنة) وحصرت مجموع الأمة فى الزراعة وحذفت من البلاد بيوت العلم شيأ فشيأ حتى اذا تغلبت دول أوروبا على بعض بلاد الشرق أرسلوا المبشرين فزلزلوا العقائد . وزاد الطين بلة أن الانجليز أزالوا أكثر آثار النهضة العلمية التى أحدثها المرحوم محمد على باشا فى القرن التاسع عشر وذهبت ورعة الدين ، وترى أكثر أكابر الأمة وعظمائها لايحلو لهم جلوس ولاسمر إلا فى المحال التى فتحها الفرنجة فى نفس بلادنا يحتسون فيها أنواع الشراب من البيرة والخمر والشمبانيا وأكثر المتعلمين لاعمل لهم إلا أن يكونوا فى مناصب الحكومة لأن التعليم تعليم لفظى لم يخالط بشاشة القلوب ولم يحرك اليدين للعمل . فهلك أن تقرأ ذلك الخطاب الذى أرسلته أنا لمجلس النوّاب ولوزارة المعارف ولمجلس الشيوخ فاقرأه فى سورة يونس فى أوّلها

اذا عرفت هذا أدركت مضمون ما يكتبه الكاتبون فى بلادنا فان التعليم اذا كان لفظيا لا يملأ القلوب روعة وظاهره يا مخلوطا بالزيغ والالحاد فان نتائجه أن لا يكون بعض أهل الحل والعقد فى البلاد إلا ممن لايرقبون فى الله لومة لائم ولايقيمون العدل إلاقليلا ولايعملون عملا صالحا إلا رياء . أما مراقبة النفس والعمل للمصلحة العامّة فذلك قليل . ومما زاد الطين بلة أن المحاماة فى البلاد أصبحت من أهم الحرف والصناعات . ومبنى المحاماة أمام القضاة انما يكون على أساس الخداع والغش وقلب الحقائق . و بعض هؤلاء يتولون القضاء ثم يصيرون وزراء وحكاما . وقد يكون الرجل منهم سيئ السيرة مخمورا مشتهرا بذلك بين معاصريه . ثم يتولى الرئاسة وهو مغضوب عليه فلايقيم للحق وزنا ولا للمروءة قسطاسا

والحق الذى لامحيص عنه أن الجهال أصفى نفوسا وأصحّ إيمانا وأنقى عقائد من بعض هؤلاء الذين لايتقون ولاهم يذّكرون

اذا عرفت هذا أدركت مايرمى اليه الكتاب فى زماننا الحاضر . فهذه هى الاصول التى تتفرّع عليها فروع الكتابة المتشعبة فى زماننا ، فاذا كانت نصيحة رجل من آل فرعون فى البلاد المصرية على هذا الأسلوب المذكور فى الآيات التى نحن بصدد الكلام عليها فهذه هى الاصول التى يدور عليها محور الارشاد فى أيامنا مضافا اليها مامنيت به الأمة من تهتك النساء والتبرّج المزرى والتقليد الضارّ والسير على نهج لارأى فيه ولاهدى ولاكتاب منير ولله الأمر من قبل ومن بعد

هذا مجموع مايقال على أمتنا المصرية من حيث العموم . وقد آن أن أبحث معك أيها الذكىّ فى أمر خاص وهو أن هذه الأمة اليوم غير الأمة أيام مؤمن آل فرعون . هذه الأمة اليوم عربية بحتة نعم فيها أقوام من نسل آل فرعون ولكن أكثرهم أسلموا ثم الذين بقوا على دين النصرانية لايتكلمون إلا بالعربية وأبناؤهم يتعلمونها و يقرؤن آداب العرب وأشعارهم وعلومهم وغالب الأمة مسلمون والقليل جدا هم القبط . واذا كانت عربية فلها اتصال بأهل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وأهل السودان وسوريا وفلسطين وشرقى الأردن ونجد واليمن والحجاز و بلاد العراق والموصل . ولكن أصابها الترك فرّقوها فى قرون مضت حتى فرّقوا أوصالها ومزّقوا أحشاءها . وعلموهم كيف يتدابرون . وأفهموهم كيف يكونون جاهلين فهدوا بذلك للدول الثلاث هم (فرنسا وانكلترا وايطاليا) هذه الدول الثلاث هم الذين اقتسموا أبناء العرب وعلموهم كيف يجهلون و ينامون وقالوا لهم أنتم وطنيون فليس لكل منكم إلا وطنه . فأهل أوروبا كلهم يفتخرون بأنهم نصارى وعلى دين واحد . و يقولون لأبناء العرب : « دعوا صلة الدين وتفرّقوا بالوطنية »

ولما كان المصريون هم الذين اختص بهم هذا المقال أردت أن أذكر هنا رسالة شاب نابغة تعلم فى مصر وألمانيا وكان من تلاميذى بالمدرسة الخديوية وله بى صلة وهو رئيس تحرير مجلة ﴿ الشبان المسلمين ﴾ وهو الذى اخترت أن أكتب رسالته فى نصيحة المصريين أن يتعاونوا مع اخوانهم العرب والمسلمين عموما لتدرك أيها الذكى الفرق بين النصائح المذكورة فى القرآن من مؤمن آل فرعون فى بلادنا أيام الفراعنة و بين نصيحة الشاب المصرى ، وكيف كان مؤمن آل فرعون يذكر قومه بربهم وعظمته ويدلهم على صدق رسالة موسى عليه السلام بمعجزاته ، وأن عظمة الملك لادوام لها ، وأن الله بالمرصاد للظالمين ، وكيف أظهر فرعون العظمة واستبد بالأمر ، وكيف حذر المؤمن قومه من غضب الله عليهم كما غضب على الظلمة من الأمم السابقة فى الدنيا والآخرة ، وكيف عيرهم بالتمادى فى الانكار . وكيف حقر أمر الأصنام وانها لاتعقل . وكيف فوض أمره الى الله تعالى . وكيف وقاه الله مكر القوم . فاذا وازنا هذه النصائح بنصائح كتابنا كما ستراه فى هذه المقالة التى اخترناها ألفينا أن صديقنا يحيى الدردير يذكر العرب عموما والمصريين خصوصا بتاريخ أممهم وانهم ان جهلوه هلكوا . وذكرهم بالأخلاق الفاضلة والعمل بالدين . وأراهم أن فصل تعاليم الدين عن التعاليم الوطنية مهلك للأمة . وأن المصريين القدماء قبل إلحادهم وكفرهم كانوا أمة موحدة . وأوصاهم بالتحالف مع اخوانهم فى العراق ونجد واليمن والشام وشمال افريقيا . إذن النصائح اليوم فى مصر متجهة الى الدين أولا وتصحيح العقيدة كنصيحة مؤمن آل فرعون . ولكن هنا زادت أمرا جديدا وهو الجامعة العربية . فهاك نص المقالة المذكورة :

﴿ النعرة القومية والفكرة الاسلامية ﴾

قامت فى هذه الأيام ضجة حول مبدء التمسك بالوطنية وترك ماعداها . وأنصار هذه الدعوة رفعوا شعار « الدين لله والوطن للجميع » فقال المصريون منهم نحن مصريون فرعونيون قبل كل شئ . وقال بعض السوريين نحن فينيقيون . وقال بعض العراقيين نحن كلدانيون وقس على ذلك . تريد كل فئة أن تتمسك بمجدها التالد وتحتبس فى حدودها غير ناظرة الى مايهددها من المخاطر من جراء عزلتها التى تجعلها فريسة سائغة لكل مستعمر قوى مغتال

يجب على كل أمة أن تعرف تاريخها قديمه وحديثه لأن ماضى الأمة يلعب دورا كبيرا فى حاضرها ومستقبلها ولا يمكننا أن نتناسى الماضى لأن عقائدنا وأفكارنا كلها آتية منه . وهو الذى يكوّن روح الأمة وشكلها ولذلك كلما كانت الأمة عريقة فى المدنية وذات مبادئ حقة كان نسلها ذا استعداد طبعى لكل تقدّم ورقى . قال الدكتور جستاف لوبون « حظ الشعب متوقف على مايعتقد أنه الحق . وان التطورات الاجتماعية . وتأسيس أو هدم الممالك وتقدّم أو انحطاط المدنيـة ناتجة عن قليل من العقائد التى تنزل من النفوس منزلة الحقائق وهى تمثل مسايرة الشعب الوراثية وفقا لحوادث الدهر

« ان من أخطر الغلطات فى العصر الحاضر ترك الماضى . وعدم الاعتراف به . وكيف يمكن ذلك ؟ ان ظل الأسلاف يحكم أرواحنا . وهو يكوّن الجزء الأكبر منا . كما عليه ينسج القدر حظنا . وان حياة الموتى أكثر بقاء من حياة الأحياء . لا يمكن لأى مدنية أن تبقى بدون مرشدين أقوياء من المتعلمين أو بالأحرى بدون مبادئ عامة قوية . لأن قوة الأخلاق أو القوة المعنوية هى الآن المحرك الحقيقى للعالم »

معرفة الماضى يجب أن تكون أداة لاذكاء روح الحمية والغيرة والعزة والرفعة والاستقلال وهنا حدود الوطنية البريئة ولكن لايجوز أن نتعداها الى الصلف والكبرياء والعزلة والاغترار بالنفس وعدم الاعتراف للغير بفضائله ومحاسنه فهذا هو الطيش والحق

قامت فى مصر الفكرة القومية أوالدعوة الوطنية منذ نشأتها على أساس صحيح معقول وهى تحرير الوطن من كل غاصب مغتال حتى تصبح مرافق الأمة فى أيدى أبنائها وأن يكون اعتماد الأفراد على أنفسهم فى سبيل تحرير بلادهم . وقد وصف الزعيم الأول للنهضة المصرية مصطفى كامل مايجب على كل وطنى عمله . فقال : ان الأمم لانهض الا بنفسها . ولا تسترد استقلالها الا بمجهوداتها . وان الشعب كالفرد لايكون آمنا على نفسه الااذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة » . « ان قانون الحاكم فى معاملته للمحكومين خاضع لدرجة احترامه لهم . فان رآهم أمواتا فى أزياء أحياء يقولون مالا يعتقدون . ويطلبون من الاصلاح كما يطلب السائل الاحسان . لا كما يطلب صاحب الحق حقه استبد فيهم وسخرهم لسلطته كما تسخر الأنعام »

على مثل هذه المبادئ السليمة قامت الدعوة الوطنية الشريفة . ولقيت من الأمة المصرية آذانا صاغية وقلوبا واعية . وأصبحت حرية البلاد واستقلالها عقيدة قوية لايصح التهاون فيها . وهى كما قال مصطفى كامل « اذا صح التسامح فى بعض الأمور وفى ظروف معينة . فان التسامح فى الوطنية اعدام لها وقضاء عليها . وان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان » . وقال أيضا « ان الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال انما يريدون أن تموت روح الوطنية فى مصر . أى تموت الأمة المصريه . لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح فى الشعب »

الوطنية الصحيحة لاتقوم الاعلى الأخلاق الفاضلة وهذه بدورها تستمد قوتها من الدين الحنيف . وتاريخ مصر قديمه وحديثه شاهد على مانقول ولذلك كان من أهم أغراض المستعمرين طمس معالم التاريخ القديم لتعليم النشء فى المدارس لتضعف فيهم روح الاعتزاز بالماضى و يلقون فى روعهم أنهم عالة على الأمم الأخرى . ومحاربة الدين الاسلامى على الخصوص لأنه يبعث فى نفوس النشء الاسلامى الاحتفاظ بالكرامة ومبادئ الحرية والشجاعة وهذا مالايتفق مع سياسة المستعمر الغاصب فى اخضاع الأمم الاسلامية واذلالها

فالذين يدعون الى الوطنية وترك الدين جانبا انما يدعون الى قضية محققة الخسران . لانهم يدعون الى مبادئ لاروح فيها ولا حياة . اذ كيف يكون حال نشء فى الوطنية وهو خلو من مبادئ الفضيلة ومراقبة الله عز وجل فى السر والعلن ؟ هؤلاء لاتكون لهم الا سياسة واحدة وهى سياسة المنافع وجر المغانم أو بعبارة أخرى سياسة الهوى وهى سياسة مقضى عليها بالفشل . وقد قال لامارتين : بحق « ان ضميرا خاليا من الله كالمحكمة الخالية من القاضى »

ان تاريخ مصر القديم والحديث يثبت أن الدين والوطنية وحدة لاتنفصل بل هما بمثابة الروح والجسد فى عالم الحياة . جاء فى مجلة علم الآثار المصرية فى الجزء الأول المجلد الثانى ص ٣٧ للاستاذ العالم رفيو : « الدين كان له القدح المعلى والمكانة الاولى فى نفوس قدماء المصريين الورعة واليه يرجع الفضل فى كراهة الاجانب الغاصبين . وتوحيد القوى الوطنيه . التى بها أمكنهم أن يطردوا الهكسوس ومن بعدهم الاشوريين . ويشهد المؤرخ اليونانى هردت وقد زار مصر فى عهد العجم أن هؤلاء المغلوبين (المصريين) كانوا يبغضون الغاصب و يحتقرونه بما كانوا يبدونه من مقاطعته وقطع كل صلة مع الغاصبين . فلا يجلسون معهم على مائدة ولا يأكلون معهم »

اذا تتبعنا سيرة الحياة المعنوية لروح الأمة المصرية فى أطوارها نراها روحا اسلامية بحتة سواء فى عهد الفراعنة أو غيره لأن روحها روح التوحيد وقد تأصل فى قرارة نفسها بالرغم مما طرأ عليها من صروف الحدثان والمظاهر الكثيرة التى أوّلوها فى كثير من الأحيان على غير وجهها الصحيح . قال المؤرخ الشهير (شمبليون فيجياك) : « قد استنبطنا من جميع ماهو مدون على الآثار صحة ماقاله المؤرخ (جامبليك) وغيره

من أن المصريين كانوا أمة موحدة لاتعبد الا الله . ولاتشرك به شيئا . غير أنهم أظهروا صفاته العلية الى العيان مشخصة فى بعض المحسوسات . وأنهم لما غرقوا فى بحر التوحيد . علموا أبدية الروح . وأيقنوا بالحساب والعقاب . ولاعبرة بما قاله بعض مؤرخى الأجانب الذين حضروا محافل المصريين الدينية وشاهدوا بها كثرة تماثيلهم الرمزية . وانهم لجهلهم للغتهم . و بحقيقة عباداتهم حملوا الأمور على ظاهرها . وحكموا عليهم بالكفر والالحاد مع انهم لم يفهموا منها المراد . فكأنهم دخلوا فى قول الشاعر :

وكم من عائب قولا صحيحا ✽ وآفته من الفهم السقيم

راجع كتاب الأثر الجليل لقدماء وادى النيل لأحمد بك نجيب ١٢٣ وقال العلامة مسبرو « من تأمل فى الآثار الباقيــة الى الآن بالديار المصرية واللوحات الدينية المنقوشة بالهيا كل وماعلى الورق البردى هالته كثرة هذه الآلهة المصورة عليها . حتى يظن أن مصر كانت مسكونة بهؤلاء الآلهة . وان أهلها ماخلقوا الا لعبادتها . وسبب ذلك أن المصريين كانوا أمــة مخلصة فى العبادة إما بالفطرة أو بالتلقين أو التعليم . فكانوا يرون الله فى كل مكان . فهامت قلوبهم فى محبته . وانجذبت أفئدتهم اليه . واشتغلت أفكارهم به . ولازم لسانهم ذكره وشحنت كتبهم بمحاسن أفعاله . حتى صار أغلبها صحفا دينية »

كانوا يقولون انه واحــد لاشريك له كامل فى ذاته وصفاته وأفعاله . موصوف بالعلم والفهم . لاتحيط به الظنون . منزه عن التكييف . قائم بالوحدانية فى ذاته . لاتغيره الأزمان . ثم عددوا صفاته العلية وميزوها بالأسماء واشتقوا منها نعوتا شخصوها فى المحسوسات . وكل شئ نافع . وجميعها ترجع اليه . ولأجل التمييز جعلوا لكل اسم تمثالا . فانتشرت هى وما اشتق منها حتى ملأت المدن والبلاد . »

ان الساعة التى تسرب فيها الالحاد والشرك الى العقيدة المصرية كان ذلك نذير زوال مجد مصر . اذا عرفنا أن تاريخ المصريين يربط عقيدتهم الدينية (قديما وحديثا) بالله عز وجل وأنه تعالى يجب أن يكون قصدهم متبعين أوامره منتهين عن نواهيه فالاسلام عندى هو الدستور الطبيعى الذى يوصلهم الى غاياتهم السامية قال تعالى ـ ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ـ

الدين الاسلامى الحنيف لم يبخس الوطنية حقها . بل جعل حب الوطن من الايمان . وان تحرير الأوطان لايكون الا بالدأب على العمل المنتج « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » وان الثمر متوقف على بذل الجهد ـ وأن ليس للانسان الا ماسعى ـ فلماذا إذا نحيد عن هذا الطريق المستقيم الذى يقودنا الى سعادة الدنيا بالعمل الصالح المنتج . والى سعادة الآخرة بمعرفة الله عز وجل ؟!

لقد أعلن دعاة السوء دعوة على غير وجهها الصحيح وأذاعوها من أن المصريين هم فرعونيون غير عرب . وان واجب المصريين أن يشتغلوا بشئونهم دون سواهم . اما أن يشتغل المصريون بشئونهم (أولا) فهــذا مايقره عليهم الاسلام حسب قاعــدة « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » واما أن ينعزلوا عن بقية الأمم الاسلامية المجاورة لهم فهــذا مبدأ لايتفق مع مصلحة المصريين ولا مع مبادئ الاسلام السليمة . ونحن فى عهد تحالف واتفاقات دولية أصبحت احدى وسائل القوة والمنعة ومن عاش منفردا فى هذا الزمن عرض نفسه الى السلب والنهب

ان الدعوة القومية المصرية التى ألبسها دعاة التفريق ثوب الفرعونية ليخرجوها عن بقية الأمم الاسلامية انما أرادوا بها انتحار مصر الأدبى

أريد أن أهمس فى أذن هؤلاء النفر الناعر بالقومية الفرعونية . وأنا مصرى صميم مسلم موحد . اذا كان حقا ما تدعون من الاعتزاز بالمصرية الفرعونية هل غاب عنكم أن رسول الله ﷺ يتصل بكم فى جدته العليا هاجر المصرية أم اسماعيل عليــه السلام وهو أبو العرب المستعربة وان خاتم الرسل عليه السلام تزوج

منكم

منكم مارية القبطية . فنحن نتصل بالعرب بصلة الرحم والنسب فهم أقرباؤنا وجيراننا وهم أولى الناس بمحبتنا وعطفنا ومساعدتنا . ان دعوة رسول الله محمد ﷺ يجب أن لا تؤيد من ناحية المسلمين المصريين فحسب بل من ناحية المصريين كافة مسيحيين وغير مسيحيين أيضا حسب الأصول المتبعة فى الدفاع عن حق القرابة والنسب والجوار

يجب أن نفهم الحقيقة على وجهها الصحيح حتى لا نضل الطريق السوى فنهلك . ان الله جل شأنه هو الذى اختار رسوله الأمين محمدا ﷺ ليبلغ دينه الى الناس كافة فالدين الاسلامى هو دين للجميع لادين عرب أو عجم وان من أكبر قواعده الديمقراطية أنه لم يجعل الفضل للجنسية بل جعله للعمل الصالح المنتج فقال تعالى ـ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ـ وقال عليه الصلاة والسلام « خير الناس أنفعهم للناس »

الاسلام هو الدستور البشرى السليم الذى يعطى كل ذى حق حقه ولا يبخس الناس أشياءهم . وان اشتغال المصريين بمسألتهم القومية والدفاع عن حريتهم واستقلالهم لا يمنعهم بأى حال من الأحوال من العطف على الأمم الاسلامية ومساعدتهم حسب ما فى قدرتهم و ـ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ـ

نحن نرتبط مع جيراننا من الأمم الاسلامية بروابط كثيرة منها رباط اللغة والدين . فيجب أن نحرص عليهما أشد الحرص ونعمل على تمكين هذه الروابط وتوثيق العلائق الاقتصادية والاجتماعية بيننا و بين الأمم الشرقية كافة والاسلامية منها خاصة ونحن فى عصر التحالف الذى لا تستطيع أمة أن تنفرد فيه بنفسها . فالممالك الكبيرة تتحالف بالرغم مما لدى كل منها من وسائل القوة كمحالفة انجلترا لفرنسا مثلا وكذلك الممالك الصغيرة فقد قام التحالف الصغير يضم بولونيا ورومانيا وتشكوسلوفاكيا و بعض بلاد البلقان وقامت تركيا تتحالف مع جاراتها العجم وروسيا

ان مصر من العالم الاسلامى القلب النابض والرأس المفكر وفلسطين وسوريا والعراق و بلاد العرب والعجم والهند والصين الساعد الأيمن وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وما اليها الساعد الأيسر فيجب أن لا يشغل مصر حالها عن أحوال جيرانها فلهم حصونها الطبيعية المكينة وان كل عدوان على أى بلد إسلامى نعتبره معشر المصريين عدوانا علينا فى الصميم

يجب أن نحذر سياسة الغاصبين المستعمرين وهى سياسة التمزيق والتفريق وقيام الحوائل الجنسية والقومية بين المسلمين والشرقيين ليشتغل كل منهم بنفسه فيدوم لهم إذلالهم وخضوعهم

ان عمل كل أمة شرقية كانت أو اسلامية لرد حريتها واستقلالها لا يمنعها بأى حال من الاشتراك مع جاراتها المظلومة فى رفع الصوت عاليا بالاحتجاج و بذل ما يمكن بذله لمعونتها الأدبية والمادية لرفع ما حاق بها « والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » و ـ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ـ انتهى كلامه والى هنا تم الكلام على الفصل الثالث فى محاجة مؤمن آل فرعون لقومه وجواهره الثلاث والحمد لله رب العالمين

٭٭٭

وقبل الشروع فى الفصل الرابع الآتى قريبا نذكر ما فتح الله به عند طبع هذه الآيات وها هو ذا :

﴿ نور العلم فى صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ﴾

(فى قوله تعالى ـ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشىّ والابكار ـ)

(كتب ليلة السبت ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٠)

بينما أنا أصلى فى هذه الليلة صلاة الوتر فى الساعة الثانية بعد نصف الليل وأنا أقول فى الركوع « سبحان ربى العظيم » وأكررها من ثلاث الى إحدى عشرة خطر لى أن هذه السورة التى تطبع الآن مبدوءة بغفران الذنوب وقبول التوبة . ثم ذكر فيها أن حملة العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن فى

الأرض . وأتبع ذلك بأحوال الكافرين وعذابهم . وضرب مثلا لذلك بكفر بنى اسرائيل . وأتبعه بذكر مؤمن آل فرعون . ثم لخص الموضوع كله بأن موسى أوتى الهدى والذكرى . وأتبع ذلك بأمر نبينا ﷺ بالصبر والاستغفار والتسبيح والتحميد . وهذا التسبيح وهذا التحميد والاستغفار هى التى صدرت من حاملى العرش ومن حوله فيما تقدم . ففى أوّل السورة أن تنزيل الكتاب من الله وانه غافر الذنب وقابل التوب واذا استغفر الملائكة فانما يستغفرون للمؤمنين لا لأنفسهم لأنهم ليسوا فى أجسام مادية كأجسامنا حتى يستغفروا لذنوبهم بل استغفارهم لأجل أهل الأرض . ورسول الله ﷺ أمر أن يستغفر لذنبه هو أوّلا . ولاجرم أن الله قابل التوب كما هو مذكور أوّل السورة . ومتى خلصت نفس الانسان من الذنب سبح ربه وحمده . ولاجرم أن التسبيح والتحميد هما ملخص الحكمة المخبوءة فى هذه الدنيا وفى الآخرة

يا الله : عجبت لصلاتنا كيف أمرنا بالتسبيح وأمرنا بالتحميد. نكررهما صباحا ومساء . نقول « سبحان ربى العظيم » فى الركوع . ونقول « سبحان ربى الأعلى » فى السجود . ونسمعك تقول لنبينا ﷺ ـ وسبح بحمد ربك ـ الخ ونسمعك تقول ـ فسبح باسم ربك العظيم ـ ونسمعك تقول ـ سبح اسم ربك الأعلى ـ ونسمعه ﷺ يقول « اجعلوا هذه فى ركوعكم واجعلوا هذه فى سجودكم » فجعلناهما كما أمر . فنحن الآن نسبح كما أمرنا ونستغفر كما يستغفر نبينا ﷺ والخلف يتبعون السلف فى هذه الثلاثة

ثم انا نعلم أن نبينا ﷺ معصوم من الذنوب فكيف يستغفر لذنبه ؟ والملائكة لما كانوا فى عالم لامادّة فيه كان استغفارهم لمنافع غيرهم شفقة على الذين آمنوا . لكن الرسول ﷺ استغفر لذنبه هو نفسه فأين هذا الذنب وهو معصوم ؟ وهو كما استغفر لذنبه استغفر للمؤمنين كما تفعل الملائكة فهو ذو استغفارين استغفار لنفسه واستغفار لغيره . أما الملائكة فلا يستغفرون إلا لغيرهم لأنهم لايقعون فى معصية ولكنك تقول له ـ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ـ . هذا ماخطر لى فى الصلاة ﴿ الجواب ﴾ ولقد فتح الله عزّ وجل بما يشرح الصدر فى هذا المقام . فلأجعل الكلام فى ﴿ ثلاث مناهج ﴾ فى استغفار النبىّ ﷺ لذنبه . وفى تسبيحه . وفى حمده . فأقول :

اعلم أن الذنب على قسمين : ذنب هو مصدر وذنب هو فعل ، و بيانه أن هذه الطبيعة البشرية الممتزجة بالمواد الأرضية والمائية والهوائية معدّة للذنوب ولاذنوب إلا ماكان من الانحراف عن الاعتدال فى حال من أحوال النفس والذنب لايصدر إلا عن هيئة فى النفس تكون نتيجتها المخالفات والشرور . فهذه الهيئة التى فى النفس والصفة القائمة بها والميل الذى اتصفت به هو المصدر ، وأما الفعل فهو ما يكون من آحاد الذنوب ﴿ مثال ذلك ﴾ صبىّ عاش بين قوم لصوص فاكتسبت نفسه تلك الصفة وأشرب حبها . فهذه الصفة هى المصدر الذى عنه تصدر أفعال اللصوصية . فاذا لم تكن الصفة فى النفس فلن يكون الفعل . فكل سرقة بالفعل تكتب ذنبا على العبد ولكن لولا ذلك المصدر وهى الصفة القائمة بالنفس بسبب المعاينة واستحسان هذا الفعل من الأهل والأقارب ماصدر ذلك الفعل . هذا معنى المصدر ومعنى الفعل . والاستغفار من الذنب يتبادر الى الذهن انه راجع الى الفعل لا الى المصدر . ولاجرم أن محو المصدر القائم بالنفس والهيئة الشريرة فيها أقوم قيلا وأهدى سبيلا . واذا استغفر الانسان وطلب من ربه غفران ذنب من ذنوبه الشهوية والغضبية كشرب الخمر أوالظلم مثلا مع بقاء الصفة فى النفس فقد فعل شيأ عظيما ولو انه طلب من الله أن يزيل ذلك الميل من قلبه لكان خيرا له واستغفار النبى ﷺ لذنبه راجع للمصدر لا للفعل إذ لا فعل وذلك من باب تسمية السبب باسم المسبب وهذا فى علم المعانى مجاز مرسل علاقته المسببية كما فى قوله تعالى ـ إنى أرانى أعصر خمرا ـ أى عنبا . فكما يقال عصرت خمرا أى عنبا هكذا يقال استغفرت من ذنبى أى طلبت من الله أن يديم لى عدم الصفة التى هى مصدر للذنوب كما نقول فى الصلاة ـ اهدنا الصراط المستقيم ـ أى أدم هدايتنا . إذن قد حلت مشكلة

واستغفر

ـ واستغفر لذنبك ـ وحلت مشكلة ـ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفرلك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ـ ومعنى هذا ليديم لك ذلك الغفران . وقوله ـ ماتقدم من ذنبك وما تأخر ـ معناه أن لا يكون هناك مصدر لذنب أصلا . فهذه الجلة ترجع الى عدم تلك الصفة التى يصدرعنها الذنب . ويقول الله تعالى ـ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ـ ورتب على هذا الفتح المغفرة أى زوال ذلك المصدر أى الميل والصفة التى بسببها تكون آحاد الذنوب أى رتب على الفتح دوام تلك الطهارة التى عبر عنها فى بعض الروايات بأن صدره شق وأخرج منه حظ الشيطان . فهذا هو المصدرالذى تنشأ منه الذنوب . ولاجرم أن من صفت نفسه هذا الصفاء تكون نفسه على تمام الاستعداد للمعرفة والعلم والوقوف على الحقائق . ومن نتائج العلم العمل . ومن نتائج الأعمال فتوح البلدان لينتشر الاسلام . وكما أن للذنب مصدرا هوالمقصود من الاستغفار هكذا لفتوح البلدان ونشرالاسلام فى الكرة الأرضية مصدر هوامتلاء النفس بالحكمة والعلم إذ القلب المقفل لاسلطان له على قلب الغافل فاذا عمر القلب بالعلم كان له تأثيرعلى الجاهلين فيتعلمون و يعملون . إذن لافتح للبلدان إلا بعد فتح القلوب ولا انتشار للاسلام إلا بعد أن كان الداعى لذلك الانتشارمعمورا قلبه بالعلم الذى به يؤثر على سامعيه ولوكان علمه كعلم الفلاسفة أوعلم العلماء لكان مثلهم فتكون آثاره محدودة كآثارهم . إذن هناك فتوح أعلى وأن نفسه تستمد من العوالم القدسية وتشاهد الملك والملائكة وهو لايعطينا إلا مايناسبنا . ولولا انه يحس فى نفسه بالمشاهدة والقرب لذلك المقام الأقدس ما أطاعته هذه الأمم فى حياته و بعد موته ، إذن الغفران يرجع لمصدر الذنب والفتح يرجع لمصدره وهى علو نفسه ﷺ والفتوح العلمى . وكما يلزم من انعدام مصدرالذنب ودوام ذلك الانعدام من النفس انعدام نفس الذنب هكذا يلزم من الفتوح بالمشاهدة والقرب بالعلوم والمعارف المستمد من ذلك الجناب القدسى ظهور الآثار فى المؤمنين بفتح البلدان وانتشارالاسلام ، وكما كان الاستغفارموجها الى مصدر الذنب فيدوم عدمه هكذا الفتوح راجع لى مصدر فتوح البلدان وهو فتوح العلوم و يلزم من ذلك فتوح البلدان الذى هو إحدى نتائج الفتح العلمى ، واذا روى البخارى انه صلى الله عليه وسلم قرأ ـ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ـ لما دخل مكة وقد ظهرت عليه هيئة السرور فليس ذلك لهذه الظواهر وحدها . كلا . بل ذلك لمصدرها وهو الفتح الحقيقى لنفسه ﷺ بالعلوم والمعارف وفرحه بربه ، ألاترى انه ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا الخ » والحديث مذكور فى أول ﴿ سورة الأنفال ﴾ وقد ظهرت أسرارهذا الحديث بذل الأمم العربية التى فتحت تلك البلاد وظهرت آثار خوفه ﷺ على أمته فعلا فى زماننا وقبله . إذن فتوح البلدان وان كان لانتشارالاسلام فيه الخير والشر ، فالخير للصحابة والتابعين ومن نحا نحوهم لما عمروا أرض الله ، والشر لمن بعدهم وقد لحقنا نحن وأصبحنا اليوم تحت ضغط أمم أوروبا لأنا لم نقم بحق الفتح . إذن فتح البلدان فيه الخيروفيه الشر كما أخبر ﷺ وظهرت آثاره فينا . إذن مصدر الفتح هوالذى فرح به رسول الله ﷺ وأخذ يقرأ سورة الفتح عند الكعبة يوم الفتح وكان قلبه مفعما بالسرور لذلك ، وكيف يفرح بفتح البلدان الظاهرى وهو يظهر خوفه علينا من ذلك الفتوح و يقول ان أكثر خوفه علينا من ذلك كما فى الحديث الصحيح . إذن الفتح راجع لانكشاف الحقائق العلمية التى لايخاف من زوالها وهى السعادة التى لانهاية لها إذ لاسعادة لهذا الانسان كله إلا بالاطلاع على الحقائق ، وكل مايصيبنا فى الحياة قصد به أن يكون مهمازا نساق به الى العلم وهوتمام النعمة وهوالنصر العزيز

إن ترتب الهداية على كمال العلم والوقوف على الحقائق أقرب من ترتبها على فتح البلاد لأن الهداية ألصق بالعلم وأيضا قد شرح الله صدره ﷺ ووضع وزره عنه ، ورفع ذكره ، وهو لايزال فى مكة قبل فتح مكة وقبل صلح الحديبية وهو يهدى الى الصراط المستقيم قبل ذلك فكيف يترتب عليه الهداية ! إن الفتوح فتوح

العلم وبالعلم جمع القوم وبالعلم فازوا

وهذا له نظير فى لفظ الغنى ، فلفظ الغنى يكتفى هذا النوع الانسانى منه بظاهره وهو كثرة المال ، والنوع الانسانى أكثره مخطئ فى ذلك لأنه ظنّ أن امتلاء خزائنه بالمال سعادة له وهو وهم باطل إذ لاسعادة إلا بغنى النفس ، وكلما أوغل الانسان فى حوز المال توغلت نفسه فى الطمع والحرص فيزيد ذلة ومهانة . فالغنى الحقيقى النفسى هو السعادة كالفتح الحقيقى والغفران الحقيقى . وكما انه لايلزم من غفران آحاد الذنوب زوال مصدرها الذى شرحناه هكذا لايلزم من فتوح البلدان المعروف بين الأمم الفتوح العلمى بدليل أن القوّاد الحربيين يفتحون المدن وهم لايعلمون إلا فن الحرب . وكما انه يلزم من غفران مصدر الذنوب المتقدّم ذكره عدم نفس الذنوب بتاتا هكذا يلزم من الفتح العلمى المذكور الفتح الاسلامى للبلاد فى الأرض

هذه مبادئ السرّ فى هذه الآية ــ واستغفر لذنبك ــ وآية ــ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ــ الخ والفتح بالمشاهدة يترتب عليه دوام زوال مصدر الذنوب ودوام النصر وتمام النعمة

هذا مافتح الله به فى هذا المقام وتمّ الكلام عليه كتابة حوالى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وهذا هو المنهج الأوّل فى الاستغفار

﴿ المنهج الثانى والثالث فى التسبيح والتحميد ﴾

لقد قدّمت لك أن الذى حفزنى الى كتابة هذا الموضوع هو انى فى الركوع كنت أقول « سبحان ربى العظيم » وهناك خطرت لى هذه الخواطر ، ولما رفعت رأسى من الركوع قلت « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شئ بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ماقال العبد ، كلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولا رادّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ »

فلما أتممت ذلك الثناء حتى جال فكرى فى هذه المعانى وأخذت أقول : « ياسبحان الله : نحن نسبح فى الركوع وفى السجود وعقب الصلوات والنبى ﷺ أمر أن يسبح ويحمد بالعشىّ والابكار ، ونحن بعد التسبيح ترانا نذكر السموات والأرض وما بينهما وما وراءها . إذن الأمر عظيم . إذن هذه الصلاة ليست ألفاظا فحسب . كلا . انها متن وشرحه هذه الدنيا كلها . نحن نسبح ونحن نحمد ونستغفر . أما الاستغفار ففتح باب لصفاء القلوب إذ العلم لايجتمع مع الظلمة فى القلب . فبقى التسبيح والتحميد ولقد كررت معناهما فى كل مناسبة فى كل مقام بحسبه . ولن يغنى ما أقوله فى مقام عما أقوله فى مقام آخر فى معناهما إذ العلم أشبه بأنواع الزرع وأنواع الطعام . ولاجرم أن اختلاف المزارع والطعوم لمقاصد وفوائد لاحصر لها . فههنا أقول : أكابر المسبحين هم الذين يقفون على حقائق هذه الدنيا . واذا درسوا نفس هذا التفسير حصلت لهم ملكة بها يقتدرون على أن يعرفوا أن شرور هذه الدنيا ونكبات الدهر ومصائب الموت والفقر والذّل وكل مصيبة تحلّ بفرد أو أمّة فانما ذلك موجه للخير العام والخير العام موجه لخير الأفراد . وأكثر العقول الانسانية لن تقدر على تصوّر ذلك ولكن هذه هى الحقيقة التى لايشك فيها المفكرون

إن السعادة الحقيقية فى الحب . ولاسعادة فى الحب إلا اذا توجه لموجود لايموت وهو جميل وحكيم وله صفات بديعة . وكلماينسب له من الاهلاك والتدمير يحدث فى القلوب خوفا لا حبا . فأكثر أهل الأرض وقفوا عند درجة الخوف من البطش لا الخوف من انقطاع الحب . والتسبيح الحقيقى به نقف على حقيقة هذه الشرور ومتى أدركنا سرّها (وأن جهلنا هو الذى أفهمنا أن ذلك كله موجه لإذلالنا وتفريق شملنا واهانتنا وتفريق جماعتنا) وعرفنا الحقيقة . هنالك تكون السعادة لأن تلك الذات المقدسة كل أعمالها رحمة موجهة لنا . وهذه الرحمة لاتكمل ولاتتم إلا بهذه الشرور والايمان بهذه الأشياء حسن ولكنه لايملأ

القلب سعادة كما يملؤها الوقوف على الحقائق . وهيهات هيهات أن يقف الانسان على هذه الحقيقة أو يكون له بها يقين إلا بأن يجعل حياته وقفا على درس سائر العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وغيرها (وهى التى كان يظنها جهلة المتأخرين من المسلمين كفرا) اذا أمكنه ذلك ويساعد العقل على الفهم الصلوات والتسبيحات فانها لها آثار فى القلوب . وهنالك يفهم المسلمون مايقولونه فى الرفع والاعتدال كما قدمته « لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت . ولا رادّ لما قضيت . ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد » ويفهمون أيضا لماذا كان رسول الله ﷺ يعاهد المسلم على أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه من الله . وسرّ التسبيح فيهم أن هذا الشرّ الذى هو من الله انما هو خير فى الحقيقة . وهنالك هنالك يحلّ الحب الحقيقى من العبد لله ومعه السعادة الحقيقية . وهـذا يفهمنا معنى قوله تعالى ـ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ـ

هذا هو الفرق بين العالم والجاهل . الجاهل أمر أن يؤمن بأن الخير والشرّ من الله ووقف عند درجة الخوف من الله وعند درجة التسبيح اللفظى واعظام الله تعالى إعظاما مصحوبا بالخوف . والعارف هو الذى يعرف بعقله أن هذا الشرّ موجه للخير وأن هذا الشر مكمل لذلك الخير والخير بدونه ناقص . فهنالك يحب ربه حبا لاحدّ له ويسعد سعادة لاحدّ لها لاسيما اذا أمدّه الله بعلوم وحكم وأفاض عليه . فهذا هو التسبيح . أما التحميد فهو معرفة جميع العلوم المذكورة من حيث جمالها وكمالها وحكمها . وهـذا هو السرّ فى ذكر التسبيح غالبا مع الحمد لأنهما فى الحقيقة بينهما صلة وهما يرجعان للعلوم . هذا مافتح الله به كتبته عقب ورود هذا الخاطر بعد ما انتهيت من نفس الصلاة والحمد لله رب العالمين .

﴿ الفصل الرابع فى محاجة الضعفاء والمستكبرين إذ يتحاجون فى النار ونتيجة المحاجة أن الجميع فى النار ﴾

إن هذه المحاجة قد ذكرت بعد نصائح المؤمن من آل فرعون لهـم من باب ذكر السبب بعد المسبب فان آل فرعون قوم مقلدون للرؤساء والمقلد للرؤساء بلاعقل هالك . إذن هـذا من أسرار القرآن فانه بعد أن ذكر آل فرعون (وقد تبين فى تاريخهم الذى ذكرناه أن عقولهم إذ ذاك قد أخذت تنحط حتى عبدوا الحيوانات ، وقد ظهر ذلك ظهورا واضحا فى آثارهم) أخذ يذكر المحاجة بين الضعفاء والمستكبرين فى النار

والمقصود من هذا أن الله كأنه يقول : « أنا لم أذكر مؤمن آل فرعون ومحاجته مع قومه عناية بالتاريخ كلا . وانما ذكرتها أشبه بمثال للقاعدة المذكورة بعد ، والقاعدة المذكورة بعد أن وقوف العقول هو البلاء الأكبر . وليس الاتكال على الرؤساء بنافع المرؤسين فان العقول عنـد الجميع ، وما اتكال المرؤسين على الرؤساء إلا كالاغترار بالمسيح الدجال ، فالمسيح الدجال يوهم الناس فيتبعونه والرؤساء كذلك . إذن ماسيأتى فى الفصل الخامس متمم لما فى هذا الفصل وعلى هذا تكون الفصول الثلاثة متصلة كل فصل مكمل للآخر فضلال المصريين سببه الاغترار بالرؤساء والمرؤسون لاينفعهم الاحتجاج بالرؤساء مهما أوهموهم ، واذا كان إيهام المسيح الدجال لأتباعه واضلال عقولهم واظهار الامور العجيبة لايخلى أتباعه من العقاب على أتباعه لما لهم من العقول التى تركوها والمواهب التى أماتوها فكيف يفلت الضعفاء من العقاب اذا اتبعوا رؤساءهم الذين لايبلغون فى المكر والخديعة عشر معشار المسيح الدجال ! ـ لكل ضعف ولكن لاتعلمون ـ وهذه الحجج القرآنية دامغة واضحة وآيات ساطعات قد ظهرت فى هـذا التفسير ليعلم المسلمون قاطبة فى أنحاء الكرة الأرضية أن دين الاسلام قد أحاطت به تقاليد كاذبة وضلالات خاطئة ومن قرأ كتاب « الفرق بين الفرق » وعرف مافيه من الفرق التى تبلغ نحو نيف وسبعين فرقة ودرسها درسا جيـدا واطلع على بعض تلك الفرق الباقية الآن أدرك يقينا أن كثيرا من تلك الآراء قد ألصقت بالدين لغرض واحـد وهو الجاه والثروة والملك

والرئاسة وحوز المال والتعالى والعزّة والبطش

إن هذا الكتاب ألفته للمسلمين عامّة ، ولست أريد أن أوضح أكثر من هذا ، وليس عندى لهذا الداء لجميع الأمم الاسلامية إلا دواء واحد وهو دراسة جميع العلوم وتعميم التعليم

﴿ الآراء الحديثة وآيات القرآن ﴾

انظر الى ما تقدّم فى قوله تعالى ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ـ واقرأ ما نقلته عن العلامة (كانت الألمانى) فانظر كيف يقول : « إن البصيرة متوقفة على التعليم والتعليم متوقف على البصيرة وهذا دور والدور محال ، ثم أجاب عن هذا الاشكال بما ملخصه أن كل جيل من أجيال الأمة يجدّ فيما ورثه عن أسلافه ويزيد عليه ويسلمه لمن بعده جيلا فجيلا حتى يصل الانسان الى السعادة »

ومما قاله أيضا : « إن المعلم اذا اتبع طريقة من قبله بلا تعقل فانه ينقص عنه وهكذا جيل ينقص عما قبله حتى تنزل الأمم الى أسفل سافلين »

وملخص آراء الرجل أن العلم لا يؤخذ إلا مع أدلته على شريطة أن يعرف الانسان أصول الأشياء فيزيد شيأ ويرتقى الخلف عن السلف من حسن التصرّف . أما اذا لم يكن هناك إلا التقليد المحض رجعت الأمة القهقرى ، وهل فى هذه الآيات إلا هذا ؟

هذا ملخص هذه الآيات ، ومن اطلع على الشبان المسلمين فى المعاهد الدينية يجد انهم يلقنون فى صغرهم أن عقولنا أضعف وهممنا أقلّ وكل جيل يأخذ عمن قبله ويكون أقلّ منه حتى ان أتباع الامام الشافعى فى زماننا ينظرون الى الرملى وابن حجر بعين العظمة ولا يقدرون أن يفكروا فى البويطى من أصحاب الشافعى فكيف اذن بالشافعى رضى الله عنه وأبى حنيفة . أما القرآن وأما الحديث وأما أحوال النبى ﷺ فهذه كلها ينظر اليها نظرا تاريخيا لا غير أو تبركيا غالبا وهذا هو الرجوع القهقرى

فليقرأ المسلمون جميع العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها لتتسع عقولهم ويدرسوا تاريخ كل علم ليعرفوا أصولها ، ثم ليكن فى كل قطر جماعة من هذه الطبقة الممتازة ، ولتكن نتائج آرائهم موازنة فى مجلس عام مع آراء المصطفين من الجماعات المختلفة ، وليكن لهم مجلس عام فى مكة أو فى غيرها ، ثم ليقرّر ما يجب من الاصول المرعية للمسلمين ، ولا يصح أن يتولى زعامة المسلمين أناس لم يدرسوا تلك العلوم ، فوالله انهم ليسوا أهلا لادارة شؤنها سواء أكانوا ملوكا أم أمراء أم علماء . هذا هو المناسب لهذا الزمان . ولقد كتبت نظير هذا فى مواضع كثيرة من هذا التفسير

هذا هو الذى فهمته أيها الذكىّ من هذه الآيات . فقال : لقد أجدت صنعا وأحسنت وأفدت فلله الحمد والمنة ، ولكن لا يزال بعض الاشكال قائما بل لا يزال بحاله . فقلت ولماذا ؟ قال : إن الرحمة تقضى أن لا يكون شئ من هذا وتكون الحياة سعادة . فقلت : هذا السؤال مكرّر فى هذا المقام وفى غيره وكم أجبت عنه فقال نعم ولكنى أريد زيادة الايضاح . فقلت : ماذا أوضح بعد ما ذكرت لك فى أوّل هذا المقام من مثال الماء والأرض والحرارة فيهما وانها فى أحدهما أبطأ من الآخر ، وابطاء تصاعدها على مقدار إبطاء قبولها فهكذا الأمم اذا تدهورت بسبب الرؤساء أو شيوخ الدين أو شيوخ الصوفية أو الجهلاء الذين هم غير كاملين أو المستعمرين الذين يدخلون البلاد فيجعلوا الشعب أشبه بالحيوان يسخرونه

كل هذا لم يخرج عن كونه تأخيرا للرقىّ ، وهل هذا التأخير إلا نفس إبطاء قبول الرقىّ ، وهذا الابطاء يجعل الرقىّ أدوم . إذن الدجالون والمستعمرون والشيوخ الجاهلون كل هؤلاء جعلوا فى الأرض امتحانا لعقول الأمم يؤخرون رقيهم ، فاذا استيقظوا بأمثال ما نكتبه فى هذا التفسير وبالآلام والاذلال فانهم يجدّون فى تثبيت مدنيتهم تثبيتا أتم . أما اذا شربوا العلم شربا بدون آلام ولا تأخير فقلما يدوم فى أجيالهم ، ولعلّ

قدماء المصريين لم يدم ملكهم خمسة آلاف سنة إلا بعد أن قاسوا حروبا واذلالا آمادا طويلة

فمثل الأمم التى يصيبها الذل بالاستعمار و بالشيوخ الجاهلين كمثل الماء فيما تقدم وما أحسن ضرب المثل بالماء فقدجعل مثلا للعلم فى آيات القرآن وعلماء الطبيعة جعلوه مبدأ لارتفاع سطح الأرض لأن سطحه منتظم وجعلوه مقياسا يقاس به الوزن النوعى للجوامد وللغازات بحيث يكون الحجم الذى مثل حجم الماء من الزئبق يساوى وزن الماء ١٣ مرة و٦ من عشرة ، ومن الذهب ١٩ مرة وثلاثة أعشار المرة ومن الأثير الكبريتى سبعة أعشاره لاغير إذن هذا أخف من الماء والهواء أخف من الماء ٧٧٣ وستة أعشار أى ان الهواء المساوى لحجم الماء يكون أخف منه بهذا المقدار

أقول : فاذا كان الماء قد جعل مقياسا فى علم الطبيعة لوزن كل شئ وزنا نوعيا اذا كان على درجة ٤ فوق الصفر من سنتجراد وكانت هذه المعادن وغيرها على درجة الصفر منه ، فهو إذن معيار عظيم هكذا هنا هو خير معيار نجيب به عن ظواهر المظالم والجهالات فنقول انها لم تفعل شيأ أكثر من تأخير الرقى للأمم وهذا التأخير لأجل الشوق لذلك الرقى والشوق مثبت له . وهذا هو قوله تعالى ـ فعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم ـ

هذه هى الحكمة الإلهية فى تحمل الضغط والاذلال . وعلى المفكرين فى الأمم أن يحملوها على دفع هذه المظالم ورفع هذه الأثقال عنهم والله من ورائهم محيط . قال : لقد انشرح صدرى بهذا المقال . فلنبدأ بالكلام على الفصل الخامس

﴿ الفصل الخامس فى المسيح الدجال ﴾

فقلت : لقد ذكرت المسيح الدجال غير مرة فى هذا التفسير . وكلما أحاول أن أقوله قدمت نظيره . فقال : ولكنى الآن أريد أن تشرحه شرحا عاما لتشرح صدرى وصدور القراء ، فأنا أريد أن أعرف كيف يقول ﷺ فى حديث أبى داود والترمذى أن الأنبياء أنذروا قومهم به ، وأن نوحا أنذر قومه به ، وكيف نستعيذ بالله منه فى كل صلاة ، وكيف يستعيذ رسول الله ﷺ منه فى صلاته ولم يظهر فى زمانه ، إذن الأنبياء يستعيذون بالله ونحن والصحابة والرسول ﷺ من شئ لم يحصل وهذا محال ! فقلت : إن الحيرة فى هذا إنما تأتى لمن يجهلون علوم اللغة العربية ، فالعامة يجهلون البلاغة فى كلام العرب ولكن الأدباء وهم قوم أعطوا حظا من علم اللغة هم الذين يفهمون أمثال هذا المقام . إن القرآن فى أعلى طبقات البلاغة وللبلاغة علم فاذا جعلنا تفسير القرآن على يد طائفة تجهل هذه العلوم حصلت لهم الحيرة . أما نحن فلاحيرة عندنا . إن فى علم البيان (وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة) التشبيه والمجاز والكناية . والكناية باجماع العلماء أبلغ من الحقيقة وأى كلام أحق بالبلاغة من القرآن . قال : هذا حسن . فقلت : وما الكناية إلا لفظ له معنى ولكن ليس المقصود هذا المعنى بل المقصود الحقيقى معنى آخر مع ان المعنى الأول لايزال بحاله ويراد أيضا من اللفظ . فاذا قال رجل للآخر « إن كلبك جبان » وكان القائل بليغا فان السامع اذا كان بليغا أيضا يفهم منه أن هذه الجملة معناها انه كريم لأن جبن الكلب انما جاء من كثرة الأضياف فانهم لكثرتهم لم يتحمل الكلب كثرة النباح عليهم . فهذا الممدوح من جهة كريم وهو المقصود . ومن جهة أخرى يصح أن يكون له كلب وذلك الكلب جبان فعلا . فهذه هى الكناية . فالمقصود فيها المعنى الذى كنى باللفظ عنه . فهنا نقول : هذا المسيح الدجال الذى يظهر العجائب وناره جنة وجنته نار و يقتله المسيح ابن مريم له معنيان كمسألة جبان الكلب . والمعنى المشار اليه هو المقصود والمعنى الأصلى جائز لامانع منه

هذا هو الذى يقتضيه علم البلاغة . واذا لم نستعمل هذا العلم فيما خلق له وهو فهم الدين أفنقتصر فى استعماله على أشعار العرب ونحوها . فقال : ولكن لابد للقرينة من كناية فما هى القرينة هنا ؟ قلت : هنا قرائن

لا قرينة واحدة بل قرائن يجب علينا أن ندرسها . فقال : وماهى ؟ قلت : كيف نستعيذ من فتنة المسيح ولا فتنة له الآن ! وهل يستعيذ رسول الله ﷺ من شئ لاوجود له ؟ وهل ينذر الأنبياء أقوامهم بما لاوجود له ؟ فقال : إذن المستعار منه كل من كان ظاهره الصلاح و باطنه الخداع والظلم والجور . فقلت : نعم وذلك يشمل الدجال الحقيقى متى ظهر و يشمل كل دجال من المستعمرين للبلاد ومن الشيوخ الجاهلين فى الاسلام وغير الاسلام فكل هؤلاء دجالون لأن أحدهم يظهر العلم وليس بعالم و يظهر الزهد وليس بزاهد . والأمم المستعمرة تجعل أنفسها داخلة لاصلاح البلاد اذا هى تمنع العلم عنهم

كل هؤلاء استعاذ النبىّ ﷺ منهم ونستعيذ نحن . فهم فى ظواهرهم أشبه بالمسيح ابن مريم يريدون السلام العام وفى الحقيقة لايريدون إلا تسخير غيرهم لهم . ولقد ابتليت أمتنا بقوم من هؤلاء . فكثير من القائمين بالملك فى الأزمان القديمة كانوا لايريدون إلا العلوّ على الناس لا انهم يريدون الخير للأمة . نعم الصحابة رضوان الله عليهم كان لهم اجتهاد ولكن الأمم المتأخرة كثر فيهم طلاب الملك والرئاسة . وأنت ترى آثار ذلك الدجل فى الجهلة من الشيوخ الذين يحملون الأعلام و يدقون الطبول . كل ذلك آثار من آثار أسلافهم الذين كانوا يفعلون ذلك لأجل الملك . ولقد أحسن صنعا مصطفى كمال باشا فى تركيا إذ أخرجهم فقاموا بأعمال تنفع الأمة ولم يبقوا عالة عليها كما هو حاصل فى بلاد الهند . وقد تقدّم مقال مطوّل شارح للاولياء الهنود فى ﴿ سورة الأحزاب ﴾ عند آية ــ يا أيها النبىّ إنا أرسلناك شاهدا ــ الخ ذكرته هناك ليعلم المسلمون أن هذه الطوائف التى جعلت الدين مصيدة سبقنا بها البراهمة فاقرأه هناك ، ومستحيل أن ترتقى الشعوب الاسلامية إلا بالاطلاع الواسع حتى يزيحوا هذه الأوهام ، ولم تر أمة من أمم الفرنجة دخلت بلادا اسلامية كبلاد السودان أو بلاد شمال افريقيا إلا اتخذت هذه الطوائف أعوانا لها . لماذا هذا ؟ لأنهم اخوان شركاء فى الصيد . فالمستعمرون من أوروبا كالآساد و كالنمور وهؤلاء الشيوخ كالذباب وكالحدآت فانها تأكل فضلات أولئك المستعمرين . ولقد أخبرت منذ أيام أن رئيس طائفة كبيرة من الصوفيـة ببلاد المغرب قد تزوّج امرأة فرنسية . إن فرانسا تعرف كيف تؤكل الكتف . إن أوروبا (كما يقول غاندى مصلح الهند) أشدّ خطرا من الشيطان وما أكذب الشيطان اذا نشر شرّه وهو يذكر الله ﴿ و بعبارة أخرى نقول ﴾ إن الأحاديث الواردة فى الدّجال يراد منها ما هو حاصل الآن فعلا فى بلاد الاسلام ، حتى يقول المسلم « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » فهذه الفتن كلها حاصلة والمظهرون الصدق والاخلاص فى العالم وهم كاذبون كثير أفرادا وأمما . فهؤلاء الشيوخ يقولون للناس « واظبوا على الأوراد صباحا ومساء فقط » ولكن لايحببونهم فى العلم لأن أكثرهم جهلاء والمتعلمون منهم كالمتعلمين من أهل أوروبا يقولون « اذا تعلموا تعالوا علينا » وهذا المقام تقدّم شرحه فى مواضع كثيرة من هذا التفسير مثل ما جاء فى سورة الكهف عند آية ــ وما كنت متخذ المضلين عضدا ــ وفى سورة ابراهيم فى آخرها ، وفى سورة سبأ عند آية محاجة الضعفاء والذين استكبروا مثل ماهنا وهكذا . فقال : لقد انشرح صدرى لهذا الجواب ، ولكن بقى أمر واحد وهو : « كيف يقول ابن عباس ان اليهود يتخيلون ملكا يكون لهم على يديه » فهل هذا له أثر . فقلت : إن أمر اليهود لايخرج عما قررناه . إنهم الآن مشتتون فى كل أمة من الأمم وهم أذكياء جدا ولهم تاريخ مشهور ، فهم يحافظون على مجدهم ولا أمة فى الأرض تضارعهم فى هذا لأن التوراة قد ملئت بأخبار أسلافهم ، وهم قد أخذوا على أنفسهم أن يكونوا فتنة الأمم كلها كما نقلته فى هذا التفسير منقولا عن التلمود ، فلاتجد فيهم عالما ولاحكيما ولاسياسيا إلا رحمه موجه الى خير أمته وان هلكت جميع الأمم . وأقرب شاهد على ذلك أن الذى أثار الحرب الكبرى فى ألمانيا وأوروبا هم فلاسفة اليهود فان نتشيه يهودى وهو الذى نشر فيها « ان الرحمة فى هذه الأرض خطأ فلايبقى إلا الأقوياء » وانتشرت آراء كثيرة فى هذا المعنى

فقامت

فقامت الحرب بين الأمم كلها . ثم هم أنفسهم لما رأوا أن ألمانيا أخذت تتمصر نشروا فى طول البلاد وعرضها انها أمة متوحشة فثارت الأمة على الحكومة فسلمت ألمانيا لمن هم أضعف منها . وقد مضى على هذا نحو (١٣) سنة لأننا الآن فى سنة ١٩٣٠ وإيقاف الحرب كان فى سنة ١٩١٨ ونسمع أثناء طبع هذه السورة أن ألمانيا قامت تنفض الغبار عن وجهها و يقول رجالها فى الحزب الاشتراكى القوى فيها الذى قام الآن فعلا « لا يبقى يهودى فى البلاد » لأنه يستحيل أن يكون يهوديا وألمانيا فى آن واحد . هذا هو الذى يقال فعلا عند طبع هذه السورة . وهاهى ذه ألمانيا يقوم شبانها فى هذا الاسبوع فيحطمون زجاج منازل اليهود . إن اليهود يريدون أن يجعلوا لهم السلطان على العالم كله ولو بطريق غير مباشر

ولقد أزاحوا القناع عن أمرهم أيضا فى مسألة فلسطين . فبعد الحرب التى ارتجت لها الكرة الأرضية وحصل الصلح أخذ اليهود يطلبون أن تكون لهم دولة فى فلسطين . وهذا من مكرهم وخداعهم . وأيضا ان القائم بأمر البلشفية فى الروسيا هم اليهود ولاندرى مايتم فى ذلك . فالعالم كله اليوم مخادع وأكثر الناس خداعا اليهود . ونحن نستغيث بالله من هذا الخداع

وعلينا أن نسعى فى رقىّ المسلمين بعلوم الأمم ثم نكمل مانقص من أخلاق غيرنا بعد كمال أنفسنا نحن . واذ ذاك نعلم أجيالا وأجيالا يكونون صادقين لخدمة الأمم فيذهب خداع الأمم بعضها بعضا وأكاذيب السياسيين والدجالين وشيوخ الطرق وأكاذيب التجار بل خداع الشهوات واللذات فهى ملحقات بخداع الدجالين لأن الانسان مخلوق مسكين تخدعه شهوته و يخدعه غضبه و يخدعه نقص علمه وتخدعه الأمم و يخدعه الشيوخ الجاهلون . ولست أقول إن شهواتنا من قبيل الدجالين . كلا . بل أقول انها ملحقات بذلك مقيسة عليه . فلنجد نحن المسلمين فى العلوم لنساوى الأمم ثم نسير على صراط مستقيم للتمهيد الى السلام العام بين الأمم الذى عبر عنه بزمان عيسى ابن مريم ولن يكون زمان المسيح إلا بعد أن يقتل الدجال . إذن لنقتل الدجل من بلاد الاسلام أوّلا ، ولن يكون ذلك إلا بالعلم و بعد ذلك نقتله من الأمم ثم يكون السلام العام وهذا هو المقصود ، فليس فى هذا أيها الذكىّ انكار للمسيح على حسب لفظ الأحاديث ولا للدجال على حسب لفظها ، وانما الذى يجب علينا نحن أن نعمل من الآن لهدم أركان الدجالين وترقية النفوس ليصلح العالم و يعم السلام . هذا ما أدين به وحسبنا الله ونعم الوكيل

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : لقد نطقت بعلم وأفدت بفهم وشرحت صدرى ولكن ماتقوله من السلام العام وانه يحصل بإماتة الدجالين وتعميم التعليم بعيد الحصول ، فاضرب مثلا مشاهدا أقيسه عليه . فقلت : أذكرك بما تقدّم فى أوّل ﴿ سورة يوسف ﴾ . ألم أكتب مقالة أحمل فيها على الحكومة المصرية لاهمالها حفظ الطيور النافعة . قال بلى . قلت : ألم تأمر الحكومة بحفظ هذه الطيور . قال بلى وتبلغ فوق (٣٠) عدّا منها أبو قردان والكروان والزرزاقين الشامى والبلدى الخ . قلت : فأيهما أنفع للناس : أكل أبى قردان وأكل هذه الطيور كما كان ذلك حاصلا قبل منع حكومتنا أم إبقاؤها لتأكل الحشرات والدود فينمو الزرع كما هو الحاصل الآن قال : بل إبقاؤها خير ، ونسبة منفعة أكلها الى منفعة ماننالها من بقائها أقلّ من نسبة الهواء الى الماء من حيث الخفة إذ تقدم انه أخفّ منه (٧٧٣) مرّة قريبا . واذن تكون المنفعة فى أكل تلك الطيور أشبه بالعدم فقلت : وماذا تقول فى البقر والجاموس التى تساعدنا فى الحرث والسقى اذا فرض أنه ليس لدينا غيرها اذا ذبحناها وأكلناها ، أنأكلها أم نبقيها ؟ فقال : بل نبقيها كما نبقى الطيور ، ومن أكل هذه الطيور أو هذه الحيوانات المذكورة فهو أولى بأن ينسب الى الجنون من أن ينسب للعقل . فقلت أحسنت ، ثم قلت انظر : هنا ماء يسقى الزرع وهواء يتنفس فيه و يأخذ منه الكربون كما تقدّم فى ﴿ سورة يس ﴾ عند آية ــ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ــ . قال نعم . قلت : وطيورتأكل

الحشرات والديدان ، وذوات أربع تحرث الأرض وتسقى الحرث . أليس كل هؤلاء تعاونوا على المزرعة . قال بلى . قلت : وهم مختلفون صفات اختلافا بينا . قال بلى . قلت : فماذا تقول فى الانسانيـة العامّة . أليسوا مختلفين أمما وأفرادا اختلافا كثيرا أوقليلا . قال بلى . قلت : والاختلاف لغايات كالاختلاف بين صفات الانسان وصفات الطير والهواء والنتائج تبع ذلك الاختلاف . قال نعم . قلت : أفليست الدنيا كلها مزرعة واحدة . وبنو آدم اذا قتل بعضهم بعضا يكونون فى سخافة عقولهم أشبه بهؤلاء الزارعين الذين ذبحوا أبا قردان وأ كلوه وذبحوا البقر والجاموس وحرموا الزرع من تلك المنافع فأصبحوا خاسرين . قال بلى والله حسن جدا . إذن الانسانية للآن فى غاية النقص . قلت نعم وكمالها بذبح الدجل والاستعمار ، فهذا الشيخ الذى يقول للتلميذ « اتبعنى واترك كل علم غير ما أقوله لك » مريدا بذلك ايقاف عقله أشبه بالفلاح الذى ذبح أبا قردان لأ كله ونسى انه هو الذى يأ كل حشرات حقله ، وهذه الأمم المستعمرة التى تذل الشعوب ليدوم خضوعهم هم أشبه بذلك الفلاح أ كل الطيور وذبح البقر والجاموس وقعد يضرب أخماسا لأسداس . قال : ما هذا ؟ إذن الانسانية الآن بهـذا البرهان سخيفة غبية . فقلت : حقا لا انسانية . وهـذا لايزول إلا بأن يفهم المسلمون آيات هذه السورة ويعلموا أنهم هم المقصودون بانتشال الانسانية من حمقها وجهلها لأنهم ـ خير أمة أخرجت للناس ـ . وأن اليهود لن يرجعوا عن إضلال الأمم ودسّ الفتن فيها وكذلك أمم أوروبا لن ترجع عن إذلال الأمم فتصنع معها مايصنع الفلاح الغبى الذى يأ كل أبا قردان ويذبح البقرة والجاموسة اللتين تنفعانه فى نمو زرعه إلا بظهور الحقائق ظهورا تاما ونشر الثقافة فى الأمم والتحلى بالأخلاق الفاضلة وحين ذلك يفهم المسلمون سرّ قول ابن عباس فى تفسير هذه الآيات . وأن اليهود وغـير اليهود لن يسلطوا على هذه الانسانية وانها لابدّ من ارتقائها وأن الحرب ستزول ويكسر الصليب لأن دينا اخترعه العقل الانسانى واجتابه من دين البوذية لن يبقى إلا بالمبشرين وهم يحملون الصليب

فهذه وأمثالها ستخف وطأتها وتعرف الانسانيـة الحقائق ويكون الناس إخوانا فى نفس الحياة ، انما مثل المستعمرين الذين يفشون الجهل فى الأمم والشيوخ الذين يتاجرون بالدين كمثل من رأى صبيا يرضع من ثدى أمه فحكم بأن لايترك هذا الثدى أمد الحياة وهو يرى ويعلم أن هذا الطفل له أدوار ثلاثة : دور الجنين ودور الرضاعة ، ودور الاستقلال فى الطعام والشراب ، فاقتصار المريد على قراءة الأوراد أشبه باقتصار الطفل على لبن أمه أمد الحياة ، واقتصار الأمم التى استعمرها الأجنبى على أن يكونوا خدما وقد قتلوا ذكاءهم أشبه بذلك الصبى الذى لايترك لبن أمه ، فهؤلاء وهؤلاء قد حرموا فوائد عظيمة فقدتها الانسانية بتأخيرهم رقىّ غيرهم ، وكتابنا العزيز وتفسير ابن عباس يدلان أن الانسانية ستأخذ حظها ولايتم إلا بالسلام العام وبقتل المسيح الدجال ولايعيش فى الأرض إلا الصادقون المخلصون

ألم تر الى قوله تعالى ـ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ـ أى النصر ليس قاصرا على الحياة الأخرى ، إذن فلنبشر الانسانية كلها بالنصر وانهم يصلون للسلام العام لأن دين بالاسلام وأمة الاسلام المستقبلة ستنصر فى هذه العقيدة العيسوية المحمدية وتقتل الدجل وتحيى السلام العام الذى يقوله المسلم فى عبادته

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : ما أجمل هـذا المقال ، وما أبهج العلم ، وما أسعد العلماء ، ولكنى أريد منك زيادة إيضاح فى موضوع الدجالين . فقلت : أيها الذكىّ اقرأ ماتقدّم فى آخر سورة المائدة عنـد قوله تعالى ـ واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ـ ثم انظر كيف كان هذا الدين صورة منقولة من (دين خريستا) ومن (دين بوذا) بالهند أحدهما قبل الميلاد بمئات السنين والآخر قبله بآلاف السنين ، وتأمّل فيما كتبته هناك تجد أصول الدين منقولة بالحرف الواحد وهى هناك واضحة أيما إيضاح ، وعلى هذا نرى هذا الدين له مبشرون قائمون بأمره ، محافظون على تعاليمه ، ومن عجب انهم

يتصرفون

يتصرّفون فيها تصرّفا مزريا ، ومن أفظعه أن الخرافات التى عمت الكرة الأرضية الآن هـم المبشرون بها وهم الفاتكون بالأمم وهذا مخالف لنص هذا الدين على خط مستقيم . ولقد جعل مبشروهم الدين آلة لتمزيق الأمم وزلزلة العقائد حتى ان فتح مصر لبلادنا المصرية لم يتم إلا بما اتخذوا لذلك من مبشرين زعزعوا العقائد فدخلت جنودهم البلاد بعد أن دخلت شرورهم وسمومهم القلوب

وهاهى ذه فرنسا ترحب بالدين خارج بلادها لاضرار عقائد الأمم ولكنها تضطهده فى داخل بلادها علما منها أن تعاليمه ضارّة بنظام بلادها . وبالجملة فالديانة المسيحية الآن أحبولة لاصطياد النفوس وقنابل لتفريق الجموع . أليس هـذا هوأثر من آثار المسيح الدجال . وأىّ دجل أعظم من هذا . ونظرة فى المقالة الآتية التى سطرها أحد الفضلاء فى « مجلة جمعية الشبان المسلمين » تكفى لتبيان ماقلنا وذلك فى عدد نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

﴿ من كان بيته من زجاج فلا يرجم الناس بالحجارة ﴾

يحكى أن سائحا انجليزيا رأى صينيا يصنع صحنا من الأرز المطبوخ فوق قبر فقال له متهكما : « متى تظن أن فقيدك يقوم فيأكل هـذا الأرز ؟ » فأجابه الصينى بقوله « يكون ذلك متى جاء فقيدكم يستنشق روائح الأزهار التى تضعونها على قبره » هـذا الرد الظريف المسكت ذكرنى بكلمة لصينى آخر عن أعمال المبشرين فى الصين فيها نفس المغزى وهو : « ان من كان بيته من زجاج فلا يرجم الناس بالحجارة » كنت قد قرأتها من زمن بعيد ثم رأيت أن أنقلها اليوم لقراء مجلة الشبان المسلمين كرد (خالص) على ذلك الاختلاق وتلك التقارير الوهمية التى يذيعها المبشرون عن انتشار المسيحية فى أنحاء العالم وتراجع الاسلام تحت ضغط انتشارها باعتبار أن الكلمة صادرة عن رجل يتكلم بلسان ربع سكان المعمورة وهذه هى : لأىّ غرض جاء الى بلادنا هؤلاء المبشرون ؟ هم يقولون انهم جاءونا بدين يرون فيـه لنا أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة . ويسمون هذا الدين بالدين المسيحى ولأننا لم نكن فى حاجة لمثل هذا الدين بالمرة لأنه فى نظرنا دون شريعة كونفوشيوس وبوذا لم يستطع المبشرون مدة أربعة عشر قرنا أن يؤثروا به فينا اذ لايوجد حتى الآن بين أمتنا التى يربو عددها على أربعمائة مليون نفس أكثر من أربعين ألف مسيحى صينى ولست بحاجة لأن أعرفكم بهؤلاء الصينيين المسيحيين فهم الفقراء الذين لايقدرون على كسب قوتهم . ولذلك صاروا مسيحيين لأن المسيحية لديهم هى العيش ولم يستطع المبشرون رغما عن الجهد الجهيد استمالة رجل ذى شأن ككاتب مطلع أوموظف أو تاجر أوأى ذى حرفة ولم يجتمع حولهم غير التعساء والمتشردين . وكيف يكون الأمر غير ذلك مادام بوذا قد علمنا كل مايحاول هؤلاء المبشرون تعليمه لنا مرة أخرى ومادامت فلسفة كونفوشيوس أكمل وأجل قانون عرفناه الفضيلة والأخلاق حتى اليوم . على أن أساس الديانة المسيحية وحده يكفى لابعاد كل ذى تفكير حر عن المسيحية وانى أترك لكم الحكم على صحة قولى هذا . يقول المسيحيون ان الله أراد فى يوم من الأيام انقاذ العالم وبما أنه القادر على كل شئ ـ وانما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ـ كان يجوز أن يظهر رغبته فى انقاذ العالم بكيفية بسيطة ولكن الأمر لم يجر بهذه البساطة فهم يقولون ان الله الذى كان واحدا فردا رأى أن يصير ثلاثة مع بقائه فردا فليفهم ذلك منكم من يستطيع . وكانت نتيجة ذلك أن الله رزق بكرا من بنات آسيا غلاما وهذا الغلام صار رجلا والها فى آن واحـد فما هذه التعقيدات والاشكالات . إنى أسألكم هل يوجد صينى سليم العقل يقبل هذه القصة ؟ أليس هذا وحده يفسر لنا لماذا لم يجد المسيحيون سبيلا لنشر دعوتهم فى هذه البلاد التى تترك الحكومة فيها للشعب حرية تامة فى التفكير فى مسائل الدين كما أثبت ذلك القسيس هوك . الى جانب هذا نعلم أن المسيح (نبى البيض) دعا قومه الى التسامح والرحمة والغفران (كما فعل

كونفوشيوس من قبل) وأوصاهم بأن يعيشوا مع الناس فى سلام وأن لا يعملوا مع الغير ما يريدون أن يعمل الغير معهم . فهل المبشرون يتبعون الشريعة التى ير بدون ادخالها بيننا . كلا فالدين ماهو الا وسيلة فى أيدى هؤلاء القسوس الذين جاءوا لانقاذ أرواحنا (كما يقولون) بغير أن نطلب ذلك منهم لأنهم كانوا الطلائع لغيرهم من مواطنيهم وهم التجار الذين ظننا أنهم هم الآخرون أتوا لتبادل المنفعة معنا فقابلناهم بكرم ولطف ورحابة صدر فبماذا قابلوا حسن صنيعنا . قابلوه باحتلال الجهات التى يسكنونها من الأراضى الصينية وادّعوا أنها ملك لهم ومحكومة بقوانينهم ومحال انهم كانوا يقبلون ذلك فى بلادهم لوادعى صينيون مناهنالك مثل دعواهم فتركناهم مع ذلك وشأنهم ولكنهم مالبثوا أن أصبحوا لا يطاق لهم وجود لأنهم أرادوا أن يكونوا هم السادة أصحاب الأمر والنهى وأن نكون نحن أرباب البلاد وأسيادها خدما لهم يحكموننا بالقوة والأرهاب الخ » وهى كلمة طويلة نكتفى منها بما تقدم . والذى يلفت النظر فيها بنوع خاص هو أن المسيحية التى يدعى المبشرون أنها تنتشر فى أنحاء المعمورة وان الاسلام يتراجع تحت ضغطها لم تستطع (بعد جهد جهيد استمر نحو ١٤٠٠ سنة) ان تجذب اليها رجلا واحدا ذا شأن فى بلاد الصين وان كانت فازت بعد ذلك الجهد بأربعين ألف مسيحى صينى لا أظن ان العالم المسيحى الأبيض يغتبط بأخوتهم لأنهم . كما يقول ذلك الكاتب . أناس ضحكوا على ذقون المبشرين ليأكلوا (عيشهم) والمبشرون من جانبهم يضحكون بهم على ذقون من يمدونهم بالمال ليعيشوا هم الآخرون . فالاسلام لاخوف عليه من تهديد المبشرين ومزاعمهم

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ✡ أبشر بطول سلامة يامربع

مادام هذا الدين السمح الذى كفل الحرية الصحيحة للناس فى حدود الفضيلة وحرر النفس البشرية وساوى بين الناس فلم يفضل أبيض على أسود أو أحمر أو أصفر الا بالتقوى والعمل الصالح . لاخوف عليه وهو دين الحرية والديموقراطية من طغيان الدين المسيحى عليه . ذلك الدين الذى يحتفل أبناؤه البيض (فى بلاد المدنية والعدل والحرية أمريكا . معقل رجال الدين ومصدر المبشرين) بتعذيب اخوانهم ومواطنيهم المسيحين السود ونحن نتحدى كائنا من كان من المبشرين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يكذب هذا الخبر الذى نورده هنا وهو هذا

احتفل أمبركيو ولاية نيويورك فى مدينة نايلور بتعذيب زنجى اسمه « دان دافيز » فلما شدّ وثاقه الى شجرة . بعد التعذيب الوحشى الشديد . لاحراقه حيا توسل « دافيز » المسكين الى ذلك الجمع المحتشد من الرجال والنساء بعبارة مؤثرة تستدر الدمع أن يتقدم واحد منهم ليقطع عنقه قبل أن يسام ذلك العذاب الأليم فقال انى أرجو أيها السادة أن يكون بينكم رجل عامر القلب بالمسيحية فيتقدم ليقطع عنقى ويريحنى من هذا . فكان جواب الانسانية المسيحية البيضاء على هذا التوسل رنين ضحكات السخرية والاستهزاء من الجنس اللطيف والجنس الخشن سواء

نعم . لاخوف على الاسلام من طغيان المسيحية التى دعاتها المبشرون . انما الذى يهم جماعة الشبان المسلمين أن يقفوا عليه هو أن الدين أصبح وسيلة فى أيدى المبشرين يستترون تحت ثوبه مفسدة عمرانية اعتقادية تنتقل مع الأجيال وحسب القراء أن يطلعوا على تصريح رئيس وزراء فرانسا فى سنة ١٩٠٠ المسيو ولدك روسو عن هذه الطائفة فى خطبة علنية أمام مجلس النوّاب حينذاك حيث قال : ان اختلاف التربية والتعليم باختلاف المدارس بين أهلية ودينية أحدث فى النشء الفرنسى فريقين مفترقين قلبا وقالبا ومبدأ وغاية ففريق يحب فرنسا ويخلص للجمهورية ويعاهد نفسه على الصدق فى خدمتها وتأييد ذلك النظام الذى اختاره الشعب وفريق تربى فى حجر جماعة اتخذوا لباس الدين رداء رياء ووراء خداع يربون الأبناء على كراهة الجمهورية ويبثون فى نفوسهم مبادئ تناقض مبادئنا الخ

وكفى

وا كتفى بهذا البيان على أن يترك التعليم حرا ولكنه أقفل أبواب الوظائف الحكومية فى وجوه خريجى مدارس تلكم الجماعات ثم ظهر بعده من لم يكتف بذلك بل قضى باقفال مدارس الرهبنات صيانة للأمة عما يهدد حكمها الشورى ونظامها الدستورى الذى أراقت فى سبيله الدماء الغزيرة حتى ظهر من انتصر للرهبنات . ولايهمنا نحن وجهة نظر كل فريق منهم انما نورد هنا خلاصته . فنهم كاتب من كتاب الفريق الثانى وهو المسيو « دريمون » فى جريدة « الليبر بارول » فى سنة ١٩٠٢ حيث قال : فى ألمانيا التى لايحكمها أصحاب البدع والحمق . يتصرف ولاة أمورها مع الرهبنات بغير ماتصرفنا به ويعملون معاقيض ماعملنا . فان جيراننا الالمانيين لماعلموا علم اليقين أن المبعوثين أقوى العوامل السياسية والتجارية تأثيرا وأجدها أثرا أمدوهم بعنايتهم وأظلوهم بحمايتهم . الى أن قال : فلم يمهد للانجليز سبيل فتح مصر الا المبعوثون الانجليكان . فاذا كان باقيا هناك من لم يزل يتكلم باللغة الفرنسية فانما الفضل فى ذلك يرجع الى مبعوثينا الفرير أساتذة المدارس المسيحية الذين حافظوا على اجتذاب بعض القلوب الى فرنسا . نعم ليست العبرة بكلام هذا ولا بكلام ذاك من حيث وجهة نظر كل منهما انما العبرة بمدلول كلامهما حيث كشف لنا كل منهما سوءة من سوآت المبشرين ونبهنا الى جانب من جوانب الخطر الذى يتهدد الجنس الشرقى والاسلامى الملقى زمامه الى هذه الطائفة على ظن أنها تقوده الى مراقى العلم والفلاح . فليتق المسلمون الله فى أبنائهم وخلفائهم من بعدهم ليتدبروا فى كلام الرجلين حيث يظهر بوضوح جناية المبعوثين الدينيين ومدارسهم على النشء وليس لهم علينا حجة بعد ايراد شهادة شهود من أهل المبشرين عليهم والظاهر أن الفئة الأخيرة المدافعة عن الرهبنات قد انتصرت فهاهى فرنسا اليوم تشهر فى وجه الاسلام سيوف الاعتداء على العقائد بتعطيلها الشعائر الاسلامية فى بلاد المغرب واقفالها محلات عبادة المسلمين فى نفس الوقت الذى تنشر المدارس التى تلبسها ثوب التعليم ونشر الثقافة وتستر تحت هذا الثوب نفس الفكرة التى أجرى الله بها لسان المسيو دريمون فظهرت الحقيقة

أما الدين الاسلامى نفسه ففرنسا (وغيرها) تعلم علم اليقين أنه طود شامخ ثابت بمبادئه الانسانية . سام بتعاليمه الروحية . فان جيوش المبشرين الذين تملأ بهم الدنيا لن تقوى على زحزحته عن موضعه قيد شعرة ولكن حب الاستعمار هو الذى يدفعها الى ركوب هذا المركب الخشن لأنها ترى فى تعاليم الدين الاسلامى عقبة فى سبيل الاستعمار ولكن لتفهم فرنسا أن نيتها مفضوحة وأن المسلمين اليوم غيرهم بالأمس . انتهى

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : لقد شرحت صدرى . فتلت الحمد لله رب العالمين . والى هنا تم الكلام على سورة غافر وذلك صباح يوم الخميس ١٦ اكتوبر سنة ١٩٣٠



تفسير سورة فصلت

(هي مكية)

(آياتها ٥٤ — نزلت بعد غافر)

﴿ هذه السورة خمسة أقسام ﴾

﴿ القسم الأول ﴾ فى تفسير البسملة

﴿ القسم الثانى ﴾ فى التوحيد وذكر بدء الخلق من أول السورة الى قوله — ذلك تقدير العزيز العليم —

﴿ القسم الثالث ﴾ فى ذكر إهلاك بعض الأمم التى كفرت كعاد وثمود الذين هـم أقرب الى المرسل اليهم ديارا ولغـة وعوائد وتاريخا من قوله تعالى — فان أعرضوا فقل أنذرتكم — الى قوله — فأخذتهـم صاعقة العذاب الهون * بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون —

﴿ القسم الرابع ﴾ فى ذكر الحشر وشهادة الجلود والحواس واختصام الناس مع أعضائهم والقرناء واضلالهم وانهـم يتتابعون فى العذاب كما تتابعوا فى الاقتداء وتناسى عقولهم ثم اذا ظهرت الحقيقة تنابذوا وتناكروا وتعادوا واتباع ذلك بالتواد والتحاب بين العوالم الطاهرة من الملائكة وعوالم الانس ، وكيف يبشر الأولون الآخرين قائلين لهم وقت الحياة وعند الموت « لاتخافوا مما تردون عليه ، ولاتحزنوا على ماخلفتم من الأبناء والأهل والأمم ، فستردون الجنات . وتنالون أعلى المقامات ، فى ضيافة الله واكرامه » ثم وصية المؤمن أن يكون هينا لينا ، رحيما ودودا عفوّا ، يتألف أصحابه ولايتبرم بهم ليصبحوا أحبابه ، وذلك لا يكون إلا بالصبر والاحتمال وحسن الخلق والتوادّ والتآلف ، وأن يستعيذ بالله من قرناء السوء من شياطين الانس وشياطين الجنّ اذا وسوسوا له ونزغوا بينـه و بين أصحابه وفتحوا له باب الشرّ والنزاع والشـجار ، وذلك من قوله تعالى — ويوم يحشر أعداء الله الى النار — الى قوله — فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم —

﴿ القسم الخامس ﴾ من قوله تعالى — ومن آياته الليل والنهار — الى آخر السورة ، فذكر الشمس والقمر وبهجتهما ومنافعهما ، وأن ذلك لاينبغى أن يوقف الهمم عندهما عبادة وسجودا لأن الانسان لم يخلق فى هذه الدنيا إلا للرقىّ ولارقىّ اذا وقف عقله عند مصنوع أرضى كالأصنام أومصنوع إلهى كالشمس والقمر ، فاذا وقف العقل عنـد أحدهما سواء أكان صنما أم جرما مضيئا باهرا كان ذلك المعبود حاجزا بينه و بين ارتقاء عقله ، وكيف يبحث عن الأجرام السماوية البديعة التى شمسنا بالنسبة لها صغيرة جدا ، كيف يبحث عنها اذا كان يرى أن الشمس أكبر وأعظم الأشياء لأنها معبودة والمعبود يفوق كل ماسواه ، فاذن تـكون الشمس أعظم موجود ، فاذا عنّ لعالم فلكى أن هناك شمسا أكبر منها صدّه الدين عن ذلك الاعتقاد ، فما بالك اذا رأى أن هناك (١٠) آلاف مليون من الشموس أصبحت شمسنا بالنسبة لها كبرتقالة بالنسبة لبطيخة بل قلعة فضلا عن شموس لاتزال محجوبة عن الأنظار ، هذا هو مقصود الديانات ومقصود القرآن ومقصود العلوم ، إن الله قد أرسل ابراهيم الخليـل فدكّ صرح عبادة الشمس والقمر والكواكب ، وتمم هذا نبينا ﷺ فانطلقت العقول بعد أن كانت محصورة أيام الصابئين فى عبادة كواكب معلومة ، وحجزت العقول ومنعت من الاطلاع على عوالم لانهاية لها ، ثم أتبع ذلك بما يفيد : « انكم يا أهل الأرض لستم شيأ مذكورا بالنسبة

لعوالمنا الأخرى الروحية ، فاذا أبيتم يا أهل الأرض أن تعبدوا ربكم ليتسع لكم المجال فى رقى عقولكم لتخرجوا من العالم المادى ، فاعلموا أن هذه السموات والشموس والأقمار والتوابع ليست خالية من السكان ، إن هناك عوالم وهى الملائكة والملائكة صفوف وكلهم يعبدوننى ، فاذا لم تبلغ مراتبكم هؤلاء فأنتم وشأنكم . فكم هناك من عوالم تسبح ربها عاكفة على السجود له والقيام بأمره ولا يسأمون بل عبادتهم بشوق وتوق وحب لاقتراب نفوسهم من ذلك الجمال الأبهى كما ان الشموس والأرضين دارت طائفة بنوع الجاذبية ، واذا ظننتم أن أرضكم الحقيرة الصغيرة قليلة الشأن هى التى حظيت بالعقول والعلوم وأن العالم كله محروم منها فكبروا أربعا على عقولكم وادفنوها فى الثرى ، وكيف تظنون ذلك وأنتم ترون أن البحار التى زاد عمقها عن مائتى قامة وضوء الشمس محجوب عنها قد خلقنا فيها عوالم من سمك وسرطان وأعطيناها كل ما تحتاج اليه ، وأضأنا لها بضوء تصرفه على مقدار حاجتها وتطفئه متى شاءت ، وتوقده متى شاءت ، وتطارد فريستها بهدايته ، وتتخلص من عدوها أنى شاءت ، فتظهر نورها الوهاج أمام عينيه كى تبهره ثم تختفى وهى أمامه ، فاذا فعلت ذلك فى قرار بحاركم الذى يصل الى مايقرب من مائتى قامة ولا أذره يكون بلا حياة فهل أذر الشموس العظيمة التى شمسكم بالنسبة لها لا تعد شيأ مذكورا فضلا عن أرضكم المحقورة الضعيفة التى خلقتكم فيها زمنا ما لأنقلكم الى عوالم أخرى تستأهلونها بما فطرتم عليه فى هذه الأرض من الأخلاق والأعمال أسمى بعضها بالجنان و بعضها بالنيران . كلا . فأنا لم أدع عالما حقيرا كأرضكم ولا عالما عظيما كالشموس العظيمة وتوابعها إلا أسكنت فيه عالما يليق به ، وكلما كان المسكون أرقى كان الساكن فيه أعلى وأعظم وأقرب الى ربه كما تقرب حاسة العين والسمع من العقل ، وتبعد عنه حاسة اللمس بعض البعد ، إن العين والسمع يعرفان القريب والبعيد ، واللمس لايفقه إلا القريب ، فأنتم يا أهل الأرض أشبه بحاسة اللمس لأن علومكم مادية والعوالم الأخرى يقرب سكانها من ربهم لبعد نظرهم وكبر عقولهم وتشبههم بربهم ، وهذا ماياتى من قوله تعالى ـ يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون ـ . ثم ذكر أن الأرض اذا نزل عليها الماء اهتزت وزادت وتزخرفت بالنبات هكذا تحيا النفوس بالبعث كما تحيا الأرض بانزال المطر عليها . ثم ذكر أن هذا القرآن محفوظ لا يتطرق اليه الخلل تذكرة للامم الأرضية الضعيفة لأنه نزل بحكمة وهى نعمة على الناس يستحق مسديها حمدهم له ، وأن الأمم المدعوة لهذا القرآن تقابله بما قابلت به الأمم السابقة أنبياءها لأن أهل الأرض منغمسون فى المادة ضعاف العقول غالبا ألهتهم الشهوات عن الحكمة لاقترابهم من عالم الحيوان والنبات ، فهذه جبلة فيهم والله سبحانه سيجازى المسىء والمحسن منهم بما هو أهله من عقاب وثواب ، ثم إن هذا القرآن لونزل بلغة غير العربية كما يقترح بعضهم لكان ذلك بدعا فيقال نبى عربى وقرآنه أعجمى فتقوم حجتهم عليه ويقولون فى آذاننا وقر كلا . بل الأمر واضح نبى عربى وقرآن عربى تسمعه أمة عربية وتنقله الى الأمم ثم تذيع لغتها و ينتشر دينها وتقوم دول بها ، ولايصح ذلك إلا اذا كان بلغة العرب ، ثم أبان أن أمر الساعة كأمر خروج الثمرات من أكمامها وكأمر وضع الحوامل ، فهذه الأجسام الأرضية الانسانية تحمل أرواحا تربى فى الأرض بالخير والشر وتمتحن بالنعم والنقم والبلايا والرزايا وترسل لها الأنبياء و يخلق فيها العلماء فتفتح الأجسام عن أرواحها بالموت كما تفتح الأكمام عن الزهر والكفرّى عن الطلع والحامل عن الطفل . فالأجسام بالموت تمخض كتمخض الحوامل وتبرز تلك الأرواح ظاهرة واضحة على حسب ماجبلت عليه كما يخرج الطفل حاملا ماورثه من أبويه وذويه ودولته وأمته فى الدنيا فيعيش على ما كان عليه فى الرحم من تلك المواريث و يتلقى كمال علومه فى الحياة ، فاذا مات فقد تمخض جسمه عن روحه وأصبح فى عالم جديد يحمل صفات وآراء وأخلاق حتى اذا بعث برز هناك أمام الله والعالم بأخلاقه نفسه كما برز الطفل فى الحياة بما هو من جبلته . ثم قال وهذه الامور ليست بالطبع بل لاتحمل أنثى ولاتضع إلا بعلمه هكذا لايعمل عامل عملا ولا يحشر الى جنة أونار إلا بعلمه

لأن هذا نظام له قانون لايتعدّاه . ثم أخذ يذكر أخلاق أكثر النوع الانسانى فوصفه بأنه لايحب إلا الامور المادّية ، فاذانقص منهاشئ يئس معانه خلق ليهذب و يربى ، واذا أنعم عليه بنعم كثيرة وغمر بها اغترّ وظنّ أن ذلك أمر دائم وأن النعم الروحية والأخروية تابعة للنعم المادّية الجسمية ، ثم بشرالله النوع الانسانى لاسيما العالم الاسلامى قائلا : « أيها الناس : إنى سأفتح لكم أبواب العلوم والمعارف والحكم ، وأبين لكم الحقائق ناصعة واضحة ، وأوّلا أفتح للمسلمين البلاد شرقا وغربا وهذه دلالة صادقة على النبوّة المحمدية ، كيف لا وأن النبوّة تستلزم إيجادالأمم وتربيتها ، فدين يجمع أمة وتعيش أمدا طويلا وهوثلاثة عشرقرنا و يضم من الشرق والغرب آلاف الآلاف ، إن ذلك لدليل على أنه من عند الله لاسيما اذا كان الذى نزل عليه ذلك الدين أمّيا لايقرأ ولا يكتب وهو فى أرض قحلة لاصلة بينها وبين العلم . وثانيا ان هذا القرآن قد فتح للناس باب قراءة العلوم والمعارف فانتشرت الفكرة فى العالم كله وجاءت الحروب الصليبية فانتعشت أوروبا وظهرت العجائب الكونية وظهر علم الأرواح وعلوم النفس وهذه معجزة للقرآن . فهنا معجزتان : معجزة فتح البلاد على أيدى المسلمين . ومعجزة ظهور العلوم فى أوروبا التى أدهشت العقول وحيرت الأفكار . وقد ذكرنا كثيرا منها فى هذا التفسير . فهذه العلوم هى نفسها آيات الله تعالى أظهرها الله كما أخبر القرآن . والعلوم المذكورة قسمان قسم فى العلوم الطبيعية والفلكية وهى علوم الآفاق . وقسم فى علم الأرواح وعلم النفس وهوعلم الأنفس . وذلك كله معجزة للقرآن . والا فكيف يقول ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ــ أوليس ذلك لنا نحن المسلمين الآن !

يقول الله ــ حتى يتبين لهم أنه الحق ــ . فليسمع المسلمون فى أقطار الأرض كلام ربهم . هذا أوانه . يقول لكم : سأريكم آياتى فى أنفسكم وفى الآفاق . أيها المسلمون : هذه الآيات قد ظهرت وبهرت . ظهرت شموس وبهرت العقول . ظهرت علوم الكيمياء . ظهرت عوالم بديعة غابت عن عقول الأمم الماضية . ظهر ذلك كله . ظهرت أسرار النفوس وعلوم الأرواح . كلمت الأرواح الأحياء . كلموهم بما جاء به القرآن . قالوا لهم « اننا نعذب وننعم » . قالوا لهم : « اننا نألم لكل ذنب اقترفناه » . قالوا لهم : « ان العلم والأخلاق الجيدة هما المسعدان لنا بعد الموت » . قالوا لهم ملخص ماجاء فى القرآن

أيها المسلمون : هذا هودينكم يأمركم أن تدرسوا كل علم وتقرؤا كل فنّ ويقول لكم الله إى عبادى قدفتحت لكم أبواب الجنات فى هذه الدنيا . فتحتها على مصاريعها . انظروا تأملوا مافيها من جمال . وأين هى الجنان ؟ هى العلوم التى أبرزها الله فى الأرض . إن الجنان نتائج العلوم والأخلاق . والنيران نتائج الجهل والذنوب . يقول الله ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ــ ولقد أرانا الله ذلك . كان آباؤنا أشرف خلق الله فلكوا الأمم لاسعادها . ولما سكنت ريحهم وغابت شمسهم خلفهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غيا فأذلتهم الأمم . وهذه أيضا من آيات الله التى أراها الله لنا . أرانا آيات فى آبائنا إذ أخضعوا الأمم . وأرانا آياته فى أنفسنا فى مصر والشام وسوريا والحجاز وفلسطين والعراق و بلاد المغرب وفى بلاد روسيا والهند وسائر أقطار الاسلام وفيما وراء البحار . خضعت أكثر هذه الأمم للفرنجة . أذاقها الله النكال . هذه من آيات الله تعالى لأنه هكذا أوعد الله الذين لايفكرون . أظهرالله علوم الكائنات من شموس وأقمار وكواكب صغار ومعادن وحيوان ونبات وجمال أرضى وعجائب حكمية وعلوم أرواح . كل هذا من آيات الله فى الأنفس والآفاق

ثم أيد ذلك بأن الله شهيد على كل شئ فهو يحقق هذه الامور كما وعد وانه عالم بالأشياء كلها وقد تم ذلك كله فى هذا الزمان وسيزيد فى الازمان المستقبلة

إنى لأدهش أيها المسلمون حينما أرى هذا كلام ربنا وأرى انه ديننا وأقول فى نفسى كيف يكون هذا دين أمة الاسلام والناس كلهم يرقون العلم أما هم فانهم نائمون

عجبا لأمة أصبحت أشبه بملك أصم أعمى تقام له المحافل وهو غافل وتضرب له المدافع وهونائم وتنصب له الحفلات وهو فى سبات أوكعروس أقيم له الاحتفال ونشرت الزينات وأنشدت القصائد وهوتائه غافل لايعى مايقال ولايدرى

ياقوم : يقول ربنا ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ ويقول انه شهيد على كل شئ محقق للوعد والمسلمون لايعلمون هذه الزخارف والزينات القائمة فى الأرض والعجائب البارزة زفها الله اليكم ، استخرج الله منافع البر والبحر وكلم الأموات الأحياء . كل هذا أخبر به نبيكم ﷺ فكيف تقام هذه الزينات وتنصب لكم الحفلات وأنتم فى غفلات . نعم إن المسلمين اليوم أشبه بملوك العباسيين فى آخر أيامهم أو ببعض المماليك فى الدولة المصرية إذ تقام لهم الحفلات باسمهم وتنصب لهم الزينات وهم مسجونون

هذا ماجاش فى نفسى عند تقسيم هذه السورة وهو كمختصر لتفسيرها فلأبدأ فى تفسير هذه الأقسام فأقول مستعينا بالله

﴿ القسم الأول فى تفسير البسملة ﴾

هذه قد أخرتها الى اللطائف وهى أول لطيفة من ست ، وذلك لأن فهم الرحمة هناك من حيث شمولها لما فى السورة من العجائب يحتاج فيه الى معرفة ظواهر تفسيرها ولذلك أخرتها

﴿ القسم الثاني من السورة ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) هما حرفان وهما الحاء والميم وقد علمت أنهما فى سورة غافر تشيران للحمد الذى اكتنفهما والنتيجة أنهما ترشدان الى اقتناص سائر العلوم ، هذا ملخص مامضى فى هذا التفسير ، انما لكل سورة مزية والمزية التى فى هذه السورة غير التى مضت ، فانظر الى ماسألقيه عليك ، انظر كيف يذكر الله الحاء والميم المذكورين فى قوله تعالى ـ تنزيل من الرحمن الرحيم ـ فالحاء والميم فى كل من الاسمين ، وكيف يقول ـ نزلا من غفور رحيم ـ ، وكيف يقول ـ تنزيل من حكيم حميد ـ فالحاء والميم فى الحمد والحكمة والرحمة المذكورات فى هذه السورة ، ولاجرم أن الحمد أعمّ هذه المعانى لأنه لا يكون إلا على نعم ولانعم يحمد عليها إلااذا عرفت ، ومتى عرف الانسان أن الله رحيم ورحمته شملت العوالم العلوية والسفلية رحمة مصحوبة بالحكمة لا كرحمة الأمهات بل هى كرحمة الآباء مصحوبة بشدة للتوازن والمحافظة عليها . متى عرف ذلك حمد الله فإذن يرجع الأمر الى التنبيه على العلم لاسيما أن الحاء والميم فى الحمد قد جاآ فى أوّل الكلمة متتاليين فأما فى الحكمة والرحمة فليسا كذلك فرجعت هذه السورة كالتى قبلها مع تفصيل فى هذه . ألاترى كيف ذكر بدء الخلق وانه نظم السموات والأرض وأودع فيها الأقوات والأرزاق وأعطى كل شئ خلقه وانه أمر الأرض والكواكب بالاتيان اليه فأتت له طائعة بطريق الجاذبية لا بطريق القسر والقهر وهذا الدوران مبنى على الحكمة والنظام العجيب . وكيف زين السقف الذى فوقنا بمصابيح مضيئة مشرقة بهجة تسرّ الناظرين فبينما الانسان ينظر فى حقله فيرى أزهارا وأنوارا وجمالا وبهجة وماء لطيفا شفافا تظهرفيه الوجوه والطيور تحوم حوله ويرى أنعاما وأشجارا وأنواعا شتى من الثمار فى الأرض اذا هو ينظر فوقه فيرى سقفا مرفوعا مزينا بالصور الجميلة والقناديل المعلقة والرسوم البارزة والوجوه الباسمة والأوضاع المشوّقة والبهجات الشارحة للصدور المنعشة للقلوب المزيلة الغموم المذكرة بالأحباب المبعدة للنصب المزيلة للغوب المناجية لذوى العقول الشريفة الملهمة لهم الجمال السارّة المفكرين المذكرة برب العالمين المصغرة لحياتنا الحيوانية المعظمة للحياة الملكية الخاصة بالكبراء الممنوعة عن الجهلاء المحجوبة عن ذوى الكبرياء تبرقعت عن الأغيار وظهرت للأخيار وازّينت وابتهجت وأبهجت . ذلك من الرحمة التى ذكرها فى قوله ـ الرحمن الرحيم ـ

ثم انظر الى الحكمة التى بينها فى السورة . ألاتراه بين أن قرناء السوء يوسوسون الى أمثالهم وقد زين لهم وسوستهم كما زين السماء لأصحاب العقول الكبيرة . ثم تراه يجعل الملائكة ملهمين للنفوس الشريفة فى الأرض كما يبشرونهم عند الموت وعند البعث ويسلمون عليهم . أليس ذلك للحكمة . فبدء الخلق رحمة . ووسوسة النفوس الشيطانية الى النفوس الشهوية وإلهام النفوس الملكية الى النفوس الفاضلة فى الأرض من آثار الحكمة . ذلك أن الحكمة تقتضى أن يقرن الشبيه بما يشبهه . فالشياطين توحى الى أمثالها من الناس والملائكة تلهم من يقرب لها فى الخصال ليلحقوا بهم بعد موتهم . ثم أفاد أن الملائكة يعرفون ربهم أكثر من أهل الأرض فكأنهم شموس تتبعها أرضون ، فاذا رأينا شمسنا قد تبعتها السيارات والأرض وتوابعها ونحوها هكذا تلك الأرواح الكبيرة تتبعها أرواح صغيرة فى أرضنا وغيرها فكأنها تدور حولها كما تدور أرضنا حول شمسنا ، وكما أن أرضنا تستمد من الشمس النور هكذا الأرواح الصغيرة فى عالمنا تستمدّ العلم من أرواح فوقها أعلى منها بالالهام أوالالقاء فى الروع وهذا هوالمقصود من قوله ـ فالذين عند ربك

يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون - وانهم يتنزّلون على أهل الأرض يقولون لهم لاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا . كل ذلك من الحكمة . ومن الرحمة أن الأرض تخرج النبات فينتفع به أهل الأرض . ومن الحكمة أن ينزل القرآن باللغة العربية لمناسبة المرسل اليهم الذين هم أقرب اليه . ومن الحكمة مناسبة خروج الثمرات من الأكمام ووضع الاناث لقيام الساعة فكلاهما نتائج وثمرات لمقدمات

و بعد أن ذكر آثار الرحمة وآثار الحكمة وان كان كل منهما مصاحبا للآخر ختم السورة بما يوجب الحمد وهو انه يرينا آياته فى الأنفس والآفاق . واذا أرانا آياته فمعناه انه يظهر العلوم والأسرار كما ظهر لك منه كثير فى تفسير هذه السورة وغيرها وبالعلم وانكشاف الحقائق يكون الحمد فرجع الأمر كله الى معنى (حم) فقوله حم إشارة الى الحمد والحمد لا يكون إلا بمعرفة النعمة والنعم المذكورة فى السورة منها ماغلبت فيها الرحمة وهى بدء الخلق وانبات النبات . ومنها ما ظهرت فيه الحكمة وهى وسوسة الشياطين لأمثالها والهام الملائكة لتلاميذها واتباعها ونظام الأمر كله انه يرينا الآيات وهذا سبب فى الحمد . حقا ان هذه السورة روضات الجنات

إن من يقرأ هذه السور يرى ألفاظها متشابهة ومعانيها متشابهة وكأنه لايرى شيأ جديدا فاذا أمعن النظر انفتحت له خزائن العلم والحكمة كما يحصل عند مايسمع الانسان قوما يتكلمون بلغة لايفقهها فانه يرى أن الألفاظ متشابهة ولايفهمها إلا بحثها وكما يشاهد جيشا عرمرما من بعيد فانه يراه شيأ واحدا لا اختلاف فيه وكلما اقترب ظهر له تفصيله . وكما يرى الشمس والقمر وهو على الأرض فانه يرى جسمين صغيرين فاذا ارتقى بالعلم فى الدنيا أو بعروج روحه الى السماء وكان من أهل ذلك هاله عظمتها . هكذا هذا القرآن نرى اننا كلما توغلنا فيه ظهرت لنا علوم جديدة تبرز فى ثناياه

هذا ماستبان فى معنى حم فالحاء والميم يعبران عن الحمد والحمد يستلزم العلم . والمسلمون اليوم مخاطبون وهم الآن أقرب الى العلوم من كل زمان لأن الله أراهم الآيات فى أسلافهم وفيهم وفى الآفاق من العلوم والمعارف . فاذا قصر مسلم بعد مابيناه فان الله عزّ وجل يخسف به و بأمثاله الأرض وذلك بالذلة والهوان ثم الانقراض وهذا أمر لاشك فيه وأصبحت موقنا به كل الايقان . وقوله (تنزيل من الرحمن الرحيم) أى هذا تنزيل ممن عمت رحمته عظيمات الامور ودقيقاتها فى أكناف السموات وآفاق الأرضين . وقوله (كتاب) خبر بعد خبر ثم وصفه بأنه فصلت آياته فى معان مختلفة من عجائب خلق وابداع صنع واحكام نظم وانزال غيث وانزال وحى أو إلهام واضاءة سقف مرفوع وتبيان الحقائق واخبار بمستقبل العلوم ووعظ وأحكام وأمثال ووعد ووعيد وبهجة للناظرين وهذا قوله (فصلت آياته) أمدح (قرآنا) موصوفا بوصفين : الأوّل كونه عربيا . الثانى كونه (لقوم يعلمون) ووصفه بأنه عربىّ من الاشارات العجيبة فان اللغة العربية اليوم لايخلو محفل من محافل العالم شرقا وغربا من ذكرها والترنم بمحاسنها والقيام بشأنها ومعرفة تاريخها وتاريخ دينها والبحث والتنقيب عن أسرارها وآثار أهلها كما تقدم فى ﴿ سورة سبأ ﴾ وأنت ترى المستشرقين فى العالم الغربى مولعون بهذه اللغة ولولا القرآن لم يكن لها هذا الشأن . لقد اشتهرت الأمة العربية وما شهرتها إلا بالقرآن . لقد اشتهرت الأمة العربية وأصبح لها صيت عظيم ومجد كبير مع اننا اليوم تحت قهر الأمم ولكن القرآن العربىّ جمال لنا وزينة . يدعونا الى الرقىّ والسلام . أليس من العجب أن يخبرنى أكبر طابع للكتب فى مصر وهو الذى تعهد بطبع هذا الكتاب أن تفسير الطبرى لما طبعه لم يقدم على الاكتتاب فيه من مصر المسلمة إلا ثمانية عشر رجلا ، ولكن ألمانيا النصرانية قد اشترك منها ثلاثون فيه ، ومن عجب أن أوّل ماطبع المصحف فى العالم طبع فى ألمانيا وهذا سرّ قوله تعالى - عربيا - مشيرا الى صيت العرب وذكرهم بهذا القرآن حتى طبعوا كتبهم ودينهم فى مطابعهم !

فياليت شعرى اذا كان هذا شأن اللغة العربية عندهم وهم مسيحيون فمابالك لو كانوا مسلمين ! هذا

كله سر قوله تعالى ـ قرآنا عربيا لقوم يعلمون ـ

إن أوروبا اليوم فيها فحول العلماء ، ولقد شاهدناهم وكاتبناهم فوجدناهم يدرسون اللغة العربية دراسة تامة و يعرفون أسرارها أكثر من كثير من المسلمين ، ذلك كله أشار له القرآن بقوله ـ عربيا ـ والا فمعلوم أن القرآن عربى

﴿ حكاية ﴾

كان أحد الملوك الاسلاميين وهو فى سفره له سمير يحادثه ويلقى عليه الملح والنوادر والفكاهات وكان لايتكلم معه إلا بحكمة ، فبينما هما سائران إذ لحا بناء . فقال له ماهذا البناء ؟ فقال هذا بيت عاتكة الذى قال فيه الشاعر :

يابيت عاتكة الذى أتغزل ☆ حذر العدا وبه الفؤاد موكل

ولما كان من عادة الخليفة أن لايسمع من هذا السمير إلا ماله حكمة قال فى نفسه . ياعجبا : لم قال هذا البيت ؟ إن الجواب يكفى فيه أن يقال بيت عاتكة فلم ذكر المسبب فسأل خواصه وندماءه هل هناك شئ يلاحظ بالنسبة لهذا السمير ؟ فقالوا نعم انك وعدته وعدا فلم تنجزه ففطن الى أنه يشير الى قول الشاعر :

ولأنت تفرى ماتقول و بعضهم ☆ ملق اللسان يقول مالايفعل

فأعطاه كل ما كان وعده به وأجازه لحسن أدبه

فما يشير له لفظ ـ عربيا ـ أن القرآن سيصير شرفا للعرب ولوفى أيام محنتهم . إن أبناء العرب اليوم أصبحوا أضعف من آبائهم فى الجاهلية من حيث السياسة ولكن شرف القرآن ألقى عليهم شعاعا و بارقة أمل نسمعها أيام هذا التفسير وسيكون لهم مجد لأنهم الآن أخذوا ينفضون غبار الكسل والذل عنهم وهم مجدّون وفى آية أخرى ـ وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ـ

يشير الله الى أن القرآن شرف للعرب وللنبى ﷺ والى أننا مسؤلون عنه لأننا أرباب اللغة . إن ذلك توبيخ لنا فى العصر الحاضر . يقول الله اذا كنتم أنتم أبناء العرب فكيف تهربون من مجدكم ؟ كيف يقوم أبناء الألمان المستشرقين الذين لايبلغون ثلثمائة فيقرءون تفسيره الكبير وهو تفسير الطبرى المذكور . وأنتم يا أبناء العرب تعرضون عنه . يقول الله القرآن عربى فأنتم يا أبناء مصر والشام والعراق والحجاز عرب فعليكم نشره . واذا كان أبناء أوروبا الذين هم ليسوا مسلمين يطبعونه و ينشرونه أفلستم أولى به ؟

وقد أخبرنى السيد مصطفى البابى الحلبى الذى طبع ذلك الكتاب . قائلا : طبعت التفسير المذكور فلما أرسلته الى ألمانيا لم يعجبهم الفهرست فوضعوا له هم فهرستا آخر من عندهم . وأخبرنى أخبارا كثيرة من هذا القبيل

لقد اطلعت على عجائب فى أيام حياتى . ذلك أنى وجدت كثيرا من عظماء أمّتى يحقرون الدين والعرب وكل شئ منسوب لآبائهم . لماذا ؟ لأنهم ظنوا جهالة أن الدين واللغة والانتساب للعرب هوالذى جعل الفرنجة يدخلون بلادنا . وظنّ بعضهم انهم باحتقارهم عاداتهم وتقاليدهم وانهم يندمجون فى الأجانب الذين دخلوا بلادهم يرتقون ولكن تغيرت الأيام وظهرفى الشرق وفى مصررجال غيروا الرأى وأخذت العقول تنشط ولكن الى الآن لم تصل الى درجة الارتقاء التى يفيدها قوله تعالى ـ قرآنا عربيا ـ فان صبغتنا العربية الآن محجوبة وهى تظهر قليلا قليلا وسيكون لها الشأن الأكبر قريبا كما قلت مرارا فى هذا التفسير . إن التعبير بلفظ ـ قرآنا عربيا ـ يفيد بقاء اللغة العربية أجيالا وأجيالا لأن القرآن حافظ لشكل اللغة ملزم جميع الأمم العربية وغير العربية المختصة بدراسة الأمم العربية أن تقرأ النحو والصرف وماأشبههما وذلك الشكل يبقى مابقى القرآن

والقرآن باق الى آخر الزمان وهذا الموضوع مذكور فى أوّل سورة آل عمران وهناك ملخص رواية منقولة عن أحد الألمان ملخصها أن اللغة العربية هى التى تبقى بارزة الى آخر الزمان وهى التى تحفظ العلوم لأن جميع اللغات بعد مئات السنين تتغير تغيرا كبيرا واللغة العربية تبقى لأن القرآن يحتم أن تبقى هذه اللغة على حالها بخلاف لغات العالم كلها فهى فى تغير مستمر كما هو معلوم فى علوم اللغات . وقوله (بشيرا ونذيرا) أى للعاملين به والمخالفين له (فأعرض أكثرهم) لأنه لم يتدبره (فهم لايسمعون) سماع تأمّل (وقالوا قلوبنا فى أكنة) فى أغطية جمع كنان (مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر) الوقر أصله الثقل (ومن بيننا و بينك حجاب) يمنعنا من التواصل (فاعمل) على دينك (إننا عاملون) على ديننا (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما إلهكم إله واحد) لست ملكا ولاجنيا لايمكنكم التلقى عنه واست أدعوكم بلغة غير لغتكم فماذا يصدّكم عن الفهم فتقولون قلوبنا فى أغطية وآذاننا فيها ثقل وتعرضون هذا الاعراض (فاستقيموا اليه) الى الله (واستغفروه) مما أنتم عليه (وويل للمشركين) من فرط جهالتهم (الذين لايؤتون الزكاة) لبخلهم وقلة رأفتهم على الخلق (وهم بالآخرة هم كافرون) لاستغراقهم فى طلب الدنيا فلاعلم لهم بالآخرة فيرعوون عن الانهماك فى المال فيعطونه للفقراء ولاشفقة تدفعهم الى الاحسان اليهم ، ثم ذكر أضدادهم فقال (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى غير ممنون به عليهم أوغير مقطوع

﴿ ذكر بدء الخلق ﴾

قال تعالى (قل) يامحمد (أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) فى نوبتين (وتجعلون له أندادا) أى ولايصح أن يكون له ند (ذلك) الذى خلق الأرض فى نوبتين : نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ومرة جعلها (٢٦) طبقة فى ستة أدوار ظاهرة فى علوم طبقات الأرض ، فجمودها نوبة ونظام طبقاتها نوبة (رب العالمين) لا ربها وحدها فهو مربى كل عالم ، فائن رباها فى نوبتين فقد ربى غيرها فى نوبتين أوأكثر (وجعل فيها رواسى) جبالا ثوابت (من فوقها) مرتفعة عليها لتكون آساسها فى الأرض وهى الطبقة الصوّانية التى تقدم الكلام عليها فى علم طبقات الأرض فى ﴿ سورة هود ﴾ وغيرها بمثابة حصن حصين فوق الكرة النارية التى هى عبارة عن الأرض كلها ، وهذه الطبقة التى هى أوّل ماتكون فوق الكرة النارية هى التى برزت منها الجبال ، فالجبال آساسها بعيدة الغور ضاربة فى جميع الطبقات واصلة الى أوّل طبقة وهى الصوّانية التى لولاها لم تكن الأرض أرضا ولم نستقرّ عليها ، فهذه الطبقة أشبه بنظام الأجسام الحيوانية تكون حافظة للمائعات الداخلة من الطعام والشراب والدم والشحم وماأشبه ذلك و يسترها اللحم والظفر والشعر والعروق والشرايين والأوردة والشحم وغيرها ، هكذا كرة النار التى هى عبارة عن أرضنا غطيت بالطبقة الصوّانية وفوقها طبقات ألطف منها تكوّنت فيها الحيوانات والنباتات على مدى الزمان كما يكوّن على أجسامنا وأجسام الحيوان الشعر والوبر والصوف ، فأما هذه الجبال فما هى إلا نتوآت نتأت من تلك الطبقة وارتفعت فوقها عشرات الآلاف من الكيلومترات ثم ارتفعت فوق الأرض وصارت مخازن للمياه وللمعادن وهداية للطرق وحبسا للسحاب والهواء حتى تحفظه ولذلك عطف عليه قوله (وبارك فيها) أى وأكثر خيرها وذلك بالأنهار المبتدئة من الجبال المذكورة الحافظة من حيث أصلها للأرض أن تتبدّد الخازنة لمائها ومعادنها كالذهب والنحاس والحديد (وقدّر فيها أقواتها) أقوات أهلها . كل ذلك حصل فى نوبتين فيكون خلق الأرض وجعل الرواسى فوقها واكثار خيرها وتقدير أقواتها من أنواع الحيوان والنبات كل ذلك (فى أربعة أيام) فهذا كالفذلكة لماتقدم استوى (سواء) استواء (للسائلين) أى الذين يسألون الأقوات وهو كل حيوان على وجه الأرض قال تعالى - يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى

شأن ـ فالناس والحيوان كلهم سائلون ربهم مايحتاجونه من طعام وشراب ولباس ودواء وذلك السؤال طبيعي فيهم مغروس في جبلتهم ، يسأل الحيوان كالنملة والنحلة والشاة والذئب الرب كما يسأله الانسان سواء بسواء ، فالنملة تطلب قوتها فتجده والنحلة والعنكبوت والخنزير والكلب والشاة والذئب ، تطلب الشاة الطعام فتجد الكلأ ، ويطلب الذئب الطعام من ربه فيجد الشاة ، فقد أجاب الكل وكل يحبه ، وقد ألقى بينهم العداوة والبغضاء ليدوم الارتقاء للآكل والمأكول ، فالغزالة تهرب من الذئب فتعطى قوة ونشاطا لولا الخوف ما كانا وذلك يقويها ويرقيها ، والذئب يجوع وقد حرم عليه أن يأكل الحشائش فهو مضطر أن يأكل الغزالة وهو هو المخيف المزعج لها ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ هو المقوى لعضلاتها لازعاجه إياها بصوته وحملاته فيغير على القطيع العظيم فيأخذ منه غزالة واحدة أوشاة واحدة ، ذلك أجرلما فعله لأنه كأستاذ يعلمهم علم القوة وتربية العضلات والحذر ويقوى القوى الخيالية ، وينال مكافأة على ذلك شاة واحدة من قطيع يبلغ المئات من الشياه وربما يأخذ الضعيف الهزيل منها لضعفه عن الجرى أولتأخره وما تأخر إلا لضعفه ويريح الجو من التعفن بتلك الجثث التي تقع فيه من الحيوانات ، فهذا من معنى قوله تعالى هنا ـ سواء للسائلين ـ

ثم إن الانسان يهتم بحال ماحوله من الأرض فلذلك قدم ذكرها وبين انها هي وما عليها قد كونها في أربع نوبات : فنوبة لتجمد المادة الأرضية بعد أن كانت غازا ، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها ويدخل فيها معادنها ، والمرتان الأخريان إحداهما للنبات ، والثانية لعموم الحيوان ، ولما فرغ من الكلام عليها أخذ سبحانه يذكر السماء على سبيل الترتيب الذكرى أى ان الأرض أولا في الذكر (ثم استوى الى السماء) أى قصد نحوها يقال استوى الى مكان كذا اذا توجه اليه (وهي دخان) أى مادة غازية نارية أشبه بالدخان أو بالسحاب أوالسديم وتسمى اليوم في العلم الحديث (عالم السديم) وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم ستين ألف عالم تبرز للوجود من جديد لاتزال على الحالة السديمية كما نقلته لك من الكتب الفرنجية في غير هذا المكان ، ورأوا أن من تلك العوالم ماهو في أول تكونه ، ومنها ماقطع مراحل في تكوينه ، ومنها ماقارب التمام وهي عوالم كعالمنا الشمسي الذي نحن فيه ، وسيبرز للوجود كما برزت شمسنا وسياراتها وأرضها وكانت في الأصل دخانا وستستمر في التكوين ومدتها نوبتان ، ونحن لانقدر أن نعرف كيف تكون النوبتان غاية الأمر أن نقول نوبة للبداية ونوبة للنهاية ويكون هذا القول من الجمل العامة وفائدته أن التكوين لم يكن في لحظة واحدة لئلا يتطرق الى العقول انه كان كذلك في الأصل بل يريد انه جار على الحكمة والنظام وقد كون في غير نوبة وكفى هذا في كتاب مقدس كالقرآن يقول انه خلق الأرض في نوبتين وما عليها كذلك والسموات السبع كذلك . فهذه العوالم كلها التي شوهدت بالمناظير المعظمة ستبرز للوجود في نوبتين بثوبها القشيب كما برزت أرضنا وكونت شمسنا في نوبتين إذ قصد الله اليها والى كل شمس من الشموس التي كشفت والتي لم تكشف وهي تعد بنحو خمسمائة مليون ، بل قدرها بعض الفلكيين في هذه السنة بما يبلغ ألفي مليون ويقولون هذا قطرة من بحر العوالم المجهولة ، فهذه كانت عالما دخانيا فدورها وكورها فدارت آلاف آلاف من السنين ، ثم خرجت منها الأرضون والسيارات كما خرجت أرضنا وسياراتنا من شمسنا أثناء دورانها ثم برزت الأراضي التي قدرت على الأقل بنحو ثلثمائة ألف ألف أرض أى ان تلك الأراضي الدائرة حول الشموس وحول أنفسها بردت قبل شموسها (فقال الله لها) أى لتلك العوالم السماوية (وللأرض) أى جنس الأرض التي دارت حولها وهي مئات الملايين (ائتيا طوعا أوكرها) شئتما أم أبيتما (قالتا) أى السموات والأرضون (أتينا طائعين) وهذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية فهي حركة أشبه بحركة المشوق فهي تجرى جرى طاعة لاجرى قسر ، والدليل المشاهد على ذلك انا نرى الحجر الى أعلى قسرا فيأبى إلا أن ينزل الى الأرض بطريق الجاذبية ، فهو مجذوب الى الجسم الذي هو أكبر منه . هكذا

الأرض مجذوبة الى الشمس التى هى أصلها وهى حركة دورية بالطوع لا بالقسر لأن الحركة القسرية كرمى الحجر الى أعلى وهى سريعة الزوال . أما حركة الطاعة فهى الدائمة مادام المطيع متخلقا بخلقه الذى هو عليه (فقضاهن سبع سموات فى يومين) أى نوبتين دلالة على النظام والسير بالحكمة كما تقدم فى خلق الأرضين ومن هذا يفهم كيف قال — فقال لها وللأرض — الخ ؛ ذلك للدلالة على أن حركة الاتيان منهما مصطحبة فبينما ترى الأرض دائرة حول نفسها وحول الشمس ترى الشمس دائرة حول نفسها وحول شمس أكبر آلاف الآلاف منها ، فهذا هو السبب فى ذكرهما معا أى انه قال لهما معا وأجاباه معا وحقيقة الأمر كذلك لأن الأرض لما كانت من ضمن الشمس كانت دائرة من جملة أجزائها ، فالقول كان لهما معا وهو الآن لهما معا ، وانما قدم الأرض فى الذكر على السماء للسبب المتقدم أولا ولأنها تم تكوينها بعد البرودة . وأما أكثر الشموس فلايزال هناك زمن طويل حتى تبرد وتصير أرضين (وأوحى فى كل سماء أمرها) شأنها ومايتأتى حلها عليه اختيارا . ثم ذكر ماهو أهم لنا فقال (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) فان هذا العالم الذى نشاهده وهو أقرب الينا الذى نراه مرصعا بالنجوم هو الذى نسميه السماء الدنيا ، ولوانا ارتفعنا الى بعض عوالمه لرأيناه سماء أخرى بكواكب غير هذه وهكذا الى آخرها ، فهو سبحانه يقول انه زين سماءنا الدنيا بهذه المصابيح المتلألئة المتوهجة ، ثم يقول (و)حفظناها (حفظا) من الآفات ومن أن يدرك سرها من لايتأهلون لمعرفتها (ذلك تقدير العزيز العليم) البالغ فى القدرة والعلم . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة

﴿ لطيفة فى قوله تعالى — وقدر فيها أقواتها — ﴾

اعلم أن الله لما خلق الانسان قدر أقواته متفرقة ، وأحوج كلا الى كل بحيث نرى من يسكن بلاد آسيا يحتاجون الى أهل افريقيا ، وأهل افريقيا يحتاجون الى أهل آسيا ، وهذه التربية يراد بها التواصل طوعا أوكرها ، فتجد القطن بمصر و بأمريكا وكل الأمم فى حاجة اليه . وترى النخل لا يكون إلا بالبلاد الحارة . وليس للبلاد الباردة فيه من نصيب . وترى النارجيل فى الأقطار التى هى أشد حرارة . والبندق فى البلاد الباردة . وهكذا جعل لكل قطر خاصية . وأحوج الأمم الأخرى كل منها الى بقية الأمم . وكلما ارتقت الأمم ازدادت الحاجات . وهذا فى الحقيقة داعية الى التواصل والتحاب طوعا أوكرها . فتارة يتاجر بعضهم مع بعض وآونة يتصلون بالسياحات . وطورا بالكتب والمراسلات . ووقتا بالبعثات العلمية . وساعة بالحرب والقتال وهكذا

كل ذلك دلالة عملية أن هذا الانسان تقدير قوته يدعوه الى التواصل والتحاب . وذلك يدعو حثيثا الى العلم فان تقدير الأقوات لما بحثناه وجدناه يدعو الى البحث عنه . ولابحث إلا بعلم . فأمة الاسلام أصبحت ملزمة باتساع العلوم فى كل آية من كتاب الله والا فكيف يقول — وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين — وقد تقدم بقية الكلام اه

﴿ القسم الثالث من السورة ﴾

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (فان أعرضوا) عن الايمان بعد هذا البيان (فقل أنذرتكم صاعقة) عذابا شديد الوقع كأنه صاعقة والصاعقة رعد معه نار (مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم) أى أتوهم من كل جانب وعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا الاعراض . أوأنذروهم وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة . وقوله (أن) هى تفسيرية بمعنى أى (لاتعبدوا إلا الله قالوا) أى القوم (لوشاء ربنا لأنزل ملائكة) أى لوشاء ربنا إرسال رسل لأنزل ملائكة . واذا كنتم أنتم بشرا ولستم ملائكة (فانا بما أرسلتم به كافرون) لأنكم لستم على ماشرطناه وهو أن يكون الرسول ملكا فرسالتكم لا نؤمن بها (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق) أى فتعظموا فيها على أهلها بما لايستحقون فولايتكم عليها بلااستحقاق (وقالوا من أشدّ منا قوّة) اغترارا بقوّتهم وشوكتهم (أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشدّ منهم قوّة) قدرة (وكانوا بآياتنا يجحدون) يعرفون أنها حق وينكرونها (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا) باردة تهلك بشدّة بردها (فى أيام نحسات) جمع نحسة أى نكدات مشؤمات (لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) أى عذاب الذّل فيها والهوان فى مقابلة استكبارهم فى الأرض (ولعذاب الآخرة أخزى) أشدّ خزيا وهو اسناد مجازى للمبالغة (وهم لاينصرون) لايدفع العذاب عنهم (وأما ثمود فهديناهم) فدللناهم على الحق (فاستحبوا العمى على الهدى) فاختاروا الضلالة على الهدى (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) أى ذى الهوان (بما كانوا يكسبون) من اختيارهم الشرك (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) الشرك والمعاصى وهم صالح والمؤمنون . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ــ فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة ــ الخ ﴾

جاء فى بعض الروايات أن قريشا اجتمع ملأ منهم وقالوا التمسوا لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فليكلم محمدا وليأتنا لنعرف ما الذى جاء به فقال عتبة بن ربيعة أنا لها ، فلما دخل على النبىّ ﷺ قال له أنت خيرأم هاشم وعدّد آباءه وقال : كيف تشتم آلهتنا وتسفه أحلامنا ، ثم عرض عليه المال والنساء والسيادة وأن يكفّ عن ذلك ، كل ذلك والنبىّ ﷺ ساكت ، فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ « حم * تنزيل من الرحمن الرحيم » الى قوله « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة » فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم ثم رجع واحتبس ولم يخرج ، فذهب اليه أبوجهل فى جماعة واتهمه بالحاجة للمال من النبى ﷺ لأنه صبأ اليه فغضب من ذلك عتبة وحلف لايكلم النبى ﷺ ولكنه قال أقول الحق ماهو بشعر ولا كهانة ولاسحر وقصّ عليهم ماجرى وماسمع وقال انى خفت أن ينزل بكم العذاب

وفى رواية أخرى انه وصل الى السجدة فسجد ثم قال أسمعت ياأبا الوليد فأنت وذاك فقام عتبة الى آخر ماتقدم وقال يامعشر قريش خلوا بين هذا الرجل وبين ماهوفيه واعتزلوه فوالله ليكوننّ لقوله الذى سمعت منه نبأ فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وأن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزكم وأنتم أسعد الناس به فاستهزؤا به ساخرين

(القسم

﴿ القسم الرابع من السورة ﴾

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ويوم يحشر أعداء الله الى النار) أى اذكر يوم يجمعون (فهم يوزعون) يساقون ويدفعون أو يحبس أولهم حتى يلحق آخرهم لكثرتهم (حتى اذا ماجاءوها) اذاحضروها (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) وذلك بلسان المقال أو بلسان الحال الخاصة التى لاتوجد فى غيرها

من الممكنات فتكون فيها علامات وشواهد دالة على أخلاقها وأعمالها وآرائها ، وذلك عبارة عن سوائل روحية متمايزة كل سائل يدل على خلق من الأخلاق لايحجب واحد منها الآخر كما يكون فى أنواع النبات والشجر روائح مختلفة ، وكما يكون فى الهواء أنواع الأصوات والروائح ، فالعلم والحلم والنشاط وحب الناس لها سوائل جميلة والجهل والطيش والكسل و بغض الناس لها سوائل رديئة . وتلك السوائل الروحية ملازمة لأربابها مضايقة لهم مشقية أومنعمة لهم مفرحة . وتختلف الناس بتلك السمات اختلافهم فى الدنيا بالألوان والأشكال والأصوات وخطوط اليد وخطوط الابهام بحيث لايشابه أحد غيره ، هكذا الأجسام الروحية بعد الموت تكون على هذا المنوال لاتشبه نفس نفسا أخرى فى أوصافها ، فهذه هى الشهادة التى تشهد بها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم ، وههنا يبدو التعجب منهم قولا أوحالا وهوالمعبر عنه بالسؤال والجواب وهما (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) سؤال تو بيخ (قالوا أنطقنا الله) نطقا لفظيا أوفعليا واضحا أوضح من النطق اللفظى (الذى أنطق كل شئ) فكل شئ يدل بلسان حاله دلالة أفصح من الدلالة اللفظية . انظرهذا المقام فى سورة النساء فانك ترى الكشف الحديث معجزة للقرآن . ثم قال تعالى (وهوخلقكم أوّل مرة) وفيكم دلائل واضحة كخطوط اليد والابهام والأصوات وألوان الوجوه وأشكالها وظهور آثار الأخلاق على الوجوه ، كل ذلك كان فى خلقكم أوّل مرة ، وقليل من الناس من يفطن له (واليه ترجعون) وتلك العلامات أصبحت أشدّ ظهورا عند رجوعكم اليه ، ولقد كنتم فى الدنيا تستترون عن الناس خوف الفضيحة والعار عند ارتكاب الذنوب وما ظننتم أن أعضاءكم وجسمكم الأثيرى الذى هو على صورة الجسم الظاهرى قد سطرت فيه جميع أعمالكم كأنه لوح محفوظ لها فلذلك ما كنتم تستترون عنها بترك الذنوب ، وهذا قوله (وما كنتم تستترون) خيفة (أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) لأنكم لم تكونوا عالمين بشهادتها عليكم (ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون) أى ولكنكم اجترأتم على مافعلتم لظنكم أن الله لايعلم كثيرا مما كنتم تعملون وهوالخفيات من أعمالكم (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم) مبتدأ وخبر ، وقوله (أرداكم) أى أهلككم خبر ثان (فأصبحتم من الخاسرين) إذ صرفتم مامنحتم من أسباب السعادة الى الشقاء به (فان يصبروا فالنار مثوى لهم) لاخلاص لهم منها (وان يستعتبوا فما هم من المعتبين) أى وان يسترضوا فما هم من المرضيين ، أو يقال وان يسألوا العتبى وهى الرجوع الى ما يحبون فما هم من المجابين اليها (وقيضنا لهم) وقدرنا للكفرة (قرناء) اخوانا من الشياطين (فزينوا لهم مابين أيديهم) من أمر الدنيا وشهواتها (وماخلفهم) من انكار الآخرة (وحق عليهم القول) كلمة العذاب حال كونهم (فى أمم) فى جملة أمم (قد خلت من قبلهم من الجنّ والانس) وقد عملوا مثل عملهم (إنهم كانوا خاسرين) تعليل لذلك والضمير لهم وللأمم (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) والغطوا فيه واللغط كثرة الأصوات فكان يوصى بعضهم بعضا باكثار الكلام وهو يقرأ حتى يختلط عليهم مايقول (لعلكم تغلبون) محمدا على قراءته (فلنذيقنّ الذين كفروا عذابا شديدا) وهم هؤلاء القائلون (ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) أى بأسوأ (ذلك) أى الأسوأ (جزاء أعداء الله) مبتدأ وخبر هى (النار لهم فيها دار الخلد) يقيمون فيها (جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) ينكرون الحق (وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجنّ والانس) وهما نوعا شياطين الانس والجن (نجعلهما تحت أقدامنا) نجعلهما فى الدرك الأسفل (ليكونا من الأسفلين) مكانا وذلا انتقاما ، ولما أنهى الكلام على قرناء السوء وانهم بعد المودّة فى الدنيا يكونون أعداء فى الآخرة أعقبه بالقرناء الطاهرين الخيرين فقال (إن الذين قالوا ربنا الله) اعترافا بربوبيته (ثم استقاموا) فى العمل مع الثبات على الايمان والاخلاص (تتنزّل عليهم الملائكة) عند الموت وعند الخروج من القبر ، ثم فسر ذلك فقال (أن) بمعنى أى (لاتخافوا) مما تقدمون عليه (ولاتحزنوا) على ماخلفتم فى الدنيا من أهل وولد فانا نخلفكم فى ذلك

(وابشروا

(وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) في الدنيا على لسان الرسل (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) أي أنصاركم وأحباؤكم نلهمكم الحق ونحملكم على الخير بخلاف الشياطين كما تقدم (وفي الآخرة) بالشفاعة والكرامة أما الشياطين فانهم يكونون أعداء الكفار (ولكم فيها) في الآخرة (ماتشتهي أنفسكم) من اللذائذ والكرامات (ولكم فيها ماتدعون) أي تتمنونه حال كونه (نزلا) رزق النزيل وهو الضيف (من غفور رحيم) ﴿ قال العلماء : واذا كان هذا كله نزلا وهو مايقدم للضيف فما بالك بما بعده ، وأقول : إن اللذات البدنية مهما طال أمدها لاتكفي النفس الانسانية ولا أماني للنفوس إلا العالم الروحاني ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ أن تصل الى لقاء الله تعالى وترقى فوق طبقات أهل الجنة وهو المشار اليه بقوله تعالى ـ ولدينا مزيد ـ وقوله ـ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ـ فكأن الصالحين يكونون في الجنة أمداً على مقدار استعداداتهم ثم يبرحونها الى ماهو أعلى منها وهو العالم الأعلى المسمى بعليين كما ورد « أريت الجنة فاذا أكثر أهلها البله وعليون لأولى الألباب » وفسر الامام الغزالي البله بمن ليس لهم فكر في حب الله تعالى ، فهؤلاء يقفون عند الثواب الجسمي وليس عندهم شوق الى الامور الالهية ، فهؤلاء هم الصالحون الذين يصلون و يصومون لأجل لذات جسمية في الآخرة فينالونها ، ولكن هناك من هم أرقى منهم وهم عشاق العلم في الدنيا أي نظام هذه الدنيا وعجائبها ، فهؤلاء اذا ماتوا طاروا في عالم الجمال وتركوا اللذائذ الحسية لمن لم يعرفوا هذا النعيم الأعلى . انظر ايضاح هذا المقام في أوائل ﴿ سورة البقرة ﴾ ثم قال تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله) الى عبادته (وعمل صالحا) فيما بينه و بين ربه (وقال إنني من المسلمين) فيعتقد قلبه الاسلام و يتلفظ به (ولاتستوى الحسنة ولاالسيئة) في الجزاء وحسن العاقبة ، ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفي يعني ان الحسنة والسيئة متفاوتتان والحسنة والأحسن منها متفاوتتان كذلك ، فاذا اعترضت سيئة وحسنة فخذ بالحسنة ، واذا اعترضت حسنتان في دفع السيئة فخذ في دفعها بالتي هي أحسن ، فاذا أساء اليك رجل فليس طريقه أن تسيء اليه وهناك حسنتان : العفو عنه ، والاحسان اليه ، والاحسان أحسن من العفو فخذ به ، فاذا ذمك فلاتكتف بالعفو بل امدحه وهكذا (فاذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم) فانك اذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك (ومايلقاها) أي يلقى هذه السجية وهي مقابلة الاساءة بالاحسان (إلا الذين صبروا) على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام (وما يلقاها إلا ذوحظ عظيم) من الخير وكمال النفس (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) النزغ يشبه النخس ، والشيطان ينزغ الانسان كأنه ينخسه أي يبعثه الى مالاينبغي أي وان صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن (فاستعذ بالله) من شره ولاتطعه (إنه هو السميع) لاستغاثتك (العليم) بنيتك وصلاحك . تم التفسير اللفظي للقسم الرابع

﴿ القسم الخامس من السورة ﴾

وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِى ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ * لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر) لأنهما مخلوقان مثلكم ، وقد تقدم الكلام بالاسهاب على هذا وما قبله عند تلخيص تفسيرها فى أوّل هذه السورة . وقوله (واسجدوا لله الذى خلقهنّ) الضمير للأربعة (إن كنتم إياه تعبدون) ولاجرم أن السجود أخصّ أنواع العبادات . فمن سجد لشمس أوقمر ظانا انه يتقرّب الى الله فهو فى ضلال (فان استكبروا) عن الامتثال (فالذين عند ربك) من الملائكة (يسبحون له بالليل والنهار) دائما (وهم لايسئمون) لايملون وقدتقدّم ذلك فارجع اليه إن شئت (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) يابسة متطامنة (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت) تحركت بالنبات (وربت) انتفخت (إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شئ قدير) فيكون

قادرا

قادرا على البعث (إن الذين يلحدون فى آياتنا) يميلون عن الحق فى أدلتنا بالطعن (لايخفون علينا) وعيد لهم على تحريفهم القرآن عن جهة الصحة وطعنهم (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة) تمثيل للمؤمن والكافر (اعملوا ماشئتم) نهاية فى التهديد (إنه بما تعملون بصير) فيجازيكم (إن الذين كفروا بالذكر) بالقرآن بالطعن فيه وتحريف تأويله (لما جاءهم) حين جاءهم يعذبون (وانه لكتاب عزيز) كثير النفع عديم النظير محمىّ بعناية الله (لايأتيه الباطل) التبديل أوالتناقض (من بين يديه ولامن خلفه) بوجه من الوجوه (تنزيل من حكيم حميد) مستحق للحمد (مايقال لك) مايقول لك كفار مكة ونحوهم (إلا ماقد قيل للرسل من قبلك) أى إلا مثل ماقيل الخ من كلمات جارحة ومطاعن (إن ربك لذو مغفرة) لأوليائه (وذوعقاب أليم) لمن هم أعداؤهم ، ولما قالوا لماذا لم ينزل القرآن بلغة العجم قال الله (ولوجعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته) بينت بلسان نفقهه (أأعجمىّ وعربىّ) أى أكلام أعجمى ومخاطب عربى (قل هو للذين آمنوا هدى) الى الحقّ (وشفاء) لما فى الصدور من الشك والشبهة (والذين لايؤمنون) مبتدأ هو (فى آذانهم وقروهو عليهم عمى) أى صموا عن استماع القرآن وعموا عنه فلا انتفاع لهم به (أولئك ينادون من مكان بعيد) فهم لعدم قبولهم الحق أشبه بمن ينادون من مكان بعيد للايمان فلايسمعون لبعد المسافة (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) مابين مصدّق ومكذّب (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى فصل الخصومة يوم القيامة (لقضى بينهم) باهلاك المكذّبين (وانهم) أى الذين لايؤمنون (لفى شكّ منه) من التوراة أوالقرآن (مريب) موجب للاضطراب (من عمل صالحا فلنفسه) نفعه (ومن أساء فعليها) ضرّه (وماربك بظلام للعبيد) فيعذب غير المذنب (اليه يردّ علم الساعة) أى اذا سأل سائل عنها يقال له لايعلم وقت قيام الساعة إلاهو والخلق محجوبون عن معرفة ذلك ، ثم أشار بطرف خفىّ الى نظام يوم القيامة وجزاء المحسن والمسىء ليكون علما للمستبصر فقال (وما تخرج من ثمرات من أكمامها) جمع كم بالكسر (وما تحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه) إلا مقرونا بعلمه واقعا حسب تعلقه به ، فكما أن الثمر لايخرج من الاكمام إلا وهو عالم به وأن حمل الحامل ووضعها لا يكون إلا بعلمه هكذا لاتكون الساعة إلابتقديره ومشيئته وكما أن الثمر نتيجة الشجرة وعلى مقتضاها والولد يكون نتيجة أحوال الوالدين جسما وحالا غالبا هكذا تكون النفوس المنسلة من الأجسام الأرضية هناك على مقتضى ما كانت عليه فى الدنيا ـ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا ـ وكأن هذا العطف أفادنا بطرف خفىّ أن الناس يوم القيامة على حسب أحوالهم فى الدنيا كالثمر على مقتضى شجره والولد على مقتضى أبويه ، وعلى هذا تكون العوالم كلها متوافقة فى نظامها متسابقة الى حسن النظام والنتائج الخاصة بها ، فاذن يكون العالم كله راجعا لمبدأ واحد لأن النظام الواحد مدبره واحد ، ولذلك أعقبه بقوله (ويوم يناديهم أين شركائى) بزعمكم (قالوا آذناك) أعلمناك (مامنا من شهيد) من أحد يشهد لهم بالشرك ، وذلك انهم لما رأوا العذاب تبرّؤا من الأصنام (وضلّ عنهم ما كانوا يدعون) يعبدون (من قبل وظنوا مالهم من محيص) مهرب (لايسأم) لايملّ (الانسان من دعاء الخير) من طلب السعة فى النعمة (وإن مسه الشرّ) الضيق (فيؤس) من الخير (قنوط) من الرحمة (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضرّاء مسته ليقولنّ هذا لى) أى واذا أحللنا الصحة محل المرض والغنى محل الفقر قال ان هذا حق استوجبته بأعمالى وهولايزول عنى بل هودائم (وما أظنّ الساعة قائمة) أى ما أظنها ستقوم (ولئن رجعت الى ربى) كما يقول المسلمون اليوم (إن لى عنده للحسنى) أى الحال الحسنى والكرامة والنعمة ، فاذا كان الله أعطانى نعمة فهو يوم القيامة يولينى كرامته (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا) فلنخبرنهم بحقيقة ماعملوا من الأعمال الموجبة للعذاب (ولنذيقنهم من عذاب غليظ) شديد لايفتر عنهم (واذا أنعمنا على الانسان أعرض) عن النعم و بطر النعمة فنسى الشكر (ونأى بجانبه) تباعد عن ذكر الله ودعائه

وتكبر وتعاظم ، والجانب المكان والجهة فنزلت منزلة نفس الانسان كما تقول كتبت الى جهة فلان والى جانبه العزيز أى نفسه ، فقوله ــ نأى بجانبه ــ معناه نأى بنفسه (وإذا مسه الشرّ) الضرّ والفقر (فذو دعاء عريض) كثير أى يقبل على الدعاء والابتهال والتضرّع (قل) يامحمد (أرأيتم) أخبرونى (إن كان من عند الله) أى القرآن (ثم كفرتم به) من غير نظر (من أضلّ ممن هو فى شقاق بعيد) أى من أضلّ منكم وجواب الشرط محذوف دلّ عليه الاستفهام أى فأنتم ضالون وانما لم يقل منكم بل ممن هو فى شقاق بعيد أى خلاف للحق بعيد عنه لبيان حالهم وتقريعهم من غير مواجهة بالخطاب (سنريهم آياتنا فى الآفاق) من فتح البلاد شرقا وغربا وظهور العلوم فى العالم الانسانى ، وكشف ما كان مجهولا فى البحر والبرّ ، وتحليل المركبات الى عناصرها وظهور مخبآتها وانها مركبات بحساب لاخلل فيها كما بينا فى القرآن إذ قلنا ــ وأنبتنا فيها من كل شئ موزون ــ وقلنا ــ وان من شئ إلا عندنا خزائنه ومانتزله إلا بقدر معلوم ــ وقلنا ــ وكل شئ عنده بمقدار ــ وقلنا ــ إنا كل شئ خلقناه بقدر ــ وقلنا ــ والسماء رفعها ووضع الميزان ☆ ألا تطغوا فى الميزان ــ وقلنا ــ إن الله سريع الحساب ــ وهذه كلها ستظهر لكم أيها الناس فتعلمون أن هذا القرآن حق . أقول : قد ظهر هذا كله اليوم وعرفنا أن النبات بحساب فى عناصره الداخلة فيه وكذا الحيوان وهكذا حركات الكواكب والمسافات التى بين كل كوكب وآخر ، كل ذلك ظهر فى العلم اليوم وكله معجزة للقرآن إذ قال الله ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ــ وهكذا خاطب الأموات الأحياء وكلموهم وتعارف الأحياء والأموات وفهم كل الآخر ، كل ذلك معجزة للقرآن ، وهكذا نظر الناس علم تشريح الحيوان وتشريح الانسان ونظام النبات ، كل ذلك على وتيرة واحدة ــ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ☆ ثم ارجع البصر كرّتين ــ فانك لاتجد خللا إلا عند الجاهلين ، فهذه العلوم التى ظهرت فى العالم الانسانى يجب على العقلاء أن يدرسوها (حتى يتبين لهم أنه) أى القرآن (الحق أولم يكف بربك) أى أولم يكف ربك أى ألم تحصل الكفاية به ثم أبدل منه قوله (أنه على كل شئ شهيد) أى محقق له فيحقق أمرك باظهار الآيات الموعودة أى ألم تكفهم شهادة ربك على كل شئ أى ان هذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق والأنفس سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب (ألا إنهم فى مرية) فى شكّ (من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط) عالم بجمل الأشياء ومفصلاتها . انتهى التفسير اللفظى للقسم الخامس من السورة والحمد لله رب العالمين

﴿ لطائف هذا القسم ﴾

(١) فى قوله تعالى ــ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت ــ وقوله ــ اليه يردّ علم الساعة وماتخرج من ثمرات من أكمامها وماتحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه ــ

(٢) فى قوله تعالى ــ لايسأم الناس من دعاء الخير ــ الخ

(٣) فى قوله تعالى ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ــ الخ

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى إنزال الماء من السماء . وانبات النبات ، واخراج الثمرات ، ووضع الحاملات أطفالهن ، مع قوله تعالى ــ اليه يردّ علم الساعة ــ)

(١) اعلم أن الموادّ المعدنية والنباتية والحيوانية لاتنمو ولاتعيش إلا فى الظروف الخاصة بها ، فاذا لم تكن الظروف الموافقة فانها تبقى فى حالة لاتغير فيها ولانمو ولاحياة ، ومتى لاءمت الظروف اندفعت ذرّات العناصر

وتقاربت وتجاذبت وتحابت ، وبتركبها مع بعضها تنشأ هذه العجائب المنظورة والبدائع المسطورة والزهر والشجر والحدائق والجنات والأعناب والأنعام والغزلان والآساد والذؤبان ، فنرى النبات بما يعتوره من الحرارة والنور والرطوبة واليبوسة يهبّ ويرتفع تارة مسرعا وأخرى مبطئا ، كل ذلك لحوزه ما يلائمه أوفقده ذلك وهذه قاعدة مطردة كانت قديما وتبقى الى آخر الزمان وانقطاع الدهر وزوال العصور

(٢) يستنتج من ذلك أن مادّة الحياة الأولى انما جاءت من تجمع البسائط التي لاءمتها الظروف والأحوال

(٣) تركيب العناصر والموادّ التي على وجه الأرض يحصل بثلاث طرق كل واحدة أقلّ مما بعدها وأرقى مما قبلها ﴿ الطريقة الأولى ﴾ أن تركب العناصر تركيبا خاليا من صناعة الكيمياء ونظامها كما تركب الأحجار في الجبال فان تركيبها من عناصر ليس على نظام كماوى ولا نظام حيوانى إذ ليس هناك قانون الكيمياء ولاقانون الحياة ، وذلك كحجر الجير المسمى أيضا بحجر البناء وهوكتل مختلفة الحجم ولونه أبيض أوسنجابى أومحمر وله أسماء مختلفة فيقال (دبش) و (دقشوم) وهذه الأحجار مكوّنة من كالسيوم وأوكسوجين ، والكالسيوم فلز ذولمعان أصفر يتغير بسرعة فى الهواء الرطب ، واذا سخن على صفيحة من البلاتين يحترق بلهب شديد اللمعان وهو يحلل الماء على الدرجة المعتادة ، فهذا الفلز وهوالكالسيوم مع الاكسوجين يكون مخلوطا بالرمل والطفل (بفتح الطاء) وأوكسيد الحديد وكربونات المغنسيوم ، فهذه الأحجار جميعها تكون مخلوطة بتلك الأجسام ، فاذن هذا ليس تركيبا كيمائيا بل هو أمر اتفاقى لاقانون له كما يبنى الناس بيوتا بموادّ مختلفة ﴿ الطريقة الثانية ﴾ طريقة التركيب الكيماوى ﴿ مثال ذلك ﴾ البوتاسا الكاويه وهى عبارة عن مركب من البوتاسيوم والاكسوجين والايدروجين والكالسيوم والكربون ، فيكون ثلاثة أجزاء من الاكسوجين وجزء من الكربون ومثله من الكالسيوم واثنان من البوتاسيوم وجزء واحد من الايدروجين فهذا المركب على هذا النظام يسمى مركبا كيمائيا ، فهذه الأجزاء تغلى فيحصل الاتحاد بغليانها ثم تروق وتصفى وتصعد بسرعة وبعد التصعيد تصهر فى جفنة من الفضة وتصبّ على سطوح من الرخام أوفى قوالب معدنية وهو فى حداثته يكون قطعا بيضاء معتمة ، فالمركب من هذه الأجزاء الخمسة يصبح جسما جديدا قد عدم جميع صفات الأجزاء التى تركب منها فلاتجد للكربون ولاللكالسيوم ولاللبوتاسيوم أثرا فى هذا الجسم الجديد بخلاف ماتقدّم فى حجرالجير فانك تجد الذرات الرملية والذرات الطفلية وهكذا حافظة خواصها . فهذا هو الفرق بين الأوّل والثانى ﴿ الطريقة الثالثة ﴾ طريقة الحياة النباتية والحيوانية . هاأنت ذا أيها الذكىّ قد تبين لك كيف كان المركب العادى قد حفظت أجزاؤه خواصها والمركب المعدنى قد فقد المركب فيه خواصه وأصبح عالما جديدا بخواص جديدة تخصه . فانظر الآن فيما أقصه عليك وتأمل فى هذه الأرض التى نعيش عليها . نعيش عليها ونحن لانفكر فى أقرب الأشياء الينا . أقرب الأشياء الينا حياتنا وحياة النبات والحيوان . فاذا أخذنا الاكسوجين والاودروجين والاوزوت والكربون أعنى اذا أخذنا مقادير من هذه الأربعة التى عليها العماد فى تركيب كل نبات وحيوان وانسان أى ان كل حىّ لابدّ من أنه يتركب منها مع اضافة عناصر أخرى أو أملاح وجعلنا هذه المقادير مع بعضها بلانظام كانت أشبه بتركيب حجر الجير فيما تقدم . واذا ركبناها بطريق كيمائى بنظام تام وأجزاء ثابتة أصبحت لها صفة جديدة وفقدت خواص الأجزاء الأولى ولكن هل يمكنها أن تنمو وهل يمكنها أن تحس وتتحرك . كلا . ثم كلا . فليركب الكيمائيون ماشاؤا فانهم لايقدرون أن يخلقوا ورقة واحدة ولا دودة ولا زهرة . فعلماء الكيمياء أولئك الذين يركبون العناصر بنظام تام على قوانين خاصة لايقدرون أن يذروها عاجزون جميعا عن إحداث حال جديدة للمركب بها يحس أو بها ينمو أو يتحرك ! إذن فلنبحث عن الحياة

﴿ الحياة سرّ سار فى المادّة الأصلية للكائنات ﴾

لقد تعلم أيها الذكىّ أن المادة تتنوّع الى نور والى حرارة والى كهربائية والى مغناطيسية . هكذا تتنوّع الى قوّة حيوية وهذا التنوّع سرّ لايدركه الناس فهوقاسر يقسرها وقاهر يقهرها ينوّعها تنوّعات مختلفات . فما مثل الحياة إلا كمثل من رمى حجرا الى أعلى فارتفع الى الجوّ ولما بطلت القوّة الرافعة له التى استمدّها من الرامى كرّ راجعا الى الأرض . هكذا كل نبات وكل حيوان وكل انسان فتكسب النطفة فى الانسان قوّة وسرا يعطيها حياة فتأخذ فى الارتقاء والنموّ . وهناك تكون فى الجسم عمليتان : عملية الهدم وعملية التجديد ففى أوّل الحياة تقوى عملية التجديد على عملية الهدم كما يقوى الحجر وهو صاعد على مقاومة الجاذبية . فاذا بلغ الانسان أشدّه تعادلت القوّتان ثم تغلب قوّة الهدم على قوّة التجديد فيأخذ الجسم فى الانحطاط والرجوع الى الوراء فيصير هرما فيموت ، فالموت إذن ناجم من نفاد القوّة الحيوية كما نفدت القوّة الرافعة للحجر فهبط وليس الموت من أجل تلف الأعضاء وضعف وظائفها بل المسبب الأصلى للموت هو نفاد القوّة الحيوية يتبعها ذلك الضعف ، فالضعف تابع لا أصل ، ولو بقيت القوّة الحيوية بحالها لأمكن أن تقوم بالتجديد باذن الله تعالى

﴿ كيف بدأت الحياة ﴾

بدأت الحياة بمادّة هلامية فى قعر البحر كشفها العلماء وسموها (بروتو بلاسما) وهى مادّة رخوة لزجة تصيب كل الاشكال بسهولة ، ومتى تكاثفت كانت منها (حويصلات) جمع حويصلة ويقال لها (القلالى) فالحويصلة الواحدة تنقسم الى قسمين وكل قسم الى قسمين وتصبح هذه الحويصلات الجديدة متمتعة بحياة ونموّ كالحويصلة الأولى ، والأسهل أن نسميها بيضا جمع بيضة كبيضة الدجاجة تسهيلا للفهم ، فكل نبات وكل حيوان وكل انسان فى الأصل بيضة واحدة تنقسم الى قسمين كل منهما يصير بيضة وهكذا هاتان تنقسمان ويطرد الانقسام ويصبح كل قسم بيضة كاملة تامة الحياة تتغذى بغذاء خاص ، فكل نبات تراه وكل انسان تراه وأنا وأنت أجسامنا عبارة عن بيضة انفلقت فصارت بيضتين كل منهما كالأولى وهكذا ، وفى أثناء الانقسام صار لنا العين والأذن والقلب والشعر وصار للنبات الزهر والورق والثمرات وصار للحيوان الناب والظلف والظفر والقرن والأرجل وهكذا . هذه صورة الحياة على وجه الأرض

﴿ صورة ارتقاء الحياة على الأرض ﴾

إن الحياة على وجه الأرض سلسلة غير منقطعة كما قال الله تعالى ــ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ــ فالنبات عبارة عن البروتو بلاسما وقد تكوّنت فصارت بيضة فاجتمعت البيضات فكان النبات والنبات يولد ويحيا ويموت ويغتذى ويتناسل وهو محتاج الى النور والحرارة والماء وتقتله الموادّ السامّة ويتنفس وفى بعض أنواعه إحساس . ثم ان النبات من أعلاه متصل بالحيوان فان نوع الذوفيت يربط الحيوان بالنبات فهو على شكل النبات لتثبته بالأرض ولكنه حيوان ويليه الاخطبوط الهلامى وهو لايمتاز عن النبات إلا بامكان التنقل وله معدة وبعض ظواهر الأعصاب وليس له نظر ولاشم ولاسمع . وبعد ذلك الديدان وهو أقوى وأقدر وأكمل أعضاء من الاخطبوط . ثم الحلزون والبزاق وذوات الأصداف التى ليس لها فقرات . ثم الحيوانات القشرية التى لها قشر كسرطان البحر . ثم عقرب البرّ وله سمع وبصر وله أعصاب عقدية . وبتلك الأعصاب تكون حركة الغذاء ودورة الدم . ثم ذوات الفقرات كالسمك وله دماغ ونخاع شوكى . ثم الدبابات الأرضية . ثم الطيور وأناثها تبيض . ثم ذوات الثديين . ومنها ذوات الكيس وهى تحمل فيها صغارها وهى توجد الآن فى استراليا . وهكذا ترتقى الحيوانات حتى تصل الى القرد ثم الانسان

فهذه هى السلسلة التى نظمها الله عزّوجل من أدنى الى أعلى . فبينما تكون الحياة مادّة رخوة فى البحر

اذا هى قد ارتقت فى النبات من أدناه مرتقية الى أعلاه . وفى الحيوان الأدنى مما يلى النبات وترتقى فيه الى أعلاه حتى تصل الى الانسان . ومعنى هذا أن هذه العوالم أشبه بعقد منظم موضوعة خرازته بنظام مهندم . وليس معنى هذا أن كل خرزة ولدت الخرزة التى بعدها بل معناه أن الذى نظم هذا أحسن صنعه ولم يدع فى العقد موضعا خاليا ، فأما كون هذه الخرزة قد انتجت مابعدها فليس ذلك معلوما بل قال به قوم ولم يقم الدليل عليه الآن ، وهذا لايهم الباحث إنما المهم النظام والجمال

﴿ خلق الانسان ﴾

وهنا وصلنا الى مقصودنا من تفسير الآيات ، فها أنت ذا اطلعت على نظام النبات إجمالا وكذا الحيوان وانظر قوله تعالى ـ وما تخرج من ثمرات من أكمامها وماتحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه ـ ألست ترى أن الأكمام التى على الشجر والحمل الذى فى رحم المرأة عبارة عن تلك المادة الهلامية مضاعفة أضعافا مجتمعة ، فتأمل كيف كان اجتماع تلك البيضات التى لاعدد لها منتهيا بفوائد متحدة أى كيف كانت نتائج الأشكال النباتية ملائمة لنتائج الأشكال الحيوانية وأنها مناسبة لها غذاء ودواء . ثم كيف كان هذا الانسان إذ كان أرقاها يود أن يستولى عليها عقليا وعمليا ، فهومغرم بمعرفة كل نبات وحيوان و بحوز كل منهما . إذن انظر فى تركيبه فى بطن أمه . انظر كيف كان خلقه تدريجيا لاطفرة . يقول الله تعالى ـ اقرأ باسم ربك الذى خلق ☆ خلق الانسان من علق ـ . وانظر كيف رأى العلماء انه يكون دودة صغيرة وهى العلقة المذكورة ثم حلزونة ثم سمكة ثم ذبابة ثم قردا ثم يتوارى ذنبه و يصير انسانا . فالدودة والحلزونة والسمكة والذبابة والقرد هى التى أشار لها الله تعالى فقال : ـ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ـ أى مسوّاة وغير مسوّاة ، فما قبل الانسانية هى غير المسوّاة ، والانسانية هى المسوّاة ، واعلم أن هذه الصور التى رآها العلماء ليست يقينية بل هى تخمينية (انظر هذا المقام فى سورة آل عمران)

وانما المهم فى هذا المقام أن نفكر فى أمر حياتنا فانها فى أوّل أمرها بيضة تصلح للنبات والحيوان ثم ترتقى فتصير حيوانا ثم تصير انسانا

هذا درس ألقاه الله الينا . يقول لنا : أنا لم أخلقكم لأهينكم بل أنا أرقيكم . ففى أمد قصير ارتقيتم فى بطون أمهاتكم درجات كثيرة وهى النباتية والحيوانية . فاذا عشتم على وجه الأرض رأيتم الحيوان خاضعا لكم . ثم أنزلت عليكم علوما وقلت لكم إن لى ملائكة ولى عرش وعالم أرواح و بعث الى آخره . فاذا متم فاعلموا أن العوالم التى تصلون اليها عظيمة جدا لاتقاس بعالمكم . فالىّ يردّ علم الساعة لاغيرى لأنها عوالم لاتعقلونها لأنكم لم تروها ولاتدركون زمانها إذ جعلته مجهولا عندكم لحكمة أردتها ونعمة قصدتها . ألاوان خروجكم من أجسامكم الأرضية كخروج الثمر من أكمامه والولد من بطن أمه . فكلاهما نتيجة لما خرج منه وقد انتهى الى عوالم لم تخطر بباله فهل كان التفاح يشعر أنه يكون على موائد الملوك أوكان الجنين فى بطن أمه يدور بخلده انه يوما ما يكون ذا ملك عظيم و يذهب و يجىء فى الأرض و يركب الخيل و يدبر الامور . هكذا حياتكم بعد موتكم تكون فى عالم نسبته الى أرضكم كنسبة الدنيا الى بطن الأم

هذا اذا كانت النفوس عظيمة . فأما النفوس الضعيفة فانها تكون هناك عمياء أشبه بالطفل الأعمى الأصم فى الأرض فتكون السعة هناك على مقدار درجات الأرواح العائشات هناك . وبهذا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين



﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى ـ لايسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشرّ فيؤس قنوط ـ)

هذا بيان لحال الانسان اذا لم ينوّع العلم والدين عقائده وآراؤه . إن الناس قبل أن يهذّبوا ويربوا متى أصابهم الشرّ أخذوا يقلقون ويضطربون ويندبون حظهم ويحزنون وييأسون من روح الله ، ويظنون أنه لافرج لهم ولاعزّ لهم ، وانه قد أقفلت فى وجوههم أبواب الفلاح والنجاح ، فاذا سكن جأشهم وخف حلهم ورجعت اليهم عقولهم أخذوا يدعون ويتضرّعون ويلحون أن يعطيهم الله تعالى الغنى والسعة ، فاذا أجيبوا الى دعائهم وأعطوا نعمة نسوا ما كانوا فيه من الضيق وظنوا أن تلك النعمة دائمة لهم لاتفارقهم وهم أحقّ بها بل ربما ظنوا دوامها وأنكروا الآخرة لأن النعم أبطرتهم واللذات أسكرتهم

فهذا الانسان أمره عجيب ، يسلب النعمة فيضطرب ويكون مسلوب اللب يائسا حزينا . ثم اذا خفّ الأمر عليه دعا الله . فاذا كثرت النعم أصبح أعمى عن الحقائق ناسيا ربه ظانا أن ماالديه من الصحة والمال والمنصب والقوّة دائم وهذا من غفلاته وجهالاته . وليس يخرج الانسان من هذه الجهالة العمياء إلا التذكر والتفكر ودرس العلوم والحكمة والصبر حتى يعلم الانسان أن النعمة والنقمة كل منهما درس له . فكل حال من أحوالنا دراسة لنا . فكما ندرس أطوار حياتنا فى الرحم وفى الحياة الدنيا وندرس الحيوان والنبات يجب أن ندرس مايجىء به الله لنا من المكاره والنعم لننظر ما فائدة ذلك لنا لا لأننا نيأس تارة ونغترّ أخرى فان ذلك فعل الذين عاشوا كالحيوان لايفكرون ولايعقلون . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(فى قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ)

لقد أشبعت الكلام على هذه الآية فيما تقدّم . ولكن أقول لك الآن ان هذا الزمان أخصّ الأزمنة بهذه الآية وأولاها بها

لتعلم أيها الذكىّ أن هذا زمان الانقلاب . ان الله قد كشف العلوم وأظهر العجائب فى جميع أنواع الحكمة والمسلمون لايعلمون . يقول الله هنا ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ . أنت قرأت فى التفسير الى هذا المقام واطلعت على ما أبدعه الله فى هذه الدنيا وعلى العلوم التى أبرزها فى الأرض وأن مافى هذا التفسير خلاصة العلوم وجمالها وبهجتها وحكمتها ولن تراه مجموعا فى كتاب . هو خلاصة علوم هذه الكرة وثمرتها . ففيه من كل فن وكل علم وكل حكمة . أفلست ترى بعد هذا انك قد اطلعت فيما تقدّم من هذا التفسير على تفسير هذه الآية أعنى انك قد قرأت فيه معنى هذه الآية . فاذا سمعت الآن قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ . أفلست تقول نعم قد تبين لى أنه الحق وأن الله حقق ذلك . وليس معنى هذا أن تقول إنى آمنت بالله ورسوله فالايمان أمر يشترك فيه الجاهل والعالم وانما أقول انه قد تبين لك أن هذا الدين حق وانى واثق انك ستقول نعم . أقول لك : إذن أصبح دين الاسلام ليس هو الذى يعرفه العامّة بل هو دين الحكمة والعلم ودين الفلاسفة أى انه هو الدين الذى لما ظهرت العلوم الحديثة كانت مبينة حقيقته . واذا كان كذلك فأنت صرت شريكى فى العمل أعنى انه حرام عليك أن تنام . قم أيها الذكىّ وقل للمسلمين اقرؤا العلوم وادرسوها حتى تقوموا بنصيبكم من إسعاد الأمم فانكم الآن عالة على أوروبا . ادرسوا العلوم وأقيموا الحق فان هذا هو الزمان الذى أظهر الله فيه سرّ كتابكم وقد قال لكم ـ حتى يتبين لهم أنه الحق ـ

فقل للمسلمين إن الاقتصار على قراءة حديث « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله الخ » عار عليكم فلا تقتصروا على ظواهر الدين بل ادرسوا حقائق الكائنات

يقول الله لكم ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ فهل رأيتم ذلك ؟ كلا . لاترونها إلابدراسة . فليدرس المسلمون كلهم على قدر استطاعتهم ليجدّوا . والله يسأل يوم القيامة وعند الموت من يقرأ هذا التفسير ولايقوم هو مستقلا بالعمل لرقىّ الانسانية

أيها المسلمون : أنتم خلفاء الله فى الأرض ونبينا خير الأنبياء ونحن خير أمة أخرجت للناس . وهذه العلوم يجب علينا أن ندرسها . وهذا التفسير وأمثاله جاء فى وقت انتقال الأمم من حال الى حال والمسلمون سيأخذون دورهم وأنتم حتما آخذون دوركم فان لم تقوموا به طوعا قمتم به كرها . وهذا التفسير وأمثاله تنبيه وانذار للأمم الاسلامية . وسيقرؤه النبهاء فيهم بشوق . فان لم يوقظوا الأمم الاسلامية بأقوالهم وأفعالهم فليعلموا أن الله قد أعدّ العدّة لكل متقاعس عن العمل من الأمم والأفراد . وسينزل غضبه على كل عالم لايعظ وعلى كل أمة متقاعسة متقاعدة ـ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ ، وكل من حضّ المسلمين على ماذ كرنا من الحكمة والعلم فله أجر المجاهدين . ومن ترك ذلك فهو من المقصرين

إن ورود هذه الآية فى هذه السورة الواردة فى أواخر القرآن لمما يدعو الى العجب فان القارئ لما قبلها من السور ، المطلع على ماحوت من بدائع الحكمة فى الأنفس والآفاق يقرّ اذا وصل اليها بأن القرآن يدعو الى علم الأنفس والآفاق . فاذن تأخرها الى الربع الأخير من القرآن بل الخمس الأخير منه لهذه الحكمة العجيبة

ألا وان هذا هو الزمان الذى سيرقى الله فيه المسلمين . فطوبى لمن بادر من العاملين . و بشرى لمن كان من المبشرين الموقظين . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاثنين (٢٦) رمضان سنة ١٣٤٣ هجرية

(تذييل لتفسير هذه السورة)

(وفيه ثلاثة فصول)

(الفصل الأوّل فى إيضاح الكلام على قوله تعالى ـ اليه يردّ علم الساعة ـ)

بعد أن أتممت الكلام على هذه السورة خطر لى ليلا أن ألحقها بهذه الجواهر الثلاث فلم أدافع الخاطر لأنى رأيته خاطر خير . فهذه الأولى فى ردّ علم الساعة الى الله تعالى مع ذكر الحمل والوضع والثمر والأكمام

سبحان من أبدع هذه الدنيا وأحكم نظامها . تأمّل رعاك الله فى الدرّ المكنون والياقوت البديع . انظر كيف جعل للانسان هذه المراتب وهو جنين . يتنقل مراتب فى الرحم . فمن دودة صغيرة وهى العلقة الى قوقعة الى سمكة وهكذا حتى يصل الى هيئة القرد فهيئة الانسان

ظنّ المشرّحون وعلماء الأجنة اليوم أن تلك هى الأدوار التى مرّ عليها وهم بذلك يوضحون نظامه ، يمرّ الانسان على هذه الأدوار وتكون نفسه فى تلك الأدوار مشاكلة لنفوس تلك الحيوانات ولكنها تمرّ عليها مسرعة ثم تقفز قفزة فتكون إنسانا ، فاذا رأينا الطفل يداعب الهرّة ويحب الحمامة و يلعب بالعصفور فذلك لأنه كان بالأمس مثلها . إن المدرّس لاينجح فى تعليم تلاميذه إلااذا مرّ على أدوار التعليم وكان تلميذا فيمكنه أن يمثل أدوار التعليم كما مثل أمامه . إن الله لم يجعل فى الأرض عظيما فى علم أوفى مال أوفى ملك إلا اذا مرّ على الأدوار المنحطة وارتقى منها فعرفها فرجع اليها وعلى ذلك تجد الحكومات فى رؤساء اللصوص الذين تابوا خير معوان على التجسس على اللصوص ، فربّ البيت أدرى بما فيه ، وهكذا نجد الأنبياء عليهم السلام يرعون الأغنام صغارا ويرعون الأمم كبارا . وأمهر الأطباء اليوم من يجرّب الدواء فى نفسه ليعرف

أدواره ثم يصفه فى كتبه لينتفع به الناس ، هكذا هنا مرّ الانسان على الأدوار الحيوانية وهو جنين لأنه أوّلا سيكون له بها علاقة فى الحياة الجثمانية زراعة وركوبا وأكلا وشرب لبن ولبس صوف وشعر ووبر وجلد وما أشبه ذلك واحتراسا من أسد ونمر وهكذا . وثانيا ليدرسها دراسة علمية اذا كان من أهل الحكمة ورجال العلم . وثالثا ليدرس نفسه وأحوالها فانه يجد صفات هذه الحيوانات فيه وهو يجاهد ليخرج منها الى عالم ارقى من عالم الأرض ، إن هذه الحيوانات تارة تطلب المنافع بالبصبصة كالكلب والسنور وأخرى بالحيلة كالعنكبوت وتارة بالغلبة كالأسد وتارة بالفرار كالأرانب والظباء والطير وقد يدفع بالسلاح كالقنفذ وقد يتحصن فى الأرض كالفأر والهوام ، وهو شجاع كالأسد ، وجبان كالأرنب ، وسخى كالديك ، وبخيل كالكلب ، وعفيف كالسمك ونفور كالغراب ، ووحشى كالنمر ، وانسى كالحمام ، ومحتال كالثعلب ، وسليم كالغنم ، وسريع كالغزال و بطىء كالدب ، وعزيز كالفيل ، وذليل كالجمل ، ولص كالعقعق ، وتائه كالطاووس ، وهاد كالقطا ، وضال كالنعامة ، وماهر كالنحل ، وحليم كالجمل ، وحقود كالجمل ، وشموس كالبغل . ومستحل كالذئب . ومضر كالفأر . وجهول كالخنزير . وغير ذلك

فهذه وغيرها من صفات الحيوان معرّض لها الانسان . فهو يجد بما أنزل من الديانات وما سطر من العلوم أن يخرج من هذه القيود الحيوانية و يتحلى بالحلية الملكية و يخرج من الدائرة الأرضية الى الدائرة الروحية . وهناك يتجلى له بعض قوله تعالى — اليه يردّ علم الساعة —

إن الانسان مادام مغرما بالأحوال الأرضية فهو أبدا حول هذه الأرض بعد الموت لايبرحها وكيف يبرحها وهو لايجد لذة إلا فيها . ولا سعادة إلا فى أكنافها فيصبح اليها مجذوبا مبعدا من عالم أعلى . ومعنى هذا الانجذاب أن يعذّب بعذاب جهنم فيكون فى حفرة من حفر النار . فان جهنم ملازمة لمن لايعرف إلا المادّة والجنة ملازمة لمن يتزحزح عنها فيقال انه فى روضة من رياض الجنان حتى اذا تخلص من ذلك بتاتا صار فى جنة عرضها السموات والأرض لاضيق جهنم الذى هو ملازم لمن كان لايعرف إلا العالم الأرضى

إن مرور الانسان على العوالم الحيوانية أعطاه أنسه بالحيوان فى أحواله المادّية ودراسة العلوم التشريحية والخلقية وجهاده فى الحياة ليخرج من حال الحيوانية الى الحال الملكية . وهذه نبذة من علم الساعة التى لايعلم علمها إلا الله تعالى واليه وحده يردّ علمها . وهذه سانحة من ذلك العلم وبارقة من سماء الحكمة . فأما العلم الحقيق فهو عند الله « وعنده مفاتح الغيب » وهذه من أسرار القرآن . وسرّ من أسرار عطف الحمل والوضع على علم الساعة . انتهى الكلام على الفصل الأوّل

﴿ الفصل الثانى والثالث ﴾

(فى إيضاح الكلام على قوله تعالى — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق —)

فلأذكر فيه نبذتين : النبذة الأولى ما كتبته فى كتابى « ميزان الجواهر » تحت العنوان الآتى وهذا نصه :

﴿ خاتمة تتضمن فكرة المؤلف فى العلوم عامّة وفى فن التوحيد خاصة ﴾

مما أجمع عليه رأى الحكماء انه يجب على الانسان أن يجعل له فى حياته غاية يسعى لها والا عاش عيشة مهملة . وقد كنت فى ابان تعلمى بالجامع الأزهر أتلقى العلوم الدينية وآلاتها من فنون العقليات والنقليات واذا ذهبت الى بلادنا بالشرقيـة أنظر ماذا ذرأ الله من النبات العجيب . وما أودع فى الكائنات من الغرائب . وأتأمل مافى الأنهار والغدران من سيال عجيب يذهب فكرى فى ذلك كل مذهب وأقارن ما أراه بما أسمعه فلاأجد مناسبة . وأقول فى نفسى : لماذا لانسمع فى العلوم التى نتلقاها شيأ يحوم حوله مانشاهد كل يوم من

المزارع الخضرة والجنات وبدائع الحكمة الربانية ! وأجد فى نفسى شوقا وتوقا الى ذلك . وأتمنى أن يكون له مدخل فى معارفنا الدينية ، ثم أكرّ كرّة نحو ما أتلقاه من الفنون الدينية فأجدها توسع المجال جدا فى احكام المعاملات والميراث والحدود والدعاوى والبينات ، ولا أرى لما أشاهد فى أرض الله الواسعة إلا ان العالم حادث وكل حادث لابدّ له من محدث ونحو ذلك ، وما يذكر فى أبواب السلم والربا من المكيلات والموزونات والتسلم والتسليم ، وكذلك الكلام فى بيع مابدا صلاحه أومالم يبد صلاحه ، ومع كونه إجماليا فانما يتكلم عليه من وجهة المعاملات بين الناس لامن الوجهة الإلهية

سارت مشرقة وسرت مغربا ✡ شتان بين مشرق ومغرب

وكنت أسمع كلاما من أفواه أساتذتى وفى كتب التوحيد أن العالم فى غاية النظام وأن القرآن فى غاية البلاغة ، فاذا توجهت الى بلاد الشرقية وخلوت بنفسى وتفكرت فى العالم وفى القرآن أجد الأمر صعبا علىّ جدا ، ولا أشم لهذا النظام وتلك البلاغة رائحة ، فاذا نظرت رأيت بهائم ترتع ، ونباتا يطلع ، وأناسا تذهب وتجىء ، وبحارا تجرى من أرض عليا الى أرض سفلى ، فأقول أين النظام الذى يقوله العلماء ؟ فصرت أجلس على شاطئ نهر جار وأتأمل فى الحيوانات الصغيرة التى تختفى فى الأعشاب وأقول : لورأيت حيوانا عليه خطوط فيها هيئة انتظام لدخل عندى شعور بهذا النظام ، ثم اذا عرفت أن هذا العالم منتظم كما يقول العلماء الأخيار أكون أسعد الناس وأكثرهم نشاطا وجدّا واجتهادا إذ يكون إيمانى يقينيا . و بينما أنا كذلك إذ فتح لى باب آيات من القرآن . ولم أكن إذ ذاك أعرف تفسيره ، فاستحضرت بعض التفاسير وطالعت آيات العجائب وكان أوّل ماطالعت قوله تعالى – إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار – الى آخرها فتأملتها تأملا صحيحا فانفتح لى باب الفكر ، وصرت أعرض تلك الكلمات على عقلى وأنظر بنفسى فى هذه الصنعة الإلهية وهكذا بقية آيات العجائب ، فأخذ الفكر يطلب والمطالعة تزيد وحلا لى الفهم ، ثم اتصلت بالأزهر بعد انقطاع طويل وحضرت التفسير وغيره من العلوم حضور محبّ وله بل عاشق وصرت لا أتلو القرآن إلا بتدبر وفهم ، ثم ساعدتنى المقادير بدخول مدرسة « دار العلوم » فتأملتُ علومها تأمل من يريد أن يعرف هذا العالم . فكنت أحضر تلك العلوم وأطبقها على العالم الخارجى على حسب ماسبق فى النفس من الشوق الى ذلك حتى اتضح لى أن كل هذا العالم على غاية النظام والاحكام وفهمت آيات القرآن فى تلك العجائب فهما يقينيا لاتقليديا وصار كل شئ من العالم دروسا توحيدية وكأن المتأمل فيه يطالع عجائب القدرة الالهية والحكم الربانية فمن درس الهندسة والحساب والطبيعة أوالتشريح أوغيرها من العلوم ولم يذق منها لذة النظر من وجهة الحكمة العلية فهو صاحب صناعة يعيش بها ولم يمتز عن العامة إلا بالمظاهر الفانية . وكذلك من قرأ دروس البلاغة والنحو والصرف فى أى لغة من لغات العالم من العربية أوغيرها ثم لم يستخدمها فى مطالعة ذلك الجمال الالهى فى آيات القرآن العظيم والعلوم العالية مع استحضار الذهن ووزنها بميزان العقل الغريزى فليبشر بأنه أضاع أيامه ولم يحصل من حياته إلا على معايشه وانه يأكل كما تأكل الأنعام . فأفّ لحياة يكون القصد منها ومن تحصيل العلوم فيها مآكل ومشارب تشاركنا فيها الحيوانات والنباتات . أولايرى المغرورون من ذوى القصور عن الاطلاع على ذلك الجمال أن الغذاء والتناسل عامان فى جميع النبات . فان كنت فى شكّ مما أومأنا اليك فاذهب الى الحقول وتأمل زهرة من الزهر كالقطن مثلا أوالذرة تجد أن الذكران فى زهرة الأوّل أربعة قد أحاطت بمحل الاناث الذى هو فى وسطها وقد ألقحتها وهكذا الذرة يلقح عاليها سافلها على منوال مايفعله الحيوان بحيث ترى ذلك الطلع الذى فى أعلاه ينزل على شرّابة الكوز ويحصل الالقاح ، ثم تلك الحبوب من جميع الأصناف هى المقصودة للانسان أوله وللحيوانات إذ النبات خادم لهما وهكذا الحيوان خادم للانسان ويتمتع باللذتين تمتعا حقيقيا . فاذا استعمل الانسان عقله فيما يحصل به هاتين الشهوتين اللتين قد شاركه فيهما النبات والحيوان

فبئست العلوم و بئست الحياة التى ترجعه من أفق الانسانية الى أفق البهيمية أوالنباتية بل الحياة حياة العلوم العالية والنفوس الكاملة الشريفة التى تطالع ذاك الجمال الأبهى من هذه العوالم وهذا الكمال يشا كلها فى العوالم العلوية والسفلية

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولاسهم

ومن قرأ هـذا ولم يأخذ بمجامع هواه وأعرض عنه واكتفى بما لديه من العلم فذلك داخل فى قوله تعالى ـ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ـ وقوله ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ وجميع العلوم آيات ودلائل تشفّ عن حكمة عالية وقدرة باهرة وعلم تام . والذى أراه أن الشرقيين لاينالون مجدهم إلا اذا رجعوا الى حالة التعليم قبل اندراس العلم لتثبت فكرة التوحيد فى جميع الأذهان واستحضار الخالق فى جميع الحركات والسكنات ، ولايخفى أن علم التوحيد أخذ فى أدوار تعليمه أشكالا وألوانا شتى من ابتداء الوحى الى الآن ، ففى زمن الصحابة والتابعين لم يكن فنا له قواعد وأصول وفروع بل كان باقيا على الفطرة الانسانية المستمدة من آيات القرآن ، وكل يعطيه الله من العلم على حسب استعداده فخلف من بعدهم خلف خرجوا عن الفطرة بما تلقوه من الجدل والفلسفة وانقسموا الى طوائف وحصلت مشاغبات ومنازعات وأخذ وردّ فخاف أئمة الدين رحمهم الله على العقائد فألفوا فن الكلام ليكون حصنا يقى من تهويش أذهان الناس بالمشاغبات فلم يكن مقصودا لهم لذاته وانما هو سلاح وجهاد ونحن فى زمان مات فيه ذلك العدوّ وبادت تلك المذاهب ، فمن استعمل ذلك السلاح الآن فهو غرّ يقاتل فى غير عدوّ وكيف وقد ظهر عدوّ آخر للعقائد فى هذه الأيام ، فيجب على العلماء الآن أن يبذلوا جهدهم للنظر فى كلام المادّيين الاوروباويين وجميع المخالفين ليردّوا عليهم فان اللغات منتشرة بين الأمم والأفكار تنتقل وجميع ذوى الضعف فى الدين يؤثر عليهم كل فكرة يسمعونها ، أما المذاهب البائدة فالكلام فيها عبث ـ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون ـ فان قلت كيف يعلم التوحيد ؟ أقول : يجب على المعلمين فى المدارس وغيرها أن يبتدئوا بذكر غرائب العالم من النباتات العجيبة والحيوانات الغريبة والنجوم ذات البعد العظيم والقدر الكبير والسرعة الهائلة ، ثم ينتقلون من الأغرب الى الغريب الى المعتاد وذلك لأمور :

(١) إن الفطرة الانسانية ميالة الى الغرائب والاحداث أكثر عشقا لها وولوعا بها

(٢) إن دليل الألوهية أقرب الى أذهان البسطاء فى الغرائب كالمتوحشين حتى ان أهل الهند على نهر الكنج يعبدون نباتا يتحرك فى الدقيقة ستين مرة لاعتقادهم أن فيه قوة إلهية ، وماذلك إلا لظهور تلك القدرة الباهرة بأعظم وضوح

(٣) إن آيات القرآن كلها ناطقة بأن النظر فى العوالم هو طريق التوحيد

(٤) إن المعلم متى أوقف المتعلم على كل عجيبة وذكر عند ذلك القدرة والعلم وصفات التقديس والتنزيه بحيث تكون جميع صفات الربوبية تذكر تطبيقا على تلك العجائب كان أثبت فى الذهن ورسخ الايمان رسوخا لاتزلزله الرياح العواصف

(٥) إن ذلك مع كونه علم التوحيد هو أيضا تاريخ طبيعى وطبيعة وتشريح وفلك وهكذا فيكون ماصرفه من الزمن فى تعليمه قد اكتسب به التلميذ علوما تنفعه فى دنياه وهو لايشعر ـ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ـ فيكون قد أراد معرفة خالقه وهو فى الحقيقة يقرأ علوما كثيرة إذ التوحيد هو جميع العلوم بل مثل من يقرأ توحيدا بهذا الوصف مثل انسان زرع أرضا شجرا مثمرا فان هذا لم يفته خروج حشائش لنوع البهائم فقد جاء القصد الأدنى مع القصد الأعلى ، إن الله

يعطى

يعطى الدنيا مع قصد الآخرة ولا يعطى الآخرة مع قصد الدنيا

(٦) إن التلميذ اذا نظر العلوم العالية يرى فى نفسه عند مطالعتها كأنه يطالع حكمة البارى فى تشريحه و بيطرته وطبه وزرعه وحصاده وهكذا لاعتياده على ذلك من صغره ، ولا سبب لفساد أخلاق الشبان الذين يتعلمون فى المدارس إلا خلوّ عقولهم من استحضار الخالق فيما عرفوه من العلوم ، ومن المقرّر أن الحكمة لاتفيد إلا من يستحضر الخالق بسرّه و يعرفه بعقله

(٧) اذا رأى علوم الدين التى أنزلها الله على نبيه لاتخالف الطبائع الكونية فانه يشبّ على تطبيق دينه على ظواهر الطبيعة و ينغرس ذلك فى نفسه و يستشعر استشعارا تاما بذلك كما هو مقصود القرآن ، ألاترى رعاك الله أن آيات الرحمة والعذاب يؤتى بعدها بآيات عجائب الكون ، ألم يكن ذلك ليظهر للناس أن العلمين متوافقان ، ومن العجيب أن بلادنا تنقسم الى قسمين : فبعض الذين تعلموا العلوم الدينية وحدها ينكرون العلوم الكونية من الطبيعيات والفلكيات ، و يظنون أن الدين برىء منها وماهم إلا جاهلون بها ، و بعض من لم يتعلم الدين ودرس فى المدارس تلك العلوم ينكر موافقتها للدين و يقول انها تخالفه — ذلك مبلغهم من العلم — و — كل حزب بما لديهم فرحون — بل كل من الحزبين مقصر لجهله بما لم يعلم ، ومن جهل شيئا عاداه ، بل الواجب على كل فرد من أهلهما أن يأخذ من كل فنّ طرفا والا صدق عليه قول الشاعر

ومن يك ذا فم مرّ سقيم ﴿ يجد مرّا به الماء الزلالا

فالذى خلق هذا الكون بنواميس خاصة جارية على نسق بديع جعل من تلك النواميس قوانين وشرائع بين الناس ، فالكون من فعله وتلك القوانين والشرائع المنزلة على خواص خلقه من قوله . وهل يناقض فعل الرب الأكبر قوله — تعالى الله عما يقول الجاهلون علوّا كبيرا — . فبين النواميس الطبيعية والشرائع المنزلة تطابق وتوافق لايعرفه إلا من عرف العلمين . وأما من درس أحدهما وجهل الآخر فهو حرىّ بأن يدّعى تنافى العلمين ، بل كثير من قارئى الشرائع لقصور عقولهم يرون نصوصها متعارضة لعدم وقوفهم على أصل مأخذ النصين وماهو المقصود منهما فكيف يرون موافقتها للأشياء الخارجة عنها من النواميس الطبيعية فالحق أن الشرائع الالهية والنواميس الطبيعية متوافقة متلائمة وأن من أنكر فانما ينكر لقصور فى عرفانه وضعف فى بصيرته

هذا ما أردت ذكره بالنسبة للالهيات . أما النبوّات فالذى أراه أن يذكر صفات الأنبياء ومكارم أخلاق سيد الوجود ﷺ وتكون المعجزات داخلة فى ضمن تلك الأخلاق حتى يشبّ الطفل على حبّ النبىّ ﷺ وعلى التخلق بأخلاقه و يعتقد فيه الصدق حين يسمع المعجزات وتكون الواجبات فى حق الرّسل قد ثبتت فى الأذهان عرضا . فهذا فضلا عن كونه علم توحيد علم أخلاق فيخرج قارئ التوحيد من المدارس وقد درس علوما طبيعية وأشياء وفلكا وأخلاقا . ولنا أمل وطيد من المدارس التى تأسست بالقطر المصرى بهمة ذوى الثروة والجمعيات أن تسعى فى أن تسلك هذا المسلك الجيد وتدرس التوحيد على هذا النمط ليتم بها المقصود إن شاء الله تعالى . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . و بهذا تمّ الكلام على النبذة الأولى والحمد لله رب العالمين

﴿ النبذة الثانية ﴾

أذكر فيها ماكنت كتبته فى مجلة «نور الاسلام» منذ نحو (٢٥) سنة . وسبب كتابتها أنى كنت رأيت فى المنام عقب قراءة كتاب نقله المرحوم فتحى باشا زغلول عن أمة الاسلام من الفرنسية الى العربية رأيت

أن ملكا يعرب لى « بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ » ودام على هذا الاعراب والشرح طول الليل وهو يقول : قوله غريبا صفة لموصوف محذوف ، فالوصف ناب مناب المصدر ، ثم يقول : والمعنى المقصود انه بدأ بدأ غريبا لم يعهد له نظير وسيعود كما بدأ أى انه ينتشر انتشارا غريبا لم يعهد له نظير ، و بقيت طول الليل وأنا أسمع هذا القول ويكرر كأنى كنت تلميذا يعلمنى الاعراب والمعنى . ولايفتأ يقول وأنا أسمع وكنت أرى فى هذا التفهيم استعمال الطرق التى كنت ألقيها على التلاميذ لأنى كنت أعطى السنة الثالثة والرابعة فى مدرسة (الجيزه) كتاب النحو وأعطيهم باب المفعول المطلق ، وكنت أقول لهم ينوب عن المصدر وصفه وآلته وهكذا فصرت أسمع مثل ما أعطى وهو يقول : غريبا وصف نائب مناب المصدر الى آخره ، وكنت وأنا نائم أعلم أنى نائم وأعلم الحجرة التى أنا فيها وأعلم أن هذا ملك وهو يلقى الى هذا القول ، فاستيقظت من النوم وقلت فى نفسى إن هذه الرؤيا عجيبة ولكن هى أشبه بأضغاث الأحلام ومع ذلك وجدت فى النفس وجدانا غريبا ولكن كنت أشد الناس حرصا على أن لا أكلم أحدا لأن مثل هذه يسخر الناس منها ، فماذا أفعل ؟ كتبت مقالة وضمنتها هذا المعنى باعتبار انه جاء من عندى ابتكارا وعنوانها « مما أوجب للمسلمين السقوط ، جعل اقتراب القيامة سبب القنوط » وأرسلتها الى إدارة مجلة « نور الاسلام » التى كانت تصدر بمدينة الزقازيق وطلبت أن لا يكتب اسمى تحتها خيفة التشنيع واللوم ، ثم انى بعد نحو (٢٠) سنة بحثت عن المقالة فلم أجدها فأسفت كل الأسف ، ولكنى بعد بحث وجدتها فى مكتبتى مجموعة فى ضمن أعداد هذه الجريدة فسررت سرورا عظيما وهاأنا ذا أكتبها هنا بنصها بعد اليأس منها

و بعد أن سبق الكلام على هذا المعنى فى سابق التفسير إذ ذكرت أنى فى هذه السنة اطلعت على مقالة فى الاهرام لكاتب ذكر هذا المعنى وقال انى وأنا صغير قرأته فى كلام أحد الفضلاء وعدد أسماء من المشهورين وقال فلا أدرى أيهم قالها ، وشرح نفسى ماذكرته لك فعرفت أن هذا المعنى وصل الى بعض الناس وقد انتشر فى الجرائد السيارة ، واذن عرفت أن هذه الرؤيا أراد الله اظهارها للأمة وانها بشارة لها ، وأنا وان كنت أكتمها عن الناس وقد ظهرت فان آمالى من ذلك اليوم صارت معلقة برقى الاسلام موقنة به ولكن ليس من هذه الرؤيا وحدها . كلا . بل هناك ماهو أصدق وأبدع وأجل وأعلى ، وليس هذا مجال القول فيها فانى رأيت أعجب من هذه بما الايقاس . فهذا هو السبب فى إيقانى برقى المسلمين . ولهذا ألفت هذا التفسير . وهذا كله سر قوله تعالى — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم — . فبذلك فليفرح المسلمون . و بذلك فليسعد المسلمون . وهاك نص المقالة المذكورة

﴿ مما أوجب للمسلمين السقوط . جعل اقتراب القيامة سبب القنوط ﴾

سبحان من أعز وأذل وشكل الأشكال المختلفة والألوان البديعة والأصل واحد — وأن الى ربك المنتهى — أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها — فازداد الحلو حلاوة والمر مرارة (١) والغذاء تغذية والدواء مداواة والجميل جمالا والقبيح قبحا والعناصر لم تتغير. فياعجبا لهذا الاحكام . وما أعجب هذا النظام وكيف من الأصل الواحد تستخرج المتنافرات . وتنتج المتضادات . إن فى ذلك لآيات . وينزل الخير والجود الإلهى فيكسب كلا مايشاكل طبعه فتشرق الشمس على المحموم والصحيح فتزيد كلا على حسب استعداده وتجمد الطين وتذيب الجليد . فالضوء واحد والقابلية اختلفت — إن ربك حكيم عليم — وهكذا العلم والهدى يصيب القلوب فيعطى كل قلب على حسب استعداده فيضل ويهدى ويسعد ويشقى ويعز ويذل والعلم فى نفسه واحد والقابليات مختلفات

(١) ليست الزيادة عامة فى الكل اه

جاء الدين الاسلامى والناس فى جهالة وعماية فأخرجهم من الظلمات الى النور. ومما جاء فيه ان الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، وانها اقتربت وحان وقتها وان النبى ﷺ بعث هو وإياها كأنهما متلازمان حتى قال ﷺ « بعثت أنا والساعة كهاتين »

فكانت تلك الأدلة والآيات والأحاديث من أقوى مايحث على أعمال الأمة بل هى أكبر باعث على استنهاض همم أبطال وعزائم رجال الى أعمال البرّ وترك الكسل والخمود إذ انبهام وقت موت الانسان وقيام الساعة التى يلاقى فيها ربه يبعث فيه روح نشاط على أن يستعدّ فى كل نفس من أنفاس حياته للخيرات على حسب استعداده إما لنفسه أوأهله أو وطنه أو بنى دينه وجنسه ، ويكون أمام الخالق الأكبر كأنه خليفة على عباده يعمل لهم مافيه صلاحهم ، فمن هذا عرفنا أن انبهام وقت الساعة والموت من أجلّ سياسة إلهية كبرى كيف لا وهى سياسة ملهم الملوك ومرشد العلماء . وعلى هذا سلف الأمّة الاسلامية جدّوا فى الأعمال عملا بقوله تعالى ــ سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين ــ لا للمتكاسلين والعاجزين فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكانوا يعلمون حقا أن من طلب منه عمل الآخرة فانه طبعا طلب منه عمل الدنيا معها إذ هى مزرعة لها وطريق اليها ، ومالايتمّ الواجب إلا به فهو واجب ، فكأنه طلب منهم عمل الدنيا وزيادة لنفع نوع الانسان ، وقد ضربوا لذلك مثلا رجلا زرع أرضا أشجارا مثمرة فانه لايعدم حشائش تخرج للبهائم فقد جاء القصد الأدنى مع الأعلى ، أما من زرع البرسيم مقتصرا عليه فلاتخرج له الثمرات وعلى ذلك قال تعالى ــ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ــ فكان وعظ القرآن وحثه داعيا لعلوّ الهمم وعلوّ الهمة من الايمان ، ومن سفلت همته فهو بمعزل عن الفهم والعلم ، ولاتكمل نفس الانسان إلا باراقة ماء الحياة فى سبيل منافع أمّته وبلاده مع القصد الأعلى وهوالتقرّب للخالق الأكبر

هذه أعمالهم وهذه نياتهم ، فانظروا ياقوم كيف تغيرت الأوضاع وانعكس المعنى وأصبح ما كان وسيلة للارتقاء سببا للذلة والهوان ، ولكن لاغرابة فى ذلك فالقرآن لم يزل والقلوب تغيرت ــ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم واذا أرادالله بقوم سوءا فلامردّ له ــ . هذه الفاتحة وأين عمر . سمع سلفنا فى الدين القرآن فى الساعة وقربها فأطاعوا وصيته وحثهم على العمل ، وسمعنا فعصينا وأشرب فى قلوبنا حبّ عجول الجهل وشبان الخلاعة والأمل ، ويالتينا اقتدينا بأسلافنا فى الوطن إذ مع كونهم عبدوا العجل سارعوا الى العمل وما أشبه العلم بالماء يتلوّن بلون انائه ويتمثل على حسب مادخله فى بنيته وأجزائه وبالنور يظهر على حسب لون الشفاف الذى هوفيه ، فكما اهتدى أسلافنا بآيات قيام الساعة ضللنا نحن بها ــ يضلّ به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضلّ به إلا الفاسقين ــ

أصبح المسلمون الآن فى كافة أنحاء المعمورة ولاأمل لهم فى شوكة ولادولة ولاعزّ ولاصولة حيث يسمعون من أفواه الجهال بالدين الذين يقولون مالايعلمون ان هذا الدين سيمحى وأن هذا أوانه وأن الكفر يعلو وهذا حينه ، وتمسكوا بقضايا لايعرفون معناها إذ هى محل نظر وبحث بين أكابر العلماء ، وانتشرت تلك الفكرة بين العامة والخاصة ، ومما يوجب الأسف والحزن أن الأذهان تطابقت على جمع الفكرتين وهما ان الساعة قربت جدا وأن الاسلام يمحى ، وحيث اننا فى زمان كثر أنصار الجهل فيه وجب علينا أن نبين للناس فنقول ومن الله التوفيق

أما قرب الساعة فهو لايدل على مايزعمه الجاهلون إذ يجوز أن تبقى الدنيا قرونا متطاولة بل آلافا من السنين بل ملايين ، وربما استعظم هذا بعض العقلاء واستبعده جدا بناء على مارسخ فى أذهان العموم مستدلا بآيات كثيرة وأحاديث كما تقدم على أن الساعة قريبة نقول له على رسلك أيها الأخ فان القرب ليس

من المعهود بيننا والا لقامت الساعة فى حياة النبى ﷺ أو بعده بقليل فان أعمارنا قصيرة ونحن نرى أن أقلّ من القرن قرب ولكن القرب على حسب علم ذلك القادر القاهر . ألاترى الى قوله تعالى - إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا - فالأرض لها ملايين كثيرة وهى سائرة فى الفضاء . فاذا نسبنا مائة ألف سنة أومليونا الى تلك الملايين الكثيرة كانت قربا بتلك النسبة . فاذن لامانع من بقاء هذه الدنيا وهذا العالم الى آلاف من السنين والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . فكل أمة اتسمت بمكارم الأخلاق وصلحت فى أعمالها وكان صلاحها أكثر من فسادها فتلك هى التى تبقى حتى تتغير النيات وتهبط العزمات فتردّ الى أرذل العمر . وهذه الأمة الاسلامية قد أخذت دورها فى الضعف . ولقد آن أن ترجع الى صلاحها وتأنس رشدها وتقوم من رقدتها . ومتى برهنت أمام الله والناس انها أصبحت صالحة للقيام بالخلافة فى الأرض سلمت اليها أمانتها - ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون - ولقد علم الله وشهد العالم المتمدين (أى العارفون بمقام الاسلام منهم) أن الاسلام أعظم نصير للمدنية كما يعلم بأدنى التفاتة للتاريخ . وان كنت فى شكّ مما قصصنا عليك فاقرأ كتاب « خواطر وسوانح فى الاسلام » الذى ترجه فتحى بك زغلول تأليف الاستاذ هنرى أحد الفرنساويين . أواقرأ كتاب ذلك العالم المؤرّخ الشهير (سديو الفرنسى) تر العجب العجاب من أمة ودين ومكارم اخلاق هيمنت على العالم أجمعه

جدّوا أيها المسلمون واعلموا أن أوان ظهور مجدكم وعوده قد آن . فاسترجعوا مجدكم القديم فقد عرف العالم المتمدين وشهدت الفطر الصادقة بل شهدت العقول ودلت التجارب أن هذا زمن ظهور الاسلام ورجوع مجده القديم فلقد بدا وانتشر انتشارا غريبا لم يعهد له مثيل فى تاريخ الأديان وتم من نحو ١٣٠٠ سنة وهاهو الآن قائم يعود كما كان وينتشر انتشارا غريبا كما انتشر أوّلا وهذا معنى ماقيل « بدا الاسلام غريبا وسيعود كما بدا » أى كما انتشر أوّلا انتشارا غريبا لم يعهد له مثيل فى الأمم . هكذا سيعود وينتشر بتلك الغرابة بعينها والسرعة الفائقة حتى تكون معجزة أخرى . فقوله غريبا صفة لمقدر محذوف أى بدأ غريبا . وهاهوذا الآن أوان رجوعه بتلك الغرابة . علم الله وشهد كل عالم من علماء الأرض المحققين أن للاسلام رجعة فجائية وتقدما غريبا قد ظهرت بوادره وجاء أوانه وعلى أيديكم أيها العقلاء يكون ظهوره ذلك ان شاء الله . جدّوا لارجاع مجدكم وحوز فخركم . ومتى صحت المقدّمات صدقت النتائج

لوتأمّل علماؤنا اكتشافات القوم الحديثة ومالديهم من العلوم لعلموا انها تفسير لما أجمل فى الدين الاسلامى وتوضيح لما غمّ علينا فيه ﴿ و بعبارة أوضح ﴾ ان تلك العلوم والأسرار إيضاح وكشف لمخبآت القرآن . وأوضح من ذلك أن ذلك مقدّمات ظهور سيدنا عيسى وتمهيدات له حين يأتى والناس قد استعدّت فطرهم للاسلام قاطبة وتصير الأرض كلها اسلاما بأمر سيدنا عيسى وكأنى ببعض اخوانى يضحك من سماع مثل هذا الكلام ونحن نقول له أعر استحضار الأرواح هناك لفتة تر العجب العجاب وتجد مخبآت العلوم تظهر على أيدى هؤلاء - ولتعلمنّ نبأه بعد حين -

جاء وعد رسولنا الصادق الأمين بأن عيسى عليه السلام يأتى فى آخر الزمان ويحكم بشريعتنا أو يظن أن ذلك يكون بدون مقدمات للاسلام ومبشرات بين يدى ذلك النبىّ . كلا . ثم كلا . وهذا الظهور كل من العلماء يفهمه بما يوافق مشربه ولا نتعرّض له وانما علينا ذكر النص وكل يفهم مايناسب معارفه

انظروا الى المستشرقين فى أوروبا يقرؤن هذا الدين ويعجبون أى اعجاب . انظروا لأولئك المتعربين فى أوروبا الذين يعجبهم كل شئ صدر منا وهم نظير المتفرنجين عندنا فالقوم فى بلادهم لايعرفون عن الاسلام شيأ إلا قليل منهم وكل من عرف شيأ منه تشبث به . ولابد أن يكون هذا القرن الآتى أوان ظهور شمس حقائقه فى ربوع العالم المتمدين حتى تأنس ببعض معارفه الأذهان قبل مجىء ذلك النبى فى آخر الزمان يحكم

بشرع خير ولد عدنان . فكيف بعد هذا كله يقنط المسلمون من رحمة الله وهذا وعد لهم . أم كيف ثبت فى عقولهم أن دولهم تنقرض وهم الذين ورد فيهم « لاتزال طائفة من أمتى قائمة على الحق حتى يأتى أمر الله » فهذا الدين وهذه نصوصه . فمن ظنّ أن الساعة قد جاء وقتها وأن الاسلام سينقرض فقد جهل وضلّ وأضلّ وادّعى انه أعلم من رسول الله ﷺ

والله تعالى يقول ــ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لاتأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفىّ عنها قل إنما علمها عندالله ولكن أكثر الناس لايعلمون ــ

فكيف جاء قوم اليوم جعلوا أنفسهم أعلم من رسول الله وزعزعوا قلوب الناس وأرجفوا وخوّفوا وافتروا على الله كذبا فى أمر الساعة ــ إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون ــ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أوهوأقرب إن الله على كل شئ قدير ــ ولكن إن بحثت عن هؤلاء تجد ان أكثرهم بها لايعرفون ــ يستعجل بها الذين لايؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق ألا ان الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ــ

فتأمّلوا ياقوم وافهموا القرآن فان إخفاء الساعة سرّ مكنون ومنه أن يقيم الناس دولهم و يأملوا فى بقائها ودوامها . ومتى عرفوا قربها اختلت روابط الأمم ووقفت الحركة وانتزعت البركة . ولذلك أعقب هذه الآية بما يشير الى ذلك حيث قال ــ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهوالقوىّ العزيز ــ

واذا كان إخفاء الساعة سياسة لاصلاح المعاش والميعاد معا ولطفا من الله بالمعاش فى الدارين لافى الدنيا فقد أرشدنا الى أن الرزق المذكور يؤتى به كالتابع لأعمال الآخرة ولذلك أعقبه بقوله تعالى ــ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب

هذا ورجائى من كل من اطلع على هذا أن ينشر هذه الفكرة فى كافة أنحاء المعمورة حتى تنزع تلك الضلالة من الأذهان اهـ

﴿ تذكرة ﴾

إنى قلت « بدأ الاسلام الخ » بصفة انها حكمة عامّة .

اللطائف العامة لأقسام السورة كلها (١)

وهى ست لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ فى تفسير البسملة وذكر الرحمة فيها ومناسبتها لما ذكر فى السورة من طبقات الأرض ومافيها من صور جميلة و بدائع كشفها القوم فى زماننا مصداقا لقوله تعالى فى آخر السورة ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ــ الخ

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ فى قوله تعالى ــ فصلت آياته قرآنا عربيا ــ وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقا لقوله تعالى ــ لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ــ وقوله ــ سنريهم آياتنا ــ الخ وفى هذه معجزتان : الأولى ان الكشف أظهر أن الأرض لم تكوّن فجأة . الثانية : ان الأيام قد بلغت فى علم الفلك مئات الملايين وهذا يقرب من أيام خلق الأرض

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى ــ حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ــ مع

---

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة : المؤلف

قوله ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ـ وكيف ظهر علم الأيدى والأرجل وكشفها للجنايات فى الدنيا وانها اذا قبلت شهادتها عند الله فالقضاة أحرى أن يقبلوا شهادتها وهذه معجزة أيضا لأن الأيدى والأرجل اختصتا بذلك فى الكشف دون سائر الاعضاء

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ فى قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ـ الخ

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ فى قوله تعالى ـ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ـ

﴿ اللطيفة السادسة ﴾ فى قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى البسملة وذكر الرحمة فيها ومناسبتها لما ذكر فى السورة من طبقات الأرض ومافيها من صور كشفها القوم فى زماننا مصداقا لقوله تعالى فى آخر السورة ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق ـ)

تجلت الرحمات العامة فى هذه السورة بصورتين اثنتين جليتين بهيتين ، صورة الحروف ، وصورة العناصر ورمز لهذين بالحاء والميم ، الرحمة وسعت كل شئ ، وتجلت فى هذه السورة فى الحروف والعناصر ، والحروف والعناصر يرجعان لشئ واحد هوالتحليل ، اللغات التى يعرفها الناس تقدر الآن بنحو خمسة آلاف لغة ذكرت مجملها فى ﴿ سورة الروم ﴾ عند قوله تعالى ـ واختلاف ألسنتكم وألوانكم ـ فارجع اليه إن شئت ، وكلها راجعات لشئ واحد هوالصوت كما ان العناصر التى وصل المعروف منها الآن حوالى الثمانين عدا منها تركبت جميع هذه المخلوقات ، اللغات حركات فى الهواء ، وعجائب الطبيعة حركات فى الأثير ، وكلها تحلل الى أصولها الأولى ، باللغات ندرس العلوم ويتعارف الناس ، وبالعناصر وتركيبها تكون حياة الحيوان والانسان

تجلت رحمات الأصوات والحروف فى قوله تعالى ـ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا ـ واللغة العربية كما تقدم فى ﴿ سورة الروم ﴾ إحدى اللغات السامية التى تدرجت من حال الى حال كما ستراه قريبا ، فهى أبدا متقلبة متنقلة ، فبينما ترى قدماء العرب فى الجزيرة قبل تاريخ الميلاد ببضعة آلاف يكتبون بالقلم السومرى الآتى بيانه وصورته اذاهم يكتبون فى الجاهلية قبل الاسلام بقلم آخر اذاهم يكتبون فى زمن النبوّة بقلم أقرب الينا ، وهكذا نفس الألفاظ تتغير لهجاتها تباعا متطوّرات تطوّر الأزمان والقرون والسنين ، ولكن لما جاء الاسلام استقرّت اللغة العربية لفظا وخطا على آساس متقاربة الى الآن معجزة لهذا القرآن كما ستراه موضحا ، إذ انك سترى فيما يأتى سورة الفاتحة والاخلاص مكتوبتين باللغة الصينية ومعهما اللغة العربية ، فذلك التبدّل الذى يعترى اللغات لم يجر على اللغة العربية إلا فى طريقة التحسين والبهجة ، أما تغيير الحروف لفظا وخطا تغييرا جوهريا كما يعترى جميع اللغات فهذا لم يكن . ولما كان هذه المعجزة آثارها التى ظهرت فى المسكونة من أقصاها الى أقصاها قال فى نفس هذه السورة ـ ولوجعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمىّ وعربىّ ـ الخ فكانت هذه الآية رمزا الى ماهو حاصل الآن من أن القرآن يكتب باللغة العربية وان كان القرّاء له أعجميين لأنهم لوقرؤه بلغاتهم لورد عليهم هذا الاشكال . أنبىّ عربىّ وقرآن أعجمىّ ! وهذا هوالسرّ فى حفظ نفس اللغة العربية مع القرآن أينما حلّ

هذه هى الرحمة التى تجلت فى هذه السورة فى قوله تعالى ـ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لأنه لوكان أعجميا لقيل هلا فصلت آياته بالعربية التى نزل بها فاذا قرئ بغيرها لم يكن مفصلا بل كان مبهما أعجميا . وبهذا تمّ الكلام على الآيات المفصلات الناجمات من الحروف

﴿ الآيات المفصلات فى المادة الأرضية والسماوية ﴾

اعلم أن القرآن لايفرق فى الآيات بين كونها متلوة بالألسنة أو بين كونها مسموعة بالآذان أومخلوقة فى الأرض

والسموات

والسموات مركبات من العناصر منظورات بالعيون . الله خلق السمع والبصر . وللسمع جاءت اللغات ومنها العربية . وبالعربية سمعنا القرآن وبقى الى الآن باللغة العربية لفظا وخطا . وللبصر خلق الكواكب والمركبات الأرضية والبسائط . إذن الآيات مسموعات ومبصرات . وكم جاء فى القرآن ذكر السمع والبصر . ويقول سبحانه - إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا - وماالفؤاد إلا الهيئة النفسية التى بها نفهم ونتبصر فيما سمعنا وفيما رأينا ، والسورة مبدوءة بالآيات المسموعة لأن الناس فى أوّل أمرهم يعملون بما يسمعون ، فاذا ارتقوا قليلا فهموا مايبصرون ، فالناس أوّلا يؤمنون بما يسمعون بسبب صدق المخبر لهم ، ثم بعد ذلك يفكرون بأنفسهم فيما سمعوه ، فالآيات المسموعات تكون أوّلا والآيات المبصرات تتلوها . لهذا ذكر المسموعات وتفصيلها أوّلا ثم تلاها بالآيات المبصرات ، فماذا تلا علينا ؟ تلى علينا أوّلا اجمال هذه الدنيا وأن الأرض خلقت فيها الجبال والنبات والمعدن والحيوان والانسان ، وكان ذلك كله فى أربعة أيام ، وأن السموات خلقت ورتبت ونظمت وأعطيت كل سماء نظامها الخاص بها وزينت بأجمل زينة وأبهج منظر . وذلك فى يومين . وكان مبدأ أمر السماء دخانا فما زالت العناية بها حتى صارت وصارت الأرضون بالحال التى نراها عليها الآن . ولاجرم أن المذكورهنا إجمال . فههنا سماء وههنا أرض أمرا أن يأتيا طوعا أوكرها ولكنهما أقلّ من أن يعصيا خالقهما فأطاعتا والطاعة إنما تكون بالخدمة ولا خدمة إلا بحركة والحركة دائمة من أول خلق العالم الى فنائه ، بل نفس العالم هو نفس الحركات كما قرّرناه فى مواضع من هذا الكتاب

فالعوالم كلها مسخرات جاريات متحركات وكلهنّ آيات . وهذه الآيات المبصرات ترجع الى آيتين اثنتين فى المشاهدات آيات السماء وآيات الأرض . وكما أن مبدأ السورة فيه ذكر الآيات المسموعات القرآنية فى تفصيل القرآن العربىّ والآيات المبصرات الكونية فى خلق الأرض والسموات ، هكذا فى القسم الآخر منها تأييد كون القرآن لابدّ من بقائه بالعربية الى آخر الدهر كما قدّمنا وذلك فى الآيات المسموعات وتبيان الآيتين الكونيتين المذكورتين أوّل السورة إذ يقول تعالى - ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر - ويقول - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت - . إذن ماجاء فى أواخر السورة مبين لما جاء فى أوّلها . فكون القرآن لايصح أن يكون أعجميا راجع لقوله تعالى - كتاب فصلت آياته - الخ وكون السموات من آياته وخروج النبات من الأرض من آياته راجع لما فى أوّلها من خلق السموات والأرض . ثم أتبع ذكر الآيات القرآنية والآيات السماوية والأرضية بانذار المشركين وشهادة الجلود ونطقها . والنار المؤلمة لهم . والعداوة التى تقع بينهم إذ يعذبون . وتبشير المؤمنين بأن لهم مايشتهون . ثم ذكر علم الأخلاق . وذكر حسن المعاشرة . والصبر . وجميل الأخلاق . وختم السورة بوعد جميل قائلا : إن الآيات بقسميها سواء أكانت فى القرآن أم كانت فى السموات والأرض سأريكموها . فمن آيات القرآن المسموعة ان هذا القرآن لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه . وهذا قد ظهر ظهورا واضحا فان أهل أوروبا الذين كان هذا القرآن سبب نهضتهم الحديثة أصبحوا اليوم يبطشون بالاسلام وبأهل الاسلام . ومع ذلك غلبهم هذا الدين وبقى محفوظا . والدليل على ذلك مانراه من أنه مكتوب بالحروف العربية فى بلاد الصين كما ستراه فى الصورة الشمسية فى هذه السورة كما ذكرت آنفا . أفليس هذا هو نفس الوعد الذى فى آخر السورة . وهل أحد ملزم أن يظهر هذه المعانى أكثر منا نحن الذين نعيش فى الأرض الآن . المسلمون المتأخرون قبلنا لم تكن لديهم مواصلات مثلنا . إذن وجب علىّ أنا أن أقول للمسلمين بعدنا أيها المسلمون : وعدنا الله أن يرينا آياته وهذه الآيات منها المسموع مثل ان القرآن لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه وقد ظهر واتضح . وأن أقول أيضا . أيها المسلمون : إن الآيات المبصرة التى وعدنا الله أن يريها لنا قد أراها فعلا ونشرها فى الأرض . الله وعدنا أن يرينا آياته . والآيات المبصرات المذكورات فى السموات والأرض جعلت اثنتين اجمالا فى السورة

ولكن هذا الاجمال فصل . وتفصيل هـذا الاجمال جاء فى علمين اثنين : علم الفلك . وعلوم طبقات الأرض (الجيولوجيا)

الله أكبر : هاهو سرّ القرآن ظهر ، هاهى العلوم ، هاهى ذه علوم الله وآياته ظهرت و بهرت ، هذا وعد الله والله لايخلف وعده ، الله رحيم ومن رحمتـه أنه لايدع عباده يتخبطون فى دياجير الظلام تائهين حائرين لايستقرون . الله سـبحانه وتعالى لايدع المسلم متحيرا يقول يارب أنت قلت انك خلقت الأرض ونظامها فى أر بعة أيام . وخلقت السموات فى يومين . فأنا يارب فى حيرة . يارب أنت أمرتنا بالوضوء و بالصلاة و بالزكاة و بالحج و بالمعاملات . وخلقت لنا المجتهدين كالشافعى وأبى حنيفة ومالك وابن حنبل والامام زيد والمجتهدين من الشيعة . فيارب إن هؤلاء مابينوا لنا إلا الأعمال . والأعمال تصقل النفوس . والنفوس متى صقلت استعدّت للعلم . وأنت أنزلت فى هذه السورة آيات مسموعة وآيات مبصرة وأمرتنا بالاستقامة فيها إذ قلت ــ فاستقيموا اليه واستغفروه ــ . و بعـد ذكر الاستقامة ذكرت لنا آيات السموات وآيات الأرض . وكما أنك أوضحت آية المبصرات وآية المسموعات فى أواخر السورة بذكركون القرآن عر بيا . و بيان أن السموات والأرض من آياتك أوضحت أيضا نتائج الاستقامة المذكورة فى أوّل السورة إذ قلت ــ إن الذين قالوا ر بنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ــ الخ . ففى السورة آيات مبصرة وآيات مسموعة وأعمال مشروعة بالاستقامة وكلها فصلت فى السورة . وهذه الأعمال المشروعة لصقل عقولنا ماهى إلا المقدّمات للتبحر فى العلوم . وكيف تدخل العلوم قلوبا غير صافية لم تصقل وصقلها بالاستقامة . ونريد يار بنا أن نكون علماء فبالعلم نصل اليك

يقول الله أنا رحيم ، رحمتى وسعت كل شىء ، أنا رحمت الحشرات فجعلت لبعضـها آلاف العيون لتبصر فكيف لا أعلم الانسان . هاأناذا شرحت وفصلت الآيات فى علم الجيولوجيا والفلك ، فليقرأه المسلمون لأنه جيل ولأنه بهيج . نعم إن هذه العلوم الأرضية لم تصل الى غاية الكمال لأن نفوسكم لاتحتمل الكمال فى العلم وأنتم الآن عندكم مبادئه ياأهل الأرض لأنكم لاتؤتون من العلم إلا قليلا ، ومن هـذا القليل علم الجيولوجيا والفلك . أقول أنا ولقد جاء فى هذا التفسير أن اليوم إما (٢٤) ساعة وذلك بدوران الأرض حول نفسها فى اليوم والليلة واما أن يكون أكثر من ذلك حتى يصل الى (٣٠٠) مليون سنة وأكثر من ذلك وأقل ، وهذه الثلثمائة مليون سنة لدوران المجرّة التى منها شمسنا على نفسها ، فاذا سمعنا الله يقول ــ وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدّون ــ أو يقول ــ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ــ فهذا فتح باب لمعرفـة دوران الكواكب وأيامها وسنيها ، وبه نعرف الأيام التى خلقت فيها السموات والأرض . وهذا كله لاتساع العلوم والمعارف فليست الأيام قاصرة على ألف ولا على خمسين ألف و ٣٠٠ مليون سنة بل تكون أكثر وأقلّ باختلاف الشموس والمجرّات والسدم . وأنا أحمد الله تعالى إذ كان هذا التفسير مملوءا بهذه العجائب ، ففيه مقنع لكل من اطلع عليه ، فالحمد لله الذى ألهم وعلم . هـذا من حيث الأيام وأن علومها اتسعت فى زماننا فأصبحنا نعدّها بمئات الملايين

بقى علينا أن نبحث من علم الجيولوجيا فى نظام هذه الأرض والسموات وتدرجهما من حال الى حال وأن السموات كانت دخانا وهذا بيت القصيد

فلأشرح هذا الموضوع بقدر الامكان من علم الجيولوجيا تفسيرا لقوله تعالى ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ــ ولقوله ــ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك ربّ العالمين ﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أر بعة أيام سواء للسائلين ﴿ ثم استوى الى السماء وهى دخان ــ الى آخره

أيها المسلمون : إن الله تعالى من عنايته بنا ذكر هنا ﴿ عشرة أفعال ﴾ فى هذا المقام : « خلق ،

جعل ، بارك ، قدّر ، استوى الى السماء ، فقال ، قالتا ، فقضاهن ، أوحى ، زينا » فهذه الأفعال العشرة جاءت على وتيرة واحدة وهى أفعاله تعالى نفسه . واذا كان الأئمة رحمهم الله قداعتنوا بآية الوضوء والغسل والتيمم فألفوا فيها كتبا وليس فيها إلا أفعال خمسة من أفعالنا نحن وهى اغسلوا وامسحوا اطهروا تيمموا فامسحوا هذه أفعال خمسة من أفعال العبد استغرقت كتبا فى المذاهب المختلفة ولم تنل هذه الأفعال العشرة التى هى من أفعال الله جزءا من ألف مما استنفدته نتائج الأفعال الخمسة العملية فى الوضوء والغسل والتيمم . أفليس هذا أعظم تقصير ! أفليس من العار أن يسمع المسلم الله يقول ـ فقال لها وللأرض ـ الخ ولا يبحث ولا يفكر ، إن ذلك جهل مبين

إذن لنبحث ونشمر عن ساعد الجد فى كسب أمرين : أمر علمى ، وأمر عملى . أما الأمر العلمى فهو الجمال والبهاء والنور والحكمة والسعادة النفسية لأن علم طبقات الأرض وعلم الفلك يرقيان نفوسنا ، ولا معنى للانسانية إلا العلم ، ومتى ارتقت النفوس قربت من ربها إذ لاقرب إلا بالعلم ، وما العمل إلا صقل للنفس واعدادها غالبا ، هذا هو الأمر العلمى

أما الأمر العملى ، فاننا لن نتال حظا فى حياتنا إلا بالعلم . وكيف نعرف خواص النبات أو الحيوان إلا بدراستهما . وكيف نستخرج الفحم من الأرض والملح والمعادن والسوائل كالبترول والغازات اللاتى عرفها أهل أمريكا فأوقدوا بها مصابيحهم من نفس الأرض إلا بعلم طبقات الأرض التى وعدنا الله بتفصيلها . فأذكر لك فيما يأتى شذرات منه . وعلى المسلمين بعدنا إتمام مابدأناه فان ذلك واجب عليهم شرعا ، فأجعل الكلام على الأرض فى ﴿ بابين ﴾ باب العلم ، وباب العمل

(١) باب العلم . لأبدأ أوّلا بذكر معلومات عامة عن الكرة الأرضية
(٢) ثم أقفى بذكر أهمّ النظريات الحديثة من حيث ان أصل الأرض كانت سديما أى ذرات معدنية
(٣) ثم أتبعه بذكر العصر الأوّل للأرض
(٤) وبعده عصر الحياة القديمة
(٥) ثم عصر الحياة الوسطى
(٦) ثم عصر الحياة الحديثة ومافيه من بقايا خشب وغابات متحجرات
(٧) ومايتبع ذلك من العصر الحجرى القديم
(٨) ثم العصر الحجرى الحديث . وعصر البرنز

ثم يلى ذلك باب العمل ، وهو ذكر نبذة من تاريخ المعادن بالقطر المصرى . فلأشرع فى تفصيل ذلك فأقول ومن الله التوفيق

(باب العلم وفيه ثمانية فصول)[1]

﴿ الفصل الأوّل ﴾

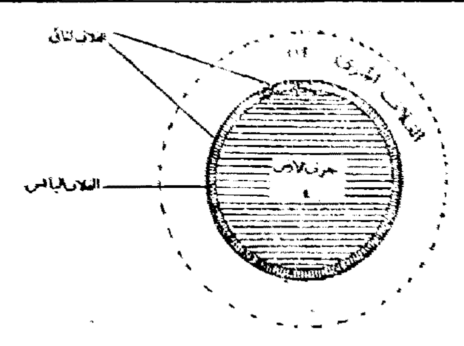
(فى ذكر معلومات عامة عن الكرة الارضية)

تطلق لفظة الأرض أو الكرة الأرضية على الكوكب الذى تسكنه سواء منه اليابس والماء وعلى مايحيط به من هواء

ويمكن تقسيمها لسهولة البحث تقسيما طبيعيا الى أربعة أجزاء (انظر الشكل ١٣ فى الصفحة التالية)

---

(١) هذا ومابعده فى هذا العلم من كتاب الجيولوجيا تأليف الدكتور حسن صادق مراقب مصلحة المناجم



(١) الهواء ــ الغلاف الجوّى
(٢) الماء ــ الغلاف المائى
(٣) اليابس ــ القشرة اليابسة
(٤) جوف الأرض

(انظر شكل ١٣)
قطاع تخيلى يوضح أقسام الكرة الارضية

وفى الواقع أن الجيولوجيا تبحث فى تكوين وتركيب القشرة اليابسة وماتحدثه فيها العوامل الناتجة من تفاعلات الأجزاء الثلاثة الأخرى

﴿ الغلاف الجوّى ﴾

يطلق هذا اللفظ على مجموعة الغازات التى تحيط بالكرة الأرضية . ولاعتبارات عديدة يقدّر سمك هذا الغلاف تقديرا تقريبيا بنحو ٥٠٠ الى ٦٠٠ ميل على أنها بحكم قلة ضغطها أوكثافتها كلما بعدنا عن سطح الأرض نكاد لاتكون محسوسة على ارتفاع ٢٥ ميلا من السطح

يتركب الهواء من الغازات الآتية بالنسبة المئوية المبينة أمام كل منها

آزوت (نتروجين)	٧٩	فى المائة
أوكسيجين	٢١	»
ثانى أوكسيد الكربون	٠٠٣ ر.	»

وهذاعدا كميات قليلة جدا من غازات نادرة مثل الأرجون والهيليوم والكريبتون والنيون والاجزينون وكذلك بخار الماء الذى يوجد بكميات تتفاوت بتفاوت سطح الأرض من حيث الرطوبة والجفاف . وهذاعدا الأبخرة والغازات البركانية والأتربة الدقيقة وهى مواد وان لم تكن أساسية فى الهواء لها أحيانا أهمية خاصة من حيث أثرها فى العوامل الجوية

وترجع أهمية الهواء كعامل من العوامل المؤثرة فى سطح الأرض اليابسة إلى صفتين :
(أوّلا) التأثير الكيميائى لبعض العناصر المكوّنة للهواء فى المعادن والصخور التى يتكوّن منها اليابس
(ثانيا) ميعة الهواء وسهولة حركته من جراء تغيير الحرارة والضغط وماينتج عن هذه الحركة من رياح .
ومن الهواء تهطل الأمطار ومن هبوبه تتكوّن الأمواج وهذه كلها عوامل ذات أثر ظاهر فى القشرة الأرضية اليابسة . وسيأتى وصف كل من هذه العوامل وأثرها

﴿ الغلاف المائى ﴾

يطلق هذا الاسم على مايوجد على سطح اليابسة من ماء فى المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار وما يتخلل فجواتها وشقوقها . ولوكانت الأرض كرة ملساء لاتعاريج فى سطحها لغطاها ذلك الماء بغلاف سمكه ميلان أما وسطح الأرض بين مرتفع ومنخفض فقد اجتمع الماء فى مناطق الهبوط فتكوّنت منه المحيطات والبحار والأنهار التى تغطى نحو ثلاثة أرباع من مجموع سطح الكرة الأرضية

﴿ أعماق البحار والمحيطات ﴾

يختلف عمق هذا الغلاف المائى من مكان لآخر اختلافا كبيرا فالأنهار والبحيرات غالبا قليلة العمق والبحار قد يبلغ متوسط عمقها بضع مئين من الأمتار بينما المحيطات قد تبلغ من العمق آلاف الأمتار . وقد برهنت

المقاسات

المقاسات التى أجرتها بواخر الاستكشاف و بواخر وضع الأسلاك البرقية البحرية أن متوسط عمق المحيطات من ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ متر وقد بلغ أكبر عمق رصدته تلك البواخر نحو ٩٤٢٠ مترا بالمحيط الهادى قرب جزائر البوليبونيز

كذلك يستدل من نتائج أعمال بواخر الاستكشاف المذكورة أن قيعان المحيطات هى عبارة عن سهول ممتدة تكتنفها سلاسل من الجبال مغمورة تحت الماء وقد يصل بعضها إلى قرب سطح الماء أو يعلوه فيتكون منها بعض الجزائر فى وسط المحيط كجزائر القديسة هيلانه فى المحيط الأطلسى وجزائر ساندوتش بالمحيط الهادى

والماء هو مركب كيميائى من اتحاد الأوكسيجين والهيدروجين بنسبة ذرة من الأول وذرتين من الثانى إلا أنه يوجد فى الطبيعة دائما مذابا فيه أملاح مختلفة تتفاوت فى مقدارها تفاوتا عظيما

فمياه الأنهار وأغلب البحيرات عذبة . أى لأن الأملاح المذابة بها قليلة بينما مياه البحار والمحيطات مالحة أى مذاب بها كمية كبيرة من الأملاح

وتزيد نسبة الأملاح المذابة فى مياه البحار المغلقة فى المناطق الحارة نظرا لارتفاع نسبة البخر وعدم تعويض المياه التى تفقدها كما فى البحر الميت بفلسطين . انتهى الفصل الأول

﴿ الفصل الثانى ﴾

(فى أهم النظريات الحديثة من حيث أن الأرض كانت سديما)

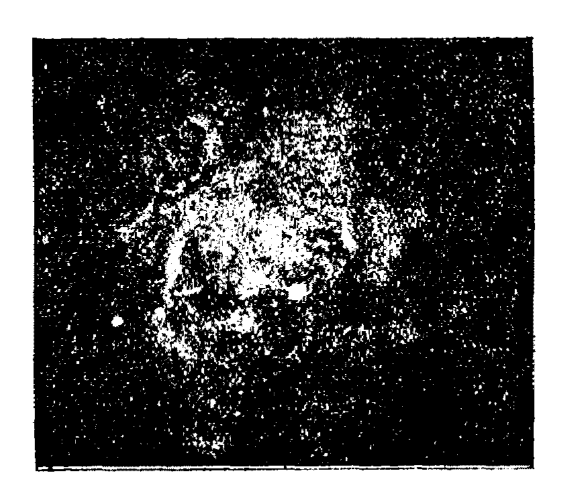
اعلم أن العلماء بحثوا فى أصل الكرة الأرضية علما منهم بأن المركب ان لم يحلل الى عناصره والعلم ان لم تعرف أصوله ومبادئه وأحواله الماضية لم ينتفع الناس به كما ان اللغات لاتكون مفيدة مالم تحلل الجمل الى كلمات والكلمات الى حروف ، والحاء والميم المذكورتان فى أول هذه السور شاهد عدل بذلك لتقوم حجة رمزية على المسلمين الذين يجهلون تحليل العلوم وأصولها لأنهم لاينتفعون بها ولا بالحياة على هذه الأرض وإذن نشرع فى آراء العلماء فنقول .

لقد وضع العالم الفلكى الألمانى (كانت) سنة ١٧٥٥ نظرية لأصل هذه العوالم . فقال « إن الفضاء السماوى كان قبل تكوين الشموس العظيمة وسياراتها مملوءا بسحاب عظيم جدا مركب من مواد غازية مرتفعة الحرارة جدا ، ثم أخذت الجاذبية تلصق بعض أجزائه ببعض بحيث صار كتلا كل كتلة لها مركز خاص يدور بعضها على بعض وتأخذ الحرارة تنقص شيئا فشيئا وهذه هى الشموس التى نسميها نجوما »

فلما اطلع على هذه النظرية (لابلاس) الفرنسى سنة ١٧٩٦ — ١٨٢٤ اشتق منها نظريته المعروفة وهى «ان المجموعة الشمسية كانت سديما حارا يملأ فضاء واسعا فأخذ يبرد شيئا فشيئا ، و بعد ذلك أخذ يترك حلقات حلقة وراء حلقة وهذه الحلقات تكورت و بردت وهى تدور حول نفسها وحول الشمس وهذه هى الكواكب السيارة ومنها الأرض ، فالأرض على هذا الرأى ماهى إلا من ذلك السديم وقد كانت جزءا من الشمس ، والشمس لما أخذت تتقلص وتبرد تركت أجزاء منها هى عين السيارات وعين الشمس الخ »

هذا رأى (لابلاس) الفرنسى بعد (كانت) الألمانى . ومعنى هذا أن حرارة الأرض الآن أقل من حرارتها فى العصور القديمة جدا (عصور الجيولوجيا) أى علم طبقات الأرض ، وهذا الرأى هو الذى كنا ندرسه ونتلقاه ونحن تلاميذ بدار العلوم منذ نحو (٤٠) سنة ، ولكن هذا الرأى الآن ظهر بطلانه لأنهم لما نظروا الى الحيوانات التى استخرجوها من باطن الأرض (وسترى بعضها) وقد مضت عليها آلاف وآلاف من السنين وجدوها لاتحتمل حرارة أشد من حرارة الأرض الآن وأن حرارة الأرض الآن هى حرارة الأرض قديما .

إذن هذا الرأى بطل الآن وحلّ محله رأى آخر وهوأن السديم ليس غازا بالمعنى المتعارف بل هومعدن وهذا المعدن ذرّات صلبـة بينها جاذبية فتكون منهاسحابة سماوية أوغبارسماوى يخضع لقانون كأنه جسم واحد.
أقول والقول الأوّل والقول الثانى فى نظر القرآن سواء لأن الله يقول ـ ثم استوى الى السماء وهى دخان ـ فنظرالسماء دخان ، ولكن كون هـذا الدخان شديد الحرارة وليس معـدنا أومعدنا له أجزاء طائرة فى الجوّ كالغبار ، فهذان سيان فى أنهما يسميان دخانا . فالرأى الحديث الذى استقرّ عليه القوم أن الأصل الأوّل سديم والسديم كما قلنا ذرّات معـدنية صلبة طائرات مرتبطات بقوانين ، أوهى غبار سماوى ، أو (دخان) وهاك صورته (انظر شـكل ١٤)



(شكل ١٤ — منظر السديم المعروف فى مجموعة نجوم الجبار كما يرى بالنظارة الفلـكية المعظمة)

ثم ان هذا السديم امتدّت منه أذرع أخذت شكلا حلزونيا بسبب دوران شكل السديم فأصبح بذلك أشبه بالسديم الحلزونى الذى يرى فى مجموعة النجوم المعروفة بالسلاقى (انظر شكل ١٥)



(شكل ١٥ — منظر للسديم الحلزونى فى مجموعة نجوم السلاقى كما يرى بالنظارة الفلـكية المعظمة)

وهكذا أخذت المعادن أثناء الدوران تغوص وتنزل فى وسط هـذا السحاب . ولما غاصت تركت وراءها مادّة ألطف منها . فـكانت هذه هى القشرة الأرضية . وهـذه القشرة لما جدت بالبرودة انكمشت وصارت

مجعدة فهبطت منها أجزاء وهي المحيطات وبرزت أخرى وهي القارات . وقد أحاطت بالأرض أبخرة صارت ماء . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثالث في العصر الأولى للأرض ﴾

جاء في كتاب الجيولوجيا مانصه

﴿ العصر الابتدائي للأرض ﴾

يبدأ هذا العصر وقد أصبحت الأرض وحدة كروية مستقلة ذات قشرة خارجية من صخور جرانيقية . وتجعدت هذه القشرة بالانكماش الناتج عن البرودة فبرزت منها أجزاء هي القارات وانخفضت أجزاء أصبحت أحواض المحيطات بفضل ماتجمع فيها من المياه التي تقطرت بالبرودة من الأبخرة التي كانت تحيط بهذا الكوكب في حالة نشأته الأولى

وتعرضت القارات الى عوامل التعرية فتفتتت صخورها ثم اكتسحت المواد المفتتة الى البحار والمحيطات من جراء بعض العوامل التي تقدم وصفها كالرياح والأمطار والأنهار فتكونت الرواسب على قيعان البحار ومن ثم بدأ تكوين الصخور الراسبة

﴿ الفصل الرابع : في الحياة القديمة ﴾

يمثل هذا الحقب جزءا كبيرا من مجموع الزمن الجيولوجي يقدر كما قدمنا بنحو ٣٠ في المائة من مجموعه . وتدلنا الحفريات الكثيرة التي وجدت دفينة بين صفحات صخوره أن سطح الأرض وجوف البحار كانت وقتئذ مرتعا لأنواع من الحياة تختلف كل الاختلاف عن الكائنات الحية التي تعمر وجه الأرض الآن . فكانت من بينها أجناس وفصائل ورتب قد بادت وانقرضت فليس شئ يشابهها الآن على وجه الأرض كما أن على سطحها الآن من الفصائل الشائعة مالم تكن قد ظهرت بعد . (انظر اللوحة الأولى) في الصفحة الثالثة

ومن أهم فصائل الحيوانات التي يختص بها هذا الحقب القديم الجرابتوليت والتريلوبيت التي عاشت واندثرت قبل انقضاء ذلك الحقب فلا أثر لها بين صخور الحقب الذي يليه . (انظر رقمي ١ و ٤ باللوحة الأولى)

والجرابتوليت من فصيلة الحيوانات البحرية المعروفة بالبوريفرا . وهي عبارة عن سلسلة متصلة من الخلايا يربط بعضها ببعض عمود دقيق . وقد تكون فردية مستقيمة أو مقوسة أو حلزونية وقد تكون متفرعة الى فرعين أو أكثر (شكل ١ باللوحة الأولى)

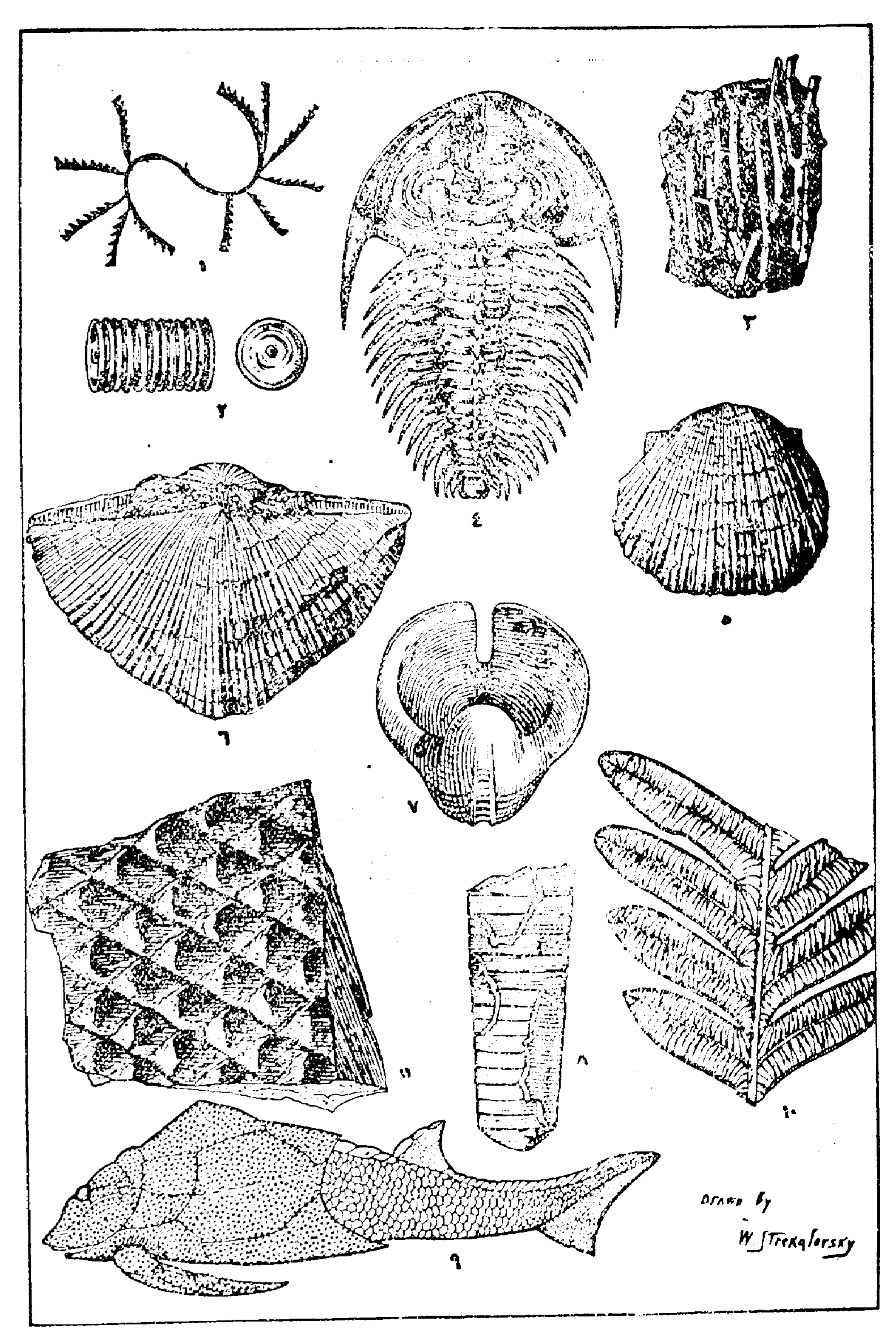
والتريلوبيت من فصيلة الحيوانات القشرية تنقسم طوليا ثلاثة أقسام هي الرأس والجسم والذنب وعرضيا ثلاثة أقسام أيضا (شكل ٤ باللوحة الأولى)

ومن أنواع الحيوانات أيضا الشعاب المرجانية (شكل ٣ باللوحة الأولى) والحيوانات المحارية (الشكلين رقمي ٥ و ٦ باللوحة الأولى) وكلها من أنواع وأجناس بادت قبل انقضاء ذلك الحقب فلم يظهر أثرها بين صخور الأحقاب التالية وليس لها وجود في البحار الحالية

وقد كانت الأسماك أولى الحيوانات الفقرية التي ظهرت في البحار أبان ذلك الحقب . على أنها كانت تختلف اختلافا بينا عن أسماك البحار الحالية إذ لم تكن هياكلها العظيمة قد تعظمت تماما وكان يستعيض عنها الحيوان بدرقة خارجية تغطي رأسه وجزءا من جسمه (انظر الشكل رقم ٩ باللوحة الأولى)

ومن الأسماك نشأت أنواع الأمفيبيا أو الحيوانات البرمائية . على أن ظهورها كان قرب انتهاء ذلك

الحقب ومنها نشأت الزواحف التى كان لها شأن عظيم فى حقب الحياة الوسطى (انظر شكل ١٦)



(اللوحة الأولى ـ انظر شكل ١٦)

(الحفريات المبينة بهذه اللوحة حسب الأرقام المبينة أمام كل منها هى . (١) جرابتوليت (٢) كرينويد (٣) شعب مرجانى (٤) تريلوبيت (٥) برودكتوس (٦) سبيريفر (٧) بليريفون (٨) ارثوسوراس (٩) سمك بتريكذس (١٠) نبات سرخسى (١١) ليبدودندرون)

﴿ الفصل الخامس فى عصور الحياة الوسطى ﴾

جاء فى كتاب « الجيولوجيا » مانصه :

كان هذا الحقب فترة سكون وهدوء لم تتعرض القشرة الأرضية فيه لمثل ماتعرضت له من حركات أرضية عنيفة إبان الحقب . ولم تكن الأرض فى غضون هذا الحقب المتوسط مسرحا لتفاعلات بركانية شديدة

ومع أن البحار قدعدت على بعض أجزاء من الأرض فغمرتها وألقت فوقها برواسبها المختلفة الا أن ذلك لم يكن نتيجة حركات عنيفة من نوع التى أدت فى الأحقاب الأخرى الى رفع سلاسل الجبال العظمى

كذلك كانت هناك براكين فى بقاع مختلفة ولكنها لم تبلغ الشأو والانتشار اللذين بلغتهما فى العصور السابقة وليس للصخور البركانية شأن كبير بين صخور تكاوين الحقب المتوسط

وقد كانت أنواع الحياة من نبات وحيوان تختلف فى مجموعها عنها فى عصور الحقب القديم * فبادت من بينها فصائل كانت قد أينعت وازدهرت فى العصور الأولى كالتريلوبيت والجرابتوليت وانتشرت بدلا عنها أجناس اختص بها هذا الحقب كالأمونيت والبلمنيت التى بدأت مع ابتداء ذلك الحقب واندثرت قبل انتهائه فأصبحت من أخص مميزاتها

والأمونيت (شكل ١ باللوحة الثانية) جنس من الحيوانات المحارية الرخوة محارته مستديرة الشكل مفلطحة فى التواءات حلزونيــة بداخلها تجويف حلزونى مقسم الى غرف أكبرها الغرفة الخارجية التى كان يسكنها الحيوان . وتفصل هذه الغرف بعضها عن بعض قطاعات مجعدة . وقد كان من هذا الجنس نحو أربعة آلاف نوع يختلف بعضها عن بعض فى حجمها وشكلها وزخرفها الخارجى

أما البلمنيت (شكل ٢ باللوحة الثانية) فهو حيوان ذو محارة سوداء مستطيلة أعلاها مجوف حيث كان يسكن هذا الحيوان وأسفلها ينتهى بنقطة حادة

ومن أنواع الحيوانات التى تكاثرت فى العصور الجيولوجية الوسطى الشعاب المرجانيــة التى كانت تشبه الشعاب التى تنمو الآن فى بحار المناطق الاستوائية (انظر شكل ١٧) فى الصفحة التالية

﴿ الفصل السادس . فى عصور الحياة الحديثة . (الكاينوزوى) ﴾

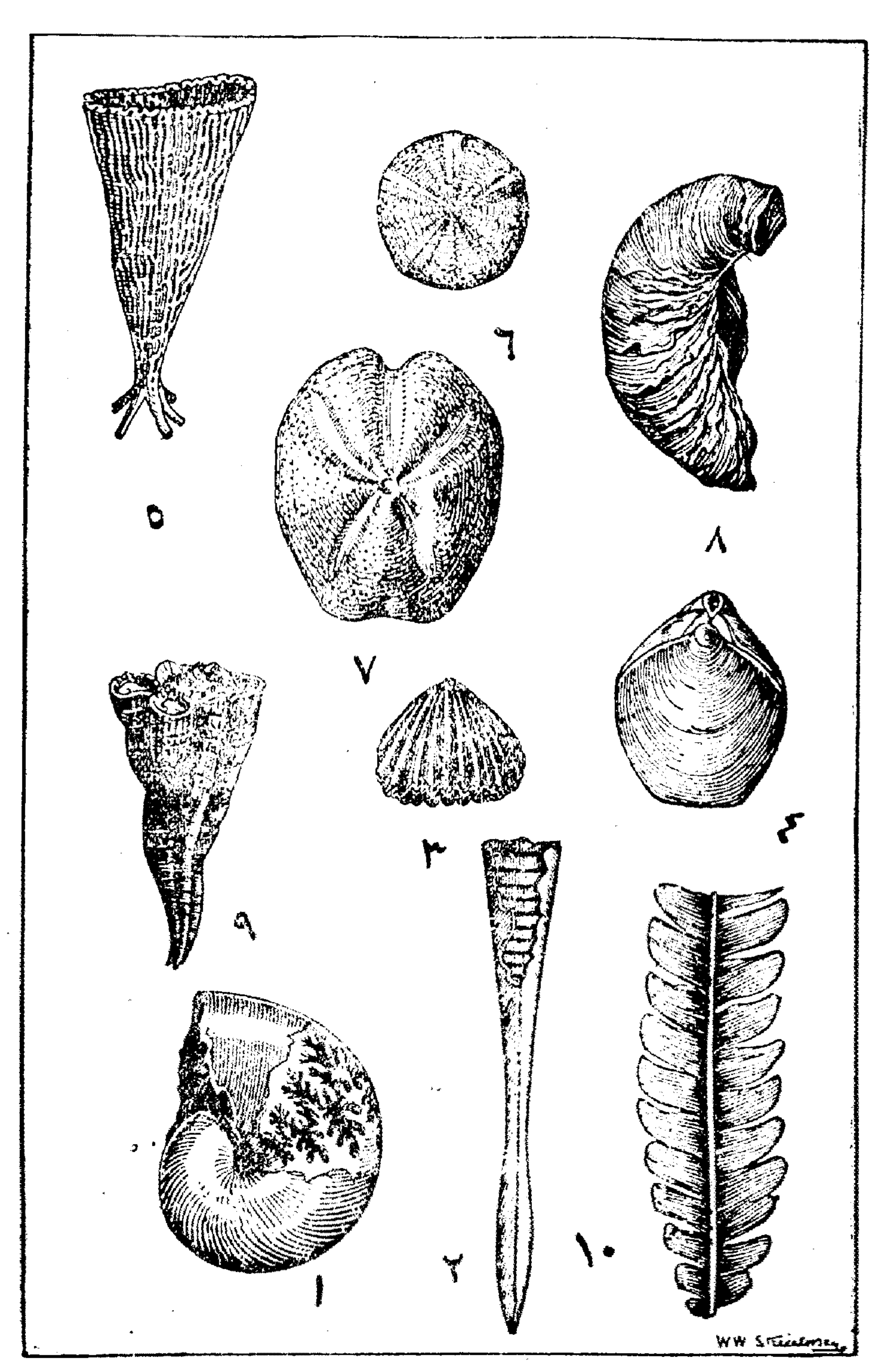
جاء فى كتاب « الجيولوجيا » مانصه .

ترجع تسميته الى الشبه الكبير بين ما كانت تعيش فيه من نباتات وحيوانات ومايعيش منها الآن مع العلم أن كلمة (كاينوز) يونانية معناها حديث أوجديد وكلمة (زون) كلمة أخرى معناها حياة

وقد بدأ ظهور الفصائل والأسر والأجناس الحالية من حيوانات ونباتات مع ابتــداء هذا الحقب وصارت تتزايد نسبتها كلما تقدمنا فيه . فكانت مجموعة الحياة تزداد شبها بالمجموعة الحالية . وكان فى ذلك تدرج من الحياة الوسطى الى الحياة الحالية

وكانت أجناس الأمونيت والبلمنيت التى اختصت بها العصور الجيولوجية الوسطى قد اندثرت شيئا فشيئا قبل بزوغ الحقب الحديث كذلك بادت الزواحف الكبرى التى تفوقت فى تلك العصور على باقى الحيوانات ولم تترك وراءها من تلك الفصيلة سوى أجناس قليلة الأهمية صغيرة الحجم هى التى بقيت على وجه الأرض الآن كالسحالى والتماسيح والأفاعى

ومن أخص مميزات أنواع الحياة فى ذلك العهد النوموليت والسريثيوم وهى لم تكن قد ظهرت قبل ذلك . ومن الحيوانات الفقرية امتازت الثديية فتفوقت على باقى أنواع الحيوانات جميعا . و بلغت المملكة النباتيـة



(اللوحة الثانية ـ شكل ١٧)

(مجموعة أهمّ الحفريات فى صخور حقب الحياة الوسطى بالقطر المصرى)

(أسماء الحفريات المبينة باللوحة الثانيـة حسب الأرقام المبينة أمام كل منها هى . ـ (١) أمونيت (٢) بلمنيت (٣) رينكونيلا (٤) تريبراتولا (٥) اسفنج فنتريكوليتس (٦) هولـكتيبوس (٧) هيمياستر (٨) أوستريا (٩) رودستا (١٠) نبات سرخسى)

مالم تكن قد بلغته قبل ذلك من تنوع أجناسها وانتشارها وتوزيعها

ويقدّرون عدد أنواع الحيوانات التى عاشت فى عصور الحقب الحديث بنحو ٢٠ ألف نوع أهمها تابع للأجناس الآتية

النوموليت وهى حيوانات من فصيلة الفورامينيفرا تسكن الى هيكل جيرى مستدير يختلف حجما وشكلا من حبة العدس الى القطعة ذات العشرين قرشا . وقد كانت استدارتها ورقتها التى جعلتها شبيهة بقطع النقد سببا فى تسميتها . فاذا قطعت نصفين رؤيت منقسمة فى الداخل الى خلايا صغيرة مرتبة فى صفوف حلزونية يفصل بعضها عن بعض حواجز رقيقة (أنظر شكل رقم ١ باللوحة الثالثة) وقد اقتصرت حياة النوموليت على العصر الأوّل من عصور هذا الحقب وتكاثرت فيه وكان من جراء تراكم محاراتها أن تكوّنت الأحجار الجيرية النوموليتية ومنها أحجار جبل المقطم وهضبة أهرام الجيزة

ومن القنافذ البحرية جنس الأكينولامياس . ومن الحيوانات الرخوة السريثيوم وهى من القواقع ذات المحارات الحلزونية المزخرفة من الخارج بأزرار وخطوط وقد بلغ بعض أنواعها حجما كبيرا . ومنها أيضا البلانوربس وكانت تسكن المياه العذبة

ومن الحيوانات الرخوة ذات المحارات المزدوجة الأوستريا (شكل ٦ باللوحة الثالثة) والبكتن (شكل ٧ باللوحة الثالثة) واللوسينا (شكل ٢ باللوحة الثالثة)

وقد انتشرت الحشرات انتشارا كبيرا وذلك يرجع لانتشار النباتات المزهرة . فكان من بينها أنواع النحل والبعوض والنمل والفراش وقد حفظت حفريات بعضها بحالة جيدة جدا داخل قطع الكهرباء (الكهرمان) الذى هو عبارة عن صمغ بعض الأشجار الصنوبرية التى كانت منتشرة فى غابات ذلك الحقب

ومن الحيوانات الفقرية الأسماك وكانت تشبه الأسماك الحالية كل الشبه . والأمفيبيا والزواحف التى كان من بينها السحالى والثعابين والسلاحف والتماسيح التى لاتختلف كثيرا عن مثيلاتها فى الوقت الحالى

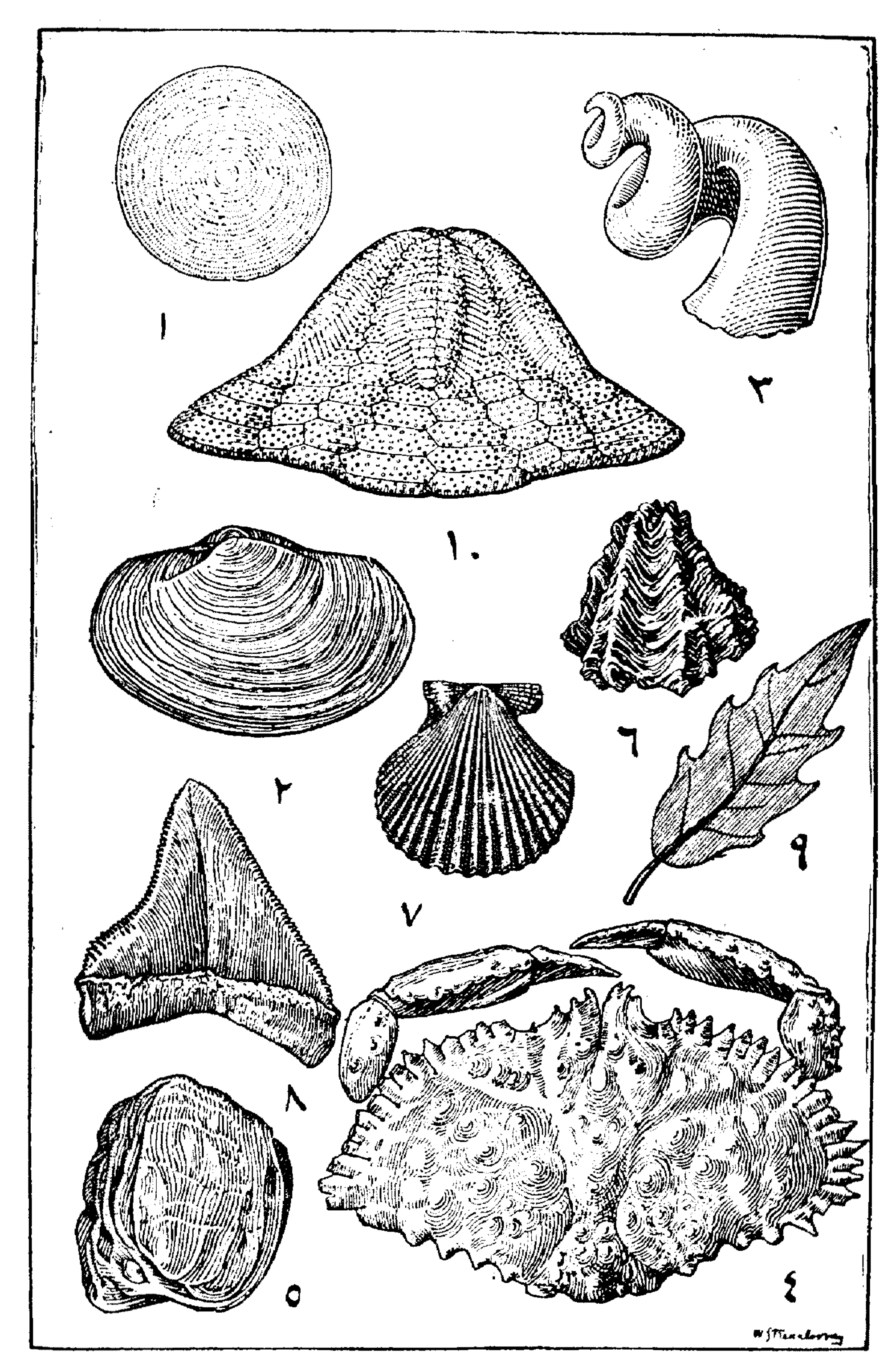
واندثرت الطيور ذات الأسنان التى كانت قد نشأت فى أواخر العصور الوسطى وأخذت مكانها أنواع لاأسنان لها تشبه الطيور الحالية

أما الحيوانات الثديية فقد بلغت أقصى حدود الكمال فى ذلك الحقب وتفوقت على باقى أنواع الحياة جميعا

ومن الهياكل العظمية التى وجدت مدفونة فى باطن صخور ذلك الحقب أمكن تتبع الحلقات المختلفة فى نشوء بعض الأجناس التى تعيش على الأرض الآن

فالفيل مثلا نشأ فى العصور الأولى من ذلك الحقب من جنس الماستودون وهو حيوان بلغ طوله (٥) ونصف من الأمتار وارتفاعه ٤ أمتار وله نابان فى كل من الفك الأعلى والأسفل (انظر شكل ١٨ أى اللوحة الثالثة) فى الصحيفة التالية





(شكل ١٨ ـ اللوحة الثالثة)

(مجموعة أهم الحفريات فى صخور حقب الحياة الحديثة بالقطر المصرى)

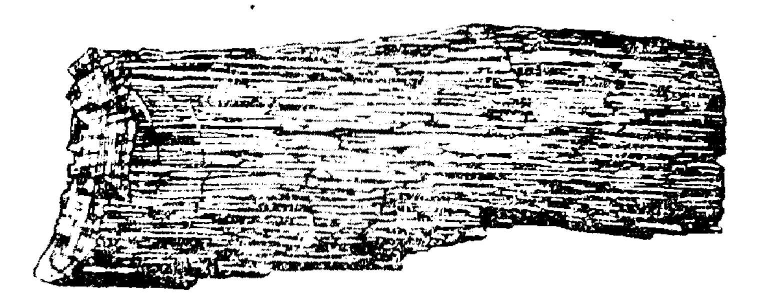
(أسماء الحفريات المبينة باللوحة الثالثة حسب الأرقام المبينة أمام كل منها هى (١) نوموليت (٢) لوسينا (٣) ناتيكا لونجا (٤) سرطان بحرى (٥) فاكهة متحجرة (٦) أوستريا (٧) بكتن (٨) سن الحوت (٩) ورقة شجر (١٠) كليبياستر)

(الفصل

﴿ الفصل السابع فى العصر الحجرى القديم ﴾

اعلم أن عصر الحياة الحديثة المتقدم ذكره قسمه العلماء الى قسمين عظيمين : عصر ثلاثى وعصر رباعى وفى العصرين ظهرت أنواع من الحيوانات الرخوة وهى لاتزال حية الى الآن . وقد وجدوها ستة أنواع فى أزمان مختلفة . وفى هذا العصر كانت بعض الغابات المتحجرة وهى الأماكن التى تظهر على سطحها هذه الطبقات الرملية التى تحتوى على بقايا الخشب المتحجرة . و بتأثير عوامل التعرية فيها تكتسح الرمال وتبقى الأشجار المتحجرة ملقاة على السطح . ومن أمثلتها « الغابة » المشهورة الواقعة على بضعة كيلومترات شرقى العباسية حيث ترى كثيرا من سيقان الأشجار يبلغ طول بعضها عشرين مترا . وهى محتفظة بدقيق تركيب أليافها حتى إنها لتشبه الخشب فى شكلها الخارجى إلا أنها مركبة من مادة سيليسية بدلا من مادتها الخشبية الأصلية . وقد استبدلت بالمادة الأصلية مادة السيليس ذرة لذرة فى مياه معدنية سيليسية كانت قد تفجرت من عيون فى نهاية ذلك العصر (أنظر الشكل رقم (ا) والصورة الفوتوغرافية رقم (ب) باللوحة الرابعة) (انظر شكل ١٩ وشكل ٢٠)

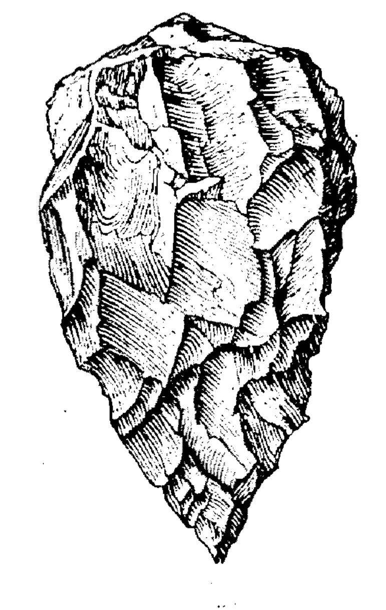
(اللوحة الرابعة)

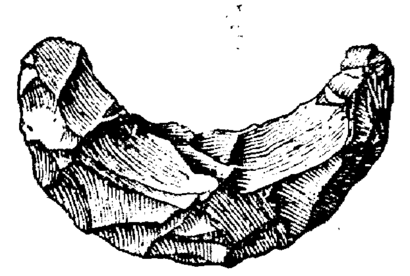


(شكل ١٩) (ا) قطعة من الخشب المتحجر



(شكل ٢٠) (ب) منظر الغابة المتحجرة قرب القاهرة





(شكل ٢١)
آلات من الصوان من العصر الحجرى القديم بالفيوم

اذا عرفت ما تقدم فلننفض الكلام على العصر الحجرى وهو العصر الذى كان الانسان يستعمل فيه الأحجار الصلبة ليصنع منها آلاته المختلفة . ولقد كانت هذه الآلات فى أول الأمر مهذبة تهذيبا بسيطا لا تدل على مهارة خاصة ثم تدرجت الى أرقى فأرقى حتى بلغت فى النصف الأخير من هذا العصر درجة كبيرة من الاتقان . ولذلك قسم العصر الحجرى الى قسمين

(١) - ﴿ العصر الحجرى القديم ﴾

وكانت فيه الآلات الحجرية بسيطة الشكل غير مصقولة ومن أمثلتها المجموعة التى ترى فى الشكل رقم ٢١

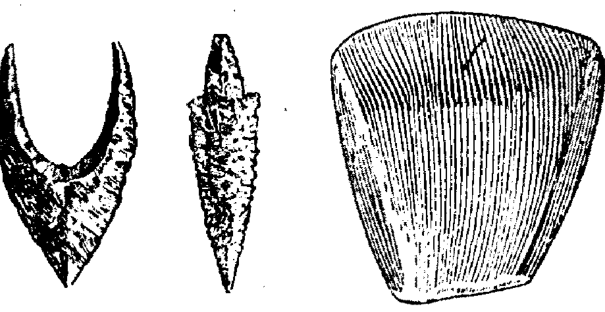
ومن الحالات التى توجد فيها هذه الآلات يتضح أن الانسان كان فى أول الأمر هائما على وجهه متنقلا فى السهول والوديان باحثا عن صيد أو هاربا من حيوان مفترس . و بعد ذلك لجأ الى سكنى الكهوف والمغارات حيث ترك وراءه فيها هيا كله العظمية و بعض آثاره من آلات حجرية

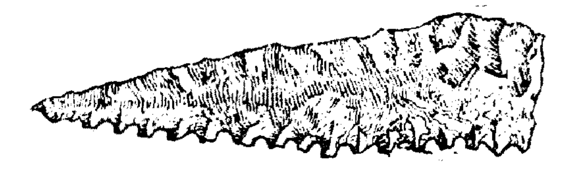
ولقد بلغ بعض ساكنى هذه الكهوف مبلغا عظيما من الفن فتركوا على حيطانها رسوما متقنة تمثل ما كان يعاصرهم من أنواع الحيوانات البائدة كالماموث و بعض أنواع الغزال

ومن آثار هذه الكهوف يظهر أن الانسان كان فى تلك العصور النائية قد فقه فائدة النار فى طهى الطعام والتدفئة . كذلك كان قد بدأ يستفيد مما عاصره من حيوانات فكان يصنع من أنياب الفيلة ومن قرون الغزلان سكاكين ورءوسا للرماح الى غير ذلك من آلات بسيطة الصنع

(٢) - ﴿ الفصل الثامن . فى العصر الحجرى الحديث ومعه عصر البرنز ﴾

تمتاز آلات الانسان فى ذلك العهد بصقلها ورقتها ودقة صنعها واختلاف أشكالها . فكان منها رءوس الرماح والسهام والبلط (انظر شكل ٢٢)





(شكل ٢٢ - مجموعة من الآلات من حجر الصوان تابعة للعصر الحجرى الحديث)

ذلك

ذلك لأنه كان قد تقدم درجات محسوسة فى سلم المدنية فزادت احتياجاته والحاجة كما نعلم هى أم الاختراع .

ومن الرسوم التى تركها على جوانب الكهوف وعلى أيدى السكاكين يظهر أنه كان قد نجح فى إخضاع بعض الحيوانات الوحشية فصارت أليفة تساعده على كفاحه فى الحياة . فكان له منها الثور والحصان والحمار والكلب والقط . كذلك كان قد تعلم فنون الزراعة فزرع القمح والشعير لطعامه وزرع التيل ليصنع منه ملابس يتقى بها عوادى الطبيعة ويستعملها فى الزينة . كذلك كان قد علم شيئا عن صناعة الفخار فصنع لنفسه منه أوانى بسيطة

وقد هجر الكهوف فى آخر الأمر الى بناء مساكن يأوى اليها فى أواسط بعض البحيرات ليأمن فيها من اعتداء الوحوش الضارية وقد بقيت آثار بعض هذه المساكن فى بحيرات بسويسرا وغيرها من البلاد

ويظهر أنه كانت له وقت ذاك معتقدات دينية فقد ترك وراءه هياكل أو معابد مكونة من جلاميد صخرية ضخمة لابد أنها تطلبت منه مجهودا عظيما فى اقامتها

﴿ عصر البرنز ﴾

هذا العصر يتفق فى أغلب البلاد مع ابتداء العصر الجيولوجى الحديث اى عقب انتهاء عصر البليستوسين فكان فاتحة العصور التاريخية المعروفة

ومن الغريب أن ينتقل الانسان من صناعة آلاته من الصوّان فجأة الى البرنز الذى هو خليط من معدنين وقد يكون ذلك من باب المصادفة

وقد شذ سكان وادى النيل القدماء عن هذه القاعدة العامة فى التدرج فلم يمرّوا فى عصر البرنز بل انتقلوا من العصر الحجرى الحديث الى استعمال النحاس الذى كانت لهم فيه طريقة خاصة تجعله شديد الصلابة

أما عصور الانسان الحجرية فى القطر المصرى فتوجد آثارها من آلات من الصوّان فى رواسب الرمل والحصى على جانبى وادى النيل وفى الوديان بالصحارى . وقد جمعت أحسن أمثلتها من طبقات الرمال والحصى بالعباسية فكان من بينها أنواع تمثل جميع درجات العصر الحجرى القديم من ابتدائه الى انتهائه . كذلك وجدت آثار العصر الحجرى الحديث فى بعض بقاع متفرقة فى وادى النيل نفسه وعلى مقربة من بحيرة قارون

ويستنبط من هذا أن الانسان فى العصر الحجرى القديم كان منتشرا فى وادى النيل والصحارى وقد يكون ذلك لملاءمة الأحوال الجوية لتنقله فى هذه المناطق . على أنه فى العصر الحجرى الحديث قد لجأ الى أماكن معينة بوادى النيل واتخذ عيشة أكثر سكونا من الأولى . والى هنا تم الكلام على باب العلم وفصوله الثمانية والحمد لله رب العالمين

باب العمل

ولأذكر هنا نبذة من علم الجيولوجيا خاصة بالقطر المصرى الذى هو بعض البلاد الاسلامية وهاك نصها

﴿ نبذة عن تاريخ التعدين بالقطر المصرى ﴾

يرجع أوّل اهتمام بالتعدين فى مصر إلى العصور التاريخية القديمة . فقد كان قدماء المصريين يهتمون به اهتماما عظيما يظهر أثره فيما فتحوه من مناجم للذهب والنحاس وبعض الأحجار الكريمة . وقد كان لما استنبطوه من المعادن بعض الفضل فى المركز الممتاز الذى تبوّءوه بين باقى الأمم . وقد ظهر من مسطوراتهم على البردى وعلى جدران بعض المعابد أنهم كانوا يبعثون الى الصحراء بعوثا مجهزة برجال الفن المعدنيين تحرسهم فصائل من الجند لتصدّ عنهم عادية أهل البدو المعادين

واستمر هذا الاهتمام بأمور التعدين طول عصر قدماء المصريين حتى عهد الرومان . ثم تولاها كما تولى باقى مرافق الدولة خمول تام لم تفق منه إلا فى عصور متقطعة إبان الحكم العربى الاسلامى

فلما أن تبوأ عرش مصر ساكن الجنان محمد على باشا منشىء الأسرة العلوية الكريمة فقه بثاقب بصره أن المعادن هى أساس الصناعات جميعا ، فوجه عناية خاصة للبحث عنها وندب من علماء الأوروبين من جابوا الصحارى المصرية باحثين منقبين . على أن المنية عاجلته قبل أن تثمر جهوده الثمرة التى كان يرجوها

ولم يضع مجهوده سدى . فاتجهت الأنظار بعد ذلك إلى مسائل التعدين فى مصر ومابدأ القرن الأخير حتى كانت جهود قيمة تبذل فى سبيل البحث عن المعادن بالصحارى المصرية . فأعيد فتح مناجم الذهب القديمة واستمر استغلال بعضها سنين عديدة ، وكشفت موارد الفوسفات والبترول والمنجنيز و بلغ استغلال بعضها شأنا لايستهان به . وسنقتصر هنا الكلام عن أهم المعادن على حسب ترتيب أهميتها

﴿ زيت البترول ﴾

أوّل مادلّ على وجود البترول بالأراضى المصرية ما كان ينزّ منه منذ القدم على سطح الماء عند سفح جبل الزيت على شاطىء خليج السويس . وكان هذا النز سببا فى تسمية الجبل بهذا الاسم

ثم كشف بعد ذلك عام ١٨٨٥ بمنطقة الدمشة (جسا) فى مغارات كانت قد فتحت قرب الشاطىء لاستخراج معدن الكبريت . فأدّى ذلك الى البدء فى عمليات البحث التى لم تثمر قبل عام ١٩١٠ . ومن ذلك الوقت بدأ استغلال منطقة جسا كحقل بترولى واستمر استغلالها حتى عام ١٩٢٧ حيث نضب أغلب آبارها فأهملتها الشركة التى كانت تستغلها (أنظر صورة أحد آبار جسا رقم ب باللوحة الخامسة فى الصفحة التالية)

وفى عام ١٩١٤ كشف الشركة نفسها منطقة الغردقة التى تبعد ٦٠ كيلو مترا جنوب جسا ، وقد تقدمت الغردقة تدريجا حتى بلغت الآن درجة كبيرة من الأنتاج وأصبحت المورد الأكبر لزيت البترول ومستخرجاته بالقطر المصرى (الصورة (ا) باللوحة الخامسة فى الصفحة التالية) . وسنورد بعض الأرقام للدلالة على أهمية كل من هذين المكانين

﴿ جسا ﴾

بلغ مجموع آبارها	٣٤ بئرا
عدد الآبار المنتجة	١٠ آبار فقط
متوسط عمقها	٤٠٠ متر

ومجموع ماأنتجته من البترول من وقت ابتدائها حتى أغلقت ١٨٢٤٨٨ طنا وكان البترول الذى أنتجته آبار جسا من نوع جيد غنى بالمواد الخفيفة كما يستدل من الأرقام الآتية

ثقله النوعى	٨٢٧ ر ٠
نسبة البنزين	٢٨ فى المائة
نسبة الكيروسين	٣٢ فى المائة
نسبة المازوت	٤٠ فى المائة

﴿ الغردقة ﴾

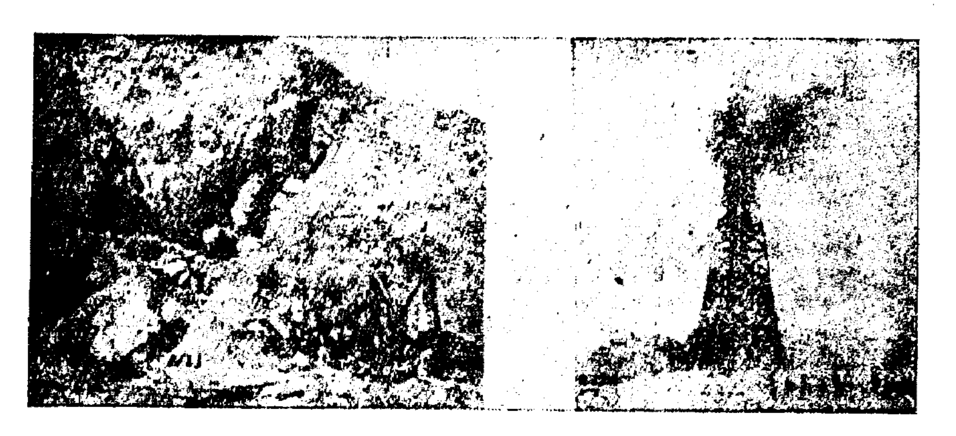
بلغ مجموع آبارها	٨٢ بئرا
عدد الآبار المنتجة	٦٩ بئرا
متوسط عمقها	٦٠٠ متر
مجموع ما أنتجته حتى نهاية عام ١٩٢٨	٩٥٥ ر ٢٨٦ ر ٢ طنا

اما

﴿ اللوحة الخامسة ﴾



(شكل – ٢٣ (ا) منظر لجزء من حقول البترول بالغردقة)



(شكل ٢٤)
(ب) بئر في أول إنتاجه يتدفق البترول من فوهته بقوة عظيمة – جمسا

(شكل ٢٥)
(ج) أحد عروق المرو الحاملة للذهب بمنا جم سمنا بالصحراء الشرقية



(شكل ٢٦) (ا) – منظر عام لمناجم الفوسفات قرب سفاجه بالصحراء الشرقية



(شكل ٢٧)

(ب) ـ منظر منطقة مناجم المنجنيز بشبه جزيرة سينا

أما نوع البترول الذى تنتجه الآبار فهو أقل جودة من نوع بترول جسا كما يستدل من الموازنة بين الأرقام الآتية والأرقام التى أوردناها

الثقل النوعى لبترول الغردقة	٩٢٠ ر.
نسبة البنزين	٨ فى المائة
نسبة الكيروسين	١٥ فى المائة
نسبة المازوت	٥٧ فى المائة
نسبة الأسفلت	١١ فى المائة
نسبة البارافين (الجمع)	٧ فى المائة
نسبة الكبريت	٢ فى المائة

وتخرج هذه الزيوت مختلطة بمياه مالحة تحتاج لفصلها عنها الى عمليات خاصة كما أنه تنبعث من الآبار غازات كثيرة يقطر منها الجازولين وهو نوع من البنزين الخفيف . انتهى من كتاب الجيولوجيا للدكتور حسن صادق وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين



﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى ـ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا ـ وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقا لقوله تعالى ـ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ الخ ولقوله تعالى أيضا ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ الخ وهذه معجزة ثالثة)

اعلم أيها الذكى أن فى وصف القرآن بأنه عربى ﴿ مبحثين ☆ المبحث الأول ﴾ لغوى ﴿ المبحث الثانى ﴾ علمى وسياسى

﴿ المبحث الأول وهو اللغوى ﴾

جاء فى كتاب « الاتقان . لعلوم القرآن » فى الجزء الأول صفحة ١٢٧ ما نصه :

« وأقوى ما رأيته لنزول غير العربى فى القرآن وهو اختيارى ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبى ميسرة التابعى الجليل . قال : « القرآن من كل لسان » . وقال قبل ذلك : وأجابوا عن قوله تعالى ـ قرآنا عربيا ـ بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربيا ، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها غير عربية . ثم قال . وروى مثله (أى مثل ما قاله أبو ميسرة) عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه . فهذه اشارة الى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ فى القرآن انه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شىء ، فلا بد أن تقع فيه الاشارة الى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شىء فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب . ثم رأيت ابن النقيب صرّح بذلك فقال : « من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة انها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت اليهم لم ينزل فيها شىء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه لغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شىء كثير » اهـ

وأيضا فالنبى ﷺ مرسل الى كل أمة ، وقد قال تعالى ـ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ـ فلابد أن يكون فى الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وان كان أصله بلغة قومه هو اهـ

وها أنا ذا ملخص لك ما جاء فى ذلك الكتاب مما ورد من لغات قبائل العرب المختلفة ، ثم أتبعه بما جاء فيه من لغات الأمم المختلفة ليكون ذلك ذكرى لأولى الألباب

ولقد اخترت أن يكون على هيئة جدول لطيف بحيث تكتب الكلمة وأمامها معناها وأمامهما فى صفهما اسم القبيلة ليكون ذلك أحسن وضعا وأتمّ صنعا وأقرب فهما وها هى ذه فى الصفحات التالية



الكلمة	معناها	القبيلة
مسطورا	مكتوبا	حمير
السفهاء	الجهال	كنانة
خاشئين	صاغرين	»
شطره	تلقاءه	»
لاخلاق	لانصيب	»
وجعلكم ملوكا	أحرارا	»
قبيلا	عيانا	»
معجزين	سابقين	»
يعزب	يغيب	»
تركنوا	تميلوا	»
لجوة	ناحية	»
موئلا	ملجأ	»
مبلسون	آيسون	»
دحورا	طردا	»
الخراصون	الكذابون	»
أسفارا	كتبا	»
كنود	كفور للنعم	هذيل
الرجز	العذاب	»
شروا	باعوا	»
عزموا الطلاق	حققوا	»
صلدا	نقيا	»
آناء الليل	ساعاته	»
فورهم	وجههم	»
مدرارا	متتابعا	»
فرقانا	مخرجا	»
حرض	حض	»
عيلة	فاقة	»
وليجة	بطانة	»
انفروا	اغزوا	»
السائحون	الصائمون	»
العنت	الاثم	»
ببدنك	بدرعك	»
غمة	شبهة	»
دلوك الشمس	زوالها	»
شاكلته	ناحيته	هذيل
رجما	ظنا	»
ملتحدا	ملجأ	»
يرجو	يخاف	»
هضما	نقصا	»
هامدة	مغبرة	»
واقصد في مشيك	أسرع	»
الأجداث	القبور	»
ثاقب	مضيء	»
بالهم	حالهم	»
يهجعون	ينامون	»
ذنوبا	عذابا	»
دسر	المسامير	»
تفاوت	عيب	»
أرجائها	نواحيها	»
أطوارا	ألوانا	»
بردا	نوما خفيفا	»
واجفة	خائفة	»
مسغبة	مجاعة	»
المبذر	المسرف	»
تفشلا	تجبنا	حمير
عثر	اطلع	»
سفاهة	جنون	»
زيلنا	ميزنا	»
مرجوا	حقيرا	»
السقاية	الاناء	»
مسنون	منتن	»
إمام	كتاب	»
ينغضون	يحركون	»
حسبانا	بردا	»
من الكبر عتيا	نحولا	»
خرجا	جعلا	»
غراما	بلاء	»
الصرح	البيت	»

الكلمة	معناها	القبيلة
أنكر الأصوات	أقبحها	حمير
يترکم	ينقصكم	»
مدينين	محاسبين	»
رابية	شديدة	»
وبيلا	شديدا	»
بجبار	بمسلط	جرهم
القطر	النحاس	»
محشورة	مجموعة	»
معكوفا	محبوسا	»
مرض	زنا	»
فباءوا	استوجبوا	»
شقاق	ضلال	»
خيرا	مالا	»
كدأب	كأشباه	»
تعولوا	تميلوا	»
يغنوا	يتمتعوا	»
شرّد	نكل	»
أراذلنا	سفلتنا	»
عصيب	شديد	»
لفيفا	جميعا	»
محسورا	منقطعا	»
حدب	جانب	»
الخلال	السحاب	»
الودق	المطر	»
شرذمة	عصابة	»
ريع	طريق	»
ينسلون	يخرجون	»
شوبا	مزجا	»
الحبك	الطرائق	»
سور	الحائط	»
لاشية	لاوضح	أزدشنوءة
العضل	الحبس	»
أمة	سنين	»
الرس	البئر	»

الكلمة	معناها	القبيلة
كاظمين	مكروبين	ازدشنوءة
غسلين	الحارّ الذي تناهى حرّه	»
اوّاحة	حرّاقة	»
رفث	جماع	مذحج
مقيتا	مقتدرا	»
بظاهر من القول	بكذب	»
الوصيد	الفناء	»
حقبا	دهرا	»
الخرطوم	الأنف	»
تسيمون	ترعون	»
مريج	منتشر	خثعم
عفت	مالت	»
هلوعا	ضجورا	»
شططا	كذبا	»
نحلة	فريضة	قيس عيلان
حرج	ضيق	»
لخاسرون	مضيعون	»
تفندون	تستهزئون	»
صياصيهم	حصونهم	»
تحبرون	تنعمون	»
رجيم	ملعون	»
يلتكم	ينقصكم	»
حفدة	أختانا	سعد العشيرة
كل	عيال	»
لجاجا	طرقا	كندة
بست	فتت	»
تبتئس	تحزن	»
اخسئوا	اخزوا	عذرة
ربيون	رجال	حضرموت
دمرنا	أهلكنا	»
لغوب	إعياء	»
منسأته	عصاه	»
طفقا	عمدا	غسان

الكلمة	معناها	القبيلة
بئيس	شديد	غسان
سيء بهم	كرههم	»
لاتغلوا	لاتزيدوا	مزينة
إملاق	جوع	لخم
ولتعلن	ولتقهرن	»
فجاسوا خلال الديار	تخللوا الأزقة	»
العقود	العهود	بني حنيفة
الجناح	اليد	»
الرهب	الفزع	»
حصرت	ضاقت	اليمامة
تميلوا ميلا عظيما	تخطئون خطأ بينا	سبأ
تبرنا	أهلكنا	»
نكص	رجع	سليم
الصاعقة	الموت	عمان
ينعق	يصيح	طيء
رغدا	خصبا	»
سفه نفسه	خسرها	»
يس	يا انسان	»
أفيضوا	انفروا	خزاعة
الافضاء	الجماع	»
خبالا	غيا	عمان
نفقا	سربا	عمان
حيث أصاب	أراد	عمان
بعد أمة	نسيان	تميم
بغيا	حسدا	»
طائره	عمله	أنمار
أغطش	أظلم	»
لأحتنكن	لأستأصلن	الأشعريون
تارة	مرة	»
اشمأزت	مالت ونفرت	»
لينة	نخلة	الأوس
ينفضوا	يذهبوا	الخزرج
فافرق	فاقض	مدين

وجاء فى صحيفة ١٣٦ من الجزء الأول من كتاب الاتقان المذكور أيضا مانصه :

وقال أبو بكر الواسطى فى كتابه الارشاد فى القراءات العشر : فى القرآن من اللغات خمسون لغة ، منها لغة قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس عيلان وجرهم واليمن وأزدشنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان و بنو حنيفة وثعلب وطيء وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام و بلى وعذرة وهوازن والنمر واليمامة

وفيه من غير العربية الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريانية والعبرانية والقبط ، ثم ذكر فى أمثلة ذلك غالب ماتقدم عن أبى القاسم وزاد الرجز العذاب بلغة بلى طائف من الشيطان نخسة بلغة ثقيف الأحقاف الرمال بلغة ثعلب . وقال ابن الجوزى فى فنون الأفنان فى القرآن بلغة همدان الريحان الرزق والعيناء البيضاء والعبقرى الطنافس ، و بلغة عامر بن صعصعة الحفدة الخدم ، و بلغة ثقيف العول الميل ، و بلغة عك الصور القرن . وقال ابن عبد البر فى التمهيد : قول من قال نزل بلغة قريش معناه عندى الأغلب . انتهى

ثم ذكر فى صحيفة ١٣٨ ومابعدها الألفاظ الواردة من كلام غير العرب مرتبة على حروف المعجم وهذا نصها

الكلمة	معناها	الأمة
أباريق	طريق الماء أو صب الماء على هينة	فارسية
أبا	الحشيش	عربية
ابلعى	ازدرديه	حبشية
أسباط	قبائل	لغة بنى يعقوب وهى العبرية
إستبرق	الديباج الغليظ	العجم
أسفارا	الكتب	السريانية والنبطية
اصرى	عهدى	النبطية
أكواب	أكواز	»

الكلمة	معناها	الأمة
أليم	موجع	زنجية أو عبرانية
إناه	نضجه	أهل المغرب (البربر)
أوّاه	موقن أو الرحيم	الحبشية
أوّاب	مسبح	الحبشية
الجاهلية الأولى	الآخرة	القبطية (فعندهم الأولى آخرة وبالعكس)
بطائنها	ظواهرها	قبطية
كيل بعير	كيل حمار	عبرية
بيع	الكنائس	فارسيتان معربتان
تنور		هو فارسي معرب
تتبيرا		هي بالنبطية
من تحتها	من بطنها	النبطية
الجبت	الشيطان أو الساحر	الحبشية
جهنم	أصلها كهنام	فارسية أو عبرانية
حرم	الحبشية	وجب
حصب جهنم	حطب جهنم	الزنجية
وقولوا حطة	وقولوا صوابا	العبرية
الحواريون	الغسالون أصله حواري	النبطية
حوبا	إثما	الحبشية
دينار		هو فارسي
راعنا		بلسان اليهود
ربانيون		هي عبرانية أو سريانية
ربيون		سريانية
الرحمن		عبرانية أصله رخمن
الرّس	البئر	أعجمي
الرقيم	اللوح	الرومية
رمزا	تحريك الشفتين	العبرية
رهوا	سهلا دمثا	النبطية
رهوا	ساكنا	السريانية
الروم	فهذا الجيل من الناس	
زنجبيل	هو فارسي	
السجل	الرجل	الحبشة
«	الكتاب	فارسي معرّب
سجيل	أوّلها حجارة وآخرها طين	القارسية
سجين	هو غير عربي	
سرادق	الدهليز أو الدار	الفارسية
سريا	نهرا	السريانية
سفرة	القراء	النبطية
سقر		هي أعجمية
سجدا	مقنعي الرءوس	الفارسية
سكرا	الخل	الحبشية
سلسبيل		هو أعجمي
سندس	الديباج	الفارسية والهندية
سيدها	زوجها	القبطية
سينين	الحسن	الحبشية
سيناء	«	النبطية
شطر	تلقاء	الحبشية
شهر		هي كلمة سريانية
الصراط	الطريق	الروم
صرهن	شققهن	النبطية
صلوات	كنائس اليهود وأصله (صلوتا)	العبرانية
طه	هو كقولك يا محمد	الحبشية
طه	يارجل	النبطية
طه	يارجل	الحبشية أيضا
الطاغوت	الكاهن	الحبشية
طفقا	قصدا	الرومية
طوبى	الجنة	الحبشية والهندية
طور	الجبل	السريانية
طوى	ليلا معرب أو هو رجل	بالعبرية
عبدت	قتلت	النبطية
جنات عدن	جنات الكروم والأعناب	السريانية

الكلمة	معناها	القبيلة
العرم	المسناة التى تجمع الماء	الحبشية
غساق	البارد المنتن	التركية
غيض	نقص	الحبشية
فردوس	بستان	الرومية
»	فرداسا	النبطية
فوم	حنطة	العبرية
قراطيس	معروف	غير عربى
القسطاس	العدل	الرومية
القسورة	الأسد	الحبشية
قطنا (بتشديد الطاء)	كتابنا	النبطيــة أو الفارسية معرّبة
قنطار	١٢ ألف أوقية	رومية وسريانية وبربرية
القيوم	هو الذى لا ينام	السريانية
كافور	معروف	معرّب
كفر عنا	امح عنا	النبطية

الكلمة	معناها	القبيلة
كفلين	ضعفين	الحبشية
كوّرت	غورت	الفارسية
مقاليد	مفاتيح	الفارسية
مرقوم	مكتوب	العبرية
مزجاة	قليلة	العجم أو القبط
ملكوت	ملك	النبطية (ملكوتا)
مناص	فرار	القبطية
مهل	عكر الزيت	أهل المغرب
ناشئة الليل	قيام الليل	الحبشية
ن	اصنع ماشئت وأصله (انون)	الفارسية
هدنا	تبنا	العبرانية
هودا	اليهود	الأعجمية
هونا	حكماء	السريانية
وزر	الجبل والملجأ	النبطية
يحور	يرجع	الحبشية
يصهر	ينضج	البربرية

قال المؤلف : هــذا ماوقفت عليه من الألفاظ المعرّبة فى القرآن بعد الفحص الشديد سنين ولم تجتمع قبل فى كتاب قبل هذا . وقد نظم القاضى تاج الدين بن السبكى منها سبعة وعشرين لفظا فى أبيات ، وذيل عليها الحافظ أبو الفضــل ابن حجر بأبيات فيها أربعــة وعشرون لفظا وذيلت عليهما بالباقى وهو بضع وستون فتمت أكثر من مائة لفظة . فقال ابن السبكى :

السلسبيل وطه كوّرت بيع ✲ روم وطوبى وسجيل وكافور
والزنجبيل ومشكاة سرادق مع ✲ استبرق صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيهم وغسا ✲ ق ثم دينار القسطاس مشهور
كذاك قسورة وأليم ناشئة ✲ ويؤت كفلين مذكور ومسطور
له مقاليد فردوس يعدّ كذا ✲ فيما حكى ابن دريد منه تنور

وقال ابن حجر

وزدت حرم ومهل والسجل كذا السرى والأب ثم الجبت مذكور
وقطــنا وإناه ثم متكئا ✲ دارست يصهر منه فهو مصهور
وهيت والسكر والأوّاه مع حصب ✲ وأوّبى معه والطاغوت مسطور
صرهنّ اصرى وغيض الماء مع وزر ✲ ثم الرقيم مناص والسنا النور

وقلت أيضا :

وزدت يس والرحمن مع ملكو ✲ ت ثم سينين شطر البيت مشــهور

ثم

ثم الصراط ودرىء يحور ومر ✿ جان أليم مع القنطار مذكور
وراعنا طفقا اهدنا ابلعى ووراء ✿ والأرائك والأكواب مأثور
هود وقسط وكفر زمرة سقر ✿ هون يصدّون والمنساة مسطور
شهر مجوس واقفال يهود حوا ✿ ربون كنز وسجين وتتبير
بعير أزر وحوب وردة عرم ✿ أل ومن تحتها عبدت والصور
ولينة فومها رهو واخلد مز ✿ جاة وسيدها القيوم موفور
وقل ثم اسفار عنى كتبا ✿ وسجدا ثم ربيون تكثير
وحطة وطوى والرّس نون كذا ✿ عدن ومنفطر الأسباط مذكور
مسك أباريق ياقوت رووا فهنا ✿ مافات من عدد الألفاظ محصور
وبعضهم عد الأولى مع بطائنها ✿ والآخرة لمعانى الضد مقصور

هذا ما أردته من كتاب « الاتقان فى علوم القرآن » وبهذا تمّ الكلام على المبحث الأوّل فى اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

﴿ المبحث الثانى ﴾

فى اللطيفة الثانية وهو العلمى والسياسى فى قوله تعالى ـ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ـ

وصف الله القرآن بأنه عربىّ ، ولاجرم أن هذا الوصف لايحتاج فى حدّ ذاته الى بيان أوتصريح لأن النبىّ ﷺ عربىّ والسامعون له عرب ، فهومعروف بداهة ، إذن ذكرهذا الوصف قد جىء به لغرض سام وحكمة تظهر للأمم جيلا بعد جيل . ولقد ظهرت بعض آثارذلك فى أيامنا هذه . ياسبحان الله : إنّ للغات لآثارا عجيبة فى أحوال الأمم وتطوّرها وترقيها من حال الى حال

(١) فلأذكرلك أوّلا اللغة اللاتينية ، وكيف كان لها السيادة فى القرون الأولى بالدول الغربية ، ثم تلتها لغات أخرى وحلت محلها كما يقوم الابن مقام أبيه ويرث مايملكه

(٢) ثم أتبع ذلك بذكردولة حورابى وهى الدولة البابلية الأولى من سنة ٢٤٦٠ ق.م الى سنة ٢٠٨١ ق.م وكيف اقتبست القلم السمارى القديم على عهد السومريين الذى كان شكله أشبه بشكل الكتابة الهيروغليفية (المصرية القديمة) وكيف استخدموا اللغة السومرية فى المكاتبات ، ثم تركوا اللغة وأبقوا الخط ، ثم تغيرت هيئة الخط

(٣) ثم أقفى بذكر اللغة العربية قبيل الاسلام ، وكيف كان خطها النبطى والفرق بين ذلك الخط والخط المسمارى وبينهما نحو ثلاثة آلاف سنة

(٤) ثم أتبع ذلك بالنسبة بين هذا الخط النبطى واللغة العربية إذ ذاك فى القرن الرابع بعد الميلاد وبين ماحدث من التغيير فيهما أيام البعثة المحمدية

(٥) ثم أذكر بعد ذلك كيف نسخت اللغة العربية لغات الأمم التى حلت بها فى مصر والشام والعراق

(٦) ثم أتبع ذلك بما هو المقصود فى تفسير هذه الآية من هذا الموضوع كله ، وهوأن للغة العربية سحرا حلالا وبفضل القرآن دامت قرونا ، أى نيفا و١٣ قرنا ولغة القرآن لم تتغير استبقاء لوصف القرآن بالعربية ، حتى ان هذه اللغة كلما حاولت الدهور والقرون تغييرها على ألسنة العامة على مقتضى قانون التطوّر العام ، أبت أن تفارق اللغة الفصحى واجتذبت أهل الأقطار العربية والعجمية المسلمة الى تلك اللغة فأصبحت كهرباء تصل مابين أمم وأمم فى عصرنا الحاضر ، وهل أعجب من أن ترى الصورة الشمسية لسورة الفاتحة وقل

هوالله أحد مكتوبتين باللغة الصينية فى نفس بلاد الصين واللغة العربية بالخط العربى مصداقا لقوله تعالى هنا ـ قرآنا عربيا ـ ولقوله تعالى أيضا ـ إنا نحن نزّلنا الذكر وانا له لحافظون ـ

فههنا إذن ﴿ ستة فصول ﴾ ﴿ الفصل الأول ﴾ فى مقدمة هذا المقام بذكر اللغة اللاتينية وكيف محيت مع انها كانت لغة الدين والسياسة ﴿ الفصل الثانى ﴾ فى عرب الجاهلية الأولى وهى دولة حورانى فيما بين النهرين ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى اللغة العربية قبيل الاسلام وكيف كان خطها النبطى ﴿ الفصل الرابع ﴾ فى النسبة بين هـذا الخط النبطى و بين الخط واللغة العربية أيام البعثة المحمدية ﴿ الفصل الخامس ﴾ فى أن اللغة العربية نسخت لغات الأمم المصرية والسورية والعراقية ﴿ الفصل السادس ﴾ فى المقصود من هذا كله فى تفسير هذه الآية وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة الى الآن فى بلاد العرب وأوروبا والصين من أكبر المعجزات

(الفصل الأول)

(فى مقدمة هذا المقام بذكر اللغة اللاتينية وماطرأ عليها تمهيدا لما سنذكر من اللغة العربية وماطرأ عليها تبيينا لمعجزات القرآن)

اعلم أن الدولة الرومانية كانت صاحبة السلطان فى جنوبى وغربى أوروبا فكانت حضارتها ولغتها ودينها وعاداتها وقوانينها ساريات فى تلك الأمم

ومن عادات الله فى الأمم أنها اذا استفحلت وكمل عمرانها وعظم شأنها أخذت ترجع القهقرى كما يكون ذلك فى الانسان والحيوان والنبات ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس ـ . وقيـل « مصائب قوم عند قوم فوائد » فكان الرومان كلما ازدادوا فى ترفهم اقتربت منهم الأمم المتوحشة حولهم وهم سكان سواحل البلطيق وأودية الطونه والرين الذين كانوا فى شمال وشرق الدولة . ومازال أولئك المتوحشون يتربصون بتلك الدولة الدوائر ويشنون الغارات تلو الغارات الى أن كانت سنة ٤٧٦ ميلادية إذ تمكن ادوكر (وهو قائد من قواد القبائل الألمانية الذين يوصفون بالمتوحشين) من إزالة سلطان (رميولوس) آخر أمبراطور للدولة الرومانيـة الغربية وجعل نفسه حاكما لرومه . وهذه الدولة الغربية غير الدولة الشرقية التى كانت عاصمتها القسطنطينية ثم احتلها الترك بعد قرون . فلما زالت المملكة الرومانية الغربية انتشرت الفوضى والهرج والمرج والفساد لأن هؤلاء قوم لاقوانين لهم ولا نظام ، فأهملت الطرق وجهلت التجارة والصناعة والزراعة ، وهنالك أصبح الناس هناك جماعات كل جماعة لهم رئيس يجمعهم ليصدّوا عنهم جيرانهم ، وأصبح هناك نظام معروف باسم (نظام الاقطاع) وهو المعهود فى تاريخ العصور الوسطى

ومثل الألمان فى الاغارة على تلك الدولة أهل فرنسا وقد عظم شأنها حينا من الدهر أيام شرلمان سنة ٧٦٨ الى سنة ٨١٤ وسميت إذ ذاك بالدولة الرومانية . والذى يهمنا فى هذا المقام هو اللغة اللاتينية التى هى لغة الكتابة بين العلماء ثم انحصرت بين رجال الكنيسة ، وذلك أن هناك لهجات أخرى مؤسسة على اللاتينية فى ايطاليا وفرنسا واسبانيا ولهجات أخرى مناسبة لها فى شمالى أوروبا ترجع الى الأصل التيوتونى . وفى آخر العصور الوسطى قد ابتدأ أولئك الأقوام يتغنون بلغاتهم وان لم تكن مكتوبة ، تغنى قوم من فرنسا باللغة الفرنسية الشمالية ، وجماعة من ألمانيا بالألمانية ، وظهر (دانتى) فألف كتابه المسمى « الكوميديا الالهية » باللغة الطليانية . وكتب شوسر الانجليزى حكايات كنتربرى باللغة الانجليزية السكسونية القديمة . وظهرت فى اسبانيا أنشودة السيد باللغة الاسبانية ، فهنالك تكوّنت أصول اللغات الاوروبية الجديدة ، وظهر أثر ذلك فى ترقية معارف تلك الشعوب ، ذلك لأن أكثرهم يجهلون اللغة اللاتينية التى كانت وحدها لغة العلم ، فلما

ألفت الكتب باللغات التي يعرفونها اتسعت مداركهم واستنارت عقولهم ، وساعد على ذلك أمران : الأمر الأول الحروب الصليبية التي بها اختلط القوم بالمسلمين وحلوا كتبهم وعلومهم ، فلما رجعوا غيروا أساليب حياتهم وعرفوا الحقائق وتعلموا الصناعات الكثيرة ، وهذا التفسير قد تقدم فيه هذا موضحا فى سور كثيرة . الأمر الثانى سقوط الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٤٥٧ باستيلاء الدولة العثمانية عليها ، فلقد كانت تلك العاصمة حافلة بالعلماء ، فلما أحسوا بدنو العثمانيين رحلوا منها ومعهم الكتب الاغريقية العظيمة فى الفنون المختلفة التى كانت تجهلها أوروبا ودخلوا المدن الايطالية فصار هؤلاء أساتذة فى مدارسهم وجامعاتهم ، وهذه أهم الأسباب فى نهضة ايطاليا ومنها انتشرت فى أنحاء أوروبا ، وهناك سبب ثالث لاينقص عنهما أهمية وهو أن الأندلس كان سقوطها فى نفس ذلك القرن ، وأنت أيها الذكى ربما قرأت فى مواضع كثيرة من هذا التفسير أن ابن رشد لما نفى تفرق تلاميذه اليهود فى أوروبا ورحبت بهم ألمانيا وترجموا كتبه باللاتينية والعبرية وغيرها ، وأيضا قد كان بعض باباوات رومه كما تقدم قد تعلم فى الأندلس ، و بعض علماء الانجليز قبل ذلك التاريخ تعلموا العلوم الرياضية وترجموا كتبا من بلاد الأندلس ومصر

يالعجب : إذن هذا القرآن الموصوف بأنه بلسان عربى هو السبب الحقيقى فى نهضة أوروبا الحديثة . ذلك لأن الأندلسيين المسلمين هم بدؤه والحروب الصليبية ثم الترك المسلمون التابعون لهذا الدين الذى نزل باللغة العربية هم ثالثة الأثافى . إذن أول النهضة الاوروبية وآخرها هو القرآن العربى وهذا من أسرار وصف القرآن بأنه عربى وقد ثبت بهذه اللغة ولم يتغير تبعا للتغير المستمر فى جميع اللغات من قرن لآخر كما يأتى فانك سترى أن اللغة العربية فى مدة ثلاث قرون قد تغيرت ألفاظها واختلفت كتابتها اختلافا بينا ، وهذا القرآن العربى لم تتغير لغته مخالفة فى ذلك كل لغة كاللاتينية التى حلت محلها ألسنة أخرى مبنية عليها ولغات أخرى لاصلة بينها و بينها ، وهذا من أسرار ذكر الوصف بأنه قرآن عربى ، فلغة اللاتين لغة دينية ومع ذلك تغيرت ولغة العرب لم تتغير ولو تغيرت لزال هذا الدين ثم ان العداوة بين أهله وبين غيرهم كانت سببا فى طرد جماعة من القسطنطينية وآخرين من الأندلس ، كان كل ذلك سبب انتشار العلم والنهضة الحديثة ، ولو تغيرت اللغة العربية كغيرها لانمحى الدين ولم يظهر فيلسوف كابن رشد ، ولاملك يهاجم النصرانية كمحمد الفاتح ، ولاملك يدافع النصرانية كصلاح الدين أيام الحروب الصليبية ، والترك لسانهم عربى ومع ذلك تأثروا بذلك اللسان العربى ، وبهذا كله كانت هذه النهضة الحديثة

ومن آثار هذه النهضة الثلاثية فى أوروبا بفضل القرآن العربى أن التعليم فى تلك الأقطار كان مقصورا على علوم الدين والقانون الرومانى وقانون الكنيسة وفلسفة أرسطاطاليس ، فماذا جرى ؟

(أولا) قامت مناظرة بين العلماء أشهرها المناظرة التى بين (بطرس ابيلارد) وبين (الأب برنارد) فالأول يقول بأن الناس يسيرون بمقتضى عقولهم ولايقتصرون على القوانين الدينية ، والآخر كان ينتصر للكنيسة ويحكمها فى كل شئ

(ثانيا) ان الكنيسة قوت (برنارد) ونصرته وخذلت (ابيلارد) وحقرت تعاليمه ومع ذلك قامت جامعة باريس على أثر هذه المناظرة ثم تلتها سالونو وبولونيا فى ايطاليا ثم اكسفورد فى انجلترا

(ثالثا) ظهر هنالك العلماء مثل (توماس اكوناس) وهو من ذوى الابتكار والعبقرية ، ومثل (روجر بيكن) صاحب النظرية المشهورة وهى البحث العلمى واستنباط القواعد الطبيعية من المشاهدات

﴿ ملخص ماتقدم ﴾

ان النهضة التى قامت بأوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ترجع للحضارة العربية الآتية من الأندلس ومن آثار الحروب الصليبية وآثار علماء القسطنطينية الفارين من الترك ، وكل هذا ينطوى تحت هذه الآية

ـ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا ـ ونشأ عن ذلك :

(الرقّ السياسى)

كان البابا والامبراطورلهما السيادة ولا رادّ لقضائهما فهذا له سيادة الدين وهذا له سيادة السياسة فى جميع العالم المسيحى لأن هذه الأمم كانت تخضع لحكم (الاقطاعات) فى الممالك المختلفة وكانت السلطات متشعبة فى أيدى أمراء مختلفين وكل أمير مقاطعة يناوئ الآخر ويحاربه فى تلك القرون الوسطى أى التى بين سقوط الدولة الرومانية الغربية و بين سقوط الدولة الرومانية الشرقية المتقدم الكلام عليهما وذلك فى مدة نحو ألف سنة كما هو واضح ، ولكن العقول متى تحركت نشطت الأجسام وهبت من رقادها وقامت من نومتها ونفضت غبار نومها ، فترى أحد هؤلاء الأمراء يقوى و يشتدّ ازره و يغلب الآخر حتى ظهرت روح القومية ودبّ حب الاستقلال التام فى الداخل والخارج

(ا) فظهرت فى فرنسا أسرة (هيوكابت)

(ب) وفى انكلترا أسرة (النرمنديين) و (الايخفن)

(ج) وفى اسبانيا أسرتان وهما (قشتاله) و (ارغونه)

(د) وقامت أسرة (هنستوفن) وأرادت تكوين مملكة قومية فى (ألمانيا) فى القرن الثالث عشر فعارضها البابا

(هـ) وقام الوطنى (ريتزى) فى منتصف القرن الرابع عشر وحاول تحرير ايطاليا وتوحيدها

(و) وظهر « كتاب الأمير » وهو كتاب وضعه (مكيافلى) وهو كاتب سياسى من أهل فلورنسه شرح فيه أعمال الملوك ، و بين أن الأمير الذى يحفظ كيان دولته لابد أن يخالف الذمة والضمير والمروءة والانسانية والدين فى بعض الأوقات ، هنالك أخذ الملوك يقاومون نفوذ البابا الذى كان إذ ذاك له النفوذ السياسى والدينى

إذن مبدأ نهضة القوم فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ولكنهم اعتبروها ابتدأت فى القرن الخامس عشر حينما ظهرت علوم وأدبيات قديمة يونانية ورومانية أكملت ماجاءهم من الأندلس العربى وعلماء القسطنطينية والى هنا تمّ الكلام على الفصل الأوّل والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثانى ﴾

(فى عرب الجاهلية الأولى وهم دولة حمورابى فيما بين النهرين)

جاء فى كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » تحت العنوان التالى مانصه

﴿ العرب البائدة ﴾

(أو عرب الشمال فى الطور الأوّل)

يقول العرب ان هذه الطبقة تشتمل على عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن ينتمى اليهم ويسمونها العرب العاربة وانهم من أبناء سام . قال ابن خلدون « وكان لهذه الأمم ملوك ودول فى جزيرة العرب وامتدملكهم فيها الى الشام ومصر فى شعوب منهم و يقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين . ثم كان لكل فرقة منهم ملوك واطام

وقصور الى أن غاب عليهم بنو يعرب بن قحطان » [١] وقال فى مكان آخر « إن قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق» [٢]

واذا تدبرت مانقله العرب عن القبائل البائدة رأيتهم يقسمونهم الى قسمين العماليق من نسل لاوذ بن سام وسائر القبائل البائدة من نسل ارم بن سام [٣] . قال ابن خلدون « كان يقال عاد ارم فلما هلكوا قيل ثمود ارم فلما هلكوا قيل نمرود ارم فلما هلكوا قيل سائر ولد ارم ارمان » [٤]

فالعرب يعدّون العرب البائدة ساميين من نسل ارم . أى آراميين الا العمالقة فيقولون انهم من نسل لاوذ بن سام أخى ارم ويقولون انهم ملكوا العراق «بابل» ثم نزحوا منها الى جزيرة العرب . فهذا القول على اختصاره يوافق خلاصة ماوصلنا اليه بعد النظر فيما كشفه العلماء فى بابل واشور من النقوش أو قرأوه فى كتب اليونان وغيرهم

ثم ذكر العمالقة الذين فتحوا مصر وكانوا شمالى الحجاز مما يلى جزيرة سينا ، وأن النسابين ينسبون العرب البائدة الى (ارم) والعماليق الى أخيه (لاوذ) . والذى يهمّ فى هذا المقام ذكره دولة حورابى أو الدولة البابلية الأولى . وسنورد هنا نبذة من تاريخها . وهاك نصها :

﴿ تمدّن دولة حورابى أو الدولة البابلية الأولى ﴾

(من سنة ٢٤٦٠ ق.م الى سنة ٢٠٨١ ق.م)

إذ استولى ساموابى أولا على شمالى بابل نحو سنة ٢٤٦٠ ق.م وكان الجنوب فى حوزة العلاميين ، وأخذ الملك ينتقل من ملك الى ملك ، وكان السادس منهم حورابى ، وهو الذى أخضع دولة العلاميين ، واستمرّ فى الفتح الى البحر الأبيض المتوسط . والذى يهمنا فى تفسير الآية أن نذكر مدنية تلك الدولة ومن أين اقتبستها ، وما قلمها الذى كانت تكتب به إيفاء لتفسير الآية فنقول ومن الله التوفيق

كان السومريون قبل هذه الدولة قد اتخذوا دينا ووضعوا شريعة واخترعوا كتابة ولهم لغة خاصة . فلما غلبهم الحورابيون اقتبسوا تمدنهم ونظاماتهم كما فعل العرب المسلمون بعدهم بدولة الفرس . وكان الحورابيون فى أوّل دولتهم يستخدمون اللغة السومرية فى المكاتبات ثم أهملوها بالتدريج حتى ذهبت وذهب معها العنصر السومرى . وبقى العنصر السامى كما تغلب العنصر العربى بمصر والشام بعد الاسلام بتغلب اللغة العربية . ولكن الحورابيين استبقوا الخط السومرى وهو القلم المسمارى لانهم استخدموه فى تدوين لسانهم وزادوا فيه أحرفا لم تكن فى السومرية (انظر شكل ٢٨)



(شكل - ٢٨)

(القلم المسمارى القديم على عهد السومريين لايزال شكله صوريا)

وكان القلم المذكور فى أصل وضعه صورا مثل الهيروغليف المصرى كما ترى فى شكل ٢٨ ثم تشوه شكله بالاستعمال وباستخدام المسامير فى طبعه على الطين فصار على هذه الصورة [شكل] شكل ٢٩

(١) ابن خلدون ١٨ ج ٢ (٢) ابن خلدون ٥٩ ج ٢ (٣) حمزة ١٢٢ و١٢٨
(٤) ابن خلدون ٧١ ج ٢

أما المسلمون فأهملوا الأقلام التي كانت شائعة قبلهم فى العراق وفارس والشام ومصر وهى الفهلوى والكلدانى والقبطى وغيرها ونشروا قلما جاءوه معهم كان يستخدمه عرب مشارف الشام وأعالى الحجاز هو الحرف النبطى وتكيف بتوالى الأجيال حتى صار الى الحرف العربى المعروف وعم العالم الاسلامى العربى وغير العربى

أما تمدن السومريين فاقتبسه الحورابيون ورقوه وزادوا فيه كما فعل المسلمون بتمدن الروم والفرس وأكثرهم عناية فى ذلك حورابى فانه جمع الشرائع ونظمها وبوبها فعرفت باسمه وقدرتها فى ٢٨٢ مادة وجدوا نسخة منها سنة ١٩٠١ فى بلاد السوس منقوشة بالحرف المسمارى على مسلة من الحجر الأسود الصلب طولها سبعة أقدام وتدل تلك الشريعة على تقدم تلك الأمة فى سلم الاجتماع الى أرقى مابلغت اليه تلك العصور ولاسيما فى شروط الزواج والطلاق والتبنى والارث . انتهى الكلام على الفصل الثانى

﴿ الفصل الثالث والرابع ﴾

(فى اللغة العربية قبيل الاسلام وكيف كان خطها النبطى وفى النسبة بين خطها النبطى وهجاآتها وبين خطها وهجاآتها فى أيام البعثة المحمدية)

جاء فى كتاب آداب اللغة العربية تحت العنوان التالى مانصه

﴿ العصر الجاهلى قبيل الاسلام ﴾

(من القرن الخامس للميلاد الى ظهور الاسلام)

ان الحكم على ماتقدم من أحوال الجاهلية الأولى مبنى على الحدس والتخمين لاستغراقه فى القدم وضياع اخبار تلك الجزيرة بتمادى الأيام . ولعلهم اذا نشطوا للحفر والتنقيب كشفوا عن حقيقة هذه الظنون الستار

(الفرق بين لغة الجاهلية الأولى والثانية)

وفى كل حال أن عرب ذلك العهد القديم يختلفون عن عرب عصر الجاهلية الثانية قبيل الاسلام لغة ودينا وأدبا وخلقا . فالحورابيون كان أكثرهم أهل حضارة وتمدن يتوطنون المنازل والمدن . وأما عرب الجاهلية الثانية فأكثرهم أهل بادية ونجع وكانت لغة الحورابيين أقرب الى الأشورية منها الى العربية . فلغة أيوب اذا كانت عربية فهى غير عربية مضر الذى وصلت الينا من عرب قريش وسائر الحجاز . وقد يكون الفرق بينهما كثيرا جدا أكثر من الفرق بين لغة القرآن ولغة عامة مصر أو الشام الآن . لأن أهل هذين المصرين قيدوا أنفسهم بالمحافظة على لغة القرآن وأساليبه . فكلما ساقتهم طبيعة النشوء نحو التغيير أعادهم التقليد الى الأصل . ولولا ذلك لكان الفرق بين لغة عامتنا واللغة الفصحى أبعد من ذلك كثيرا

قس مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذى وجدوه بين لغة عرب الشام فى أوائل القرن الرابع للميلاد بما قرأوه على قبر امرىء القيس بن عمرو ملك الحيرة وبين لغة مضر عند ظهور الاسلام . وذلك انهم عثروا فى اطلال النمارة فى حوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطى نقشت فى أوائل القرن الرابع للميلاد أى قبل الاسلام بثلاثة قرون وهذه صورتها (أنظر شكل ٣٠) فى الصحيفة التالية

(شكل ٣٠)

(رسم كتابة عربية بخط نبطى على قبر امرئ القيس بن عمرو سنة ٣٢٨ م)

واليك نصها كما تقرأ كل سطر على حدة:

(١) تى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج

(٢) وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجاء

(٣) يزجو (؟) فى حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه

(٤) الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه

(٥) عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذوولده

هذا لسان عربى تشوبه صبغة ارامية يحتاج تفهمها الى إيضاح وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى وهو

(١) هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى تقلد التاج

(٢) واخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج الى اليوم وقاد

(٣) الظفر الى اسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدا واستعمل بنيه

(٤) على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

(٥) الى اليوم . توفى سنة ٢٢٣ فى اليوم ٧ ايلول (سبتمبر) وفق بنوه للسعادة

وكان أهل الشام وحوران ومايليهما يؤرخون فى ذلك العهد بالتقويم البصروى نسبة الى بصرى عاصمة حوران وهو يبدأ بدخولها فى حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد فاذا أضيفت الى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ للميلاد وهى السنة التى توفى فيها هذا الملك

انظر الى الفرق بين الأصل وتفسيره والمدة بين هذين العصرين ثلاثة قرون فكيف تكون و بينهما بضعة وعشرون قرنا ؟ والتغيير طبيعى فى كل لغة عملا بناموس النشوء . اعتبر ذلك فى الفرق بين اللغة اللاتينية الأصلية وماتخلف عنها من الايطالية والاسبانية و بين اللغة الانكليزية القديمة والحديثة وغير ذلك

فآداب العرب فى جاهليتهم الثانية يراد بها آدابهم قبيل الاسلام وهم أهل بادية لايقرءون ولا يكتبون . وانما جمعت هذه الآداب بعد الاسلام بالأخذ عن الافواه . انتهى الكلام على الفصل الثالث والرابع والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الخامس ﴾

فى أن اللغة العربية نسخت لغات لم تقم لها قائمة الى الآن فقد جاء فى كتاب تاريخ أدب اللغة العربية (لجورجى زيدان) تحت العنوان التالى مانصه :

﴿ الدولة الأموية واللغة العربية ﴾

أما الدولة الأموية فالهمة كانت متجهة فيها على الخصوص الى الآداب العربية الجاهلية . لأن الأمويين كانوا شديدى الحرص على منزلة العرب كثيرى العناية فى حفظ الانساب وهم الذين جعلوا الاسلام دولة فأيدوها

ونشروا اللغة العربية فى المملكة الاسلامية بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . و بعد أن كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية أصبحت هذه البلاد بتوالى الأجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الأصلية وهى تعد الآن من البلاد العربية . واذا نزلها التركى أو الافرنجى أو غيرهما من أىّ أمة كانت وتوالدفيها عدّنسله عربيا

وظل العرب فى أيام بنى أمية على بدواتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون أولادهم الى البادية لاتقان اللغة وا كتساب أساليب البدو وآدابهم . وظل كثير من عادات الجاهلية شائعة فى أيامهم كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار فى الأندية العمومية فكان أشراف أهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الأشعار و يتحادثون و يتذا كرون أيام الناس . وأهل البصرة يخرجون الى المربد لهذه الغاية كما سيجيء . كأنهم رجعوا بعصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العزّ والسؤدد مابلغوا اليه فى أيام هذه الدولة . وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا فى ممالك الأرض . انتهى الكلام على الفصل الخامس والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل السادس فى المقصود من هذا كله ﴾

فى تفسير هذه الآية وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة الى الآن فى بلاد العرب وأوروبا والفرس والهند والصين و بلاد جاوه معجزة من أكبر المعجزات

انظرالى هذه اللغة التى تغيرت لهجاتها وصور أشكالها من كتابة السومريين الأولى ثم انها تغيرت ثم تحوّرت الى أن صارت قبل الاسلام كما رأيت فى (شكل ٣٠) المتقدم قريبا

ثم انظرالى طورها الرابع وهوما كتبت به المصاحف ، وكيف بقيت الحروف محفوظة ، وهيئاتها متقاربة نيفا وثلاثة عشر قرنا . ومن أجلى الأدلة وأنصعها ماتراه فى هذه الكتابات التى أمامك ، فهاهى ذه الحروف العربية واضحة مكتوبة فى بلاد الصين ، ومعها الخط الصينى لسورة الفاتحة وسورة الاخلاص (انظرشكل ٣١ و ٣٢ و ٣٣ فى الصفحات التالية)

بسم الله الرحمن الرحيم

法又尊真慈今奉其
體接名主後世普意
哈唸起的世獨慈我

الحمد لله رب العالمين الرحمن

الرحيم مالك يوم الدين

شكل

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥

اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧

其意

感讚是惟獨保養普世普慈今世獨慈後世執掌還報日期的主我們惟獨拜你我們惟獨求你相助哪主你指引我們正道那些人的路道你在他們上行恩他們不受怒惱他們也不是一切迷路的人接唸阿米勒

آمِينَ

其意哪主你。准承我們的。若跟隨以媽母的人也同以媽母低唸阿米勒接唸所勒。隨唸那個。不可言定或唸這個。

قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ اللّٰهُ

الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ

لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

其意你說。此是主命聖人說事情如此主是獨一的主是無求祈的他不生人人不生他無有一物與他為對。○

فههنا تعاون الصيني والألماني والفرنسي والانجليزي والتركي والهندي والاسباني والقازاني والعربي والعجمي والأمم كلها على حفظ اللغة العربية والخط العربي ، فلم يدخله ولم يدخل لغته ذلك التحريف الذي حلّ بساحة لغة وخط العرب البائدة أيام حمورابي ولاأيام الجاهلية في القرن الرابع الميلادي قبيل البعثة المحمدية بل هو باق كما هو ، فهذا معنى ـ لاتبديل لكلمات الله ـ ومعنى ـ إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـ

وبهذا كله تفهم أيها الذكيّ لماذا وصف القرآن بأنه عربيّ والحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الاثنين (٢٠) اكتوبر سنة ١٩٣٠ الساعة العاشرة مساء . تمت اللطيفة الثانية . ويتبع هذه اللطيفة الثانية جوهرتان

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

(في قوله تعالى ـ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما إلهكم إله واحد ـ)

جاء في مجلة « النهضة النسائية » تحت العنوان التالي مانصه

﴿ في وجود الله تعالى ﴾

(للكاتب الأمريكي الشهير ارثر برزباين)

يزعمون أن العقل البشري موجه اهتمامه بالأكثر الى المسائل الاجتماعية التافهة مثل جمع الأموال وكيفية عقد الزواج وماشاكل ، أما نحن فعلى غير هذا الرأي ونعتقد أن العقل البشري لايوجه أخص اهتمامه الى هذه المسائل دون سواها ، لو أن محرر جريدة ألقى على قراء جريدته سؤالا عن « الزواج هل هو أفضل أم العزوبة » لوردت عليه الأجوبة الكثيرة بضعة أيام أو بضعة شهور . ثم يضجر الناس من هذه المناقشة وتنقطع الكتابات

وكل سؤال يكون نصيبه الاهمال بعد اشتغال الناس به زمنا معلوما محدودا ، وأما مسائل خلود النفس ووجود الله ومصير الانسان بعد وفاته فانها مابرحت تشغل أذهان الناس منذ البداية ، وسوف تبقى موضوعا لاهتمامهم العظيم الدائم

تأتينا الرسائل في هذه المواضيع كل يوم من كل سنة في مسائل تشغل خواطر الناس على الدوام يتساءلون « هل يوجد إله وهل تكون النفس خالدة ؟ » وهذه الكتابات الكثيرة الدائمة تختلف في لغتها ولهجتها وهي الدليل على مبلغ ايمان كاتبها ، وبعض هذه الرسائل تأتينا من المرتابين المتشككين والملحدين والكتاب ومن سائر الذين أسكرتهم تلك المعرفة القليلة التي جعلوها حكمتهم ودينهم بدلا من ثقة الأجيال الكثيرة تلك الثقة بوجود الله وخلود النفس

ويظن بعض هؤلاء أنهم اهتدوا الى طريقة جديدة مبتكرة تساعدهم على الحياة بالاستغناء التام عن الله وأن العلم قد وفقهم الى هذه الطريقة الجديدة

ولكن العلم لم يفعل شيئا من ذلك ، بل ان العلم فعل ماهو مخالف على خط مستقيم لظنونهم وأوهامهم العلم أثبت وجود الاله وخلود النفس وليسمح لنا القارئ أن نضرب لذلك مثلا صغيرا :

رجل عنده صندوق ووضع فيه بعض قطط فقدت أمها وهي صغيرة جدّا ولم تفتح عيونها بعد . اعتنى هذا الرجل بالقطط المذكورة وأحسن معاملتها وجعل للصندوق عجلات فكان يجره الى ضياء الشمس لتتمتع القطط بحرارة الشمس . كان يغذيها باللبن في مواعيد معينة بغير بالتدقيق . كان يطرد الكلب الشرير إذ حاول الاعتداء عليها ويخيفها ويرعبها كثيرا ، كانت هذه القطط تثق بالرجل وشعرت أنها في حاجة اليه وأن لاغنى لها عنه وكان هذا دور الايمان

وحدث ذات يوم أن كلبا توصل الى قطة منها فقتلها بعد أن قطعها بأسنانه وشوّه جسمها ذلك لأن القطة قد خالفت القوانين والشرائع التى سنها لها الرجل خرجت من صندوقها فحلّ بها ذلك المصاب . وكانت احدى القطط قد بدأت تبصر قليلا باحدى عينيها فقالت مغرورة بالقليل الذى تراه : « أنا لا أعتقد بوجود الرجل فاذا كان موجودا حقيقة فهو ظالم اذ سمح أن تقتل أختى الصغيرة وأن يمزقها الكلب لاأصدق مازعمونه من أن أختى قتلت بذنبها لأنها خرجت من الصندوق والحقيقة أن الرجل غير موجود فانما نحن القطط أولياء أمورنا وسادة الكيان وعلينا أن نحارب عدوّنا وندافع عن أنفسنا

هذه القطة هى قطة « انجرسول » الملحد الأمريكى الشهير

ثم ان قطة أخرى بدأت تبصر بعينيها وهى أرقى من رفيقتها الأولى فقالت

(أنا عالمة . وقد وجدت أننى غير مدينة للرجل وعنايته بشىء وانما الشرائع والنواميس ولية أمورنا . هذا الصندوق قائم على عجلات يدور فى نور الشمس بمجرد إرادته لا أنكر أنى أجهل ماهو الذى يدفعه ولكن أعلم أن الرجل لايستطيع دفعه وعلمت أيضا أنه لاوجود لناموس (توزيع اللبن علينا)

فانما يأتينا اللبن فى مواعيد معينة بحكم الدور ومجىء اللبن ناموس طبيعى فقد كان يجىء من قبل وهو يأتى الآن وسيأتى كذلك بعد . دعونى من دعاويكم الفارغة فأنا منقلبة الى فراشى لأنام ولكن لاتذكروا على مسمع منى أمر رجل محب يعتنى بنا . الأمر كله نواميس طبيعية وأنا عظيمة فى ذاتى لأننى أوّل من اهتدى الى هذه النواميس

هذه القطة هى قطة « اسحاق نيوتن » ولكنها لم يكن لها إيمان نيوتن ويضيق بنا المجال لوأردنا أن نذكر ماقالته قطة « داروين » فقد كانت طويلة اللسان . ولكن اليك ماجرى بعد ذلك

كبرت القطط التى بقيت حية بعد أن ماتت تلك التى أصابها الموت جزاء مخالفتها وشرودها عن الصراط المستقيم وانفتحت عيونهن جميعا فصارت تبصر جيدا فرأت الرجل عيانا وعرفته واعترفت به وتوسلت اليه أن يسمح لها بالاقامة فى منزلة . قالت القطط للرجل

(لاتؤاخذنا ياسيدى واغفرلنا حماقتنا وجهالتنا إذ كنا صغيرات جاهلات ولكنك تعلم أن بصرنا كان ضعيفا واننا كنا لانبصر ولانعلم) فقال الرجل الكريم لابأس انصرفن الى البدرون فى أسفل المنزل وتمتعن بالراحة والقوت هناك

انتهى المثل الذى ضربناه . وانما نحن قطط عمياء فكلما حاولنا التعمق فى اكتشاف أسرار الطبيعة وعجائبها نزداد توغلا فى خفايا جديدة لاندركها نكشف أن الأرض تدور حول الشمس ولكن لابد لأعظم عالم من الاعتراف بعجزه عن الاهتداء الى سبب دورانها

يقول هذا العالم « أعطنى المحرك الأوّل وكل شىء سهل بعد ذلك » وهكذا قالت القطط العمياء فى صندوقها قالت (ادفع صندوقنا دفعة واحدة وعلينا فهم الباقى)

واطلعت القطط على ناموس توزيع اللبن فجعلته بدلا من عناية الرجل بها شأن الذى ادّعى التمسك بناموس الجاذبية العام فظن أنه يقدر بواسطته على جحود الله . ولكن العقل الكبير الذى اهتدى الى ناموس الجاذبية العام كان عقلا متدينا تقيا علم أنه ضعيف فى ذاته لاقدرة له على إدارة كل شىء

ان نيوتن لم ينكر وجود الله . وكان أدرى الناس بغموض أسرار حكمته ونواميسه . علم وعلم الناس أيضا أن ذلك الناموس مايبرح عاملا منذ الأزل وهذا كل ما ادعاه وكل مايقدر أن يدعيه سواه

والعالم العصرى (لورد كلفين) من أشهر أتباع نيوتن قيل له : ماهو سر الجاذبية ؟ فأجاب : لايحق للعالم أن يحاول كشف أسرارها فاننا نجهلها تماما ولا نعرف عنها شيئا

لذلك نقول للمرتابين : ارتابوا اذا كان لابد لكم من ذلك ولكن اجعلوا الحكم أساسا لريبكم وارتابوا أوّلا فى حكمتكم التى لاتزيد عن حكمة تلك القطط العمياء

اذكروا أنكم لا تعرفون شيئا طالعوا كثيرا ولكن لاتسمحوا لآراء غيركم القاصرة أن تسطو على عقولكم وتجعلكم آلة للريب والشكوك مهما فعلتم لاتتعرضوا العقائد الآخرين وإيمانهم ، انشروا المعرفة وأذيعوا الحقائق . وأما الريب التى تزعج الآخرين وتذهب بسعادتكم فاحفظوها لأنفسكم أذيعوا ماتعرفونه عن يقين واكتموا مادون اليقين فهل يسمع الملحدون . وبهذا انتهت الجوهرة الأولى

﴿ الجوهرة الثانية ﴾

(فى قوله تعالى ــ وجعل فيها رواسى من فوقها ــ)

وهى الجبال ، ولقد تقدّم الكلام على الجبال فى مواضع كثيرة مثل ما جاء فى ﴿ سورة الرعد ﴾ عند آية ــ وفى الأرض قطع متجاورات ــ الخ وهكذا سيأتى فى آية ــ أفلاينظرون الى الإبل كيف خلقت * والى السماء كيف رفعت * والى الجبال كيف نصبت ــ الخ ولكن نذكر هنا عجيبة جاءت فى مجلة « اللطائف المصوّرة » فقد جاء فيها تحت العنوان التالى مانصه :

﴿ فى أميركا الجنوبية غنى طبيعى ﴾

هناك جبل من فضة لاينضب له معين

بوليفيا جهورية صغيرة من جهوريات أمريكا الجنوبية ، كانت فيما مضى مستعمرة اسبانية لكنها استقلت سنة ١٨٢٥ بعد حروب دموية بينها وبين الجيوش الاسبانية ، وهى صخرية جبلية يتراوح ارتفاع جبالها بين ٣٠٠٠ الى ٦٠٠٠ متر ، وفى وسطها اكمات تسمى لايونا فيها ثروات معدنية لايحصى لها عدد ، يقدّر مافيها بمئات بل بألوف الملايين من الجنيهات ، من بينها جبل كله من فضة يطلق عليه اسم (سيرودى بوتوزى) ، ظل مئات السنين يدرّ الأموال الطائلة على الدولة الاسبانية ، فكان لها المورد الأكبر الذى يأتيها من كل مستعمراتها الواسعة . وقد اكتشف هذا الجبل رجل هندى من هنود أميركا الملقبين بذوى الجلود الحمراء يسمى جوالكا فقد كان مسافرا فى أيام الشتاء الباردة فحط رحاله فوق هذا الجبل ، ولما قرسه البرد أشعل نارا تصطلى ، فما كان أشدّ دهشته عند ما أبصر الصخور تذوب تحت تأثير الحرارة وتسيل معدنا أبيض جيلا ، فتأمله طويلا لكنه لم يدرك كنهه ، فأسرع الى سيده القبطان (جون دى فيللاروبل) وأطلعه على الأمر ، فاستحوذ هذا على جبل الفضة باسم مليكه الأمبراطور شارلكان فى يوم (٢٢) ابريل سنة ١٥٤٥

ولما ذاع خبر هذا الاكتشاف فى اسبانيا تقاطر الى بوليفيا كل مغامر وأخذوا يتقاتلون ويتناحرون فى سبيل الاستحواذ على جزء من هذا الجبل الذى كان يدرّ أموالا يكلّ عن إدراكها الحصر لاسيما فى ذلك الزمن الذى كان أقلّ مبلغ فيه يعدّ ثروة . وقد استخرج من جبل سيرودى بوتوزى من سنة ١٥٤٥ أى منذ اكتشافه حتى سنة ١٨٢٥ وهى السنة التى خرجت فيها بوليفيا من أيدى الدولة الاسبانية (١٦) ألف مليون ريال طليطلى أى ٥١٢٠ مليون جنيه فى ٢٨٠ سنة ، فيكون معدّل غلته فى كل سنة من هذه السنين (١٨) مليون جنيه وثلث . وقد بلغ مانا له التاج الاسبانى من هذا الايراد (٦٤٠) مليون جنيه . وقد دفع أصحاب منجم واحد من هذا الجبل للحكومة بصفة جزية (١٦) مليون جنيه وثلاثة أرباع المليون

وقد أراد الأمبراطور شارلكان يوما مّا أن يكافئ سكرتيره الخاص الدون فرانشيسكو دى لوس كوبوس فطلب منه أن يتمنى عليه مايريد فغمغم الدون فرانشيسكو بين شفتيه : « أريد يامولاى (ريل) واحدا على

كل رطل » (والريل يساوى مليمين ونصف من عملتنا) . فأجاب الأمبراطور مندهلا « أهذا كل ماتطلبه ؟»

ولما رآه مصمما على طلبه هذا الذى صغر فى عينى شارلكان وقع له على الأمر وناوله إياه ، وبعد ثمانى سنوات أى فى سنة ١٥٦١ مات الدون فرانشيسكو وترك ثروة تقدر بأكثر من (٧) ملايين من الجنيهات جمعها مما عاد عليه من المليمين ونصف التى كان يأخذها على كل رطل فضة يستخرج من جبل سيرو المذكور

ولم يزل هذا الجبل الى الآن مملوءا بالفضة لكنها تخرج ممزوجة بالقصدير . ولم تمض على اكتشاف جبل الفضة سنوات حتى أقيمت بازائه مدينة بوتوزى . وقد بلغ عدد سكانها فى القرن السابع عشر ٢٠٠٠٠٠ نسمة فكانت أكبر مدينة فى أمريكا الجنوبية وأكثرها سكانا

وكان لكل اسبانى (هيدالجو) أى منحدر من صلب اسبانى صميم ليس فى عروقه دم يهودى أو عربى مغربى أن يكون له حق بأن يستغل جزءا من الجبل

والعادة المتبعة فى ذلك والتى لم يزل معمولا بها الى الآن أن يأخذ الواحد له ركنا و يحفر فيه نفقا و يستولى على كل مايجده فيه حتى أصبح فى الجبل أكثر من ثلاثة آلاف نفق . وكان الهنود الحمر هم القائمون بالحفر يشتغلون فى الانفاق المظلمة التى ليس فيها نور ولايتخللها شعاع من الشمس ، وسياط أسيادهم الاسبانيين تنهال على أجسامهم اذا بدا منهم أقل وهن وأدنى ضعف . وكان المتزاحمون على استغلال جبل الفضة يتقاتلون حتى أدى بهم التناحر الى الانقسام الى حزبين كثر بينهما الاغتيال ثم القتال فى صفوف مرصوصة . أما اليوم فمدينة بوتوزى التى كانت منذ مائتى سنة زاهرة زاهية لم يعد فيها غير ١٥٠٠٠ أو ٢٠٠٠٠ شخص لأن سعر الفضة انخفض كثيرا فى أوروبا وقل الطلب عليها وكثر من جهة أخرى على القصدير ، ولكن من سوء حظ البلاد أن الأرض لم تعد تغل من هذا الصنف إلا كميات أقل مما كانت تغله فيما مضى . و بهذا تمت الجوهرة الثانية و بهما تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(فى قوله تعالى ـ حتى اذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ـ الآيات)

قد تقدم فى ﴿سورة يس﴾ ـ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ـ . فههنا ذكر الجلود مع الأسماع والأبصار وهناك خصص الجلود بالأيدى والأرجل ، وفى هذه معجزتان أظهرهما الكشف الحديث فتكون معجزات هذه السورة بالكشف الحديث خمسا . ولقد ذكرت لك هناك أيها الذكى حكاية القاتل اليابانى الذى قتل معشوقته التى رغبت عن زواجه ، وعرف بعد مدة بسبب آثاره ، وهذه مشروحة هناك باسهاب وايضاح تام ، ولكن هنا أذكر ماجرى من المحادثة بينى و بين صديقى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير . قال : كيف تنطق الجلود وتشهد ؟ وما معنى كون الأيدى والأرجل تشهد عند الله ؟ فالله تعالى يقول فى ﴿ يس ﴾ ـ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ـ ، فلم خص الأيدى والأرجل بهذه الشهادة ؟ وكيف تقول الجلود ـ أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ ـ . فقلت : إعلم أن هذه المخلوقات المادية المشاهدات على قسمين : قسم لنا القدرة على التصرف فيه ، وقسم لا قدرة لنا على التصرف فيه . فالذى لنا القدرة على التصرف فيه شهوات الطعام والشراب والشبق والكلام ، فهذه خلقت فينا لأجل حياتنا و بقائنا ، وهذه تأتى بالحق و بالباطل ، فان الانسان قد يجوع فيأكل والأكل قد يضره ، و يعطش فيشرب والشرب قد يضره ، و يشتهى

الوقاع والوقاع قد يضرّه ، ويتكلم والكلام قد يضرّه . ذلك لأن من شهوات الطعام ماتكون شهوات كاذبة ، ومن شهوات الشراب ماتكون كاذبة ، ومن شهوات الوقاع ماتكون كاذبة ، ومن الكلام مايكون كذبا لاصدق فيه . إذن أحوالنا الحيوانية يعتريها الصدق والكذب . فمن الكلام صادق وكاذب . ومن الجوع والظمأ وشهوات الوقاع مايصدق وما يكذب . فكثيرا ما نرى أنفسنا بعد الطعام بمدة يسيرة نطلب الطعام ، وقد نطلب الشراب قبل مضى ساعة أوساعتين وقد نتكلم كذبا . هذا هوالقسم الأوّل وهوالذى لنا القدرة على التصرّف فيه . أما مالاقدرة لنا على التصرّف فيه من الفاكهة والحب والخضر والمعادن والحجر والشجر . فهذه صوادق فى أفعالها ناطقات بالحق ، فلم نر حبة القمح أنبتت ذرة أو برسيما ، ولم نر بذرة القطن أنبتت كلأ أو باذنجانا ، ولم نرَ المشمش أصبح تينا ، ولا التين أصبح عنبا ، بل هناك نظام ، ولم نر الدواء أصبح غذاء ، ولا الغذاء صارسما ، بل هذه كلها نواطق بالحق ، لاعوج ولا كذب ولاخداع . واذا رأى الناس أن فى الطبيعة مالم يعهدوه كحوادث الزلازل والبراكين فذلك ليس من أكاذيبها ، بل هذه المفاجآت جاءت لغايات صادقة وان أخذت الناس بغتة فغاياتها شريفة . فأما غايات العواطف الناقصة فى الانسان فانها تكون شرا ، فالأكل بشهوة كاذبة والشراب والوقاع كلها مقصرات للحياة جالبات للمرض بخلاف حدوث البراكين فى الأرض من حيث لايشعر الناس بها فقد تكون لها منافع تربو على مضارّها مثل انبعاث بخار الماء وغاز الهيدروجين المكرر وغازات أحماض كبريتية أخرى فانها تكون هناك رواسب منها معدن الكبريت حول فوهة البركان وقد تصير طبقات سميكة تصلح للاستغلال كما نرى براكين كثيرة فى جنوب ايطاليا إذ هى أغنى مورد لمعدن الكبريت وتنتج كل عام منه (٢٠٠,٠٠٠) طن ، فهذه النعم الكبريتية إنما جاءت بفضل البركان . إذن مفاجآت البراكين ليست كفجاآت الكذب وأمثاله . ومن ذا يقول إن شرور شهوات نفوسنا وغضبنا الغضب المفضى الى القتال والدمار والهلاك والتقاطع كغضب الطبيعة بحدوث البراكين . وهل الحرارة الناجة فى (بزولس) بالقرب من نابولى بجنوب ايطاليا البالغة (٣٦٠) بميزان سنتجراد التى حوّلها القوم الى قوّة كهربائية يستعملونها فى الصناعات المختلفات . وكذلك نظائر هذه براكين فى جزائر (ليبارى) وفى (شيلى) يرسب بسببها الكبريت والبوريك والشب

أقول : هل هذه التى وجهت للمنافع العامّة بالمعادن النافعة والأعمال المفيدة تشبه شرور أنفسنا بالكذب وآثار الشهوات الكاذبة ، فالجوع الكاذب ، والعطش الكاذب ، والعداوة المبنية على سوء الظنّ ، كلهنّ جالبات لنا السوء بخلاف مانراه فى الطبيعة ، فهوعلى قسمين : قسم نتائجه واضحة لاخلل فيه كالفاكهة والأب وقسم لانعرف أحواله لاشتباهه علينا كسكون الأرض فنظنّ أن لابراكين فيها اذا هى ثائرة ، فهذه ظاهرها شرّ ولكن باطنها نعمة . أما نتائج الكواذب من طبائعنا فهو شرّ محض

هذه أيها الذكىّ مقدّمات لمطلوبك ، فألسنة الناس تصدق وتكذب ولكن لسان الطبيعة صادق غيركاذب فاننا لم نر الذهب يوما زاد وزنه أونقص فهو (١٩) بوزن حجمه من الماء وهكذا الزئبق (١٣) تقريبا

واعلم أنه لامعنى للكلام إلاحركات فى الهواء ، وتلك الحركات مختلفات باختلاف المخارج ، وباختلافها امتاز بعضها عن بعض ، وبانضمام صوتين أوثلاثة أو أكثر تكون كلمة ، وبانضمام الكلمات تكون جمل ، والجمل تدل على المعانى ، وهذه الدلالة تارة تصدق وتارة تكذب . إذن فائدة الكلام انه يدل على المعانى ، ولكن هذه الدلالة قد تخالف الواقع . فلننظر فى المخلوقات أمامنا نرى الماء ونحن ظمأى فنحس فى أنفسنا بمعنى . وماهو المعنى ؟ هوانه يبل ظمأنا . ومثل ذلك الفاكهة والخضر والحب وما أشبه ذلك . فكل هذه لها دلالات ولكن دلالتها صادقة لا كذب فيها بخلاف الكلام الصوتى فيدخله الكذب . إذن الدال إما بحرف وصوت وفيه الصدق والكذب . واما بلاحرف ولاصوت وهذا لا كذب فيه . وكلام المخلوقات ليس بحرف

ولاصوت . وكلام الانسان بحرف وصوت

واعلم أن الكلام الذى ليس بحرف ولاصوت قسمان : قسم قدسى وهوكلام الله القديم . وقسم مخلوق وهوكلام هذه العوالم . فأما كلام الله فانه فوق عقولنا ولانسبة بينه وبين كلام المخلوق بحرف وصوت .و بلا حرف ولا صوت فهذا فوق متناول عقولنا . ولكن لما تناهت عظمته وجلت قدرته أبرز لنا فى الوجود عوالم تكون نتائجها صادقة بدون كلام حرفى أوصوتى حتى سمعناه يقول ـ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ـ كيف كلمته الأيدى وكيف شهدت الأرجل ؟ كلامها ليس بحرف ولاصوت ففيها دلالات ثوابت

ومن باهر الصنع ودلائل الاتقان وبواهر الرحمة والحب أن الله تعالى لما احتجب عنا فلم نعرف كيف يتكلم بلاحرف ولاصوت وكان رءوفا بالعباد أراد أن يضرب مثلا بالمخلوقات . فكما عرفنا علمه وقدرته بضرب مثل بما نحس به من علمنا وقدرتنا وأن تكن النسبة مفقودة بين صفاتنا وصفاته تعالى هكذا عرفنا كون كلامه ليس بحرف ولاصوت كما نشاهد فى هذه المشاهدات من الدلالات الصادقة :

(١) على حكمته وقدرته وعظمته

(٢) وعلى معرفة الجانين بالطرق العامية فى بحث خطوط اليدين والرجلين

(٣) وبما ننتفع به من خواص ما نأكل ونشرب ونتداوى وهكذا . فهذا عرفناه بلا حرف ولاصوت ـ ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ـ

فقال صديق : لقد فهمت من مقالكم أن هذه العوالم صوادق فى دلالتها والانسان قد يكذب وأن هذه الأيدى وهذه الأرجل دلائلها صادقات وفيها علامات مثبتات جرائم أصحابها وليست كاذبة بخلاف ألسنة الانسان فى الأرض فهى كاذبة . ولكن هل علم الله تعالى بأعمالنا فى حاجة الى أمثال الأيدى والأرجل ؟ فقلت : كلا . هو يعلم ذلك . ولكن هذه الآيات موجهات لاصلاح نفوسنا ولها دلالتان : أولا ان الله عليم بأعمالنا . ثانيا انه ضرب لنا مثلا بأن أيدينا وأرجلنا فيها علامات . واصدق هذه العلامات الدالات على أفعالنا نسب اليها أن تخاطب بلاحرف ولاصوت من كلامه ليس بحرف ولاصوت . واذا سمع الله منها أفلا يسمع القضاة نطق هذه الأيدى فيحكمون بما تدل عليه ؟ فقال : عجب ! مالنا وللقضاة ؟ فقلت : القضاء قضاءان قضاء الله يوم القيامة . وقضاء القضاة فى الدنيا . فاذا كان الله يوم القيامة وهو العليم بأفعالنا يقول على سبيل المجاز أو الحقيقة أن الأيدى والأرجل تكلمنا وتشهد بأعمال العباد وقد قبل شهادتها وسمع كلامها ، أفلا يقبل شهادتها ويسمع كلامها قضاة الأرض ؟ فههنا علمان جليلان : علم الطبيعة الموزونة الجميلة التى تعبر عن جمال مبدعها الذى أبدعها وجعلها بهجة صادقة . وعلم القضاء الذى يترتب على صدق مقدماتها . فاذا سمع المسلمون وقضاتهم الله يقول ـ وأشهدوا ذوى عدل منكم ـ ويقول ـ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ـ فليس معنى هذا أنه لابينة إلا على هذا المنوال ، فقد أجمع علماء الاسلام قاطبة أن حكم القاضى مبنى على الظن والنبى ﷺ كان يحكم بحسب الظاهر والله يتولى السرائر ، لأننا لانزال فى الأرض . واذا وجدنا أن الظن جاء معه يقين ظاهر ألغينا هذا الظن . ألم يقل الله تعالى فى ﴿ سورة النجم ﴾ ـ ان الظن لايغنى من الحق شيئا ـ

فاذا سمع القاضى رجلا يقول ان الشمس لم تطلع مع أنها هى طالعة ، فهذه الشهادة لاتقبل لأنها خالفت الحق هكذا إذا دلت أصابع المجرم على أنه هو القاتل وأن آثار الأصابع ظهرت على صفحة السيف والسيف وجد على رقبة القتيل وجاءت شواهد أخرى على ذلك ، فانا اذا سمعنا شاهدا ينفى هذا نقول له كذبت أيها الشاهد . إن هذه الآيات أيها الصديق نزلت فى القرآن ليفتح لنا بها فى القضاء باب كان مقفلا إلا قليلا فان الحنفية يقولون : « إن القرائن لها دخل فى إثبات الجرائم » ولكن هذا الزمان الذى ارتقت فيه الأمم

ارتقت فيها أسباب الجرائم فأنزل الله تعالى هـذه الآيات تقرأ فى كل حين تدينا وذكرا لله ثم استنباطا يعقله ذوو العقول الكبيرة . ولقد تقدم فى ﴿ سورة الكهف ﴾ فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام ماملخصه أن قتل الخضر للغلام وخرقه السفينة راجع الى اتلاف النفس واتلاف المال وهذان أهم حقوق الناس . واذا وجدنا ذلك فى القرآن وعلمنا أنه قدم الحقيقة على الظن لأنه عرف أن هذا الفعل المخالف لظواهر الظنون أفضل وأحسن وهذا على طريق الكشف ونحن لا كشف عندنا بل لوكان عندنا كشف لم نحكم إلا بالظاهر ، فلنا طريق آخر وهو أننا متى تحققنا بطرق علمية أن هنا ضررا محققا قام عليه الدليل الظاهر لأهل الحل والعقد فاننا نقدمه على الحكم الذى عرفناه بطريق الظن ، فارجع اليه فالمقام هناك موضح بكلام الأئمة وأكابر علماء الاسلام مع دلائل العقل ، وعليه وجب على علماء الاسلام فى الأرض قاطبة أن يجدّوا فى جميع العلوم ومن أهمها أدلة اليدين والرجلين التى ورد ذكرهما فى القرآن لصدق دلالتهما

فقال ياعجبا : ولماذا خصصت اليدين والرجلين ؟ أليس جسم كل امرئ فيه علامات تدل عليه ؟ فلا فرق بين الأيدى والأرجل وغيرهما . ثم كيف تقول ان لساننا يكذب واليدان والرجلان لا كذب فيهما كما هو شأن العوالم المشاهدة من صدق شهاداتها مع أن الله سوّى بينهما وبين اللسان فقال تعالى ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ـ

فقلت الجواب على هذا يرجع لفصلين اثنين : الفصل الأوّل فى قيمة شهادة اللسان . الفصل الثانى فى اختصاص اليدين والرجلين بالشهادة

(الفصل الأول فى قيمة شهادة اللسان)

يقول الله تعالى فى ﴿ سورة يس ﴾ ـ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ـ فههنا أخرس الله اللسان وأنطق اليدين والرجلين وقبل منهما الشهادة . ويقول الله فى سورة أخرى ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ـ فههنا سوّى الله بين شهادة الثلاثة إذن هنا اللسان يصدق تارة ويكذب أخرى بدليل انه ختم على الفم تارة وأنطق اللسان تارة أخرى . فاذا كان الانسان بعد الموت ويوم الحساب لايزال مالكا لقواه وعواطفه كما كان فى الدنيا بحيث يتصرّف كما يتصرّف فى هذه الحياة ويقدر أن ينطق بخلاف مافى ضميره ، فهنالك يختم على لسانه وتبقى شهادة الأيدى والأرجل . فأما اذا أصبحت عواطفه غير خاضعة لارادته وليست تحت تصرفه كما نرى فى النوم المغناطيسى ونحوه فهذا لاينطق إلا بالحقائق فهنالك يطلق اللسان فينطق كما تنطق الأيدى والأرجل . إذن اليدان والرجلان لهما مزية ليست للسان فاظننته باصاح مقتضيا المساواة أراه أنا مانعامنها . وبهذا تم الفصل الأول والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثانى ﴾

(فى السبب فى اختصاص اليدين والرجلين بالشهادة دون باقى الجسم مع أن الأعضاء كلها متساوية فى انها لايظهر تغير هيئاتها الأصلية مدة الحياة)

اعلم أن الاجابة عليها ترجع لعلم اسمه التحقيق الجنائى . وهذا العلم حديث النشأة لم يظهر ولم يبرز لعالم الوجود إلا فى هـذا القرن أى فى الزمن الذى يؤلف فيه هذا التفسير كما ستراه . وأمامى الآن كتاب فى هذا العلم ومؤلفه الاستاذ (محمد بك شعير) وكيل إدارة التفتيش بوزارة الداخلية وهومدرّس بكلية الحقوق . فهاك ماقاله فى ذلك الكتاب :

﴿ بصمات الأصابع والأيدى ﴾

« ليس ماتقرؤه من الوقائع المدهشة عن (شرلوك هولمز) و (كارتر) وأمثالهما وما يكتبـه الروائيون أمثال (كونان دويل) و (ليكوك) وغيرهما ومانراه يشخص (بتشديد الخاء) فى دورالصور المتحركة من الروايات البوليسية الغريبة التى يتعقب فيها البوليس السرى الجناة و يتعرّف شخصهم و يظهر حقيقة أمرهم من إناء لمسوه أو وعاء أمسكوه أوكوب شربوا منه أوخزانة فتحوها . ليس كل هذا حديث خرافة وانما هى ثمرة العلم الحديث ونتيجة مجهودات العلماء الذين أتوا بالمعجزات فى فنّ بصمات الأصابع والأيدى »

الى أن قال « وكان الصينيون والهنود من قديم الزمان يستعملون البصمة فى العقود والمشارطات لتقوم مقام الختم والامضاء . وقد أحسنوا فى ذلك لأنها لاتتشابه ولاتقبل التغيير والتزوير . فلوأنعمنا النظر فى باطن اليد وأطراف الأكف والأصابع و باطن القدم وجدناها مكسوة بخطوط بارزة دقيقة يتخللها فراغ . ترسم هذه الخطوط أشكالا وتعاريج وانحناءات مختلفة لاتنطابق فى شخصين قط كما نجدثنيات تحت عقل الأصابع وتجعدات ناشئة من انطباق اليد وفتحها (انظرشكل ٣٤)



(شكل ٣٤)

وهـذه الرسوم والأشكال تتـكوّن والجنين فى بطن أمه من الشهر السادس للحمل ولاتتغير أبدا وتبقى حافظة شكلها واتجاهاتها فى سنّ الطفولة والشباب والرجولة والهرم بل و بعـد الممات الى أن يتحلل الجسم و يبلى كما شوهد ذلك فى الموميات المصرية القـديمة وفى بعض أجسام القردة المحنطة . وكل مايبدو عليها أنها تنمو وتـكبر وتتسع تبعا لنموّ الجسم كلما تقدم الانسان فى السنّ الى أن يصل الى الواحدة والعشرين . وقد ثبت ذلك من مباحث كثير من العلماء وأخصهم (السير فرنسيس جالتون) الذى له فضل كبير فى هـذا الباب . ومن المجموعات الهائلة المحفوظة بادارات تحقيق الشخصية بأغلب البـلاد الراقية . والبصمات هى الوحيدة فى جسم الانسان التى لاتتغير طول حياته بل تبقى حافظة شكلها فى أية سن وفى أية حالة كان عليها . اللهـم إلا مايطرأ على الجلد من العوارض كالقطع أوالحرق والمؤثرات الأخرى والنعومة بعد أن يصل الانسان الى سنّ الستين . وذلك بخلاف باقى أجزاء الجسم فانها كلما نما الشخص وترعرع تتغير بسرعة و بدرجة كبيرة يتعذرمعها

معرفته بعد بضع سنين ، فاسحنة وتقاطيع الوجه والأسنان ولون البشرة والشعر ولونه وكيته حتى لون العينين يتغير . لذلك كانت خاصية البقاء على حالة واحدة فى بصمات الأصابع (مع اختلاف شكلها ليس فى مجموع الأصابع فقط بل فى كل أصبع) الأساس الذى بنى عليه علم تحقيق الشخصية وهو أساس متين غير قابل للنقض ولا للطعن بأى وجه . ويشبهون بصمات الأصابع بأوراق الشجر فانها قد تتشابه فى شكلها العمومى ولكنها تختلف فى تركيبها وتفاصيلها

أما حكمة وجود هذه الخطوط وما يتخللها من الفراغ وما يقاطعها من التجعدات والثنيات فى راحة اليد وباطن القدم فلم يمكن تعليلها بشكل صريح . وقد اختلف علماء وظائف أعضاء جسم الانسان فى ذلك ، فبعضهم يرى أن مهمتها تسهيل خروج الافرازات المكوّنة للعرق ، والبعض الآخر يرى أن لها دخلا باللمس والحساسية

ولم يكن استخدام بصمات الأصابع فى الجنائيات للتعرّف على شخصية تاركها وترتيبها بطريقة ثابتة للاستعانة بها فى استخراج السوابق معروفا فى أوروبا إلا حديثا ، فقبل سنة ١٨٩٠ لم يعرف عنها شىء فى الحياة العلمية ، ولو أن بعض علماء الألمان بحثوا فوائدها فى أوائل القرن التاسع عشر ، وفعلا ألقى الاستاذ (بوركنجى) مدرّس علم وظائف أعضاء جسم الانسان بجامعة برسلو محاضرة نفيسة فى سنة ١٨٢٣ باللغة اللاتينية عن بصمات الأصابع وفوائدها ، وقسمها الى تسعة أنواع ، واقترح إيجاد طريقة لترتيبها وحفظها والاستعانة بها ولكن مجهوداته لم تلق ما تستحقه من القبول فى ذلك الوقت على أن ما تؤديه من الخدمات فى الوقائع الجنائية وفى تحقيق الشخصية وارشاد المحققين والقضاة عن سوابق الجناة واضح لا يحتاج الى برهان ولا أدل على ذلك من تقارير فطاحل هذا العلم المقدّمة للمؤتمر الجنائى الدولى الذى عقد بمدينة (تورين) سنة ١٩٠٧ فقد وفى الموضوع حقه الأساتذة (لوكار) و (ريس) و (داسكاريللى) و (دى جاستى) و (دى فيرى) وغيرهم . انتهى من كتاب التحقيق الجنائى

فاعجب لأمرين اثنين أيها الصديق ﴿الأمر الأوّل﴾ قول المؤلف : « إن باطن اليد وأطراف الأكف والأصابع وباطن القدم ، كل هذه مكسوة بخطوط تختلف باختلاف الأشخاص ﴿الأمر الثانى﴾ انها تلازم الانسان من المهد الى اللحد وأن غيرها مما على جسم الانسان يتغير » . حينئذ ظهر أن اختصاص اليدين والرجلين فى الآية دون بقية الجسد أصبح معجزة فى القرآن ، فاليدان والرجلان فضلا عما ذكرته سابقا من أنهما نافعان فى أعمال القضاة هما معجزة قرآنية أنزلها الله فى القرآن وأبرزها فعلا فى الزمان الذى كنت أتعلم فيه فى مدرسة دار العلوم وملأ بها الكرة الأرضية فى أثناء طبع هذا التفسير لأن سنة ١٨٩٠ المتقدم ذكرها هى مبدأ تعلمى فى مدرسة دار العلوم وهذه السنة التى أكتب فيها هذا القول سنة ١٩٣٠ وبينهما (٤٠) سنة . وفى هذه الأربعين سنة ظهر هذا العلم وعملت به الأمم ، فبدأ الظهور سنة ١٨٩٠ وفى هذه المدة انتشر حتى وصل الينا . ومن العجب أن مؤلف الكتاب المذكور كان أحد تلاميذى فى اللغة العربية قبل سفره الى أوروبا وذلك فى المدرسة الخديوية فى أوّل هذا القرن فى العشرة السنين الاول منه . ومن أعجب العجب أن تختم هذه السورة بما يفيد ذلك إذ يقول ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ الخ كأنه يقول : اختصاص شهادة الأيدى والأرجل دون بقية الأعضاء أمر يشكل عليكم ولكن سأظهر لكم بعض سرّه فى الدنيا وقد أظهره فى زماننا ولم يظهره فى غيره ، فوجب علينا أن نقول للمسلمين ذلك ونخبرهم بهذه المعجزة التى لم يظهرها الله إلا فى زماننا فهى معجزة من وجهين : أوّلا اختصاص اليدين والرجلين ثم ظهور ذلك فعلا لمكان ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق ـ الخ . والى هنا تم الكلام على الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين

وظهر لك أيها الذكىّ ظهورا واضحا علميا أن اليدين والرجلين اختصت بخاصية لم يتشرف بها بقية الجسم

وانهما أيضا أصدق من اللسان ، فلم يبق إلا شرح خصائص خطوط اليدين والرجلين ، وكيف كانت الخطوط فيهما لامشابهة فيهما بين رجل وآخر . فأقول جاء فى الكتاب المذكور أيضا تحت العنوان لتالى مانصه :

﴿ البصمات الخفية وطرق اظهارها وحفظها ﴾

يكاد الانسان لايصدق أن أطراف الأكف ، أوأجزاء راحة اليد ، أو باطن القدم ، اذا لامست جسما مستويا أملس كالورق أوالزجاج أوالصينى أوالمرآة أوالمعادن والأخشاب المصقولة على العموم تترك عليها بصماتها بكل تفصيلاتها ورسومها لأن هذه البصمات تكون غير ظاهرة وغير مرئية للعين المجردة وبخاصة اذا كانت على الورق ، أما على الزجاج و بعض المعادن المصقولة ، فاذا دقق الانسان النظرفيها ونداها بقليل من البخار الذى يخرج من الفم فانه يرى بعض شعاع منها لايلبث لحظة حتى يزول ، وليس تعليل ذلك من المعضلات العسيرة التى لايمكن تصورها بسهولة بل الأمر أبسط وأسهل مما نظن فان بشرة الجلد مغطاة بطبقة دهنية خفيفة ناشئة من افرازات العرق ، فاذا لامست الأنامل أوراحة اليد جسما مما سبق ذكره تركت عليه بصمتها وانطبعت عليه الخطوط والرسوم باتجاهاتها ومميزاتها ، وككون تلك المادة الدهنية عديمة اللون تبقى البصمة مستترة غير ظاهرة ، لكن قليلا من المواد الكيمائية على شكل مسحوق أوسائل يظهرها للعيان ويخرجها من سترها واضحة جلية كالبصمة المأخوذة بالطرق العادية بحيث يمكن استخدامها والاستفادة منها فى التحقيقات الجنائية إذ ليس من المقبول عقلا أن الجناة لاتلمس أيديهم بعض هذه الأجسام أثناء ارتكابهم الجرم فتترك عليها أثرا غير ظاهر إلا اذا احتاطوا لذلك من مبدأ الأمر بلبس قفاز مثلا أوتعمدوا إزالة ذلك الأثر بعد انتهاء عملهم

ولانكون مبالغين اذا قلنا انه لاتخلو حادثة من الحوادث التى تقع فى الأماكن المتحضرة من وجود تلك البصمات التى لوعنى بالمحافظة عليها وعدم اختلاطها بغيرها أوازالتها بواسطة تعريضها للمؤثرات الخارجية كانت من أثمن الأدلة المحسوسة وأرجحها

واعلم أن خطوط الأصابع ﴿ أربعة أنواع ﴾ رئيسية ولكل منها فروع ، فهى منحنيات ومنحدرات الى اليمين ومنحدرات الى اليسار ومستديرات

﴿ النوع الأول ﴾ المنحنيات أوالمقوسات بحيث يكون شكل البصمة فيه عبارة عن خطوط أفقية منحنية أومقوسة الأعلى على الأقل وليس فيه زاوية ولانواة له ، واذا وضع فيه زاوية لايتخللها خطوط (انظر شكل ٣٥) وهذا يرمز له بهذه العلامة (٨) فى مصر

(شكل ٣٥)

﴿النوع الثانى﴾ المنحدرات الى اليمين ورمزه فى مصر (ا) وهومانكون فيه نواة بشكل قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة ، وهذه القناة تنحدر من اليسار الى اليمين وبه زاوية واحدة الى اليسار ، وقد يكون داخل القناة خط منفصل أوخطان أوأكثر (انظر شكل ٣٦)



(شكل ٣٦)

﴿النوع الثالث﴾ المنحدرات الى اليسار ويرمز له بهذه العلامة (ـــ) وهومانكون فيه نواة البصمة عبارة عن قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة . وهذه القناة منحدرة من اليمين الى اليسار وبه زاوية واحدة الى اليمين بعكس النوع الثانى (انظر شكل ٣٧)



(شكل ٣٧)

﴿النوع الرابع﴾ المستديرات ويرمز له عندنا بمصر بعلامة (٥) وهوماتكون فيه نواة البصمة على شكل دائرى أو بيضاوى أوحلزونى بين زاويتين متقابلتين إحداهما الى اليمين والأخرى الى اليسار كما فى (شكل ٣٨)



(شكل ٣٨)

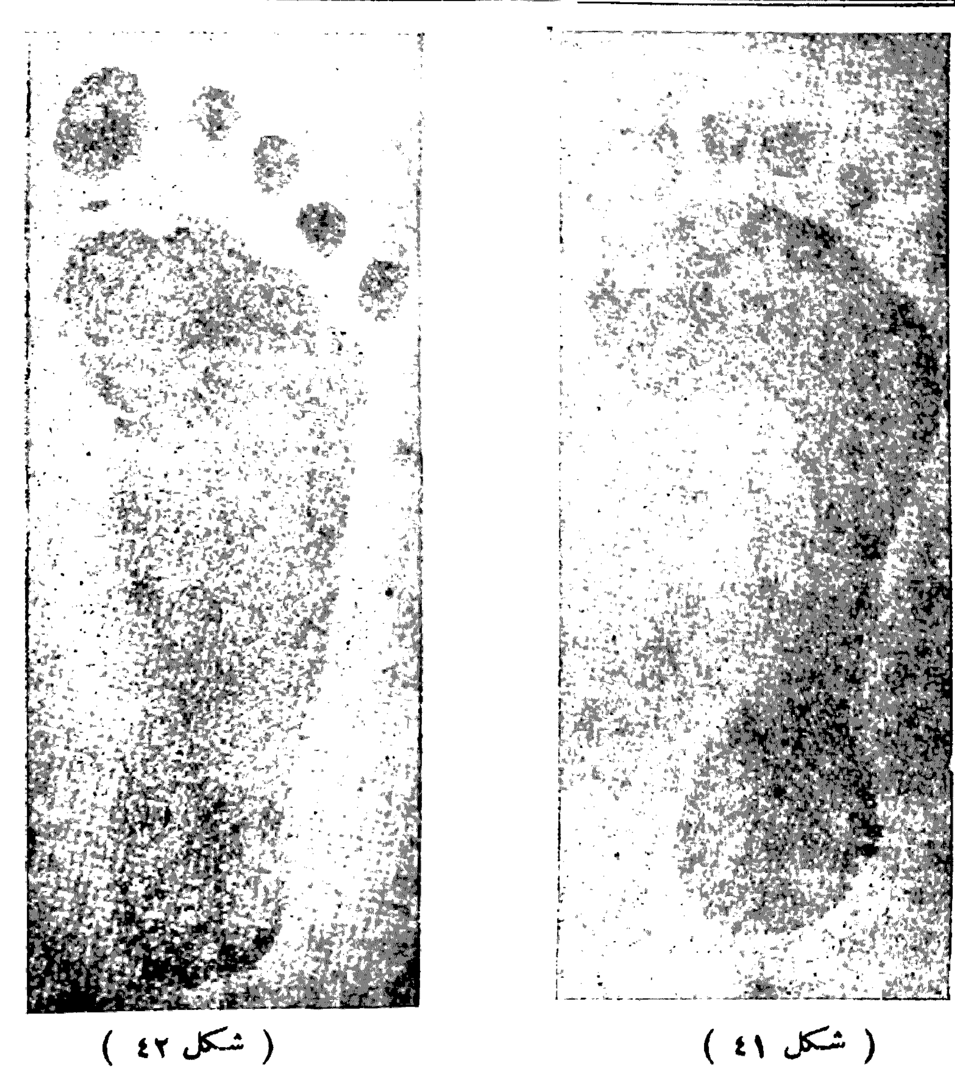
ولما كانت آيات القرآن وتفسيرها يوجب علينا أن نستوفى هذا الموضوع وجب أن نذكر ماظهرمن آثار الرجلين فى العلم الحديث كما ذكرنا آثاراليدين فنقول ومن الله التوفيق :

جاء فى كتاب « التحقيق الجنائى » تحت العنوان التالى مانصه :

﴿ آثارالأقدام ﴾

قص الأثر معروف عند العرب من زمن بعيد فنهم كانوا وما زالوا يتتبعون الإبل والمواشى المسروقة فى الصحارى والقفار و يستدلون على محل وجودها ولوكان على مسافات بعيدة ومراحل شاسعة . وجل اعتمادهم فى ذلك على قوة الباصرة والخبرة والتمرين وقليلا مايخطئ نظارهم فقد أتوا فى هذا الباب بالمدهشات التى يحار فى تعليلها الانسان فينبئك الواحد منهم بما اذا كان تارك الأثر ذكرا أوأنثى طويل القامة أوقصيرها سليم النظر أو به مرض باحدى العينين أو ببعض أجزاء جسمه حاملا شيئا أوغير حامل . وفى النساء ما اذا كانت إحداهن حبلى أوغيرحبلى وهكذا . ولاغرابة فى ذلك فان الاعرابى معتاد منذ الصغرعلى التجوال فى الصحراء وهى أصلح مكان تنطبع عليه القدم وتترك أثرها بشكل واضح يمكن قراءته كما يقرأ الانسان فى كتاب . ومما يساعد على بقاء هذه الآثار وعدم محوها واختلاطها بغيرها اتساع تلك البقاع وقلة السكان وندرة المرور فيها وعدم وجود أسباب الرفاهية والعمران بها . فعلى مر الأيام يعرف سكان كل ناحية بعضهم بعضا كما يعرف كل منهم أولاد الآخر وناقته وماشيته . و يمكنه فى غيرعناء معرفة مشية كل منهم وتمييز آثاره . و يستشهدون بها عند حدوث سرقة أوضياع ماشية . وهذه قاعدة متبعة للآن فى جميع أنحاء السودان وفى الجهات النائية

كالواحات



(شكل ٤١)
قدم مقوّسة

(شكل ٤٢)
قدم منبسطة

هذا ماأردته من كتاب « التحقيق الجنائى » لمؤلفه محمد شعير بك تفسيرا لقوله تعالى ـ حتى اذاماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ـ الخ وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

آراء حكماء الأمم وعلماء الاسلام
فى الأخلاق

تفسيرا لقوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاتخافوا ولاتحزنوا ـ الى قوله ـ إنه هوالسميع العليم ـ

ولأجعل الكلام على هذه الآية فى خمس أمور :

(١) الكلام على الايمان بالله والاستقامة

(٢) إلهام الملائكة المؤمنين بالخيرات

(٣) مساعدتهم فى الحياة و بعد الموت

(٤) محاسن الأخلاق وملاطفة الأعداء

(٥) الالتجاء الى الله فى كل شيء

فى يوم الجمعة (٢١) نوفبرسنة ١٩٣٠ بينما أنا جالس أفكر فى معنى هـذه الآية ، وأنا أعجب من أن الانسان يحس فى نفسه مذكرا يذكره بامور علمية أوأخلاقية وهذا شائع بين الأمم ، وكيف كان هـذا من مضمون الآية إذ جاء فيها ـ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ـ على لسان الملائكة

أقول : بينما أنا كذلك إذ أخـذتنى سنة تخيل الىّ أنى فى روضات بهجات ، مزينات بأجل الزينات ، والرياش الفاخر فى جوّ بهج مضىء مشرق فى قصرمنيف ، فيه فرش مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وهنالك من الجواهر مالا أقدر على وصفه وأدرك كنهه

فبينما أنا فى دهش مما رأيت وفى عجب عجاب إذ أقبلت فتاة أشرق نورها وأضاءت المكان ببهجة جمالها وماتحلت به من أجل الحلى ، ومالبست من أبدع الحلل ، وقد عطرت أرجاء القصر بالروائح العطرية ، فسلمت وحيت . فهنالك نسيت جمال القصر وبهجة الزينة والرياش وأخذ الجمال ببصرى و بصيرتى حتى نسيت كل شىء إلا مارأيت من منظرناضر وطرف ساحر وجمال باهر ونور زاهر ، فما كان إلا كلمح البصرحتى خررت صعقا وغابت الذاكرة ونامت الباصرة وأخذت فؤادى تلك النظرات الساحرة ، فصرت كالمسحور الذى لايعى ماحوله ولايدرى كيف يقول . وهكذا بقيت على هـذه الحال مدة . فلما أفقت من غشيتى وقمت من غفوتى رأيت الفتاة أمامى وهى تبتسم فكدت أخرّ صعقا كرّة أخرى إذ لم أر مثل هذا الجمال فى الأرض أمد الحياة وخطر لى خاطرقديم . ذلك انى يوما كنت دخلت (دارالصورالمتحركة) بمصرفرأيت من تلك الصورالتى تظهر فيها صورة (كليوبترا) ملكة مصرمن دولة البطالسة . وقد لبست أنفرالملابس التى يقال ان ثمنها يبلغ آلافا مؤلفة . فقلت فى نفسى إذ ذاك : ياحسرة على مصر . مصرالتى انتهكت حرمتها الدول وأبقوا فيها امتيازات الأجانب فأدخلوا صورا تفسد الأخلاق وتثير الشهوات . فأما فى بلادهم فأن الأكثر فى مشاهد (دارالصور) أن تكون معلمة للشعب الفنون والعلوم وأحوال الحياة بأتم مظاهرها . فهذا الخاطر الذى خطرلى قبلا تجدد لى إذ رأيت هذه الفتاة . فقلت ياو يلتى ماذا أقول الآن وهل مثلى فى هذه السن يلعب الجمال بعقله أو يخطر الغرام بلبه . إن ذلك مزر بالمشيب . واذا كنت أخاف على الشبان من هفوات الأجسام . أفلاأخاف على أدبى وعقلى من زلات الضمير وفتنة القلوب والصبوة ولو بالخواطر والهفوة ولو بالنواظر

و بينما أنا كذلك إذ رأيتها ازدادت ابتساما وقالت سلاما سلاما لاتثريب عليك ماهذه بصبوة ولاأنت الآن فى غفلة . إنك الآن مكين أمين لاإثم ولاحرج . أنت الآن فى عالم المثال لا فى عالم الأجسام . فأنت روح وأنا مثالك . ثم أمسكت بيدى فكان نورا قبض على نور . ولم أحس بتلك العظام ولاالعضلات ولاثقل الأعضاء الغليظة ، فقضيت العجب وقلت فى نفسى « أهذا كله فى عالم الخيال ؟ » ولم أكد أتم هذا الخاطرحتى أخذت تقول هذا العالم هو الجمال الحقيق ، ألم تقرأ ـ وان الدار الآخرة لهى الحيوان ـ ، فقلت فى نفسى : ياليت شعرى ما اسم هذه الروح ؟ فقالت على الفور أنا اسمى (البصيرة) فتذكرت قوله تعالى ـ بل الانسان على نفسه بصيرة ولوألقى معاذيره ـ وخطرت لى خواطرالآية التى نحن بصـدد الكلام عليها وأن الذين يعرفون الله واستقاموا يبشرون و يلاحظون فى حياتهم الدنيا وبعـد الموت وتلهمهم الملائكة ، وقلت فى نفسى : هل هذه صورة روحية لبصيرة الانسان ؟ و ياليت شعرى أهذه تشاكل بصيرتى أنا أم بصائر جميع الناس فى الأرض ! وهل بصائر الناس جمال فاتن على هـذا المنوال ، فأجابت بلاتردّد ولاتوان وقالت إن جمال أرضكم جزئى

إنه جمال نزل الى الأرض بقدر . ألاترى أن جمال الرجل أوالمرأة لايبقى إلا ريثما يلدان الذرية . فاذا أسنا ذهب الجمال وعوّضا بدل الجمال الظاهرى محبة ومودّة ورحمة بها يشتركان فى تربية الذرية وفى المنافع المنزلية والامور المادّية . إذن الجمال فى الأرض ليس مقصودا بالذات وماجاء لسبب فهو لامحالة ذاهب بذهاب سببه . أما الجمال هنا فهوأرقى من الجمال فى الأرض من جهتين : أوّلا ان نسبة جمال أهل الأرض الى جمال عالمنا كنسبة نور السراج فى الأرض الى نور الشمس . ثانيا ان نسبة دوام الجمال عندنا الى دوامه عندكم كنسبة دوام نور الشمس الى فناء نور السراج . الجمال عندكم مقدّمات وعندنا مقاصد وغايات وسعادات . ولقد أخبرتك بأنى أنا البصيرة . إن بصائر أهل الأرض جميعا قد جعلني الله مثلا لها ، فأنا مثال البصيرة الكلية وعنوان لها ودليل عليها ، بل أنا هى ولست تمكن من رؤيتى إلا على هذه الحال . هنالك قلت هذا مقام العائذ بالله وبك ألا تذريني أتخبط فى ظلام الأوهام ، إنى أودّ المقام بجوارك أمد الدهر . فلقد قضيت دهرى فى حياة كلها غرام بك وحبّ للنتائج الخلقية والعلميـة التى أنت المبرزة لها . فقالت انك لاتطيقنى الآن . أوّلا لأن مظهرى الآن ربما لاتحتمله اذا طال مقامك هنا ، ألم تر أنك خررت صعقا حين لاقيتنى . ثانيا انك الساعة كما ذكرت لك فى عالم الروح . ولقد قضت العناية أن ترجع الى عالم الأجسام باليقظة ، وعينك هنا ترى مالاترى عينك هناك ، وهذا الجمال الذى ظهر لك إنما هو الجمال الكاسب لهذه الدرجة الروحية وو راءها درجات متتابعات تخلق لها عيون على مقدارها فى عالم الأرواح العالية . ولوأن درجة من درجات الجمال ظهرت لأرواح لم تستعد لمشاهدتها لأهلكتها ، فاذن لابد من رجوعك الى عالم الحس المادّى زمنا ما لكى تكمل نفسك فلا تصعق كما صعقت الآن حين رأيتنى . قلت ولكن لاصبر لى على فراقك . فقالت إن لكل مقام مقالا ، فارجع الى الأرض عالم المادة واشهد مزارعى التى زرعتها فى الأرض . فقلت أى مزارع ؟ فقالت مزارع القلوب ، قلوب الحكماء والعلماء والأولياء ، فاقرأ ماألقيته على قلب كونفوشيوش حكيم الصين وقلب أفلاطون وسقراط وقلوب الرواقيين وقلب الاستاذ (كنت الألمانى) ، فهؤلاء وأمثالهم الذين برعوا فى علم الأخلاق قديما . وهكذا قلب الغزالى والرازى وأمثالهما من علماء الاسلام بل أمثال الشعرانى من الصوفية فهذه مزارعى التى غرستها فى قلوب هؤلاء فى علم الأخلاق . فتذكرت إنى قرأت فى «جريدة الضياء» مقالا يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

(المذهب الذى يعتنقه ٥٠٠ مليون من الناس)

الكونفشيوشية هى مجموعة التعاليم التى دعا اليها كونفوشيوش منذ ٢٥٠٠ سنة ورواها عنه أقدم حكماء الصين ، ولم يكن كونفشيوش يميل بطبيعته الى التغلغل فيماوراء الطبيعة والتعمق فى التأملات الدينية ، ولكنه كان شديد العناية بالفضائل والخلقيات

فهو يوجه جلّ اهتمامه الى دراسة المسائل العملية الخاصة بالعلاقات الانسانية ويدعو الى اتباع السبيل القويم فى المعاملات . وكان فى حياته الخاصة شديد الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والايمان بأن الله منه الحياة وحدد له المهمة التى يؤدّيها ، وانها تحميه كيد أعدائه

ومن قوله « ما أعظم قوات الأرواح . اذا نظرنا لانراها واذا أنصتنا لانسمعها . ولكنها تدخل مع ذلك فى كل الأشياء ولايوجد شيء بدونها »

وكان لايصرّح بمثل هذه الأمور الخاصة أتباعه فى خلواته ، أما تعاليمه فكانت كلها عملية ، لأنه كان معلم أخلاق ورجل سياسة . وكان يعتقد أن معرفة الله شيء يفوق قوة تصوّره . ومع ذلك فانه اعترف وهو يعزى نفسه بقوله انه ولد فى السماء وان الله أوجد الفضيلة التى فيه . وأن ثقته بالله لاحدّ لها ، فهو لايتذمر من الفضلاء

كما أنه لايتبرم بالناس . وقوام عقيدته الاعتراف بضعف الانسان وحاجته الى مساعدة الاله ، ومحاولة التمتع بمباهج الحياة ومزاياها عن طريق الاتصال المباشر بالله . وتكاد الكونفشيوشية تكون طريقة مرسومة للحياة فهى الصفة الدينية لأنها تحض متبعيها على عدم مخالفة قوانين الطبيعة والتآلف مع بقية الناس ، وتنهى عن حب الذات وتأمر بتضحية النفس فى حب الآخرين . وقد نجح كونفشيوش فى اكتساب العقلية الصينية ، بفضل شخصيته القوية ، ومحافظته على التقاليد ، ولأنه اتخذ لنفسه صفة القيادة والزعامة فأمست تعاليمه مسلما بها من الجميع ، وأض الخارجون عليها فى حكم الكفرة

وأساس فلسفة كونفشيوش « التاو » وهى نقطة الابتداء ، والطريق الذى يتحرك فيه الوجود ، والنظام الذى يسير عليه العالم ، أو النظام الطبيعى . وهو السبيل الذى ينبغى أن يسلكه الناس جميعا . والاتجاه الخلقى لكل انسان . وهناك طرق ثلاثة طريق السماء وطريق الأرض وطريق الانسان وهو أهم الطرق الثلاثة

ولكن الطريق شيء غير منظور لايرى إلا فى أعمال الناس فهو مبدأ خلقى مستور تتفرع منه فضائل الحياة اليومية . و يؤمن كونفشيوش بثبات الطبيعة على مبدأ خلقى واحد ، فهو يقول بأن السماء والأرض قد أظهرتا ثباتا معنويا فى طرقهما المطردة . والكون نظام وليس فوضى . وتتجلى فى كل أعمال الطبيعة مظاهر الاخلاص التى يجب أن تعتبر نقطة السير للحياة الخلقية

و يعتقد الكونفشيوشيون بأن الطبيعة هى خير فى ذاتها ، وأن مبادئها وقوانينها انما وضعت لارشاد الناس الى التصرف الواجب . ومع ذلك فان تصرفات الطبيعة غامضة ولا يمكن كشفها . وهذا ما جعل تصرفات الناس خاضعة لأحكامها المقدرة من قبل . فسعادة الانسان وشقاؤه ، وتوفيقه ونحسه كلها مقدرة ، واذا كانت لاتوجد علوم تمكن الانسان من السيطرة والتحكم فى الحوادث الطبيعية ، فان وقوع هذه الحوادث يصبح لذلك لامحيص عنه ولا مفر منه . ومع أن وقوع هذه الحوادث التى لامفر من وقوعها ، ومع مايبدو لنا من قسوتها وشدتها أحيانا . كان وقوعها مرهونا فى الغالب بتصرفات الناس أنفسهم . لأن الطبيعة ليست شريرة فى أعماقها . وكل ماهنالك أنها عادلة وهى تضع دائما الخير مع الخير ، والشر مع الشر ، فالطبيعة شريفة وتتصرف بطريقة خلقية سامية . وكونفشيوش مثل لوك وعلى عكس هوبز ، يعتقد بأن الأصل فى طبيعة الانسان الخير وأنها تلتمس الخير كما يلتمس الماء الانحدار . وأوّل مايتعلمه التلميذ الصينى فى كتابه الدينى الصغير « الناس عند مايولدون يكونون خيرين بطبيعتهم »

و يفسر أئمة الكونفشيوشية هذا المبدأ بأن كل انسان يملك فى صميم نفسه مبدأ خيرا ، يسوقه الى العطف على الآخرين ومساعدتهم ، ومبدأ عاد لايشعره بالخجل من كل مايثير الخجل ، والكراهية لكل مايستحق الكراهية . ومبدأ للياقة يحمله على احترام وتمجيد من يستحقون الاحترام والتقدير ، ومبدأ حكيما يعرف به الحق و يؤيده . و يدرك به الباطل و يزحزح عنه

وهذه المبادئ ليست مخالفة للطبيعة الانسانية ولكنها مركبة فى غرائز العقل الانسانى ولاغنى للبشرية عنها . وليس على الانسان الا أن يطيع هذه المبادىء الكامنة فيه ليأمن العثار و يسلك الحب الذى لاغبار عليه . و يصبح انسانا كاملا . ان الناس يولدون أطهارا بطبيعتهم غير أنهم إذا طعموا غذاء دسما . واكتسوا ملابس تشيع الدفء فى أجسامهم . وسكنوا أماكن مريحة فانهم يصبحون كالبهائم تقريبا . فغاية التعليم القصوى هى استرداد العقل المفقود ، وأغلب الناس قد فقدوا عقولهم

ومن مميزات الثقافة الصينية العناية بآداب اللياقة ، وهى ظاهرة الأثر فى النظام الكونفشيوشى و يضع كونفشيوش نظاما خاصا من العوائد والاقيسة لكل العلاقات الأساسية بين الناس . وكل مايشاهد فى الصينيين من مظاهر اللياقة وحسن التصرف انما منشؤه من هذه العادات . فالاتزان الذى يقابلون به أىّ موقف من

مواقف الحياة يرجع الى استعدادهم الداخلي الذي جرى منهم مجرى الغرائز بفضل مرانهم الطويل مدى العصور المتعاقبة

لذلك لايحتاج الصينيون الى كتب فى اللياقة لأنهم نشئوا منذ نعومة أظفارهم على اتباع أصولها المتبعة فى تقاليدهم الدينية المنسوبة الى كونفشيوش . حتى أصبح الثبات واللياقة طبيعة ثانية فيهم . فأنت لاتلمح أثرا للجلافة عندهم حتى فى أحط الطبقات الجاهلة ، بل تراهم جميعا قوما يحسنون التصرف بلباقة فى الأحوال

ويفضل كونفوشيوش فى كتابيه الثالث والرابع المعروفين (بتعليم الوضعاء) الكيفية التى يستطيع بها الانسان أن يتمشى فى قوانين الطبيعة لكى تظهر عناصر الخيرية المركبة فى طبيعته . وهاك بعض فقرات من الكتابين

التناسب طريق الطبيعة . والوصول الى التناسب هو طريق الانسان . فالذى يتمشى مع الطبيعة يصيب الهدف من غير نصب ، ويفهم الحقيقة بدون تفكير والحكيم من يهتدى بفطرته الى الطريق القويم من غير عناء

والتناسب أو التمشى مع طبيعة الكون هو فعل العليم فى الآداب الكونفشيوشية ، فالرجل الذى يصل الى هذه الدرجة من التناسق يصبح انسانا كاملا . ويدعو كونفشيوش الى الاهتمام بالأمرين (شو) ومعنى الكلمة الحكم على الغير باعتبار الانسان الشخصى . لأن التشابه بين الناس فى تفكيرهم يمكن الفرد من الحكم على الآخرين فلو أننى عاملت كلبا أو جوادا بما لا أحب أن أعامل به ، فليس معنى ذلك أن هذه المعاملة لاتليق بالكلب أو الجواد . ولما كنت أنا انسانا واخوتى الآخرون هم أيضا من بنى آدم أعرف مايسبب لى الألم فانى أمكننى أن أعرف أن الآخرين عند مايتأثرون بنفس العامل يتألمون مثلى . واذا اتخذت قلبى دليلا لى فانى لا أعمل لغيرى مالا أرضاه لنفسى

ويعرف كونفشيوش الرجل الراقى ، بأنه الشخص ذو الفضيلة الكاملة ، الانسان الذى رفع نفسه الى مستوى الكمال الخلق . بعكس الرجل الضيق العطن العادى التفكير ، ومجمع الصفات التى تتألف منها أخلاق الانسان الكامل هى : الاحسان . والانسانية والايثار . وإنكار الذات والروحانية والمحبة . أما المحبة فهى فى عرف كونفشيوش غاية الحياة الانسانية . ومن رأيه أن الانسان الكامل يجب أن لاينسى هذه الغاية ولو مرة واحدة . أثناء تناول وجبة واحدة . أو فى ظرف يكون فيه مشغولا جدا أو عند مايفشل فى عمل فشلا فاضحا

ويأمر كونفشيوش بحب الناس . أى أن يشعر الفرد بمحبة النوع الانسانى وينظر الى البشر جميعا كأنهم اخوته ويعتبر الانسان اجتماعيا بالطبيعة . ويحلل النظام الاجتماعى الى خمس علاقات : الملك ووزيره والأب وولده . والزوج وزوجته . والأخ الأكبر وأخوه الأصغر . والصديق وصديقه . فالانسان بطبيعته مغمور فى نظام من العلاقات ولايستطيع أن يعرف نفسه الاداخل هذا النظام . وهذه العلاقات تتضمن فوارق ، فالخضوع ليس معناه تحديد الحرية الطبيعية . ولكنه شىء طبيعى لابدّ منه اهـ

فلما قرأت هذا وهى مصغية لى (وعجبت إذ رأيت المقالة أمامى كأنى أشاهدها) قالت انظر فى الآية التى تفسرها أنت الآن . ألم ترأنى ألهمت حكيم الصين أن يقول : « إن الله منحه الحياة وحدّد له المهمة التى يؤدّيها وانه يحميه كيد أعدائه » . قلت بلى . قالت أليس هذا بعينه مافى هذه الآية ـ تتنزّل عليهم الملائكة ألاتخافوا ولاتحزنوا ـ الى قوله ـ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ـ . ثم قالت : ألم ترأن ملخص كلامه عن نظام السموات والأرض انه فى غاية الكمال ، وأن نظام النفوس الانسانية فى الأعمال يجب أن يكون على مقتضى هذا النظام ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ إن النفوس الانسانية يجب أن تكون مخلصة وصادقة كالاخلاص والصدق فى نظام الأرض والسماء ، وهذه المعانى هى التى برزت فى تفسيرك للقرآن لأن هذا التفسير سيكون نموذجا يؤمه أمم فى الشرق والغرب يسيرون على النظام الطبيعى فى أعمالهم باخلاص وأمانة وحب لربهم . ثم إن تعريف كونفشيوش للرجل الراقى هو عين قوله تعالى ـ ولاتستوى الحسنة ولاالسيئة

ادفع بالتى هى أحسن ـ وأما الحب العام الذى ذكره فهومضمون نفس هذه الآية ومطلوب القرآن ـ إنما المؤمنون اخوة ـ

إذن آراء كونفشيوش هى مقاصد القرآن والله أعترك عليها الآن لتكتبها فيعلم المتعلمون من المسلمين الذين قرءوا العلوم الفلسفية الاوروبية . إن آيات القرآن المبذولة للجهال والعلماء على حد سواء ليست هى كما يظنون غير مستحقة عنايتهم بدعوى أن قراء القرآن أكثرهم جهلاء فقراء ، فان هذا القرآن من عند الله كما ان الماء المبذول لجميع الناس من عنده وهكذا الحب المبذور والنوى فى الأرض الذى تطؤه البهائم هوهو نفسه الذى يصبح حبا وثمارا جنية ، فليس عموم النعمة دلالة على نقصها ولاشمولها الجاهل والعالم عنوانا على هوانها . كلا . فليعلم أولئك المتكبرون أن كبرهم فى غير محله وأن القرآن تفسره الفلسفة فى الشرق والغرب وحكمة الحكماء وعلم العلماء ـ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ـ

ثم انى تذكرت بعد ذلك بعض آراء أفلاطون من المقدمة التى كتبها الاستاذ (بارتلمى سانتهلير) أستاذ الفلسفة اليونانية فى الكولج دى فرنس ثم وزير الخارجية الفرنسية التى ترجمها الاستاذ (أحمد لطفى السيد) مدير دار الكتب المصرية ، فأسمعتها مانصه . قال :

(١) وقد استعار أفلاطون استعارة أخرى ليجوّد بيان هذا الطبع المزدوج للانسان فقال : (فلنتصور أن كل واحد منا هو ما كينة حية خارجة من يد الاله . فالشهوات التى نحسها هى كأنها حبال أوخيوط يجذبنا كل الى ناحيته ، و بتعاكس حركاتها تجذبنا الى أعمال متضادّة . وهذا هو مايقرّر الفرق بين الرذيلة و بين الفضيلة ولكن الحس السليم يدلنا على أن واجبنا أن لانطاوع الا أحد هذه الخيوط ونتبع اتجاهه ونقاوم شديدا كل ماعداه من الخيوط الأخرى . ذلك هو خيط الذهب المقدّس . خيط العقل الذى هو القانون العام للممالك وللأشخاص . ينبغى أن يكون الحكم للعقل مادام أنه هو محل الحكمة وأنه مكلف بأن يسهر على النفس بتمامها ولاينبغى ألبتة أن يصغى المرء فى نفسه إلا إلى صوت العقل ، لأن العقل المستقيم إنما هو صوت الله يخاطب به أنفسنا . ولأن يعتقد المرء أن النفس تسمو بالمعارف أو بالثروة أو بالجاه والسلطان ، ذلك ليس الا نقصا فيما يجب من تشريف مافى نفسه من الجهة القدسية ، وتغرير طامنه فى إكرام نفسه ، فان إكرامها الحقيقى ينحصر فى الدأب على تمية الفضيلة فيها وحمايتها من الكبرياء واللذات ، ومن الترف الذى يجعلها تجبن عن احتمال المشقات الضرورية ومن الجزع عند لقاء الموت بل حمايتها أيضا من جواذب الجيل . فان الجميل لاينبغى أن يؤثر على الخير ، بل يلزم أن يقال : إن كل ماعلى سطح الأرض ومافى باطنها من ذهب لايستحق أن يوازن بالفضيلة . وان المرء إن لم يقصر تشبثه على الخير وحده بكل قواه ، كان موردا نفسه ذلك الكائن القدسىّ موارد العار والاحتقار[1]

(٢) وقال المترجم ايضا « و بمقتضى ذلك كان الواجب الأوّل على الانسان ، بل الواجب الوحيد الذى يشمل جميع الواجبات الاخرى هو أن يسلك فى الحياة سبيل العقل المستقيم . وإن أكبر خطيئة يرتكبها ، وأكبر جهالة يقع فيها إنما هو أن يعصى العلم والحكمة والعقل ، وهى ثلاثتها سادته الحقيقون . إنما هو أن يكره شيئا حكم هو بأنه حسن جميل بدلا من أن يحبه . إنما هو أن يحب و يعانق من يحكم هو أنه ردىء . على أن النفس تجد طمأنينة تامة ، وقوة أيما قوة حينما تتفق إحساساتها وأعمالها ، فتغتبط بأنه ليس لها أن تعود باللائمة على نفسها فى فكرة أو عمل ظالم فى حق الله أوفى حق الناس . وإن أكبر حرب فى الحياة هى الحرب

(١) القوانين ك ١ ص ٥٤ ـ الجمهورية ك ٤ ص ٢٤٠ وك ٩ ص ٢٣٢ ـ طيماوس ص ٢٣٥ ـ كريتون ص ١٣٥ ـ فروطا غوراس (السفسطائيين) ص ٥٧ ـ القوانين ك ٥ ص ٢٥٤ ـ الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٩ ـ فيدون ص ٢٦٦

التى تقع بصدد صيرورة المرء فاضلا أو شريرا . (١) وقد يقع المرء فى الضلالة إذا هو ظن أنه الرجل الذى له قيمة تقضى عليه أن يحسب حسابا للموت أو للحياة ، بدل أن يقصر سعيه على البحث فيما إذا كان مايعمل هو خيرا أم شرا ، وما إذا كان عمله عمل رجل صالح أم عمل رجل سوء . كل امرئ اختار مركزا ، لأنه رآه أشرف من سواه ، أو لأن رئيسه وضعه فيه ، يجب عليه أن يقيم فيه ثابتا ، ولا ينظر إلى الخطر ولا إلى الموت ، ولا إلى شىء آخر غير الشرف . كذلك كان سقراط ، لما جىء به ليحاكم أمام الشعب الآتينى على تهمة كبرى ، لم يتأخر ألبتة عن تنفيذ هذه المبادئ بالعمل . فلما كان يخدم وطنه فى ميدان القتال ، احتفظ كما يحتفظ الجندى الباسل بجميع النقط التى وضعه فيها القواد فى بونيدة وفى أنفيبوليس وفى ديليوم . كذلك لم يكن ليتحول عن المركز الذى خصه الله به . بل دأب على درس الفلسفة على رغم الخطر الهائل الذى كان يتهدده ، حتى إنه لما مثل أمام القضاة ، لم يخطر بباله ليتقى الموت أن يتنازل إلى التخضع بسؤال العفو ، ولا إلى التمليقات العادية التى اعتاد الناس أن يستدروا بها شفقة القضاة . وما كان الكلام هو الذى يعوزه فى هذا السدد . بل الذى كان ينقصه هو عدم الحياء من نفسه . فلم ينزل عن عزته إلى سكب الدموع . ومايستبيحه المتهمون المستهينون بكرامتهم من الدنايا ، كأن الخطر الذى هو فيه لم يكن فى رأيه داعيا الى إتيان ماهو غير خليق برجل حر . فالشأن أمام المحاكم كالشأن فى ساحة القتال ، لايسمح للمرء أن يتذرع بأى وسيلة من الوسائل المختلفة لحفظ حياته . فكما أنه فى الحرب لاينبغى ألبتة أن يلقى المحارب سلاحه ، ولا أن يطلب الأمان ، كذلك لاينبغى ألبتة تلقاء غيرها من الأخطار أن يتسفل (٢) إلى حد أن يقول كل شئ ، ويعمل كل شئ . كذلك مضى سقراط ، من غير أن يخسر من شرفه شيئا إلى الموت الذى حكمت عليه به المحكمة ، وترك الذين اتهموه ملطخين بوصمات الظلم والعار التى حكم عليهم بها الحق . لزم عقابه كما أنهم لزموا عقابهم . والشأن فى ذلك كما يقول هو أن كل شئ هو على أحسن مايكون . ليس المهم أن يعيش المرء ولكن المهم هو أن يعيش عيشة حسنة . ذلك المعنى هو الذى حمل سقراط على أن يرفض خدمة المخلص « كريتون » فلم يشأ أن يهرب من السجن ليخلص من حكم ظالم لأنه يعلم أن هذا الهرب مهما بررِه الظاهر ، فانه ليس فى الواقع إلا مخالفة لقوانين الوطن

ذلك هو إذن المبدأ الأول الذى قرره سقراط ، وأيده بالمثل الفعلى . هو أنه لاينبغى ألبتة إتيان الشر بأية حجة كانت ، بل ليس سائغا أن يدفع الشر بالشر ، ولئن قيل : إن العدل انما هو إيتاء كل انسان ماله ، فليس معنى ذلك فى عرف الحكيم أن الرجل العادل يجب عليه لأعدائه الشر ، كما يجب عليه لأصدقائه الخير ، فليس عمل السوء لأى انسان من العدل فى شئ .

من هذا المبدإ استنبط سقراط نتيجة ضرورية ثابتة لم تكن من قبل ، وهى أن النفس متى كسبت السيئة بعامل الجهل أو الضعف ، على الرغم من شدة تحفظها ، فأول مايجب الاهتمام به هو شفاؤها من المرض الذى أصابها ، والذى يمكن أن تشفى منه . وعلاج الخطيئة انما هو العقاب ، فلا ينبغى للمذنب أن يتذمر من العقاب الذى أصابه إما بيد الله أو بيد الناس ، بل يجب عليه أن يغتبط بالبلاء الذى يكفر سيئته ويخلص نفسه مهما كان مؤلما . ان العقاب ضرب من الطب المعنوى . وشأن المذنب الذى يحاول اتقاءه شأن المريض (٣) الذى قد يؤثر المرض المهلك على أن يذهب الى الطبيب الذى يعيد اليه الصحة بالحديد أو النار . ولايعزب عن سقراط أن هذه المبادئ يبين عليها بادىء بدء أنها تصادم الرأى العام . وفى الحق أن من النادر فى الواقع أن يوجد

---

(١) أفلاطون ـ فروطاغوراس ص ٣٨ ـ غرغياس (البيان) ص ٢٦٢ و٣٦٧ ـ القوانين ك ٣ ص ١٦٧ و١٦٥ ـ غرغياس ص ٤٠٢ ـ الجمهورية ك ١٠ ص ٢٦٥

(٢) أفلاطون ـ تقريظ سقراط ص ٩٠ و ٩١ و ١١٤

(٣) أفلاطون ـ تقريظ سقراط ص ١١٤ و١١٥ ـ كريتون ص ١٤٣

جناة يأتون ليسلموا أنفسهم الى العدل الذى يقتص منهم ، ولكن قد يكون ذلك مما لا يعبأ به ، فانه يلزم أن لا نهتم بما سنقوله عنا الغوغاء ؛ بل بما يقوله الذى يعرف العدل والظلم . وهذا القاضى الوحيد لأعمالنا إنما هو الحق ؛ إنما هو الله . فاذا جهد المذنب . كما هى العادة . ليخلص من العدل ، فانما هو حقيق بأن يرثى له ، حيث يضيف الى سيئته الأولى التى هى الجناية سيئة أخرى شرا منها . وهى بقاء تلك السيئة من غير عقوبة تكفرها . لكن القلب المخلص المستقيم متى كسب الخطيئة بالمصادفة . عجل الى طلب العقوبة راغبا فيها ؛ لأنها هى التى تصلح بينه و بين نفسه و بين الفضيلة (١)

(٣) وقال فى صحيفة ٣٩ ومابعدها ما نصه : «الخير الأكمل كما عرفه أفلاطون فى كتابه «فيليب أو اللذة» ليس كله فى العقل ولا فى اللذة ، بل هو فى مزيج منهما جميعا . ونسبته فيهما مما يدق تعيينه . لكن الفيلسوف مع تقييده للذة لا يريد إهدارها كما حاولت مذاهب الغلاة من بعده بزمان ، فان لديه سعادة العيش وشقاءه مسألة كبرى ليس عنده همٌّ أشد من حلها على الوجه الحسن، لذلك كان شديد الرغبة فى أن يبين أن الفضيلة لا يقصر شأنها عن أن تكون أجل شىء فى ذاتها . كما هو مسلم به ، الا عند العقول المريضة بل هى أيضا أنفع وأسعد ما يكون . تلك هى نقطة من الأهمية بأعلى مكان . ولما كانت شرائط الفضيلة فى هذه الدنيا لا تتغير . كان توضيح سقراط إياها يهمنا كما يهمّ معاصريه تماما . فاننا لا نزال نشكو من المحن المؤلمة الفضيلة كما كانوا يشكون . و إليك ما ارتأته نفس الحكيم الكبيرة التى زهقت فريسة الظلم الصارخ

إنه يستشهد فيها التجربة . أجل ، متى أراد المرء تذوّق الفضيلة والتزامها (٢) منذ حداثة سنه ، لا يتركها كما يفعل المرتد عن مذهبه ، فانها تقرّ فى القلب . أجل إنها تولد لنا كثيرا من اللذائذ وقليلا من الآلام فى جميع مدة الحياة . من ذا الذى يفكر حقيقة و يستطيع أن يؤثر الجنون والجبن والافراط والمرض على العقل والشجاعة والاعتدال والصحة ؟ من ذا الذى تلقاء مشهد الأحوال الانسانية يستطيع أن ينكر على العموم بعد الموازنة ، ان الفضيلة ليست أشمل سعادة من الرذيلة ؟ إنها فوق ما تحفظ على نصرائها من النعم النفيسة الباقية تكتسب مكافآت الرأى العام وتوزعها عليهم . إنها لا تخدع ألبتة من يعتنقونها باخلاص ، فان الملائكة لا يتخلون عن أى كان يحاول بالمرون على الخير أن يتشبه بهم فى الحدود الممكنة ، إذ ليس من الطبيعى أن كائنا على هذا الخلق يتخلى عنه الموجود الذى به يتشبه . فالفضيلة إذن مكفولة بحماية الله . أما من جهة الناس . أفليس الأمر كذلك أيضا ؟ أليس ما يحصل للخبيثين والأشرار هو عين ما يحصل لهؤلاء المستبقين الذين يجرون سراعا عند صدورهم عن مقر حفلة السباق لكن لا عند رجوعهم اليه ؟ يثبون أولا بالسرعة ولكن على آخر الشوط يصيرون فى حال تعسة . آذانهم بين أكتافهم . ينزوون سراعا دون أن يتوجوا . فى حين أن العدائين الحقيقيين يصلون إلى الغرض حائزين قصب السبق و يتوّجون بتاج النصر . أليس حظ العادلين عادة هو كذلك (٣) ؟ أليس حقا أنهم متى وصلوا إلى آخر مشروع من مشروعاتهم . يكتسبوا من سلوكهم وعيشتهم اسما حسنا . ويحصلوا من الناس على المكافآت الواجبة لهم ؟ أليس أنهم يصلون متى بلغوا سن الرزانة إلى ما يرجون من علق المناصب ؟ أما الأشرار فانهم و إن أخفوا أمرهم على العيون فى شبابهم . فان أكثرهم ينفضح أمره و يرتدى بالسخرية فى أخريات أيامه . ومتى صاروا أشقياء فى شيخوختهم . باءوا بسبات الأجانب والمواطنين . بله ما يلحقهم من

---

(١) أفلاطون — غرغياس ص ٢٥٧ و ٢٨١ و ٢٨٤

(٢) أفلاطون — القوانين ك ١ ص ٣٣ و ٥٣ «فيليب كل المحاورة» الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٠ — القوانين ك ٥ ص ٢٦٧

(٣) أفلاطون — القوانين ك ٥ ص ٢٦٧ و ٢٦٩ — الجمهورية ك ١٠ ص ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٨

المثلات التي تكاد تصيبهم دائما في هذه الحياة الدنيا . ومايتلقاهم يوم القيامة من عدل الله — الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه —

ان أفلاطون مقتنع بصدق هذه المبادئ في العمل الى حد أنه كان يظن أنه مستطيع أن يعين بالأرقام المضبوطة مقدار المقارنة بين سعادة الرجل الفاضل و بين الشرير . وجد بحسابه خاص أن أولهما أسعد من الثاني بسبعمائة وتسع وعشرين مرة . وإنه ليريد فوق ذلك أن يسحر بهذه القواعد الجليلة التي هي ثمرات تجربة يؤيدها العمل اليومي نفوس الصبيان وهي لاتزال لينة مطيعة . ثقة منه بأن هذا الكلام يقر في عقولهم بأسهل من كل ماعداه . ولما أقنع قلب شاب شريف مثل « غلوكون » كاد يطلق مناديا ينادى بأعلى صوته في الناس جميعا بهذا الحكم الذى أصدره ابن ارسطون « ان أسعد الناس أعدلهم وأفضلهم وان أشقى الناس أظلمهم وشرهم »

الى هذه المشجعات التي لم تكن لتحط مقام النفس أضاف سقراط نصيحة من شأنها أن تطمئنها وتكبرها ان حوادث الحياة لا تستحق منا مثل هذا الاهتمام العظيم . العقل يهدى الى أن من الجميل الاحتفاظ بالبشاشة عند المصائب وأن لايدع المرء نفسه الى الشهوة تلق به في اليأس . وذلك لأن الانسان يجهل (١) ما اذا كانت هذه العوارض في حكمة الله خيرات أم شرورا . ولأنه لايكسب شيئا من وراء الحزن لها ولأن الألم ليس إلا عائقا عما يلزم المبادرة بعمله في هذه المواقف . فالرجل العاقل المستقيم الأخلاق اذا حلت به مصيبة كفقد ولد له . أو ضياع شيء آخر عزيز عليه يحتمل المصيبة بصبر لا يطيقه أى رجل آخر . وليس هو في ذلك ألبتة عديم الشعور لأن عدم الشعور في مثل ذلك الموقف حديث خرافة . ولكنه يضع حدودا لألمه سواء أكان في جمع من أمثاله أم كان منفردا بنفسه فماذا يلزم اذن عمله في هذه المحن ؟ « أن يستشير المرء عقله فيما وقع . وأن يصلح سوء حظه بأحسن الوسائل التي يحكم بها العقل . وأن لايروح للصدمة الأولى واضعا يده على جرحه كالأطفال يضيع الوقت بالصراخ . بل أولى به أن يروض نفسه على علاج الجرح بأسرع ما يمكن . وأن يرفع ماسقط . وأن يتداوى بدلا من أن يتطير . ذلك هو خير مايستطيع الرجل عمله في المصائب التي تحل به (٢) »

(٤) وقال أفلاطون : « وليس من الممكن وجود صداقة مستديمة إلا بين الأخيار . وإن الفضيلة التي هي شرط للسعادة الفردية هي كذلك شرط للسعادة في الجمعية . إن الأشرار لا يستطيعون أن يأتلفوا زمنا طويلا . فاذا قاربت المنفعة بينهم لحظة . فلا تلبث أن تباعد بينهم . بل المنفعة التي تساعدها الرذيلة «وما الرذيلة إلا أسرع منها انتقالا » تسلحهم بعضهم على بعض وتصبح الجمعية . وليس فيها إلا أشرار . غير مستطيعة أن تبقى يوما واحدا . ان هذه القاعدة العتيقة «الشبيه يبحث عن الشبيه» ليست صادقة إلا بالنصف . فان الرجل الخير هو وحده صديق الرجل الخير . أما الشرير فانه لايستطيع ألبتة أن يعقد صداقة حقيقية . لا مع الخير ولا مع الشرير شبيهه . ولما كان الشرير لا ثبات له على حال متغيرا متخالفا مع نفسه مضادا لها . كان بعيدا عليه أن يشايه غيره ويحبه . وحيثما اقترب الشرير من شبيهه واشترك (٣) معه ، صار عدوه حتما . لأنه سيعتدى عليه بعض الشيء . وكيف يكون ممكنا أن يبقى المعتدى والمعتدى عليه صديقين

(٥) وقال عن سقراط مانصه : «ولما كان محظورا عليه ألبتة أن يأتى الشر . كان لايعمل السيء لأعدائه كما لايعمله لأصدقائه . ذلك منه بعيد . فانه يعرف أن الشر الذى يقع على الأشرار يزيدهم رذيلة على رذيلتهم .

(١) أفلاطون — الجمهورية ك ١٠ ص ٢٧٨ وك ٩ ص ٢٢٤ — القوانين ك ٢ ص ١٠١ — الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٤ وك ١٠ ص ٢٥٦

(٢) أفلاطون — الجمهورية ك ١٠ ص ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٥٧

(٣) أفلاطون — فورطاغوراس ص ٣٨ — ليزيس ص ٥٩ — فيدر ص ٨٦

شأن تلك الدواب الشمس . يضربها السائس الأحمق . فتصير بذلك غير قابلة للتذليل . ومافعل الشرّ حتى بالاشرار إلا قاعدة لا يجرى عليها غير الطغاة أو المجانين أمثال «فرديكاس» و «بريندر» و «ا كزركسيس» أما الرجل الحكيم فانه على الضد من ذلك يلاطف الشرير بما يعمله له من الخير . أو على الأقل بما يضربه له من المثل الصالح من عدالته . إن الشرير أولى الناس بالشفقة ، لأنه مريض النفس قد اعتراه المرض فى جزئه الأنفس حقا أن من القلوب ما قد بلغ فى الفساد حدًّا لا يمكن معه شفاؤها . بل أخذت منها الرذائل مأخذا أصبح معه علاجها عسيرا جدًّا أو مستحيلا . ولكن هذه هى الاستثناءات التى يندر وجودها . أما أكثر الشريرين وفى شفائهم بقية من الرجاء . فيلزم أن يكظم الغيظ فى حقهم . وأن لا يؤخذوا بالعقوبات القاسية التى لا يكون من ورائها إلا أن يركبوا متن الحدّة و يبتعدوا عن الدواء الشافى

ان ما يكسب مبادئ سقراط هذه من رفعة وميزة خاصة بها أنه لم يقصر أمره على تقريرها . بل كان يعانى تطبيقها . وما كانت حياته إلا وقفا على هذا التطبيق الطويل الشاق . فانه منذ تلقى من إله «دلفوس» رسالته المقدسة . واستنارت نفسه بنور الحق مازال يعلم مواطنيه بأكمل ما يكون من الرعاية التى قد لا تخلو من التقريع يمحض لهم أنفع النصائح . و يحمل الى السرائر الخالصة نور سريرته الساطع . وقد كان يرى أن نفع الناس وتخليصهم مما هم فيه من الشرور واجب عليه الى حدّ أنه لو استطاع أن يخلصهم بتقديم حياته قربانا . لما تأخر فى ذلك . فلو قال له أهل آتينا

«ياسقراط إنا نطرح رأى (أنيتوس) ونحكم ببراءتك . لكن على شرط أن تكفّ عن الفلسفة وعن أبحاثك التى اعتدتها . وإنه إن وقع منك ذلك وا كتشف أمرك عوقبت بالقتل لما تأخر عن أن يجيبهم يا أهل آتينا إنى أحترمكم وأحبكم ولكنى أطيع الله لا أطيعكم أنتم . ومابقيت أنفاسى تتردّد فى صدرى . و بقى لى حظ من القوّة . لا أفتأ أنذركم وأنصح لكم وادعو كل من لقيته باللسان الذى عرفتم منى . ولو أنى كففت فى هذه الساعة لما كان هذ اخوفا على نفسى كما قد يبدر للأذهان . بل خوفا عليكم أن تحاربوا الله بالحكم علىّ هذا هو اعتقاد سقراط وذلك هو إحسانه الى الناس . فلا يجب من يسمع تقريظه من أن يراه قد تقدم المسيحية نفسها إذ يقول لأهل جمهوريته : ياأيها الذين تتألف منهم المملكة كلكم اخوان . لأنه هو نفسه لم يغفل لحظة عن الاعتقاد بأنه أخو قاتليه (1) »

كفى بالمذاهب الأخلاقية التى من هذا النوع دليلا على المذاهب الدينية التى تتوجها . فمن السهل استنباط المعتقدات الدينية لأفلاطون وسقراط من مذهبهما الأخلاقى . فاذا كان الصوت الذى يخرج من أعماق ضميرنا هو صوت الله . واذا كان الله هو الشارع الذى تجب علينا جميعا طاعته . و إذا كان الناس لا يؤلفون فيما بينهم إلا عشيرة واحدة ، فمن البديهى أن أباهم العامّ انما هو الله الذى رضى لهم أن يحبوه كما يحبون أنفسهم بعضهم بعضا . و إن الصلة بينه و بين الانسان دائمة فلا يستطيع أن يفرّ منه أبدا . ولو صغر حتى نفذ فى باطن الأرض أو كبر حتى (عرج فى جوف السماء) . وأبعد من ذلك أن يستطيع التغلب على الاله أبدا . أو يتخلص من هذا النظام الثابت الذى شرعه والذى يجب احترامه الى مالانهاية . ومن الكفر البين بعد إنكار وجود الله أن لا يعتقد بالعناية الالهية . فان ذلك يستتبع القول بأن هذه العناية يمكن أن تتخلى عن الانسان لحظة فلا ترعاه . وتسلمه بغير حساب الى سورة رذائله أو عجز فضائله . إن أجل ألقاب الانسان وأحسنها أنه «صنعة صنعها الله بيديه» فلا شىء لدينا إلا وهو من فيض إحسانه . ولا نستطيع أن نوفيه الشكر على نعمائه بصلواتنا وما نقرّب من القرابين وما نأتى من العبادات المستمرّة إنه هو قوّتنا ولولاه لم نكن شيئا مذكورا . وإن الله على حسب التقاليد القديمة هو الأوّل وهو الوسط وهو الآخر لجميع الموجودات . وهو يسير على خط مستقيم تبعا لناموسه فى حين

(1) أفلاطون — تقريظ سقراط ص ٩٣ و ٩٥ — الجمهورية ك ٣ ص ١٨٦

أنه يحيط بالعالم . ووراءه العدل المنتقم فى الجرائم التى تقع ضدّ شريعته . فأيما امرئ شاء أن يكون سعيدا . فليتصل بهذا العدل الالهى ويقتف أثره خاضعا متواضعا . أما من انتفخ كبرا . وأسلم قلبه الى نار الشهوات . وظن أن لا حاجة له بسيد ولا هاد . فان الله يتركه الى نفسه . ولا يلبث أن يدفع الدين الى العدل الالهى . وينتهى أمره بأن يهلك هو وعشيرته ووطنه (١) »

مادام هـذا هو النظام الثابت للأشياء . فيم يفكر الحكيم وماذا يعمل ؟ بديهى أن كل انسان عامل يفكر فى أنه ينبغى له أن يكون من الذين يتقرّبون الى الله . لكن ماهو السبيل المقبول عند الله ؟ هو طريق واحد . لأن الله بالنسبة لنا هو المقياس المضبوط لجميع الأشياء . لا الانسان كما زعموا باطلا . فلا سبيل الى أن يحظى الانسان بقرب الله حتى يعمل كل ما فى وسعه ليتشبه به . أعنى بمقدار ما أتيح للانسان أن يبلغ من التشبه بذلك المثل الأعلى الذى لا يبلغه أحد . ومتى أمن الانسان على هذا الاتصال وذلك «النسب الالهى» واقتنع بأن عناية الله تحرسه بلا انقطاع كما تحرس بقية الدنيا . وأيده ضميره الذى يرضى عنه لحسن طاعته للنظام العام فماذا عسى أن يخيفه فى العالم بأسره ؟ وكيف يمتنع قلبه عن الايمان بهذه الحقيقة المعزية : أن الانسان الخير لا خوف عليه فى حياته ولا بعد مماته ؟ فذا مسه فى هذه الحياة سوء . فكيف لا يحفظ الاعتقاد الراسخ بأن الاله سيهب له مالا يزال يهب للأخيار من لطف فى المصائب التى تصيبهم ، وتغيير فى حالهم الحاضرة الى خير منها ، على أن النعم المعنوية التى اكتسبوها والتى ليست نعما زائلة أو منتقلة تبقى لهم الى الأبد ، على أمثال هـذه الآمال وفى أمثال هذه الأفكار يجب أن يقطع المرء عمره ، يذكر بها نفسه وغيره فى كل فرصة وفى كل مقام من مقامات الجدّ واللهو (٢) »

(٦) وقـد قال عن سقراط مانصه : « أظن أن سقراط هو أوّل من حاول من الحكماء إثبات صبغة الله فى الطبع الانسانى بطريق البحث والتنقيب ، وقـد صدر فى ذلك عن هـذا المعنى العميق الذى قرره «انكساغوراس» وهو أن العقل أصل كل شىء فى العالم فاستنتج منه كما ذكر فى «فيدون» هذه النتيجة وهى : أن عقلا مدبرا خالقا يجب أن يكون قد أعد كل شىء على أحسن ما يكون . وليس على الباحث لمعرفة طبع أى شىء الا أن يبحث أحسن حالة يمكن أن يكون عليها ذلك الشىء ، فليس على الانسان فى كل ما يتعلق به إلا أن يبحث ، كما هو الحال فى بقية الأشياء . عما هو الأحسن والأكمل ولقد كان «هرقليت» يقول من قبل سقراط : إن أجل القردة إذا قورن بالانسان ظهر قبيحا . كذلك الانسان الحكيم لا يظهر بجانب حكمة الله وجماله إلا كالقرد ، ولكن سقراط عزّ عليه أن يقف بحثه على درس الجسم كما فعل « هرقليت » فيلسوف يونيه . فتمشى مع مبدإ الأحسن فى درس الروح التى جعلها الجهة الوحيدة لدرس الطبع البشرى اهـ

هذه هى المقالات التى تذكرتها فى حضرة تلك الروح الشريفة الجليلة ، فلما سمعت هذه المقالات من كلام أفلاطون وسقراط وأرسطاطاليس . قالت نعم هذه من أجل مزارعى فى الأرض فيما بلغكم من العلم منذ ٢٥٠٠ سنة الى الآن . وكل هذه هى التى توضح هذه الآية وقد تطابقت كلها على ﴿أمرين : الأوّل﴾ الوازع الداخلى والقانون الوجدانى وهو . . . . فتبسمت بوقار . فقلت (البصيرة) قالت نعم ـ بل الانسان على نفسه بصيرة ✲ ولو ألقى معاذيره ـ ﴿والثانى﴾ إن هناك قوّة عليا تساعد من أطاع هذا القانون وسار عليه . وللناس فى أمرك أنت مذكر وموعظة حسنة . ألست تحس فى نفسك بما يشدّ عزيمتك فى أوقات الشدائد . قلت بلى والله . قالت : ألست فى أثناء هذا التفسير تحس فى نفسك بسعادة وهناء لم تر لهما نظيرا مدة الحياة . قلت بلى . قالت

(١) أفلاطون ـ القوانين ك ١٠ ص ٢٥٣ و ٢٦٧ وك ٧ ص ٣٩ وك ٤ ص ٢٣٣ و ٢٣٥

(٢) أفلاطون ـ القوانين ك ٤ ص ٢٣٤ وك ١٠ ص ٢٥٣ وك ٥ ص ٢٦٦

ألست المعانى والمساعدات العلميـة لاتفتأ تترادف عليك وكلما ازددت فى التأليف إيغالا ازددت مددا وعلما وانشراح صدر وسرورا . قلت بلى . قالت فهذا هو الذى يقوله كونفشيوش وسقراط وأفلاطون وارسطاطاليس و يقوله بعدهم الرواقيون الذين جاءوا بعد أرسطاطاليس وأغرموا بعلم الأخلاق وقالوا إن سعادة الانسان فى الأخلاق وجمالها ولهم مذهب خاص بها نقل أهمه علماء الاسلام من الفلاسفة والصوفيـة ، وقد ملأ الغزالى من علمائـكم كتاب الإحياء بعلم الأخلاق وهو معروف مشهور ، هاهى ذه بعض مزارعى التى زرعتها فى القلوب فاذا رجعت الى عالم المادة فأستوعب ذلك كله وأدخله فى تفسير الآية حتى يعلم المسلمون أن كلام الحكماء تفصيل وتفسير لآيات القرآن وأن آية – بل الانسان على نفسه بصيرة – وآية – إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا – الى آخره تفسران بعلوم الفاسفة . اليوم يشهد المسلمون أن دينهم ألقيت علومه على عقول الحكماء قبل نزول القرآن ، فهذه من اعجازه العجيب . إذن أنا أظهر فى كل قلب بحسب درجتـه وتـكون الجـلـ والانشاء على مقتضى اختلاف العقول والأمم . فانظر الى الشيخ الشعرانى رحمه الله الذى جاء فى القرون المتأخرة . فهذا قد ظهرت آثارى على قلبه بهيئة أخرى ، أنا واحدة ومظاهرى كثيرة كالشمس تختلف أضواؤها فينمو بها كل نبات والاختلاف يكون على حسب القوابل قوة وضعفا ، واذا كان فى العوالم المادية نظام جميل :

(١) كقوانين الجذر والتربيع فى امتداد النور والحرارة والـكهرباء والجاذبية وفى قوانين الحجر الساقط فى بئر (هذا فى سورة الرعد عند آية – وكل شىء عنده بمقدار –)

(٢) وكقوانين الذكور والاناث فى تلقيح الزرع والشجر ، وفى نظام أوراق الأشجار من حيث هندستها وحسابها (هـذا فى سورة الحجر فى آية – وأرسلنا الرياح لواقح – وآية – وأنبتنا فيها من كل شىء موزون –)

(٣) وكنظام ممالك النحل والنمل والأرضة وغيرها (فى سورة النحل والنمل وسبأ)

(٤) وكجمال الأزهار والثمار ووجوه الانسان

واذا كان ذلك كله جميلا و بديعا بحساب عجيب كحساب العناصر من حيث وزنها وترتيبها فى جداول منتظمات (هذا فى سورة العنـكبوت) أفلا يكون عالمنا الروحى الذى هو أصل تلك العوالم وهو سيدها أجل وأبهى وأبدع نظاما وحسابا من عوالم المادة . إذن فلتعلم أن لنفوسكم نظاما لاتدركون كنهه ولا نفتأ نصاحبه أمد الدهر ، فتارة نظهر فى عقول الفلاسفة ، وآونة فى عقول رجال الدين ، ووقتا نظهر بهيئة صوفية ، والمبدأ واحد والمظاهر مختلفات ، فهل تذكر شيئا من آراء الشيخ الشعرانى رحمه الله ؟ فقلت نعم . قال فى المنن الـكبرى مانصه :

«ومما منّ الله تبارك وتعالى به علىّ عدم تـكدّرى على شىء فاتنى من الدنيا وتـكدّرى ممن صدّها عنى وذلك لعلمى و يقينى بأن كل شئ فاتنى فليس هو برزقى ولاقسم لى فـكيف أحزن على شئ لم يقسمه الحق تبارك وتعالى لى أو أتـكدّر ممن صد ذلك عنى بالوهم وهذا خلق غريب فى هذا الزمان وغالب الناس يحزن و يتـكدّر ممن سعى فى قطع رزقه أو خروج وظيفته عنه ور بما عادى من عارضه فى رزقه الذى كان يتوهم انه له أبدا ماعاش (وقد رأيت) خطيبا كان يخطب فى الجامع الأزهر . فلما دخل السلطان سليم مصر وصلى فى الجامع الأزهر قال الناس لا يخطب اليوم الا فلان لفصاحتـه ومعرفته بالوعظ المناسب للسلطان ومنعوا صاحب النوبة تلك الجمعة لعجزه عن مثل ذلك . فلما خطب رسم له السلطان بخمسين دينارا فقال هذه لى ولم يعط صاحب النوبة منها شيأ فمشيت فى الصلح بينهما فلم أقدر ولم تزل العداوة بينهما الى أن ماتا على العداوة فقلت لصاحب النوبة أين قولك فى الخطبة والله ثم والله ثم والله مايعطى و يمنع ويضع و يرفع الاالله تعالى فـادرى مايقول و بالجملة فلايقع فى مثل ذلك الا جاهل محجوب عن الله تعالى فان كان ولابد للمؤمن من أن يحزن فليحزن على ساعة مرت به لم يذكر الله تعالى فيها فان ذلك محمود ولو لم يمكن تداركه لما فيه من التعظيم لجناب الله تعالى والحزن على فوات

مجالسته تعالى والوقوف بين يديه جل وعلا كما هو شأن كل محب مع محبوبه ومن لم يحزن على فوات مجالسة محبوبه فليس له فى مقام المحبة نصيب (واعلم يا أخى) أن الحزن على ما فات من الطاعات انما هو محمود للعبد مادام محجوبا يختار خلاف ما يختاره له ربه جل وعلا فاذا رفع عنه الحجاب لم يجد شيأ قسم له ثم فاته أبدا لأن ذلك لايصح عقلا ولا شرعا (وكان) الشبلى رضى الله تعالى عنه يقول وهو فى بداية أمره اللهم ان عذبتنى بشئ فلا تعذبنى بذل الحجاب فلما كمل حاله صار يقول الحمد لله الذى حجبنى فى الوقت الفلانى عن شهوده فانه تعالى ماحجبنى عنه إلا رحمة بى خوفا أن لا أقوم بأدب الشهود وتارة يقول انى لا أشتهى رؤية الله عز وجل أبدا فقيل له فى ذلك فقال انزه ذلك الجمال البديع عن رؤية محدث مثلى انتهى ولكل مقام رجال فافهم يا أخى ذلك والله سبحانه وتعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين » اه

وقال أيضا فى صحيفة ١٨٨ من الكتاب المذكور مانصه : « ومما من الله تبارك وتعالى به على عدم قطع برى وحسنتى للناس اذا كفروا وساطتى فى ذلك فانى عبد ليس لى فضل على أحد وانما أنا مستعمل فيما أمرنى الحق تبارك وتعالى به وليس لى معه ملك أرى به فضلا على أحد من عبيده مطلقا وبتقدير رؤيتى الفضل على العباد فكلما كفروا وساطتى توفر لى الأجر بخلاف ما اذا مدحونى فربما كان ذلك المدح يرجح على ذلك العطاء فلا يبقى لى حسنة وقد كان سيدى على الخواص رضى الله تعالى عنه يقول أعظم الناس أجرا من يحسن الى من لا يشكره أو الى من يؤذيه من الأعداء انتهى . وسمعته أيضا رضى الله تعالى عنه يقول من أراد النصرة على أعدائه فليحسن اليهم وليتأمل فى نفسه الذى يعاقب ولده وتلميذه مثلا بقطع الاحسان اليه يجد الحق تبارك وتعالى يرزقه ليلا ونهارا مع كونه مخالفا له فينبغى للعبد أن يعامل عبيد سيده بالحلم والعفو والصفح وعدم المعاجلة بالعقوبة كما يعامله سيده . ثم لا يخفى أن الاثم الواقع لمن يعاقب ولده مثلا بقطع رزقه انما هو من حيث قصده هو والا فالعبد لا يقدر أن يرد ماقسمه الله تبارك وتعالى لغيره أبدا انتهى فافهم يا أخى ذلك واعمل على التخلق به ترشد والله تعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين » اه

وقال أيضا فى صحيفة ١٨٩ من الكتاب المذكور مانصه : « ومما من الله تبارك وتعالى على حضور قلبى مع الله تبارك وتعالى حال أكلى وشربى وشهودى ان ذلك من فضل الله تعالى على لا أستحق ذرة منه بل لا أقوم بواجب حقه تبارك وتعالى على لو سففت الرماد ثم اذا وقع لى أنى أكلت غافلا عن ذلك المشهد أو شربت استغفرت الله تبارك وتعالى حتى يغلب على ظنى أن الله تبارك وتعالى قبل استغفارى فضلا منه وانما لم أقل أستغفر الله مرة فقط لأن مثلنا ربما لا يقع له حضور فى استغفاره الا بعد سبعين مرة أو أكثر وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله تعالى عنه يقول ما أسبغ الله تعالى علينا النعم بالاصالة ليمكر بنا وانما أسبغها علينا ليجمع قلوبنا عليه ولا نخرج من حضرته تبارك وتعالى الا لعذر شرعى وكأن الحق تبارك وتعالى يقول من كنت كافيه عن الحرف والصنائع التى تحجبه عنى بما سخرته له من الرزق على يد عبادى من حيث لا يحتسب ولا تتشرف نفسه اليه فلأى شئ يخرج من حضرتى (وسمعته) رضى الله تعالى عنه أيضا يقول تيسير استعمال الطعام نعمة كالصلاة فكما أن الصلاة ماشرعت الا لحضور العبد فيها بقلبه مع ربه تبارك وتعالى فكذلك الحكم فى مشروعية الأكل والشرب ماشرعا الا ليحضر العبد فيهما مع من أحسن بهما اليه انتهى ☆ واعلم يا أخى انه ما واظب أحد على الحضور مع الله تبارك وتعالى حال أكله وشربه الا أورثه الله تبارك وتعالى القناعة والزهد فى الدنيا وكفاه شر نفسه انتهى من كتاب لطائف المنن الكبرى

فلما سمعت ذلك . قلت : أى فرق بين هذا القول وما قبله إلا فى العبارة على مقتضى الأحوال واختلاف الأمم ، فكل ذلك الاذعان لله والحب للناس . ثم قلت : بقى أن تذكر ما تعلمه من كلام علماء أوروبا فى هذا المقام . فقلت : قال الاستاذ (بارتلمى سانتهلير) المذكور فى كتاب «علم الأخلاق» مانصه :

« حينما يريد الانسان أن يختبر نفسه ويدخل فى أعماقها ، فهناك المشهد الكبير الوحيد الذى يكتشفه فيها عند الفكرة فى بعض الأفعال التى فعلها ، بل التى ينوى فعلها ، يسمع فى أعماق عقله صوتا يمدحه تارة ويلومه تارة أخرى ، وبقطع النظر عن أمثاله الذين يمكن أن يجد لديهم أحيانا صدى هذا الصوت الداخلى فان من المستحيل عليه أن لايلقى اليه سمعه . ونظرا الى أنه يحمل فى نفسه هذا الصوت فلايستطيع أن ينكره ولا أن يلزمه الصمت متى أتمر بأمره يشعر بأنه عمل صالحا . ومتى عقه يشعر بأنه عمل سيئا . وانما فى هذا الترديد بين الطاعة وبين العصيان تنحصر كل حياته الأخلاقية فاضلة فى حال ورذلة فى الحال الأخرى ، ولأن يسلم المرء نفسه وبلا رجعى الى خدمة هذه الأوامر الداخلية ويخلص لتنفيذها فى جميع امتداداتها من غير أدنى اعتبار للأشياء الخارجة وأن يكون دائما مستعدا لأن يضحى لها بكل الضحايا التى تقتضيها ، ذلك هو القانون الأعلى الذى يشعر الانسان بالخضوع له ولو أنه لايعرف إلا نادرا أن ينفذ مع التحرج أحكامه الصارمة . ذلك هو المثل الأعلى الذى لاينال والذى تتطلع اليه أنظار نفس الانسان وان كان يحيد عنه فى الغالب إلا أن مرجعه اليه على الدوام . ذلك هو الأمر الواقع المسلم به الذى هو بسيط وجليل معا والذى يكوّن الأخلاقية كلها . هل الانسان وحده هو الذى يعرف هذا القانون ويملكه ؟ كل مايهم من هذا هو أن الانسان يملكه حقا وذلك هو مايميزه عن سائر الخليقة التى يعيش فيها والتى لاتتمتع بهذه الميزة

إلى هذا الأمر يضاف أمر آخر ليس أقل منه وضوحا ولا أقل منه عجبا . إن الانسان حيال هذا القانون الذى يناجى ضميره مناجاة عاق وقدرة فى بعض الأحيان يشعر دائما أنه يستطيع مقاومته ، فعبثا يوصيه هذا القانون أن يلزم العدل فى فعله وعبثا يزكى العقل هذه الوصية . فالانسان قادر على أن يرفض تحت مسئوليته هذه النصائح القوية الحقة . ذلك لأن له بجانب ذكائه وعقله ملكة أخرى أقوى منهما بوجه ما لأنها تستطيع دائما (متى شاءت) أن تكسر نير طاعتها للعقل . تلك هى الارادة التى لاتخضع لشىء إلا لنفسها . فوجود مثل هذه الملكة فينا وحلولها محلا من الاستقلال والسيادة فى الدائرة الثانوية التى تخصها هو ماتستطيع اللاأدرية التحدّى بها حينما تهجم على الحق وعلى الذوق العام ، غير أن مانقوله هذا مجمع عليه من الجنس البشرى بل معترف به من جانب اللاأدرية نفسها إن لم يكن بأقوالها التى كان للسفسطة فيها شأن عظيم ، فبأفعالها التى منها ينبجس على رغمها وضوح المبدأ الذى تنكره الارادة فى الانسان هى هذه القدرة التى يستعملها للتصميم على وجه أوعلى آخر من غير أن يقدرشىء فى الدنيا على إكراهها مادامت لاتقبل هى نفسها ذلك الاكراه ، وبين أن هذه القدرة هى كل الانسان وهى التى تقوّم ماهيتنا ، إن هذا الصوت الذى يناجى ضميرنا هو فينا ولكنه ليس إيانا مادام انه قانون يلزمنا ، نحن لم نضعه مادمنا غير قادرين على تغييره على رغم وحى المنافع وعمايات الشهوات ، أما الارادة فعلى ضد ذلك هى نحن نحن وهى شخصنا ، هى نحن وحدنا بعظمنا وضعفنا وبقدرتنا المزدوجة على الطاعة والعصيان

ذلك هو مايسمى بالحرّية ، تلك الهبة المعجزة المخيفة التى هى قوّة الانسان والتى يترتب على قدر مايحسن أو يسىء فى استعمالها سعادته أو شقاؤه علوّه أو سقوطه ذلك هو مايسمى بلغة (كنت) «حياد الارادة» لامن جهة أن إرادة الانسان كما قد يعتقد (كنت) تضع لنفسها قوانينها ، بل من جهة أن الارادة يمكنها دائما أن تطيع أو تعصى القوانين التى يمليها عليها العقل والضمير ، فمعنى حياد الارادة هو أنها تستطيع أن تقرر مايعجبها حتى ضد كل عقل وكل منفعة

يتضح بهذا أن القانون الذى هو فى ضمير الانسان يناجى عقله هو المبدأ الأسمى وفوق الانسانى . والارادة الحرّة التى تنفذ هذا القانون أو تخالفه هذه هى المبدأ الانسانى والتابع وهما اثناهما مصدر علم الأخلاق ومفتاحه . فالانسان يحمل فى نفسه قانونا ومحكمة بوجه ما تحكم ببراءته أو بإدانته بحسب الأحوال ، ولها من

القوة التنفيذية إما الرضا الجيل بأنه عمل خيرا و إما الندم ووخزالضمير على كونه عمل شرا . والانسان يحس نفسه رعية لقوة هي أعلى منه منعمة لطيفة إذا أطاعها منتقمة جبارة اذا عصاها . ومتى اقتضى العدل عجلت له العقاب الخارجي بما تسومه من سوء العذاب الداخلي الذي يعرف الأثيم سره الأليم حتى لوتملص من انتقام الهيئة الاجتماعية

هذان الأمران : القانون الأخلاق والحرية ، هما فوق كل مناقشة ممكنة ومن ينكرهما ينزل بذلك عن اسم الانسان و ينحط بنفسه (علم أوجهل) إلى ماتحت منزلة البهيمة وان كان أذكى منها بلاشك إلا أنه فاسد الأخلاق والبهيمة ليست كذلك

ليست النتائج ههنا بأقل وضوحا من المبادئ ولا بأقل عجبا فان الانسان متى قبل بارادته نير القانون فذلك يرفعه و يشرفه و بعيد أن يكون سببا فى خفضه . إنه بطاعته الاختيارية يشعرك بمحض إرادته شيئا أكبر منه ويحس أنه مرتبط بنظام أعلى منه يشد أزره . وقلما يخسر بهذه الطاعة شيئا بل يكسب بهامن العظمة والوقار مالم يكن له من قبل بدونها . إن العالم الأخلاقي الذي يدخل فيه على بينة من تحديد حريته هوالعالم الحقيقي الذي يجب أن تعيش فيه روحه فى حين أن جسمه يعيش فى عالم مخالف تماما حيث توشك الحرية أن لا يكون لها عمل . إنما هوفلك من الطهر والسلام حيث لاأرجاس ولازعازع إلامايسمح لها الانسان بالدخول فيه . فالسكينة والنور فيه لاتتعلق إلا بالانسان وحده ، ومتى شاء استطاع أن يبسط فى هذه السماء الداخلية صحوا لا يكدر . و بمقدارمايوغل عقله فى الطاعة يكتسب من القوة وتصير الأرض التى يرتكز عليها كذلك أكثر ثباتا وخصبا . إن اعتقادات الضمير تزداد ثباتا بالمران وإن بهذه المعاوضة بين الطاعة الاختيارية من جهة والقوة المكتسبة من جهة أخرى تكبرقيمة الانسان فى عينه الى حد لم يكن يعرفه من قبل كبرا لا يأباه عليه تواضعه لأنه ينسب أصله الى قوة أسمى منه . من ذلك يستمد ذلك الاحساس الشريف العجيب الذى يسمى احترام الذات وهوالكفيل للمرء بأن يؤدى له أمثاله الاحترام الواجب عليهم والذى يؤديه هولهم فى دوره ، ولوعودل بين هذه الخيرات الداخلية التى هى فوق كل ثمن هذه الفيوض القدسية (كما كان يقول أفلاطون) و بين الخيرات الخارجية لقلت قيمة هذه بالنسبة لتلك ، ومع ذلك فان هذه الخيرات الداخلية يضحى بها من غيرتردد بل من غير ألم فى سبيل خيرات لاقيمة لها ، على أن الثروة والصحة والمحبة والحياة نفسها لا بقاء لها ، فليضح بها عند الحاجة قربانا للاحتفاظ بما هوأسمى منها إذ لا يستطاع إيثارها على الأمر الوحيد الذى يجعل لها شيئا من القيمة »

وقال فى صحيفة ١٧ ومابعدها مانصه : « لايمكن القوانين الانسانية أن تكون أساسا لقانون الأخلاق لأنها تستمد منه ، وهوالذى يقضى عليها و يدينها حينما تنحرف عن جادة أوامره الواجبة الاتباع ، كذلك التربية التى يتحدى بها بعض الفلاسفة لاتفسر قانون الأخلاق الذى هوأكبر سلطانا عليها من القوانين العمومية ، والواقع أن التربية مهما كانت ممتازة فليس لها من صورة إلا التشريع المسنون للطفل بدلا من أن يكون مسنونا للناس ، وهذا التشريع الضيق ليس له قواعد إلا التشاريع المدنية ، فمن أى ناحية نظرالى علم الأخلاق لم يوجد له من حيث أصله أثر بشرى ، وانه ليدبرشئون الانسان ويلى أمره بسبب أنه ليس من عمله ، ومتى أراد الانسان أن يدرس فيه سبل الله عرف منه بوضوح وجلاء أن الله قدير وأن الله لطيف .

« فى العالم المادى بأسره مهما كان جيلا ومهما كان منتظما لايجد المشاهد اليقظ شيئا يؤتينا أقل فكرة من قانون الأخلاق ، وان الآثار التى نصادفها أحيانا عند الحيوانات الأرقى تركيبا ونظنها آثارا لقانون الأخلاق ليست إلاتخيلات فاننا نعيرها مانحن عليه ، نفترض أن لها طبعنا إما لجهل منا قد يكون إثما متى كان يرمى إلى الخفض من مستوانا الانسانى ، واما لنوع من العطف التافه ، ولكن الحق أن قانون الأخلاق ليس له محل

إلا

إلا قلب الانسان ، وأن الذى خلق العوالم والقوانين الأزلية التى تسيرها لم يخلق شيئا يضارع ضميرنا فى العظم فان الحرية مع مابها من ضعف هى أحسن من الطبيعة كلها مع مابها من ثبات لايتزعزع ، بل إن المقارنة لامحل لها من الامكان لدى عقل قد فهم ذاته ، لأنها مقارنة سخيفة ، إذ أن رفعة العالم المعنوى لاتقاس بها رفعة على الاطلاق وأن قدرة الله تظهر حينئذ فينا بمظهر أجلى من مظاهرها فى الخارج ، وان فى إقامة الدليل على وجود الله بهذا القانون الذى نحمله فى قلوبنا وتعترف به عقولنا لبلوغا بالاستدلال الى أجل البراهين وأرفعها ، غير أن حلم الله يساوى على الأقل قدرته ، تنظر فى هذه القوانين غير الكاملة التى يسنها الناس مسوقين بدافع الحاجة لاستعمالها ، فترى دائما فى أوامرها وزواجرها شيئا من الغلظة والوحشية ، حتى متى كانت غاية فى العدل فان العقوبة التى تقع على المجرم يمكن أن تعدمه ولكنها لاتمس نفسه تخيفه من غير أن تصلحه ، الارهاب يحوّله دون أن يحسن حاله ، أماهنا فلاشىء من ذلك ، فى شرع الله المرء هوقاضى نفسه مؤقتا على الأقل ، ومن أجل أنه يمكن أن يحكم على نفسه يمكنه أيضا أن يتقى الوقوع فى الخطيئة التى يشعر بأنها كبيرة من الكبائر ، فان الصوت الذى يناجيه من داخل نفسه قد أنذره بادئ الأمر إنه يمحض له النصح قبل أن يقرّعه باللوم وانما هو يعاقبه حينما يصمّ أذنيه ، ولوأن قانون الأخلاق سلك فى التأديب سبلا غير معنوية محضة لكان فى ذلك من التناقض مافيه ، فكم فى هذا التأديب من مجاملة تراعى فى حق الجانى ! وكم من مجهود ينفق فى سبيل ردّه الى الخير ولايشعر بهذا المجهود أحد إلا هو ولايذاع خبره فى الخارج ! تحفظ ورصانة أيما رصانة ، ولاشكّ فى أن الانسان يجاوزغيرمرة حدودالاعتداد بهذه الرحمة ، غير أن الشكوى منها إنما هى الجمع بين كفران النعمة وسوء الخلق . حسب الانسان استهانة برحمة الله أنه لاينتفع بها فان كل قلب مهما قسا يعجب بها ويشكر الشارع الأسمى على لطفه فى جانب عظيم قدرته

« إليك نتيجة أخرى لهذا النظام القدسى ليست أقلّ من الأولى صدقا ولا أخفّ منها وزنا . وهى أن الانسان متى أحسّ من نفسه الاختيارفى طاعة قانون العقل أوفى عصيانه أحسّ بذلك أنه مسئول عن أعماله أمام القدير الصانع لهذا القانون ولهذا الاختيار ، فليس عليه البتة أن يخافه الخوف الذى لايليق إلا بالعبد ، لأن طبيعة طاعته قد تجعله يعامل أبا رحيما لاسيدا ، لكنه يجب أن يتقى غضبه عليه بتعدّى حدود القانون الذى يعترف هو نفسه به أنه غاية فى العدل ، ولئن كان الانسان يغضب فى قلبه من الخطيئة التى وقع فيها ، فمن باب أولى يجب أن يعتقد أن الشارع يغضب على من يرتكب الخطيئة وهوفى مكنة من اجتنابها ، وان الانسان الذى له بقانون الأخلاق فى هذه الدنيا حظ ممتاز يجب عليه أن يؤدّى الحساب عما يكون قدأنفق فيه هذا الحظ ، ليس عليه حساب لأمثاله ، لأن غاية مايعرفون هى أعماله التى يعاقبونه عليها أحيانا ولأنهم رعية مثله فهاهم وهو إلا على حدّ سواء ، لايستطيعون أن يكونوا قضاته الحقيقيين ، لأنه يعزب عن علمهم ماتجيش به الصدور من نيات جميع الأفعال ومقاصدها ، على أن النيات والمقاصد وعلى جملة من القول كل مايخفى بحكم الضرورة على العدل الانسانى هو مورد الحكم ، فاما أن ننكرقانون الأخلاق وحرّية الانسان ومسئوليته ، واما أن نقبل كنتيجة لازمة حياة أخرى تتلوهذه الحياة الدنيا فيها يقيم الله الوزن بالقسط ويرتب الجزاء الذى أعدّه للذين عملوا الصالحات وللذين كسبوا السيئات ثوابا وعقابا تفرّد وحده بعلمهما . غيرأن علم الأخلاق لايتعدّى حدوده اذا هو قرّر أن هذا العدل النهائى لامحالة واجب وأن حياة الانسان الدنيا لايمكن أن تفهم بدون الحياة الأخرى التى يجب أن تتلوها »

الى أن قال : « فعلم الأخلاق بمجاوزته هذه الحياة الأرضية يتجه من الانسان الى الله ، ويثبت وجود الحياة الآخرة بما فيها من الثواب والعقاب كمايؤكد نظام هذه الحياة الدنيا . ليست هذه فروضا محضة لاسند لها ، ولاهى من مسلمات العقل العملى كما قد يقول الاستاذ (كنت) بلهجته الشاذة ، بل هى نتائج صادقة

لازمة عن مقدمات صادقة لاجدال فيها . وفوق ذلك فان هذه النظريات فى غاية الوفاق مع الاعتقادات الغريزية للجنس البشرى تؤيدها الديانات المبينة وتوضحها الفلسفة »

وقال فى صحيفة ٢٢ من المقدمة مانصه : « فحمل الجسم على الاعتدال ورياضته الى حد مّا وإيتاؤه حقه من حاجاته وحبسه عن كل مايتعداها ، وعلى جملة من القول جعل الجسم آلة ممتثلة وخادما مطيعا ، تلك هى إحدى القواعد الأصلية للحياة الأخلاقية و بالنتيجة أحد الأجزاء الكبرى للعلم . إن اجتماع الروح والجسم أعنى العقل والمادة هومسألة خفية ليس لعلم الأخلاق أن يثير ثائرها لاختصاصها بعلم ماوراء الطبيعة . غير أن من واجبه أن يبحث عن ظروف هذا الاجتماع و يفسرها على نور القانون ، إنما هوعمل يدرسه كأعمال الضمير وليس بأقل أهمية منها فاغفاله نقص عظيم وحذفه من علم الأخلاق قد يعرّض الى عدم فهم الحياة الأخلاقية حق فهمها مع أن هذه الحياة الأخلاقية ليست فى الحقيقة إلا ضربا من المبارزة بين هذين الأصلين المتقابلين »

وقال فى صحيفة (٢٤) ومابعدها من المقدمة أيضا مانصه : « إن النقطة الأساسية لهذا العلم هى أنه يبين للانسان أن قانونه هو عمل الخير دائما مهما وقف فى طريقه من العقبات التى يسببها تعقد الأشياء الانسانية ، وأن عمل الخير إنما هوطاعة لامحدودة ولامقرونة بالتذمر مع استسلام ، بل مع ثبات و بسالة اذا اقتضى الحال ذلك طاعة لأوامر العقل المنشورة فى الضمير والتى قبلتها إرادة لها من سلاسة القياد مالها من حدّة الذكاء ، الأوامر التى يمكن أن تمثل أمام الشخص بأنها أوامرالله . ذلك هومركزالحياة كما هومركز العلم ولكنه مع ذلك أيضا ميدان التقاتل فى النظريات وفى العمليات . فان الفرد يأتى الشرّ على العموم إما عن عدم التفات و إما عن جهل ولا يكاد يقارف الاثم أبدا بعد تدبر وروية عالما بأنه يرتكبه وان كان من الطبائع ماهومن الشقاوة بحيث إن أجل مواهبها لاتخدم إلا الرذيلة . غير أنه فى العلم لاعذر بالجهل ولا بعدم الالتفات . واذا كان التسامح فى ماجريات الحياة يلزم كثيرا حتى بالنسبة للجناة فانه لايلزم أبدا بالنسبة للنظريات الفاسدة بل يجب دحضها بلاشفقة وإيضاح خطئها ليقلّ خطرها تجب مداعاتها أمام محكمة الضمير النزيهة وادانتها نهائيا بلا استئناف ، وليس بجانب نظرية الخيرالذى هوالواجب الوحيد على الانسان إلاحل آخر ممكن وهونظرية المنفعة مع مايقترن بها من التيه والحنايا التى تتشعب فيها شخصيتها وتضلّ طريقها فان المنفعة تظهرعلى صورعديدة ، تظهرأوّلا على صورة من الخشونة بمكان ، وتلك الصورة هى الثروة مع كل الخيرات الثانوية التى تؤلفها ثم على صورة مصقولة نوعا وهى صورة اللذة مع جواذبها التى لاتقاوم ثم على صورة أقلّ تعينا وأكثر قبولا تبدو فى رواء حسن خدّاع وهى السعادة . إنه يجب على القانون الأخلاقى و بالنتيجة أيضا على علم الأخلاق أن ينكرالمنفعة و يحاربها على أى شكل كانت عليه من الثروة أومن اللذة أومن السعادة نفسها وأن لايقبل أى واحد من هذه العوامل على أنه عامل لسلوك الانسان ، لاشكّ فى أن هذه العوامل هى المتسلطة فعلا فى الغالب بل قد يكون من الحسن أن تتسلط الى حدّ معين ، ولكن ليس لواحد منها أن يدعى السلطة ولاأن يغتصب لنفسه السيادة دون مبدأ الخير صاحب السيادة وحده . إن قانون الأخلاق الذى تمثله القلوب الجاهلة أوالضعيفة بألوان قاسية ، هكذا لكى تسهل مخالفته لايحرم الانسان من الثروة التى هى ثمرة عادية يستحقها لعمله ولامن اللذة وهى حاجة طبيعية له ، ولامن السعادة التى هى رائد جميع مجهوداته ، ولكنه يهديه الى أنه يجب عليه فى بعض الحالات على ندرتها أن يضحى للخير بالثروة و باللذائذ و بالسعادة بل بالحياة ذاتها ، وأنه اذا لم يعرف أن يقرب هذا القربان فانما هو يعبدالأصنام ولايعبدالله الحق ، وأن هذه التضحيات على ندرتها عند الذى يفهمها تكفى لكشف القناع عن قانون الأخلاق فى أسنى بهائه . و بما أن الخيرهوالذى ينال الظفر عند أكبرالمنازعات وأشدها علانية يكون بذلك هوالسيد الحقيقى للانسان . ولاتكون جميع العوامل الأخرى المتولدة عن المنفعة على درجات مختلفة كالثروة واللذة والسعادة إلا كما يكون الطاغية الظالم لرعيته » انتهى

ماأردته من مقدمة المترجم لكتاب ﴿ علم الأخلاق ﴾ وهو الاستاذ بارتلمى سانتهلير والحمد لله رب العالمين
فلما ألقيت عليها ذلك . قالت : فهذه أنوارنا ألقيت إليكم وأنا أهنيك بها إذ تطلع المسلمين على خلاصات علم الأخلاق فتشرح صدوركم وبها تعلمون أن حكماء أمم الشرق والغرب يجمعون على فحوى هذه الآيات القرآنية . فعلماء اليونان والفرنسيين وحكماء الصين جميعا أيقنوا بأن لهم داعيا فى نفوسهم يحاسبهم اذا قصروا و يبشرهم اذا أطاعوا و بهذا يعرف الناس عظمة القرآن ، وهذا الزمان مبدأ ظهوره لحكماء الأمم شرقا وغربا ، فهذه هى آثارى ، أنا البصيرة والقرآن بصائر للناس . فهذه المقالات التى قرأتها علىّ من هؤلاء الحكماء هى آرائى وهذا الجمال الذى شاهدته فىّ وراءه ماهو أجل منه ، وهنالك مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، وان يرى الله إلا نفوس حازت صفتين : علما كاملا بهذا الوجود . واخلاصا وخدمة لنوع الانسان مع أخلاق كاملة . الجمال يحيط بالناس فى المادّة وفى النفوس . وما أسعد من اعتاد النظافة والاتساق والنظام ودرس فنون الجمال فى الكواكب والبحار والأنهار والزروع والأشجار . فهذه المناظر كلما ازدادت عنده تمكنا ازدادت نفسه شغفا بالجمال الحقيقى . وهنالك يشتاق للذات الروحية وهى أبهى وأبهر وأجل وأكمل . وهذه الطائفة أقرب الناس الى طبيعتى فاذا أسديت لهم النصائح استمعوا لها بلاتوان . لقد شاهدت فى قلبك أنت ﴿ ثلاث صفحات مكتوبات ﴾ صحيفة الكواكب فى سمائها . وصحيفة الزروع والأنهار والأشجار والعوالم الأرضية . وصحيفة آراء العلماء والحكماء قديما وحديثا ، فاقرأ علىّ من صحيفة الحكماء مامنه يكون القبس ثم تبسمت ، وهذه الابتسامة إشارة الى قوله تعالى ـ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أوأجد على النار هدى ـ (وقدكنت فى الليلة السابقة أردّدها فى الصلاة ولها صلة بآراء الفلاسفة سأوضحها) . فأسمعنى من اللوحة الثالثة من قلبك آراء حكماء بعد من ذكروا الآن ومتى أتبعته بالقبس يتضح المقام أتمّ إيضاح . فقلت :

آراء الحكماء بعد أرسطاطاليس

﴿ أوّلا ﴾ آراء أتباعه مثل (ثاوفرسطس) المتوفى سنة ٢٧٨ واستراتون المولود سنة ٢٨٨ المجهولة وفاته وغيرهم ممن كانوا خلف أرسطو فى رئاسة دار التعليم بأثينا ، فهؤلاء عدلوا عن الإلهيات ، ذلك لأن أرسطو اعترض على أفلاطون أستاذه وقال له : « إن المثل التى استدللت عليها بأدلتك العقلية وقلت انها معان معقولة تكون أصلا لكل موجود فى الخارج غير واضحة ولاظاهرة هى خفية ، وخيرلنا أن نبدلها بما هو خير منها من المادة والصورة وانهما أصل العلم لأن الصورة فى المادة أقرب الى الفهم من تلك المثل والمعانى التى لانعرفها »

فردّ هؤلاء العلماء التابعون لأرسطاطاليس قوله وقالوا : « إن الصورة متغيرة لاثبات لها فى المادّة ، فكيف نسند العلم الى ماهو متغير ! » وأدلة كثيرة من هذا القبيل أوجبت رجوعهم عن الالهيات

﴿ ثانيا ﴾ هنالك ظهرت فرقتان : فرقة (أبيقورس) وهؤلاء قالوا باللذة أى ان الانسان يقرأ الفلسفة لأجل اللذة المستفادة من فهمها ، وهو مولود سنة ٣٤١ ق.م ومات سنة ٢٧٠ ق.م . وفرقة الرواقيين ورئيسهم زينون توفى سنة ٢٦٤ ق.م وكريزيبوس المتوفى سنة ٢٠٩ ق.م ومذهبهم انه ليس هناك إلا جوهر واحد هو المادة والله يلقى عليها شعاع نوره ، والالهيات والطبيعيات عندهم علم واحد . فهناك عقل يضبط المادة ألطف جدا له قوّة تحرّك العالم . فالعالم كحيوان وهو كروحه . والانسان عالم صغير فى مقابل العالم الكبير . والانسان له من ذلك النور الالهى أكثر من غيره . والأخلاق عندهم عليها مدار الفلسفة . واذا كان نور الله مشرقا على الانسان أكثر من غيره وجب عليه أن يتلقى ذلك بالترحاب . وهل يكون ذلك إلا

بالأخلاق الشريفة . وما الفلسفة إلا بستان المنطق سياجه وعلوم الطبيعة أشجاره ومحاسن الأخلاق ثمرته .
فلاعلم إلا بعمل ولاحكيم إلا من بلغ من العلم والعمل الدرجة العليا . ولاقصد للحياة إلا التخلق بأخلاق الله
ولكنهم جعلوا الانسان مجبورا لامختارا فصارمذهبهم فيه بعض الانقباض . وأيضا رجعوا الى غيبوبة النفوس
وأهملوا الأعمال الظاهرة نوعا ما وأخذوا يبحثون فى معرفة ماوراء الحس والكشف . وتبعهم فى ذلك بعض
الأمم الاسلامية وهم كثير من فرق المتصوفة . ولم يحدث بعد هاتين الطائفتين ارتقاء فى العلم هناك

(٣) ثم جاء فى أواخر القرن الثانى للمسيح أمثال (نيقوماخس الجهرسينى) الذى عاش الى سنة ١٤٠ بعد المسيح القائل بأن الأعداد هى أصول الموجودات وهو صاحب كتاب الارتماطيقى ومن فلاسفة هذا العصر جالينوس الطبيب . ولقد ظهر بالاسكندرية إذ ذاك (امونيوس سكاس) ومعنى سكاس (الحمال) لأنه كان فى أول نشأته يحترف بتلك الحرفة وكان نصرانى الأصل ثم انتقل الى ملة اليونان العتيقة وهى الوثنية وتعاطى الفلسفة واشتهر فيها . وقد ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد وتوفى سنة ٢٤٢ وجاء بعده تلميذه أفلوطين المتوفى سنة ٢٦٩ ب.م وبعد أفلوطين تلميذه بروفيريوس ولد بصور الشام سنة ٢٣٢ ب.م وتوفى سنة ٣٠٤ ب.م وهؤلاء ومن تبعهم يسمون الفرع الاسكندرى . وبعدهم يبليخوس ومن تبعه ويسمى الفرع الشامى إشارة الى مولد يبليخوس إذ كان باحدى بلاد الشام وتوفى سنة ٣٣٢ ب.م ثم سريانوس وبرفلس ومن تبعهم وهم يسمون الفرع الأثينى لكون دار التعليم إذ ذاك قد انتقلت الى اثينا . ولد بروقلس سنة ٤١١ م وتوفى سنة ٤٨٥ م كل هذا من كلام (سنتلانه التليانى) فى كتابه (تاريخ الفلسفة) والى هنا انتهى دور اليونان ومن تبعهم

فهذه أمم خلت ثم جاء الاسلام وكان عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم و بنى أمية . ويحسن أن نذكر هنا نبذة من كتاب « مبادئ الفلسفة » المترجم من اللغة الانجليزية بقلم الاستاذ أحمد أمين فى الكلام على عصر العباسيين فقد جاء فيه ماياتى :

فلما جاءت الدولة العباسية « ١٣٢ – ٦٥٦ هـ » عظمت حضارة المسلمين ، وهضموا ماأخذوه (بالفتح) عن الفرس والروم والهند ، ونقلوا علوم الأمم التى سبقتهم فى المدنية ولاسيما الهند واليونان . وفى زمن أبى جعفر المنصور والرشيد والمأمون ومن بعدهم ، ولاسيما المأمون توسع الناس وخاصة السريانيين (فى ترجمة علوم اليونان على اختلاف أنواعها : من طب وهندسة وهيئة وتقويم بلدان ، وفلسفة بفروعها المختلفة من طبيعيات وإلهيات ومنطق ونفس وسياسة وأخلاق) الى اللغة العربية فترجموا فى القرن الثانى والثالث للهجرة كتب أفلاطون وأرسطو وأقليدس و بطليموس وجالينوس وغيرهم ، وبحثوا فيها وتداولوها يشرحونها مرة و يختصرونها أخرى ، وخصص كثير من المسلمين حياتهم لدراسة الفلسفة وتفهمها فكانوا بعد فلاسفة

وكان أغلب مؤسسى الفلسفة عند العرب ومؤيديها أطباء وعلماء فى الطبيعيات أكثرمنهم رجال دين ، وعلى العكس من ذلك فلاسفة الغرب فى القرون الوسطى فقد كان أكثرهم قساوسة . ولهذا لم يقصر المسلمون نظرهم على الالهيات بل كان البحث فى الطب القديم والعلوم الطبيعية عندهم يسير جنبا لجنب مع البحث فى الالهيات وماوراء الطبيعة ، وترجموا كلام جالينوس فى الطب وأقليدس فى الهندسة كما ترجموا كلام أرسطو فى الالهيات (١)

غير أنه يظهر أن ماابتكروه من عند أنفسهم قليل اذا قيس بما نقلوه من اليونان ، نعم انهم فى بعض فروع العلم كالكيمياء وعلم المعادن والطب وعلم وظائف الأعضاء كان لهم أثر ظاهر ، واستكشفوا من القوانين مالم يصل اليها اليونان قبلهم ، ولكنهم فى غير ذلك من فروع العلم كالمنطق والنفس والأخلاق كانوا نقلة أكثر

(١) انظر فندلبند صفحة ٣١٦

منهم

منهم مبتكرين ، وكانوا في طريقتهم العلمية ونظامهم في البحث وأنظارهم الى العالم وترتيب فلسفتهم وقواعدهم متأثرين تأثرا عظيما بفلسفة أرسطو والافلاطونية الحديثة

ولهم الفضل على الغرب بكل مما نقلوا أو ابتكروا ، فكثير من كتب اليونان وأبحاثهم ما كان يصل اليها الغربيون لولا حفظ العرب لها ودراستهم إياها . كما أن كثيرا من مبتكراتهم واختراعاتهم تعد (بحق) من أسس المدنية الغربية

ابتدأ المسلمون لأول عهدهم بالفلسفة يدرسون الفلسفة « الافلاطونية الحديثة » (وهي مذهب مزيج من الفلسفة والدين ظهر في أواخر القرن الثاني للميلاد ، وكان مقره الأصلي الأسكندرية ، حاول مؤسسوه التأليف بين الدين المسيحي والمذاهب الشرقية ومذاهب اليونان ولا سيما أفلاطون وأطلق عليه « فلسفة أفلاطون الحديثة » ومن أشهر دعاته (أفلوطين) ولد في مصر سنة ٢٠٤ م قيل انه رحل الى فارس ودرس الفلسفة الشرقية وعلم في رومة من سنة ٢٤٤ م ومات نحو سنة ٢٦٤ وكانت تعاليمه مزيجا من الفلسفة العلمية والتصوف الديني) والذي دعا المسلمين الى اعتناقهم هذا الضرب من الفلسفة انها كانت فاشية لعهدهم في الشام وأنها مصبوغة بالصبغة الدينية ، ثم ارتقوا منها الى النظر في فلسفة أفلاطون وارسطو ، ولكن كانت قد غلبت عليهم فلسفة أفلاطون الحديثة ، فلما أن نظروا بعد في فلسفة أفلاطون . وأرسطو نظروا اليها بعيون متأثرة بالأفلاطونية الحديثة

وأول من اشتهر من المسلمين بالفلسفة يعقوب الكندي ويلقب (بفيلسوف العرب) لأنه عربي صميم تبحر في الفلسفة . وقد كان تابعا للافلاطونية الحديثة وتعاليم أرسطو أكثر منه فيلسوفا مستقلا . وأكثر ماله من الفضل جاء من ناحية الترجمة والنقل ، وقد ظهر له في عهد المأمون والمعتصم كتب كثيرة بعضها ترجمة وبعضها تأليف وصل الينا من أسمائها نحو ٢٥٦ كتابا عدها صاحب أخبار الحكماء ، وفهرست ابن النديم ومات نحو سنة ٢٦٠ هجرية

وجاء بعده أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٤ ه عاش تحت كنف سيف الدولة بن حمدان وكان يعرف لغات كثيرة وبرز في الموسيقى والرياضيات وعلم اللغة والفلسفة ، درس فلسفة اليونان ومهر فيها ، وقد كان كالكندي تابعا للأفلاطونية الحديثة (وان لم يعرف هو هذا الاسم) وتعاليم أرسطو ، وكان معشوقه من فلاسفة اليونان أرسطو حتى قيل إنه وجد (كتاب النفس) لأرسطو وعليه بخط الفارابي (إني قرأت هذا الكتاب مائة مرة) وقد لقب بالمعلم الثاني (والمعلم الأول هو أرسطو) لحله معميات الفلسفة اليونانية ، وكان الفارابي كسائر فلاسفة المسلمين يرون أن الاسلام من قرآن وسنة حق . وأن الفلسفة حق . والحق لا يتعدد فوجب أن يكون الفلسفة والاسلام متفقين . غير أنه يؤخذ على فلاسفة الاسلام أنهم لم ينظروا الى الفلسفة اليونانية (كما كان ينبغي أن ينظروا اليها) من أنها مجموعة أقوال ومذاهب قد يناقض بعضها بعضا . وأن مايذهب اليه أرسطو في مسألة قد يكون مناقضا لما يذهب اليه أفلاطون فيها ، بل نظروا اليها كأنها حقيقة واحدة ملتئمة ، وقالوا ان أفلاطون قد يختلف مع أرسطو في طريقة البحث أو التعبير عن المقصد ولكن آراءهما في الفلسفة واحدة ، وصلت اليهم تعاليم أفلاطون كما حكاها فورفريوس (وهو من أصحاب مذهب الافلاطونية الحديثة) وتعاليم أرسطو كما حكاها متأخرو المشائين ودخل عليهم فيما نقل اليهم من فلسفة اليونان ، ولاسيما فلسفة أرسطو ، خلط وتشويش . يدل على ذلك أنه في زمن المعتصم ترجم أحد نصارى لبنان جزءا من أتيده أفلوطين الى العربية وسماه (لاهوت أرسطو) وتلقى المسلمون كل ذلك بالقبول ، وعدوا أقوال الفلاسفة المختلفة شرح الحقيقة واحدة فبذلوا جهدا عظيما في التوفيق بين أقوال أفلاطون وأرسطو ، وزاد عليهما المتدينون (القرآن) وهذا مافعل الفارابي ، فقد كان مؤمنا بأقوال أرسطو وأفلاطون منزها للقرآن عن الخطأ ، فمزج

اللوح والقلم والكرسي والعرش والملائكة والسموات السبع بتعاليم اليونانيين الوثنيين مع مابين أجزائها من التناقض ، ومحاولة ذلك تستدعي ذكاء نادرا وتصوفا و (كشفا) وغموضا وسبحا فى الخيال

وبحث الفارابى كذلك فى السياسة فى كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) واختار من أشكال الحكومة الحكومة الملكية الدينية ومزج فى هذا الكتاب بين آراء أفلاطون فى (الجمهورية) و بين أقوال الشيعة فى الامام المعصوم اذ كان سيف الدولة بن حمدان مقرب الفارابى وحاميه شيعيا

وممن لهم أثر كبير فى الفلسفة الاسلامية جمعية شبه سرية تسمى (اخوان الصفا) اجتمعت فى البصرة نحو منتصف القرن الرابع للهجرة ودعاهم الى جعلها سرية كره عامة الناس وعامة المتدينين للفلسفة ومن اشتغل بها ومحاولتهم ايقاع الأذى بالفلاسفة ، وقد عد القفطى فى أخبار الحكماء أسماء خمسة من أعضائها وكان قصدهم نشر المعارف بين المتعلمين فى جميع الأقطار الاسلامية وتغيير أفكارهم الدينية والعلمية . قالوا (ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولاسبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال [1] فألفوا احدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة أنواع العلوم المعروفة لعهدهم فهى (دائرة معارف) تشتمل على معارف العرب اذ ذاك باختصار ، قالوا فى أول هذه الرسائل : ان الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا فى علم النفس ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة الى لغة من لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها حتى انغلق على الناظر فيها فهم معانيها ، ونحن قد أخذنا لب معانيها وأقصى أغراضهم فيها وأوردناها بأوجز مايمكن من الألفاظ والاختصار فى إحدى وخمسين رسالة اه)

وكانت تعاليمهم فيها كذلك مزيجا من أبحاث (الافلاطونية الحديثة) والتصوف وماقاله ارسطو فى العلوم الطبيعية وماقاله الفيثاغوريون فى العدد (الرياضة) وقد كان لها أثر كبير فى العقول بانتشارها بين الناس ولكن فيها من الخلط والتشويش ماذكر قبل . وقد ظن بعض الباحثين أن هذه الجمعية جمعية باطنية (اسماعيلية) لما بين مايجيء فيها أحيانا و بين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة الموت (وكانت فى يد الاسماعيلية) على كثير من نسخ الكتاب

وكان لأبى على بن سينا البخارى (٣٧٠ - ٤٢٨) شهرة فائقة فى الفلسفة ، وفلسفته تقرب من الفلسفة الارسطاطليسية الصرفة ، وربما كانت أقرب فلسفات المسلمين اليها ، وكتابه (القانون) كان العمدة فى الطب فى القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين معا وله فضل كبير فى نشر الفلسفة بين الناس بمؤلفاته العديدة ولاسيما الالهيات والمنطق . هذا الى كثير من أمثال هؤلاء الفلاسفة كالبيرونى وابن مسكويه وابن الهيثم

وقد كان انتشار الفلسفة بين المسلمين فى القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة سببا فى حركة جديدة قام بها المتكلمون (علماء الكلام) يريدون بها مقاومة تعاليم أرسطو وأفلاطون والافلاطونية الحديثة المتعلقة بالالهيات أو الرد عليها ودحضها فنشأ من ذلك أبحاث كلامية كثيرة فبحثوا فى العلة والمعلول والزمان والمكان والحركة والسكون والجوهر الفرد والدور والتسلسل ونحوها ، ولم تكن ردودهم موجهة الى الفلاسفة فحسب بل الى كل من خالف سنتهم من معتزلة وزنادقة وفلاسفة وظاهرية وحنابلة ، ومن أعلام هذه الطريقة أبو الحسن الأشعرى وامام الحرمين والباقلانى ، ولكن أحدا منهم لم يخص الفلسفة بالطعن ولارد عليها من جميع جهاتها حتى جاء الغزالى (٤٠٥ - ٥٠٥ هـ) فدرس الفلسفة اليونانية درسا دقيقا (كما حدث هو عن نفسه) ، ثم حمل عليها حملة شديدة من جميع جهاتها وألف فى ذلك كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » وكفر الفلاسفة لبعض تعاليمهم ، وأظهر منافاة الفلسفة لتعاليم الدين ، ودعا الناس الى الرجوع الى دينهم الصحيح الخالى من الفلسفة

(١) أخبار الحكماء

ورغب

ورغب فى التصوّف وأبان أنه الطريق الحق الى الله ، وكان بليغا فى قوله مخلصا فى حديثه سهل العبارة قوى الحجة ، فأثر ذلك فى المسلمين أثرا كبيرا ، وكان من آثاره أن حول الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم الى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوّف والصوفية وحبب ذلك الى الناس . وسار على طريقة الغزالى كثيرون من بعده

هذا مجمل حال الفلسفة فى الشرق ، أما فى الغرب أعنى فى الأندلس وشمالى افريقية فقد أظهرت الفلسفة (حينا) أكثر من أزهارها فى الشرق . وكان فلاسفة الأندلس والمغرب أكثر ابتكارا من فلاسفة المشرق ، وكان يندر بين مسلمى الاندلس الخلاف فى العقائد والمذاهب كالذى كان عند المشارقة ، فكلهم الا القليل مالكى سنى ، أخذوا الفلسفة عن أهل المشرق فقد كان منهم رحل اليه رحلوا عن طريق القاهرة وأمعنوا فى الرحلة حتى الى فارس وانتفعوا بعلومهم ، وجاء الحكم الثانى « ٣٥٠ - ٣٩٦ هـ » فبعث فى شراء الكتب الى الأقطار رجالا من التجار فجمعوا اليه كتبا جمة ، فاشتغل الاندلسيون بالرياضة والعلوم الطبيعية والتنجيم والطب بعد أن نقلت اليهم كتب الفارابى ورسائل اخوان الصفا وطب ابن سينا . وقد تعاون المسلمون واليهود معا على الاشتغال بالفلسفة فى الأندلس . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون . مع مقاومة العامة وأشياعهم مقاومة أشد من مقاومة المشارقة

ومن أشهرهم (١) ابن باجه وقد اتبع تعاليم الفارابى (٢) وأبو بكر بن طفيل (مات سنة ٥٣١) وصل الينا من تآليفه رواية (حى بن يقظان) وكان بطلها (حى) يعيش فى جزيرة لا يسكنها أحد من الناس وليس له علاقة بأحد من أهل الجزائر الأخرى . بحث بعقله بحثا منطقيا متدرجا من البسيط الى المركب حتى وصل الاعتقاد بالله . وغرضه فيها أن يبين أن الشرع يتفق مع العقل . وقد ترجمت الى اللاتينية وظهرت سنة ١٦٧١ م وسنة ١٧٠٠ ولم يمض على ظهورها عشرون سنة حتى ظهرت رواية روبنصو كروسو [1] و (٣) ابن رشد وهو أشهر فلاسفة الاندلس على الاطلاق (٥٢٠ - ٥٩٥) كان يعد أرسطو أكبر الفلاسفة . وقد شرح تعاليمه حسبما وصلت اليه . ودافع عن الفلسفة وألف كتابه (تهافت التهافت) ردا على الغزالى فى طعنه على الفلسفة ، وأبان فى كتب أخرى أن الفلسفة لا تناقض الدين . وألف فى ذلك كتابا صغيرا سماه (فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال) وأكثر مؤلفاته لا توجد بالعربية وانما موجود ترجمتها . من ذلك شرح أقوال أرسطو مع الرد على الغزالى رتبت وطبعت باللاتينية فى البندقية سنة ١٥٦٠ م فى أحد عشر مجلدا . وترجم له كتاب فى الطب طبع كذلك فى البندقية . وله كثير من المؤلفات مترجم الى اللغة العبرانية . وكان لفلسفته شهرة فى الكنائس والمدارس الأوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى)

وبانتهاء القرن السادس الهجرى تقريبا وقف المسلمون عن البحث الفلسفى والنظر فى العلوم الكونية . ولم يكن العلم الا نقلا . فالمؤلف ينقل عمن قبله فحسب ، حتى لا تكاد تجد فى كتاب جملة ذات معنى جديد ، والمعلم انما يعلم ما سمع من أساتذته ، والاختلاف الذى يظهر بينهم انما هو اختلاف فى الشكل لا فى الجوهر (وليس ثمت مجال للبحث فى أسباب ذلك) ولم ينبغ منهم نابغ مبتكر ذو شخصية ظاهرة الا ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) فانه باجماع الشرقيين وكثير من الغربيين مخترع فلسفة التاريخ أو علم الاجتماع ، وأكبر الباحثين فيه فى الشرق والغرب الى القرن التاسع عشر الميلادى ، فبحث فى (أحوال العمران ، فى الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية) وكما قال هو فى مقدمة كتابه ان كثيرا قبله حوموا على الغرض ولم يصادفوه ولا تحققوا قصده ولا استوفوا مسائله (وأمل ممن يأتى بعده أن يستمروا فى البحث و يجمعوا ما فاته من المسائل وقد تحققت أغراض ابن خلدون ولكن لم يكن الذى حققها هم المسلمين بل أوجست كومت وسبنسر وأمثالهما

---

(١) فندلبند — ورواية روبنصن كروسو احدى الروايات الانجليزية الشهيرة لمؤلفها (ديفو) فرض فيها بطل الرواية قد عاش فى جزيرة وحده بعد أن كسرت مركبه وأمكن أن يصل بعقله الى كثير من الأمور

(وكما كان ابن خلدون فى هذا الموضوع هو السابق فلم يكن له بين المسلمين لاحق

وأما من عداه فداروا فى دائرة ضيقة وكانت عنايتهم بالمسائل اللفظية تفوق العقلية ، قصروا نظرهم على كتب المتأخرين محدودة لاتبعث شوقا الى علم ولاتهيج العقل الى بحث ، قد ألغزوا فى معانيها وركزوا ألفاظها ، فوجه المتعلمون أعظم جهدهم الى حل معمياتها وتفسير أغراضها وقليلا من الجهد (ان كان) الى نفس الموضوع

وكان العلم والفلسفة قد سارا شوطا بعيدا فى الغرب ، والشرق جامد فى مكانه ، و بدأ الشرق يغالب النوم والنوم يغلبه و يصارع الكسل والكسل يصرعه ، حتى أزعجته الحوادث وأقلقت راحته ضوضاء احتكاك الشرق بالغرب ، فانتبه متأخرا وأحس بتأخره ونقصان علمه وضرورة التعلم حتى يستطيع مشاركة غيره فى شؤون الحياة ، وما أحوجه اليوم الى هداة يضيئون له السبيل . و يأخذون بيده فى هذا المعترك اللجب . و ينقلون اليه زبدة ماوصل اليه الغرب فيمعن النظر فيها و يهضمها بعقله الشرقى . و يكوّن له مدنية وعلما تتفق مع ذوقه وجوّه ودينه ـ والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ـ انتهى من الكتاب المذكور

فلما سمعت ذلك . قالت : لقد أجدت فى اختيار النقل وحسن الاختيار ولكن للكلام بقية لابد من ذكرها . فقلت : وهل بعد ماأجملته قول فى هذا المقام . فقالت : لاتنس انك تفسر قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ـ الخ وأن المواضيع هنا ثلاثة : معرفة الله ، والعمل الصالح ، والمكافأة عليه فى الآخرة . وأنت تعلم أن معرفة الله لابد منها أوّلا بطريق علمى حتى يعرف العاقل أنه فى هذه الحياة له مشرف يشرف عليه لا أنه مطلق من كل قيد ومجرّد السماع من الكتب الدينية ليس يكفى العقلاء فوجب عليهم البحث بأنفسهم وماتقدم من تاريخ الفلاسفة إنما هو تمهيد وتوطئة للمقصود ، وهل المقصود إلا تبيان الحقائق واضحة ، أزل الاشكال لجميع الناس ولكل الأمم ، اذكر لهم أمثلة من أنفسهم ، بين اختلاف المذاهب أوّلا فى معرفة الله وفى الأخلاق ، أوضحه إيضاحا تاما ، لاتقصر فى الايضاح . بين آراء الملحدين وآراء الموحدين . و بين آراء من يقول « إن أصل كل شىء هو المادّة وانه لاإله لهذا العالم » . و بين آراء من يقول « إن العالم له إله » وأوضح مذاهبهم . ثم اذكر مذهب من يقول « إن الانسان خلق لمصلحة نفسه وحده » ومن يقول « إن الانسان خلق لمنفعة غيره وأن ذلك سعادته » و بعد هذا البيان أوضح برهانك أنت بحيث تظهر الحقيقة لكل عاقل فى هذه الأرض لأنك اذا لم تظهر هذه الحقيقة بالبرهان الذى يدركه كل امرئ متوسط العقل من نفسه يبقى الناس حيارى فيقولون من نتبع ؟ أنتبع من يؤمن بالمادة و ينفى وجود إله ؟ أم نتبع من يؤمن باله وعقلى لايفرق بين البراهين وأيهما هو الحق ؟ أأعمل لنفسى فقط وأترك الناس ؟ أم أعمل للناس وأضحى ببعض مصالحى . فاذا برهنت على الحقيقة فى الأمرين : أمر معرفة الله . ومعرفة العمل الصالح ظهر معنى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ ومتى ظهر ذلك المعنى بوجه علمى صحيح أخرجت العقلاء فى هذه الأرض من حيرتهم وأصبحوا موقنين بالحقائق وهنالك يفهمون معنى ـ تتنزّل عليهم الملائكة ـ بسبب الايمان والعمل الصالح بل يصبحون فاهمين هذا التنزل و يحسون به من أنفسهم

فكر فى هذا الموضوع وأنا سأعينك لأنى أطلع على قلبك وأشاهد فيه اللوحتين تتقابلان لوحة الكواكب وأنوارها وجمالها وهى اللوحة الأولى ولوحة آراء العلماء وقد ارتفعت الثانية من أحد طرفيها وتقابلت مع الأولى بهيئة نورية مشرقة واتحاد المناظر السماوية المشرقة مع المعارف القلبية التى هى مزارعى فى القلوب ينجم عنه اليقين وهذا اليقين الذى تحس به الآن وأشاهده فى قلبك بعد امتحانك لآراء أوروبا فى القرون الحديثة سينتقل منه الى قلوب شريفة فى الشرق وفى الغرب وبه يخرج الناس من التخبط والانحلال فى الأخلاق الخالصة وفى السياسة العامّة . واعلم أن قولك هذا سيكون له أنصار فى كل مكان . فقلت : إنى منشرح الصدر لما أمرتنى به ولكن المقام يطول . فقالت : ليكن القول مختصرا والمهمّ هو برهانك أنت عند الفصل

بين علماء الأمم فى العلم النظرى والعملى بعد أن تبين للناس القبس الذى قبسته . فقلت : سأذكر ذلك بغاية الاختصار وليكن فى ﴿ ثلاثة فصول ☆ الفصل الأوّل ﴾ فى آراء علماء أوروبا فى الحكمة العلمية والحكمة العملية ﴿ الفصل الثانى ﴾ فى القبس الذى فى آية – وهل أتاك حديث موسى – الخ لشدّة مناسبته لهذا المقام وكيف فهمته فى أثناء الصلاة ليلا ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى تبيان الحقيقة فى الحكمتين العلمية والعملية وبهذا يظهر معنى قوله تعالى هنا – إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا – الخ

الفصل الأول فى آراء علماء أوروبا

فى الحكمة العلمية والحكمة العملية

القائلون بالمادّة . والقائلون بالروح . والقائلون بالمادّة والروح معا

إن الانسان اذا خلا بنفسه وأخذ يفكر فى هذه الدنيا لايخرج تفكيره عن واحد من ثلاثة لارابع لها . إما أن يقول إن أصل العالم المادّة . واما أن يقول انّ أصله الروح . واما أن يقول انّ أصله الروح والمادة معا

(١) ذلك ان كلا منا ينظر فيرى له جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وعضلات وشحم ودم وأعضاء مختلفات ، ثم ينظر حوله فيرى الأرض والحجر والشجر والماء فيقول أنا لا أشك أن هذا هو الأوّل وهذا هو الآخر ، وما هذه الحركات ولا العقول ولا الاحساس إلا نتائج هذه المادة ، وهل الفكر إلا حركات فى المادة كحركات النموّ والذبول ، وهل الموت والحياة إلا أحوال تعترى المادة ، وبالتأمّل فى تاريخ الفلسفة نرى أن هذا الرأى دائما يكون مبدأ التفكر عند الأمم سواء فى ذلك اليونان والعرب والاوروبيون

(٢) وتارة يقول القائل . كلا . ماهذه المادة ؟ إن هى إلا عدم محض ، وكيف لا تكون عدما محضا وقد عرف الناس اليوم أن العالم لامادة فيه ، وهل المادة إلا وهم وكذب صراح ، من أين جاءت هذه المادة ؟ المادة لم توجد ولن توجد ، نحن لاشىء عندنا سوى الأثير وهو ليس مادة ، والأثير إن هو إلا عالم أشبه بخيالنا لانحسّ به وانما أدركته عقولنا ، وهذا الأثير بالحركات المتتابعات فيه المختلفات كثرة وقلة يكون ضوءا وحرارة وشجرا وحجرا وشمسا . فالضوء يحتاج الى حركات فى الثانية من (٤٠٠) مليون مليون الى (٧٠٠) مليون مليون والجوامد تحتاج الى نحو ستة آلاف مليون مليون حركة فى الثانية . هذه هى المادة أوّلها وآخرها ماهى إلا حركات فى شىء يشبه خيالنا . إذن العقل هو المسيطر على هذا العالم . فجسمى والأجسام حولى نتائج حركات ظهرت لحواسنا فسميناها بأسماء مختلفات – إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم – لا غير والا فهى لاوجود لها ولادوام

(٣) وتارة يقول الانسان – الحق أحقّ أن يتبع – إن هنا مادة وروحا تدبرها والعالم كله لم يخرج عن مادة وعن شىء آخر يحركها

هذه هى الصور التى تجول بأفكار الأمم كلها قديما وحديثا . واذا كانت العوالم لاتخرج عن هذه الثلاثة فلاجرم ان اختلفت العقول باختلاف أنظارها . ولأذكرهنا ما كتبته فى كتابى ﴿ جوهر التقوى ﴾ فى علم الأخلاق وأنا أدرس هذا العلم لطلبة دار العلوم أوّلا وأتبعه برموز المصريين ورموز الرومانيين فى هذا المعنى

(١) فأما ما كتبته فى ذلك الكتاب فهذا نصه :

تحليل الأخلاق والأمور النفسية

التربية الجسمية

لقد أفضنا فيما سلف فى إثبات النفس ، وأبنا كيف باينت الجسم وان جوهرها أشرف وأعلى وأجل وأغلى

فلنبين فى هذا الفصل امتزاجها بالجسم وعلاقة أحدهما بالآخر وظهور آثارفعله فيه حتى عسر التمييز بينهما ، ودق الفارق على الناظر الحاذق . فتشابها وتشاكل الأمر حتى ضربهما الشاعر مثلا لتزاوج المعنى بالكلم فى قوله

وكم معنى بديع تحت لفظ * هناك مزاوج كل ازدواج
كراح فى زجاج أو كروح * سرت فى جسم معتدل المزاج

ولم يقف أمد تزاوجهما وتعسر التمييز بينهما على خيال الشعراء ، بل تخطى الى أفكار الحكماء فتفرقوا طرائق « وكل حزب بما لديهم فرحون » ففريق أهمل أمر الجسم وعكف على إصلاح النفس وقال ما الانسان إلا نفسه فهى القوامة عليه المدبرة له الحافظة لشكله . الساعية لتنميته تدبر احشاءه وتغذى أعضاءه وتتولى شأنه وان هو الا عناصر مؤلفة وعما قليل يلحقها الردى ويعروها البلى ولقد يموت المرء بكلمة تؤذيه ويفرح ويبش بخبر يسره ويرضيه فالجسم وجوده عدم . وآخرون نبذوا الروح وراءهم ظهريا كأنهم لايعيشون ، واتبعوا فى سيرهم أمر جسمهم وقالوا ما الانسان الا الجسم وما الروح إلا عرض من أعراضه كسواده وبياضه ولئن لحقه مرض أوألم به ألم أونقص أوتلف تعدى للنفس أثره فهو حاملها وحافظها بل جوهر هى عرضه

وجاء قوم آخرون وهم المستبصرون وقالوا بالجوهرين وآمنوا بالزوجين وجمعوا بين الدليلين ونظروا بالعينين فلم يغمطوا الروح حقها ولم يسلبوا الأجسام حظها بل راعوا الجانبين وتربصوا الحسنيين ونظموا إدارة الجسم كما أداروا مملكة الروح وانا لذلك مختارون

لذلك نظمنا جوهر الجسم فى سمط عقد الأخلاق لئلا نبخسه حقه فلا يقولن امرؤانى اذا هذبت نفسى وجعلتها عنوان درسى كفانى ذلك فى التهذيب . إلا أن له أثرا فى نفوسنا وسلطانا فى عقولنا ألا ترى أن المرضى أسوأ الناس أخلاقا وان للأغذية والماء والأجواء الممدة لأجسامنا آثارا تصل لنفوسنا كالقبض والبسط والفرح والحزن فانها اذا كانت رديئة وصل للجسم انحراف على مقدار رداءتها وان كانت صالحة فالصلاح اليه واصل وعليه وارد . سر فى نظام جسمك على قانون الصحة يعتدل مزاجك وتصف روحك . فلعمرك ما العلوم التى بها جلب الغذاء من صناعة وتجارة وزراعة ولانسلك الذى ترجو به بقاء ذكرك وظهور أثرك بنوع مّا ولا نظام أمتك فى اجتماعها وسياستها الابعد حفظ صحة جسمك وادارة نظام هيكلك فى الرتبة وما الأموال المجموعة ولا الاخوان المحبوبة بمغنية عن المريض شيئا وانما من ذلك مدده واصلاحه فلا وربك لا أمة الا من الاسرات وانما الاسرات مركبات من أفراد فاذا اعتلت الأجسام فلا اجتماع ولا ائتلاف ولا أخلاق ولا آداب . تهذيب النفس شرع لتجاذب القلوب . وتحابّ النفوس وائتلاف الأفراد . ونظام الجمعية وتعاونهم أجمعين . فالتهذيب مؤخر فى وجوده عن وجود الافراد والافراد قوامها الصحة

وإياك أن يلج فى خاطرك غرابة الكلام على صحة الأجسام فى علم الأخلاق أو تقول نتركه لعلم قانون الصحة فانك عرفت قبلا علاقتهما وآثار أحدهما فى الآخر فلئن ذكره الأطباء فانما ذلك لأنه مقصود فى علمهم بالذات والنفس تبع . فأما علماء الأخلاق فانهم يبحثون عنه كمركب للنفس وسفينتها السائرة فى بحر الحياة اللجى . ودابتها التى تركبها فالجسم فرس . والنفس راكبها والسعادة قنيصتها ولاقنيصة لمن كلت فرسه كما لاسعادة ولا أخلاق لمن ضعف جسمه إلا من رحم ربك . ولقد أودع الله فى فطرة الانسان من الغرائز والمشاعر والادراكات وأحاطه بالمنذرات للتهلكة ما ان عمل به وسار فى سبيله بنظام هدى الى طريق رشاده . ألا ترى الى الحر والقر والجوع والعطش وماجبل عليه الأطفال من حب اللعب وتنشيط الأعضاء بالحركة ومصادمة الأجسام ومقارعة الأبطال ان كل ذلك إلا مرشد للعاطلين كم من امرئ جهل أمره واستسهل الأمر اليسير من شأنه كاللقمة يزدردها بلا كثير مضغ والحجرة يسكنها رديئة الهواء أو ضئيلة النور والبيت يقطنه تحيط به الروائح الكريهة فأحاطت به خطوب الزمان ومزعجات الأمراض أولم يعلم ما للانسان من الحكمة وما الآلام الحر والبرد من الانذار

والاعلام

والاعلام إلا أن الغفلة عن الصغائر فى أمور الأجسام تجر الى الكبائر فى أمر النفوس والعقول فكم يحدث فساد الصحة من تغير فى طباع المرء كسرعة الغضب والتهيج المزرى و يقعدبه عن تأدية الواجبات الاجتماعية والمرض اذا حل بالجسم فزال أبقى له آثاراخالدا فيه حتى يحين أجله و يذهب عمره . لابد من ارادة قوية يصدبها الشهوات البهيمية وعزم صارم يكبح به تلك الضاريات الهائجة حتى لانشترى الذى هو أدنى من اللذات الحسيسة بالذى هو أعلى من الصحة وسعادة الحياة والفرح بالاخوان و بهجة الجمعية القومية ونعيم العباد فى البلاد

فاعتدل فى مأكلك ومشربك وملبسك ومسكنك ونومك و يقظتك واجعل لكل وقتا خاصا به ، ونظم أوقات أكلك كما نظمت الأفلاك فى سيرها والنجوم فى جريها والشمس فى أبراجها وأقلل من الشرب وحرمه بعد انقضاء الأكل حتى يهضم الطعام واجعل لك وقتا للرياضة الجسمية كالمشى والأعمال الزراعية أوالصناعية فى أوقات عطلتك ليكون أجم نشاطا لعقلك وأتم قوة لجسمك وكالحركات الرياضية فى المدرسة فلعمرك انها تحرك من نشاطك وانها تفتح لك شهوة الطعام

الاأن المستبصر الحاذق من سار على منهج قانون الصحة فقل مرضه . فذلك خير ممن يهمل الجسم فيقع فى قبضة المرض فيضطره لتعاطى الدواء فالخير كل الخير فى تدبير الطعام والشراب فى الصحة . وقد أثنى الله على بعض عباده الأصحاء العلماء فقال (وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء) . انتهى ماأردته من كتابى جوهر التقوى

(٢) وأما ما كان بمصرفانه قد كان بمصر هرم فى هيكل (ايزيس) وهى إلهة مصرية زوجة (اوزيريس) انتشرت عبادتها من مصرالى اليونان وروما وكانت عبادتها تنافس النصرانية . وكانت فى بلدة (صالحجر) من أعمال مركز كفر الزيات تبعد عن رشيد قليلا . وقد كتب على ذلك الهرم مايأتى : « أنا كل شىء كان وكل شىء يكون ومحال على من يفنى أن يزيل النقاب الذى تنقب به من لايفنى »

(٣) وأما ما كان من رموز الرومانيين فذلك انه كان فى إحدى حجر الفاتيكان صورة شهيرة فى حائط صوّرها (روفائيل) اسمها مدرسة (أثينا) وفى مركز هذه الصورة أرسطو وأفلاطون ومع كل أتباعه وأفلاطون يشير الى السماء بأصبعه وأرسطو يصغى بفتور مشيرا الى الأرض بيده اليمين ، والحق أن هذه الصورة واشاراتها تمثل جميع أفكار الانسان من أوّله الى الآن

فاذا عرفنا أن أفلاطون قد قال : « إن الشمس المشرقة المضيئة سبب ظاهرى لما على الأرض من نبات وحيوان الخ » من حيث إيجادها ومن حيث هداية الحيوان والانسان بها الى السير فى الأرض ، وأن ذلك يهدى الانسان الى أن هناك إلها للعالم فى مقابلة الشمس وقد خلق عالما لطيفا فى مقابلة هذا العالم الكثيف وألقى من لدنه نورا على ذلك العالم اللطيف فعرفناه وهو متعلق العلم و به عرفنا الكليات فى عقولنا وصور الجمال المجرّدة والكمال والحكمة والعدل كما ألقت الشمس نورها على حواسنا فعرفنا طرقنا وسرنا فى الأرض . واذا عرفنا أن أرسطو يقول . كلا . فنحن لانريد قط أن نجعل العوالم المعنوية وهى المثل الأفلاطونية متعلق العلم لدوامها بل نقول العلم يتعلق بالصورة والمادة والقواعد المستنتجة من ذلك هى كليات قائمات بالذهن ليس لها وجود فى الخارج

أقول اذا عرفنا ذلك عرفنا أن هذين الرأيين هما أوّل العلم وآخره لاغير فاما أن نعوّل على المادّة واما أن نعوّل على الروح وأما المذهب الثالث فقد جمعهما

القائلون بالمادة منهم الاستاذ (كارل نخت) ومن قوله : « إن المخ يفرز الفكر بعين الطريقة التى يفرز بها الكبد الصفراء والكلية البول » . ومنهم الاستاذ (بخنر) الألمانى وقد ألف كتابا اسمه القول الفصل فى المادة . وهؤلاء لايقولون بالروح ولابالملائكة ولابالشياطين ولاباله

(١) وعلماء الجوهر الفرد قديما من أنصار هذا المذهب مثل ديموقراطيس سنة ٤٢٠ ق.م وهومن الايونيين يقول إن المادة تتحرك من نفسها
(٢) وجاء أبيقورسنة ٣٤٠ ق.م وقال « إن النفس والفكر والعقل والقوة أعراض للمادة » ومثله ليوكاروس سنة ٩٩ ق.م المؤلف الروحانى الشهير ومن أنصارهذا المذهب
(٣) ثم توماس هويز سنة (١٥٨٨ — ١٦٧٩) فى انكلترا وهو يقول : « إنّ الروح جسم طبيعىّ ارتقى ولم تدركها حواسنا »
(٤) ثم (لامتريه) فى فرنسا سنة (١٧٠٩ — ١٧٥١)
(٥) ومثله (باردن هليك)
(٦) ومثله (كابانى) أيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٥٧ — ١٨٠٨
(٧) وفى ألمانيا ظهر (مولشت) فى القرن التاسع عشر وقال « لاقوّة بلامادة ولامادة بلاقوّة »
(٨) وتبعه (كارل فجت) ولد ويج بخنر المتقدّم ذكره

فأما القائلون بالروح ، والقائلون بالروح والمادة معا . فالأوّلون منهم يقولون « إن المخ آلة الفكر ولكنه هوليس سبب الفكر . وقالوا : ليس من المعقول أن يكون الفكر الانسانى العجيب مستنتجا من مادة ميتة لاتحسّ ولاتعقل . فالشاعر يفكر فى المادة والحكيم كلاهما لايمكن أن يكون فكرهما مادة . فهل مادة تفكر فى مادة ! » . وقد قال شاعر فرنسى مايأتى

إن امرأ ظنّ المعارف أشرقت ✲ أنوارها من مظلم الجهول

وهذا المذهب الروحانى ظهر بعد المادى
(١) وقد أوضح أفلاطون نظرية المثل وقال إن لها وجودا حقيقيا والظواهر تتبعها
(٢) وجاء (ديكارت) فأحيا عقيدة الروحانية
(٣) ثم (ليبنتز) سنة ١٦٤٦ — ١٧١٦ وهو الذى ضبطها يقول : « إن أساس الموجودات شىء واحد وهو الروح وهناك نقط روحية لاعددلها وكل نقطة من هذه تسمى (الذرة الروحية) وهذه الذرة خلقها الله ، وكل جوهرفرد مركب من مجموعة من هذه الذرات وعدم قبول الجوهر الفرد للقسمة أمر ظاهرى لاغير والا فهو يقسم الى مالانهاية له لأنه مركب من أرواح حية وكل جسم مركب من ذرات روحية . وهذا الامتداد الذى نراه فى الأجسام ناشئ من اجتماع ذرّات روحية وحقائق الأشياء هى هذه الذرات الروحية . وقد جعل الله تلك الذرات مراكز للقوّة ومنحها قوّة إدراكية وهى مختلفة الأشكال والأحوال كثيرة التغير

فلاتدوم على حال تكون به ✲ كما تلون فى أثوابها الغول

وهذه الذرّات مرآة العوالم الحية وهى ان شعرت فهى الحيوان وان لم تشعر فهى الجماد . وقال كل ذرة لها جسم وروح فالروح هى الحقيقة والجسم مظهرها
(٤) ومثل هؤلاء (جورج بركلى) سنة ١٦٨٥ — ١٧٥٣ وهو مؤلف جرمانى يقول : « المادة لا وجود لها فى الخارج ، وانما ذلك خيال ، ولا وجود إلا للروح والعقل ، ولافرق بين الصور التى نتخيلها والتى نراها ، والعقل يتصوّر الشىء و يسمى فيبرزه فى الخارج ، وليس هناك شىء خارج عن العقل . و يقول : إنّ الشمس والقمر والجبل والشجر لا وجود لها اذا لم يكن هناك عقل يدركها وادراك الانسان مستمدّ من الله . ومتى طبعت الصور فى عقولنا سمينا ذلك أشياء حقيقية . وله كتاب سماه ﴿ السلسلة ﴾ جعله خاصا بمنافع القطران وتكلم فى نهايته على الموجود المطلق . قال :

« لم تكن المعانى التى ندركها أوهاما بل هى حقائق لاتتغير ، ألاترى أن وجودها أثبت فى نفوسنا من الأشياء الخارجة . المحسوسات الظاهرة تتغير وهل المتغير يصلح مناطا للعلم . وكالاتصلح موضوعا للعلم لاتصلح للادراك

(٥) وقفى على آثارهؤلاء (هرمان لوتز) فشرح فى كتابه المسمى ﴿العالم الصغير﴾ هذا المذهب

(٦) ومثله (شو بنهور) إذ يقول: « إنّ الارادة هى حقيقة الأشياء »

(٧) وهكذا نخنر إذ يقول: « إنّ كل شىء فى الوجود حىّ »

والذين يقولون بالروح والمادة معا هم مثل:

(٨) انكساغورس سنة ٤٥٠ ق.م

(٩) وأرسطاطاليس

(١٠) والرواقيون

وقد يعدّ هو بارت ولوتز ونخنه من هؤلاء . وهناك طوائف يسمون (المؤلهين) يعتقدون بالله وبالأنبياء . وآخرون يسمون (العقليين) يرون أن الله يعرف بالعقل وحده ولايحتاجون الى وحى . وآخرون يعتقدون الحلول الذى برهنا على منافاته للعقل فيما تقدّم فى تفسير البسملة فى السور السابقة والعالم عندهم مظهر الله . وآخرون يسمون « أصحاب مذهب الجوهر الفرد » إذن المذاهب المذكورة أربعة:

(١) مذهب الجوهر الفرد

(٢) « المؤلهين

(٣) « العقليين

(٤) « الحلول

فالأوّل قال به ليوسيبس وتلميذه ديموقراطيس ، وقال بالثانى أرسطو وأفلاطون الخ ، وقال بالثالث تولاندوم وتندال وستانتسيرى وهم يقولون: إنه يدير العالم بنظام ، وقال بالرابع كتاب (ريك فيدا) وهو كتاب الهنود المقدّس وهكذا جيوردانو برونو وسبينوزا من امستردام (٢٦٣٢ — ٢٦٧٧) وهذا أعلن إعلانا مدهشا فيه إغراق وغلوّ . فقال: « إنّ فى العالم جوهرا واحدا وهو الله وهو مطلق لايحدّ وكل الجواهر الأخرى المحدودة منبعثة منه ومظروفة فيه وليس لها إلا وجود زائل صائر الى الفناء . ولله صفتان يظهر بهما لنا نفسه الامتداد والعلم . فبالامتداد المتنوّع تتكوّن الأجسام . وبالعلم المتنوّع تتكوّن العقول . وهاتان الصفتان ثوبان لله نسجتهما الكوك الدائمة الحركة فى نول الزمن العاصف » وتبعه شلو وجوتيه وهرد وشلوما كر وهينى وشلى ولسنج

***

صمت طويل وضيق صدر وألم نفس . كل هذا حصل لى بعد هذا الحديث الطويل . فلما لمحت ذلك تبسمت ونظرت لى طويلا وقالت: لقد قرأت فى صفحات قلبك انك الساعة مشمئز من سرد هذه المذاهب المختلفة وضاق صدرك ؟ فقلت حقا انى حالما شاهدت جمالك أذهب عنى الحزن وشرح صدرى ونسيت كل ألم وبه نلت كل أمل فكل مافاتنى غير قربك لاقيمة له وطلبت البقاء لديك . فقلت لى . كلا . إنك سترجع الى عالم الحس وأنت الآن فى عالم الخيال ، فوطن نفسك على أن تدرس مزارعى فى القلوب ، فهاهى ذه مزارعك فى القلوب قرأت منها صفحات ، فرأيت تناقضا فى الآراء ، وتباعدا فى المعانى ، فعهدت فى صدرى انقباضا لم أعهده ، فأين صحائف هذه القلوب التى بها ظهر تاريخ الفلسفة فى العالم من صحائف هذه الدنيا ، تلك الصحائف التى أقرؤها متى خلوت بنفسى وأنا مستيقظ فأشاهد جمالا بارعا وحسنا باهرا وبهجة فى النجوم وفى مناظر المواليد الثلاثة

وقد أصبحت فى الحال الاعتيادية أطرب لتمايل الأغصان وترنح العيدان وغوير الأعشاب وخرير الماء وصرير الباب ، وأشاهد فى الليل اذا عسعس أوانس الكواكب ونواعس النجوم ، وألحظ فى الليل البهيم سكونا مهيبا ولألاءا بهيجا فى مناظر السماء ، وآنس فى النهار نضرة النعيم فى كل مادبّ وطار ، وهل الحشرات المنبوذات اللواتى يحمل بعضها من العيون مئات فى نظرى إلا لآلئ وقناديل وحسن وجمال ، ألا ليت شعرى هل تحسن أقوال هؤلاء الفلاسفة واختلافهم فى العبارة وقول (اسبينوزا) قولا موهما فى المقام الأعلى الأقدس كما تقدم « انه ظرف العالم ومنه الامتداد ومنه العقول وبالأول كانت الأجسام وبالثانى كانت العقول » . نعم إن العبارات ضيقة عند أهل الأرض حين يعبرون عن ذلك المقام القدسى . ولكن أليس هذا بعينه هو الحلول ؟ والحلول معلول عملول

يغرم الانسان بربه غراما لاحدّ له فيصل للتطرف والاغراق والافراط و يقول هو كل شىء . نعم اذا أصبح الانسان فى حال لاصحو فيها فانه لايعى ولايعقل ولايفهم ولايدرك ولايبصر ولايسمع إلا مايذكره بربه . ولكن لن يكون ذلك للعاقل . إنّ العاقل لايسعه إلا أن يفرق بين الخالق والمخلوق . أما هذا التهويش والاغراق والتطرف فى القول فهو محل محزن وهو فى ديننا الاسلامى كفر وأىّ كفر ! ألم أكذب هذه النظرية فيما تقدم فى موضعين بالبرهان العقلى . وكيف يكون الرب هو نفس العبد ! نظرية خضع لها كثير من علماء أوروبا والهند والمسيحيين و بعض الصوفية ، وهؤلاء كلامهم موهم أيما إيهام

أقول : هل يقوم كلام هؤلاء فى نفسى مقام الجمال الذى ألحظه فى بهجة الكون والشمس عند شروقها وغروبها والنجوم إبان طلوعها وأفولها ، والنجم اذا هوى ماحلّ تاريخ الفلسفة الحديثة ولا القديمة فى قلبى محل هذا الجمال المنصوب والطراز الممدّ فى السماء والأرض

إنّ قراءة علم ماوراء الطبيعة والفلسفة الطبيعية وعلم النفس وعلم المنطق وعلم الجمال وعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وتاريخ الفلسفة اليونانية والرومانية والفلسفة الحديثة والفلسفة الاسلامية والوقوف على ذلك كله (وهذه هى أقسام علم الفلسفة المتعارف الآن) ليس ينتفع به إلا أفراد يقودون الأمم وهم قليل جدا ولن ينتفعوا بهذه إلا بشرطين اثنين : الأوّل أن تكون قلوبهم قد أحست بالجمال فى هذه العوالم الأرضية والسماوية مع الذكاء المتوقد . الثانى أن يكونوا قد درسوا جميع علوم الطبيعة والعلوم الرياضية أتمّ دراسة على أحسن نظام . فهؤلاء اذا قرءوا تلك المذاهب الفلسفية ودرسوا فروع الفلسفة فانهم يكونون قادة لأمم الشرق

فأما قراءة كتاب مختصر أو مطوّل فى تلك العلوم . والاطلاع على أقوال الماديين كالذى قلته أنا الآن . وأقوال الروحيين . وأقوال الذين يجمعون بين الروح والعقل . وهكذا يرون قوما عقليين لايهتمون بالوحى . وآخرين إلهيين يهتمون بالوحى . وآخرين يقولون بالجزء الذى لايتجزأ وغيرهم يقول : انّ الله حل فى كل شىء فانها لاتفيد إلا ضياع الذهن وتشتيت العقل والكفر الصراح والشك المستمر . وكيف لايكون ذلك والشاب حين يسمع ذلك وهو جاهل بعلوم هذه الدنيا . ويرى أن هؤلاء يسمون فلاسفة . يقول : فاذا كان الفلاسفة أصبحوا مختلفين إذن المسألة ترجع للشكّ . فأنا أيتها المحبوبة أقول هذا رأيى فى قراءة المذاهب الفلسفية . انها تضلّ كثيرا ولاتهدى إلاقليلا . فكيف أمرتنى أن أرجع عن الصور الجميلة فى السموات والأرض التى أنا بها فى أنس وحبور ، وأن أفكر فى أقوال متضاربات وأحوال متضادّات لاسيما انى آليت على نفسى أن لاأكتم عن أحبابى قرّاء التفسير جملة واحدة ، وكيف أكتم أعظم محاورة وأعجبها بينى و بين محبوبة جميع النفوس وقرّة أعين الفضلاء والحكماء والعلماء والأنبياء ، ألست أنت قرّة كل عين ، ألست جمال النفوس ، ألم أكن ألحظك فى كل ذرة وقطرة وكوكب ونجم وشجر ، ألست أنت رفيقة قلبى وشارحة صدرى ، ألست أجمل مافى الوجود . وكيف أكتم جمال علمك عن أعزّ الناس عندى قرّاء التفسير ، ومتى استيقظت من هذا

الخيال كتبت مادار بيننا ومما دار بيننا حديث الفلاسفة واختلافهم وانهم فرق متشاكون ، نعم انك لما أمرتنى أن أقرأ آراء القوم قام بنفسك انى الآن لا أصلح لمجالستك ولاأقوى على محادثتك طويلا وان نفسى لم تزل يعوزها التصفية كما قلت لى من قبل ولكن ألا أستحق مساعدتك والأخذ بيدى وشدّ أزرى والقيام بنصرى ، ألست اليوم فى جهاد ، ألست اليوم فى أمم أريد أن تستيقظ ، وخير العلم ما جاء فى دور الانتقال ، والشرق الآن قد جاء دوره ، فهل من نظرة بها أسعد ومنك الجمال والكمال ، واذا كان الله جعل صور الجمال فى أرضنا سريعة الزوال وأوقات اللذات كبرق خلب ، وكانت الحكمة فى ذلك أن يذكر قلوبنا بالجمال الدائم والحسن الباقى الأكمل ، فالظهور للذكرى وسرعة الزوال لنكون فى مأمن من تعلق القلب بها والعكوف عليها والحنين اليها وذلك فى صحيفتى السماء والأرض ، فهل هكذا الصحيفة الثالثة وهى صحيفة القلوب وآراء الفلاسفة ، إذ نرى فى القول جمالا ثم يعقبه الاضطراب والاختلاط والتهويش وضياع الوقت . إن طريقتى فى العلم أن أقرأ صحيفة الوجود ثم صحيفة نفسى ، فهناك أرى اشراقا وجمالا . أما صحائف القلوب فانها تجمع الغثّ والسمين والصحيح والهزيل ﴿و بعبارة أخرى﴾ إنى أخاف أن قرّاء التفسير بعدى يسوءهم ماساءنى و يؤذيهم ما آذانى . وأنا أحبّ أن يكونوا فى بهجة وجمال

***

سمعت ذلك كله وهى صامتة تبتسم وهنالك رأيت وجهها قد زاد جمالا ونورا و بهجة فلم أقو على النظر اليها كما ان عينى لاتقوى على التحديق فى ضوء الشمس . وهنالك أخذت تقول : لقد قلت قولا جميلا ونطقت بالصدق . إن الفلسفة وتاريخها لن يعقلها إلا أناس صفت نفوسهم وهم أذكياء وقد قرؤا علوم الرياضيات والطبيعيات بحب وشغف . إنّ الفلسفة لايهتمّ بها إلا أفراد قلائل فى الأمم ومافلته فى الجمال الأرضى وسرعة زواله حق وهكذا ما أبديته فى جمال العلوم المنزلة على أفئدة العلماء . كل هذا أقرّك عليه وأنا معينة لك فكن منشرح الصدر قويا متينا . أما أمرى لك بقراءة آراء القوم فان أمم الاسلام اذا اطلع خواصهم على آراء العلماء فى الأمم انقشعت عن قلوبهم سحائب الجهالة وأضاءت نفوسهم بأضواء الهداية وحلوا المبهمات وأنسوا بجمال المدركات . ولولا انى مطلعة على قلبك وانك فى الفصل الثالث (الذى بعد فصل القبس وهو الثانى) ستحل المشكلة العلمية أحسن حلّ وتقيم الدليل الذى يعرفه كل امرئ من نفسه فى القوّة العلمية والقوّة الخلقية . ما أمرتك بقراءة الآراء المتضاربة فاذا لم تقدم هذه الآراء أوّلا لا يكون للفصل الثالث كبير مزية . وكيف تفصل فى مشكلة قامت فى أعظم العلوم النظرية وأعظم العلوم الخلقية من غير أن تقدم ذكر ذلك الخلاف . وكيف يقضى القاضى فى نزاع بين الخصوم وهم لم يطلعوه على وجوه الدعوى وهيئة النزاع . فكن اليوم أيها الجوهرى (ممتحنا) لمختلف الآراء . وانك قد أسمعتنى آراء العلماء فى معنى قوله تعالى هنا ـ إن الذين قالوا ربنا الله ـ فأسمعنى خلافهم فى قوله ـ ثم استقاموا ـ ومتى تمّ هذا الفصل بقسميه فخذنى بالفصل الثانى وهو القبس الذى خطرلك وأنت فى صلاة التراويح قبل الفجر لأنه أشبه بضرب مثل لآراء الفلاسفة فى الأرض . فقلت : لأجعل الكلام على ذلك فى ﴿مقامين * المقام الأوّل﴾ فى مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة ﴿ المقام الثانى ﴾ فى الغاية من سلوكنا الأخلاق . فقالت : قل وأنا أحادثك . فقلت :

المقام الأول فى مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة

كما ان شعور النفوس الانسانية بالجمال غريزى فى كل الأمم هكذا شعورهم بالحسن والقبيح فى الأخلاق ، إن الجمال وان اختلفت مظاهره باختلاف الأذواق والأشخاص والأمم والأحوال والبيئات ثابت الأصل فى النفوس . فاذا تعدّدت المظاهر واختلفت فالغريزة حية ثابتة ثبات الحياة . فكما اختلفت أحوال الأحياء وهى

ثابتة هكذا اختلفت مظاهرالجمال والغريزة ثابتة . ومثل ذلك يقال فى الحسن والقبيح . فأهل الشرق وأهل الغرب كل يعرف الحسن والقبيح فى الأفعال الانسانية وان اختلفت المظاهر . وهذا المذهب قال به كارليل و بطلر . وقال به من الألمان نخته والاستاذ كنت . وقال آخرون : «كلا . إن الحسن والقبيح فى الأفعال لاسبيل لمعرفتـه إلا بالتجربة . واذا كان مذهب النشوء والارتقاء ظاهرا فى الحيوان والنبات أفـلا يكون كذلك فى الحسن والقبيح ؟ أفنعيش على آراء من سبقنا فى معرفة الحسن والقبيح .كلا . بل ننظرالى الفائدة من أعمـالنا ونحكم عقولنا وتـكون أعمـالنا على مقدارفوائدنا . هذا هوالسبيل الأقوم »

وقال بهذا القول وهومذهب التجربة كارنوى ومل و بين وهر برت سبنسر . تمّ الـكلام على المقام الأوّل والحمد لله رب العالمين

المقام الثانى فى الغاية من سلوكنا الأخلاقى

هل الغاية من سلوكنا سعادتنا الذاتية ؟ أم السعادة العامّة ؟

يقول قوم : « إننا لم نخلق فى هذه الأرض إلا لمنفعتنا الخاصة ، فـكل امرئ إنمـا خلق لاسعاد نفسه هو ، والمسألة كلها هى حب الخير لنفس الانسان » ومن هؤلاء (هو بز)

و يقول آخرون : كلا . ثم كلا (مثل هيوم وآدم سميث) إن فى الانسان عاطفة الحب العام ومن ذا الذى ينـكرها فى نفسه . لقد غرست فى نفوسنا عاطفة حب الناس واسعادهم وحب الخير لهـم وتـكميلهم . وهذه تسمى نظرية الايثار

ومن أتباع المذهب الأوّل (ماكس سترنر) و (نيتشيه) ومن أتباع الثانى وهو الايثار (كنت ونخته وشو بنهور) . وفوق ذلك يقول آدم سميث وجون ستورث ميل : « إن الانسان عليه أن يضحى بنفسه اذا كانت تلك التضحية سببا فى سعادة غيرنا »

و يقول الاستاذ (مل) ﴿ ما أنقص هذه الدنيا وما أخلّ نظامها إذ كان من سننها أن أحسن طريق فى تحصيل السعادة هى التضحية التامة . واذا كان هـذا هو شأنها فانى أقرّ بأن الاستعداد للتضحية أكبر فضيلة يتصف بها الانسان ﴾ . وههنا مسألة ثالثة وهى :

ما الذى يسوقنا لحسن السلوك ؟

عرفنا أن هناك غرائز أوتجارب للتمييز بين الخير والشرّ . وعرفنا ما الذى نقصده من السلوك . ولـكن ما الذى يبعث فينا النشاط لحسن سلوكنا ؟ ويكون مهمازا يسوقنا الى الغايات ؟ فقال الاستاذ (مل) ﴿ إن القانون الأخلاقى مقيم فى أعمـاق نفوسنا يساعدنا على كشف حجب الامور حتى نصـل الى إدراك مايجب علينا وله سلطان قوىّ وتأثير وجاذبية . وهذه نظرية (القانون الذاتى) . وهذا سموه (صوت العقل) ومن القائلين بهذا القول الاستاذ كنت ﴾

وقوم يقولون : ﴿ إن الشعور والعواطف لهـا سلطان أيضا ﴾ وهذا قول هيوم وشو بنهور وآدم سميث فالعقل والشعور يرجعان الى القانون الذاتى

و يقول آخرون ﴿ إنّ الخوف من الله . أومن الناس . أومن الذم . أوالرغبة فى المدح . أوتحصيل الثواب . كل هذه قوى خارجية لهـا السلطان علينا تسوقنا الى فعل الخير ﴾

وأنا أرى أن هذه كلها لهـا سلطان بدرجات مختلفات وتختلف باختلاف الأشخاص والبيئات والتربية والى هنا انتهى الـكلام فى ذكر الآراء فى علم الأخلاق ومناهج السلوك و به انتهى الفصل الأوّل فى معرفة معنى قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ و به فهمنا آراء الأمم فى معرفة الله وآرائهم فى الاستقامة

الفصل

الفصل الثانى فى القبس المذكور فى سورة طه

ههنا أذكر ماوعدت به بمفاهمته أثناء قراءتى آيات من ﴿ سورة طه ﴾ فى صلاة الوتر بعد نصف الليل منذ أيام إيفاء بوعدى لك وقياما بحقك وليكون ذلك مثلا مضروبا لاقتباس عقولنا من آراء عقول العلماء والحكماء من الأمم جمعاء

كنت أقرأ قوله تعالى كما قدمت ــ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أوأجد على النار هدى ٭ فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك ــ الخ ، فأخذت أكرر هذه الآيات مرارا وقد استحضرت فى ذهنى الحجر والشجر والبر والبحر والايقاد واللهب ، كل ذلك حصل فى نفسى كلمح البصر ، وهذه المظاهر أصبحت كأنها مشاهدات أمام بصرى وأنا أكرر الآية وكأنى فى عالم غير عالمنا ، عالم الجمال ، عالم الحكمة ، وخيل لى انى خرجت من كل هم وغم وحزن وألم لأن هذه عوارض عالم الحس والآية أحضرت لى عالم الخيال ، أوعالم المثال ، أوعالم البرزخ ، عالم لا كدر فيه ولاشقاء ولا أعداء ولامنافسين ، وماأجمل قيام الليل ، فاذا لم يكن فيه إلا هذا الجمال كفى ، وما أحسن الصيام فهو يصفى النفوس و يذهب عنها البؤس . وماأجمل الذكر . وما أحسن الفكر

فنظرت فى الأحجار اذا هى لاتقبل الالتهاب مع انها مشحونة بالنار . كيف لا وفى كل مائة رطل من الأحجار (٤٨) رطلا من الاكسوجين ولن تكون نار ولاهب إلا بالاكسوجين وهذا مصداق قوله تعالى ــ وقودها الناس والحجارة ــ وانما لم تحترق الأحجار لصلابتها ومتانتها . ثم نظرت فى نحو الحديد من كل جسم يعلوه الصدأ فوجدت أن ذلك فيه احتراق فان الاكسوجين يأخذ فى التزاوج والاتحاد والائتلاف مع الحديد ولكن ذلك الاتحاد والائتلاف والزواج لاتصحبه زينة ولافرح . فالزينة هى اللهب والفرح هى الحرارة وهذه هى التى اعتادها الانسان متى أراد البناء بعروس أظهر الزينة والسرور والفرح . هكذا اذا أراد إيقاد النار زوج الاكسوجين بعروس فتلك العروس إن كانت عجوزا شمطاء كالحديد لم يكن فرح ولم تكن زينة بل يتم التزوج ببطء فيكون الصدأ وذلك كمعاشرة هذه العجوز . وان كانت العروس خفيفة الروح شابة فهناك الحرارة وهناك اللهب . وانما يحصل اللهب بازدواج الاكسوجين مع الاودروجين ومع الفحم . وهذان العنصران يقيمان معا فى كل نبات وكل حيوان . فهما فى الحطب والخشب والفحم الحجرى والزيت والدهن والورق . فتى قربت النار من الورق اشتعلت الحرارة وظهر اللهب وأخذ الاودروجين والكربون الساكنان يظهران و يريدان التخلص ولكن هيهات هيهات فيقعان فى قبضة الاكسوجين ولايفلتان وهناك يتم الزواج

الاودروجين المذكور جزء من أجزاء الماء وهو متحد مع الاكسوجين فيه فهو يحبه اذا صادفه فى الورق والخشب وغيرهما . والايدروجين أيضا داخل فى تركيب الغاز (الايدروجين المكربن) أعنى أودروجين مزدوج بالفحم واسمه (غاز الاستصباح) وهو الذى تنار به الشوارع والأزقة والحارات والمخازن والحوانيت وهو يجرى فى أنابيب تستمد من احتراق الفحم فى أفران معدة لذلك وهذا معروف مشاهد . والادروجين أخف من الهواء (١٤) مرة ونصف مرة ولذلك يجعلونه فى الطيارات فتخف وتطير فى الجو لأنها أخف من الهواء . هذه هى النار وهذا سرها . والنار من أعجب العجب فى هذه الدنيا والناس يعيشون و يموتون ولاهم يذكرون جمالها و بهجتها . والسبب فى ذلك انها مبذولة لهم بلاتعب ولا نصب مع ان ماتقدم فى آخر سورة ﴿ يس ﴾ من الصور المرسومة لقوم متوحشين يوقدونها بشق الأنفس يدل على أنها كانت مستعصية على النوع الانسانى وكانت أثمن مما على الأرض ومافى باطنها من جواهر ومافى البحار من لآلىء حتى أن زرادشت قال انه جلبها من السماء ومر فى طريقه بجبال همالايا وكانت هذه معجزة له عند أتباعه فى بلاد الفرس .

وأخذوا يعبدون النار وهى مقدسة . لماذا هذا ؟ لعزتها ونفاستها إذ ذاك . وهكذا زعم الروم أن بروموطيه اختلست النار من عبادها (بتشديد الباء) وسترتها عن أعينهم وأهدتها لأناس غيرهم ، فكان الرومانيون يقدسون النار كما يقدسها الفرس ، والهاسدنة يقومون بخدمتها و يحافظون على دوامها ، فلما أن صارت اليوم سهلة الحصول زالت تلك الهيبة من النفوس والعظمة

هذه هى النار ، وهذا تاريخها ، تاريخ النار تاريخ الحياة ، فلهب النار وحرارتها يرجعان للتفاعل والتزاوج ونتيجة اتحاد العناصر أن يكون هناك نبات وحيوان وانسان كلهن ناشئات من ذلك الاتحاد ، ويدوم ذلك التفاعل مدة ، ومتى بطل التفاعل بطلت الحياة . إذن النار سر الله فى أرضه

العلوم والمعارف

ليس فى الأرض علوم ولامعارف إلا على نمط إيقاد النار ، وهل المعارف إلا ازدواج بين القضايا الذهنية إذ تكون مقدمتان ومنهما تكون النتيجة ، أليس ازدواج القضيتين فى النفس يعطى فكرة كأنها حرارة وتكون النتيجة كاللهب ﴿ و بعبارة أقرب لما نحن فيه ﴾ أن آراء علماء الغرب والشرق متى ازدوجت فى فى نفوسنا حصل لعقولنا نتائج وهذه النتائج يصحبها نشاط فى مقابلة حرارة النار ويكون سرور فى مقابلة اللهب

إن انشراح الصدر بالمعارف خير من الدنيا ومافيها ، واذن يكون مافى الأرض من دهن وزيت وحطب كل هذه نشبه بها آراء علماء اليونان والرومان والألمانيين والفرنسيين والانجليز الذين تقدم ذكرهم . ثم إن تقليب هذه الآراء و بحثها واستخراج نتيجة تفهمها العقول واحدة و يفرح بها أهل العلم فى العالم كما سيأتى فى الفصل الثالث إن شاء الله أشبه بازدواج هذه المواد وظهور الحرارة واللهب منها واشراقها للعيون

ثم انى بعد أن فرغت من فهم هذه المعانى فى الآية أخذت وأنا لاأزال أكررها فى الصلاة أفكر فى معناها وأقول : إن موسى قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا ، ورجا أن ينال منها أحد أمرين : الأمر الأول لأهله ، والثانى له هو . فأما الذى لأهله فهو القبس لأجل الاستدفاء بالحرارة . وأما الذى له هو فهو أن يرى هاديا يهديه للطريق فى الجبل ولله فيعرفه طريق الوصول اليه كما قاله بعض المفسرين . إذن موسى عليه السلام قسم فوائد النار بينه و بين أهله ، فهكذا المفكرون فى المسلمين بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله عليهم أن يتخذوا علوم الأمم كلها مباحث لهم و يستخرجوا منها أولا المنافع المادية فى مقابلة القبس الذى ذكره موسى وثانيا المنافع العلمية والهادية الخلقية فى مقابلة هداية موسى . ونتائج ذلك لأمم الاسلام أن يعيشوا بسلام سعداء واذا ماتوا لقوا ربهم وقد أتموا ماعليهم ، وهذا فى مقابلة قوله تعالى ــ فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ــ

كل هذا أقوله وهى مصغية الىّ سامعة لى وكلما ازددت إيضاحا ازداد وجهها إشراقا . هنالك قالت لى : هل هذه المعانى تفسير للآية ؟ وضح هذه الفكرة . قلت كلا ، إنما هى معان تخطر للنفوس عند قراءتها ، والا فمعنى الآية يعرفه العامة والخاصة ، وهذه تسمى المعانى الاشارية أوالرمزية التى تخطر للنفوس على حسب استعدادها . واذا كان هرون الرشيد قتل البرامكة وأمعن فى ذلك حينما سمع المغنى يقول :

ليت هندا أنجزتنا ماتعد ✲ وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة ✲ إنما العاجز من لايستبد

فهكذا تفهم العقول الحكيمة المعانى التى تناسبها حينما تسمع القرآن من باب أولى ، والقرآن أولى من كتاب ﴿ كليله ودمنه ﴾ بالحكمة والعلم وهذا أمر واضح لأولى الألباب . وبهذا تم الكلام على الفصل الثانى فى القبس وفهمه من الآية فى الصلاة والحمد لله رب العالمين

الفصل

الفصل الثالث

في جلاء الحقائق العلمية وتبيان الصواب فى آراء هؤلاء العلماء العلمية والعملية أى النظرية والخلقية أى معرفة الله تعالى وعلم الأخلاق ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ وهى آيتنا التى نحن بصدد الكلام عليها

ههنا أخذت أستعرض آراء علماء أوروبا الحديثة وآراء القدماء وأفكر فى الماديات والروحيات . وكيف نسمع قوما يقولون « لاوجود إلا للمادة » ويقول آخرون « لا بل الموجود هى الروح »

و بينما أنا أفكر وهى الىّ شاخصة إذ لاحت لى الفتانة الى وجهها الجيل فأخذتنى الدهشة واعترتنى الغشية وغابت عنى الحواس ولم أشعر بما حولى ، فلعمرك ما أدرى كم ساعة قطعتها وأنا فى غشيتى ثم أحسست بيد ناعمة تمرّ على وجهى ورائحة عطرية لم أشم مثلها مدة حياتى عطرت المكان ، اذا هى قد أخذتنى بين يديها لتوقظنى ، فما آنستها بعد الغشية حتى قلت ما قاله ابن الفارض

مابين معترك الأحداق والمهج ✲ أنا القتيل بلا إثم ولاحرج
ودّعت قبل الهوى روحى لما شهدت ✲ عيناى من حسن ذلك المنظر البهج

فقالت نعم لا إثم ولاحرج - لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما - . فقلت ياسيدتى أخبرينى بالحق ؟ أأنا الآن فى عالم الآخرة ، أنا لاأعرف ماأنا فيه ، إن هذه المعانى التى تجول بخاطرى لم أعهدها فى أيام حياتى ، فلعلى مت ؟ فقالت هذا صفاء نفس لاموت ، وعند الموت تكون حالك أرقى من هذه الحال بمالاحدّ له . فقلت : ولكن ماهذه الحال ؟ قالت : ألم أقل انك فى حال البرزخ والمثال والخيال . فقلت : وهل هذه الحال لها وجود ؟ قالت : هى أصل الوجود والصور الأرضية فرع . فقلت : أنا اذا استيقظت وأخبرت الناس بذلك طالبونى بالبرهان . فقالت : أتذكر انك أيام الشباب رأيت صورا جيلة . قلت نعم . قالت فهل ذوو تلك الصور الآن لايزالون يحملونها . قلت : كلا فنهم من أصبح فى القبر رميما ومنهم من أصبح عجوزا وشيخا هرما أكل الدهر عليه وشرب وابيضّ شعره ويبس جلده وانحلت عراه . قالت فهل تغيرت هذه الصور الجيلة فى خيالك ؟ قلت كلا إنى أراها فى نفسى تامّة الجمال كما كانت لم تتغير . فقالت هذا مثل واحد ضربته لك لتعلم أن جميع الصور التى ترونها فى المادّة التى تتخيلونها باقية فى عقولكم الى أمد الدهر ، و بترا كمها تنتج أخلاقا وعوائد وسعادة وشقاء على حسب ماتصوّرت - كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - - بل الانسان على نفسه (بصيرة) - وهنا ابتسمت ابتسامة وأضاء المكان بالنور وعبق العبير . ثم قالت : إن الوجود الأصلى انما هو ماحفظته النفوس ، فأما وجود المادة فهو تبعى لاأصلى ، ألم تركيف لا يكون عمل إلا بعد فكر ، فهل الهرم ظهر فى الوجود إلا بعد رسم فى الخيال ، وهل الكرسى والباب والشباك والآلة البخارية والقطار السائر فى الأرض والسفن فى البحار والمنطاد فى الهواء وكذا الطيارات والجيوش المنظمات فى الجوّ وفى الأرض وفى البحر برزت فى الوجود إلا بعد أن رسمت فى صحائف الفكر فكان إبرازها للعيان بعد ظهورها فى الأذهان . فاذا حرق الكرسى والباب والشباك وحطمت الطيارة وهزم الجيش وتفرّقت جوعه فان صورها تبقى فى الأذهان . ألاترى أن أخبار معارك هنيبال وحروب رومه وقرطاجنه تتناقلها القلوب وتتداولها الألسنة وتتلقاها الأجيال مع ان تلك الأمم قد زالت من الوجود وخلفتها أمم آخرون من نسلهم أومن أمم أخرى ، إذن الأشباح المنظورة نتائج الصور المعقولة لافرع لها ، أولست انك قد ذكرت فى التفسير فى غير ماموضع أن هذا العالم كله حركات فى عالم يسمى الأثير ، وما الأثير إلا اسم تجهلون معناه ، وماهو إلا أشبه بالخيال ، ويؤيد هذا نظرية (انيشتين) إذن لامادة ، وغاية الأمر أن هنا حركات مختلفات الأعداد

والأحوال بها ظهر للعيون وللحواس أشباح . فقلت : إذن هذا تأكيد لمذهب الروحانيين . قالت هنا أرواح وهنا أجسام ، إن المواد لها وجود فى درجة الحواس فهى موجودة معدومة هى مترددة بين الوجود والعدم فأما عالم الصور العقلية فهى موجودة أبدا — وان الدار الآخرة لهى الحيوان — . فقلت : وهل هذه آخرة ؟ فقالت : إن عالم المثال الذى أنت فيه الآن مقدمة لعالم الآخرة ، ثم تبسمت وقالت : ولكن أنت الآن لم تمت فأنت حىّ . ثم انها فجأة قالت استودعك الله ، فراعتنى هذه المفاجأة وقلت .

ألمت فحيت ثم قامت فودّعت ✲ فلما تولت كادت النفس تزهق

فقالت أنا ما ودّعتك إلا وأنا واثقة بما لديك من الهبات العلمية ، وما منحك الله من الحكمة ، وانك ستلقى للناس حقائق ورقائق حتى يعلموا أن آراء الفلاسفة ليست مقدسة وأنا مطلعة على قلبك أقرؤه كالصحيفة أمامى ، وانك ستقول للناس قاطبة « إن كل فيلسوف له رأى » فهذا الرأى راجع لحال خاصة ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان أنظارهؤلاء الفلاسفة جزئية لا كلية ، ومتى أوضحت كل قول وأوضحت سببه عرف الناس أن كل واحد له حق من وجه واحد ولكنه باطل من وجوه عدة ، هذا كله ستقوله أنت ، فانصرافى الآن يكون بعد ماخبرت قلبك وانك ابن بجدتها [1] وأخو عذرتها ، وجذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب . فقلت : ولكنى لاأطيق فراقك ، ومتى قت وأنا لم أتم ماشرعت فيه من انى أسمعك ما سأكتبه فى هذا المقام ينالنى مالايطاق من الهمّ ، وان إصغاءك لى وسماعك لكلامى وان كنت مطلعة على مافى قلبى يحدث فيه مسرّة لأن إصغاء المحبوب لقول المحب أشهى اليه من الحياة وأعزّ عليه من روحه كما فرح موسى عليه السلام بقوله لرب العالمين وهو يعلم مافى نفسه — هى عصاى أتوكأ عليها وأهشّ بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى — ويجدّد فى قلبى حكمة إذ أطمئن على ما سأكتبه وأثق بما ألقيه فى هذه المسألة التى حار فيها أهل الشرق وأهل الغرب . فقالت : لاترع قد أجبنا طلبك ورحمنا تضرّعك فأتمم ماشرعت فيه

وههنا حرت من شدة الوجد والهيام ، كأنى فى أضغاث أحلام ، وتذكرت قول ابن المعتز فى الشرق :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا ✲ على الجوّ دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأصفر ✲ على أخضر فى أحمر تحت مبيض
كهيئة خود أقبلت فى غلائل ✲ مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقول ابراهيم بن سهل الاسرائيلى فى الأندلس

أشمس فى غلالة أرجوان ✲ وبدر طالع أم غصن بان
وثغر ما أرى أم نظم درّ ✲ ولحظ ما حوى أم صارمان

وقلت فى نفسى هذا أوان الجذل والغزل فى صور لاتفنى ولاتزول ، فأما فى الأرض فانها صور زائلة وهذه هى السعادة التى لانهاية لها ، فان هذه الحسناء الهيفاء قد ازداد جمالها بضع مرات وهى تزداد بهجة وجمالا وحسنا وبهاء ورقة إن الجمال فى أهل الأرض لم يجتمع لامرئ قط ، فاذا أشرق وجه الشباب بالجمال ، فالهيام إنما يكون بالظواهر غالبا فيه ، واذا أضاء قلب الحكماء والعلماء أحبهم تلاميذهم وأغرموا ذلك الغرام ببواطنهم لا بظواهرهم لأنهم لايستأهلون لذلك الهيام والحب إلا بعد استكمال قواهم الداخلية وتمام عقولهم وعلومهم ، ولكن لم ير أحد من أهل الأرض جمالا كما أرى أنا اليوم ، فالوجه مشرق والروائح عبقة لم أرلهما نظيرا على الأرض ، والجمال يزداد على مدى الساعات ، والحكمة والعلم يضاهيان حكمة أكابر الحكماء وعلم العلماء هنالك أشارت لى ان أشرع فى تحقيق الحق فى الآراء المقدمة كما تقدم . فقلت : « إن الناس اذا

(١) هذه أربعة أمثال تضرب لمن هو كفء للشىء وهو به جدير بجدة كسجدة ، وعذرة بوزن غرفة وجذيل مصغر جذل ، وعذيق على وزنه

ارادوا

أرادوا أن يقفوا على جلية الحق فلينظروا لأنفسهم ، وذلك من ﴿ وجهين ﴾ الوجه الأول ﴾ من جهة الحواس الخمس والعقل وذلك للمعرفة ﴿ الوجه الثانى ﴾ من جهة العواطف والشعور وذلك للأخلاق

الوجه الأول معرفة الانسان من جهة حواسه الخمس والعقل

إن حواسنا خمس : أدناها اللمس ، وأعلاها البصر ، وفوقها كلها العقل :

(١) أما اللمس فانما يستمدّ معرفته من الموادّ المحيطة به مباشرة ، فهو إذن كالأعمى يتلمس مايحيط به

(٢) وأما الذوق فانه وان كان كاللمس ففيه مزية أرقى ، وهوانه يصطفى ماهو أليق للغذاء ، ولايقبل إلا ما اختاره بخلاف اللمس فهو أعمّ

(٣) وأما حاسة الشم فهى أبعد مدى وسلطانها يكون على المسموعات اللاتى هى ذرّات منفصلات من الموادّ والهواء السفير بين حاسة الشم والمشموم ، إذن هذه واسعة الأفق ممتدّة الأكناف شريفة فيها لطف به اقتربت من عالم الأرواح

(٤) وأعلى منها حاسة السمع فهى أبعد مدى ، وأشرف مرتبة ، وأعلى مزية ، وسلطانها يحكم فى الهواء وحركاته لافى ذرّات متناثرات من المادّة فهى إذن أقرب من الشم الى عالم الأرواح

(٥) وفوقها حاسة البصر فهى لاسلطان لها على عالم المادة ولاصلة بينها و بينه فلاتتصل بنفس المادة كحاستى الذوق واللمس ، ولابذرات طائرات منها كالشم ، ولا بلطيف الهواء كالسمع بل سلطانها فى عالم متوسط بين المادّة و بين الروح وهوعالم الأثير الذى يحمل الصورالضوئية من المادة و يوصلها اليها . فترى الأشباح والصور والأشكال وقد امتدّ سلطانها الى أبعد غاية . فاذا كان السمع لايعلم إلا ما كان فى عالم الهواء والهواء محدودلايتجاوز (٥٠) ألف كيلومترا فان البصر يمتدّ سلطانه الى أبعد ما كان فى هذا الجوّ الفسيح . فهو يرى الشمس على بعد هائل عظيم بحيث تصل القنبلة لها فى ١٢ سنة و يصل لها القطارالسريع فى (٣٥٠) سنة . و بعد الشمس الهائل لايقطعه النور فى أكثر من (٨) دقائق و (١٨) ثانية . ووراء الشمس كواكب وشموس وسدم رأت العين أنوارها فى أبعاد شاسعة تقدّر بسيرالنور لابسير القطار ولابسير قلة المدفع مائة ألف سنة بل مائة مليون سنة وأكثر . إذن تبين أن العين أعظم الحواس سلطانا وهى تحكم فى عالم الأثيرالحامل للنور فعالمها أقرب الى عالم الأرواح

قاعدة

وههنا ظهرت لنا قاعدة هامّة جدا « إن كل حاسة وهبت لنا لن تنفصل عن عالمها فهى به متصلة اتصالا يناسبها . فاللمس متصل بعالم عظيم وهى المواد المحيطة بنا وهكذا الذوق وهكذا الشم دائماملاصق للهواء وكذا العين والبصر يشرف على عالم أوسع وأوسع . وكلما ارتقت الحاسة عماقبلها اتسع عالمها والعين بلغت النهاية فى اتساع عالمها حتى انا بالمناظير المعظمة لم نقدر المدى الذى تراه العين فى الاتساع والعظمة واللطافة المتناهية وهى لطافة النور فى عالم الأثير

(٦) — العقل

وههنا آن أن نبحث فى حاسة فوق هذه الحواس . نعم هذه الحواس تحضر الصور وهذه الصور تخزن فى خزائن الدماغ وهناك يحصل ازدواج الآراء وتحصل نتائج . فياليت شعرى أى عالم اتصل بالعقل فأعطاه نور المعارف الخاصة به وقل له : « خذ الظواهرالبسيطة الآتية من الحواس الخمس وتصرّف فيها واستخرج فى الحساب وفى الهندسة وفى الجبر وفى الكيمياء آلاف القوانين » . إن هذه القوانين لاوجود لها فى صور المادة الواصلة للحواس الخمس . فمن أين أتى ذلك العلم للعقل ؟ أجاء له من تلقاء نفسه ؟ إذن فلماذا نرى الحواس

كلها لاعلم لها إلا مما حولها ولكل حاسة عالم يناسبها ويشاكلها وهى درجات بعضها فوق بعض وأرقها البصر وعالمه وسط بين المادّة والروح ــ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ــ . إن العقل حقا له اتصال حقيقى بعالم عقلىّ وهوأوسع من عالم النور بمالاحد له بل هوعالم لانهاية له قياسا على ماقدمنا ، إذن الانسان يجلس وقد وضع القلم فى يده وأخذ يكتب مايملى عليه عقله ، فالقلم متصل باليد والعقل متصل بعالم عقلى وينبوع منه يستمد الفكر ، واتصال العالم العقلى بعقولنا كاتصال القلم بأيدينا ، وكما أن اليد جسم كثيف اتصلت بجسم كثيف يليق لها وهوالقلم هكذا عقولنا متصلات بعالم لطيف تستمد منه استمداد العين من الضوء والأذن من الصوت وحاسة الشم من الروائح فى الهواء

وهذا البرهان لايرد عليه ماورد على أفلاطون إذ استدلّ على عالم المثال ووجوده كما تقدم بأنه مقيس على المخلوقات الأرضية التى كانت الشمس سبب وجودها وسبب ظهورها لعيوننا وهدايتنا لها . فالله فى مقابلة الشمس وعالم المثال فى مقابلة المحدثات بسبب ضوئها وهداية الله لعقولنا كهداية الشمس لعيوننا وعالم المعانى كالجمال والخير والعدل والعظم والقوّة وغيرها عالم لايتغير باق كما ان الله لايتغير و باق ، والحوادث الأرضية تفنى لأنها وجدت بواسطة عالم يفنى و يتغير وهى الشمس . وهذا البرهان الذى قاله أفلاطون لم يكن مقبولا عند أرسطاطاليس فنفى عالم المثال كما قلناه فيما تقدم . وقال كلا ، ثم كلا . إن عالم المثال لاوجود له والعالم العقلى غيرموجود وانما الموجود عالم المادة ، ومجرّد النظر للمادّة والصورة كاف فى أن عقولنا تدرك القوانين ، وهذا هو السبب فيما وجد مرسوما فى الصورة التى رسمها الرسام الايطالى التى تقدم ذكرها من أن أرسطاطاليس يشير الى الأرض وسقراط يشير الى السماء ، و بسبب هذا اختلف الأحزاب بعد أرسطاطاليس . وقد تقدم الكلام على الرواقيين والأبيقوريين وكيف وقع هؤلاء فى الحلول وشكت (بتشديد الكاف) طائفة وألحدت أخرى وهكذا مماتقدم فى هذا المقام

و بقى العلم على هذا المنوال حتى جاء العصر الحديث وظهر العلماء فى أوروبا وفيهم يقول الاستاذ (بارتلمى سانتهلير) مترجم أرسطو من اليونانيــة الى الفرنسية فى القرن الماضى وهو التاسع عشر فى صحيفة (١٠٣) من المقدمة المترجمة مايأتى

« بعد الرواقية و بدون أن أقف على شيشرون ولاعلى سنيك الرومانى أقتحم عشرين قرنا وأمضى الى (كنت) أكبر أخلاقى فى الأزمان الأخيرة ، اننا نجد من نظرياته خليطا من المذاهب الثلاثة الخ » أى مذهب أفلاطون ، ومذهب أرسطو ، ومذهب الرواقيين

أقول : ولقد قدمت فى هذا التفسير مرارا أن الاستاذ (سنتلانه التليانى) ومثله (سبنسر) الانجليزى يقولان كما يقول جميع العلماء منهم : « إن فلاسفة القرون المتأخرة بالنسبة لسقراط وأفلاطون كالبقة بالنسبة للفيل فى مثل هذه المواضيع الشريفة الراقية » وهاهوذا الاستاذ (بارتلمى) يقول كذلك فى مواضع كثيرة من كتابه حتى جعل علماء أوروبا مدينين لليونان . كما ان العلامة (سديو الفرنسى) المؤرخ جعلهم مدينين للأمم العربية الاسلامية ، وكل قال على مقدار ماوصل له من العلم . إذن (بارتلمى) لايرى علماء نبغوا فى علم الأخلاق بعد عشرين قرنا إلا الاستاذ (كانت) ، فماذا يقول فيه ؟ يقول فى صحيفة (١٣٦) مانصه :

« اذا كان من اللازم ترتيب هؤلاء العظماء الذين حللت أفكارهم فانى لا أتردد فى أن أضع العلامة أرسطاطاليس فى الصف الثالث والاستاذ (كنت) فى الثانى وأفلاطون فى الأوّل » و بنى ذلك الترتيب على الاعتقاد لأن أرسطو لم يتكلم فى مستقبل الروح ولافى علاقتها بالله وجعل لسعادة الانسان مدخلا كبيرا فى الأخلاق مع ان الفضيلة وعمل الواجب هو الأولى بالمراعاة . وقال : إن (كنت) وان اعترف بالله و ببقاء الروح فان دليله ضعيف جدا أقلّ من دليل أفلاطون ، فان (كنت) يقول : اذا كان الانسان يسعى لاسعاد

نفسه من جهة والعمل للواجب لغيره من جهة أخرى فان العمل للواجب قد يتعارض مع العمل لنفسه ، وهنالك لاينال مطالبه فى الحياة الدنيا . إذن الحياة قاصرة هنا فلابد من حياة أخرى يرقى فيها و يكون الخلود وهناك يكافئ الخالق كلا بما فعل »

إذن الاستاذ (كنت) جعل الاقرار بالله و ببقاء الروح تابعين للقانون الأخلاقى ، وهذا ضعف ظاهر ولكنه على كل حال أرقى من آراء أرسطاطاليس وان كان أقل من آراء أفلاطون . هذا مجمل الكلام الذى ذكره وأوضحه أيما إيضاح فى المقدمة المذكورة

وأنا أقول : ههنا آراء أفلاطون وهى الصف الأول ، وآراء (كنت) فى الصف الثانى ، وآراء أرسطو فى الصف الثالث . وقد عرفنا فيما تقدم أن آراء أفلاطون وهو فى الصف الأول لم يعبأ بها أرسطاطاليس . و بسبب ذلك تخبطت الانسانية نحو عشرين قرنا من رواقية وأبيقورية وملاحدة أوروبية ، وظهر أمثال ليوكاروس وتوماس هو يز فى انكلترا ولامتريه فى فرنسا وهكذا من الماديين ، لماذا ظهر هؤلاء ؟ لأن العلماء تخبطوا من أيام أرسطاطاليس وهاموا فلم يجدوا من يحدثهم عن الحقيقة بأكثر مما قاله أفلاطون ، وأفلاطون عارضه أقرب الناس اليه وهو تلميذه ، فأين يذهب الناس ؟ فلما جاء (كنت) أتى بمذهب وسط وترك برهان أفلاطون وتنزل الى برهان ضئيل

هذه هى الآراء المنتشرة فى أمم الأرض ، وهذا آخر العلم فيها . فأما البرهان الذى قلته أنا الآن فليس يرد عليه من الطعن ماورد على برهان أفلاطون فضلا عن (كنت)

لقد برهنت ببرهان لايقبل النقض وأقل مافيه انه برهان الاستقراء فقد استقرينا الحواس فوجدناها متصلة بعوالم تحس بها ، فلماذا يكون العقل وحده هو الذى يقوم بعملية الاحساس من ذاته بلاعالم يمده مناسب له ! وهل يمد العقل إلا عقول تماثله وتناسبه ونسبته اليها نسبة الشم الى الهواء والسمع الى الهواء والعين الى الضياء

وأزيد عليه برهانا آخر وهو ان الأرض لم يكن فى استطاعتها وعجزت أن تعطى النبات نموا والحيوان هداية . إن النبات لن ينمو إلا بحرارة وبماء ، والماء لن يكون إلا بالبخار ، ولابخار يثور إلا بحرارة ، وهذه الحرارة لم تستطع ابرازها الأرض فأرسلتها الشمس . ثم ان الحيوان محتاج الى أن يرى سبله فى الأرض . والأرض لم تقدر أن تهديه نورا من لدنها . إذن الأرض قد برهنت على عجزها فى الحرارة وفى الضوء لنمو النبات والحيوان ولهداية الأخير . والضوء أيضا مساعدة فى نمو النبات (كما تقدم فى سورة يس عند آية ــ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ــ لأن ضوءها يساعد المادة الملونة فى تعاطى الغذاء من الهواء)

واذا عجزت الأرض عن أخس الأمرين أى الحرارة والضوء لتربى أبناها فهى عن أشرفهما أعجز وهو الادراك والعقل وغرائز الحيوانات . فاذا كان الضوء استعارته من عالم السماء فهى الى استعارة العقول والغرائز أحوج من عالم ألطف من عالمنا

فهذان برهانان قطعيان يثبتان عالم الأرواح الثابتة و يرفعان هذا الانسان من الحضيض الذى وقع فيه واذن لايرد على هذين البرهانين ما أورده أرسطاطاليس على أفلاطون و يبقى هذان سليمين من الطعن . واذا كانا أثبت من برهان أفلاطون فهما من برهان (كنت الألمانى) أكثر متانة وقبولا . واذن ظهر معنى قوله تعالى ــ إن الذين قالوا ربنا الله ــ الخ . وثبت بالبرهان العقلى الركن المهم فى علم الأخلاق وهو بقاء الأرواح ووجود الله تعالى . وذلك ان هذه النفوس الأرضية متى ثبت اتصالها بعوالم روحية تناسبها فانا نقول هذه العقول الروحية لابد من اجتماعها كلها بموجود أعظم منها ولابد أن يكون واحدا كما ان أضواء الشمس مهما تكاثر عددها فلها منبع واحد

وههنا تسقط تلك المذاهب المادية لأوّل وهلة ونقول لأمثال الاستاذ (كارل فخت) القائل : « إن المخ يفرز الفكر بعين الطريقة التي يفرز بها الكبد الصفراء والكلية البول »

لقد أخطأت المرمى ولم تصب المحز ، لقد نسيت أن المخ عضو الاحساس الأعلى والأعضاء الحساسة لها أحكام غير أعضاء التغذية ، ذلك ان أعضاء الحس متصلة بعوالم خارجية وهذا عضو فى داخل البدن . ثم نقول له ولأمثاله : « نحن لا نكذبكم لأنكم أشبه بحاسة اللمس فأحكامكم موجهة الى الدرجة التى وقفتم عندها والرجل الأصم الأعمى ينكر الصوت والضوء »

إذن ظهر أن فلاسفة الأمم كل يقول ما وصل اليه عقله لا غير ، وعلى الحكماء فى الاسلام أن يدرسوا هذه العقول فى هذه الأمم ويستخرجوا الزبد ليرفعوا هذه الانسانية المسكينة

فقالت : لقد أحسنت كل الاحسان وأجدت كل الاجادة وبهذا ثبت البرهان على أساس متين ، فشكرتها . والى هنا تم الكلام على الوجه الأوّل وهو معرفة الانسان من جهة الحواس ومايتعلق بها وبه ثبتت المعرفة النظرية ، وهذا المقام سيزيد إيضاحا فى ﴿سورة محمد﴾ ﷺ عند قوله تعالى ـ فاعلم أنه لا إله إلا الله ـ فى الرسالة التى سميتها « مرآة الفلسفة »

الوجه الثاني

البحث فى الانسان من جهة عواطفه وشعوره

وههنا أقول : قد تبين بالوجه الأوّل أن حواس الانسان وعقله أشبه بمدرسة يتعلم فيها الناس الارتقاء فى الأحوال والسعادات ، فمن وقف عند الطعام والشراب وحب المال فهو من الطراز الأدنى لأنه لم يجاوز حاسة الطعام . ونرى الناس يسارعون الى السفر برا وبحرا ، لماذا يهجرون الأوطان ويتجشمون المشاق ؟ ليطلعوا على عجائب الأمم والبرّ والبحر ، وآخرون يتركون الفراش الوثير والطعام اللذيذ والروائح العطرية فى بساتينهم ودورهم ويترددون على دور الصور المتحركة ومحال الغناء مفضلين لذة البصر والسمع على لذات اللمس والشم والذوق . إذن المحسوس كلما كان ألطف كان أشرف وألذ . إذن المحسوسات بالعقل ألطف المحسوسات وأشدّها وأشرفها ، فمن قصر فى فهمها ولم يشتق الى ذلك العالم الأعلى فهو غبيّ لم يدرس نفسه

بهذا وبهذا وحده يفهم النوع الانسانى كله أن الآخرة والأولى ندرسهما من أحوال أجسامنا ، وهذا من سر قوله تعالى ـ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ـ وهذا الذى عرفناه فى الوجه الأوّل نتبعه بما وعدنا به فى الوجه الثانى فنقول :

إن الطفل بعد ولادته نراه لا يعرف إلا نفسه ، ويظن أن كل من حوله مسخرون له ، ثم يأخذ جسمه فى النماء وشعوره وادراكه فى الازدياد . فاذا تكامل شعوره وتم نماؤه أدرك أن له أمّا وأبا واخوة ومدينة وأن عليه حقوقا وواجبات فيكون له ذرّية وتلاميذ وعشيرة وأمة ، ويحس فى نفسه بحب لهم غريب ، وكلما ازداد عقلا ازداد شعورا بحب الناس حتى ان الفلاسفة والحكماء بعد الأنبياء أحب بنى آدم للناس يحبون لهم الخير على مقدار علمهم . وعلى مقدار ازدياد العلم يزداد الحب . وعلى مقدار النقص يكون نقص الحب للناس . ونرى هناك تناسبا عجيبا بين الأم نحو أبنائها وبين النبيّ والحكيم نحو أمّتهما . فهذه تحنو على طفلها وتسهر عليه وتعطى للطبيب ماتملكه من مال وماعندها من حلى ولا تنام ولا تأكل ويلحقها الضنى وتبيت على الطوى مع انها قد تكون شابة فتية جميلة . ولولا هذا الطفل لأخذت زينتها وتبرجت بحلاها ولكن الرحمة الآخذة بفؤادها قهرتها وأخضعتها لهذا الطفل . ومحبو الأمم من الحكماء يعطفون عليهم هذا العطف عينه . وهكذا القوّاد الصادقون يفدون أوطانهم بأنفسهم . وترى العالم يزهد فى لذيذ العيش ويبيت ليله ساهرا ونهاره عاملا

ليفرح باسعاد أمته ورقى أبنائها ونجاحهم وفلاحهم . ولقد كنت فى أوّل زمان شبابى أقول فى نفسى « أتمنى أن أقف على الحقائق وأكون مجهولا لايعرفنى أحد ويكون ذلك مسرّة لى » . ولما صارت سنى أربعين سنة فأكثر كنت أتمنى لوانى جلست فى مكان وسمعت الأمة حولى فرحة قد أقامت الأفراح لانتصارها وارتقائها وأنا جالس لايعلمون مكانى وتكون غاية أمنيتى أن أعلم ذلك وأستلذ به وان كانوا لايعلمون

وعلى هـذا الذى ذكرناه الآن تعرض آراء الفلاسفة . فاذا سمعنا (كارليل) يقول : « إن الانسان يعرف قيمة الخير والشرّ بمجرّد الالهام والشعور بدون حاجة الى تمرين » فذلك ظاهر فى حال المرأة إذ ترى طفلها وفى حال الحكماء وعظماء الرجال . ومامن رجل أوامرأة إلا وعنده أثر من هذه الغريزة قليلا أوكثيرا فيقلّ فى الجهلاء ويكثر فى العلماء غالبا . فاذا رأينا (كارنرى) و (مل) و (بين) يقولون ذلك إنما يكون بالتجربة والتمرين فنقول : نعم إن معاشرة الكرماء وقراءة تواريخهم وما أشبه ذلك وكذلك التعوّد على الكرم . كل ذلك يزيد فيما اتصف به الانسان بفطرته وهكذا بقية الأخلاق

واذا قيل إن المقصد من الأخلاق هوسعادة الانسان نفسه وهى الاثرة كما يقول (ماكس سترنو ونتشه) قلنا لاغرابة فى ذلك ، وهذا حقّ لأن الطفل هذا شأنه ، ولكن المرأة تفدى طفلها بنفسها والحكيم والقائد كذلك . إذن هذان نظرا نظرا جزئيا كما نقول لأمثال (كارل فخت) القائل فيما تقـدم : « إن المخ يفرز المعقولات كما تفرز الكبد الصفراء والكلية البول » إنك صادق بحسب ماوصل اليه عقلك وعقلك لم يترقّ عما تلمسه الأيدى بحاسة اللمس ولوكنت مبصرا أوسميعا لعلمت ماعلمنا . فأمثال (ماكس سترنو ونتشه) نظروا نظر الصبى فى أوّل حياته يرى أن الناس مسخرون له

له حق وليس عليه حق ✡ ومهما قال فالحسن الجميل

هذه هى أخلاق الانسانية وآراؤها ذكرنا نموذجا لتحليل قضاياها العلمية والعملية ورددنا كل رأى الى مقرّه ، فآراء العلماء فى هذه الأرض أكثرها راجعات لأحوال خاصة . أما النظر العام فهو الذى يكون على نسق مابيناه « وما كل مصقول الحديد يمانى »

واذا قيل : « إن السائق لسلوكنا فى أعمالنا هو الخوف من التعيير والذم أوحبنا مدح الناس فذلك نقص . واذا كان الخوف من الله أوالرغبـة فى ثواب الآخرة فهو أكمل ولكنه ليس فى المرتبة العليا . أما اذا كان العمل لأحد أمرين إما لحب العمل نفسه مع النية من حيث انه جميل ومحبوب ونافع كأولئك الذين يفدون الوطن بأرواحهم ، فهؤلاء يجدون فى هـذا الاقدام سعادة ، فههنا اجتمعت سعادة الناس مع سعادة الانسان نفسه . والمرأة التى تسهر ليلا على ابنها ترى فى ذلك انها عملت واجبا أرضاها ولاترضى به بديلا . واما لحب الله وطاعته بدون نظر الى ثواب أوخوف من عقاب . فهذا العامل هو الذى يكون كأنه فى جنة عرضـها السموات والأرض لأنه فى كل حين يكون مستحضرا ذلك المقام الأقدس فرحا به فى غدوه ورواحه لايبالى بالمستقبل بل يفرح بأنه قائم بواجب فى حضرة ربه ويكون إذ ذاك كأنه بين يدى الله تعالى وتحدثه نفسه أن رب الدنيا هو نفسه ربّ الآخرة . ومثل هـذه النفس تعجل لها السعادة فى الحياة الدنيا فتكون الأعمال ممزوجة بالسعادة . وهـذا الفريق موجود فى الأرض الآن ولكنهم مجهولون ، يحسون أن الله ناظر اليهم ، واذا وقفوا فى العراء ظنوا انه أغرى النجوم الثاقبات لتنير الأرض فتذكرهم بجماله فيكونون حالا فى حضرته وان كانوا فى أجسامهم الظلمانية . فالسالكون للخوف عبيد مسخرون والسالكون للحبّ هم المقرّبون هذا تحقيق المقام . كل ذلك وهى صامتة لاتبدى حراكا

فلما أتممت هذا المقال . قالت : لقدأجدت ووفيت المقام حقه على قدر مايسعه ، وقد أذن الله بظهورها فى هذا الزمان لأن الأمم منذ أكثر من عشرين قرنا لم تكن تستعد لها . أما الآن فان الانسانية أخـذت تقترب والعقول أخـذت تستيقظ . وأنت من الممهدين لرقيها والمجدّين لاسعادها . ثم قالت : استودعك الله .

ووضعت يدها على صدرى وقرأت كلمات فلم أحس بشدة ألم لفراقها . ثم غادرت المكان وأنا لا أزال فى عالم الخيال ، وهنالك استيقظت فألفيتنى فى مكانى لم أبرحه ، وقضيت العجب مما رأيت ، وكتبته ليلة أول ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

وفى صباح يوم الاثنين أوّل ديسمبر حضر صاحبى الذى اعتاد أن يباحثنى فى هذا التفسير واطلع على ما كتبته . فقال : حيا الله هـذه الروح التى ساعدتك على ابراز هـذه المعانى ، فلقد حوت كل مايعوزنا من الحكمة ، فهاهى ذه جمعت آراء علماء اليونان وعلماء أوروبا وبها أدركنا ماوصل اليه فلاسفة العالم أجمع فى قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ وبهذا فهمنا معنى ماورد « أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا »

فاذا كانت هاتان كلمتان لم نفهمهما إلا بعد أن درسنا آراء أفلاطون مع سقراط ثم أرسطاطاليس ووجدنا الآخر يعوّل على المادّة فى العلم والأخلاق ، ولكنى أسألك فى معنى السعادة عند أرسطاطاليس . فاذا كان هو لم يسلم بنظرية العالم المجرّد وخالفه الاستاذ (كنت) الألمانى بعض المخالفة إذ أثبت الثانى العقل المجرّد ورتبه على أن قانون الأخلاق والسلوك يؤدى فى نتيجته الى أن هناك عقلا مجرّدا لينال جزءه جزاء وفاقا ، فهل يكتفى الأوّل فى السعادة بمجرد عمل الواجب واللذة العقلية به . قلت . كلا . ان أرسطاطاليس يقول : « إن السعادة يلحظ فيها جانب الأهل والأصحاب حتى جمال الانسان نفسه » . فالسعادة عنده رأسها سلامة العقل ووفور الحكمة . ويداها ورجلاها الزوجة والولد والأصحاب والمال

وقد قرّر ذلك الامام الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه الاحياء وأوصل السعادة الى ستة عشر نوعا وجعل للعقل أربعة وللأصحاب والولد والأهل أربعة وللأمور الخارجة عن هـذا كله أربعة كالتوفيق والتأييد وما أشبه ذلك . ولاجرم أن ذلك يرجع الى رأى أرسطاطاليس . فقال : وماالرأى فى هذا ؟ فقلت : إن الرأى عند الفلاسفة قد قدّمته وهو أن الفكرة العامّة الايثار وأن يجعل المرء نصب عينيه إسعاد المجموع . فأما هـذه الأقسام التى زادها هو على السعادة النفسية وتبعه الامام الغزالى فيها فهى صالحة للسعادة والشقاء . فالولد والمال والأصحاب . كل هذه صالحات لخير الانسان وشرّه وهى تعين على عمل البرّ كما تعين على عمل الشرّ . إذن هذه آلات صالحات للسعادة فتزيدها وصالحة للشقاوة فتزيدها . وخير من أفصح عن ذلك هو ﴿لغز قابس﴾ الذى لخصناه فى مواضع من هذا التفسير . وعلى ذلك لاتصلح هذه الخيرات الأرضية للفرح بها . وكيف يفرح الانسان بها وهى معرضة للزوال فيكون الحزن والحزن شرّ وهذا سرّ قوله تعالى ـ إن الله لايحب الفرحين ـ لأن الفرح يدل على قلة المعرفة بالحقائق . وهذا هو السبيل الذى انتقد بسببه بعض فلاسفة أوروبا الأخلاق عند أرسطاطاليس ، فنجد أن (بارتلمى) الذى تقدم ذكره فى صحيفة (٩٨) من المقدمة التى ذكرها فى النسخة المترجمة يقول : « انى أضع أخلاق أرسطو مع مابها من عظم فى مقام أنزل بكثير من أخلاق أفلاطون وسقراط . وان (بروكر) أقسى منا فى حكمه إذ يرى أن أخلاق أرسطو إنما جرّه اليها مظهر معيات الملوك التى عاش فيها وليس صالحا إلا الى تكوين بطانة تهمهم ثروتهم أكثر مما تهمهم سعادتهم ، أو أمراء كالاسكندر أشغف بالمجد منهم بالفضيلة » اهـ

وأقول أنا : فما ذكره الامام الغزالى فى الاحياء تابعا أرسطاطاليس قد لطفه هو فى الاحياء كثيرا واضطر لذلك فيه لأن فلسفة أرسطاطاليس هى الشائعة إذ ذاك . ثم ان أرسطو كما تقدم جعل العلم ليس راجعا إلا الى المادة لا الى المثل الأفلاطونية . وقد تقدم شرحه مرارا . وهذان سببان فيما تقدم من أن روفائيل المصوّر صوّره فى الفاتيكان مشيرا الى الأرض كما صوّر سقراط مشيرا الى السماء . إذن أرسطو كما أنزل العلم النظرى الى عالم المادة وجعله مرتبطا به هكذا جعل السعادة فى الأخلاق لها ارتباط بالمادة

وأذكرك أيها الذكي بما كتبته في ﴿ سورة البقرة ﴾ عند قوله تعالى ــ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ــ الخ فهناك ترى ملخص ﴿ لعزقابس ﴾ اليوناني الذي عاش في زمن سقراط قبل أرسطاطاليس بزمن ، وكان ذلك في نحو القرن الخامس قبل الميلاد

ويقرب منه من حيث هذا المعنى كتاب « الكوخ الهندي » المؤلف في القرون الأخيرة بالفرنسية وقد لخصته سابقا في هـذا التفسير . فقال : « أي الفريقين يؤيد القرآن ؟ أفريق القائلين بأن السعادة مادية ، أم القائلون بأنها معنوية ؟ فقلت : الفريق الثاني . فقال ماديليك ؟ فقلت : ــ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ــ ، فقوله ــ ويؤثرون ــ الخ هو عين مايقوله علماء الفرنجة فيما تقدم (التضحية) . ومن هذا القبيل الجهاد في سبيل الله ومنه ــ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهـم ــ الخ وكيف يكون المال والولد سعادة (كما يقوله أرسطاطاليس) في القرآن والله يقول ــ ولاتعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهـم كافرون ــ فإذا كان المال والولد عذابا كما في القرآن وفي صريح قول سقراط وقابس فكيف يكون سعادة ! فقال بالعجب إن حكم القرآن وأسراره هي نفس آراء أعظم الفلاسفة . وهنا أود ان سمحت أن أسألك في معنى بقية الآية فان ماتقدم كله في معنى ــ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ــ الخ لأن النظريات العلمية ترجع لقوله تعالى ــ قالوا ربنا الله ــ والنظريات الخلقية كقضية أرسطاطاليس وكنت وغيرهما ترجع الى ــ ثم استقاموا ــ فما معنى قوله تعالى ــ تتنزل عليهم الملائكة ألاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ✲ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدعون نزلا من غفوررحيم ــ قلت : هذا المعنى تقدم في أول هذه المقالات . ألاترى الى مايقوله حكماء الأمم قبل الاسلام وبعده وقدنقلناه قريبا والمنقول عن علماء الصوفية بحرلاساحل له في مساعدة الله تعالى للصالحين والمسلمون قد برعوا في هذا

والسبب في تلك المساعدة والمدد لهؤلاء الصالحين انهم متى صلحت أعمالهم ، واستنارت عقولهم ، وعرفوا أن نفوسهم متصلة بعوالم مجردة غير مادية صاروا أقرب اليها وأصبحت عند عقولهم قريبة كقرب المادة من أجسامهم ، فهنالك يحسون بالهام وبترحاب وبشائر ، ولايعرف هذا إلا هم ، أما غيرهم فانهم محرومون من ذلك ، فمثلهم كمثل أكثر النوع الانساني من حيث مشاهدة الجمال ، فالجمال حولهـم ولكنهم لايفرحون به لأنهم محجوبون عن جمال النجوم والشجر والأنهار والبحار والأزهار ، ذلك لأنهـم من يوم أن أتوا الى الأرض لم يسمعوا عن سعادة إلا سعادة المال والسلطان ولم تفتح لهـم أبواب سعادة الجمال ، فأغلب النوع الانساني محرومون من هـذا الجمال والاحساس به مع انهم يرونه بعيونهم وهم محرومون منه . ولاريب أن المحسوسات بالحواس أقرب الى عقول الجمهور . فاذا كان الأقرب لعقولهم وهو الجمال لم يدركوه ولم يسعدوا به فكيف بما هو أبعد من حواسهم وان قرب من عقولهم وهو عالم الالهام والبشارة في عوالم عقلية متصلات بعقولهم وهذه العوالم صلة بينهم وبين ربهـم . فهؤلاء هم المحجوبون بسبب أن أبواب عقولهم أقفلت بينهم وبين الأرواح العالية . فاذا أحسوا بالهام أورأوا رؤيا فرأوها صباحا مثل فلق الصبح ثم رأوا مثلها مرارا وتكرارا فانهم يقولون هذه مصادفات . واذا أغيثوا في حال الضيق أوألهموا أمرا نافعا فانهم قلما يكترثون له ويقولون هذه مصادفات وهم يجهلون انهم مغمورون في رحمة الله وهو قريب منهم وهذه علامات قربه ولكن استعدادهم الناقص حجبهم عن ربهم فلم تفتح لهم أبواب السماء . وهـذا الباب يفتح للعامة بطريق الذكر والتقوى وللخاصة بذلك وبالتفكر والعلم

واعلم أن كثيرا من قراء هذا التفسير سيفتح لهم هذا الباب وهم المتوسطون في الفهم الذين لهم صفاء به يدركون البرهان الذي فتح الله به علينا فان أحدهم يجلس وقد أغمض عينيه وفكر فيرى أن روحه لطيفة

متصلة بعالم روحى تستمدّ منه . وهنالك يحس أحدهم بأنه فى عالم قدسى . وهؤلاء هـم الفريق الذى ورد فيه الحديث «اعبد الله كأنك تراه الخ» فهذا باب من أبواب كأنك تراه . وهذه من أعظم درجات الناس فى الدنيا . فنحن لانرى الله بعين البصرة ولكن بهذا البرهان نراه بالبصيرة . وهنالك درجة أقلّ من هذه وهى أن نعبد الله ونعلم أنه هو يرانا . وهذه درجة أقلّ من تلك لأنى اذا كنت ألحظ الله وجماله فى نفسى وفى كل ماهو حولى فان ذلك أشرف من أن أكون عبد سوء فأعبده خوفا من ناره أوطمعا فى جنته وتكون عبادتى مبنية على تلك الأسباب مرتقبا منه إزاحة ناره عنى أوأن يدخلنى جنته . وخيرمن هـذا أن أكون كأنى أراه فى الحياة فاذا مت فانى أراه بعد موتى ورؤيتى له فى الآخرة أجلّ من الجنة وهوالمعبرعنه بقوله تعالى – ولدنيا مزيد – والمقول فيه – وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة –

ولما وصلت الى هنا قمت وتوضأت وسجدت لله شكرا على نعمة العلم فى هذا المقام وصاحبى يشاهدذلك فقال : لقد شرحت صدرى ، وصرت موقنا إيقانا تاما ، وأصبح المعسور ميسورا ، والمجهول معلوما ، وعلمت أنا مالم أكن ولا كثير من أمثالى نعلم وكان فضل الله علينا كثيرا . فقلت : الحمد لله رب العالمين

تذكرة

إنى غادرت القاهرة وتوجهت الى مزرعتنا بالمرج يوم الاثنين أول ديسمبر سنة ١٩٣٠ م وسرت على قدمى نحوأربع ساعات لمجرّد الرياضة ، وهنالك خطرت لى هذه الخواطر فكتبتها يوم الثلاثاء ٢ منه وهى :

نواضر الجواهر ، انفائس العرائس

فى خلاصة ما تقدم هنا من الحكمة العلمية والعملية

ذلك إنما مثل النفس الانسانية مع حواسها كمثل الشمس مع سياراتها ، فكما أن للشمس سيارات عليا كزحل والمشترى تدورحولها ، وسيارات سفلى كالزهرة وعطارد ، هكذا للنفس مدركات عليا كالعقل والعين ومدركات سفلى كاللمس والذوق ، وباعتبار آخر ان المدركات ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ قسم أعلى كالعقل . وأوسط كالعين . وأدنى كبقية الحواس ، فباعتبارالتقسيم الأوّل كان الفلاسفة على قسمين : قسم أقرب الى المادة وهم الماديون ، وقسم هم أقرب الى العقل وهمالروحيون ، وكل لم يقل إلا ماوصل اليه جدّه واجتهاده لاأقلّ ولاأكثر ، فالماديون أشبه بالصم العمى لم يعرفوا إلامالمسه أيديهم و يشمونه و يذوقونه ، والآخرون لهم عيون ولهم عقول . والصورة التى رسمها روفائيل فى الفاتيكان مظهرلذلك التقسيم . فأرسطو للقسم الأرضى وسقراط للقسم السماوى . و باعتبارالتقسيم الثانى يكون أفلاطون كالعقل والاستاذ كنت كالبصر وأرسطو كالحواس الملابسة لعالم المادة . ذلك ان برهان الأوّل فى إثبات وجود الله وخلود الروح أرقى من برهان الثانى و برهان الثانى لايحتمل المصادمة لأنه علقه على قوانين الأخلاق وأن من الناس من لاينالون مكافآت فى الحياة فلاجرم تكون للناس حياة أخرى وإله يجزى بالعدل . و برهان أفلاطون رجع الى الشمس وما خلقه الله بسببها وهدايتها للحيوان وأن ذلك يقاس عليه وجود الله ووجود عالم المثال

وهذا هوخلاصة عقول الناس منذ (٢٥) قرنا ، فأولهم أفلاطون مع سقراط ، وهـذا هو برهانه الذى نبذه أرسطو وعوّل على المادة والصورة فى برهانه فخالفه تلاميذه ، فأخذت الانسانية كلها تتخبط الى وقتنا هـذا فكان الرواقية والأبيقورية قبل الميلاد ، فالرواقية وقعوا فى الحلول ، والابيقورية قالوا باللذة الروحية بالفلسفة . وتغالى الرواقية فى الفناء وفى البحث عن كشف ماوراء الحس

فأما بعدالميلاد فقد نشأت الفرق الثلاث . الاسكندرية واللاتينية والسورية . وأشهرهم أفلوطين وشيعته بمدينة الاسكندرية وهؤلاء هم الأفلاطونية الحديثة

ثم انتقلت الفلسفة الى الأمم الاسلامية والأمم الاوروبية ولم يظهر بعد الرواقيين فى الأخلاق عند أوروبا إلا الاستاذ (كنت)

هذه خلاصة الأمم تجلت واضحة جلية ، وقد عرفت أهم آراء هذه الأمم كلها ، وعرفت براهينهم بغاية الجلاء والوضوح

أما تفسير الجواهر فقد أتى ببرهانين ﴿الأول﴾ المدركات كلها مغموسة مغمورة ومتصلة بعوالم تناسبها ، وهذه العوالم تكون أعظم وألطف وأجل وأوسع كلما كانت أرقى ، فاذا وصلنا من أدنى الحواس الى أعلاها وهى الحس ووجدنا هذه القاعدة مطردة فن الجهل ومن البله ومن الحق أن نحرم المدرك السادس وهو أعلاها بل سيدها من هذه المزية وأن يكون متصلا بعالم يشاكله ويكون أعظم وألطف وأجل وأوسع من العالم المتصل بالمدرك الذى يليه مباشرة وهو العين . وهذا البرهان حديث النشأة لم يذكره أحد من هؤلاء الفلاسفة ، وان يرد عليه أى اعتراض مما ورد على الاستاذ (كنت) ولا مما ورد على أفلاطون وسقراط ، واذن تستأنف الانسانية اليوم دورا جديدا فى العلم والحكمة بعد هذا البرهان ﴿البرهان الثانى﴾ يساوى البرهان الأول فى القوة ان لم يكن أقوى منه ، وذلك أن نقول ان الأرض عجزت عن ايجاد حرارة بها تثير البخار من البحار وتثير الرياح فيكون مطر من السحاب المحمول بالرياح ، وعجزت أيضا عن ضوء يساعد النبات على التغذية والحيوان على الاهتداء فى فجاج الأرض ومسالكها والانتفاع بالحياة فيها ، ونجدها استعارت الحرارة واستعارت الضوء من الشمس ، فاننا نجد الحيوان لايرى غذاءه ولا يميز عدوه من حبيبه إلا بالضوء ، ونرى المطر والرياح لا يكونان إلا بحرارة باعثة ، ونرى أوراق النبات لاتجتذب غذاءها من المواد الغذائية فى الهواء إلا بمساعدة ضوء الشمس لها (انظر ماتقدم فى سورة يس عند آية ـ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ـ الخ فهناك ترى الأوراق مرسومة مشروحة وتفهم ذلك هناك فهما تاما)

فاذا رأينا أرضنا عجزت عن إمداد أبنائها بالحرارة وبالضوء واحتاجت الى الشمس فى ذلك فهى عن إمداد ما يكون عليها من حيوان بالادراك والغرائز والعواطف والعقول أولى ، ومن عجز عما هو أسهل وهو المحسوس بحواسنا من الحرارة والضوء فهو عما فوق ذلك مما تدرك عقولنا أشد عجزا . فثبت بهذا البرهان أن المادة لاتقوى على إحداث نفس أوعقل أوغريزة أوشعور فى الحيوان لأننا وجدناها قد أظهرت عجزها ولم تسعفنا بما هو أسهل وأقل عناء

فهذان البرهانان اللذان وضحا وضوحا تاما بهما طاحت تلك المذاهب البائدة وبهما تخرج هذه الانسانية من خطل الرأى والاغترار بالألقاب الفخمة العريضة الطويلة التى يغتر بها الأحداث فى المدارس فيظلون يعمهون بسبب سوء التقليد بلاعقل ولاهدى ولا كتاب منير

هذا هو نهاية الكلام على الحكمة العلمية . ومما يلحق بهذا مسألة الحرية وهل نحن أحرار فى أفعالنا واذا لم نكن أحرارا فلم العقاب ؟ واذا كنا أحرارا فأين هى تلك الحرية ؟ فأفلاطون أجل فى هذا وآخرون استدلوا على وجودها بما اتفق عليه العقلاء من التمييز فى العقاب بين العاقل وغير العاقل وهكذا فدل ذلك على أن هناك حرية نتمتع بها ولا أطيل فى هذا الآن

الحكمة العملية

ملخص ماتقدم

﴿أولا﴾ إن فى الانسان إلهاما يميز به بين الحسن والقبيح فى الأعمال كما يميز بين الجميل وغير الجميل فى الأجسام والتجربة تعين الانسان على ذلك

﴿ ثانيا ﴾ إن غاية سلوكنا إما أن يكون نفعنا الخاص بنا وهى الاثرة واما أن يكون النفع العام
﴿ ثالثا ﴾ ما الذى يحببنا الى تلك الأخلاق ؟ أهو صوت باطنى فى نفوسنا أم هو أمر خارجى كالخوف من الله أو من الناس ، أو حب المدح ، أو حصول الثواب

هذه آراء الأمم ، أما ماجاء فى تفسير الجواهر فهو اننا كما فعلنا فى القسم النظرى إذ عوّلنا على النظر فى المدركات الست للانسان هكذا فعلنا فى القسم العملى الخلقى وقلنا لننظر الفرق بين طفل يستخدم جميع مواهبه فى الاستعانة بما حوله و بين حكيم ومحب لوطنه وأم ترضع ولدها وأب ينفق عليه ، فهؤلاء فى الذروة العليا من العطف والاشفاق والرحمة والايثار وذاك فى الدرك الأسفل فى الحياة ، وعلى ذلك يزول خلاف الفلاسفة إجمالا فمن قال لا أعمل إلا لنفسى قلنا له : هاأنت ذا عرفت درجتك ، فأنت إما طفل ، واما صبى ، واما مراهق ، والناس درجات لاحصر لها كدرجات الانسان فى حياته ، فهذا المثال لايذر مذهبا إلا دخل فيه ، فمن قال بالهداية الذاتية فهى مشاهدة ، ومن قال بالتجربة فكذلك ، ومن قال أخدم الجموع . فهاهى ذه الأم مع ولدها وهكذا فالمثال واضح جلى وقيمة الفلاسفة تختلف باختلاف معارفهم . وأذكياء قرّاء هذا التفسير هم الذين يكونون شهداء على الناس . ذلك لأنهم يقرؤن علوم الأمم لكنهم هم الذين يحكمون على الفلاسفة بعقولهم على منوال ماجاء هنا فى تفسير الجواهر . أما ترك هذه الانسانية تتخبط فى ديجور الظلام فهذا لايجوز ولايصح ونحن خلفاء الله فى أرضه

﴿ جمال العلم فى الحكمة العلمية والحكمة العملية ﴾

لقد ضربنا المثل بالانسان فى الحكمة العلمية والحكمة العملية ورأينا أن قوّته العقلية كما تتخذ الحواس الخمس آلات لها فى اكتساب المعارف الجزئية تستمد من العالم العقلى الكليات والكليات هى العلوم الحقيقية أما مدارك الحواس فهى قليلة جزئية و يعتريها الخطأ فان العين قد ترى الكبير صغيرا كالشمس . وترى الصغير كبيرا كالأصبع فى الماء . وكم للحواس من خدع ولايصلح تلك إلا العقل السليم

إذن كل ماعندنا من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها مستمد من عالم عقلى وهو مستمد من المبدإ الأعلى الفياض القدسى كما تشرق الشمس بأنوارها على أرضنا وعلى السيارات الأخرى . فهكذا فى أخلاقنا وأعمالنا وشعورنا وعواطفنا نقول ما قلناه فى القسم النظرى : « اذا عجزت المادة عن أن تمدّ الأجسام بالحرارة والعيون بالضوء فما أشدّ عجزها وأضعف قوّتها وماأوهى حيلتها فى إلهام الأم حب ولدها والهام الاستاذ حب ارتقاء تلميذه وشوق نفوس الحكماء الى التآليف للأجيال المقبلة التى لم يروها ولن يروها ، فمن أين أتت محبات الأقارب والأصدقاء والأزواج والذرية ؟ بل من أين أتت هذه الشهوات الطالبات ملابس وأغذية وأزواجا وذرّية ومساكن وملكا عظيما ، ومن أين أتت هذه البواعث الشديدة فى نفوسنا من المحافظة على العرض والشرف والنجدة وحماية الذمار ، فاذا قلنا أن ذلك من نفس المادة التى خلقت هى فيها ، وأن تلك العواطف والحب والغرام والشوق كلها ناجمات من نفس الطبيعة يكذبه أن هذه الطبيعة الميتة عجزت عن إحداث الحرارة اللازمة لها وعن إحداث الضوء و بالأولى عجزت عن إحداث عقل وادراك ، فهكذا هى أشدّ عجزا عن إثارة الحب والغرام والعواطف والشهوات

فثبت إذن أنه كما ان الحرارة تثير البخار من البحار وتثير الرياح و يحمل الأخير الأوّل فيكون مطر و يحدث نبات وحيوان هكذا هناك فينا شهوة فى مقابلة الماء وغضب فى مقابلة الرياح ، وهناك باعث من أعلى لامن الطبيعة يثير أنواع الشهوات لنتغذى ونلد ونلبس ونسكن ، و يثير الحمية فنحافظ على الشرف والمال والعرض ، وهذا الباعث المسلط على نفوسنا آت من العالم الأعلى كما ان الادراك فى القسم النظرى صدر منه ، فصدور هذا الباعث هنا من العالم الأعلى القدسى فى مقابلة صدور الحرارة من الشمس فى العالم الحسى والضوء

وإثارة السحاب والرياح ثم هداية الحيوان على الأرض ؛ ونتيجة ذلك كله البهجة والجمال والحسن والكمال

فاذا جلست أيها الذكي في خلوتك وفكرت في نفسك وأيقنت أن عقلك وجميع علومك لها اتصال بعالم عقلي أنت فرع منه وهذا العالم العقلي أوسع من عالم النور وهومستمد من الله ، فهنالك تحس بأنك في عالم جميل بهيج ، وإذا لم تبتهج بذلك فتفكر حالا في جمال النجوم ليلا والشجر والزهر والأنهار نهارا وهكذا ترجع الى ما ألهمت من عواطف ، وما منحت من شرف وحماسة وعفة وكل وحب عام لرقي نوع الانسان ورقي أهلك وعشيرتك . وقد علمت أن هذه إن هي إلا قبس من ذلك الفضل العميم والحب الأعلى والاحسان الكامل وأن إحسانك وحبك وعطفك كل ذلك مقتبس من العالم القدسي وأن العوالم التي يستمد منها عقلك هي نفسها التي تستمد منها عواطفك الحب والاحسان والرفق والغرام بالنفع العام . فترى نفسك إذن كأنك عالم صغير وتفرح بأن لك صلة بجمال لاحد له وكمال لانهاية له فترتقب الموت ارتقاب الفرح بالكمال المقبل على سعادة لانهاية لها . ولن يتم لك ذلك الحب والغرام إلا باطالة التفكير والبحث وتصفية النفس وكثرة الصيام والقيام . هذا هو سر هـذا الانسان . وهذه هي سعادته . وهذه هي النفس المطمئنة التي نوديت فقيل لها ـ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ـ

خطاب الله عزّوجل شكرا له

لك الحمد اللهم على الالهام والانعام والحكمة والجمال ونعمة العلم والنور . علمتنا وأنرت بصائرنا فنحن نعلن شكرنا ونثني عليك الثناء كله . أريتنا آياتك في الآفاق وفي أنفسنا . نظرنا في نفوسنا وفي الآفاق فألفينا :

(١) أوّلا صورا جميلة في الكواكب وفي الزروع والشجر والنهر والقمر وفي المعادن والحيوان وفي الانسان وجمال وجهه في محاسن الخدين والعينين والأنف والفم

(٢) ثانيا أثرت في أنفسنا شهوات لاقوام لحياتنا إلا بها . وهل نعيش إلا بالطعام والشراب واللباس والمسكن . وهل نحافظ على هـذه الهيا كل الجسمية إلا بحافظ يحفظها وهي القوّة الغضبية التي بها ندافع الأعداء من الخارج ونهذب أنفسنا من الداخل ولانفرط في حقوق الجسم والمحافظة عليـه باثارة الحمية لأجل حب البقاء

(٣) ثالثا جعلت لنا عقلا ينظم القوّتين السابقتين فهو نبراسهما ومعلمهما ومهندسهما ومنظمهما

ولما عزّ علينا فهم تلك الدقائق ومعرفة تلك القوى العاملة فينا أريتنا مافي الآفاق فعرفنا الحقائق . أريتنا الماء وأريتنا الهواء ومنهما تثير الحرارة البخار وتزجي الرياح ويحمل الريح الماء على متنه ويسوقه الى الأرض البعيدة مرغما لسقي الأرض فيكون النبات والحيوان ، فيكون الضوء مساعدا على تغذية النبات أوّلا وعلى هداية الحيوان ثانيا

فهما عالمان : عالم حامل ، وعالم محمول أثارتهما الحرارة وجاء دور الضوء فكان الغـذاء لتمام الاشكال وللهداية للسبل

فلما نظرنا في هذه الحرارة وفي هذا الضوء وجدناهما جاءا من عالم الأثير بسبب الشمس وعالم الأثير وسط بين عالم المادة وعالم الأرواح . والضوء في هذا العالم الوسط يجري بسرعة هائلة بحيث يدور حول الأرض نحو ٧ مرات في ثانية واحدة . هذا هو العالم الوسط بين المادة وبين الروح الذي أثار الماء وأثار الهواء ونظام الغذاء والهداية في فجاج الأرض . والأرض لاقبل لها بالحرارة ولاقبل لها بالضوء

فلننظر فيما هو أبعد مدى من ذلك فاننا نجد أمرا عجبا . نجد أوّلا قوى تبعث على الغـذاء . وأخرى تحافظ على هذه الهيا كل داخلا وخارجا وهي الغضبية وأخرى هادية مرشدة . وهذه تقابل الحراة والضوء في عالم المادة

فمن أين أتت هذه القوى الثلاث ؟ أمن المادة أتت ؟ كلا . لأنها عجزت عن احداث الحرارة والضوء وهما وسط بين الحسى والعقلى ، أجاءت من عالم النور الآتى من الكواكب وهو العالم المتوسط بين العالمين . كلا . فأين النور وأين العقل مثلا الذى هو ألطف منه . إذن هذه القوى بريئة من المادّة وهكذا القوى المنظمة للعوالم الكوكبية والنباتية والحيوانية اللاتى تحدث التزويق والجمال

فهذه كلها لن تكون إلا من عالم فوق عالم النور وهو عالم الأرواح ، وهذا العالم فاض من الذات القدسية كما فاض النور من جرم الشمس . إذن كل جمال فى الانسان والعوالم حوله ، وكل قوّة فيه علت أو سفلت فانها من عالم روحى متصل بالقدس الأعلى

وبهذا نفهم قوله تعالى ــ الله نور السموات والأرض ــ ، فكل جمال فى شجر أو زهر أو كوكب روحه فهو قبس من العالم القدسى وهكذا قوانا الباطنية من عقلية وغذائية والقوى الحافظة على ذلك فكلها نور معنوى وزّع على منافعنا من ذلك الجمال الأقدس

وهذه الأنوار الداخلة فى أجسامنا ، الظاهرة فى جمال ماحولنا ، وفى وجوهنا يشملها قوله تعالى ــ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ــ . إذن يارب أنت فى علمك القديم علمت عجزنا عن أن ننظر أنوارك فلأت أرضنا بأنوار جعلتها فى مقابلة نورك ، وكل نورمنها مشكاة ، فعواطفنا وعلومنا وجمالنا والقوى الداخلة فينا وبهجة القمر والنجوم والأزهار كل واحدة منها كأنها مشكاة من نورك ، ولكن لم تبح لنا أن ننظر نورك نفسه لأننا لانقدر عليه غاية الأمر أننا نفكر أو ننظر جمال الشجر أو الزهر أو الوجوه الجميلة ، أما وجهك فلا . أنت يارب بالنسبة لعقولنا كالشمس بالنسبة لأبصارنا ، عجزت أبصارنا عن أن تنظر اليها فهكذا عجزت عقولنا عن أن تراك ففرحت بالمشكاة إذ لانطيق أكثر منها ، المشكاة فى أرضنا مستمدّة من الشمس وعقولنا وجميع الجمال الداخل والخارج عندنا مستمدّ من أنوارك الجميلة

إن نبينا ﷺ رأى وهو فى حال الاحتضار ذلك الجمال والكمال والحكم والحب العام والرحمة ، وغاية الجمال الذى كل جمال فى الأرض ماهو إلا مشكاة ، فماذا قال ؟ « قال اللهم الرفيق الأعلى »

رآك بعين بصيرته ولكننا الآن عرفنا ذلك بمجرّد الفكر ، نحن الآن نطيق الفكر فى هذا ولكننا لانطيق جمال « الرفيق الأعلى » ولا أنواره إلا اذا كملت نفوسنا ، إن جمال عقولنا وكمال نفوسنا أشبه بنا فنحن نطيقه ، ورسولك لما رآك وقدر أن يراك خاطبك قائلا « اللهم الرفيق الأعلى » لأنه رأى جمالا نسبته الى جمالنا كنسبة نور الشمس الى نور السراج فوصفك بالأعلى يعنى ونحن رفقاه ولكننا أدنى ، وانما كنا أدنى لأن علمنا وجمالنا وحلمنا وجمال صنع صناعنا ورحمتنا لعبادك ضئيلة جدا ، فيرحم أحدنا طفلا وولد له ومريضا أشرف على الهلاك . ولكن لضيق الرحمة عندنا وضيق الحب لم نبذلهما إلا لعدد محصور لأن رحمتنا محصورة وحبنا محصور على مقدار ضعف نفوسنا لأن كلا منا مشكاة . فاذن كل منا رفيق أدنى . ولما رآك ﷺ واطلع على رحمتك وجمالك وحبك لكل مخلوق وأنت منعم على الكل ترك هؤلاء الرفقاء الضعاف واشتاق الى الرفيق الأعلى . انتهى والحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الخميس (٤) ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

* * *

وقبل الفراغ من هذا المقام يحسن بنا أن نختمه بما يناسب الآية التى نحن بصدد الكلام عليها وذلك ﴿ بزهرتان : الأولى ﴾ فى قوله تعالى ــ إن الذين قالوا ربنا الله ــ وهى الحكمة العلمية ﴿ الثانية ﴾ فى قوله تعالى ــ ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ۞ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون نزلا من غفور رحيم ــ وهى الحكمة العملية . فلأشرع فى ذكرهما فأقول مستعينا بالله

زهرتان فى بستان الحكمة العلمية والعملية

الزهرة الأولى فى قوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ـ وهى الحكمة العلمية

جاء فى جريدة الضياء بتاريخ يوم الأحد أوّل شعبان سنة ١٣٤٩ هجرية الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالى مانصه :

التوفيق بين العلم والدين

رأى العلامة سرجيمس جينس

إن عقولنا تتحيز للتفسير الآلى ، ويرجع بعض السبب فى ذلك الى طريقة نشأتنا العلمية الأولى كما يرجع السبب فيه أيضا الى أننا ننظر كل يوم الامور تسير آليا ميكانيكيا . لذا كان التفسير الميكانيكى هو التفسير الأسهل الذى لايحتاج الى كثير عناء أوالى مجهود فكرى عنيف ، وهو علاوة على ذلك تفسير طبيعى ، ولكن اذا نظرنا الى الحالة العامة نظرة دقيقة وتامة غير متأثرين بنوع تربيتنا العلمية والى شعورنا الشخصى نرى أن المادة قد فشلت فشلا ذريعا سواء أكان ذلك فى العلم أم فى الفلسفة ، ويوجد الآن شبه اجماع بين العلماء أن العلم يتجه نحو الحقائق غير الآلية وصار ينظر الى العالم كأنه يمثل فكرة عظيمة بعد أن كان يعتبره آلة ضخمة

وابتدأ العلماء يشعرون بأن المادة ليست غريبة عن العقل ، ثم أخذوا يرحبون بالعقل و يعتبرونه منظما للمادة لايقصد بذلك عقل الانسان ولكن يقصد العقل الذى منه نمت عقول الناس

إن العلم الحديث يلزمنا أن نغير موقفنا الذى اتخذناه بدون طويل بحث أو روية ، ذلك الموقف الذى كنا نجاهر فيه أن العالم مادى لاأثر للحياة فيه ولاعلاقة له بالعقل ، ذلك الموقف الذى كنا فيه نعتقد أن بين المادة والعقل عداوة قائمة ، يجب أن نغير ذلك الموقف لأنه لاعداوة أوخلافا بين المادة والعقل بل هما يتفقان وذلك لأن المادة وليدة العقل وهو خالقها ومبدعها

ومن هذا يتبين أن التفسير المادى للكون قد صار قديما وأن العلم قد ارتقى فترك هذا التفسير أثرا بعد عين ، و يشعر علماء النفس الآن أن فى العالم حقائق روحية ونفسية لايمكن ادراكها إلا اذا اعتقدوا بصحة الدين وضرورته . انتهى ما أردته من الجريدة المذكورة . تمت الزهرة الأولى

الزهرة الثانية

جاء فى كتاب اخوان الصفاء ما يأتى :

« ذكر أن رجلا من المترفين وأرباب النعم ممن قد بسط له دنياه ومكن فيها جعل أكثر جهده وكده طول عمره ليلا ونهارا فى تنعم بدنه ورفاهة جسمه ولذة عيشه واصلاح شهواته حتى لم يكن له فى طول نهاره شغل إلا دخول الحمام وحلق رأسه وتمريج بدنه أوتغيير لباسه أوتبخير ثيابه وبدنه واستنشاق طيبه أوتنتله من مجلس الى مجلس فى تجديد لذاته واصلاح شهواته حتى لم يكن يأكل ولايشرب إلا أطيب الطعام وألذ الشراب ، ولايلبس إلا أنعم اللباس ، ولايقعد إلا على أوطأ المراكب وألين الفرش ، وكان لاينام إلا على سرير معلق فى الهواء فى وسط قبة له مخافة دبيب يعرضه أوغبار يصيبه ، فعاش على هذه الحال زمنا طويلا حتى شهر فى الناس بطيب عيشه ولذيذ شهواته ، وجعل الراغبون فى شهوات الدنيا يتمنون حاله و يغبطونه فيما فيه ، و يتشبه به المترفون من أهل زمانه وأرباب النعم كل واحد بحسب امكانه واتساع حاله حتى صار قدوة لطالبى اللذات فى اتباع الشهوات ، وكان مع هذه الحال كلها لم يكن يعرف شيئا من اصلاح نفسه ولاتحسين أخلاقه ، ولانفقها فى الدين ، ولاتزوّدا لآخرته ، ولا تفكرا فى أمر معاده ، ولارغبة فى علم ، ولاطلبا لأدب

ولا فكرة فى زوال الدنيا ولا ذكرا للرت بل كان مقبلا على طلب شهواته محتقرا لأمور الناس مزريا على من دونه معرضا عن الفقراء مهاجرا لأهل العلم متهاونا بأمر الدين ثم أراد الله تعالى أن ينبهه من نوم غفلته ورقدة جهالته ويرى للعباد قدرته ويجعله عبرة لغيره وعظة لمن سواه فبينما هو ليلة نائم على فراشه فوق سريره معانقا لحبيبته وأبواب داره مغلقة وستوره مسبلة وحول سريره شموع تزهر وعلى أبواب داره خدمه وغلمانه مستيقظين إذ رأى فيما يرى النائم كأنه فى برية قفرة وحده وهو عريان جائع عطشان وبدنه مسود وشعره طويل وجسده ملوث برجيع مافى جوفه وعلى ظهره ثقل ثقيل واذا هو بأسودين منكرين خلقهما طويل قامتهما وعيونهما تبرق ومن مناخرهما يخرج الدخان ومن شدقيهما تلتهب النيران وبأيديهما حراب حداد وهما يقربان نحوه ليأخذاه فلما رآهما ولى هاربا من بين أيديهما وهما يتبعانه حتى إذا أمعن فى هربه إذا هو بجبل شاهق فيه طريق ضيق وعر مسلكه سالكه بمشقة شديدة وعناء طويل حتى اذا انتهى الى قلته هوى من الجانب الآخر فى واد منكسا على رأسه حتى وقع فى بئر يخرج منها دخان معتكر يأخذ بالأنفاس ولهب يشوى الوجوه والاسودان فى أثره لا يفارقانه . فمن هول مارأى وعظم ماعاين وشدة مالقى صرخ فى منامه صرخة واضطرب اضطرابا شديدا ووقع من سريره الى الأرض وانتبه كل من كان فى داره ومن حوله من جيرانه من شدة زعقته وطاش عقله وشخصت عيناه وارتعدت مفاصله وانغلق لسانه واجتمع حوله كل من كان فى داره من خدمه وغلمانه وأقربائه يسألون ما الذى أصابه فلم يطق جوابا بقية ليلته حتى أصبحوا وجمعت له المعزمون والراقون وظنوا أنه أصابه لمم من الجن أوسحر من الأعداء ووسواس من الشيطان . فقال لهم ليس بى ماتظنون ولكن رأيت رؤيا هالتنى وأفزعتنى وأدهشتنى فجمعت له المعبرون وقصت عليهم رؤياه (فقال) بعضهم أضغاث أحلام وقال بعضهم هذا من خلط سوداوى ومزاج غليظ . وقال آخر لا بل فكر ردى وتخيل فاسد . وقال آخر لا بل هو من الجن وجعلوا يرجون الظنون حتى جنهم الليل فجمع خدمه وغلمانه وأقرباءه فى مجلس واحد حول سريره ونام هو بينهم فوق فراشه وجعلوا يقرؤن الرقى والعزائم والعوذ ويبخرون الدخن حتى كان من ذلك الوقت من الليل فاذا هو برؤياه ذلك بعينه بل هو أعظم وأهول وأصرخ ففز من فراشه وأفزع كل من كان حوله . ثم أدركوه وجعلوا يسألون عنه وهو مرتعد مرعوب لا ينام ولا ينامون توجعا له الى الصباح وتسامع الناس بخبره وجمعت له الأطباء فوصفت له الحمية والاستفراغ والشربة وظنوا أنه نافع من هذا العارض ففعل ومانفع شئ . فلما كان من الأسبوع الداخل فى مثل ذلك الوقت من الليل فاذا هو برؤياه بعينه بل هو أعظم وأهول فانتبه مرعوبا مرتعدا الى الصباح مانام . فلما كان من الغد جمعت له المنجمون والمعزمون والعرافون وسئلوا عن موجبات أحكام النجوم فذكروا أن مثل هذا العرض انما يعرض للانسان من أجل أنه يكون فى أصل مولده من استيلاء النحوس على درجة طالعه أو احد الأوتاد فى تحويل السنين والشهور . فقيل لهم فما الدواء النافع فيه والمنجى له فقالوا نختار له يوما يكون القمر متصلا بالسعود وطالعا جيدا يكون السعود فى الأوتاد والنحوس سواقط عنها ويتحول من ذلك الوقت من بلد الى بلد أو من محلة الى محلة أو من دار الى دار ففعل ذلك ومانفع الدواء له وشاع حديثه فى الناس وتسامعت به الأخبار فى البلاد وصار فى موضع رحمة بعد أن كان بحال غبطة وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس خائفين أن يصيبهم مثل ما أصابه من البلوى والمحن وجعل أهل المدينة ليس لهم حديث فى مجالسهم ومحافلهم الاحديثه ولاعظة الاما أصابه فبينما يوما جماعة من جيرانه قعود على الطريق فى حديثه إذ مر بهم رجل يعرف بالناسك وكان من أهل العلم والدين والسر قد رزق العلم والايمان . فقيل له كيف غمك على فلان جارك قال كغم أب مشفق طبيب على ولد عليل فقيل له وكيف ذلك قال لأن عندى تأويل رؤياه ودواء دائه . فقيل له لم لا تقصده وتعرفه ماعندك قال لانه لا يسمع قولى ولا يقبل نصيحتى فقالوا ولم ذاك قال لأن أزهد الناس فى علم الرجل جيرانه ولكن أخبركم انا وعرفوه أنتم ولا تذكرونى عنده فانى خائف ألا يقبل استصغارا

لما أقول أو يفعل من غير يقين فلا ينفعه قالوا له عرفنا نسمع ماتقول ، فقال أما رؤيته البرية القفرة فهو براءته
من الدنيا و براءتها منه يوم يموت وأما فقره فهو فقره بعد الموت وشدة الحاجة فى الآخرة الى الزاد ، وأما عريه
فهو عري من الأعمال الصالحة التى لها ثواب الآخرة ، وأما جوعه وعطشه فهو رغبته وحرصه فى طلب شهوات
الدنيا وأما سواد بدنه فهو سواد وجهه عند الله لسوء أعماله وأما طول شعره فهو شعور حزن طويل فى الآخرة
وأما تلويث بدنه برجيع مافى جوفه فهو خوف واكتئاب يناله فى الآخرة يتمنى الرجعة الى الدنيا ولا سبيل له الى
ذلك . وأما الثقل الذى رأى على ظهره فهو ثقل أوزاره وسوء أعماله ، وأما الشخصان المنكران فهو منكر
أفعاله ونكير أخلاقه وسوء عاداته لا يفارقان نفسه حيث ماذهبت يتبعانها . وأما الجبل الشاهق فهو جبلته وعادته
التى هو عليها مشقة والشاهق شقاء يناله بعد الموت الا أن يتوب و يرجع الى الله عن اثمه . وأما المسلك الوعر
فهو طريق الآخرة التى لابد له من سلوكها بنصب وعناء ، وأما الوادى فهو وادى جهنم والبئر المهوى هى
الهاوية التى اليها تصير نفوس الأشرار وأرواح الفجار فقولوا انه هو بادر وتدارك وتلافى قبل الموت والا سيكون
مصير نفسه الى هناك بعد الموت فان الله تعالى أراد بهذه الرؤيا أن يعظه و يذكره ليتوب و يرجع عما هو فيه
من الغفلة فى أمر الآخرة والحرص على الدنيا ، فقالوا له فما دواؤه ، قال ينوى نية صادقة و يعزم عزما صحيحا
و يرجع الى الله و يتوب عما قد سلف و يتصدق بشطر من فضول ماله على الفقراء والمساكين و يلبس الخشن من
الثياب مايوارى العورة و يصوم فى كل أسبوع يومين و يمشى الى المساجد خاضعا و يتفقه فى الدين و يستعمل
القرابين و يصلى فى ظلمة الليل و يستغفر فى الأسحار و يسأل الله تعالى أن يكشف مابه وانه تعالى يفعل ذلك ان شاء
فقام القوم من ساعتهم ودخلوا عليه وعرفوه بما أصابه و بما هو خائف مترقب له ثم أخبروه بما قال لهم الناسك فقال
لهم من أين لكم هذا التأويل ومن وصف لكم هذه الرؤيا فقالوا أخبرنا العالم فى الدين الناصح الذى لانشك فيما
قاله فقبل قولهم وجمع جماعة من العلماء والفقهاء وأهل الدين فأخبرهم بما قيل له ، فقالوا حقا ماقيل وصوابا
ماوصف فسألهم عند ذلك عن التوبة النصوح كيف تكون وعن فقه الدين وطريق الآخرة وأمر المعاد وصفة
الجنان وثواب الأخيار وأين يكون منقلب الأشرار فوصفوا له ماهو مذكور فى كتب الأنبياء عليهم السلام
فقبل ماقالوه وفعل ماأمروه بين شك و يقين وخوف ورجاء ، فلما كان فى الأسبوع الآخر مثل ذلك اليوم صام
نهاره وتصدق عند افطاره وأكل يسيرا من الطعام وقام يصلى ليلته ، فلما كان من ذلك الوقت وهو ساجد
إذ غلبه النوم فرأى فى منامه كأنه فى تلك البرية بعينها وقد اخضرت من العشب والكلأ وقد تفتحت زهر
الرياحين وفاح نسيمها فاذا هو على رأس قلة عليها عين من الماء الزلال وكأنه قد اغتسل من مائها فتناثر عن
بدنه ذلك الشعر والدرن وقد ألبس ثيابا جددا تفوح منها رائحة الطيب واذا هو بشخصين قائمين أمامه كأنهما
صورتان من النور تشف أبدانهما عليهما زى الجمال ومحاسن الكمال ورونق الشباب وهيبة الوقار وهما متبسمان
فى وجهه كالمستبشرين له يشيران اليه بالنظر الى قدام فتأمل اذا هو بفضاء فسيح يقصر دونه الطرف
و بأنوار قد ملأت الآفاق من الضياء واذا فى ذلك الفضاء رياض خضر كان بينها نسج الديباج من الزهر والنور
والزعفران واذا فى وسطها أنهار تجرى على أرض بيضاء كأن حصباءها الدر والياقوت والمرجان ، وعلى حافات
تلك الأنهار أشجار كأن أوراقها الحرير والسندس والأرجوان واذا هب نسيم تخشخشت أوراقها كأنها أصوات
نغمات أوتار العيدان و بين تلك الأوراق ألوان الثمار متفننة الأشكال والطعوم والألوان واذا بين ذلك قصور
شاهقة كأنها جبال من رخام أبوابها مفتحة وصحون واسعة وايوانات متقابلة فيها سرر موضوعة عليها فرش
مرفوعة ونمارق مصفوفة و بينها سادة كرام متكئين متقابلين عليهم زين الجمال ومحاسن الكمال وهيبة الوقار
بأيديهم التحف يسعى بينهم ولدان وغلمان وجوار حسان أتراب مبرقات بالمحاسن والجمال ، فلما رأى تلك
المحاسن قال لصاحبيه ماهذه قالا هى الجنة دار السلام ومعدن الأرواح ومسكن نفوس الأخيار ومستقر الأبرار

فان أنت دمت على ماأنت عليه الى الموت فسيكون مصيرك الى هناك بعد مفارقتها جسدها فتجد لذة العيش وسرور النعيم صافيا بلا تنغيص مابقى الدهر فمن فرح ماسمع وسرور مابشر استفزه ذلك فانتبه دهشا متفكرا يتمنى عسى أن ينام فيرى تلك الرؤيا ثانيا بعد أن كان كارها للنوم مخافة أن يرى رؤياه الأولى ، فلما أصبح تصدق بجميع ماله وأعتق كل عبده ولبس المسوح وكان طول نهاره صائما وسهر ليله قائما مجانبا للناس لايكلم أحدا بل يصلى نهاره باكيا حزينا زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة حتى فشاخبره فى الناس وتسامعت به فى المدينة والبلاد فقصده الناس من الآفاق يسالونه رؤياه و يسمعون تأويله و يتعظون به ،ثم صار بعد ذلك يتكلم على الناس فى المجالس بالحكمة والموعظة و يضرب لهم الأمثال ، ويدلهم على طريق الآخرة و يرغبهم فى ثواب الجنة و يزهدهم غرورها وأمانيها و يحذرهم الاغترار بها . فقيل له من أين لك هذه الحكمة والموعظة وأنت لم تكتب الحديث ولم تسمع الأخبار ولم تقرأ الكتب ، قال أجد قلبى كالمرآة يتراءى فيه حقائق الأشياء وأجد لسانى يجرى على الصواب من غير تكلف منى وأجد نفسى كالترجمان تسمع من وراء الحجاب وتعبر وتؤدى الى أبناء جنسى عما تسمع بلا تصنع منى . فعلم عند ذلك أنه مؤيد بملك من الملائكة يلهمه باذن الله جل ثناؤه ، ثم صار ذلك الرجل قدوة فى الدين لأهل زمانه فبينما هو يوما فى محفل والناس حوله يسالونه عن أمر الدين وهو يفتيهم والناس مابين مستمع مصدق وشاك ومتعجب منه كيف كان بالأمس أرغب الناس فى الدنيا وقدوة لطالبى الشهوات وكيف هو اليوم فى أمر الدين امام لطالبى الآخرة إذ وقف فى المجلس رجل من أولئك الذين دخلوا عليه يعودونه فرأى ذلك الناسك فى مجلسه يسائله عن مسائل من أمر الدين و يستوصف منه طريق الآخرة فدنا منه وقال له شبه المتعجب هذا صاحبك الذى فسرت منامه ووصفت دواءه وأنت اليوم تسأله عن أمر الدين وطريق الآخرة قال نعم ولكن قد جاءه من العلم مالم يأتنى وقد قبل نصيحتى أمس فنفعته اليوم وأنا أقبل منه اليوم ماعسى أن ينفعنى غدا وكانت صفتى له أمس تعليما بشريا وصفته اليوم تعليم ملكى ، ثم ان ذلك الرجل التائب بقى مدة من الزمان مجتهدا فى عبادة الله على عادته حتى قرب أجله ووقت مفارقته فرأى فى منامه كأن روحه قد خرجت من جسده واذا هى على صورة مثل شكل الجسد وهيئته سواء غير أن هذا الشكل جسمانى وتلك صورة روحانية شفافة لاينالها لمس ولاحس واذا هى قد ثبتت فى الهواء حيث شاءت وكيف شاءت بلا كلفة ولاعناء وهى تجد من ذاتها خفة وراحة وسرورا وروحا ولذة وفرحا لايوصف بمثلها حال الأجسام ونظرت الى جسدها اذا هو مطروح لاحراك به فحنت اليه لطول الصحبة و إلف العادة . فلما دنت منه وتأملته فاذا هو كأنه قد أتى عليه ثلاثة أيام بعد الموت وهو منتفخ منتن الرائحة يسيل منه الدم والقيح والصديد و يجرى بين لحمه ودمه الديدان و يخرج من فيه ومنخريه وأذنيه الديدان والقمل . فلما رأت ذلك الحائل اشمأزت منه وتأخرت عنه وأنفت من الدنو اليه وجعلت تغبط حالها حين فارقته وخرجت منه ونجت من وسخه ودرنه ووحشته وعاره ووباله ثم التفتت فاذا هى أبواب السماء قد فتحت والمعراج قد امتد من السماء الى الأرض والملائكة نزلت وامتلأت الآفاق من النور والضياء وسمعت مناديا ينادى ـ ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ـ فانتبه من نومه ذلك ، ثم أخبر بما رأى وأوصى وصيته وما مكث إلا أياما حتى توفى ومضى لسبيله : انتهى ماأردته من اخوان الصفا والحمد لله رب العالمين

ويتبع هذا ﴿ حكمتان : الأولى ﴾ بعنوان ﴿ حكم عامة ﴾ فى موازنة عطف الأم على ولدها بنفع الحكيم لأمته ﴿ الثانية ﴾ فى السعادة المزيفة وهاك نصهما فى الصحيفة التالية

حكم عامة

الأم	الحكيم
الأم تغذى ولدها مع شفقة ومحبة بلبنها	الحكيم يغذى الأمة والأم بعلمه مع شفقة ومحبة
...	...
الأم تسهر على ولدها وتكلؤه	الحكيم يسهر على الأمة والأم ويكلؤها بعطفه
...	...
الأم لاتبالى بالمشاق فى سبيل تربية ولدها	الحكيم لايبالى بالمشاق فى سبيل إسعاد أمته
...	...
الأم تبذل مالها وكل ماتقدرعليه وتصرف وقتها فى إسعاد ابنها	الحكيم يبذل ماله ومايقدرعليه من عمل ووقت فى إسعاد أمته
...	...
الأم تستلذ النصب والتعب فى تربية ابنها	الحكيم يستلذ النصب والتعب فى إسعاد أمته
...	...
الأم تحس بلذة تضاهى ما تراه من رقى ولدها	الحكيم يحس بلذة رقى الأم بعلمه أعظم من لذة الأم ، نسبتها الى لذتها بولدها كنسبة الجوع الكثيرة التى هداها الى الولد الواحد الذى ربته الأم

السعادة المزيفة

(١) القائمون بأمر الأمم أغلبهم ذوو سعادات لفظية

(٢) الملوك منهم والأمراء اكتفوا بالنساء وكثرة المال والحصول على الشهوات

(٣) هؤلاء الحكام يتقون بماظنوه سعادة ، مع ان القوى الجسمية كلما ازدادت تعاطيا للشهوات ضعفت وقلت لذاتها ثم فقدتها

(٤) فاذا ضعفت شهواتهم أخذوا يستعيضون عنها بالرتب والنياشين من الملوك ، وما كان لرتبة ولانيشان ولاألقاب تعظيم أن تنيل القلب سعادة ، أو تصرف الغم عن الفؤاد

(٥) واذا ملئت خزائنهم بالمال وقد ولى العمر وحانت الحال رجعوا الى أنفسهم فوجدوها خاوية على عروشها فازدادوا انقباضا وبئس المصير

(٦) إذن مكافأة الجهلاء من نوع الانسان أشبه بمكافأة الأطفال بالدمى واللعب والأثواب المزركشة ، والولدان يعلمان أن ذلك وقتى قليل القيمة . هكذا العناية الإلهية كافأت أطفال الرجال بما يشبه مكافأة الأطفال استصغارا لعقولهم ورحمة بأممهم ، فهم أشبه بفداء لأممهم يسهرون على راحة الجموع ويكافئون بما أكثره شؤم عليهم لأنهم لايعقلون اهـ

واعلم أيها الذكى أن هذا المقام العام ملخص فى تفسير البسملة فى سورة الدخان ، وفى رسالة ﴿ مرآة الفلسفة ﴾ فى سورة محمد ﷺ عند آية ــ فاعلم أنه لا إله إلا الله ــ فانظره هناك إن شئت . والى هنا تم الكلام على قوله تعالى ــ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ــ الخ والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى — ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت — الخ وفى قوله تعالى — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم — الخ

فى هذه اللطيفة فصلان

الفصل الأول فى قوله تعالى : فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت

جاء فى مقال فى جريدة الاهرام يوم السبت ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالى ما نصه :

وحدة الحيوانات والنباتات

يعتقد أغلب الناس أن بين الحيوانات والنباتات تباينا كليا واختلافا تاما ، وأن كل فريق منهما مستقل عن الآخر . وقد كانوا يعلموننا فى المدارس أن هناك عالم الحيوان وعالم النبات أو مايعبر عنه الغربيون بمملكة الحيوان ومملكة النبات . ومما لاشك فيه أن من يلقى نظرة سطحية على الحيوانات والنباتات الراقية يجد أن بينها اختلافات ظاهرية . فالحيوان يتحرك ويتغذى ويتأثر . أما النبات فهو ثابت فى مكانه ولا يظهر أنه يتحرك أو يتغذى أو يتأثر على أن من يمعن النظر ويحقق فى البحث يتضح له أن هذه كلها اختلافات ظاهرية لاحقيقة لها

ذلك لأن كل مميزات الحيوانات مثل الحركة والتأثر والتغذى والتنفس والتولد توجد كلها فى النباتات . وهى فى الواقع تعتبر الى حد ما مميزات جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات

فالحركة لاتختص بها الحيوان . فان هناك حيوانات عديدة ثابتة منذ نشأتها الى موتها مثل كثير من الحيوانات المسماة بالجوفاء كالمرجان . وكذلك الحيوانات التى تعيش فى قاع البحار وتشبه فى شكلها النباتات والأزهار . ومنها الحيوانات المسماة بالتونيسية أو القميصية السابقة للحيوانات الفقرية أو بالأحرى احدى الحلقات المتوسطة بين الفقرية واللافقرية . فانها تكون عند ولادتها متحركة مثل سائر الحيوانات . ولكن صغارها لاتلبث أن تثبت على صخر فى البحر وتظل هكذا باقى مدة حياتها الى أن تموت

كما أن هناك من جهة أخرى نباتات متحركة مثل النباتات المفترسة فان لها أعضاء خاصة تنقضّ على مايقع عليها من الذباب والحشرات والحيوانات الصغيرة الأخرى وتنطبق عليها وتفرز حولها عصيرا هضميا مثل عصير الحيوانات فتهضم مايقبل الهضم منها وتمتصه ، ومن النباتات المتحركة النبات المعروف للعامة باسم «المستحيه» ومنها فصيلة كاملة من النباتات الطحلبية المائية المسماة « أوسيلير » فانها فى حركة اهتزاز مستمر مثل رقاص الساعة ، وأبلغ من هذا حركات بعض النبات الأولية ذات الخلية الواحدة فان لكثير منها شعراصغيرا عديدا حولها أو شعرة واحدة طويلة فى مؤخرها مثل الذنب تستعين بها على العوم فى الماء فتذهب وتجىء مسافات تذكر لافرق بينها وبين الحيوانات ، وكذلك بذرة أو بويضات النباتات الطحلبية المائية وبذرة صف «الموس» وصف النباتات ذات التولد الخفى . فان تلك البذور تستعين بذنبها . أى بالشعرة التى فى مؤخرها للتحرك فى الماء بحيث لايستطيع الانسان أن يميز من أول وهلة بينها وبين الحيوانات الصغيرة التى من حجمها . ولهذا سميت بالبذرة الحيوانية

هذا كله فى الظاهر أما اذا حققنا النظر فى الأمور فانا نجد أن الحركة نتيجة لازمة للمادة الحية على الاطلاق سواء أكانت نباتية أم حيوانية . وتفصيلا لهذا الاجمال ، نقول ان أنسجة جميع الحيوانات لاترى إلا

بالميكروسكوب ، وشكل هذه الخلايا وتركيبها واحد فى الحيوانات والنباتات فالخلية مكونة من مادة زلالية أو بالأحرى من خليط من مواد زلالية مختلفة ومواد دهنية . ومواد سكرية أو نشوية . وقليل من بعض مواد معدنية . وفى وسط كل خلية نواة تركيبها واحد فى الحيوانات والنباتات . وللخلية فى معظم الأحيان غلاف خارجى من مادة زلالية أخرى مرنة عند الحيوانات ومن مادة جامدة تسمى بالسيليلوز عند النباتات . وهى مادة القطن وورق الكتابة

ومادة الخلايا التى يسمونها بروتو بلسما أو المادة الحية (خليط من المواد الزلالية والدهنية والسكرية) من أهم خواصها الحركة أى أن أجزاءها فى حركة مستمرة مادامت حية . ولاشك فى أن هذه الحركة نتيجة تفاعلات كيماوية دقيقة مترتبة على حريق المواد الغذائية . التى تصل الى الخلايا بعد الهضم والامتصاص ومثل حركة المواد الحية حركة السوائل . وهى تغلى والآلات الميكانيكية بسبب حريق الفحم أو البنزين أوالزيت وغيرها

ولافرق فى ذلك بين الخلايا الحيوانية والخلايا النباتية . ولكن لما كانت أغشية الخلايا الحيوانية من مادة زلالية مرنة كما تقدم كانت الحركة التى تبدأ فى واحدة منها تنتقل الى جاراتها وتأخذ فى الامتداد فيتحرك المجموع بعكس الخلايا النباتية فان مادة كل خلية منها محبوسة داخل أغشية صلبة من السيليلوز . فالحركة التى تقوم فى بعضها لاتستطيع الانتقال الى ماجاورها من الخلايا ولا الانضمام اليها . ولهذا كانت مواد كل خلية نباتية تتحرك فى مكانها داخل غلافها ومجموع النبات ثابت . والخلاصة أن الحركة من خواص جميع المواد الحية النباتية والحيوانية على السواء

وفى الحقيقة والواقع ليست الحركة وقفا على الأحياء ولكنها تعمل فى الجماد وجميع المواد المعدنية . وتعم كل مافى الكون من أكبر الأجرام الفلكية الى أصغر ذرات المادة أو الجوهر الفرد . وماهو أصغر منها مما اكتشف أخيرا ونعنى اليون أو الالكترون . فاذا رفعنا نظرنا الى السماء نجد أن جميع الكواكب والشموس والسيارات (بما فيها أرضنا) والأقمار وذوات الذنب فى حركة مستمرة لاتعرف الكلل . وكل مايحيط بنا على الأرض متحرك كذلك بلا انقطاع من أمواج البحار ومياه الانهر وهواء الجو والزوابع والزلازل وتساقط الأمطار والثلج والبرد ودوى الرعد وانقضاض الصواعق وغير ذلك من العوامل الطبيعية التى دكت الجبال الشاهقة وغيرت من شكل الكرة الأرضية مرات عديدة فى الأعصر الجيولوجية القديمة مدة ملايين من السنين الغابرة . وكذلك الحال بالنسبة لجزئيات المادة وجواهرها الصغيرة وذرات هذه الجواهر فانها فى حركة مستمرة تزداد بارتفاع الحرارة وتنقص بانخفاضها . وبالجملة فان الحركة هى الناموس الأساسى الذى يدير الكون بأسره منذ الأزل والى الأبد

ومايقال عن الحركة يقال عن التأثر فانه صفة لازمة للمواد الحية الحيوانية والنباتية على السواء . فاذا مالمس الانسان بسلك رفيع مثلا خلية من الخلايا الحيوانية أوالنباتية . وهى تحت الميكروسكوب يراها تتأثر وتتحرك فتنكمش أوتمتد . وهذا الذى يحدث عرضا بفعل الانسان يحدث عادة وعلى الدوام بفعل المؤثرات الطبيعية والكيماوية التى تعمل فى أجسام الحيوانات والنباتات أو فى البيئة التى تحيط بها وتؤثر عليها

ولافرق فى خاصة التأثر بين الحيوان والنبات ، وكل مافى الأمر أن أغشية خلايا النباتات تحول دون انتقال التأثر من خلية الى خلية نظرا الى جودة تلك الأغشية فيظهر النبات فى مجموعه كأنه لايتأثر . والحقيقة أن مواد خلاياه تتأثر . ولكن يحجب هذا التأثر مادة السيليلوز الجامدة

على أن التأثر ليس فى الحقيقة من مميزات المواد الحية دون غيرها ، بل يشترك فيه كثير من الجماد مثل المواد المفرقعة ومثل المواد الكيماوية غير الثابتة التى تتأثر بالنور كمواد التصوير الشمسى (الفوتوغرافيا)

أو بالرطوبة أو بالحرارة أو بالكهرباء وغيرها . ومن الأمثلة على تأثر الجادات أمر معروف فى علم الصوت (جزء من علم الطبيعة) وهو أنه اذا دق انسان دقة على وتر من آلة موسيقية وكانت فى الغرفة آلة أخرى مثلها فان الوتر الذى يقابل فيها الوتر الذى دق عليه بالآلة الأولى يهتز من تلقاء نفسه اهتزازا خفيفا ولكنه يظهر جليا بواسطة الآلة المكبرة للصوت

أما من جهة التغذية فمن المعلوم أن النباتات تتغذى مثلها فى ذلك مثل الحيوانات فمادتها الخضراء (الكلوروفيل) تستعين بضوء الشمس لتحليل حمض الكربونيك (ثانى أوكسيد الكربون) المنتشر فى الجو وتأخذ منه الكربون اللازم لغذائها وتمزجه بالماء فتكون أولا السكر والنشاء والسيليلوز (مادة القطن وورق الكتابة) ومادة الخشب وغيرها . ثم تكون أحماضا عضوية تركب منها المواد الدهنية . وتمتص من الأرض الماء وبعض المواد المعدنية المشتملة على الأزوت مثل الأزونات أو النترات وتمزج هذه بالمواد السكرية والنشوية والأحماض العضوية فتكون المواد الزلالية وهى أهم غذاء لها وللحيوانات . وبالجملة ان النباتات تتغذى كالحيوانات . وتتناول لغذائها نفس المواد التى تتغذى منها الحيوانات وهى المواد الزلالية والدهنية والسكرية فضلا عن الماء وبعض الأملاح

والتغذى ليس قاصرا فى الحقيقة على الاحياء من حيوان ونبات بل يحدث لكثير من الجادات فبقعة الصدا التى تبدو صغيرة على قطعة من المعدن ثم تكبر الى أن تنتشر على سطح المعدن كله انما هى تتغذى فى الواقع من بخار الماء والحامض الكربونيكى المنتشرين فى الجو ومن مادة المعدن القائمة هى عليه فتنمو وتتسع كما ينمو ويكبر الجسم الحى والبلورات الصغيرة المغطسة فى ماء مشبع من محلول موادها تتغذى من المادة الذائبة فى الماء فتنمو وتصبح بلورات كبيرة . والآلات الميكانيكية المتحركة تتغذى بالفحم أو البنزين أو الزيت . وليست مواد الوقود الاغذاء تلك الآلات الميكانيكية تحرق فيها فتولد القوة اللازمة لحركتها وقيامها بأعمالها

ويلحق بالغذاء التنفس . وغير خاف على كل من درس علم الفسيولوجيا النباتية أن النباتات تتنفس مثل الحيوانات ولها مسام صغيرة فى أوراقها وغصونها يدخل منها الهواء ومعه الأوكسجين الذى هو العنصر الأساسى فى التنفس أن الغرض من التنفس واحد فى الحيوانات والنباتات وهو احراق (أى تأكسد) المواد الغذائية داخل الخلايا لتوليد القوة اللازمة للحياة وقد عرف علماء الفسيولوجيا الحياة بأنها حريق أى تأكسد مستمر . وما الأجسام الحية الا آلات لتحول القوة الكيماوية الكامنة داخل مواد الغذاء بواسطة احراقها الى حرارة وحركة حركة انتقال . وحركة افراز . وحركة نمو . وحركة تولد وما الى ذلك من القوى الحيوية . مثلها مثل الآلات الميكانيكية التى تتغذى بالفحم أو بالبنزين أو بالبترول

وقد أثبت علماء الفسيولوجيا هذه الحقيقة بتجارب حاسمة حيث وضعوا حيوانات داخل كالورimتر دقيق (آلة لقياس كمية الحرارة . وهى خلاف الترمومتر الذى لا يقيس الا درجتها دون كميتها) وكانوا يقيسون حرارة مايتناوله الحيوان من الغذاء ومايتنتجه جسمه من الحرارة . بعد خصم الكمية التى لم تهضم ولم تمتص من الغذاء فوجدوا أن الكميتين متعادلتان وقد طبق اثنان من العلماء الامريكان هذه التجربة على الانسان وهما اتوتر وبنيدكت فصنعا كالوريمتر كبير حجمه كالغرفة المتوسطة واتخذا كل الوسائل الدقيقة والاحتياطات الشديدة ، وكانا يقيسان مقدار الهواء الداخل من جهة والخارج من جهة أخرى ودرجة حرارتهما ومايشتملان عليه من اوكسيجين وحامض الكربونيك . ويقيسان فى كالوريمتر صغير على حدة ماتنتجه من الحرارة كمية الطعام الذى يتناوله الشخص الذى تعمل عليه هذه التجارب وغير ذلك من الاجراءات . فكانت النتيجة تعادل كمية القوة التى تدخل جسم الانسان فى هيئة غذاء وكمية القوة التى تخرج منه فى شكل حركة وحرارة . ومعنى هذا أنه لا توجد فى الجسم الا القوى الطبيعية ولا تعمل فيه الا القوى الطبيعية

أما التلقيح والتولد والنمو والتطور وكافة مظاهر الحياة فلا حاجة للقول بأنها مشتركة بين الحيوانات والنباتات . و يطول بنا المقام لوأردنا أن نثبت أن هذه المظاهر كلها مع التفاوت فى الجماد أيضا

ينتج مما تقدم أنه لايوجد أى فارق جوهرى بين الحيوانات والنباتات . وقد حار العلماء فى إيجاد حد فاصل بينهما أو محك للتمييز بين بعض الاحياء السفلى الملتبس فى أمرها وهل هى حيوانات أم نباتات فلم يجدوا أمامهم سوى فاصل واحد يقرون بأنه سطحى ظاهرى وهو مادة السيليلوز المكوّنة منها أغشية الخلايا النباتية فان هذه المادة لاوجود لها فى الحيوانات

ولكن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات فى جميع أدوار حياتها لأن هناك بعض نباتات سفلى من صف النباتات الفطرية من الفصيلة المسماة ميكزومست تقضى حياتها كلها أو معظمها وخلاياها شائعة بلا أغشية تفصلها عن بعض . ولكن اذا ساءت الأحوال الجوية واشتد البرد وتهاطلت الأمطار أو الثلوج تفرز هذه النباتات حولها أغشية سيليلوزية لتحبس نفسها داخلها فتتقى هكذا خطر تقلبات الجو . أما فى الفصول المعتدلة فانها تعيش خالية من هذه المادة . فهى تشبه من وجوه كثيرة . وهى على هذه الحالة بعض الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة مثل الاميبا التى يسبب نوع منها مرض الدوسنطاريا

ومن جهة أخرى فى بعض الحيوانات مادة تقرب كثيرا كماويا من مادة السيليلوز وهى الحيوانات التونيسية أو القميصية المتوسطة بين الحيوانات الفقرية و بين اللافقرية مماتقدم لنا الاشارة اليه . كما أنه فى جميع الحيوانات مادة هى شقيقة السيليلوز من الوجهة الكماوية وأعنى بها السكر فكلتاهما مكوّنة من فحم وماء . ولذا أطلق على مجموع هذه الفصيلة الكماوية اسم هيدرات الكربون

وهناك فاصل فسيولوجى بين الحيوان والنبات قد يكون أوجه من الفاصل المتقدم وهو كيفية التغذية . قلنا فيما تقدم انه لابد لغذاء الحيوانات والنباتات من مواد زلالية ومواد دهنية ومواد سكرية . ولكن الفرق بين الحيوانات والنباتات هو أن الحيوانات تتناول هذه المواد مركبة جاهزة كما هى من أجسام النباتات أو الحيوانات الأخرى التى تأكلها بعكس النباتات فانها لاتجد أمامها . هذه المواد الضرورية لغذائها كما تجدها الحيوانات (مع استثناء النباتات المفترسة) فتضطر أن تركبها على الوجه المتقدم بيانه . قبل أن تتناولها . و بالجملة فان الحيوانات تتناول طعامها جاهزا أما النباتات فتكد وتشقى فى تركيبه قبل أن تتغذى به . على أن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات فيوجد صف نباتات هى النباتات الفطرية لم تجد عليها الطبيعة بالمادة الخضراء (الكلوروفيل) فلاتستطيع أن تركب غذاءها بنفسها لهذا هى تتصرف فى الحياة كالحيوان بمعنى أنها تتناول طعامها جاهزا من حيوانات أو نباتات أخرى ومن أجل هذا نجدها كلها طفيلية تعيش على غيرها من الحيوانات والنباتات الحية أو على أجسامها الميتة . وعلى هذا فتكون الفصيلة الفطرية الحلقة المتوسطة بين الحيوانات و بين النباتات . ولولا وجود السيليلوز فيها لجزم العلماء بأنها حيوانات فهى نبات من جهة السيليلوز وحيوان من جهة كيفية تغذيتها

وفى هذا برهان واضح على وحدة الحيوانات والنباتات وتسلسلها من أصل واحد وهو الجماد . وقد جاءت المباحث والتجارب الجليلة التى قام بها العالم الهندى الكبير السر بوز مؤيدة لهذه الحقيقة التى أصبحت الآن أساس العلوم الطبيعية . وقد كان لاختراعه للآلة التى تكبر حجم الخلية الحية عشرة آلاف مرة تأثير كبير ونتائج هائلة فى العلم . وعلماء أوروبا يتحدّثون فى جامعاتهم وفى مؤلفاتهم باكتشافاته ومباحثه الأخرى منذ أكثر من عشرين عاما ومع ذلك نرى قومنا هنا يحملون على هذا العالم الشرقى الجليل لأغراض يأباها العلم وشرف النفس

نصيف المنقبادى المحامى

خريج كلية العلوم بجامعة باريس (السوربون)

ويلحق بهذا ماجاء فى جريدة الاهرام أيضا يوم الجمعة ٤ يوليه سنة ١٩٣٠ وهذا نصه

رأى في علاج الأزمة المالية

كاد ينقضى على انشاء وزارة الزراعة عشرون عاما . ومع ذلك لم تقم بشئ من المهمة التى ألقيت على عاتقها بينما نرى اختصاصات وزارات الزراعة فى الدول الاخرى لاتقتصر على تبخير الأشجار وعمل الاحصاء السنوى لكمية المنتظر من محصول القطن . أو الارشاد الى ادخال تحسينات تافهة على الزراعات القائمة . أو مقاومة بعض الآفات مقاومة لاتجدى ولاتنفع . أو الحصول على بعض الأسمدة والبذور الخاصة بالنباتات التى تزرع عادة . لوأن مهمة وزارة الزراعة اقتصرت على ذلك لهان الأمر على الجمعيات الزراعية الأهلية . ولا كتفت الحكومات بمعاونتها دون انشاء وزارة خاصة بالزراعة . ولكن المهمة أجل وأسمى من ذلك . المهمة خاصة بانماء الثروة الأهلية بادخال زراعات جديدة تستثمر فيها رءوس الأموال المتجمدة من الزائد عن النفقات الزراعية والنفقات المعاشية للفلاح . المهمة خاصة بايجاد مشتل من صنع الاخصائيين ينمو ويكبر على توالى الايام داخل معامل التحليل والابتكار والتطعيم لتزويد البلاد برأس مال جديد فى كل عام لا أن يقتصر الأمر على ايفاد بعثات زراعية سنوية الى مختلف البلاد ليعود أعضاؤها ويشغلوا الوظائف الكتابية أو وظائف التفتيش الرئيسية فتخمد فيهم الحية وروح الابتكار ولا ان يكونوا فى مكاتبهم وفوق كراسيهم كالدبلومات وشهادات الامتياز جلها الاطار الرائع ولاقيمة لها الا فى أعين حاملها . مع ان الواجب كان يقضى أن تكون قيمتهم فى نظر الأمة وللامة حتى تستطيع أن تقرر بحق انها استثمرت ما أنفقته عليهم من أموال فى تخصصهم وتعمقهم . ويستطيع الآباء أن يعلنوا مباهاتهم بثمرة كدهم وتعبهم فى سبيل تربية أبنائهم . والا فماذا أدخلت وزارة الزراعة المصرية على زراعاتنا من جديد يعاون فى سبيل الاحتفاظ بثروة الأمة بعيدا عن تهديد الازمات والأخطار التى تصيب محصولا لانعول الا عليه ، لتقل لنا الوزارة ماذا صنع معمل زراعة المناطق الحارة حتى الآن وأى نتيجة لتجاريب أدت الى ادخال عامل زراعى جديد فى مصر مع أن زراعة المناطق الحارة قد درست فى مصر قبل الآن درسا عميقا أيام حكم ساكن الجنان اسماعيل باشا الخديوى الأسبق والمؤلفات والتقارير الزراعية عن نباتات المناطق الحارة فى عهده تكاد تزيد عن الضرورى . وما كنا فى حاجة الا الى مراجعتها لنعلم أى الزراعات تدخل فى مصر حتى تتعدد الحاصلات وتجتنب الاضرار الجسيمة التى يلحقها القطن بثروتنا العامة بين آونة وأخرى وتكررهنا على البكاء والعويل مادامت مصر فى عهد اسماعيل هى مصر الآن جوّا وتربة وماء مع مراعاة ان العمار قد ازداد والسكان قد تضاعفوا والايدى العاملة قد ربت وطرق المواصلات قد تعددت والمسالك الزراعية نظمت والترع كثرت . لقد تكلمنا فيما تقدم عن زراعة الكاوتش فى مصر ورجونا من المصريين أن لاينتظروا الا نتيجة جهدهم وكدهم فى ادخال هذه الزراعة الغنية بحاصلاتها فى مصر حتى ينقذوا أنفسهم بأيديهم من مخالب الافلاس الذى يتهددهم دائما أبدا بسبب تحكم مستهلكى القطن أو زيادة المحصول الأمريكى الخ واليوم نقول كلمة أخرى عن زراعة المناطق الحارة الصناعية ومايجوز ادخاله فى مصر بناء على أراء الأخصائيين ولما كنا قد بدأنا بزراعة الأشجار فى سبيل أحياء عصر الغابات فى مصر وجب علينا الاستمرار فى هذه السبيل مقتصرين فى بياننا على الجهات التى تستورد منها هذه النباتات ومنافعها

﴿شجرة البقرة﴾ ان هذه الشجرة من « كرا كاس» وساقها معتدل باسق . وطول أوراقها بين ٢٥ و ٣٠ سنتيمترا فى عرض عشرة سنتيمتر . وثمرتها كالبندقة الخضراء . وترجع شهرة هذه الشجرة الى طبيعة ألبانها التى تحاكى من كافة النواحى لبن البقرة ولذلك فان اهل « كرا كاس» يتغذون منه . ويمكن الحصول عليه بحز ساق الشجرة فى عدة نواح . ولقد أثبت المسيو «ريفيرو» والمسيو «بوسينجو» ان صفات هذا العصير

السكرى كصفات ابن البقرة مع فارق بسيط هو أنه لزج قليلا وله رائحة كرائحة البلسم أماخصائصه الكيمائية فانها تختلف عن خصائص ألبان البقر اذ الأحماض لاتؤثر فيه أما «الاسبرتو» فانه يؤثر فيه الى درجة معينة حيث يجمدقليلا اذا أضيف له قدرمنه واذا وضع فى «حمام مارى» استخرج منه عطر كذلك الذى يستعمل فى ايطاليا لتطييب القفازات . ولكنه مع ذلك يختلف مع سائر العصارات الالزجة لانه لايشمل أى كمية من الكاوتش وقد زرعت هذه الشجرة فى بروكسل . ومن باب أولى أن تزرع فى مصر لاستعمالها غذاء وواسطة لاستخراج عطرها . وتصديره وتصدير هذه الألبان فى زجاجات خاصة

﴿ذات اليد﴾ وهى شجرة يغطى قمم فروعهاوبر أشقراللون وتستعمل ثمراتها الحمرة فى اسود ادلعلاج الصرع ويمكن استيراد هذه الشجرة من البرازيل كما يمكن استيرادها من أوربا بأبخس الأثمان ومن السهل شتلها بواسطة الفسائل فى فصل الربيع ﴿حشيشة الورق﴾ وهى شجرة صغيرة من بلاد الصين ترتفع الى خمسة أوستة أمتار ويستخرج لباب ساقها ليصنع منه الورق الناعم فى الصين التى تصدر فى العام ورقاما قيمته ٦٤٩ و ٩٧٧ و ٣ (هاى لوان تايل) أى ريال ولكنه ثابت القيمة . ودائما يتراوح بين ٦٦ فى المائة من الدولار و بين دولار وثلث . واقد أدخلت هذه الشجرة الجليلة ضمن الزراعات المصرية فى سنة ١٨٦٨ ونجحت نجاحا عظيما ولكن لسوء الحظ لم تستخدم فى الغرض الذى جلبت من أجله وهو استخراج لبابها لصناعة الورق الناعم مع أن زراعتها فى مصر من السهولة بمكان اذ يكفى وضع عقل الفسائل فى بطن الأرض وتغطيتها بقليل من التراب فلا يمضى وقت قليل حتى تنبت

﴿شجرة الحرير﴾ وهى شجرة من نوع الأشجار العمالقة . وليس هذا التعبير لمجرد الخيال وانما هو الحقيقة فان المسيو (برتران بوكانديه) قد حكى أنه رأى فى كازامانس مراكب طولها ١٥ مترا فى عرض مترين ونصف تصنع الواحدة من ساق احدى هذه الأشجار وتسع كل مركب من هذا النوع ثلاثين ثورا وستة عشر بحارا للتجديف وثلاثة رجال للعذف على الموسيقى . وفضلا عن هذا فهى تحتوى على غرف ومطبخ وحمام الخ . أما نوعها فهو من المراكب السريعة ذات الشراعين والمجاديف . وهذا مايكون عندنا فكرة من محيط ساق هذه الشجرة . غير أنها لاتعيش أكثر من قرن . ولذلك فان الاهالى يزرعون شجرة منها عند ميلاد كل ولد من أولادهم فاذا مابلغ الطفل السن التى تبيح له الاستقلال بمعيشته وجد فى هذه الشجرة كل مايلزمه لبناء منزله دون أن يمس باستمرار نمائها

واذا مابلغت هذه الشجرة سن الانتاج أثمرت فاكهة يخرج منها وبر قطنى حريرى فى كمية جسيمة تترامى على الأرض الى مسافات بعيدة تراها وكأن السماء أمطرت لؤلؤا وثلجا . ويستخدم هذا الوبر فى صنع الوسادات والكنبات وغيرها ويمكن غزله لاستخدامه فى صناعات مختلفة . ولقد أدخلت هذه الشجرة فى مصر بواسطة الدكتور فيجارى بك ويوجد منها نوع فى قصر العينى ﴿أما حشيشة الملوك الشوكية﴾ فان ارتفاعها يصل الى عشرة أمتار وساقها ضخم وشائك . وتزرع هذه الأشجار بصنفيها بذرة أو عقلة

﴿شجرة الدهن﴾ وهى شجرة متوسطة الطول وتزرع فى الأراضى الرطبة من الصين . ولها لوز تحوى كل واحدة منها ثلاث حبات وأهميتها فما يغطيها من طبقة دهنية بيضاء سميكة صلبة الى حد ما ويضيف الصينيون واليابانيون الى هذه المادة قليلا من شمع النحل وزيت الكتان لصنع الشمع الأبيض الذى يضىء مدة طويلة . ولاستخراج هذا الدهن يجب سحق البذرة وابقاء مسحوقها فى ماء على درجة الغليان حتى تطفو المادة الدهنية على وجه الماء فيسهل استخلاصها ﴿ومن جهة أخرى﴾ هم يستخرجون من هذه الحبوب نوعا من الزيوت الصالحة للوقود ، وقد وجدت شجرة من هذه الأشجار بمدرسة الطب ، ولكننا لاندرى ماذا صنع بلوزها ، كذلك زرع فى حديقة الروضة شجرة من هذا الصنف ، ولاندرى لماذا لاتزرع

هذه الأشجار فى مصر مع أن زراعتها سهلة سواء من ناحية البذرة أوالعقلة

﴿ شجرة البهار ﴾ هى شجرة من مدغشكر طويلة جميلة المنظر، وتستخدم أوراقها وجلدها كبهار ودواء . وهذه الشجرة تمو فى الحدائق المصرية . وتوضع أوراقها فى الطعام خضراء . ولابد لزراعتها فى مصر من الحصول على بذرتها من مدينة مدغشكر أوّلا فأوّلا

﴿ شجرة الثعابين ﴾ وهى شجرة صغيرة فى البرازيل طولها يقرب من متر . وتستعمل جذورها دواء للشفاء من لسعات الثعابين . وهذه الشجرة تصلح فى مصر فقط لأنها لا تزرع إلا فى الطينة الصالحة للزراعة والمناطق التى جهزت بمعدّات الرى وتزرع عقلا

﴿ شجرة الاراروت ﴾ وهى شجرة ذات جذور سكرية لها ساق طوله يقرب من متر ونصف متر . وجذوع هذه الشجرة غذاء قوىّ للأطفال على مانعرفه جميعا . وهى تزرع على الخصوص فى جزيرة الانتى وأمريكا الجنوبية . وهى صالحة للزراعة فى التربة المصرية

﴿ الكمثرى الأمريكانى ﴾ أوكمثرى المحامى : وهى شجرة تدرّ اللبن الذى يتجمد فى صلابة القشدة ويستخدم فى التأثير على القماش باشارات لاتمحى ، أماالفاكهة ذاتها فانهاغذاء جيد ، وتدخل هى والأوراق فى كثير من الأدوية ، وهى تزرع بطريق البزور التى تجلب من البرازيل . ويمكن استخدام العقل (بضم العين وفتح القاف) فى زرعها بعد أن تنبت وتشتدّ فى مصر . انتهى ماأردته من الجريدة المذكورة

بهجة العلم

فى قوله تعالى أيضا ـ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شئ قدير ـ

يقول الله تعالى فى أوّل هذه السورة ـ كتاب فصلت آياته ـ ويقول فى سورة أخرى ـ يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ـ ، إذن الايقان بلقاء الله تعالى مرتب على تفصيل الآيات ، فالآيات المفصلات فى هذه العوالم هى التى تعطينا اليقين ، واليقين هوالذى لايعتريه شك ، فهل لك أن أريك اليقين فى هذه الآية بعينك حتى يتمكن من نفسك كنص الآية ، وتعلم الى أى مدى وصل هذا القرآن اليوم ، وهل تفصيل الآيات المورث لليقين إلا ماقام عليه البرهان أوثبت بالمشاهدة . فهاك ﴿ عجيبتين ، إحداهما ﴾ من علم الحيوان ، والأخرى من علم الأرواح

﴿ العجيبة الأولى التى هى من علم الحيوان ﴾

جاء فى كتاب (بول بيرت) العضو بالأكاديمية العلمى وأستاذ السربون ووزير المعارف العامة بفرنسا المترجم بقلم زوجته الاسكتلندية الى اللغة الانجليزية (وقد نقلت عنه فى هذا التفسير كثيرا) فقد جاء فيه فى صحيفة (٧٩) و(٨٠) تحت عنوان « أنفاسوريا » مانصه :

« إنى سأريك نبأ عظيما عن مخلوق مدهش غريب يختلف اختلافا كثيرا عن سابقه ، وأين يكون هذا الحيوان ؟ إنه يكون فيما تعافه النفوس وتحتقره العيون مما يكون على جسم الحيوان الذى فسدت جثته بالعفن والنبات الملقى المزدرى ، وهذه المخلوقات أكثرها يسمى فى علم النبات باسم (أنفاسوريا) وسترى صورته قريبا . ولكن هناك حيوانات ليست منه عجيبة الأشكال ومع ذلك ليست قليلة الفائدة . انظر الى هذه الزجاجة التى فيها الماء التى أحضرت فيها بعض الدريس (أى مثل البرسيم الجاف المعروف فى بلادنا) أمسك الزجاجة واجعلها بينك وبين ضوء الشمس حتى ترى بوضوح وتفصيل كل ماتحويه ، أنت ترى فيها

اشياء

أشياء صغيرة تتحرك فى الماء (انظر شكل ٤٣ الآتى قريبا) . إن المنظار الزجاجى يجعلك قدرا أن تتبين هذه المخلوقات بطريق أوضح ؛ ولكن (المكرسكوب) يجب الاستعانة به لتكون الرؤية أكمل ؛ إن هذه كأنها نقط غير متميزة صورها ، وفى الحقيقة هى حيوانات تعيش وهى آلاف مؤلفة ، هاأنت ذا ترى فى الزجاجة حيوانات صغيرات ذات صور مختلفات وأشكال متباينات بعضها قد صغر جدا ؛ وليس يظهرها لعيوننا إلا الآلات الزجاجية المكبرة بمقدار عظيم جدا ؛ وآلاف مؤلفة منها تعيش فى قطرة ماء . وهنا أخذ يسأل التلاميذ قائلا : من أين جاءت كل هذه الأشياء اللاتى أعشت أبصاركم ؟ ثم أجاب قائلا : إنها جاءت من العصف المأكول والتبن والدريس . ثم قال : كيف كان كل هذا ؟ وأجاب بقوله : هذه المخلوقات جافة كأنها بيض فهى تعيش هكذا وهى بهيئة طحلب لا يشعر به فوق سقوف المنازل وهى جافة أثناء الصيف ؛ فاذا نظرناها بالآلة المكبرة فانها تظهر لنا بهيئة حبوب صغيرة من رمل أخضر ، ولكن اذا أنزلنا عليها قطرة ماء وهى على هذه الحال فاننا نراها قد تحوّلت حالا وامتدّ جسمها وأخذت تبحث عن رزقها ومابه حياتها ، فاذا غاض ماؤها أو صار بخارا رجعت خامدة لا حركة لها ؛ جامدة لا حياة لها كما كانت من قبل متربصة هطول آخر من الماء ينزل عليها فتحيا به . هذه مخلوقات عجيبة ! ألست ترى ذلك ؟ وهذه تريك أن أعظم ما يسرّ النفوس وأبدع العجائب ليس خاصا بالحيوانات الكبيرة (انظر شكل ٤٣ و ٤٤)



(شكل ٤٤)

حيوان البكتريا وهو لا يرى بالعين المجردة



(شكل ٤٣)

(أنفاسوريا) لا ترى بالعين المجردة وقد عاشت فى قطرة من الماء الآسن

العجيبة الثانية التى هى من علم الأرواح

نذكر فى هذه العجيبة ما جاء فى إحدى المجلات العلمية وهى مجلة « كل شىء » بعدد ٢٣٤ فى يوم السبت (٣) مايو سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

توفيق دوس باشا يخاطب روح والده

زيارته لكلية علم الأرواح فى لندن

لما سافر الوفد الحكومى المصرى الرسمى إلى لندن برئاسة عدلى يكن باشا لمفاوضة الحكومة البريطانية فى حلّ المسألة المصرية . رافق الوفد يومئذ سعادة الاستاذ الكبير توفيق دوس باشا بصفة مستشار قضائى وسعادة شريف صبرى بك وحضرة الاستاذ عبد الملك حزة بصفة سكرتيرين . و بعد وصول أعضاء الوفد الى لندن بقليل أخبر الاستاذ عبد الملك حزه صديقيه توفيق دوس باشا وشريف صبرى بك انه من المهتمين بدرس علم الأرواح وأنه يود أن يدعوهما الى زيارة « كلية علم الأرواح » التى تديرها المسز ستيد ابنة المستر وليم ستيد الصحافى الانجليزى المشهور الذى غرق فى الباخرة « تيتانك » فى سنة ١٩١٢ فسألاه عن هذه الكلية وأغراضها فقال لهما انها معهد علمى يؤمّه الأشخاص الذين يأنسون فى أنفسهم قوّة الوساطة فيمتحن المعهد هذه القوة فيهم بين الأرواح التى فى الآخرة وسكان هذا العالم مما ان كثيرين من العلماء الذين

يشتغلون بعلم الأرواح يترددون على هذه الكلية لاجراء تجاربهم العلمية فيها فهي ليست والحالة هذه دارامن دور النصب التي يدخلها بسطاء العقول ليدفعوا جنيها أو جنيهين مقابل (مخاطبة الأرواح) وهنا ندع الكلام لتوفيق دوس باشا لكي يصف لنا زيارته لتلك الكلية ، قال :

ولما سمعت هذه المعلومات من الاستاذ عبد الملك حمزة تولدت فيّ رغبة في زيارة كلية علم الأرواح لأميط اللثام عن حقيقة ما كنت أعتقده تدجيلا ، فرافقني حضرته اليها وصحبنا شريف صبري بك ولما بلغناها قدمنا للمسز ستيد فطلبت منها أن تحيلنا الى وسيط من القادرين على مخاطبة الأرواح فعرّفتنا بشخص اسمه المستر بيتر ولما اختلينا به طلب إليّ أن اضمر الشخص الذي أريد أن يستحضر لي روحه بدون أن أسر اليه باسمه فاضمرت والدي فجلس الرجل على كرسي أمامنا وما هي الاثوان قليلة حتى أخذت عضلات وجهه وشرايين حلقه تنتفخ انتفاخا أزعجني منظره ثم لم يلبث أن نام نوما عميقا وأخذ يتكلم باللغة الانجليزية وهي اللغة التي كان والدي يجهلها تماما فقال لي : «أنا والدك» فقلت له «وما دليلك على ذلك ؟» فقال «أنا أطول منك قليلا» فقلت : (هذا لايكفي) فقال (وأنحف قليلا) فقلت «وهذا لايكفي أيضا» فقال (ولي لحية خفيفة لعب الشيب بجزء منها) فقلت له (وكيف انتقلت إلى العالم الثاني ؟) فقال . (بعملية عملت لي هنا) (وأشار الى مكان الأمعاء والمثانة والكبد) فقلت له . (هذا لايكفي) فقال . (عمل لي العملية طبيبان وفي أثناء انهما كهما بعملهما دخل عليهما طبيب ثالث وعاونهما . ولما انتهوا من مهمتهم قالوا لكم ان العملية نجحت ولكنني توفيت في اليوم التالي) فقلت . (وهل تعلم لماذا نحن في لندن ؟) فقال (لأجل مسألة كبيرة) وفتح ذراعيه على وسعهما فقلت . وهل ننجح فيها ؟) فقال (كلا وبجانبي سيدة تزاحمني لكي تخاطبكم بدلا مني .) وهنا أخذ الوسيط يتكلم بلسان هذه السيدة فوصفت نفسها وصفا ينطبق تماما على عمة زوجتي فقلت . (وهل لك أولاد ؟) فقالت لي . (ابن وابنة) فقلت . (وهل هما بعيدان عنك ؟) فقالت (بيني و بينهما بحر كبير) فقلت . (وهل هما في مصر ؟) فقالت . (كلا)

قال لنا توفيق باشا . (واذا استثنينا هذا الجواب الأخير (أي هل هما في مصر فأجابت كلا) فان جميع الأجوبة السابقة والبيانات التي تضمنتها تطابق الواقع . وقد عزوت ذلك في بادىء الأمر الى مايسمونه علم قراءة الأفكار وقلت في نفسي ان هذا الوسيط له قوّة قراءة أفكاري فيسترشد بها على الاجابة على أسئلتي ولكن هذا الاعتقاد زال عني لما قال لي الوسيط . (ان هناك سيدة تزاحم والدي لتتكلم معي) فانني لم أكن أفكر قط في عمة زوجتي ساعتئذ لكي يقال ان الوسيط قرأ أفكاري في صددها أيضا ولذلك لاأعرف كيف أعلل هذا الحادث على الاطلاق

ومضى توفيق باشا في حديثه معنا فقال . (وقيل لي بعد ذلك ان في الكلية وسطاء لهم قوة استحضار وجوه الأرواح بحيث يستطاع تصويرها بالفوتوغرافيا فذهبت الى الكلية في يوم آخر مع شريف صبري بك وعبد الملك حمزة بك وأخذت معي زجاج التصوير (البلاك) منعا لكل تلاعب ولما قابلنا المسز ستيد قلت لها . انني أريد تصوير وجه والدي) فقادتني الى أحد الوسطاء القادرين على استحضار وجوه الأرواح فدعانا الى قاعة طليت جدرانها باللون الأبيض وأجلسنا على ثلاثة كراسي متلاصقة وأخذ يرتل بعض الصلوات والأناشيد الدينية ثم فتح آلة التصوير وصور بها ولما انتهى من عمله أخذت زجاج الصورة وكان شريف بك قد وقع عليها بامضائه لئلا تستبدل بلوحة غيرها وعنيت بتحميضها في محل للتصوير باشرافي فاذا بالصورة التي ظهرت فيها تختلف عن ملامح والدي تماما فقصدت في الغد الى المسز ستيد وقلت لها : (انكم تسخرون منا فان الرسم الذي ظهر في الصورة ليس رسم والدي) مطلقا فقالت «قد يحدث ذلك أحيانا ويكون سببه أن شخصا أقوى من والدك على تصوير نفسه بواسطة الوسيط يزاحمه على الصورة فينجم عن ذلك أن يظهر رسمه بدلا من رسم والدك

فقلت لها : انى سأعطيك الآن فرصة أخرى لاقامة الدليل على صحة كلامك فهيا بنا الى الوسيط ولما اجتمعنا به قالت لهم (اغلقوا الباب) فأغلقوه فناولتهم زجاج التصوير فوضعوه فى الآلة أمامى ، فقلت للمسز ستيد عندئذ : (انى سأطلب من الوسيط رسم وجه والدك المسترستيد وأظن انه أقدر الأرواح على تصوير نفسه ولا يستطيع أحد أن يزاحمه على ذلك وقد أمضى حياته فى درس علم الأرواح) فأخذ الوسيط يرتل وينشد الاناشيد الدينية وبعد قليل التقط الصورة ولما أحضرها ظهر فيها رسم المسترستيد فحجزت فى تعليل هذا الحادث

فقلنا لتوفيق باشا : (هل لاحظتم فى أثناء التقاط الصورة أن هناك شبحا غريبا ظهر فى القاعة ؟) فقال : (لامطلقا) فقلنا . (إذن كيف يظهر على زجاج التصوير رسم لاوجود لصاحبه فى القاعة) فقال (سألتهم عن ذلك فكان جوابهم أن عدسة آلة التصوير أقوى من العين جدا وانها لذلك تستطيع رؤية شبح الروح الذى لاتراه العين العادية) فقلنا . (وهل أنتم واثقون من أنه لم يقع تلاعب فى زجاج التصوير ؟) فقال (أنا واثق من ذلك ولافائدة ، من أن تتعبوا أنفسكم بالأسئلة فقد اتخذت يومئذ جميع التدابير التى خطرت لى لمنع أى غش كان) فقلنا له (وكيف تعللون ذلك ؟) فقال (انى لاأومن بعلم الأرواح ولكنى لاأجد تعليلا لما رويته لكم) فقلنا . (ألم تسألوا المسز ستيد عن التعليل ؟) فقال . (سألتها فكان جوابها لوجاءك رجل من عشر سنوات فقط وقال لك انهم سيخترعون تليفونا لاسلكيا أفلا كنت تقول عنه انه مصاب بمس فى عقله فلماذا لايعقل أن تقتنع بعد سنوات بصحة علم الأرواح وحقيقته) وهنا دفع الينا توفيق دوس باشا بالصور التى صورت يومئذ بحضوره فى كلية الأرواح فنشرنا اثنين منها مع هذا الحديث ، وهاك صورتهما . (انظر شكل ٤٥ و ٤٦)



(شكل ٤٥)
رأس المسترستيد كما ظهر فى الصورة التى صورت لروحه بحضور توفيق باشا دوس



(شكل ٤٦)
توفيق دوس باشا والى يساره شريف صبرى بك والى يمينه عبد الملك حمزه بك وفوقهم الرأس الذى ظهر فى الصورة عند استحضار روح والد توفيق باشا . وترى فى أعلى إمضاء شريف بك على زجاج الصورة

ولما كتبت هاتين العجيبتين حضر صديقى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير . فقال : وما يفيدنا فى هذه الآية من هاتين العجيبتين ؟ أنت أوضحت لنا فى العجيبة الأولى كيف تكون الحيوانات الدقيقة معدودة بالآلاف فى قطرة ماء ، وانها تموت اذا فارقها الماء وتحيا اذا وصل اليها ، فالموت والحياة يتناوبانها ، وقصصت علينا فى الثانية نبأ رجل مصرى فى البلاد الانجليزية خاطب والده الميت واحدى قريباته واحترس أشد الاحتراس فى المحاورات وفى أخذ الصور وتصويرها . فأى علاقة لهذين بالآية ؟ الله تعالى يقول — ومن

آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى أحياها لمحي الموتى انه على كل شيء قدير ـ . فقلت : إن هاتين العجيبتين مناسبتان للآية أشد المناسبة . اقد تجلى فى العجيبة الأولى أن الحياة شاخصة أمامنا فى كل مايحيط بنا . فهذه الأوراق والحطب والوقود وكل مايحيط بنا تعلق به مواد لانهاية لها . وهذه المواد الدقيقة تحيا اذا جاءها الماء وتفارق الحياة اذا تخلى عنها . إذن الموت والحياة فى المواد المحيطة بنا كالنوم واليقظة ، فموتها وحياتها أشبه شيء بنوم النحل والزنابير مدة الشتاء واستيقاظها فى زمن الربيع ، وهكذا نوم أمثال الحيات والثعابين شتاء واستيقاظها فى زمن الربيع وبعض السمك فى الطين اذا جف وفى الثلج اذا تراكم عليها ثم تقوم هذه اذا نزل الماء على الطين وذاب الثلج . ولقد تقدم فى آخر سورة الأعراف أن بعض حبوب القمح تحتوى على أكثر من عشرة آلاف حيوان ، فجفف هذه الحيوانات بعض العلماء وبعد التجفيف نداها بالماء فرجعت لها الحياة ، بل تمادى العلامة (بيكر) فندى القمح بالماء بعد ماجففه (٢٨) سنة فرجعت الحياة ، وقد جزم العلماء بأن تلك حياة جديدة . إذن الحياة والموت أمران عاديان حولنا ، وهذه الحيوانات التى لانراها تموت ثم تبعث ثانيا والحياة والموت عندها أمران عاديان ﴿وبعبارة أخرى﴾ ان الموت ليست له تلك القيمة والمخاوف التى جسمها الانسان

هذا مانقرؤه فى تلك الحيوانات المحيطة بنا الصغيرة ، وهذه الحال بعينها هى حالنا ، فاذا رأينا الحيوانات الضعيفة تحيا وتموت ولاحاجز بين الموت وبين الحياة إلا شفاف رقيق ، هكذا رأينا الأمر بالنسبة لأنفسنا نحن ، يعيش الانسان أمدا ما ويكون له أصدقاء وذرية فيموت أويموت أهله أوذريته أوأصدقاؤه فيخلع اليأس قلبه قائلا « إلى مفارقهم الى الأبد » فنسمع أولا أرباب الديانات وكبار الفلاسفة يقولون . كلا . لاموت وانما هوثوب نزعتموه والبستموثوبا آخر ، فيشك أكثر الناس ويقولون . كلا . لم نرشيئا من ذلك فاقتضت الحكمة أن تحضر الأرواح فتظهر فيشك قوم أيضا ، فيبحثون حتى يصل بعضهم الى الحقيقة فيطمئن لها ويبقى آخرون حتى يعرفوا أن نتيجة القارورة والماء الذى فيها فى العجيبة الأولى وحضور الأرواح فى العجيبة الثانية واحدة ، ومعنى ذلك أن الانسان لايموت لأن روحه المتصرفة فى جسمه هى التى تبقى بعد الموت فى جسم شفاف كجسمه الحالى لأن هذه الأجسام التى نعيش بها أنوار متراكمة قد أظلمت بهذا التراكم ، فاذا تركنا هذه الظلمات رجعنا الى أنوار أخف منها ولكن على هيئة هذا الجسم فصرنا فى حالة إطلاق لاغير ، غاية الأمر أن هذا الجسم الذى هومدرستنا يكسبنا العمل به نتائج نراها فى حياتنا فى الجسم الآخر اللطيف وليست هذه الظاهرة التى قدمناها فى العجيبة الثانية فريدة فى بابها ، فلها نظائر تعد بالآلاف المؤلفة ، وكم فى عالم الأرواح من عجائب ، وأن هذه الروح التى حلت محل روح ذلك المصرى وظهرت صورتها فى الصورة روح من الأرواح المتأخرة لأن هذا فعل صبيانى لا أثر للعقل فيه ، فقد ظهر عند العلماء اليوم أن الأرواح السخيفة فى هذه الحياة هى أنفسها سخيفة بعد الموت ولها أربع درجات مشروحات فى كتابى «الأرواح» ولعلك ترى هذا المقام مشروحا فى آخر ﴿سورة الاسراء﴾ . فالروح السخيفة الطفلة فى الدنيا هى نفسها السخيفة السمجة بعد الموت . وقد ثبت بظهور نفس صورة (استيد) المتوفى ثبوتا لايشك فيه من صدق المخبر به أن الأرواح تكون بهيئتها بعد الموت ويعرفها الناس فى الدنيا . أى ان الأرواح بعد الموت بتلك الهيئة الدنيوية لا أقل ولا أكثر . وبالاختصار ان العلم الآن قد قرب لنا مسافة الحياة بعد الموت لنفهم سر قوله تعالى ـ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير ـ . وذلك ليريح قلوبنا من مخاوف العدم المحض . فالحياة إذن مستمرة والسعادة بالأعمال الصالحة . كتب صباح يوم الخميس (٨) مايو سنة ١٩٣٠ وبهذا تم الفصل الأول من اللطيفة الخامسة

إيضاح

إيضاح لما تقدم

ثم حضر عندى صديقى العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير . فقال : لقد شاقنى حديثك فى المخلوقات الخافية الدقيقة ، وأبهجنى ما شاهدته منها الآن فى الرسم والشرح ، فهل تشرح صدرى بالافاضة فى هذا الموضوع فانه جميل . فقلت : إن أكثر النبات هو مالانراه ، ومانراه قليل بالنسبة لما لانراه . فقال : فهل ترينى بعض مالانراه بالعين المجرّدة ؟ فقلت : انظر شكل ٤٧ وشكل ٤٨ وهذه صورتهما

بكتريا كروية

بكتريا حلزونية

بكتريا عصوية

(شكل ٤٧) (شكل ٤٨)

فقال ماهذا ؟ فقلت هذا هو أصغر نبات وهو مركب من خلية واحدة . فقال مامعنى خلية ؟ قلت الخلية لها :

(١) غشاء رقيق يحيط بها

(٢) وفى داخلها مادّة تسمى (البروتوبلازم)

(٣) وفى هذه الثانية نواة هى أصل الحياة

فقال : هى إذن أشبه بالبيضة لها قشر ولها بياض ولها مح وهى المادة الصفراء ومن هذه يكون الفرخ . قلت : والله لقد أصبت الحز ونطقت بالصواب ، ما الخلية التى أمامك إلا بيضة ، حسن جدا . فقال : إذن هذه البيضات التى يسمونها خلايا التى هى أمامى الآن ومنها الكروية والحلزونية والعصوية هى أصغر الأحياء فى العلم . قلت : كلا فان هناك ماهو أصغر منها ولم يدركه الناس . فقال عجبا ! فقلت لاتعجب فان المناظير المقرّبة لما رصدت الكواكب العظيمة ، ورأت أن المسافات فى البعد قد وصلت الى مئات الملايين من السنين فى بعد الكواكب عنا أخذوا يخترعون مناظير مقرّبة بحيث يكون قطر عدسة المنظار (٢٠٠) بوصة ، وسيتم قريبا ، ومتى تمّ يجدون من الكواكب مالاعلم به الآن . فهاهم أولاء لم يصلوا لأقصى ماهو عظيم و بعيد كما لم يصلوا الى أصغر ماهو قريب ، وكلما عرفوا مخلوقا منها بحثوا عما وراءه ، وهذه الخلايا النباتية التى أمامك تصل فى الصغر الى واحد من الألف من المليمتر . وقد قلت لك ان هناك ماهو أدق من ذلك والمناظير المعظمة لم تستطع رؤيته . فقال : أنت قلت انها نبات . فقلت نعم . فقال النبات يتنفس و ينمو و يتغذى و يتوالد . فقلت : هذه تتغذى بالسوائل والغازات وتعيش فى كل مكان ، تعيش فى الهواء وفى الماء وفى التراب ، فهى مقيسة على العوالم التى حولنا والتى فى الهواء تتنفس منه والتى فى غيره تستخرج منه ماتحتاجه ، ومنها مايتغذى بأجسام حية تسمى طفيلية ، ومنها ماتعيش على الأجسام العضوية غير الحية فتسمى (الرميه)

وأما التى تعيش على ماليس مادّة عضوية فانها قليلة ، وأما توالد هذه الأنواع فانما يكون بالانقسام متى وجدت أفراده مايلائمها . فقال : يظهر لى أن النبات المعلوم لنا كالقمح والقطن أسرع نموّا من هذا . فقلت كلا . فقد قال العلامة فيشر : « اذا تكاثرت بيضة واحدة أى خلية واحدة فى مكان ملائم فانها تنتج فى مدة (٢٤) ساعة (١٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) ويبلغ زنة هذا نصف مليون رطل» فقال : ياعجبا هذه الخلية التى أمامى التى لاتزيد عن واحد من الألف من المليمتر تتكاثر فى ٢٤ ساعة فتصير نصف مليون رطل أعنى خمسة آلاف قنطار . فقلت نعم . فقال : إذن اذا كانت فى الماء والهواء والتراب فمعنى هذا أن هذا الموت يحيط بنا من كل مكان . فقلت نعم والحياة ، ففى هذه المخلوقات منافع ومضار . فقال هل هذه تتحمل الحرّ والبرد كالنباتات المعروفة . فقلت انها أقوى منها . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت انها اذا كانت فى

حالة حياتها تتحمل البرودة تحت الصفر الى الدرجة التى يصير فيها الهواء سائلا وهى درجة (١٩٠) تحت الصفر، ومعنى هذا أننا كما نرى البخار اذا قلت حرارته صار ماء ودرجة حرارته فوق الصفر ، هكذا اذا نزل الهواء تحت الصفر الى درجات تبلغ (١٩٠) فانه يصير سائلا ، فهذه الخلايا التى تعيش بيننا لاتموت فى هذه الدرجة ولكنها لاتتحمل الحرارة أكثر من (٥٥) درجة فوق الصفر ، فهى إذن ذات قدرة عظيمة تفوق قوة النبات والحيوان المعروفين . فقال : أنت قلت انها لاتموت فى هذه الدرجة ، فهل معنى هذا انها تكون كالنباتات المعروفة ذات حياة . فقلت نعم . فقال : ومتى تخمد تلك الحياة . فقلت تخمد وتصير أشبه ببيضة الدجاجة اذا صادفت وسطا لايلائمها . فقال : فماذا يحصل ؟ قلت يحيط بها غلاف سميك يحفظها كقشر البيضة وهناك تعيش سنين كما تقدم فى المقال الأول موضحا وتبقى الحياة كامنة ، ومتى صادفت وسطا مناسبا رجعت لها الحياة ورمت القشرة الحافظة وعاشت حالا كما تقدم . فقال ماصورتها ؟ فقلت هاهى ذه (انظر شكل ٤٩)

فقال : ههنا أريد أن تبين كيف تكون هذه نافعة ؟ فقلت لولاها لم نعش على الأرض . فقال أوضح . فقلت إن هذه يسمونها (البكتريا) وهذه منها نوع يسمى (بكتريا التعفن) وذلك انها هى التى تحلل المواد المركبة المنبثة فى الأرض وترجعها الى عناصرها الأولى ، وبهذا يمكن النبات أن يمتص من الأرض غذاءه . فهذه الجنود المجندة هى التى تعين على نمو النبات . فهى أشبه بالطحانين والعجانين والخبازين لنوع الانسان عليهم تتوقف حياة كثير من الناس . فقال : والله إن هذا لعجب ! فقلت إن النبات كالقطن والقمح لايستطيع أن يتعاطى عنصر (الاوزوت)

(شكل ٤٩)

مثلا وهو من أهم العناصر المكونة للنبات إلا بحالة خاصة وهذه الحال الخاصة لاتحصل إلا بعمل هذه الخلايا فى المواد العضوية المعقدة التركيب . إذن هذه نعمة من الله على الناس — إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون — وكيف يشكرون وهم يجهلون . وبهذا ظهر السر فى أن هذه النباتات فى حال خمودها كما فى (شكل ٤٩) تقدر أن تتحمل الحرارة الشديدة وتأثير المواد السامة أكثر من التى هى غير خامدة بل حية ، ويسمون الحية خضرية . والتى خمدت يسمونها بالجراثيم .

تكوين الجراثيم فى البكتيريا

فقال إذن هذه النباتات التى لاترى تقوم بتحليل العناصر والنبات المعروفة عندنا تقوم بتركيبها . قلت : لقد أحسنت ، فلولا صحة التحليل وصدقه ما أمكن التركيب . فقال : وهل لها فعل غير هذا ؟ قلت كثير :

(١) بعض أنواعها يكون سببا فى الخل ، ذلك كما قلنا انه محيط بنا : فهو ينزل فى نحو النبيذ والجعة فينمو ويتكاثر فيكون الخل

(٢) ولا يمكن دبغ الجلود إلا بعد قيام نوع آخر منها بعملية خاصة فيها ، وهذه الزبدة التى نأكلها لايحسن طعمها ولارائحتها إلا بعد أن يختمر اللبن بنوع من هذه المخلوقات الخفية . وهكذا اللبن لن يكون (لبنا زباديا) إلا بواسطة هذه المخلوقات . فهى التى تتكاثر فيه حتى يختمر . إذن هى تحضر لنا غذاءنا كما تحضر للنبات غذاءه

فقال : إذن فاذكر لى ضررها ؟ فقلت هى تدخل أمراضا كثيرة فى الانسان بطرق مختلفة ويجب على الانسان أن يتقيها وأول من أوضحها الاستاذ (باستور) فمنها :

(١) مرض التسمم

(٢) والطاعون

(٣) والتيفود

(٤) والتيفوس

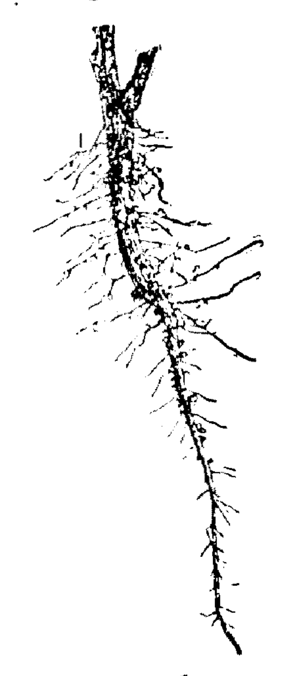
(٥) والالتهاب الرئوى وهو السل

ويدخل للانسان بالأوّل من طريق الجرح فى الجلد ، وبالثانى من طريق البراغيث ، وبالثالث من طريق القمل ، وبالرابع من طريق الغذاء جاريا فى القناة الهضمية ، فيكون هنالك الاسهال الشديد والسل الرئوى والتيفود كما قدّمنا . كل هذا سببه هذه الحيوانات . وبالخامس من طريق الرئتين

وللوقاية من هذه تجب النظافة واستعمال المطهرات والمعقمات فى الأوّل ، والنظافة وابادة الحشرات فى الثانى والثالث . وابادة الذباب واستعمال الماء النقى وتعقيم اللبن وحفظ الأغذية فى أماكن نظيفة وهكذا فى الرابع ، وتجنب الأماكن التى فيها التراب ، ومعالجة الزكام والبرد بسرعة ، وتجنب البصق ، والابتعاد عن المرضى ، وتناول الطعام الجيد ، والمحافظة على الصحة بوجه عام فى الخامس

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : لقد أحسنت وشرحت صدرى ، ولكن هل هذا نعمة ؟ قلت أجل نعمة فهذا يعطى الناس دروس الجدّ والاجتهاد فى الحياة . فاذا كان بعض هذه الجراثيم الخضر والحيوانات الدنيئة تقوم بتحليل المواد العنصرية ليعيش زرعنا ويدرّ ضرعنا فهاهى ذه بعضها تقوم بتقويم العقول وتنمية الملكات وتهذيب الأخلاق ، فهى التى تدعونا لتنظيف أمكنتنا وثيابنا وطعامنا وشرابنا ونكون رجالا نشطين لاخامدين . إذن هذه جيوش مرسلة من الله لاطعامنا ولاحداث النشاط فينا بسبب مقاومتنا لها ، ومامثل هذه النباتات الذرّية التى تحلل العناصر لتغذية النبات فنعيش بها ، والتى تحدث الأمراض من طريق الجلد والقناة الهضمية والرئة إلا كمثل النحل ودودة الحرير وهكذا الحيات والعقارب فكما ان الحيات والعقارب والحشرات الأخرى تحثنا على تنظيف أفنيتنا ومنازلنا وثيابنا ، والنحل ودود القز تفيدنا غذاء وملبسا هكذا هذه النباتات فيها القسمان الضار والنافع ، فبالضارّ يكون الاحتراس والابتكار والاختراع وتقدم الطب وانشاء الكليات ومدارس الطب وارتقاء علوم كثيرة ، وبالنافع يكون نموّ النبات ومنافع أخرى كصلاحية الزبدة والخل للتعاطى

فقال : لقد استوفيت هذا المقام ، فأرجو أن تبين لى هل هذه الجراثيم والخلايا النباتية التى شرحتها الآن ذات ألوان كالنباتات المعروفة ؟ فقلت هى ثلاثة أقسام ، أقسمان منها لالون لهما ، والثالث له لون وهو الطحلب واللذان لا لون لهما أحدهما يسمى الفطر والثانى يسمى البكتريا ، فمثال البكتريا ماترى فى (شكل ٥٠) الذى أمامك الآن



(شكل ٥٠)
رسم العقد التى تشاهد على جذور النباتات البقلية

هاأنت ذا شاهدت العقد المحيطة بهذه البكتريا العقدية ، أتدرى من أين أتت هذه العقد ؟ أتت من تلك الجراثيم ، فانها تعيش وتتكاثر فوق النبات وتتغذى بطعامين اثنين : طعام هو الكربون الذى فى الشجرة ، وطعام هو الاوزوت الذى هو أحد أجزاء الهواء فلايزال يتكاثر حتى يموت بانتهاء آجاله ومن الذى يرث هذا الميت ؟ يرثه نفس هذا النبات الذى قبله فى ضيافته وحلّ بساحته ، فماذا يجد ؟ يجد النبات عند حصر التركة ، يجد أن الكربون الذى تمثل فى جسم تلك النباتات الصغيرة موفرا بحاله ومعه أمر آخر وهو الاوزوت الذى حصله ذلك الضيف من الهواء وهو كان قبل ذلك محتاجا اليه ليقوى به .

إذن هذه النباتات نافعات للنبات من جهة ومن جهة أخرى تكسب الأرض خصوبة باضافة أوزوت جديد الى تربتها

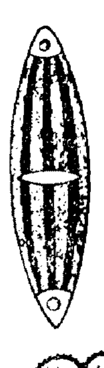
فلما سمع صاحبى ذلك . قال : أودّ أن توضح لى مسألة الطحلب . فقلت سأريك الآن العجب العجاب فى مسألة الطحلب . وذلك ماستراه من الأشكال البديعة فى الصفحات التالية . فهاك ماجاء فى كتاب «علم النبات» وهذا نصه

الطحالب

الطحالب نباتات ثالوسية مركبة من خليـة واحدة أومن خلايا عدّة ، وهى بسيطة التركيب لاتميز فيها جذورأوسوق أوأوراق ، وتحتوى خلاياها على مادّة الـكلوروفيل ، وتعيش فى الماء الملح أو العذب ، والقليل منها يعيش فى التربة أوعلى جذوع الأشجار

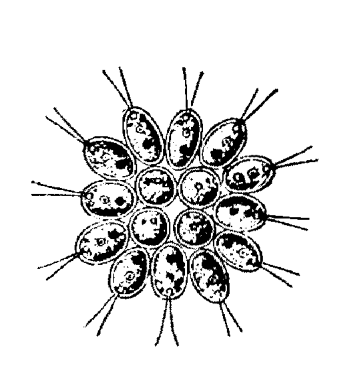
والطحالب أهمّ غذاء للأسماك ، و يستخرج من بعضـها اليود والبوتاسا ، ولدراستها أهمية عظيمة من الوجهة العلمية إذ أنها فى بساطة تركيبها وطرق معيشتها تساعد على تعرّف طرق معيشة النباتات المائية . ومن المتفق عليه أن الـكائنات الحية نشأت فى المـاء . والطحالب على أنواع تختلف فى ألوانها وأحجامها :

﴿ الطحالب الخضراء ﴾ تعيش طافية على سطح الماء أومثبتة على الصخور الواقعة على الشواطئ معرّضة للضوء . وهى فى الغالب صغيرة الحجم . وحيدة الخلية . أوكثيرة الخلايا . مكوّنة خيوطامتفرّعة أوغيرمتفرّعة أومستعمرات (انظرشكل ٥١ و٥٢ و٥٣)

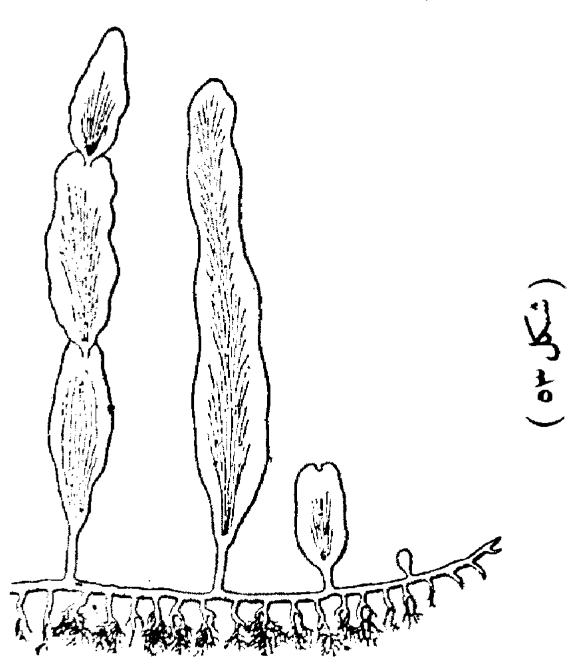




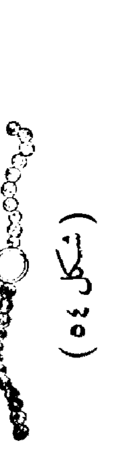
(شكل ٥١)
طحالب خضراء وحيدة الخلية



(شكل ٥٢)
مستعمرة من الطحالب الخضراء

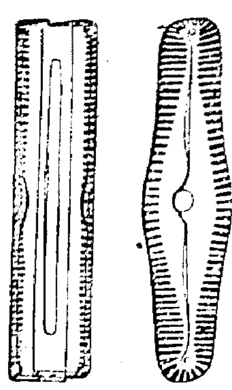


(شكل ٥٣)
طحلب أخضر وحيدالخلية أعضاؤه تشابه أعضاء النباتات الراقية



(شكل ٥٤)
طحالب زرقاء مخضرة

﴿ الطحالب البنية ﴾ تعيش على عمق يسير من سطح الماء . أوطافية عليه . ومن هذه أنواع مركبة من خلية واحدة يحيط بها هيكل سيليسى (انظر شكل ٥٥) وعند موتها ترسب هيا كلها وتتكون منها طبقات سيليسية

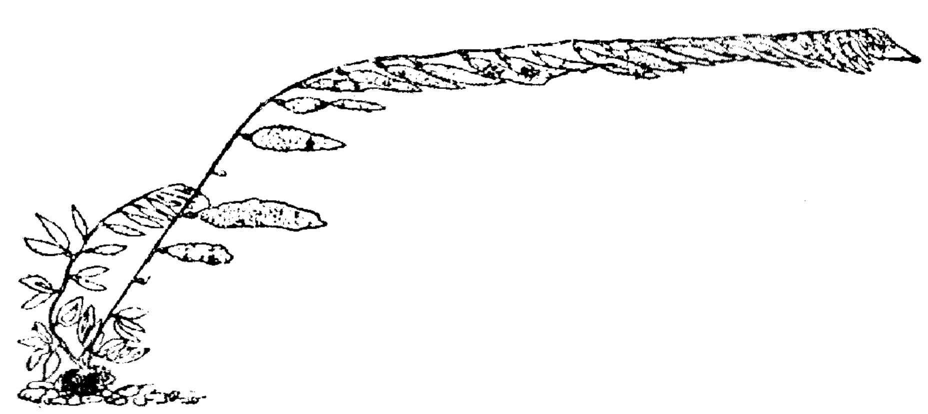


شكل ٥٥ ــ طحالب بنية وحيدة الخلية (دياتومات)

وفى الغالب تكون الطحالب البنية مثبتة على الصخور الموجودة على مستوى ماء الجزر فتتعرّض للضوء مدة الجزر وتختفى قليلا مدة المدّ . وهى تختلف فى أحجامها من طحالب صغيرة الى طحالب كبيرة الحجم

﴿ الطحالب الحمراء ﴾ تعيش على أعماق كبيرة من سطح البحر . وأغلبها صغير الحجم خيطى التركيب . وكل الطحالب على ألوانها المختلفة تحتوى على مادة الكلوروفيل ولكنه يوجد فى الطحالب البنية والحمراء فضلا عن الكلوروفيل مواد ملوّنة تخفى لونه الأخضر

ومن الطحالب مايماثل النباتات الراقية فى وجود مثبتات لها تشبه الجذور يعلوها جزء اسطوانى يشبه الساق ويخرج منه مايشبه الأوراق . وقد يبلغ الواحد منها أحيانا حجم شجرة كبيرة . وتتكاثف بعض تلك الطحالب الكبيرة كالسرجاسوم (انظر شكل ٥٦) فى مناطق معينة . منها منطقة فى المحيط الأطلسى تعرف ببحر سرجاسو . ولشدّة تكاثفها وكبر حجمها تعدّ خطرا على الملاحة فى هذه المنطقة . و بعض الطحالب الحمراء يفرز هيكلا خارجيا من كربونات الكلسيوم يحيط به و يساعد على تكوين الشعب المرجانية (انظر شكل ٥٦)



(شكل ٥٦ ــ السرجاسوم : أحد الطحالب البنية الكبيرة الحجم)

الفُطْــــر

الفطر تشبه الطحالب فى بساطة تركيبها . غير أنها كالبكتريا خالية من الكلوروفيل . ولانعدام الكلوروفيل فيها تأثير كبير على طرق معيشتها . فهى غير قادرة على تمثيل الأغذية غير العضوية . ولذلك تحتاج الى مواد عضوية مجهزة . وتنقسم الفطر بالنسبة لمصدر غذائها الى قسمين :

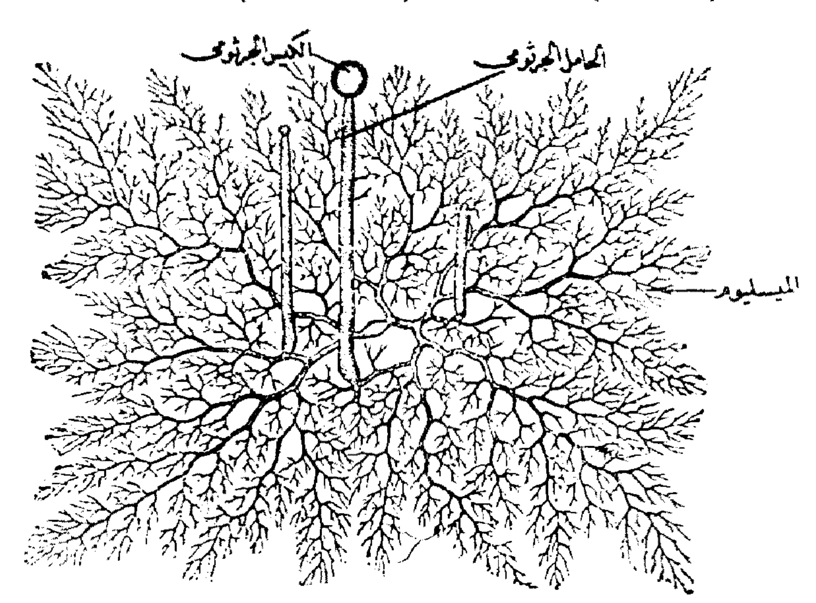
(١) فطر رمية وهى التى تتناول غذاءها الجهزمن المواد العضوية الميتة . ولهذه الفطر أهميـة كبيرة فى الطبيعة إذ أنها تساعد البكتيريا على تحليل المواد العضوية الميتة وتحويلها الى مركبات بسيطة . و بعضـها يسبب فساد كثير من المواد الغذائية . فتعفن الخبز والمربات كثيرا مايتسبب عن إصابة هذه الموادّ بأنواع مختلفة من الفطر

(٢) فطرطفيلية . وهى التى تتناول غذاءها من (بروتوبلازم) الكائنات الحية مباشرة . ومنهامايصيب النباتات فيسبب لها أمراضا مختلفة قد ينجم عنها خسائر فادحة فى المحاصيل الزراعية

ومن الفطر مايصيب الحيوانات والانسان . فالقراع مثـلا يتسبب من إصابة جلد الرأس بنوع من الفطر الطفيلية . والفرق بين الفطر الرمية والفطر الطفيلية غير واضح فى بعض الأحوال لأن بعض الطفيليات قديستمر على التغذى من عائله بعد موت ذلك العائل كما ان بعض الفطر الرمية قد يتحوّل الى طفيليات فى ظروف خاصة

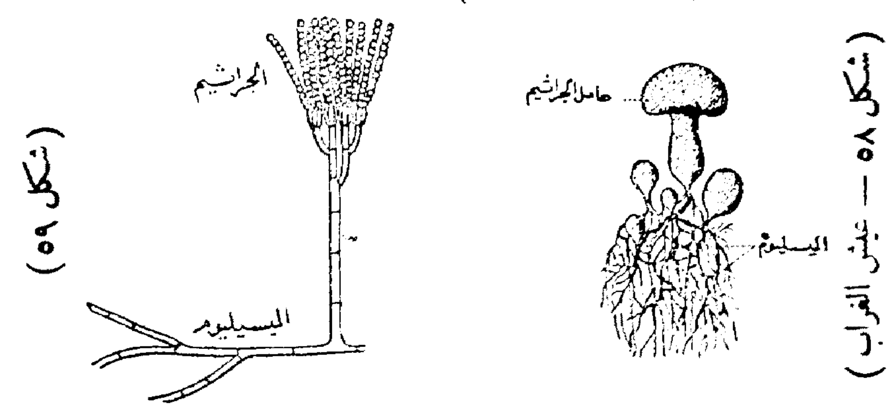
﴿ تركيب الفطر ﴾

يتركب جسم النبات الفطرى إما من خلية واحدة كالخميرة . واما من أنابيب رفيعة كثيرة التفرّع تسمى كل منها (هيفا) ومجموعة هيفات الفطرة الواحدة تعرف بالميسليوم كما فى (شكل ٥٧) وقدتكون الهيفات مقسمة بحواجز عرضية (شكل ٥٨) أوغير مقسمة (انظرشكل ٥٧)



(شكل ٥٧)

وقد تتكاثف هيفات بعض الفطر وتتلاصق فتتكوّن منها كتلة تشبه أنسجة النباتات الراقيـة كما هو الحال فى « عيش الغراب » (انظرشكل ٥٨ و ٥٩)



(شكل ٥٩)

(شكل ٥٨ — عيش الغراب)

﴿ جمال العلم فى قوله تعالى ـ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ـ مع قوله تعالى ـ وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ـ ﴾

سبحانك اللهم شملتنا باحسانك . وبهرتنا بجمالك . ونحن الى جمالك أشوق . والى علمك أكثر بهجة وأفرح قلوبا

سمعناك يا ربنا تقول ـ وقدّر فيها أقواتها ـ . فأخذنا نستقرئ هذه الأقوات . فوجدنا عجبا ! وجدنا أن أسبابها هى المشرقات العجيبات من الشموس والكواكب والأقمار . أدرنا الطرف الى تلك المشرقات فألفيناها لاتفتأ تلقى الأشعة والأنوار على أرضنا الجميلة البهجة الحسناء . ووجدنا أن حركات تلك المشرقات لها حساب لاخلل فيه ولاخطأ ولاخطل . ورأينا صيفا وشتاء وربيعا وخريفا وليلا ونهارا كلهنّ بحساب . ثم ان الأنوار الواصلة الى الأرض مختلفات ضعفا وقوة باختلاف ذلك الحساب . وعلى مقتضاه وجدنا النبات فى الأرض فقلنا لعلّ الحساب فى تلك الكواكب وحدها . أما النبات فلاحساب فيه . بل هو خارج بمقتضى المصادفة . ولكنا لما نظرنا فى أمر النبات وأخذنا نستقرى أنواعه وأجناسه وجدناه بحساب إذ رأيناه موضوعا أيضا بدقة لأنه مجعول لغذاء الحيوان والانسان . والانسان يحتاج فى اليوم والليلة من الغذاء الى مقدار أقله نحو نصف كيلوجرام وأكثره نحو كيلوجرام . وسيأتى تفصيل هذا المقام فى أوّل ﴿ سورة الجاثية ﴾ فراجعه ولاتعوّل إلا على التفصيل هناك

رأينا أن الانسان يحتاج الى نوعين من الطعام : نوع هو مواد عضوية مركبات من مواد نشوية ومواد دهنية ومواد زلالية (آزوتية) . ونوع هو مواد غير عضوية كالأملاح المختلفة والماء . والجرام من المواد الدهنية يعطى الجسم حرارة تولد نشاطا فيه وحركة . وتلك الحرارة لها وحدة يسمونها (كالورى) أو (سعر) ومجموع مايحصل من جرام الدهن (٩) كالورى . وما يكون من جرام النشاء (٤) كالورى . وما يكون من جرام الزلال (٤) كالورى ، فاذا كان فى الطعام (٣) كالوجرامات من كل واحد جرام كان فيه (١٧) كالورى (سعر)

﴿ غذاؤنا لابدّ فيه من موادّ دهنية ، وأخرى نشوية ، وأخرى زلالية ﴾

فالدهنية كالزيوت ، والنشوية كالأرز ، والزلالية كالبيض واللحم وهكذا ، فهذا الذى نحتاج اليه فى طعامنا ألفيناه فى النبات وفى الحيوان ، ثم وجدنا نسبة مختلفة ، فتارة يكثر الزلال ، وتارة يكثر الدهن ، وتارة يكثر النشاء ، ولنا أحوال مختلفات من صحة ومرض وضعف وقوّة وعلى مقتضاه تختلف أطعمتنا ، فتارة نكثر من النشاء . وتارة نكثر من الدهن . وتارة نكثر من الزلال . ثم اننا لما بحثنا النبات وجدنا هذه فيه بنسب مختلفة أيضا فعرفنا أن ههنا حسابا موضوعا بدقة لنستعمل مايوافقنا منه بعد التروّى والبحث والتنقيب . وهاك مثلا لذلك :

﴿ الموادّ النشوية ﴾

رأينا المادة النشوية تكثر فى الارز والذرة والقمح والبزلة الناشفة والفول الناشف واللوبية الناشفة والعدس والبلح الناشف . فهذه الأنواع التسعة يكون النشاء فيها من نصفها الى ثلاثة أرباعها . ونرى الكرنب والطماطم والسبانخ والخص وكشك الماز والخيار والشمام والبطيخ والبرتقال والليمون فيها أقلّ من عشرة فى المائة مواد نشوية . ونرى الفول السودانى والتفاح والكمثرى والخوخ والتوت والعنب والموز والتين واللوز والبندق والجوز وأبوفروه وجوز الهند والفسدق والصنوبر . كل هذه فيها النشاء أكثر من عشرة فى المائة .

﴿ المواد الدهنية ﴾

ونرى المواد الدهنية تكثر فى اللوز والبندق والجوز والفسدق وجوز الهند والصنوبر فهى فى هذه أكثر من النصف . ونرى الدهن فى الديك الرومى والأوز والضانى والبقرى والفول السودانى والبيض أكثر من عشرة فى المائة . ونراه فى القمح والذرة واللبن والبطاطس والبطاطة واللوبية الخضراء وما أشبه ذلك قليلا جدا

﴿ المواد الزلالية (الآزوتية) ﴾

اننا نرى المواد الزلالية فى الديك الرومى والأوز والفراخ والضانى والبقرى والصنوبر والفسدق والجوز والبندق واللوز والفول السودانى والعدس واللوبية الناشفة والفول الناشف والبزلة الناشفة فى كل هؤلاء أكثر من عشرة فى المائة . ونراها أقل من عشرة فى المائة فى البزلة المقشرة وفى الكرنب والطماطم وهكذا

عجبا يا ربنا : وزنت سير النيرات . وأدهشتنا بعلم الفلك . ولكنك فى خلق الحيوانات والنباتات وجدنا حسابك مركبا مضاعفا . فانك جعلت أجسامنا مركبة من مواد دهنية ومواد آزوتية ومواد نشوية . ونفس هذه المواد وجدناها بمقادير مختلفة . ثم سمعناك تقول فى كتابك ــ وقدّر فيها أقواتها ــ

يارب تبا للجهالة . تبا للجهال . يسمع المسلم ــ وقدّر فيها أقواتها ــ فتمرّ عليه الكلمة غالبا كأن لم يسمعها . أوّاه لأمم الاسلام النائمة . أفلم يدبروا القول إذ جاءهم !

إن هـذه المائة كل قد وزنتها الأمم حولنا ونظروا فيها نظراتهم . فهل يبقى المسلمون مكتوفى الأيدى . ان للمسلمين بعد انتشار هذا التفسير لجولة ودولة وصولة واسعادا لنوع الانسان . هذه النباتات طلاسم وألغاز لا يحلها إلا علماء جميع النوع الانسانى لا بعضه . والمسلمون يبلغون نحو الخمس أو الربع من نوع الانسان ، فعليهم أن يقوموا بما عليهم حتى اذا درسوا ما أنتجته قرائح آبائهم . ثم ما أنتجته قرائح الأمم المتأخرة بعدهم قاموا إذن بنصيبهم من البحث فى الأغذية وأنواعها قياما بحق قوله تعالى ــ وقدّر فيها أقواتها ــ إذ وضعها بوضع مقدّر فكانت المواد النشوية والمواد الآزوتية والمواد الزلالية كل منها له نسب خاصة فى المواد العضوية وذلك لاختلاف الآكلين والأمزجة والأمكنة والأشخاص ، وذلك يعوزه كثرة البحث والتنقيب حتى تكون هناك نتائج بها يخصص لكل قبيل ولكل امرئ ما يناسبه زمانا ومكانا ، هنالك تقلّ الأمراض وترقى العقول وتسعد الانسانية . ولن يتمّ ذلك إلا اذا ساعد الغربى الشرقى ، والشرقى الغربى ، فى درس هـذه الدنيا ونظامها ورموزها

خطاب المؤلف لربه

يارب فى القلوب حبك ، وفى العقول شكرك ، وعلى الألسنة ثناؤك ، لاسعادة فى الحياة إلا بالحب ، ولا حب إلا بعد العلم

تحبك الدّواب والأنعام لأنك تسدى اليها الغذاء ، وتحبك العامّة من نوع الانسان لأنك تطعمهم من جوع وتغنيهم من فقر ، وهـذا حبّ كحب عبيد العصا يحسون بحب ساداتهم اذا رفعوا عنهم ضرب العصا ، فهو حب على دفع الألم بعد حصوله ، وهل اللذة إلا بعد الألم . ويحبك بعض آخر من العامّة لأنك فوق ما غذيتهم بالطعام ملكتهم منه كثيرا ، وأنعمت عليهم بالمال الوفير والخيرات والبركات وآتيتهم ملكا فى الدنيا . ويحبك الأطباء لأنهم اطلعوا على أسرار الأغذية وخواصها فشفيت بها مرضاهـم . ويحبك الحكماء وحبهم لك أعلى من حب السابقين

﴿ تذكرة ﴾

اذا أردت أن تعرف كيف ترتب غذاءك فاقرأ ما تقدم فى آخر سورة ص عند قصـة آدم عليه السلام ،

وفيها أيضا فى آخر سورة طه ، وفى سورة الشعراء عند آية ـ واذا مرضت فهو يشفين ـ وفى سورة الحجر وفى سورة الأعراف عند قوله ـ وكلوا واشربوا ـ الخ وفى سورة البقرة عند آية ـ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ـ

انهم يحبونك لعلمك الذى ظهرت آثاره فى نحو تقدير الأقوات ولرحمتك التى تجلت فى عنايتك باستيفاء أنواع أغذية الحيوان ، ولجمالك الذى تجلت آثاره فى صور النبات وأشكاله وبدائع الحيوان ، ولحبك الذى أمدّ بعضه القلوب فأحبت الاحسان والجمال والكمال . إن سعادتنا بالحب . ولا كمال للحب إلا على مقدار العلم بالمحبوب . يصلى المسلم فيقول « الحمد لله رب العالمين » ويسبح ويكبر . فبالتسبيح يتصوّر أن ذلك المحبوب أرفع من كل مايعلمه . وبالتحميد يتذكر إحسانه وعلمه فيزداد حبه . وبالتكبير ينسى كل مخلوق ويفرح بذلك الوجود الأكمل ، وهناك يفهم ـ واذا رأيت ثمّ رأيت نعيما وملكا كبيرا ـ

بازدياد العلم يزداد الحب . وبازدياد الحب تزداد السعادة . وأفضل سعادة الدنيا هو الحب . وأفضل سعادة الآخرة هو الحب

﴿ نور على نور وضرب مثل بما نحن فيه لما يلهب القلوب حبا ويملؤها جمالا ويبهرها أنوارا ﴾

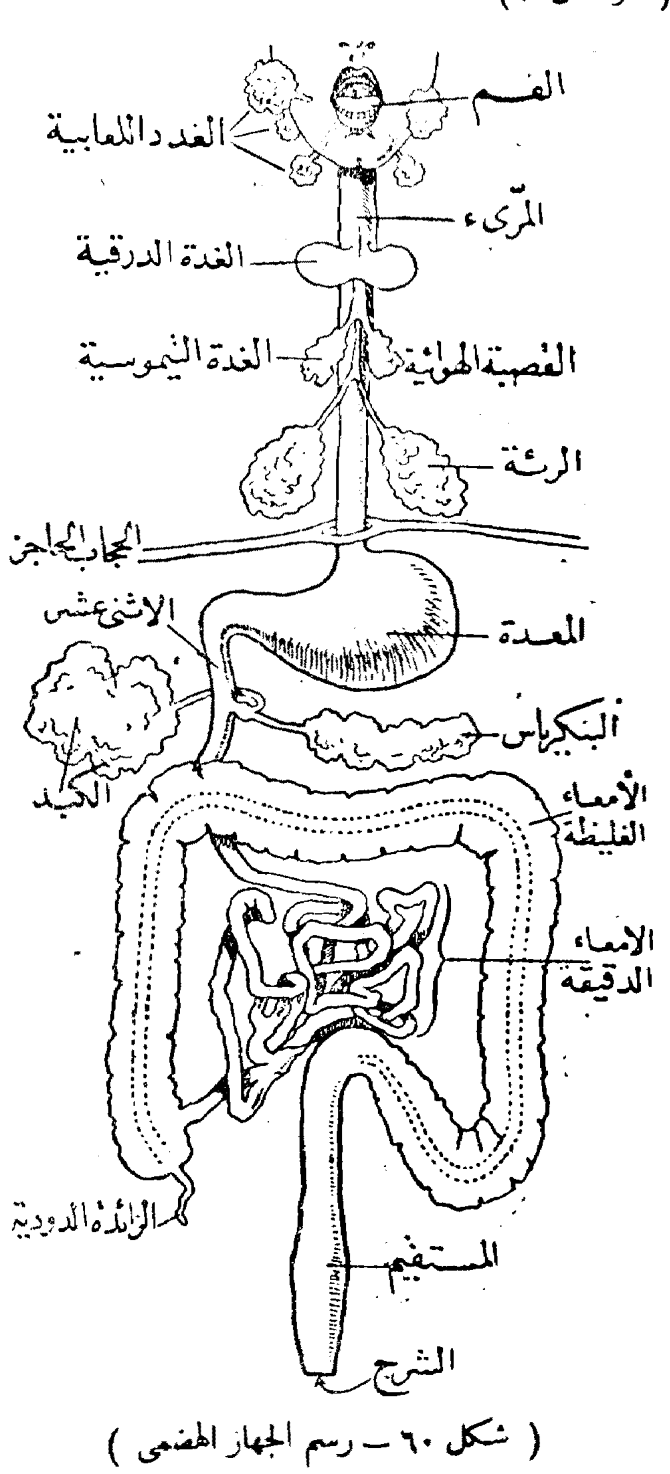
أريد أن أضرب مثلا ببعض أنواع النبات ونظامها وموافقتها للجهاز الهضمى . ياسبحان الله : نرى الانسان يعوزه فى اليوم (١٨٠٠) سعر اذا كان فى فراشه . وقد عرفنا ماهو السعر فيما تقدّم قريبا أن الذى يحدثه فى الجسم هو المادة الدهنية والنشوية والاوزوتية . وهو يحتاج الى (٤٠٠٠) سعر إن كان فى شغل شاق والى نحو (٣٠٠٠) اذا كان فى شغل متوسط . ولقد عرفنا أن الجرام من المادة النشوية ومن المادة الزلالية يحدث (٤) سعر (كالورى) ومن المادة الدهنية يحدث (٩) كالورى فلننظر فى الذرة والقمح والصنوبر والفول السودانى فماذا نجد ؟ نجد الجدول التالى

الصنف	ماء	آزوتية زلالية	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرطل المصرى
قمح	١٢ر٨	١٠ر٨	١ر١	٧٤ر٨	١٥٦٤
أذرة	٩ر٣	٩ر٩	٢ر٨	٧٦ر٣	١٥٤٧
صنوبر	٣ر٤	١٤ر٦	٦١ر٩	١٧ر٣	٣٠٤٠
فول سودانى	٩ر٢	٢٥ر٨	٣٨ر٦	٢٤ر٤	٢٤٣٤

إنما اخترت هذه الأغذية لأنها تعطينا ضروب التفاوت فى مقدار السعر وفى المقادير الدهنية والاوزوتية والنشوية ، فقد ارتفع الفول السودانى فى المادة الاوزوتية ، والصنوبر فى الدهنية ، والقمح والذرة فى النشوية وارتفع الصنوبر فى قيمة التغذية ويليه الفول السودانى وأقلّ منهما الذرة والقمح

هذه صورة تظهرلنا مقادير الأغذية فى النبات ، إن كل نبات لايخلو من هذه المواد ، ففيها الماء ، وفيها المواد الثلاثة ولكن النسب مختلفات كما اختلف الناس أوطانا وقوى وأجساما وقبائل وعادات فاختلفت النباتات كما اختلفوا . وهنا مدهشات وعجائب ! هو أمر الشمس وأمر جذور النباتات وأمر أوراقه والجهاز الهضمى للانسان مثلا . أليس من العجب أن الشمس ترسل الأشعة فتساعد تلك المادة الملونة التى تقدم وصفها فى ﴿ سورة يس ﴾ عند آية ـ سبحان الذى خلق الأزواج كلها ـ يارب عجبا (انظر الموضوع هناك إذ ترى صور الورقات ، ووصف الحجرات فى كل ورقة ، وانها تكون مئات وألوفا وملايين فى الورقة الواحدة والمادة الملونة فى تلك الحجرات يساعدها ضوء الشمس فى اجتذاب الغذاء من الهواء ، ولولا هذا لم يكن نبات) وهكذا

نرى جـذور الأشجار والزروع ذات مسام شعرية تختلف فتحاتها اختلافا على مقتضى اختلاف النبات بحيث تـكون الفتحات الشعرية لـكل نبات صالحة لاجتذاب وقبول المواد التى يتمثـل بها النبات ، وفتحات هذه الأنابيب هى مفاتيح سرّ النبات ، فتـكون فى الصنو بر غيرها فى الفول السودانى غـيرها فى الذرة والقمح بحيث لواختلت أواضطر بت فدخلت مواد تزيد فى المادة الدهنية أوالنشوية أوالاوزوتية عما هومقرّرلـكل منها لم يكن فى الأرض فول سودانى ولاذرة ولاقمح ولاصنو بر ، فنظام هذا العالم نظام أدنى عجيب ، لواختلت الأوراق فى حجراتها أوالجذور فى فتحاتها فدخلت ذرات لاتوافق حساب الموادّ المقرّرة للنبات لم يكن ذلك النبات وفسد هيكله ولم يعش حيوان ولا انسان قل تعالى ـ وكل شيء عنـده بمقدار ـ . والأمر الأعجب أمر الجهاز الهضمى (انظر شكل ٦٠)



(شكل ٦٠ ـ رسم الجهاز الهضمى)

تعجب لهذا الجهاز . انظر كيف نظمت مصانعه على مقتضى نظام النبات . ومعنى هذا انه جاء مطابقا للمواد الداخلة فى النبات ، فكما نرى فى كل نبات :

(١) مادّة نشوية وتغلب فى الحبوب كالقمح والشعير والأرز ، وفى الخضراوات كالبطاطس والبطاطة واللفت والجذر والبنجر ، وفى البقول كالفول والعدس واللوبية والبزلة (الجافة)

(٢) ومادة زلالية أوزوتية وتغلب فى البقول واللحوم

(٣) ومادة دهنية وتغلب فى الزيوت (والسمن والزبدة ودهن الحيوان والطيور)

هكذا نرى فى هذا الجهاز المرسوم فى الصحيفة السابقة :

﴿أوّلا﴾ ـ (١) مصانع فى الفم وهى (٦) ينابيع تهضم بعض المواد النشوية (٢) ومابقى من النشاء بلاهضم يهضمه البنكرياس بخميرة خاصة به ويزيد هذه المادة هضما (٣) عصارة الأمعاء الدقاق

﴿ثانيا﴾ الموادّ الدهنية وهى تهضم بعصير يخرج من مصنعين : أحدهما البنكرياس ، وثانيهما مايفرزه الكبد من الصفراء

﴿ثالثا﴾ المواد الآزوتية وهى تهضم بالعصير المعدى والبنكرياس

الهواضم	المواد		
(١) لعاب الفم وهوست ينابيع	النشاء	. . .	. . . .
(٢) العصير المعدى	. . .	. . .	الآزوتية
(٣) الصفراء	. . .	الدهنية	. . . .
(٤) البنكرياس	النشاء	الدهنية	الآزوتية
(٥) عصير الامعاء الدقاق	النشاء	. . .	. . . .

فاذا نحن جاوزنا لعاب الفم ألفينا عجبا ! ألفينا البنكرياس يهضم الأنواع الثلاثة بأنواع من الهواضم مختلفات ، وألفينا العصير المعدى والصفراء والامعاء قد وزعت عليها أنواع الأغذية الثلاثة توزيعا عادلا فساعد كل مصنع فى هضم مادة من المواد ، إذن لكل مادة نوعان من الهواضم اذا استثنينا لعاب الفم للمواد النشوية

ههنا ننظر فى ضوء الشمس ، وفى حجرات الأوراق ، وفى فتحات الأنابيب الشعرية ، فنجدها قد حسبت حسابا متقنا حتى حصلنا المواد الغذائية ، ثم نبحث فى الجهاز الهضمى فنجد المصانع فيه موزّعات على هذه المواد التى عملت فيها عوامل الأضواء والأوراق وفتحات الجذور الشعرية

﴿ نظام الأمم الأرضية ، والشوق الى مبدع النظام ﴾

فياليت شعرى يامعاشر بنى آدم ، أغفلتم عن هذا النظام ، ألم تعلموا أن هذا مثل فصله الله للناس بنفس نظام ماً كلنا ، وقال لكم : « لولم يكن هناك البنكرياس مع العصير المعدى ، ولولم يكن البنكرياس مع الصفراء ، ولم يكن البنكرياس مع عصير الامعاء لم تهضم المواد الآزوتية ولا المواد الدهنية ولا المواد النشوية » ـ يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ـ

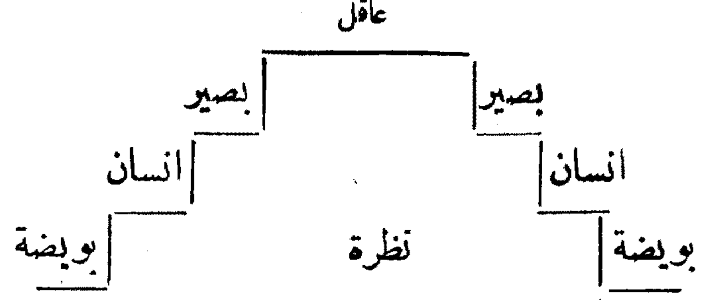
فهذا هو التفصيل ، وهذا هو التدبير ، وبهذين يكون الايقان ، واليقين هو العلم الذى لايدخله الشك . لوأن مصنعا من هذه المصانع الهواضم للمواد لم يكن فى الجهاز الهضمى لاختلّ نظام الهضم . ألم يعلم هذا النوع الانسانى أن الأرض جيعها أشبه بالجهاز الهضمى وأن عقول بنى آدم أشبه بهذه المصانع الهواضم لهذه المواد وأن اختلال عقول أمة أوضعف قوّتها يحرم المجموع الانسانى مما تنتجه تلك العقول كما يحرم الانسان من هذا

الانتفاع بنشاء وبدهن وبزلال لم يجد مايهضمه . أىّ فرق أيها الناس بين القوى الهاضمات المواد والأغذية المختلفة وبين العقول المختلفات الموزّعات على الناس ، أليس هذا النظام الجسمى العجيب مشاكلا كل المشاكلة للنظام العام . اللهم إنى أكتب هذا القول فى كتابك وأخاطب عبادك جميعا فى الأرض ، وأقول : « مادامت هذه الأرض فيها أمة واحدة لم يستخرج ماعندها من القوى العقلية ومافى أرضها من القوى المادية فأهل هذه الأرض جميعا معذبون على مقدارمانقصهم من فوائد تلك العقول كما تنقص سعادة الانسان الواحد بما نقصه من القوى الهواضم لمواد طعامه ، وهذا القول أنا به موقن

عروج النفس الى العالم الأعلى

لقد قدّمت فى غير ما موضع من هذا التفسير لاسيما فى آية ــ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ــ الخ فى هذه السورة أن المادة عجزت عن إمداد عوالمها بالحرارة والضوء فهى عن إمدادها بالتصوير والادراك والعقول والغرائز والقوى أشدّ عجزا ، وأقول الآن : إن العلم اليوم فى العالم الانسانى أثبت أنه لاوجود للمادّة لأنها عبارة عن حركات تنوّعت فان كانت من ٤٠٠ مليون مليون فى الثانية الى ٧٠٠ مليون مليون فيها فذلك هو الضوء ، وان كانت نحو ٦ آلاف مليون مليون فى الثانية فهى العناصر ومركباتها ، فليحذف النوع الانسانى من صحائفه ذكر الفلاسفة المادّيين ، فاذا لم تكن مادّة فكيف يكون لها فلاسفة ! ولكن الناس يذكرونهم وهم غافلون عن رقىّ العلم اليوم .

فلم يبق إلا ان هناك علما ورحمة وجمالا وحبا استمدّ منه الناس علمهم ورحماتهم وحبهم وصوّرت العوالم بالصور الجميلة التى لاتقدر عليها المادة الموهومة ، فههنا نتيجتان : نتيجة سياسية ، وهى ان الأمم الأرضية لاتزال مضطربة معذبة حتى يستقرّ قرارها بنظام يشمل جميع نوع الانسان فيكونون كجهاز هضمى واحد يقوم بجميع مافى الأرض من الأعمال ، ونتيجة علمية ، وهى ان أسعد حياة للانسان أن يدرك هذه الحقائق بعقله من غير تقليد ، وهناك يرى أن عقله والرحمة التى عنده ، والجمال المبدع فى العوالم حولنا ، والحب المنبث فى العوالم كل هذه آثار لعلم ولرحمة وجمال وحب واسع ، فتى أحسّ بذلك دخل فى عداد السعداء فى هذه الحياة ، ويكون ممن قيل فيهم ــ لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ــ



وسيأتى تفصيل هذا المقام فى تفسير البسملة فى سورة الدخان ، وسترى هناك كيف خيلت لى درجات رقىّ الانسان أوّلا فى بطن أمه وثانيا فى درجات إحساسه ثم فى عقله ، وهناك ترى رسما أظهر من هذا الرسم إذ يكون بويضة فى الرحم فيرتقى الى أن يصير ذبابة وقردا وانسانا ، ثم بعد الوضع يلمس ويذوق ويشم ويسمع ويبصر ثم يعقل وهناك وصلت فى الخيال الى الذروة العليا ، وعلوت الى ذلك المستوى الرفيع ، وغادرت عالم المحسوسات ودخلت فى عالم المعقولات ، غدوت الى نظرتان : نظرة الى أعلى ، ونظرة الى أسفل وبعبارة أخرى نظرة الى عالم العقل والروح والحب والجمال ، ونظرة الى عالم المادّة كالأرض ومن عليها وأشجارها وزروعها وأحجارها ورمالها وجبالها وبحارها ، هنالك تبينت لى الحقائق ، وابتهجت نفسى بالمعارف ، وأخذت أوازن مابين هذين المنظرين وبين الصلاة فى الاسلام ، فتارة كنت أحصر الفكر فى العالم اللطيف الذى أسكرتنى غشيته

وأبهجتني حكمته ، وأسعدتني بهجته ، فأعرف إذ ذاك كيف يكون الحمد على النعم والشكر عليها والرحمة العامة ومبدأ الهداية الى الصراط المستقيم ، وتارة أنظر الى العالم الأرضى أسفل هـذا المعراج ، فأفهم لماذا يسلم المسلم على الأنبياء وعلى الصالحين وعلى نبيه ﷺ وعلى نفسه تارة ، ويصلى على نبينا ﷺ وعلى الأنبياء قبله تارة أخرى ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان النظرة الأولى لعالم الأرواح والجمال والعقل منبع للنظرة الثانية وأصـل لها ، فالأنبياء هم الذين يفشون السلام فى الأرض مما اقتبسوه من ذلك العالم ، فالفاتحة أقرب الى عالم الجمال والعلم ومامعهما والتشهد فى الصلاة مفرّع عليها ، فاذا كان هؤلاء الأنبياء هم مبدأ السلام فى الأرض اقتبسوه من عالم العلم والجمال ، فالمسلم يسلم عليهم ليقلدهم بسبب كثرة استحضارهم فى نفسه فيصبح ذلك ملكة راسخة فى نفسه فيفشى السلام فى الأمم كما أفشوه ويستعمل أهمّ الطرق لذلك ويبتدئ بتحية الله عزّوجل وهذا سرّ السلام على كثير من الأنبياء فى ﴿ سورة الصافات ﴾ وانتهت السورة بتسبيح ربّ العزّة والسلام على المرسلين كلهم واعلان الحمد لله لأن هذا الحمد الذى تشمله الفاتحة المبنى على العلم والرحمة الخ مبناه وأصله سبب فى أن الأنبياء أفشوا السلام فى الأرض ، ومن هذا يفهم المسلمون سرّ قوله ﷺ « افشوا السلام » وسر تسليم المؤمن على أخيه كلما قابله . انتهى مساء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ والحمد لله رب العالمين

بهجة الحكمة وجمال العلم

فى قوله تعالى أيضا ــ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت ــ

أنا الساعة أظنّ انى نجحت فى مشاركتك أيها الذكىّ فى فهم مقادير النبات ونسبتها الى جهازنا الهضمى والى الشمس والضوء والأنابيب الشعرية وفتحاتها المختلفات ، فحقّ لى أن أريك الآن جدول الأطعمة من كتاب « الغذاء فى الأمراض » تأليف الدكتور حسن عمر . فقد جاء فيه تحت العنوان التالى مانصه :

تحليل الغذاء كيمائيا

إن معظم المواد التى يتغذى بها الانسان إما أن تكون عضوية أوغير عضوية . فغير العضوية هى عبارة عن مختلف الأملاح التى يأكلها الانسان فى غذائه ومشربه . أما المواد العضوية فهى غالبا مركبة من مادّة نشوية ودهنية وزلالية (آزوتية) . هذا وسترى فى الجدول الآتى قائمة فيها تحاليل معظم مأكولاتنا فى المائة مع ذكر قيمتها الغذائية للجسم فى الرطل المصرى الواحد (انظرهذا الجدول)

الصنف	ماء	أزوتية (زلالية	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرطل المصرى بالسعر
قمح	١٢ر٨	١٠ر٨	١ر١	٧٤ر٨	١٥٦٤
أرز	١٢ر٤	٧ر٤	٠ر٤	٧٩ر٤	١٥٤٠
أذرة	٩ر٣	٩ر٩	٢ر٨	٧٦ر٣	١٥٤٧
لبن	٨٧ر	٣ر٣	٤ر٤	٥ر٠	٣٢٥
بيض	٧٣ر٣	١٤ر٨	١٠ر٥	٠ ٠	٦٨٥
بطاطس	٦٢ر٦	١ر٨	ر١	١٤ر٧	٢٩٧
بطاطه	٥٥ر٢	١ر٤	ر٦	٢١ر٩	٤٥٠
لوبية خضراء	٨٩ر٣	٢ر٣	ر٣	٤ر٧	١٣٦

الصنف	ماء	آزوتية (زلاليه)	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرطل المصرى بالسعر
بزله بقرونها	٨١ر٨	٣ر٤	ر٤	١٣ر٧	٣٢٠
بزله مقشره	٧٤ر٦	٧ر٧	ر٥	١٦ر٩	٤٦٧
بزله فى العلب	٨٥ر٣	٣ر٦	ر٢	٩ر٨	٢٤٥
بزله ناشفة	٩ر٥	٢٤ر٦	١ر٠	٦٢ر٠	١٥٧٨
فول ناشف	١٠ر٤	١٨ر١	١ر٥	٦٥ر٥	١٥٨٩
لوبية ناشفة	١٢ر٦	٢٢ر٥	١ر٨	٥٩ر٦	١٥٢٧
عدس	٨ر٤	٢٥ر٧	١ر٠	٥٩ر٢	١٥٣٧
فول سودانى	٩ر٢	٢٥ر٨	٣٨ر٦	٢٤ر٤	٢٤٤٣
كرنب	٨٩ر٦	١ر٨٠	ر٤٠	٥ر٨	١٥٠
« مطبوخ	٩٧ر٤	٠ر٦٠	ر١٠	ر٤	١٥٠
طماطم	٩١ر٩	١ر٣٠	ر٢٠	٥ر٠	١٢٠
طماطم مطبوخة	٩٤ر٥	١ر٠٠	ر٢٠	ر١	١٢٠
سبانخ	٩٠ر٦	٢ر٥	ر٥٠	٣ر٨	١٣٢
خس	٩٤ر١	١ر٤٠	ر٤٠	٢ر٦	١٨٩
كشك الماز	٩١ر٧	٢ر٢٠	ر٢٠	٢ر٩	٩٨
خيار	٩٥ر٩	ر٨٠	ر١٠	٢ر١	٥٨
تفاح	٨٢ر٥	ر٤٠	ر٥	١٢ر٥	٢٥٠
كمثرى	٨٣ر٩٠	ر٤٠	ر٦	١١ر٥	٢٣٨
خوخ	٨٨ر٨٠	ر٥٠	ر٢	١٣ر٤	٢٥٧
توت	٨٤ر٧٠	١ر٣٠	٥ر٧	١٥ر٤	٥٢٤
عنب	٧٩ر٠	١ر٠٠	١ر٠٠	١٥ر٥	٣٣٣
شمام	٨٩ر٨٠	ر٧٠	٣ر٠٠	٧ر٦	٢٦٦
بطيخ	٩٢ر٩٠	ر٣٠	ر١	٦ر٥	١٢٤
موز	٧٤ر٠	١ر٥٠	ر٧	٢٢ر٩	٤٦٢
برتقال	٨٦ر٧٠	ر٩٠	ر٦	٨ر٧	١٩٥
ليمون	٨ر٩	١ر٠٠	ر٩	٨ر٣	٢٠٠
بلح ناشف	٢ر٠٨	٤ر٤٠	٢ر١	٦٥ر٧	١٣٢٨
تين	٧ر٩١	١ر٥٠	ر٩	١٨ر٨	٣٩٥
زبيب	١ر٤٠	٢ر٥٠	٤ر٧	٧٤ر٧	١٥٥٨
لوز	٤ر٨	٢١ر٠	٥٤ر٩٠	١٧ر٣	٢٨٧٣
بندق	٣ر٧	١٥ر٦	٦٥ر٣٠	١٣ر	٣١١٦
جوز	٢ر٨	١٦ر٨	٦٤ر٤٠	١٤ر٨	٣١٣٣
أبو فروة	٤٥ر٠	٦ر٢	٥ر٤٠	٤٢ر١	١٠٧٤

الصنف	ماء	آزوتية (زلاليه)	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية بالرطل المصرى بالسعر
جوز هند	١ ر ١٤	٧ ر ٥	٦٠ ر ٥٠	٩ ر ٢٧	٢٦١٩
فسدق	٢ ر ٤	٦ ر ٢٢	٥٠ ر ٥٤	٦ ر ١٥	٢٨٥٦
صنوبر	٤ ر ٣	٦ ر ١٤	٩ ر ٦١	٣ ر ١٧	٣٠٤٠
بقرى بيت الكلاوى	٥ ر ٥٢	١ ر ١٦	٥ ر ١٧	. .	٩٨٥
بقرى نخذه	٠ ر ٦٧	٠ ر ١٩	٨ ر ١٢	. .	٨٤٨
بتلو نخذه	١ ر ٦٠	٥ ر ١٥	٩ ر ٧	. .	٥٩٠
ضانى «	٢ ر ٥١	١ ر ١٥	٧ ر ١٤	. .	٨٥٥
ضانى كستليتة	٠ ر ٤٢	٥ ر ١٣	٣ ر ٢٨	. .	١٣٧٠
فراخ	٧ ر ٤٣	٨ ر ١٢	٤ ر ١	. .	٢٨٣
أوز	٥ ر ٣٨	٤ ر ١٣	٨ ر ٢٩	. .	١٤٢٩
ديك رومى	٤ ر ٤٢	١ ر ١٦	٤ ر ١٨	. .	١٠٢٠

﴿ قسمة علم النبات بيننا و بين الأطباء ﴾

يقول عمرو بن كلثوم

فآبوا بالنهاب و بالسبايا ✡ وإبنا بالملوك مصفدينا

و يقول عنترة العبسى :

لى النفوس وللطير اللحوم ✡ وللوحش العظام وللخيالة السلب

يقول إنى عظيم القدر شريف المنزلة ، لا أجعل نفسى وقفا على الامور المادّية ، واذا قنعت الطيور بلحم من أجندلهم فى الميدان ، وقنعت الوحوش بالعظام ، ورجالى بما على القتول من دروع وملابس ، فانى أكبر نفسا وأعزّ شرفا ، فكفانى أنى أنا القاتل . فهؤلاء مقاصدهم مادّية ، فأما أنا فأر بى أشرف قدرا وهو انى قاهر الأقران موصوف بالشجاعة والعلوّ والقهر ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ لذاتى روحية ولذات هؤلاء حسية ، واللذة الروحية أعلى مرتبة وأشرف غاية وأكمل سعادة

واذا رأينا هذا الشاعر فى البادية يفخر باللذة الروحية ولامعارض له مع انها لم تمتز عن لذة النمر ، ذلك لأنه قد يقتل الحيوان لمجرّد القتل لا لسدّ جوعه ، ولولا استلذاذه بالقتل مافتك لغير داعية الجوع ، فهذه إذن لذة سبعية لا لذة عقلية شريفة . أفلايحق لنا أن نقول للأطباء : « أيها الأطباء لكم المرضى فافرحوا بشفائهم اذا عرفتم هذه المقادير ولكم الأصحاء فعلموهم مقادير الأطعمة ليحترسوا من الوقوع فى المرض . أيها الأطباء هذا هوالنبات وهذه مقاديره ، وهذا علم الطب بقسميه : علم حفظ الصحة ، وعلم مداواة المرضى ، فقوموا بهما واشفوا المرضى من عللهم وأمراضهم ، ونسأل الله نجاحكم »

ولكننا نحن نريد مقاما أعلى لهذه الانسانية بعد أن تكونوا أنتم قمتم بصحة أجسامهم وحفظ صحتهم ليفهموا كلامنا لأن المريض قلما يفهم مانقوله ، وهناك حقول مختلفات فى الدماغ تموفيها أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والتاريخية والأدبية والسياسية وهكذا كما دلّ عليه الكشف الحديث ، ذلك ان فى الدماغ محال مخصصات لكل علم قامت عليه الأدلة التشريحية بحيث تمو تلافيف خاصة باستعمال علوم معلومة ، و باهمال تلك العلوم لا يكون لهذه المحال فى الدماغ نموّ . فاذا كان الجهاز الهضمى قد اقتسم المواد النشوية والدهنية

والاوزوتية ، فهكذا نجد المخ اقتسم المواد العلمية من رياضية وطبيعية وأدبية وهكذا . وكما وجدنا أن للأغذية مبدأ وهي الشمس أشرف الموجودات المحسوسات هكذا نجد لأغذية العقل المتصرّف فى الدماغ الذى هو أشرف من الجهاز الهضمى مبدءا وهو أشرف الموجودات الغائبة عن الحس وهو الذات القدسية ومنه انبعث العلم فى نفوس هى وسائط توصل لنا الادراك والفهم والعلم على وزن توسط النبات بيننا و بين ضوء الشمس وحرارتها . واذا كانت كل حاسة من حواسنا الظاهرة متصلة بعالم يماثلها . فلتكن عقولنا متصلات بعوالم عقلية هى مستمدّة من الله عزّ وجل

إن هذا البرهان يقينى كالبرهان الذى تقدم فى قوله تعالى — إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا — الخ فى هذه السورة

﴿ هذا زمان ظهور الحقائق ﴾

هاهى ذه براهين أرسطاطاليس وسقراط وأفلاطون ومن بعدهم من الأمم الى وقتنا الحاضر قد شرحتها لك واضحة فيما تقدم وأبنت طرقها . ولقد اختلقوا لخفاء تلك البراهين على الذات القدسية أن الله عزّ وجل لم يشأ أن يظهر الحقائق للأمم مرّة واحدة . إن الله نظر الى الأمم كلها نظره الى نفس واحدة . وهذه النفس الواحدة أخذ يعلمها بالتدريج والطفرة محال فألهم سقراط ماعرفته هناك . وألهم أفلاطون تدوينه . وأوعز الى أرسطاطاليس أن يرد البرهان . وكان ذلك سببا فى ظهور فرق مقشاكسات من أبيقوريين ورواقيين قبل الميلاد والى الأفلاطونية الحديثة . ثم الى فرق متعددة فى الاسلام وفى أوروبا . ولكن اليوم إذ ظهر سرّ النبات وانتشر واستعدّت قلوب الأمم للعلم

ظهرت البراهين الآن فى هذا الكتاب جلية واضحة بحيث يسهل على المتوسطين فهمها وسيقل الاختلاف فيما كتبناه فى هذا المقام وأوضحناه فى هذه السورة . ولقد جاء فى كتاب « المذهب الروحانى » لمؤلفه عبدالله اباجى أحد الروحانيين الشرقيين فى صحيفة ١٤١ أسئلة تناسب المقام . وهاك نصها :

(س) هل يمكن للطبيب أن يستحضر المرضى الذين ماتوا على يده ، و يستوضح منهم بعض الدلائل يزداد بها خبرة ومعرفة ؟

(ج) قد يصح ذلك و ينال المساعدة من الأرواح العلوية ذاتها بشرط أن ينكب على درسه هذا بالاستقامة وصفاء لابغية حشد المال وكسب المعارف من دون جدّ ولاعناء

(س) هل يمكن استرشاد الأرواح فى المباحث والاكتشافات العلمية ؟

(ج) إن العلم هو صنع العقل ، ولا يكتسب إلا بالعمل ، و بالعمل وحده يتقدم المرء فى طريقه ، أىّ فضل يبقى للانسان اذا أمكنه أن يعرف كل شىء باستنباء الأرواح ؟ ألا يصبح الغبىّ الجاهل بهذه الطريقة عالما ؟ ثم ان لكل شىء وقتا معينا يأتى فى حينه أى عندما تكون الأفكار مؤهلة لقبوله وأما بتلك الطريقة فيقلب الانسان نظام الأشياء ، إذ يقطف الثمرة قبل نضجها

(س) ألا ينال إذن العالم والمخترع عونا من الأرواح فى مباحثه ؟

(ج) إن العون لاينقصه عند ما يكون أوان الاختراع قد دنا فتوافيه وقتئذ الأرواح وتلقى اليه بعض الإلهامات الفكرية فيتنقرها هو ويشتغل بها الى أن ينتج منها الاكتشاف المقصود فيكون معظم الفضل راجعا له ، فاياكم إذن والزيغ عن محجة الروحانية والتطرّف الى أمر لايلحقكم منه إلا الخداع والسخرية (١) اهـ

(١) اتصل الجهل بالبعض عند ظهور الحوادث الروحانية الى أن يتطلبوا من الأرواح نسخة فى صبغة الشعر ، وعلاج الدمامل فأصبحوا موضوع السخرية عند ما أشاعوا فيما بعد التراكيب التى تلقنوها من الأرواح الماكرة

أقول : فبناء عليه نقول إن هذه البراهين التي جاءت في هذا التفسير قد استعدّت لها الأذهان . ألاترى أن طائفة المادّيين اليوم لاوجود لهم لأن المادة لاوجود لها عند علماء القرن العشرين ، واذا سمعت عنهم كالذى نقلناه فيما تقدم فإنما هو أمر تاريخى لاغير ، لأنك علمت أن علماء عصرنا أجمعوا أنه لامادة ، فالمادة كلمة تطلق على كل مايحسّ به وليس هو بمادة ؛ بل هو حركات فى أمر خيالى سموه (أثيرا) وهذه الحركات باختلافها ظهرت لنا أنوار وحرارة ومغناطيس وعقاقير ومركبات أخرى وعناصر بسيطة ، واذا سقطت المادة باجماع العلماء فى عصرنا فقد سقط معها المذهب المادى اللهم إلا عند المدرّسين فى المدارس النظامية فى الشرق الأدنى كمصر والعراق وسوريا وما أشبه ذلك لأن هؤلاء يكرّرون على مسامع تلاميذهم ماقرءوه فى كتب منقولة عن علماء القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، أما قرّاء هذا التفسير فانهم علموا أن النوع الانسانى كانت معارفه مبعثرة قبل النبوّة . فلما أشرقت النبوّة المحمدية قال الله على لسانه ﷺ — سنريهم آياتنا فى الآفاق — الخ وقال — وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها — فهم سيقولون عرفنا يارب ووصلنا اليك بعقولنا وآمنا ببشارتك ؛ ياربنا قبلنا البشارة التى بشرتنا بها . إذن لتكن أعمالنا ياربنا من الآن موصولة برحمتك ، مستمدة من نور علمك ، موقنين بأنا معك وإننا سنكون خير أمة أخرجت للناس . ومن هم الذين يوقنون بربهم وتكون أعمالهم فى الحياة أعمال قوم كأنهم فى حضرة ربهم . فاذا رأوا النمل والنحل وحشرات الأرضة كل من أفراد هذه الممالك تعمل وهى فرحة بأنها أرضت الملكة الجالسة على عرش الملك المرسومة فى السور المتقدمة . فهكذا نحن قرّاء هذا التفسير ومن نحا نحوهم نعمل وقد أيقنا ايقانا أشبه بالعيان بأن الله مع كل نفس منا ومطلع على أعمالنا ، فنحن جزاؤنا فى نفس عملنا لأننا نعمل بمحبة واخلاص . واذا وجدنا الصبى مخلصا فى عمله لأبيه ، فرحا بأن أباه راض عنه . فهكذا نحن أصبحنا موقنين بأننا نعمل والله راض عن أعمالنا ونحن نحسّ فى أنفسنا بسعادة وانشراح صدر صادرين من صانع العالم المطلع على سرائرنا وتلاحظه عقولنا كما تلاحظ الشمس وضوءها عيوننا ، فالحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور

الناس وان كانوا أحرارا فهم إما هائمون بالجمال إن كانوا سعداء ، واما مستعبدون بالشهوات إن كانوا أشقياء . قال ابن الفارض :

أنت القتيل بأىّ من أحببته ✡ فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

اللهم انك أريتنا الجمال فى زروعك وشجرك وزهرك وقمرك ونجمك وشمسك . اللهم انك ملأت قلوبنا جمالا وأبهجتنا بصنعك ومنحت بصائرنا التمتع بالجمال فى هذه الحياة وكشفت الغشاوة وأحطتنا بالأنوار ورأيناك ألهمت الشيخ الدباغ فيما نقله عنه الشيخ أحمد بن المبارك إذ يقول : « إن فتح الحواس الظاهرة عبارة عن لذة تحصل فى الحواس الظاهرة ، وذلك بفتح العروق بما أدركته الحواس ، وبهذه اللذة يكمل البسط ، ففى البصر لذة بها يحصل الميل الى الصور الحسنة وعن ذلك ينشأ العشق والانقطاع الباطنى للمنظور ، وفى السمع لذة بها يحصل الخضوع عند سماع الأصوات الحسنة والنغمات المستقيمة وقد ينشأ عن ذلك اضطراب واهتزاز فى الذات وهكذا سائر الحواس ، ففى كل حاسة لذة زائدة عن مطلق الادراك ، والفرق بين فتح الحواس الظاهرة الذى هو من البسط وبين كمالها أن فتح الحواس يزيد على كمالها بفتح العروق فان فتح العروق زائد على الادراك الذى هو فى كمال الحواس وبذلك الفتح الحاصل فى العروق والتكييف الجاذب لصاحبه يقع الانقطاع الى المدرك . فترى صاحبه ينقطع مع كل نظرة الى كل مايراه وقد تحصل له غيبة خفيفة مع ذلك الانقطاع بخلاف مطلق الادراك فانه لايحصل معه هذا الانقطاع . فكم امرئ يرى أمورا حسنة ولا يتأثر بها . وكم من آخر يسمع أصواتا حسنة ولاتقع منه على بال . وبهذا الفتح والتكييف يحصل كمال البسط »

انتهى كلامه بالحرف

هذا كلام ذلك الأمى وهو الشيخ الدباغ ، ذلك الذى لم يتعلم أتى لنا بسر وهـذا السر يحيط بنا ولـكننا لانفطن له . هذا السر هو أن جمال هذه الدنيا وشموسها ونباتها مباح للناس . نحن جميعا نراه فمنا من هو مغمور بالمحاسن فرح بها سعيد مبتهج . وهذا الابتهاج وهذا السرور أمر آخر وراء مطاق الادراك . نحن ننظر . نحن نسمع . نحن نتعلم . نحن نقرأ العلوم الرياضية . نحن نقرأ العلوم الطبيعية ولـكن النظر والسمع والقراءة والفهم والتعقل وحوز العلوم والفوز فى الامتحان والتفوق على الأقران فى العلم . هذا كله شىء وذوق المسموع والمبصر والمعلوم الرياضى والطبيعى والالهى والفرح بها والاستلذاذ والابتهاج بها شىء آخر ، فأول الرجلين وهو الذى لا يحس قلبه بجمال مدركاته الحسية والعقلية نجده دائما يبحث عن حبيب يبهجه ويفرح به فلا يجد له مناصا من حبيب يأسر فؤاده مادام ذلك المدرك ليس حبيبا له ولا معشوقا ولا هو هائم به . واذا كانت المدركات العلمية بقسميها ليست محبوبة له ولا جميلة فهو لامحالة يختار ضدها وهى الشهوات فيبحث عن الجميل للشهوة الحسية وعن المال للاستمتاع الجسمى والفخر الظاهرى وعن السلطة التى بها يرهب الناس . وبالجملة ان المحبوب إذ ذاك شهوة البطن والفرج وشهوة الغلبة والصيت والولد والمال . وهذا كله أمر آخر غير الجمال . إذن صدق قول ابن الفارض « اننا قتلى من نحبه » فان أحببنا الجمال انقطعنا اليه وكفانا . وان لم نحب الجمال أحببنا الشهوات وعلى هذا الثانى أكثر هذا النوع الانسانى وعلى المبدأ الأول القليل أو النادر منهم وهؤلاء هم أشرافه وساداته وعظماؤه وحكماؤه

فلننظر فى حال المسلمين اليوم وفى عالم النبات الذى كلامنا فيه . النبات بتحليله أرانا انه جميل ومحكم مشوق لتلك الذات القدسية هام بها عند رؤيته قوم وكفاهم حبه والغرام به يبهجم أنى ساروا يكونون فى الحياة سعادة لأممهم . ولـكن أكثر الناس فى الاسلام كان هذا النبات سببا لاستعبادهم وشقائهم مثل سائر عرض الحياة الدنيا ، فاذا كان الأولون قتلى الجمال ، صرعى الحب والغرام ، يهيمون بالذات القدسية الرفيعة العلية ، مغرمين بتعليم الأمم وارشادها قد أعدوا أنفسهم خلفاء الله فى أرضه ، قوامين على عباده ، يبشرونهم بالخير وينذرونهم بالشر فان الآخرين وقد حرموا من الاستلذاذ بذلك الجمال يقعون لامحالة فى الهيام بظواهر الشهوات فيكونون عبيدا لها ، ومن استعبدته الشهوات استعبده الناس

مثلا نحن فى مصر نزرع القطن ولـكننا قوم محرومون من النبوغ فى الصناعات وكثرتها ، فنحن نبيع القطن بأبخس الأثمان ويصنع فى أوروبا ونشتريه ملابس بعشرات بل بمئات أضعاف مابعناه به وقد رجع الينا ملونا بألوان زاهية فرحنا بها . إن بلادنا المصرية المسكينة هائمة بملابس الفرنجة وتقليدهم فى كل شىء وخزينة الحكومة مفتحة الأبواب للعاملين فيها ، فهؤلاء يأخذون ثلثها بصفة مرتبات لهم ويصرفونها فى الملابس والمآكل والخمر واللهو واللعب وهكذا نساؤهم ورجال ونساء ذوى القصور والضيعات والعقارات الواسعة ، فهؤلاء وهؤلاء لما حرموا الاستلذاذ بالحكمة والعلم لم يجدوا لهم مناصا من غشيان أبواب الفجور والتباهى بالثياب الملونة المصبوغة بألوان من القطران المستخرج من الفحم كما تقدم تفصيله فى أول سورة سبأ ، وكأنى وأنا أكتب هذا أشاهد أكثر قومى ومن على شاكلتهم مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، تراه بصيرتى

سبحانك اللهم وبحمدك . أنت محسن رحيم جميل حكيم . حبست أرواحنا فى هذه الأرض لأنها ليست أهلا لمكان أرقى . وحبستنا فى لذاتنا وشهواتنا . وكلما ازددنا شهوة اثقلت الأغلال على أعناقنا . ذلك بما كسبت أيدينا . أفليس الناس اليوم مبعدين من الأغلال . اللهم لا وأى غل أشد وطأة من غل الأخلاق والآراء والعادات . تعس الانسان ما أجهله

يأتى التجار من أوروبا بالملابس المصبغة والثياب الملوّنة والجرالقاتلة والشهوات الفاتنة ، فنكب عليها ولانقوم نحن بعمل مّا ولاصناعة مّا ورجالنا ونساؤنا ووجهاؤنا مقتنعون بأن ذلك هو الرقىّ ، فتذهب الثروة للأجانب وهؤلاء هـم الذين يسيطرون على الشعب و يمنعونه من الرقىّ ومن العلم ومن الاستعداد الحربى . فاذا عجز الناس عن فك أغلالهم فى الدنيا فهم عن فكها فى الآخرة أعجز — ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا —

هذا ماخطر لى وأنا أصلى الصبح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ وأنا أقرأ هـذه الآية — وترى المجرمين يومئذ مقرّنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب — فانى أثناء القراءة كنت أشاهد بالبصيرة أن هذا منطبق انطباقا تاما على حال كثير من أمم الشرق الأدنى ومنهم كثير من أهل بلادى

اللهم إنى أشاهـد الأغلال من الآن موضوعة فى أعناقنا فى أرضـك ومن أشـدّها الملابس المصنوعات المزخرفة التى قتلت المسلمين لجهلهـم وقلة الدعاة والوعاظ فيهم وكثرة جهلهم حتى ان القطن الذى نزرعه نحن فى مصر ينسج فيصير أغلالا لنا واستعبادا والاستعباد اليوم راجع للتجارة . إن التجارة اليوم هى الأغلال فى الأعناق وهى السبيل التام لذلك . فأخرج المسلمين فى مصر وغيرها من هذه المآزق . إنك أنت الرءوف الرحيم . انتهى فى صباح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ وبهذا تم الكلام على الفصل الأوّل من اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى — فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت — والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثانى ﴾

من اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم —

فى هذا الفصل ثلاث مباحث

(١) فى المخاطبة على بعد عشرة آلاف ميل

(٢) فى الصلة بين علماء الشرق والغرب

(٣) فى أحوال نفس المؤلف

﴿ المبحث الأوّل ﴾

جاء فى إحدى المجلات العلمية تحت العنوان التالى مانصه :

بين القطب الجنوبى ونيويورك

فى غرفة فى الدور الثالث من إحدى ناطحات السحاب النيويوركية القائمة فى قلب المدينة عند ميدان التيمس جلس شاب على أذنيه سماعتان سوداوان . وعلى وجهه أمارات تدل على انه سمع شيئا مع ان السكون سائد فى الغرفة حتى تكاد تسمع دقات القلب . ولاشئ أمامه إلاصندوق أسود قائم على طاولة . و إذا يده تمتد الى قضيب نحاسى فى نهايته عقدة سوداء فيلمسها لمسا لطيفا فيلمع النور فى غرفة مظلمة فى الدور السابع عشر من ناطحة السحاب ذاتها و يسطع من صف من المصابيح من غير أن يحدث انفجار كهربائى أو أى صوت آخر . ليس فى الغرفة أحد . فاذا انقطع لمعان المصابيح اتشحت الغرفة بسود حالك

أنصت الرجل الذى فى الدور الثالث قليلا ثم أخـذ قلما بيده وكتب العبارة التالية ؟ « اصغ الى الطيارة « النجوم والخطوط » فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة صباحا » ولمعت المصابيح ثانية ناقلة الى مصدر

الرسالة السابقة جواب الشاب «انى حاضر»

فى القارة المنجمدة الجنوبية على عشرة آلاف ميل من نيو يورك — من الغرفتين اللتين يقيم فيهما الشاب وتامع المصابيح — مقر البعثة التى أعدّها الأميرال برد الأميركى لزيادة المناطق المنجمدة الجنوبية والوصول الى القطب الجنوبى عن طريق الجو. انه يعدّ طيارته الآن — أى حين وردت الرسالة الى العامل اللاسلكى فى نيو يورك قاصداً أن يحلق بها فوق مفاوز الجليد بغرض الوصول الى القطب الجنوبى

الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة عشرة! ونيو يورك نائمة ولكن العامل اللاسلكى الفتى مستيقظ، مقيم فى غرفته منتظر انباء الاميرال برد وطيارته

الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة. لقد انحنى الفتى والتقط قلمه وكتب «الطيارة على وشك الارتفاع من سطح الجليد. انتظر»

ويلمس مفتاحا آخر أمامه فيدوى فى اذنيه — وهو فى نيو يورك — صوت محركات الطيارة وهى تستعد للتحليق فى الجو فوق مفاوز القطب الجنوبى.

وتحلق الطيارة فى الجو فينتقل الاتصال اللاسلكى من محادثة تدور بين المحطة اللاسلكية فى مقر بعثة برد وبين العامل اللاسلكى المذكور — الى محادثة تدور بين العامل اللاسلكى فى الطيارة المحلقة فى الجو ثلاثة آلاف قدم فوق مفاوز الجليد والعامل اللاسلكى المذكور التابع لجريدة نيو يورك تيمس. هذه هى أول مرة فى التاريخ تمكن فيها رجل محلق بطيارة أن يخاطب صديقا له على بعد عشرة آلاف ميل كأنه يخاطبه على بضعة أقدام فى مكتبه أو صالونه. ان صوت العامل اللاسلكى فى طيارة برد كان ينتقل أمواجا لاسلكية فوق مفاوز الجليد القطبى وجانب من المحيط الباسفيكى ثم فوق أميركا الجنوبية وخط الاستواء الى أميركا الشمالية والولايات المتحدة — من عواصف القطب الثلجية الى صيف أميركا الجنوبية الى قيظ خط الاستواء الى نيو يورك المغطاة بالثلج. كل هذا كان يتم فى غفلة عين أو أسرع أى بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الساعة

وارتفع ستار الليل وأخذ الفجر ينبلج وأخذت الاشارات اللاسلكية فى المحادثات المذكورة تضعف رويدا رويدا ولكنها تتراوح بين الضعف والقوة حتى بادت تماما عند شروق الشمس وهكذا ضرب النور ستارا بين ممثلى الرواية القطبية وسائر العالم. وصدرت صحف المساء — بعد الظهر — وعلى صفحاتها الأولى عنوان بحروف ضخمة سوداء مؤداها «ان كلمة واحدة لم تسمع من الروّاد الشجعان فى اثناء عشر ساعات» فاضطرب الجمهور وقلق، مع ان رجال اللاسلكى كانوا يعلمون ان الصمت ليس دليل الفاجعة ولكنه ناشئ عن تعذر التخاطب فى أثناء النهار بالأمواج القصيرة. وظل الجمهور مضطربا قلقا حتى وافت الساعة الرابعة مساء فأخذ ستار الليل ينسدل رويدا رويدا وأخذت الأشارات اللاسلكية تزداد وضوحا كلما زاد انسدال الستار. وما أقبلت الساعة الخامسة حتى كان العامل اللاسلكى النيويوركى يتلقى نبأ من الجنوب يفيد أن برد وصحبه حلقوا بطيارتهم فوق القطب الجنوبى وحاموا حوله، وان برد أوّل رجل بلغ القطب الشمالى عن طريق الجوّ هو كذلك أوّل رجل بلغ القطب الجنوبى عن طريق الجوّ. فيبعث العامل بالنبأ الى محرر نيو يورك تيمس. وهذا يستعمله ليحرز لجريدته فوزا صحافيا عظيما. انتهى ما أردته من مجلة المقتطف

المبحث الثانى

بين الشرق والغرب • حول زيارة تاغور لانجلترا

جاء فى جريدة الاهرام فى يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٣٠ ما نصه

لندن فى ٢٠ مايو — لمراسل الاهرام الخاص — أثارت زيارة رابندرات طاغور، شاعر الهند وفيلسوفها

الكبير اهتماما كبيرا فى انجلترا لأنه مضى وقت ليس بالقصير على زيارته الأخيرة لهذه البلاد ولأن لمؤلفاته مقاما كبيرا بين رجال الأدب الانجليز . وقد ألقى تاغور مساء أمس المحاضرة الأولى من محاضراته الثلاث فى قاعة المحاضرات بجامعة اكسفورد التى ازدحمت حتى الأبواب بينما لم يستطع الكثيرون الدخول بالمرة

ومن الملاحظات التى تسترعى الاهتمام أن الفيلسوف الهندى يقابل بمظاهر الترحيب أينما حل على الرغم من الحالة فى الهند والانباء التى ترد كل يوم عن انتشار الاضطرابات والقلاقل فيها . وكما ان دوائر الأندية الرياضية ترحب بدوليب سنهجن بطل الكركيت الهندى وتطلب أن يكون واحدا من الأحد عشر الذين سيمثلون انجلترا . فى المباريات التى ستجرى مع استراليا ، كذلك ترى رجال الادب . والعلماء يتهافتون على سماع طاغور و يقدمون فروض التجلة والاحترام الواجبة لهذا العبقرى العظيم

وربما كان الكثيرون على رأى جريدة المانشستر جارديان فيماقالته اليوم وهو : ان خير سفير للهند ليس المهاتما غاندى وانما هو طاغور الشاعر والمفكر فمن الصعب معاملة غاندى سياسيا لأن السياسة من أعمال الرجال العاديين أما غاندى فقديس ، والقديسيون رجال شواذ أما طاغور ففى وسعنا أن نتفاهم معه لأنه ليس قديسا بل شاعرا ومفكرا ، فهو من هذه الوجهة يستطيع أن يفهمنا و يعطف على أفكارنا نحن الرجال العاديين ، واذا قرأنا مؤلفاته أوسمعنا أقواله رأينا أن الهندى العادى لايختلف عن الأوربى العادى ، وان النزاع الأبدى بين الشرق والغرب ليس قضاء الطبيعة المحتم انتهى من جريدة الاهرام . تم المبحث الثانى

المبحث الثالث

آيات الله فى صحة جسمى بسبب تدبير الأغذية

فى هذا اليوم (١٥) مايو سنة ١٩٢٩ صباحا نظرت فى عضدى وفى جنبى وفى صدرى فرأيت أمرا عجبا ! وهذا العجب لاتعرفه أيها الذكى إلا بمقدمة فهاهى ذه :

لقد كانت أيام حياتى سلسلة تجارب فى الطعام والشراب ، ولقدتركت اللحم منذ نحو (٨) سنين ، ولما تركته وجدت تحسنا مطردا فى جسمى ، ولكنى وجدت هناك أمرا عجبا ! وجدت أن فى عضدى وفى جنبى وفى صدرى بقعا جلدية مخالفة للجلد فى اللون ، وهذه تارة تظهر وتارة تختفى ، وقد كانت كذلك قبل ترك اللحم ولكن لما تركته زاد ظهورها وتارة تختفى ، فأذهلنى هذا المنظر ، وقابلت الأطباء فوجدت أقوالهم لاتشفى من علة ، ولاتروى من غلة ، فقال قائل منهم : « خذ هذه الأعشاب واشرب منقوعها كل يوم » فلم يفد . وقال آخر : « كل الزيت الطيب وادهن به » . وأخيرا فحصنى طبيب أعلم ممن قبله . فقال : « هذا داء ليس معديا ، وليس له دواء ، وهذه البقع إنما تظهر فى الأعضاء التى لاتظهر للشمس وأكثر ظهوره فى زمن الصيف ، وسببه نقص فى التغذية » و بعد ذلك عملت تجارب كثيرة فلم تفد . ثم انى لم أعرف ماسبب نقص التغذية المذكور الى أن اطلعت على الكتب الطبية الحديثة . ورأيت فى كتاب الاستاذ ويلكوكس مايفيد أن الناس يأكلون الخبز من دقيق القمح الذى نخلوه . وأن ترك النخالة نقص فى التغذية . وأن الدم مركب من (١٦) عنصرا . وهذه العناصر كلها ثابتة فى البر . واذا ترك الناس النخالة ونحوها فمعناه انهم تركوا عناصر من دمائهم . إذن الناس بنبذ النخالة والمادة الأخرى المسماة سنا (بتشديد النون) من القمح إنما ينبذون قوى أبدانهم وصحة أجسامهم وسعادتهم

فلما قرأت هذا وأيقنت انه مبنى على العلم عرفت جهل هذا الانسان وغفلته وأن عقول الناس فى ناحية وأعمالهم فى ناحية فلم أتردد فى العمل بالعلم كما تقدم فى سورة طه وفى سورة الحجر فهذا المقام مستوفى هناك هنالك أكلت الخبز الذى يصنع من دقيق البر كاملا غير منقوص . وهاهى ذه سنة مرت على تلك الحال .

هذه هى المقدّمة

فلما أقبل الحرّ هذا العام نظرت فى جسمى وأعضائه المغطاة ، فرأيت أمرا عجبا ! رأيت البقع الملونة التى كنت أراها كل سنة لم تظهر . فقلت : ياسبحان الله هاهوذا الحرّ أقبل وتلك البقع التى عوّدتنى الزيارة كل سنة بالظهور على جسمى فى العضد وفى الظهر وفى الصدر وفى الجنبين لم تزرنى هذه السنة بعد أن أقبل الحرّ ، ولقد كان من شأنها أن تقبل اذا أقبل فصل الربيع والصيف و بعض الخريف ، فهاهىذه لم تحلّ بساحات جسمى ولم يكن لقدومها علامات ولامقدّمات ، ذلك انى كما قدّمت الآن آخذت آكل الفواكه والخبزالمذكور وزيت الزيتون والتمرغالبا ، وهذه الأغذية مستوفية ماتجب لجسم الانسان فليس يعوزهامواد أخرى ، فالبرتقال الذى آكله ومعه بعض الطماطم فى بعض الأيام فيه مادّة الفيتامين من درجة عالية وهكذا الخبز المذكورفيه جميع مواد التغذية . هاأنذا تركت اللحم والخضراوات هذه السنة واللبن واقتصرت على الفواكه والحبوب فصحّ الجسم وصحّ التفكير بحسب ماأعرفه وما أحسّ به من نفسى الآن وهنا أقول

ياسبحان الله : أريتنا ياألله آياتك فى أنفسنا وفى الآفاق ، ذلك ان هذا الجسم الذى سكنته نفسى مكوّن من مواد مخلوقة فى أرضنا ، وهذه المواد لها حساب وجهلنا بما نقبل منها وماتترك هوالذى جعلنا مرضى الأجسام تارة والعقول أخرى

سبحانك اللهم . أنت حكيم وقد ملأت أرضك بالحكمة وعلى مقدارنقصنا فى فهم مصنوعاتك تنقص صحتنا وعقولنا ومدنيتنا . هذا المثال الصغيرمثال جسمى مع العوالم الأرضية المحيطة بنا يبين لنا أحوال هذا الانسان . يظهر لى اننا لوعرفنا الحقائق حقّ المعرفة لكنا أمما راقية سعيدة سعادة تامّة فى الأرض

تبين لى أن نقص سعادتنا فى الأرض مبنى على نقص معرفتنا وعلومنا . تبين لى أن أمم الأرض لم يظهر فيهم حكماء وعلماء يظهرون جميع الحقائق ، ولوأن الأرض برز فيها أناس على هذا النمط لأصبحوا جميعا سعداء

فأوّل الشقاء وآخره الجهل ، وأوّل السعادة وآخرها العلم ، فبكاء الباكيات على الميت ، وحزن الحزين على الفقر والذّل وما أشبه ذلك كل ذلك للجهل الذى غطى على العقول

يظهرلى أن هذه الانسانية يوما مّا ينبغ فيها نابغون يظهرون ما كمن فى هذه الدنيا ، ومتى ظهر ذلك سعد الناس فى هذه الحياة نفسها ، وأكبر الحزن يكون للموت أوللمرض أوللفقر أوللذل وكل ذلك مبناه الجهل بهذا الوجود ، فلوعرف الناس ناموس الموت وأيقنوا بأن الميت انتقل الى عالم أعلى ، وهكذا لوانهم عرفوا الأسرارالمخبوءة فى الأغذية والأدوية والفواكه والملابس ودرسوهاحق دراستهاوعرفوامافى الطبيعة من عجائب واستعملوها لقلّ المرض والفقر و بطل الاستعمار وصارالناس أصدقاء

لاتعجب أيها الذكىّ من أن أقرن حال جسمى وصحته بحال الأمم والأفراد وأوصابهم وأحوالهم فانه لافرق بين الأمرين . نحن نعيش فى عوالم نجهلها وعلى مقدارجهلنا نحسّ بالآلام . إذن نقصنا مبناه جهلنا لاأقل ولاأكثر ، ودليلى على ذلك ما عرفته فى نفسى ، فانى لما أكلت المواد التى استوفت شرائط غذاء الجسم زالت البقع من جلدى ، ولما كنت آكل بلاعلم ولاهدى ولاكتاب منير كانت هذه البقع تظهرتارة وتختبئ أخرى . ولافرق بين جسمى وجسم العالم الانسانى كله فهو لما فيه من جهل يحارب بعضه بعضا غباوة وجهلا بحال الوجود وحال الانسانية . ومتى ظهر فيه حكماء وأعلموه بأن المعاونة العامّة خير وأبقى وأن يكون كل امرئ فى عمل خاص ينفع المجموع الانسانى فان هذا النوع الانسانى يصبح سعيدا ومتى حلت السعادة فى أهل الأرض لم يحسوا بحزن لأنهم يكونون قد عرفوا ماهوالموت وتقل الأمراض والعداوات بينهم لأنهم قسموا الأعمال فى الأرض على مواهبهم التى خلقت فى أجسامهم وعقولهم . هنالك يعلم أهل الأرض قاطبة أن المصائب التى تحلّ بالأمم و بالجماعات أشبه بالبقع التى كانت تظهرعلى جسمى وأن قيام كل فرد من أفراد الأمم

بعمل نافع فأتم مقام أحسن لجميع عناصر التغذية بطريق العلم . فههنا أمران ثانيهما مركب على أولهما فى جسمى وفى الأمم . فاذا قامت الأمم كلها فى الأرض كل منها بعملها الخاص لها ولجميع أفرادها فان المجموع الانسانى يصبح سعيدا كما ان جسمى لما أعطيته الأغذية الكافية لتغذيته ذهبت عنه تلك البقع التى تظهر على ماهو مستور منه ، واذا قصرت الأمم فى ذلك أو بعضها فان المجموع الانسانى تظهر فيه نقائص على مقدار التقصير كما ان جسمى أصابته البقع لما كنت أجهل أصول التغذية ، إن الأمم اليوم والأفراد سيان يتبعون شهواتهم وعاداتهم ، فالناس يأكلون و يشربون مقلدين لآبائهم أومتبعين حواسهم هكذا دولهم فى سياستها يتبعون التاريخ حذوالقذة بالقذة ، والتاريخ مملوء بالكيد والخبث والمكر

فليكن فى الأرض حكماء ، وليكن فيها نظم سياسية أرقى مما كان قبلا وذلك هوقوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ . فجسمى الذى حلت نفسى فيه ماهو إلا ذرّات مجتمعات من الآفاق وله ارتباط وثيق بهذه الآفاق فان جمعت ذرات جيدة باختيارى وعقلى كان جسما نافعا حسنا وان جمعتها بهيئة غير حسنة ولامرتبة ولامنظمة ضعف الجسم وتبعه العقل ، والسياسة العامّة فى الأمة كالسياسة الخاصة فى الجسم

يؤخذ من هذا كله اننا جئنا هذه الأرض لأمر واحد وهوالعلم ، فلاحرب ولامرض ولافقر ولالذة ولا ألم إلا لأجل حثنا على العلم وعلى مقدارعلمنا تكون أرواحنا فى درجات لها بعد مغادرة هذه الدار . انتهى الكلام على المبحث الثالث والحمد لله رب العالمين

اللطيفة السابعة

فى قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ الخ

إيضاح بعض كلام الشيخ الدباغ

فى مسألة الجنة والنار والتوحيد

هنا سألنى صديقى العالم . فقال : يقول الشيخ الدباغ إن على وجه الأرض عجائب لوشاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا الى دليل ، فمنها مابه تعرف الوحدانية ، ومنها مابه يعرف وجود الجنة ، ومنها مابه يعرف وجود النار ، وكل ذلك بلا إقامة أدلة على ذلك . فأنا أرجو أن تشرح لى هذا المقام . فقلت : ياسبحان الله أوتظن انى فى مقام الشيخ الدباغ حتى أطلع على ما يعرفه ! نحن قوم كلفنا بالنظر والبحث العقلى . فقال : ولكن أرجو أن أسمع منك ماتتوجه نفسك اليه فى هذا المقام ، ولست أطلب منك ماهوفوق متناول عقولنا لأنى أعلم انك تخاطب العقلاء عموما لا أهل الكشف وحدهم ، ثم إن أهل الكشف وان كثروا فى الاسلام فانهم لم يحدثوا فى الأمم الاسلامية رقيا عاما ، فعلومهم خاصة بطائفتهم . فقلت : أما اذا أردت هذا فانى أقول مايفتح الله به الآن . فقال : أىّ العجائب تعرّفنا التوحيد بلاإقامة دليل ؟ فقلت : جميع العجائب التى وردت فى هذا التفسير وأمثاله تعرّفنا الله بلا إقامة دليل . فقال عجب هذا ! إن نفس العجائب أدلة أومقدمات لأدلة فقلت : إنه يريد ان بعض العجائب حين نشاهدها تكاد تخترق القلوب ويحصل للنفس انفعال برؤيتها وتنتقل النفس من هذا المخلوق الى خالقه وهذا هومقصوده فيما أظنّ أنا . فقال : مامثال ذلك ؟ فقلت : مثاله أعين الذباب وأعين النمل . هذه حشرات صغيرة يزدريها الانسان وهى تعيش على ما تعافه النفس من القاذورات والعفونات والقمامات والفضلات ، وعلى ماهومنبوذ من الحبوب وفضلات الخبز والقطع المنثورات فى الأرض وقد جعلت أشبه بالكناسين والزبالين لأنها تنظف الأرض من عفوناتها ومن بقايا فضلاتها وتحيله الى أجسامها ومع هذا كله تراها قد أعطيت عيونا كثيرة ، فالنملة فوق (٤٠٠) عين كل عين مستقلة عن الأخرى ،

وللذبابة نحو أربعة آلاف عين كل عين مستقلة عن الأخرى . ومعنى هـذا أن للنملة خمسة عيون ثلاثة منها مفردات موضوعات على هيئة مثلث والاثنتان منها موضوعتان فى مقدّمة الوجه بهيئة أعيننا نحن وفى كل واحدة منهما نحو مائتى عين ، ومثـل ما قلنا فى النملة نقول فى الذبابة ، ولـكن نذكر أربعـة آلاف عين فيها بدل (٤٠٠) عين . فقال : هذا عجب ! وهل العقل يتصوّر ذلك ؟ فقلت : إذن أنت لم تقرأ ماتقدم فى ﴿سورة النمل﴾ وأن هناك رسالة سميتها « عين النملة » وفيها هذا المقام موضح . فقال : ورأيت بنفسك عين النملة انها مركبـة من مائتى عين والعينان معا فيهما نحو (٤٠٠) . فقلت إى وربى رأيتها بعينى رأسى أراها لى صديقى شوقى بك بكير فى منزله بمدينة حلوان تحت المنظار المعظم وهو من كبار علماء التاريخ الطبيعى ، وصلتى به انه كان قبل ذلك تلميذى بالمدرسة الخديوية . فاذا رأى العاقل مارأيت أنا فى النمل أوفى النحل أوفى الذباب فانه لايسعه إلا أن يتذكر الخالق عند النظر الى هذا الجمال فى المخلوق . فقال : أريد أن أسأل سؤالا آخر ؟ فقلت : سل مابدا لك . فقال : لِمَ جعل الله هذه العجائب التى فوق طوق البشر فى أحقر حيوان . فقلت : ذلك من مقصود كلام الشيخ الدباغ . قال : وكيف ذلك ! فقلت : إن الابداع والاغراب اذا ظهر فى جميل بهىّ الطلعة حسن الشكل مرغوب فيه لم تـكن له روعته فى الحقير المنبوذ . النفس الانسانية يدهشها أن ترى فى الحقير المنبوذ حكما لاحدّ لها بل ترى أعظم جمال وأجلّ حكمة فى الحقير

ترى أربعـة آلاف عين ، وكل عين لها طبقات ورطوبات وألوان فى داخلها وعجائب ونظم مدهشة ، واذا فقئت إحـداها لم تعطل البقية كما هو واضح هناك . فهذه عنـد العقلاء أشبه بمن كان يحفر فى منزله فعثر على كنز فجأة فهذه المفاجأة فى الـكنز يقابلها المفاجأة فى أمر عجائب الحشرات مثلا . فكما أن الفقير اذا عثر على كنز دهش وحصلت له حال غريبة وانفعال ، هكذا العاقل اذا اطلع على هذه العجائب فى أحقر المخلوقات فانه يجد فى نفسه حالا عجيبة تذكره بالصانع من غـير استدلال بدليل وذووالعقول الصافية فى نوع الانسان لايسعهم تلقاء هذه العجائب المدهشة (فى الامور الحقيرة التى ليست محلا للجمال بحسب العادة) إلا التعجب وهذه الحال لايحلم بها ذلك الذى قرأ علم المنطق وعرف الاشكال وقرأ علم التوحيد المعروف وأخذ يقرأ تلك البراهين فيدخل فى ساحات وأحوال عويصة ويتسرّب الشك الى قلبه من حيث لايشعر لاسيما اذا قرأ أدلة الحدوث والقدم التى نقلت عن اليونان . وقد تبين فما نقلته عن علماء الفرنجة فى نفس هذا التفسير أن أكابر فلاسفة اليونان كانوا يقولون أيام سقراط « ان العالم حادث » بطريقة مشوّقة تقدّمت فى هذا التفسير فبعض ماجاء فى كتب علماء التوحيـد والفلاسفة مربك للعقول مهوّش للأذهان نقلوه عن علماء الاسكندرية أيام دولة الرومان بمصر وهؤلاء كانوا مقلدين . أما طيماوس الحـكيم الذى كان أيام سقراط فقد شرح هذا المقام ونقلت بعضه فى مواضع فارجع الى بعضه فى سورة الروم وغيرها . فقال الآن فهمت كيف كانت تلك العجائب مذكرة بالله فـكيف تـكون تلك العجائب مذكرة بالجنة والنار وبها يعرف الانسان أن هناك بعد الموت جنة ونارا مع ان الجنة والنار من السمعيات . واذا كان العقل لايصل الى السمعيات فـكيف توصل اليها مناظر العجائب . فقلت : ما الجنة ولا النار إلا داران ممتازتان . فإحداهما فيها كل محبوب . وثانيتهما فيها كل مكروه . ونحن فى هذه الأرض لانعرف المحبوب إلا ماوافق حواسنا الخمس من صور جميلة ونغمات لذيذة وروائح طيبة وطعوم لذيذة وملموسات موافقة كأن تـكون ناعمة مثلا . ذلك للبصر والسمع والشم والذوق واللمس وهكذا إذا تخيلنا تلك الصور ولـكن حضورها فى الخيال أقلّ لذة من حضورها فى الحسّ وهكذا المعانى الشريفة الموافقة لعقولنا من العلوم البهجة وانـكشاف الحقائق بالبراهين واقتناع النفس بالمعلومات . فهذه بهجتنا . فلـكل قوّة فينا بهجة تناسبها . فالمعقولات بهجة للعقل . والمحسوسات بهجة للحسّ . والصور الخيالية بهجة لخيالنا . فهذه المذكورات هى مجامع مانحبه فى هذه الدنيا . والذى نـكرهه يقابل ذلك فـكل قبيح صورته مشوّه خلقته أوغير طيب الرائحة أوغير متزن النغمات

أوغير لذيذ الطعم أوغير ناعم مثلا فاننا نكرهه كما نكره تصوره فى خيالنا . وهكذا خلوّ عقولنا من العلوم وجهلها وغباوتها وعدم معرفتها حقائق الأشياء وتخبطها فى المعارف تخبطا يزرى بها . كل ذلك مكروه عندنا . إذن الجنة دار تجمع ما نحب وجهنم دار تجمع ما نكره ، ولكن الحياة الدنيا فيها ما نحب وما نكره معا ، فيها امتزج المحبوب بالمكروه . وأصحاب العقول النيرة اذا طافوا فى هذه الأرض ودرسوا هذه العجائب يدهشون من نحو ما سأذكره ويحصل لهم علم من غير كدّ ولا نصب بالجنة والنار . فقال : هذا هو الذى سألتك عنه وكيف ذلك ، فقلت ارجع الى مثل الذباب والنمل مع جميع الحشرات ، ألست ترى أن الذباب والحشرات خلقت لتنظيف الجوّ كما تقدم لأنها هى وأمثال الناموس والخنافس وغيرها تغتذى بالمواد الفاسدة التى لو بقيت لهلك الانسان والحيوان . فقال بلى . فقلت ألست ترى أن الأغذية على قسمين : قسم هو طعام شريف مثل الحبوب واللحوم والحشائش وأمثالها وهذه يأكلها الانسان وذوات الأربع من نحو الأنعام والسباع . قال بلى . قلت وقسم هو قاذورات تغتذى بها الحشرات كما أوضحته الآن . قال بلى . قلت ألست ترى أن ما هو قاذورات على قسمين : قسم هو بقايا الرمم الملقاة فى الفلوات عقب الغزوات والحروب والاهلاك والتدمير وافتراس الحيوان فى البرارى والقفار . وقسم ليس كذلك بل هو عفونات وقاذورات ليست ناشئة من افتراس الحيوانات المعروفة ولا من قتال الانسان . قال بلى . قلت : لننظر فى أمر هذا الانسان الذى يسمع بالجنة وبالنار فاننا نجد له عقلا وهذا العقل لا تخلو حاله من حالين لا ثالث لهما ، فهو إما أن يتحلى بالحكمة وادراك الحقائق ، واما أن تكون سلوته بالغيبة والنميمة والشماتة وتتبع العورات والفتك بالأعداء ومسابقة الأقران وحوز الصيت والمال والملك وما أشبه ذلك

فاذا أغرم العقل بالحكمة والعلم وادراك الحقائق فان غذاءه أشبه بالغذاء الشريف فى المحسوسات كالفاكهة والحب والخضراوات من كل ما هو غذاء للحيوانات المعروفة والانسان . فأما اذا كانت لذاته خاصة بتفوّقه على الأقران أوشماتته فى الأعداء أوانتقامه منهم ، فهذا الغذاء العقلى يشبه غذاء الحيات بالضفادع وغذاء الصقور والنسور والشواهين والكلاب بالرمم الملقاة فى الفلاة ، وتكون منزلة هذه العقول لا تزيد فى معقولها على منزلة الصقور والكلاب فى تعاطى رممها ، واذا كانت لذات العقول لا تغادر حوز العقار وبناء الدور وشراء الحقول وحوز المال والدرهم والدينار ، فهى فى درجة الذباب فى أكل القاذورات والعفونات

وبهذا الايضاح صارت الدرجة الثانية درجتين : درجة القوّة الغضبية ، ودرجة القوّة الشهوية . هذه هى الدرجات الثلاث للعقول فى هذه الأرض . فهى إما عقول تحب الحقائق ، واما عقول يغلب عليها الفخار والانتصار ، واما عقول لا تفرح إلا بالمال والشهوات الحيوانية فى مقابلة الأغذية الثلاثة المتقدمة لذوات الأربع ولنحو الطيور الكواسر ولنحو الذباب . ولن يخلو عقل على هذه الأرض من هذه الخصال الثلاث

اجلس مع من تشاء وحادثه فانه يهش ويطرب لما يناسبه من حكمة ، أومن ذكر الحرب والضرب ، أومن ذكر لذات الأجسام الحيوانية

فاذا سمعت الرجل فخورا برفع القضايا والانتصار أمام القضاة فهو من الفريق الثانى ، أو بحوز المكاسب والمال فهو من الفريق الثالث ، أو بالعلم والحكمة فهو من الفريق الأوّل

هذا هو نوع الانسان أوّله وآخره عقولهم جميعا موزّعة على المعقولات الثلاثة كما وزّعت أنواع الحيوان على أنواع الأغذية

فقال : أحسنت لقد فهمت هذه الثلاثة وقد كانت فى أوّل مقالك لى غامضة علىّ ولكن الآن وضحت لى وضوحا تاما مع ملاحظة أن ذكر الحيوانات وأغذيتها فى هذا المقام مجرّد تنظير لتقريب الفهم ، ولكن الى الآن لم نصل الى الحقيقة التى سألتك عنها وهى ان النظر فى هذه العجائب يكون معرّفا بالجنة والنار . فقلت

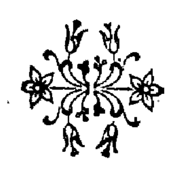
(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبيه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وهاهوذا :

صحيفة	سطر	خطأ	صواب	صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٦	٢	لعقل	العقل	١٢١	٢١	الحيديثة	الحديثة
٧	٥	ولاتقربو	ولاتقربوا	١٢٨	٩	الكلام هنا عن	فى الكلام هناعن
٨	٣	بالنجارات	بالتجارات			أهمّ المفادن	أهمّ المعادن
١٠	٢٣	برسب	يرسب	١٣١	١١	غيرعربية	عربية
١٢	٢٣	نسبتها الينا	نسبتنا اليها	١٣١	١٢	« «	«
١٢	٣١	وعتثل	وتمتثل	١٣٦	٢٦	وأليم	واليم
١٣	٩	سورة الصافات	سورة النازعات	١٣٦	٣١	خصب	حصب
١٤	١	من أضوأ	أضوأ	١٣٧	٢١	السمارى	السومرى
١٤	٧	ويدبر هؤلاء	ويدبر هؤلاء	١٣٨	١٨	إ	إذ
		ويدبر هؤلاء		١٣٩	١٦	ثلاث	ثلاثة
٢٥	١٣	لطيفة	المقصد الثانى	١٣٩	٢٢	لسانهم عربى	لسانهم غيرعربى
٢٩	٩	أحد	إحدى	١٤٢	٢٢	مضرالذى	مضرالتى
٢٩	٣٥	الىّ	الى	١٥٢	١٦	علا ات	علامات
٣١	٢٥	ويحسّ اللس	ويحس باللمس	١٥٣	٩	ذكرهما	ذكرها
٤٤	١٦	لنعرفهم	لتعرفهم	١٥٦	١١	وككون	ولكون
٤٥	١٤	عقد	عند	١٥٦	١٧	كانت	لكانت
٥٢	٢٣	كليكنا	انكلترا	١٦٦	٣٠	ولايعذب	ولايعزب
٥٤	٢٠	روفرتها	ووفرتها	١٧٦	١٩	تجب	وتجب
٥٤	٣٠	نقد	نفد	١٧٦	٣٤	المنارعات	المنازعات
٥٤	٣٣	وكلا	وكلما	١٨٥	١٥	قد كان بمصر	قد كان بها
٩٤	١٩	وذلكم ظننتم	وذلكم ظنكم	١٩٣	٣٠	هنبال	هنيبال
٩٤	٢١	المرضيين	المرضين	٢٠٢	٣٣	واللاتينية	والأثينية
١٠٢	٣	وآراؤه	وآراءه	٢٠٦	٨	روحه	
١١٣	٢٣	ثم اتبع	ومن قبل ذلك اتبع	٢٠٧	١٨	وهوخالقها ومبدعها	وهوسببها
١١٤	٢٢	مليون	المليون	٢٠٨	٦	منكرين	منكر
١١٥	٣٠	تسكنه	نسكنه	٢٠٩	١٠	سيكون	فسيكون
١١٦	٥	انثارشكل	شكل	٢١٠	١	مفارقتها جسدها	مفارقتك جسدك
١١٧	٤	كلالات	كذلك	٢١٠	٩	يجرى	يجرى

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢١٣	٣٤	الحاد	الجاد
٢١٧	١١	ثابت	غير ثابت
٢١٧	١٩	للعذف	للعزف
٢١٨	٢١	يتمسكن	يتمكن
٢٢٠	١١	ففد	فقد
٢٢٤	١٤	بالصحانين	بالطحانين
٢٢٥	٢٠	أقسمان	قسمان
٢٢٥	٢٨	فماذا يجد يجد	فماذا يجد
٢٢٥	٣٠	يه	به
٢٢٥	٣١	الأوض	الأرض
٢٢٦	١٠	و٥٣	و٥٣ و٥٤
٢٢٨	٣	كثيرا ما	وكثيرا ما
٢٢٩	١٤	هناك	هناك وانجل بعضه هنا فقول
٢٣٣	٤	الجذر	الجزر
٢٣٤	٣٤	غدوت الى نظرتان	غدوت ولى نظرمان
٢٣٧	١٨	اللحوم*وللوحش	اللحـــوم ولا*وحش
٢٣٨	٣	العائبة	الغائبة
٢٣٨	١١	اختلقوا	اختلفوا
٢٣٩	١٢	ومن هم	ومن
٢٣٩	٢١	هائمون	هاؤون
٢٤٠	١٧	ساروا يكونون	ساروا و يكونون
٢٤٢	٣	لزيادة المناطق	لزيارة المناطق
٢٤٢	٢٦	رويد رويدا	رويدا رويدا
٢٤٣	١١	والقديسيون	والقديسون
٢٤٣	٢٩	نابتة	ثابتة
٢٤٨	١٣	هكذا تكون	فهكذا تكون

﴿ تمت ﴾



فهرست

(الجزء التاسع عشر)

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

صحيفة

٣٠ ذكر الأنعام وانها ثمانية أزواج ، وهذا يقتضي تقسيم الحيوان الى أنعام وغير أنعام ، فهذا من القسم المقابل لما في الآية ، وفي هذا المقام يقسم الحيوان الى ناقص الخلقة وتام الخلقة ، والأول مقدم على الثاني ويقسم أيضا الى أشرف وماهو أقل شرفا وذلك بحسب الحواس ، فهو إما ذو حاسة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس ، فذو الحاسة كالدود في حب الثمار ، وذو الحاستين كالدود الذي على ورق الشجر وزهره ، وذو الثلاث فلا سمع له ولا بصر وهو الحيوان الذي في قعر البحار والأمكنة المظلمة غالبا وذو الحواس كلها ماعدا البصر وهو الهوام والحشرات التي تدب في المواضع المظلمة مثل (الخلد) والكامل مافوق ذلك وبيان أن منها المتدحرج والزواحف والذي ينساب أو يدب أو يعدو أو يطير أو يمشي ، وهذا له رجلان أو أربعة أو ستة أو ثمانية أو أكثر ، والذي يطير من الحشرات ماله جناحان وأربعة وستة أجنحة ، ومنها ماله حمة وقرون ومشافر ومخالب وخرطوم ، ومنها ماله فكر وروية وتمييز وتدبير وسياسة ، ومنها ماله أعضاء مختلفة مهندسة مفصلة مغطاة بالجلد وعليه الشعر والوبر والصوف والريش والصدف والفلوس خارجا ، وفي الداخل الدماغ والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتان والمثانة والأمعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكرسي والحوصلة والقانصة ، وفي الظاهر الأرجل والأيدي والأجنحة والأذناب والمخاليب ، وههنا الفرق بين البهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح والهوام والحشرات . وبيان أن كبير الجثة يمكث في الرحم طويلا لتدور الشمس دورتها فيستكمل في الرحم ، وهذه خلقت أولا عند خط الاستواء ثم تناسلت وانتقلت الى مواطن أخرى ولكن أرحام الاناث حفظت تلك الحرارة . وبيان أن الناس يتعجبون من خلقة الفيل وهم لو علموا لتعجبوا من خلقة البقة أكثر لأن لها أرجلا أكثر وتزيد الأجنحة وغيرها ومع ذلك هي تؤذيه . هذا بالاجمال تقسيم المتقدمين . أما تقسيم المتأخرين فهم يقولون إن الحيوان إما ذو خلية واحدة وهو الأدنى ، واما ذو خلايا ، والأول كحيوان الملاريا الذي لا أعضاء له ويعيش في الكرات الحمراء في الدم ، وذو الخلايا الكثيرة منه الاسفنج وحيوان المرجان وذو الجلد الشوكي وقنفذ البحر والديدان المفرطحة كدودة الكبد والبلهارسيا والديدان الاسطوانية كدودة الانكلستوما وكالدودة الحلقية والمفصلية ومنها الحيوانات الرخوة والفقرية ومنها السمك والضفادع والزواحف والطيور وذوات الثدي . والحيوانات السبعة المتقدمة من ذوات الفقرات فهي مشاركات للمذكورات في الآية وهي الأنعام . فأولها السحالي وهي من أنواع الورل (شكل ١) صحيفة (٣٤) وهي حيوانات نافعة للانسان لاضرر منها . وثانيها الأبراص جمع برص وهي حيوانات نراها في منازلنا ونظن جهلا انها ضارة وهي نافعة فوجب أن لاتقتل (شكل ٢) صحيفة (٣٥) وكذلك الحرباء (شكل ٣) صحيفة (٣٥) وهي حيونات نافعة أيضا

٣٦ الثعابين منها ماهو سام (شكل ٤) صحيفة (٣٦) وشكل ٥ صحيفة ٣٧ والثاني هو الكوبر المصري أي الناشر . والحية المقرنة (شكل ٦) صحيفة (٣٨) والثعبان ذو الجرس (شكل ٧) صحيفة (٣٨) وهناك ثعبان غير سام وهو في القطر المصري كثير وهو رملي يميل الى الاحمرار عليه بقع ذات لون بني وسطه السفلي أصفر وهذا هو الذي يحمله الحواة (المشعوذون)

٣٩ (شكل ٨) صورة ثعبان يسمى (البيتون) وهو أيضا غير سام

الكلام على ثعابين السمك وهي قسمان : قسم يعيش في أنهار أوروبا وشمال افريقيا . وقسم يعيش في أنهار الولايات المتحدة التي تصب في المحيط الاطلانطيقي . ومن ثعابين السمك نوع بمصر (شكل ٩) في صحيفة (٤٠) وأكبرمدة يتم فيها نمو ثعبان السمك سبع سنين . ومتى تم نموها تجتمع وتهاجر من الأنهار

وتترك

وتترك مصابها وتنزل فى البحر الى بوغاز جبل طارق فالمحيط الاطلانطيقى فجزائر برموده القريبة من الولايات المتحدة وثعابين أنهار أوروبا تفعل هذا كله ، وهناك تضع الاناث بيضها وتفرغ الذكور مادّتها المنوية عليها فى الماء فيتم اخصاب البيض وربما تضع الأنثى أكثر من مليون بيضة ، ثم يموت الذكور والاناث وتخرج الذرية وترجع الى المحال التى خرج منها آباؤها وأمهاتها وهى لم ترهنّ

٤١ ولن تضلّ ذرّية ثعابين السمك الأمريكى ولا الافريقى طريقها بل كل يرجع الى المكان الذى خرج منه الآباء والأمهات

٤١ الكلام على دودة الأرض (شكل ١٠) وهى ذات أشواك صغيرة ولها جلد رطب مخاطى

٤٢ وترى فى (شكل ١١) حجمها مكبرا والذى تقدم هو حجمها الطبيعى ، وهى تخرج أثناء الليل لتبحث عن غذائها فتأكل الفضلات من الأوراق والأزهار الساقطة وتسحبها الى داخل الأرض ، وكذا بذور النبات والبويضات والحشرات والديدان وهى تتوالد

٤٣ (شكل ١٢) رسم دودتين فى حالة الاجتماع ، وهذه لها منافع للناس ، فهى لصيد السمك ، ولغذاء الطيور ، وهى تحرث الأرض فيدخل الهواء فيها ، وتساعد الجذور على التعمق فيها ، وبأكلها الطين يدخل فيه مواد عضوية فيكون سمادا ، وهى بقذفها الطين ترفعه الى سطح الأرض فيقابل الشمس فهى أشبه بالمحراث ، وتسحب الأوراق الى بطن الأرض فيكون سمادا ، وقد يكون فى الفدّان الواحد من أرض الحدائق (٥٣) ألف دودة يمر من أجسامها (١٠) أطنان من التربة وهو يغطى نصف سنتيمتر تقريبا

٤٤ ﴿ العلق ﴾ تعيش فى المياه العذبة فى البرك والمستنقعات وبعضها فى الأرض الرطبة وهى تعيش فى الدم وهى خنائى وهى تتعلق بكل حيوان تعثر عليه ، وأهمّ هذا النوع هو العلق الطبيعى

٤٥ الكلام على الحدأة ، وبيان انها تأكل صغار الدجاج والبط والأوز والجرذان والضفادع والثعابين والسحالى ودود الأرض والحشرات والرمم ، وهى مفيدة جدا فى تنظيف الشوارع من الرمم وسطوح المنازل من بقايا المآكل ، وضررها أقلّ من نفعها

خاتمة فى الحيوانات النافعة مثل المذكورة فى يوسف عليه السلام

٤٦ تجارة الجراد فى بلجيكا ، وبيان أن الحكومة المصرية اليوم لم تستيقظ لمنفعة الجراد الذى هجم على مصر مع ان فى بلجيكا شركة تصنع منه زيتا ، ولم تبال بالطلب الذى قدّم اليها ، فعلى من بعدنا أن يربوا الحكام تربية أرقى من هذه لأنهم لو باعوه لعوّضوا النقود الضائعة فى مطاردته

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ فى قوله تعالى ـ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ـ الخ مع ملاحظة آية ـ خلقكم من نفس واحدة ـ وقوله ـ لا إله إلا هو ـ فهنا وحدة النفس المتصرّفة فى الأعضاء ووحدة الله ، ولا فرق بين وحدة نفوسنا مع كثرة أعضائنا وبين وحدة ملكة النمل وملكة النحل وملكة الأرض (جمع أرضة) . وقد وصل تيار ممن وصلوا الى القطب الجنوبى الى الذين فى الممالك المتحدة فى لمح البصر بمجرّد الضغط على الزر . إذن اتصال الخبر بين النمل والنحل بنفس طريقة كطريقة الراديوم إذن العالم ذو وحدة لها محرّك واحد وبه نفهم ـ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ـ

٤٨ ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى ـ الله الذى جعل لكم الليل ـ الى قوله ـ كن فيكون ـ وفيها ذكر الليل والنهار ، وخلق كل شىء بسبب هذا التعاقب وأن الأرض قرار ونظام خلقنا وتدرّجه وحياة كل حىّ وموته ، فى هذه المسائل الخمس تدخل العلم الطبيعى والالهى والفلكى

صحيفة

٤٩ إن الحرارة والبرودة فى الأرض يرجعان الى الليـل والنهار ، والحيوان والنبات موزّعان على مناطق الأرض المختلفة بسبب سير الشمس ، ثم إن المكان الذى كثر نباته أوقلّ لايعيش فيـه الانسان ، أما الذى اعتدل نباته فهوالذى يمكن عيش الانسان فيه ، فالغابات الاستوائية والأقطار الباردة لايصلحان لسكناه ، فالانسان كما وجب الاعتدال فى أخلاقه وجب الاعتدال فى محل سكنه ، ومن عجب أن جسمه مفصـل على مقتضى هذه العوالم حوله ، فأعضاء الحسّ للعلم بالموجودات ، والرجلان لحركة الانتقال ، واليدان لحركة العمل فكأن الانسان الورقة المصوّرة بصورة الشجرة وهى هذه الدنيا . إذن العالم مقسم على أعضائه علما وعملا كما تقدم فى أوّل ﴿ سورة ص ﴾ وهذا الانسان اليوم جاهل لم يدرس جسمه ومن درس جسم الانسان وجسم العالم عرف أن الانسان والعوالم حوله أشبه بالروح والأعضاء الجسمية فكما أن أعضاءنا مطيعة لأرواحنا هكذا العوالم حولنا يجب أن تطيع الانسان والانسان سائر الى هـذه الحال ، وأضرب لذلك مثلا : رجلا بنى لأبنائه بيوتا منفصلة بماء البرك وهم ينتقلون الى بيوتهم بالسفن والأبنية لاتبلغ إلا الثلث والباقى ماء ، وبهذه الطريقة كانوا يتحاربون ، وهـذا القتال هو السبب فى نشاطهم ومعرفة أسرار الماء والأرض وهكذا ، وفى آخر الأمر قرّ قرارهم على مايأتى :

ذلك ان أحدهم . قال : أيها الاخوة إن أبانا حكيم لأنه لم يشأ أن يعطينا مجانا بل أرادأن نفكر بأنفسنا . انظروا . ألسنا نحافظ على الطيور كالزقزاق البلدى والشامى وأبى قردان ونحافظ على البقر والجاموس ، فهذه قد أجمعنا أننا اذا أكلناها ولم نبقها لتنفعنا فى زرعنا إما بالتقاط الديدان وإما بالحرث والسقى فاننا نهلك لامحالة ، وهذا برهان يقينى واذا حافظنا على العنكبوت لأكله الذباب وعلى الحشرات لمنفعتها أفلانحافظ على الانسان نفسه الذى اذا أبقيناه ساعد مساعدة أتمّ من مساعدة الحشرات وغيرها وبهذه زال الحرب بينهم ، الأب ضرب مثل لله تعالى والاخوة بنوآدم والمنازل هى القارّات والماء هى المحيطات المعلومة . إن الانسان لم تقتصر العـداوة على أن تكون بين أفراده بل انه حرم من المناطق الباردة القطبية والحارّة الاستوائية المملوءة نعما وخيرات لاحدّ لها . انه لم يحظ إلا بسكنى المناطق المعتدلة أما غيرها فلا . إذن هذه المناطق مخبوءة لهذا الانسان وهى عاصية عليه حتى يجتمع كله و يتحد و يصبح جميع الناس أمة واحدة وهم أولى بالاتحاد فى هذه الأعمـال من اتحادهم مع أبى قردان والجاموس والبقر تلك الحيوانات التى اتحدت معهم فى المنفعة ، فهل منفعة الانسان أقلّ من منفعة الحيوان ! إن الانسان جهول والأنعام اليوم أرقى منه . اللهم إنى أشـكو اليك هذه الأمم ، وأهل أمريكا يقتلون السود جهلا وخبثا لمجرّد اللون . وأهل انـكلترا يطردونهم من مطاعمهم لمجرّد اللون

٥٣ الانسان وتوزيعه على المعمور . شروط صلاحية القطر للسكنى . مغالبة الانسان طبائع الأقطار التى يسكنها أسباب قلة سكنى الغابات الاستوائية وموازنتها بالغابات المعتدلة . التغيرات الفصلية تعدّ القطر للسكنى وهكذا التغيرات الدهرية . الحرف وتأثيرها فى عدد السكان

٥٧ أسرار العلوم المخبوءة فى هذه السورة ، وذكر خمسة أسئلة (١) الذنوب ومغفرتها (٢) الـكفر والايمان (٣) محاورة مؤمن آل فرعون (٤) محاجة الـكفار فى النار من المستكبرين والضعفاء (٥) مايقوله بعض المفسرين فى آية ــ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ــ فان ابن عباس يقول : إن ذلك اشارة الى الدجال وأن الآية ردّ على اليهود الذين يقولون إن الدجال يرجع لهـم ملـكهم . والاجابة على السؤال الأوّل والثانى أن الآلام كالضرب والـكسر والصدم والجرح والأسقام كلهامنذرات . واللذات نصف الرحمة والآلام نصفها الآخر . ثم ان ماتقدم فى أوّل سورة الزمر من أن فى الجوّ (١٦) طبقة سببها

صحيفة

الغبار والدخان ، وهذه الطبقات تحجب ضوء الشمس صباحا بحيث يكون أقل (١٣٥٠) مرة منه وقت الظهيرة . وهذه الحجب ودخانها الضارّ بأجسامنا المقصر لأعمارنا أصبح نعمة ، فنفعه أكثر من ضرّه ، فهكذا الذنوب فهى منعت افاضة العلوم على عقولنا دفعة واحدة لئلا نهلك . ثم ان الأرض أسرع قبولا للحرارة من الهواء وأسرع تخلصا والماء بالعكس وهكذا كل حيوان أونبات أبطأ فى النمو كان أكثر نفعا والعكس بالعكس . فهناك فرق بين النخل والقرع و بين الحصان والكلب . وهكذا هناك فرق بين الهرم و بين أبنيتنا من حيث الاتقان المناسب للدوام . هكذا الكافر والمذنب اذا صلح حالهما بعد العناء الشديد كان صلاحهما وإيمانهما أتمّ لأنه بعدعناء . وهذا هو السرّ العام فى كل مانحن فيه من الشقاء والنصب فى هذه الحياة

٦٠ ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى محاجة مؤمن آل فرعون لقومه وفيه ثلاثة جواهر

٦١ الجوهرة الأولى فى لمحة من تاريخ قدماء المصريين وهذا التاريخ ثلاثة أدوار: الدولة القديمة ، والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وتاريخ الدولة القديمة يبتدئ بالملك (مينو) الذى جمع ملك الوجهين البحرى والقبلى وعاصمته (تانيس) أوطيبة بجوارجرجا ، ثم انتقلت العاصمة بعدذلك الى منفيس عند ميت رهينة بقرب القاهرة ، وهناك شيد (زوسير) الهرم المدرّج وسنفروهرمى ميدوم ودهشور وخوفو وخفرع ومنقرع اهرام الجيزة الثلاثة وساحورع ونوفرارقرع وامرنرع وأوناس وتيتى و بيبى الأوّل والثانى ومرنرع الأوّل والثانى ، فهؤلاء منهم من شيد اهرام أبى صير والمعبد الشمسى ، ومنهم من شيد اهرام سقاره . ثم تلتْ هؤلاء حروب وجاءت الدولة الوسطى ، وهؤلاء من الوجه البحرى ، وجعلوا مدينة طيبة مقرّهم ، وحكموا النوبة ، وأقاموا المعابد بطيبة ، وشادوا اهرام دهشور واللشت والفيوم ، و بنوا قبور بنى حسن والبرشه ومسلتين من حجر الصوّان إحداهما بالمطرية ، والقصر الذى هو شرقى بركة قارون . ثم نقلت فى الأسرة الرابعة عشرة الى الوجه البحرى فى (سخا) ثم سقطت الدولة ودخل الهكسوس وجاءت الدوله الحديثة فرجعت الى طيبة وعظمت مصر وعظم سلطان الكهنة ، ثم أصبحت العاصمة (صاالحجر) بالغربية وتل بسطه بالشرقية . وفى هذا الوقت ابتدأ الانقسام فدخل الآشوريون وضعفت مصر ثم دخل الفرس ثم دخل اسكندر المقدونى . كل ذلك بالانقسام . والمهمّ فى الآية أن هذه الأمة وأمة العرب فى الأندلس متشابهتان فى الانقسام فالمصريون عبدوا الطير والسمك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب كما تقدم فى ﴿ سورة النمل ﴾ واقتتلوا على ذلك ومتى خربت العقول ضاعت الأمم . وهكذا الأندلسيون افترقوا عشرين دولة صغيرة فأهلكهم الاوروبيون . وهذا هو السرّ فى قول مؤمن آل فرعون لهم ـ ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ـ الخ فبأس الله هو التفرّق والانحلال الذى جاء بعد هذه النصيحة لأنه كان فى الدولة الوسطى . وأعقب ذلك الزمن الدولة الحديثة التى كانت هى انتهاء دولة المصريين كما انتهت دولة العرب فى الشرق والغرب بنفس هذا الانقسام بعينه ومينه مع خراب العقول وضياعها بالتقليد الأعمى . وهذه هى حال المسلمين اليوم . ولقد فعل الفرنجة بأهل مصر فى زماننا ماحصل لهم أيام الفراعنة . فأولئك لما أراد الله اهلاكهم سلط على عقولهم الخرافات فجعلوا الحيوانات فى الدرجة الأولى من الالوهية والمعبود الحق فى الدرجة الثانية فتفرّقوا . وهنا تفرّقنا نحن بسبب المبشرين المنبثين فى البلاد الذين زلزلوا عقائد الأكابر فأضاعوا البلاد ودخل الانجليز مصر وأصبح المتعلمون إلا قليلا منهم يتشبهون بالفرنجة فى كل أحوال حياتهم . فما أشبه الليلة بالبارحة . إذن قصة مؤمن آل فرعون منطبقة على حالنا اليوم . إن الرياء والخداع هما الرائجان . وقد

صحيفة

يقوم بأمر البلاد أخس النفوس وأضعف العقول والسفهاء وأصحاب الماضى الخبيث والسيرة القبيحة ، وقليل من يتولاها من ذوى النفوس الشريفة الصادقين ، والمصريون اليوم عرب لهم صلة بالعرب فى شمال افريقيا والحجاز واليمن والعراق الخ

٦٦ فهاك نصيحة الدكتور يحيى الدردير إذ رفع صوته فى صحيفة الشبان المصريين قائلا : « لابد من اتصال المصريين بالأمم العربية ، فأما الاقتصار على الوطنية المصرية وحدها وعدم اتصالها بالوطنيات الأخرى فى العراق والشام الخ فمعناه الموت والهلاك ومعناه الانقسام ﴿و بعبارة أخرى﴾ ذكر المصريين بروابط الدين واللغة والنسب مع العرب الآخرين . فهذه نصيحة مصرى فى عصرنا لماوازناها بنصيحة مؤمن آل فرعون وجدنا بينهما مشابهة مّا ، وعسى أن تكون هذه النصيحة يعقبها ارتفاع الأمة وان كانت نصيحة مؤمن آل فرعون أعقبها هوان الأمّة لأنهم لم يتعظوا

٦٩ نورالعلم فى صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ، ههنا ذكر المؤلف معنى الاستغفار ، فم يستغفر رسول الله ﷺ ؟ أمن ذنبه وهولاذنب له . كلا . إذن استغفاره ﷺ هنا راجع الى إزالة سبب الذنوب أى دوام ذلك الزوال كما نقول اهدنا الصراط المستقيم ، والفتح المذكور فى سورة الفتح ترتب عليه الغفران بهذا المعنى إذ الفتوح هناك راجع لفتوح العلم وهو يحدث الأثر فى نفوس السامعين فينشرون العلم بفتح البلدان ، إذن الفتح والمغفرة راجعان للفتح العلمى ولصفاء النفس وخلوصها من سبب الذنب . أما التسبيح والتحميد فهما أمران عجيبان : ان النعم التى نشاهدها غزيرة ولكننا نراها ممزوجة بالشرور وهذه الشرور تحدث عندنا خوفا من الله ويكون الحب لله على مقدار ما يكون من اللطف الذى نحس به بعد كل شر يصيبنا فنكون عبيد سوء لانعرف النعمة ولانحس بها إلا اذا أصابنا الشر لنفرق بين النعمة والنقمة ، ولكن اذا أدركنا بعقولنا ودراستنا العلوم الرياضية والطبيعية ، وتحققنا بعقولنا أن الشرور لابد منها لتمام النعم أصبح حبنا لله لاحدّ له وهناك فقط نفهم معنى الرضاء بالقدر ومعنى « الايمان بالقدر خيره وشره من الله » وهناك هناك فقط تكون سعادة هذا الانسان ويكون الحب الحقيقى ، وهل السعادة إلا الحب ، والحب هو النعيم كله والسعادة كلها ، فلادنيا إلا بالحب ، ولانعيم فى الآخرة بحق إلا بالحب . هذا هو سر الاستغفار والتسبيح والتحميد

٧٣ ﴿الفصل الرابع﴾ فى محاجة الضعفاء والمستكبرين فى النار . و بيان أن ذكر المسيح الدجال بعد محاجة الضعفاء والمستكبرين للدلالة على أنه اذا كان المسيح الدجال (مع ماله من المكر والدهاء التى لايبلغها فى الخديعة الرؤساء الضالون والشيوخ الغاشون) لايخلى أتباعه من العقاب لأن لهم عقولا فأولى بالعقاب هؤلاء الذين يتبعون المضلين من الشيوخ والأمراء المضلين . إن المحاجة بين المستكبرين والضعفاء فى الآية تقريع للمسلمين الحاليين الذين تركوا مواهبهم وعقولهم ونسوا أن كتاب « الفرق بين الفرق » الذى اشتمل على (٧٣) فرقة من فرق المسلمين ، كان كل اختلافهم المذكور فيه غالبا لايرجع إلا الى سبب واحد بحسب الأصل وهو الجاه والثروة والملك ، ولادواء لهذه الأمة عندى إلا دراسة العلوم الرياضية والطبيعية وجميع علوم أهل الأرض ، ولايصلح لقيادة هذه الأمة رجال يجهلون هذه العلوم ، فلارجال الدين ولارجال السياسة ولا الأمراء ولا الملوك ولارؤساء الجمهوريات فى أمة الاسلام بنافعين مالم يتحلوا بهذه العلوم . وكفى كل واحد من هؤلاء أن يلم بأكثر مافى هذا التفسير . فأما غير من اتصفوا بذلك الوصف فهم لايصلحون لرقى هذه الأمّة لأنهم جهلاء غالبا جهلا مركبا

٧٥ ﴿الفصل الخامس﴾ فى المسيح الدجال . لقد تكلمنا على المسيح الدجال فى مواضع كثيرة من هذا

صحيفة

التفسير، وفى كل موضع فائدة ليست فى الموضع الآخر. فاختلاف العبارات باختلاف المواضيع كاختلاف الزروع. لكل وجهة وفائدة، إن المسيح الدجال أنذر به الأنبياء قومهم، وليس من المعقول أن ينذروا بالذى لايحدث لأممهم، وليس من المعقول أن يستعيذ المسلمون ١٣٥٠ سنة من شىء لم يكن له أثر، إن الدّجل والغشّ والخداع محيط بأمم الاسلام من جميع الجهات، فمن شيوخ لاعلم عندهم يغرون الأمة

٧٧ ويقولون « لاموجب لقراءة العلوم » فتنام الأمة، ومن قوم يأتون بتجارة أجنبية تبتز الثروة والأمة نائمة عن الصناعات، ومن أمم أوروبية أومسلمة شرقيـة تحتل بلاد الاسلام وتذل الرعيـة، فالأوّلون بحجة الاصلاح الكاذب، والآخرون بحجة انهـم على ديننا، فكل هؤلاء من أتباع المسيح الدّجال، ولاينافى هذا انه يظهر فى آخر الزمان، ولكن نحن ننظر لما هو حاصل الآن، فليكن هو كناية وهى معروفة فى علم البيان. فكل هؤلاء استعاذ منهم النبى ﷺ ومنهم نستعيذ نحن فظواهرهم كالمسيح ابن مريم وبواطنهم انهم دجالون، فاستثن الصحابة والتابعين وأمثال صلاح الدين وعمر بن عبدالعزيز وضع يدك على من تشاء تجدهم مترفين منعمين دجالين إلا قليلا كانوا مخلصين. إن المستعمرين مادخلوا أمة من أمم الاسلام إلا أصبح شيوخ الطرق غالبا دعاة لهم. وأما قول ابن عباس « إن الآية واردة فى اليهود » فهو حق وظهر سرّه الآن والا فماذا نرى. ان الحرب العظمى ما أشعلها إلا ألمانيا بسبب الفلاسفة اليهود

٨٠ مثل نيتشيه والبلشفية فى الروسيا رؤساؤها اليهود مثل لينين وفتنة فلسطين وطمعهم فى الوطن القومى ظهرت فى هـذه الأيام وهى من اليهود. أليس هذا هو عين قول ابن عباس بل هو معجزة وهو انهـم سيتكلون فى ملكهم على المسيح الدجال وهاهى ذه الدول المستعمرة هم الدجالون وعليهم اتكل اليهود وابن عباس قال لاينالون شيئا. فعلى المسلمين أن يرقوا تعليمهم ليزول خداع الأمم وتفك أغلال العالم على أيدى المسلمين والا فان نفع الانسان لأخيه الانسان أقوى ألف مرّة من نفع (أبى قردان) الذى حافظنا عليه لزرعنا، فهل (أبوقردان) أنفع من الانسان للانسان؟ إذن الانسانية اليوم بلهاء جاهلة، وعلينا نحن أن نرقيها لنقتل الدجل منها، ومن أهمّ الدجل إبقاء الأمم جاهلة بسبب الاستعمار تارة وبسبب الشيوخ الجاهلين تارة أخرى، ومن أهـمّ الدجالين المبشرون الذين يزلزلون العقائد لاصطياد الأمم، وجاء فى إحدى المجلات العلمية وهى مجلة « الشبان المسلمين » مقالة بهذا المعنى عنوانها « من كان بيته من زجاج فلايرجم الناس بالحجارة » وأن الصينيين يقولون: تعاليم المسيح عرفناها من قبل إرساله لكم ولم تنالوا من الصين أكثر من (٤٠) ألف نصرانى يكسبون منكم رزقهم، وههنا سرد حكاية عيسى وهم مع انهم يدعون الى السلام مادخلوا أمة إلا أحدثوا فتنة وادّعوا ملكا وثارت الحرب فهل هذا هو السلام. ولما علمت ألمانيا أن رجال الدين هـم الذين مهدوا للانجليز دخول مصر بسبب بثّ العقائد الزائغة أخذوا يستعملون هؤلاء المبشرين لما يريدونه

٨٢ ﴿ سورة فصلت ﴾ وهى خمسة أقسام: تفسير البسملة والتوحيد. ذكر بدء الخلق. وذكر إهلاك بعض الأمم كعاد وثمود. وذكر الحشر. وشهادة الجلود والحواس الخ والخامس فى ذكر أن الليل والنهار آيتان الى آخر السورة

٨٥ ﴿ القسم الثانى ﴾ من السورة الى قوله ـ العزيز العليم ـ قد كتب مشكلا

٨٦ التفسير اللفظى لكلمة (حم) وهذان الحرفان يرجعان للحمد والحمد على نعم، وههنا سرد المؤلف نعم الله التى فى هذه السورة

٨٩ ذكر بدء الخلق ـ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ـ الخ

صحيفة

يمرّوا على الدرجات كلها كما مرّ الجنين)

١٠٤ ﴿الفصل الثانى والثالث﴾ فى إيضاح الكلام على آية ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ الخ وذكر نبذة من كتابى « ميزان الجواهر » تتضمن البحث فى نظام علم التوحيد فى بلاد الاسلام وأن المؤلف وهو فى حال الصبا كان يتمنى لوأن المسلمين درسوا هذه المشاهدات فى المعاهد الدينية . وانه شاهد بعض الحيوانات الصغيرة المرقشة فأدهشته ، وأخذ ينظر بعقله ، ويقرأ التفسير فى الحقول وهو بعيد عن دور العلم ، فخلا له الفهم ، ثم اتصل «بدار العلوم» وأصبح موقنا بأن هذا العالم له نظام تام ففرح بذلك فرحا شديدا وأخذ يقول : « تبا لمن تمرّ عليه هذه الحياة وهو لايعقل هذه العجائب ، أما التناسل والمأكل فأمران عامان . فمن استعمل عقله فى هاتين الشهوتين فقط فالبهائم خير منه وهوأعمى » وههنا سبعة أمور : — (١) ميل الفطرة الانسانية للغرائب (٢) دليل الالوهية فى الامور الغريبة أقرب الى أذهان البسطاء (٣) آيات القرآن ناطقة بذلك (٤) ويجب أن يطبق العلم على صفات التنزيه والتحميد عند كل عجيبة (٥) فذلك مع كونه علم توحيد هو رقىّ للانسانية (٦) مطالعة العلوم على هذا النمط ازدياد علم بالله (٧) بهذا يشبّ الطفل على حب الله

١٠٧ ﴿النبذة الثانية﴾ ما كتبه المؤلف فى مجلة « نور الاسلام » لأنه رأى رؤيا وأن ملكا فى النوم كان يعلمه معنى « بدأ الاسلام غريبا » وأخذ يفهمه طول الليل أن الاسلام سيظهر وينتشر انتشارا غريبا اليوم كانتشاره أوّلا . فأخذ المؤلف هذه المعانى وجعلها من عنده فى مقالة تحت عنوان « مما أوجب للمسلمين السقوط . جعل اقتراب الساعة سبب القنوط » . جاء فى القرآن أن الساعة آتية لاريب فيها وانها قريبة وذلك لاحداث النشاط للعمل . فالسلف كانوا مجدّين فى العمل بهذا السبب ولكن نفس هذا السبب اتخذه جهال المسلمين سببا للبطالة إذ يقولون : « قربت الساعة فلماذا نعمل » وهنالك جاء الكسل . ولكن قرب الساعة ليس يفهم كما يفهم الجاهل . ان أعمارنا قصيرة فالقرب عندنا عشرات السنين . أما القرب بالنسبة لصانع العالم فهو مبنى على النظام العام القديم الزمان . واذا نسبنا مائة ألف سنة أومليون سنة الى مئات الملايين كان ذلك قربا . وهذا معنى ـ أنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ـ

١١١ اللطائف العامّة لأقسام السورة كلها وهى ست لطائف

١١٢ ﴿اللطيفة الأولى﴾ فى البسملة ومناسبتها لما ذكر فى السورة من الرحمن الى طبقات الأرض ومافيها من صور كشفها القوم . الآيات المفصلات فى المادة الأرضية والسماوية . للسمع جاءت اللغات . وللبصر خلقت المشاهدات . والسورة بدئت بالآيات المسموعة ثم تلتها الآيات المبصرة والأرض وماعليها كلها فى (٤) أيام . والسموات فى يومين . العوالم كلها ترجع الى سماء وأرض . وتفصيلهما يكون بعلمين : علم الفلك وعلم طبقات الأرض . يقول الله : «أنا رحيم رحمت الحشرة بآلاف العيون ورحمتكم أنتم بعلم الجيولوجيا والفلك لتقرءوا الجمال »

١١٥ وسيكون فى الجيولوجيا بابان : باب العلم . وباب العمل . أما العلم فبذكر معلومات عامة وأهمّ النظريات الحديثة . والعصر الأوّل للأرض . وعصر الحياة القديمة . والحياة الوسطى . والحياة الحديثة . والعصر الحجرى القديم فالحديث وعصر البرنز . فى ذكر معلومات عامة

١١٦ قطاع تخيلى يوضح أقسام الكرة الأرضية (شكل ١٣) الغلاف الجوّى والغلاف المائى وأعماق البحار المحيطات . وبيان أن سمك الغلاف من (٥٠٠) الى (٦٠٠) ميل . وبيان تركيب الهواء الخ

١١٧ الكلام على أهمّ النظريات الحديثة من حيث ان الأرض كانت سديما . آراء الاستاذ (كانت) سنة

صحيفة

١٧٥٥ « انه كان هناك سحاب مركب من غاز » ومنها اشتق (لابلاس) مذهبه . ومعنى هذا أن حرارة الأرض الآن أقل من حرارتها قديما ، وهذا الرأى باطل الآن

١١٨ منظر السديم المعروف فى مجموعة نجوم الجبار (شكل ١٤) منظر للسديم الحلزونى فى مجموعة نجوم السلاقى بالمنظار الفلكى ، والأول يمثل كون الشمس دخانا والثانى يمثلها وقد امتد منها ذراع

١١٩ ﴿ الفصل الثالث والرابع ﴾ فى العصر الأولى للأرض . العصر الابتدائى والحياة القديمة . وفيه الكلام على أشكال الحيوانات البحرية القديمة

١٢٠ لوحة فيها (١٢) صورة لحيوانات قديمة فى ذلك العصر ونباتات وأنواع من المحار

١٢١ عصور الحياة الوسطى ، وفيه وصف البحار وقد طغت على اليابسة . وكيف ظهرت حيوانات وانقرضت أخرى . وذكر انه كان هناك بعض الحيوانات الرخوة المحارية (الامونيت) وكان من هذا الجنس وحده (٤٠٠٠) نوع مختلفات وقد كثرت فيه الشعاب المرجانية . والكلام على عصر الحياة الحديثة

١٢٢ لوحة فيها (١٠) صور فيها أهم الحفريات فى صخور حقب الحياة الوسطى بالقطر المصرى

١٢٣ وهنا وصف القنافذ البحرية والاوستريا وأن الحشرات انتشرت انتشارا كثيرا الخ

١٢٤ لوحة فيها أهم الحفريات فى صخور حقب الحياة الحديثة بالقطر المصرى فيها عشر صور منها فاكهة متحجرة وسرطان بحرى وسن الحوت وورقة شجرة وغيرها

١٢٥ العصر الحجرى القديم . وهنا اللوحة (٤) فيها (١٩) رسما تشتمل على (ا) قطعة من الخشب المتحجر و (ب) منظر الغابة المتحجرة قرب القاهرة . وههنا ذكر الغابة المتحجرة القريبة من العباسية فيها أشجار تبلغ عشرين مترا

١٢٦ العصر الحجرى القديم والحديث . وعصر البرنز . وههنا ستة أشكال منها آلات من الصوان الحجرى القديم بالفيوم ومجموعة من الآلات من حجر الصوان تابعة للعصر الحجرى الحديث

١٢٧ وهنا ذكر أنهم وجدوا رسوم أيدى السكاكين التى أخضعوا بها الحيوانات والوحش كالثور والحصان والحمار والكلب والقط . وقد عرفوا الزراعة والصناعة ثم هجروا الكهوف وسكنوا وسط البحيرات خوفا من الحيوانات

١٢٨ ﴿ عصر البرنز ﴾ ومن الغريب الانتقال من آلات الصوان الى البرنز والمصريون وحدهم انتقلوا الى عصر النحاس وهو عجب !

﴿ نبذة من علم الجيولوجيا خاصة بالقطر المصرى ﴾ اهتم قدماء المصريين بالمعادن وفى زمن الرومان ثم أيام المغفور له محمد على باشا وفى هذه الأيام اتجهوا كرة أخرى

﴿ زيت البترول ﴾ كان ينز عند سفح جبل الزيت على شاطئ الخليج وكشف عام ١٨٨٥ فى جمسا فى مغارات قرب الشاطئ كانت معدة لاستخراج الكبريت

١٢٩ هنا أشكال : شكل ٢٣ منظر لجزء من حقول البترول بالغردقة (شكل ٢٤) بئر فى أول الانتاج يتدفق البترول من الفوهة بقوة عظيمة من جمسا (شكل ٢٥) أحد عروق المرو الحاملة للذهب بمناجم سمنا بالصحراء الشرقية (شكل ٢٦) منظر عام لمناجم الفوسفات بسفاجه بالصحراء الشرقية

١٣٠ (شكل ٢٧) منظر منطقة مناجم المنجنيز بشبه جزيرة سينا . موازنة بين أنواع البترول بهذه الجهات

١٣١ اللطيفة الثانية فى آية ـ كتاب فصلت آياته ـ الخ وهو مبحثان : مبحث لغوى ومبحث علمى سياسى والمبحث اللغوى جاء فيه قول ابن النقيب : « إن القرآن وان كان كله بلغة العرب قد دخل فيه من

صحيفة

لغات الأمم ألفاظ لأنه ﷺ مرسل للجميع »

١٣٢ وههنا جدول بالألفاظ تقرب من (١٥٠) لفظة من قبائل العرب المختلفة مثـل : مسطورا أى مكتوبا بلغة حمير ، ومثل السفهاء أى الجهال عند كنانة ، ومثل كنود أى كفور للنعم عند هذيل ، ومثل : أنكر الأصوات أى أقبحها عند حمير ، ومثل : بجبار أى بمسلط عند جرهم ، ومثل لاشية أى لاوضح عند أزدشنوءة . ومثل رفث أى جماع عند مذحج . ومثل مريج أى منتشر عند خثعم . ومثل نحلة فريضة عندقيس عيلان . ومثل حفدة (أختانا) عند سعد العشيرة . ومثل فجاجا أى طرقا عند كندة ومثل اخسئوا أى اخزوا عند عذرة . ومثل ربيون أى رجال عند حضرموت . ومثل طفقا أى عمدا عند غسان . ومثل لاتغلوا أى لاتزيدوا عند مزينة . ومثل أملاق عند لخم . والعقود عند بنى حنيفة وحصرت أى ضاقت عند اليمامة . ومثل تميلوا عند سبأ . ومثل نكص عند سليم . والصاعقة لعمان . وينعق عند طيء . وأفيضوا عند خزاعة . وخبالا عند عمان . وأمه أى نسيان عنـد تميم . وطائره عمله عند أنمار . ولأحتنكن عند الاشعريين . ولينه نخله عند الاوس وهكذا . هذافى قبائل العرب . وهكذا لغات الأمم مثل : أباريق فارسية . ابلعى حبشية . وأسباط لغـة بنى يعقوب . واستبرق عجمية . وأسفارأى كتب (سريانية وقبطية) . اصرى أى عهدى (نبطية) . أليم أى موجع (زنجية) . وإناه نضجه (أهل المغرب) . وأواه موقن (حبشية) . الأولى أى الآخرة و بالعكس (قبطية) . بطائنها ظواهرها (قبطية) . كيل بعير (حمار) عبرية . جهنم فارسية . حوم أى وجب (حبشية) والحواريون الغسالون (نبطية) . وراعنا بلغة اليهود وهكذا . وغساق : البارد المنتن . وفردس (رومية) والقيوم سريانية . ويصهر ينضج بربرية

١٣٦ وههنا نظم لأربعة وعشرين لفظا أوّله (السلسبيل وطه الخ)

١٣٧ ﴿ المبحث الثانى ﴾ وهو السياسى العلمى فى قوله تعالى ـ كتاب فصلت آياته ـ الخ وهذا المبحث فيه الـكلام على العرب أيام جاهليتهم الأولى وجاهليتهم الثانية . فهم فى جاهليتهـم الأولى أيام حورابى إذ كانوا بالعراق تغلبوا على السومريين حوالى سنة ٢٤٦٠ ق.م وكتبوا بالقلم السومرى وهو أشبه بالقلم الهيروغليفى المصرى . وفى أوّل أمرهم لما تغلبوا على السومريين استعملوا لغتهم وقلمهم ثم أهملوا لغتهم وحفظوا قلمهم . وله صورة بديعة فى صحيفة ١٤١ (شكل ٢٨) وهذا الخط لازال يتغير حتى كانت سـنة ٣٢٨ ب . م إذ أصبح بشكل ما كتب على قبر امرئ القيس بن عمر . وهو خط يغاير الأوّل (شكل ٣٠) فى صحيفة ١٤٣ ولاجرم أن هذا كان قبـل البعثة بثلاثة قرون . ومن زمن البعثة الى الآن بقى الخط العربى بهيئته الأصلية ومعه التحسين والخط واللغة محفوظتان (انظر شكل ٣١ و٣٢ و٣٣) وهى رسم لسورة الفاتحة وقل هو الله أحد باللغة العربية والصينية وذلك فى صحيفة ١٤٤ و١٤٥ و١٤٦ ومن يقارن ماحصل فى اللغة العربية من حفظها يجده مخالفا لما حصـل فى اللغة اللاتينية التى كانت لغة الدين والعلم والسياسة . فان الدولة الرومانية صاحبة تلك اللغة لما هجم عليها المتوحشون وهم آباء هؤلاء الاوروبيين ونبغت منهم أمة الألمان وحكمت رومه وكانوا همجيين سـنة ٤٧٦ ب.م واختـل الامن أخذت كل أمة تكتب بلغتها وأصبحت اللغة اللاتينية لغة تاريخية لاغير وحلت محلها الألمانية فى ألمانيا والانجليزية فى انكلترا وهكذا . وهـذا بخلاف اللغة العربية فانها لم تحل محلها لغة أخرى . فقد أعدمت لغة القبط بمصر والروم بالشام والنبطية أوالكلدانية بالعراق وحلت محلها الى الآن ولما نشأت منها لغات أخرى وهى لغات العامة بمصر والمغرب والشام بقيت هذه الأمم تحافظ على العربية

صحيفة

الأصلية . وكلما تباعدت عنها أخذ القرآن يقرّبهم منها . إذن هذه الآية ظهر سرّها الآن إذ رأينا اللغة اللاتينية التي كانت سائدة في أوروبا دينا وسياسة بطلت والعربية بقيت . هذه هي المعجزة القرآنية المذكورة في هذه السورة ـ لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ـ مع قوله ـ سنريهم آياتنا في الآفاق ـ الخ وهذا من مدهشات القرآن

١٤٧ ههنا جوهرتان : الأولى في مقالة للكاتب الأميركي إذ يقول : « إن جميع المسائل يكتب الناس فيها أياما وشهورا ويسكتون ، ولكن معرفة الله وخلود النفس لاتقف الكتابة فيهما في الماضي والحال والاستقبال » وضرب مثلا للعلماء بالقطط العمياء التي وضعت في صندوق والرجل يرفعه ويغذي القطط باللبن ولكن إحداها قتلها الكلب لأنها خرجت من الصندوق ، فقالت قطة منهن : أين الرجل ؟ لوكان موجودا ، لارجل هنا ولاحنوّ ولاشفقة ، فهذه تشبه (أنجرسول) الجاحد الأمريكي ، وقالت أخرى إن الصندوق يجري على نواميس طبيعية . أما الرجل فلا وماهذا اللبن إلا أمر نظامي طبيعي لاغير . أما الرجل فلا وهذه القطة تشبه (اسحق نيوتن) ولكنه هومؤمن ولكن القطط بعد ذلك أبصرت فرأت الرجل فاعتذرت له فقبل عذرها

١٤٩ ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ في آية ـ وجعل فيها رواسي ـ وان من الرواسي وهي الجبال جبل الفضة بأمريكا الجنوبية الذي عثر عليه رجل أمريكي أصلي تابع للقبطان (جون) فاستولى عليه باسم ملكه سنة ١٥٤٥ وبقي معهم ٢٨٠ سنة ، وهذا الجبل بمملكة بوليفيا وقد خرجت من يد الاسبان سنة ١٨٢٥ وقد كسبوا منه ١٦ ألف مليون ريال أي ٥١٢٠ مليون جنيه ، فيكون الكسب منه كل سنة ١٨ مليون جنيه وثلث ، والفضة اليوم قلت قيمتها ، وفي الجبل قصدير ، ولايصدر منه إلا قليل الآن

١٥٠ ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ في قوله تعالى ـ حتى اذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم ـ الخ ، وذكر آيات أخرى مع هذه مثل آية ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ـ هنا علم عجيب ، ذلك انه لماذا ذكرت الأيدي والأرجل وحدها في الشهادة ، ولماذا شهدت مع اللسان تارة وتارة وحدها والفم مختوم عليه ، وجواب ذلك أن اللسان يشهد معها اذا كان الانسان أشبه بالمنوّم تنويما مغناطيسيا لاحرية له ، فأما اذا كان مستكملا قواه فانه يكذب فاذا كذب شهدت هي وحدها ، واختصاص هذين العضوين بالشهادة لسرّ قد ظهر في عصرنا ، فان الناس سنة ١٨٩٠ وهي التي دخلت فيها دار العلوم استندوا في علم المباحث الجنائية الى هذين العضوين لأنهم وجدوا هذه الخطوط لاتتغير أمد الحياة من المهد الى اللحد ، فهي ترسم في الجنين وتبقى الى مابعد الموت بخلاف بقية ظواهر الجسم فهي كلها متغيرات تغيرا تاما . وهذا هو الذي عليه الاعتماد اليوم في تحقيق الجنايات . وهذا الذي يجب أن يعمل به قضاة الشرع الاسلامي . فاذا تعارض قول الشاهد مع هذه الآثار التي تركتها الأيدي والأرجل على ثياب القاتل أوعلى السيف أونحوذلك . فهذه يقينية وشهادة الشهود ظنية بالاجماع . واليقين مقدّم على الظنّ . واذا قبل الله شهادتها وهو ليس في حاجة اليها فالقضاة أولى بقبولها مع حاجتهم اليها . وهذا السرّ ظهر الآن في هذا التفسير وأنا أعلنه للمسلمين بعدنا . وههنا (٩) أشكال للأيدي والأرجل من نمرة (٣٤) الى (٤٢) وهي مرسومة في الصفحات من ١٥٤ الى ١٦٠ وهي تبين بوضوح أشكال الأيدي والأرجل . وتبين أن خطوط الأصابع أربعة أنواع رئيسية فهي إما منحنيات واما منحدرات الى اليسار . واما منحدرات الى اليمين واما مستديرات . ثم الاقدام إما أن تكون لرجل

صحيفة

صاحبها سائر. واما أن تكون لرجل صاحبها واقف. ولكل واحد من هذه الأحوال شكل من الأشكال المتقدمة، ومن الأرجل ما هي مقوسة، ومنها ماهي منبسطة. هذا هو الاجمال

١٦٠ ﴿اللطيفة الرابعة﴾ فى آراء حكماء الأمم وعلماء الاسلام فى الأخلاق تفسيرا لقوله تعالى ـ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ الخ وذلك ان المؤلف بينما هو جالس إذ أخذته غشية فأحس كأنه فى عالم آخر وقد رأى فرشا مرفوعة وأكوابا موضوعة، وهناك فتاة رائعة الجمال. فلما رآها خر صريعا لدهشته من الجمال، ولما اشتاق وأشفق أن يكون ذلك حراما عليه لأنه هام بالجمال الحسى. قالت له هذا ليس حراما عليك، انك فى الحال الروحية، وأفهمته أنها هى البصيرة، فهى رمز لبصائر الناس جميعا فى الأرض، فاستغاث بها أن لاتفارقه، وأخذ يقول لها: أنا مغرم بك، إن كل حياتى فكر والفكر منك وفيك. فقالت له. كلا. ولكن انظرالى مزارعى فى عقول علماء الأمم. فهنالك امتثل أمرها. وأخذ يقرأ عليها آراء كونفشيوش الصينى قبل ٢٥٠٠ سنة، ويتبع مذهبه ٥٠٠ مليون نفس، وهذا المذهب ملخصه أن يحب الانسان جميع الناس شرقا وغربا، وأن الطبيعة موزونة، وأن الانسان له بالله صلة، والله يرعاه ويرعى كل مخلص فى الأرض، ويقول هو: «إن ثقتى بالله لاحد لها وهو يساعده، وهوالذى عين له الوظيفة التى يقوم بها الآن، والطبيعة التى خلقها الله لاسر فيها، والانسان له بجميع الناس علاقة، والحب هو نهاية المقاصد فى الدنيا فيحب جميع الناس كما يحب العلم ويحب ربه. وفى كل انسان مبدأ للخير. ومبدأ للعطف على الناس. ومبدأ لما يثير الخجل من عمل الشر. ومبدأ يميز به الخير من الشر. والحق من الباطل. والناس يولدون أطهارا. والترف والنعيم وكثرة الطعام والدسم والدفء تجعلهم بهائم. على هذه الأخلاق درج الصينيون. هذا ملخص آراء كونفيشيوش

١٦٥ وهاك آراء أفلاطون فهى قريبة منها. يقول: «إن الشهوات والأهواء تتنازعنا فعلينا أن نسمع صوت العقل وإكرام النفس فى شىء واحد وهو الفضيلة. إن الفضيلة تمتع الروح. ان الفاضل وان تعثر فى أول أمره فانه يسعد سعادة حقيقية داخلية فى أول أمره. وداخلية وخارجية فى آخر أيامه إذ يسمع الثناء الحسن والاحترام من الناس جميعا. إن الفضيلة فوق المال والمتاع وكل مانقتنيه ونعجب به»

١٦٦ ومثال ذلك سقراط قام بما عليه فى ميادين القتال وامتثل أمر رؤسائه. وهكذا لما صار يعلم أبناء أثينا العلم ووقف موقف الموت اختار الموت ولم يترك العلم والعدل ولم يرض بالهروب من السجن لأنه يعتقد أن ذلك شر والذى يقابل الشر بالشر لئيم. وعلق الاستاذ (بارتلمى سانتهلير) على هذا بما يفيد أن المصائب ماهى إلا عقوبات والعقوبات يجب قبولها بالسرور ولايجوز الهرب منها

١٦٨ ونقل عن سقراط مايأتى: «إن محبة الأشرار ليست محبة. ومحبة الأخيار هى المحبة. إن الأشرار يخون بعضهم بعضا. فأين المحبة إذن؟ ومادام الانسان يرى انه يمتاز عن صديقه بمال أو بكرامة أو غيرها فلاصداقة بل هناك أحوال متغيرات واضطراب. ثم ان عمل الشر مع الأشرار يزيدهم شرا فيجب أن لايفعل الشر معهم»

١٦٩ وقال أيضا: «أصحاب النفوس الشريرة لايجوز للفاضل أن يقابل شرهم بالشر لأنهم مرضى. وهذه المقابلة تزيدهم شرا. وأكثرهم يرجع باللين. والنادر ليس كذلك. فيجب كظم الغيظ والعفو» وقد ضرب سقراط نفسه مثلا لذلك. فانه لما علم من الكهانة انه أعلم الناس شمر عن ساعد الجد وقام بنشر

صحيفة

العلم امتثالا لأمر الله وقدّم نفسه للقتل ولم يهرب من السجن مع تمكنه حفظا للفضيلة . إن فى القلب صوتا من الله يأمرنا بالأعمال الفاضلة مع الجميع ، فكيف نفرّ من هذا الصوت والله هو رب الجميع ، الله صنع الانسان وهو معتن به يراعى من يلبى هذا الصوت ، ولا سعادة لامرئ إلا بذلك . فأما من أسلم قلبه للشهوات فان الله يتركه لنفسه . ليقتنع كل امرئ بأن الله يحرسه دائما فهو إذن لايخاف شيئا فى عالمنا ، لاخوف على الانسان الخير فى الدنيا ولافى الآخرة ، واذا مسه الشرّ فانه يرى لطفا فيه متعاقبا

١٧٠ ليقطع المرء عمره بهذه الآراء . وقال عن (سقراط) انه قرّر ماقاله أنكساغورس : « إن العالم صدر عن عقل ، فالعقل أصل كل شئ » وعليه رأى سقراط أن نبحث عقولنا حتى نعرف طباعها . وههنا ذكرت الروح التى تحادث مؤلف هذا الكتاب أن الله يساعده دائما فى هذا التفسير ، وأخذت تسمع منه مايقوله الشيخ الشعرانى فى العفو عن الشرير وعن الذى يسعى فى قطع الرزق عنه . وذكر ما حصل بين خطيبين لأجل دنانير أهداها السلطان سليم لأحدهما . وذكر أيضا أدبه فى الأكل وانه فيه يحضر قلبه مع الله تعالى . وأطنب فى العفو عن المذنبين

١٧٣ ههنا ذكر المؤلف آراء أهل أوروبا فى الأخلاق وخصّ بالذكر (الاستاذ بارتلمى) الذى قرّر أن هنا أمرين فى داخل نفوسنا : أمر فوق مستوانا . وأمر هو عملنا ، أما الأوّل فهو أن الصوت الذى نحسّ به فى كل وقت يؤنبنا تارة ويمدحنا أخرى ، وهذا ليس منا بل هو من الله بدليل انه يورثنا الندم ويعاقب تارة ويفرحنا ويمدحنا أخرى . إذن هو أعلى منا . أما الأمر الثانى فهى الارادة . إن لنا فى داخلنا اختيارا ، فلنا أن نطيع ذلك الصوت ، ولنا أن نعصيه ، فهو معلم ولكن الارادة منفذة فهى تعصى وتطيع كما تشاء هى لا كما يشاء ذلك الصوت الداخلى ، وليس فى العوالم حولنا هذه الحرّية ، بل كل العوالم تسير بقوانين أو بواعث لانعرفها . فخاصية الانسان إذن هى الارادة التى هى المتمتعة بالحرّية . إذن الضمير والارادة هما أصل علم الأخلاق ، وقبول الارادة ذلك القانون يشرف الانسان ويرفعه فى أعين الناس والله أيضا يرعاه ، وليس فى العوالم المشاهدة أشرف من ضمائرنا وهى مؤدّبة لنا تأديبا شريفا تعجز عنه قوانيننا . وبهذا يعرف الانسان انه مسؤل أمام خالقه ، وعلم الأخلاق يقرّر عدلا إلهيا بعد الموت وخلودا للروح لتنال جزاءها الذى لم يتم فى الدنيا خيرا أوشرا

١٧٦ سعادة النفس والسرور الوجدانى بالفضيلة أحبّ الى نفوسنا مما دون ذلك من المتاع والمال والبنين أوّلا ، ومن اللذات ثانيا ، ومن السعادة ثالثا ، بل الانسان قد يختار أن ينبذ هذه كلها ليحيا حياة السعادة النفسية ، وماهذه المذكورات إلا أمور ثانوية

١٧٧ آراء الحكماء بعد أرسطاطاليس . آراء أتباع أرسطاطاليس بعده . وهم أوّلا ثاودوفرسطس والستراثون ومن نحا نحوهما ، فانهم لما وجدوا أدلته واهية فى اسناد العلم الى الصورة القائمة بالمادة وانها سبب فى حضور الكليات فى أذهان الناس تركوا التكلم على الإلهيات . وثانيا الابيقوريون . وأوّلهم أبيقورس القائلون باللذة (أى فى الفلسفة خلافا لما هو مشهور) . وثالثا الرواقيون ورئيسهم زينون توفى سنة ٢٦٤ ق.م القائلون : الله والعالم جوهر واحد (وهذا كفر فى ديننا) والالهيات والطبيعيات علم واحد والمدار عندهم على الأخلاق ليحلّ النور الإلهى فى جسد كامل بالأخلاق

١٧٨ ثم (نيقوماخس) صاحب علم الأعداد سنة ١٤٠ ب.م وههنا ثلاثة فروع : فرع أثينى ، وآخر شامى ، وثالث اسكندرى . وأشهر الاسكندريين بعد الميلاد أفلوطين . وأشهر الشاميين يبليخوس . وأشهر الفرع الأثينى سريانوس . وبهذا انتهت الفلسفة القديمة اليونانية وفروعها

صحيفة

ثم جاء الاسلام وفتحوا الفرس والروم والهند وقرؤا علوم الأمم وترجموها وكان المترجمون رجال علم بخلاف فلاسفة أوروبا فى القرون الوسطى فهم كانوا قسيسين ، فبحث فلاسفة الاسلام فى أكثر العلوم بخلاف الآخرين ، ان ما ابتكره العرب قليل بالنسبة لما ترجموه ولكن لهم الفضل فلولاهم لم ترتق أوروبا على هذا النمط

١٧٩ المسلمون درسوا الفلسفة الأفلاطونية الحديثة أوّلا ، ولما عثروا على آراء أفلاطون وأرسطو كانت الأولى قد تمكنت فيهم وفيها مزج العلم بالدين ، وأوّل الفلاسفة يعقوب الكندى والفارابى الذى اتبع الأفلاطونية الحديثة ، ويظن انها تعاليم أرسطو ، وقد قرأ كتاب النفس (١٠٠) مرة ، والفلسفة اليونانية متناقضة ومناقض بعضها للدين ، ففيها خلط وتهويش

١٨٠ والرواقيون أغرموا بالكشف ومعرفة ماوراء الحس ، والصوفية فى الاسلام مشتقون من هؤلاء ، وكتاب الفارابى المسمى « آراء أهل المدينة الفاضلة » له مزج بين آراء الشيعة و بين آراء جمهورية أفلاطون واخوان الصفاء ظهر فى القرن الرابع بالمشرق ، وانتقل الى بلاد المغرب ، وهو دائرة معارف والواضع لها جمعية سرّية كانت بالبصرة عدّ القفطى من مؤلفيها خمسة ، وقصدهم أن ينقوا الفلسفة من الخلط والصعوبة ، وأن يهذبوا الدين و يصلحوه بها . ومن الفلاسفة أبوعلى بن سينا فى القرن الرابع الهجرى على رأى أرسطاطاليس وكتابه « القانون » عمدة فى الطب وأن علماء الاسلام ردّوا على الفلسفة ، ولكن الامام الغزالى هوالذى صدّ الناس عنها بقوّة بيانه ورجعهم الى التصوّف

١٨١ ولما انتقلت الفلسفة الى الأندلس وساعد فى رواجها الحكم الثانى الأموى فى القرن الرابع وتبع ابن باجه وابن طفيل مؤلف (حىّ بن يقظان) الذى ترجم الى اللاتينية وظهر سنة ١٦٧١ وسنة ١٧٠٠ و بعد عشرين سنة من ظهوره ظهر رواية (روبنسون كروزو) ثم ان ابن رشد أشهر فلاسفة العرب تبع أرسطو وردّ على الغزالى ، ومن كتبه فصل المقال المشهور ، وأكثر مؤلفاته بغير العربية ، ولكن الموجود ترجمتها مع شرح أقوال أرسطو مع الردّ على الغزالى فى ١١ مجلدا وكتابه فى الطب لاتينى ، وله كتب بالعبرية ، وطارت شهرته بالمدارس والكنائس الى ابتداء القرن السابع الهجرى أى الثالث عشر المسيحى . ولما انتهى القرن السادس عشر وقف المسلمون فلا بحث لهم . و بقى المسلمون فى الألفاظ تقديما وتأخيرا وذكرا وحذفا ولكن نبغ ابن خلدون فى مقدّمته فى علم العمران وطلب أن يتمه من بعده . فأجاب طلبه (أوجست كومت) أما المسلمون فلا . ولم يظهر بعد ابن خلدون نابغة اسلامى ولكن بقى الشرق نائما حتى أيقظته الحوادث اليوم . فهاهوذا قائم ينفض غبار الكسل

١٨٢ فلما سمعت هذا المقال . قالت : لقد أحسنت . وأخذت تذكر المؤلف بقولها : لا تنس انك فى تفسير آية من القرآن ــ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ــ الخ وأن تاريخ الفلسفة تمهيد للتحقيق فى ذلك التفسير . فلا بد من تحقيق آراء الفلاسفة فى معرفة الله وفى علم الأخلاق . وهنا أجاب المؤلف تلك الروح قائلا : سأبحث هذا الموضوع فى ثلاثة فصول

١٨٣ وشرع فى الفصل الأوّل فى الحكمة العامية والعملية مبينا أن المذاهب ثلاثة فى الانسان : أهو الروح ؟ أم الجسم ؟ أم هما . ناقلا ما كتبه فى كتابه « جوهر التقوى » فى ذلك

١٨٤ ذاكرا أن الروح والجسم متحدان فيشتبهان على الناس كالزجاج والخمر . وهذا هو السبب فى الخلاف إذ يقول بعضهم : « الانسان هو الروح والجسم لاشىء » وعكس آخرون الخ وعلم الطب ينظر لعلم الصحة نظرا تاما . إذن الطبيب يهمه الجسم . فهو إذن يقول بالروح والجسم . ذلك لأن آثار النفس

صحيفة

تعطى الجسم صحة وسقما كما يفعل الجسم فى الروح انقباضا وانبساطا

١٨٥ وههنا بقية المقال كنصيحة الانسان أن يعتدل فى مأكله ومشربه وهكذا ، ثم ذكر المؤلف ما كان بمصر من المعبودة المصرية التى كتب على قبرها «أنا كل شىء» وهكذا صورة أرسطو وأفلاطون واختلاف اشارتيهما الى السماء والأرض ، كل ذلك له آثار فى علم الأخلاق ، فاذا أيقن الانسان بقول أفلاطون و برهانه على أن الله بالنسبة لعقولنا نظير الشمس بالنسبة لعيوننا فانه يكون سعيدا بهذا الايقان وأن الصورة التى رسمها روفائيل الدالة على سقراط وأفلاطون هى نبراس أوّل العلم وآخره لأن الأمر دائر بين الروح والجسم .

١٨٨ من القائلين بالمادة (كارل نخت) و بخنر وديمقراطيس . وههنا ذكر أبيقور وتوماس ثم (لامتريه) وكاباني وغيرهما . و بالجملة فى هذا المقام سرّ العلماء القائلين بالروح والقائلين بالجسم من أيام اليونان الى الآن إجمالا مثل أنكساغورس وأرسطو والرواقيين وأصحاب الجوهر الفرد والمؤلهين والعقليين وأصحاب الحلول . أما سبينوزا فقد أعلن أن هذا العالم جوهر واحد وهو الله وهو اعلان مدهش والعالم فرع منه

١٨٩ وههنا تألم المؤلف من سرد هذه المذاهب ، واعترض على الروح وقال لها : كيف أمرتنى بسرد المذاهب الفلسفية وهى مملوءة بما هو مهوّش مربك للفكر مع ان قلبى فيه صحيفتان أجل من ذلك وهما صحيفة جمال السموات وجمال الأرضين . إن قراءة تاريخ الفلسفة ضارّ فوافقته على ذلك ، وانما نفعها يكون لأناس قليل عددهم وقالت انك لابد من اطلاعك عليه لتبين الحقيقة للناس ، وهل القاضى يحكم بغير معرفة أقوال الخصمين ، وفى أثناء ذلك يقول المؤلف انه برؤيته وجهها انشرح صدره بعد انقباضه بقراءة هذه الآراء ، وأجابته قائلة : أنا أعلم من اطلاعى على قلبك انك ستحل المشكلة للعالم كله فقل وأنا معك . و بهذا تمّ الكلام على الفصل الأوّل فى آية — إن الذين قالوا ربنا الله —

١٩٠ فأخذ يحدّثها عن المقام الأوّل فى مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة ، و بكلّ قال علماء ، فبالأوّل قال (كارليل) و بالثانى قال (كارنوى) وغيره ، والمقام الثانى فى الغاية من سلوكنا وفيما يسوقنا الى ذلك السلوك ، فهل الانسان خلق لمنفعته هو أم لمنفعة العموم ؟ بكلّ قال قوم ، وخيرهم من يقول بالتضحية مثل الاستاذ (مل) ، والذى يسوقنا لحسن السلوك إما القانون الأخلاقى فى أعماق نفوسنا واما العواطف ، واما الخوف من الله ، أوذمّ الناس ، بكلّ قال قوم . والمؤلف يقول : «إن الناس درجات فلكلّ وازع يناسبه»

١٩١ ﴿الفصل الثانى﴾ فى القبس المذكور فى سورة طه وايضاح أن الحجر والشجر والزرع كلها مملوءة بالنار . فالحجر فيه (٤٨) جزءا من مائة جزء كلها اكسوجين . ويمنع اتقاده بالنار جوده . والحديد يحصل فيه التأكسد أى الصدأ وهو نوع من الاحتراق بطىء . وأما الخشب والفحم والورق والزيت والدهن ففيها كربون وأودروجين . ومتى قربت النار منهما أخذا يفرّان فيقبض عليهما الاكسوجين . فههنا زواج وارتباط . والحرارة أشبه بالفرح القلبى . واللهب أشبه بالزينة التى تقام فى العرس

١٩٢ إن ازدواج القضايا العلمية ، وآراء علماء الشرق والغرب أشبه بازدواج الكربون والاودروجين مع الاكسوجين ، والمسلمون بعد قراءة هذا التفسير سيقرءون علوم أمم الشرق والغرب ويصطفون منها ماهو حسن وتكون النتائج مستعملات فى المنافع المادّية فى مقابلة القبس عند موسى لأهله ، وفى المنافع العلمية فى مقابلة قول موسى — أوأجد على النار هدى — . إذن منافع القبس العلمى متوجهة

للماديات

للماديات وللمعنويات كقبس موسى عليه السلام حذو القذة بالقذة

١٩٣ ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى جلاء الحقائق العلمية والعملية ، وامتحان آراء علماء الأمم الخلقية : أخذ المؤلف يفكر فى آراء الأمم أمة أمة ، وكيف يقول قوم بوجود الروح وحدها ، وآخرون بالمادة وحدها ، وكانت تلك الروح الجميلة البهجة تبتسم وهى صامتة ، فنظر المؤلف الى جمال وجهها ، فرآه ازداد جمالا وبهجة وحسنا ، فأغشى عليه ، فأخذت هى تلاطفه وتمر يدها عليه حتى استيقظ ، وأخذ يتغزل بكلام ابن الفارض : ☆ مابين معترك الأحداق والمهج ☆ الخ وأخذ يسألها : أأنا الآن فى حال البرزخ وقد مت ؟ فقالت كلا بل هو صفاء نفس ، فسألها : هل هذه الحال لها وجود مع انها خيال ؟ فقالت : هى أصل الوجود مستدلة بدليلين : أحدهما اننا نرى الصور القديمة فى عقولنا لاتتغير بخلافها فى المادة ، ثانيهما ان كل عمل نعمله فى الخارج أصله من الآراء التى تجول بأذهاننا ، بل المادة لا وجود لها لأنها نتيجة حركات الأثير الواقعة على حواسنا . إذن هى موجودة فى مرتبة الحواس لاغير فهى وجود عدم ، وههنا أخذ المؤلف يتغزل فيها كرة أخرى لبهجة جمالها والأنس بها وأن صورتها أجمل صورة رآها لأن المعشوق فى الأرض إما حسن الظاهر خاوى الباطن ، وإما بالعكس ، وهذه جمالها ظاهر باطن معا ، وأرادت أن تنصرف ، فاستغاث بها ، فقبلت البقاء معه ليتمتع بسماعها لكلامه ، فأمرته إذن أن يحقق الأدلة للناس فى مقام العلم والعمل فى علم الأخلاق فأرجعهما معا الى الانسان ، فالنظر الى حواسه الخمس والى عقله يفهمنا أن هناك عالما روحيا ، كما ان نظرنا الى عواطف الأطفال من حيث انهم يرون جميع من حولهم مسخرين لهم ، وفى عواطف الحكماء والقواد الذين يرون انهم مسخرون للعطف على سائر الناس ويقذفون بمهجهم فى منافع أممهم ، فهذا النظر يعرفنا لماذا خلقنا ويوقفنا على حقائق الأعمال الخلقية ، وهاتان النظريتان اللتان ظهرتا للمؤلف فى حضرة تلك المعشوقة هما معيار علم الأخلاق الذى ابتكره المؤلف ، وكل نظرية ، أو رأى لمؤلف قديم أو حديث تندرج فيهما

٢٠٠ فاذا سمعنا أن أفلاطون وسقراط ثم أرسطو ثم الاستاذ كانت ، قد أتوا بأدلة فى إثبات الله ، فدليل الحواس الانسانية والعقل أقرب الى اليقين لأن كل حاسة من لمس أوذوق أوعين لها محسوسات ترتقى بارتقاء الحاسة والعقل الذى هو ألطفها تكون مدركاته لها اتصال به وهى تناسبه . إذن عقولنا متصلات بعقول كبيرة . إذن نحن سعداء الآن حتما ، فلا اعتراض على هذا كما اعترض أرسطو على (المثل) التى قالها أستاذه أفلاطون . واذا وجدنا علماء أوروبا وغيرهم يختلفون : هل نحن مخلوقون لنفوسنا أم مخلوقون للعموم ؟ فانا نقول لهم لاخلاف . فمن كان كالأطفال فهو لنفسه . ومن كان كالحكماء فهو لغيره . والأمر ظاهر واضح . بهذين البرهانين خرجت الانسانية من مأزقها فى العلم والعمل الخلقيين وهذه نهايات علوم العلماء (٢٥) قرنا . وهذا هو الامتحان الذى قدمه المؤلف لأمم الشرق والغرب

٢٠٢ ﴿ نواضر الجواهر ، لنفائس العرائس ﴾ هذا مقال موضح لما قبله ، يشرح صدور القراء و يبهج نفوسهم يقول المؤلف فيه ان براهينه قد وصلت الى تمام الحكمة فى هذا المقام بعد دراسة الحكمة السابقة فى (٢٥) قرنا . ويقول ان برهانه لايحصل فيه خلاف كالذى حصل لبرهان أفلاطون ولأرسطو إذ قامت بعد ذلك فرق وهى الأبيقورية والرواقية وفرقة الاسكندرية والأثينية والشامية قبل الاسلام ، وفرق الصوفية بعد الاسلام ، وههنا استعرض برهان الاستاذ كانت وبرهان أفلاطون ، وأفاد أن برهان « تفسير الجواهر » أثبت ، فان الانسان اذا علم أن عقله متصل بعقول أكبر منه كاتصال العين بنور واسع المدى فانه يوقن إيقانا تاما بعالم الأرواح . واذا وجدنا أن الأرض قد عجزت عجزا تاما عن

صحيفة

الحكماء حقة وهناك سعادة مزيفة للامراء والملوك الذين لم ترتق عقولهم فان الحكمة الإلهية عاملتهم معاملة الطفل مع أبيه ، فانه يضحك عليه بالصور الملوّنة التي لاقيمة لها ، هكذا الله يفعل ذلك مع صغار العقول من بني آدم في الأمم الجاهلة ، فيعطي هذا الأمير مالا كثيرا ، وقصورا ونساء ، ويفتح له باب الشهوات ، ويجعل هذا مغريا له على أن يحفظ البلاد ، ظانا المسكين أن ذلك هو المكافأة ، ومادرى أنه هو نفسه تضعف قواه الصحية والتناسلية بكثرة مزاولتها ، وبعد ذلك يرى نفسه خاليا من تلك العظمة اللفظية ومن تلك اللذة الجسمية

٢١٢ ﴿اللطيفة الخامسة﴾ في آية — ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ـ الخ وفيها بيان الكلام على وحدة الحيوانات والنباتات ، وأن الفصل بين هذين الجنسين عسر فالحركة والتغذية والتناسل والنمو وغيرها مشتركة ، فأين الفاصل إذن بينهما ؟ ففي النبات نبات مفترس ، والافتراس معه حركة ، والنباتات المستحية تتحرّك ، وبذرة بعض النباتات الطحلبية ، وبذرة صف الموس لها شعرة تتحرّك بها ، وهكذا بعض النباتات ذات الخلية الواحدة تعوم بشعر كثير أو بشعرة واحدة ، بل الأمر فوق ذلك كله

٢١٤ إن الحركة لازمة للمادة الحية على الاطلاق ، إن خلية النبات ، وخلية الحيوانات مركبتان من موادّ مختلفة ، ولكل خلية نواة ، وللخلية غلاف خارجي زلالي في الحيوان جامد في النبات من المادة التي يكون منها القطن وورق الكتابة . والفرق بين خلايا الحيوان وخلايا النبات أن الأولى غلافها مرن فحركتها الدائمة فيها تنتقل الى جاراتها فيتحرّك الحيوان ، وغلاف الثانيـة جامد فلاتنتقل الحركة من الخلية الى جارتها ، إذن الحركة دائمة عامة ، والفرق انما هو الانتقال وعدمه فيهما ، على أن هذا الفارق بين النبات والحيوان ليس عاما ، فمن الحيوان مايترك الحركة ، ومن النبات مايتحرّك كما تقـدم . فان بعض النباتات الفطرية تكون خلاياها شائعة بلافاصل بينها كخلايا الحيوان . ثم ان التغذي في الحيوان معلوم . ويستعين النبات بالمادة الخضراء (الكلوروفيل) على التغـذية إذ يتحد بضوء الشمس لاستخلاص الكربون من الجوّ فيمزجه بالماء فيكون السكر والنشاء والسيليلوز ومادة الخشب ثم يكون أحماضا عضوية تكون منها المواد الدهنية . ثم النبات يأخذ الماء من الأرض وكذا والمعادن التي فيها أزوت وتمزج كلها بالمواد السكرية والنشوية والأحماض العضوية فتكون الموادّ الزلالية التي هي أهمّ غذاء للحيوان . ثم إن التغذي ليس قاصرا على مملكتي النبات والحيوان فبقعة الصدأ على سطح المعدن تتغذى من بخار الماء ومن المعـدن وغيرهما . والبلورات المغموسة في ماء مشبع من محلول موادّها تتغذى من المادة الذائبة في الماء فتكبر . والآلات الميكانيكية المتحركة تتغذى بالفحم ونحوه وهكذا الحركة لاتختص بهاتين المملكتين فان الكواكب والزوابع والأمواج وجميع الجزئيات والجوهر الفرد كلهنّ متحركات . وهكذا التأثر فاذا تأثر النبات والحيوان فان المواد المفرقعة والكيمائية غيرالثابتة تتأثر بالنور كمواد التصوير الشمسي وبالحرارة وبالرطوبة . واذا دقّ على وتر آلة موسيقية وفي الغرفة نظيرها تحرّك الوتر المماثل لذلك الوتر

٢١٦ ههنا موضوع في علاج الأزمة المالية في مصر . ولكن المقصود منه مافيه من عجائب النبات مثل : شجرة البقرة ذات الثمرة الخضراء كالبندقة ولبنها يحاكي لبن البقرة وأهل كراكاس يتغذون منه وله عصير سكري . ومثل : شجرة ذات اليد . وشجرة الحرير . وشجرة الدهن . وشجرة البهار . وشجرة الثعابين . وشجرة الأراروت . وشجرة الكمثرى الأمريكاني . فهـذه الشجرات من أولاها يصنع الورق الناعم في الصين . ومن ثانيتها يخرج وبر حريري قطني ينزل على الأرض كاللؤلؤ والثلج و يغزل

صحيفة

٢١٨ ويدخل فى صناعات مختلفات . ويبلغ طول الشجرة (١٥) مترا فأكثر وعرضها على الأقل متران ونصف متر تستعمل مسكنا وهى لاتزال مزروعة ، ومن الثالثة تستخرج حبات لها دهن يساعد فى صنع الشمع الأبيض الذى يضىء مدة طويلة . وفى استخراج زيت صالح للوقود ، ومن أوراق الرابعة وجلدها بهار ودواء ، ومن جـذور الخامسة دواء للشفاء من لسعات الثعابين ، ومن جذوع السادسة غذاء قوىّ للأطفال ، ومن السابعة يدرّ ابن يتجمد فى صلابة القشدة

٢١٩ بهجة العلم فى قوله تعالى — ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة — الخ وفيها عجيبتان : العجيبة الأولى من علم الحيوان ، آلاف مؤلفة من حيوانات صغيرة تعيش فى قطرة ماء ، وهى تخلق على الورق الجاف والتبن والدريس وهى بهيئة طحلب فوق سقوف المنازل وهى تجفّ أثناء الصيف وتظهر بالآلة المكبرة بهيئة حبوب رمل أخضر ، ومتى نزل عليها الماء تحوّلت حيوانا حالا ، فاذا غاض الماء أوصار بخارا رجعت ميتة لاحراك لها ، فاذا نزل عليها الماء تحركت حالا (انظر شكل ٤٣ و ٤٤)

٢٢٠ العجيبة الثانية : زيارة توفيق دوس باشا لكلية علم الأرواح ، وانه كلم روح والده وعرفه بعلامات ، وذكر له أحوالا يعرفها ، وطلب أن يأخذ صورته فأجيب الى ذلك ، ولكن لما صوّره وجد صورة أخرى فى الرسم ، فسأل بنت الاستاذ (ستيد) عالم الأرواح المشهور فأجابت أن روحا أخرى أقوى من روح والدك تقدّمت للصورة ، فطلب تصوير روح والدها واحترس أشدّ الاحتراس فأجيب لذلك وظهرت صورة والدها ، فعجب لذلك ! وسأل : كيف أمكن تصويرها وهى لاترى ؟ فقيل له ان عدسة الآلة المصوّرة تصل الى مالاتصل اليه عدسة عيوننا . وههنا شكل ٤٥ و ٤٦ يبينان الصورة التى جاءت غشا من عالم الأرواح وصورة (ستيد) فى صحيفة ٢٢١

٢٢٢ وههنا ذكر المؤلف أن مسألة العجيبة الأولى تذكرنا بنوم النحل والزنابير مدة الشتاء واستيقاظها أيام الربيع ، وكذلك الحيات والثعابين ، وبعض السمك الذى يكون فى الطين اذا جفّ ، وفى الثلج المتراكم ، وهذه كلها تقوم اذا زال المانع . اذا عرفنا ذلك فهمنا أن الموت والحياة فى هذه الحيوانات الذرّية أشبه بالنوم واليقظة فى الحيوانات الكبيرة . إذن الموت أمر معهود لا أهمية له ، فكيف أعظم أمره هذا الانسان ! إن العجيبة الأولى فى الحيوان والعجيبة الثانية فى الأرواح من واد واحد كلاهما أظهر أن الموت ليس أمرا عظيما ، فاذا كانت الحيوانات الدقيقة تموت وتحيا بكل سهولة ، والأرواح ظهر أن لها وجودا بعد الموت . إذن الأمر سهل

٢٢٣ إيضاح لما تقدم . إن أكثر النبات هو مالانراه (أنظر شكل ٤٧ و ٤٨) مثل بكتريا حلزونية وبكتريا عصوية وبكتريا كروية . فهذه أصغر النباتات مركبة من خلية واحدة . فهى كبيضة لها غشاء ومادة داخلة فيها . وهذه الثانية لها نواة هى أصل الحياة . وهناك ماهو أصغر منها ولكن لانراه . وأحدها يكون واحدا من الألف من المليمتر . وهذه تتغذى وتتنفس وتنمو وتلد وتموت

٢٢٤ الكلام على ماتعيش على مادة غير عضوية . والبيضة الواحدة اذا وجدت مكانا صالحا تنمو وتصير فى ٢٤ ساعة نصف مليون رطل وهى تعيش على درجة ١٩٠ تحت الصفر وهى الدرجة التى يصير فيها الهواء سائلا كالماء . ولكنها لاتتحمل الحرارة أكثر من ٥٥ درجة فوق الصفر . إذن هذه نباتات أقوى على التحمل من كل نبات نعرفه . ومتى خمدت يصير لها غلاف سميك يحفظها وتبقى سنين حتى اذا صادفها وسط مناسب رجعت لها الحياة كرة أخرى (شكل ٤٩) رسم تكوين الجراثيم فى البكتريا

ان

صحيفة

إن البكتريا تعين على نمو النبات . فهى كالطحانين والعجانين والخبازين . إن القمح والقطن وكل نبات كبير لاقدرة له على امتصاص عنصر الآزوت من الأرض إلا بحال خاصة ، وهذه الحال الخاصة لاتتم إلا بتحليل البكتريا الصغيرة له فيسهل على النبات الكبير تناوله . والبكتريا أيضا تكون سببا فى الخل ودبغ الجلد وقبول طعم الزبدة ورائحتها واللبن الزبادى فهذه من منافعها ، ومن مضار البكتريا مرض القسمم والطاعون والتيفود والتيفوس والالتهاب الرئوى والسل

٢٢٥ والوقاية من الأمراض المتقدمة بالنظافة واستعمال المطهرات الخ وبيان أن هذه المخلوقات (البكتريا) من حيث ضررها ونفعها أشبه بالنحل ودودة الحرير والحيات والعقارب ، فمنها يكون العسل والملابس ومنها يكون الضرر . والجراثيم النباتيـة ثلاثة أقسام : قسمان منها لالون لهما . والقسم الثالث له لون وهى الطحالب . ثم ان اللذين لا لون لهما أحدهما يسمى الفطر (بضم الفاء والطاء) والثانى يسمى البكتريا (انظرشكل ٥٠) فهذه البكتريا تتغذى بالكربون الذى فى الشجرة وبالاوزوت الذى هو جزء من الهواء ، ولاتزال هذه تتكاثر على جذورالنباتات البقلية حتى تموت بانتهاء آجالها فيرث النبات هـذه البكتريا وينتفع بالميراث ، فقد كسب منه أمرا فوق الكربون الذى أخذه منه وهو الاوزوت الذى أخذه من الهواء ، فهـذه البكتريا أعطت للأرض أمرا جديدا هوالاوزوت الذى حوّلته من الهواء إلى الأرض

٢٢٦ ﴿الطحالب﴾ من شكل ٥١ الى ٥٤ وهى أشكال جميلة بهجة تبين الطحالب الخضراء والزرقاء المخضرة ، والتى أعضاؤها تشبه أعضاء النباتات الراقية ، ومنها ماهومستعمرة من الطحالب

٢٢٧ (شكل ٥٥) طحالب بنية وحيدة الخلية ، (وشكل ٥٦) أحـد الطحالب البنية الكبيرة الحجم ومن الطحالب ماهى حمراء تعيش على أعماق كبيرة من سطح البحر

٢٢٨ ﴿تركيب الفطر﴾ (شكل ٥٧ و٥٨ و٥٩) ههنا تتكاثف بعض الفطرفتتكوّن كتلة تشبه أنسجة النباتات الراقية كما فى عيش الغراب

٢٢٩ جمال العلم فى آية ـ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشـعة ـ مع قوله تعالى ـ وقدّر فيها أقواتها ـ الخ مخاطبة المؤلف ربه ، يقول له : « يا ربنا أخذنا نستقرئ هـذه الأقوات التى قدّرتها فعجبنا من أن المشرقات تجرى بحساب ، ووجدنا نفس النبات الذى ظهر بسبب أنوار المشرقات أيضا بحساب ، ورأينا اننا نحتاج فى طعامنا الى مواد دهنية وآزوتيـة ونشوية ، وهـذه الثلاثة وجدناها فى النباتات بنسب مختلفة ، فمنها مازاد فيها الدهن ، ومنها مازاد فيه المادة النشوية وهكذا ، إذن أنت كما حسبت شمسك وكواكبك حسبت قيمة الغذاء الداخلة فى كل نبات من دهن ونشاء وآزوت »

٢٣٠ خطاب المؤلف لربه أيضا ، يقول له : « يارب فى القلوب حبك ، تحبك الدواب لعلفها ، والعامة لطعامها أولأموالهم ، وهؤلاء عبيد العصا . والأطباء لاطلاعهـم على أسرار الغذاء . والحكماء حبهم أعلى من السابقين . انهم يحبونك لعلمك الذى ظهرت آثاره فى تقدير الأقوات ولرحمتك ولجمالك »

٢٣١ نورعلى نور . وذكر بعض أنواع النبات كالقمح والذرة والصنوبر والفول السودانى . وأن منها ما مادّته الآزوتية كثيرة أوالدهنية أوالنشوية . وهذا الاختلاف تابع لاختلاف الفتحات الشعرية فى الجذورعند امتصاص الغـذاء ولاختلاف الأوراق أثناء امتصاص الكربون من الهواء عنـد مقابلة نور الشمس وتعاونهما على ذلك الامتصاص . وهكذا هيئة الجهاز الهضمى المرسوم فى صحيفة ٢٣٢ (شكل ٦٠) ففيه آلات وأدوات لهضم الموادّ النشوية ، وأخرى لهضم الموادّ الدهنيـة ، وأخرى لهضم الآزوتية .

صحيفة

إذن يا ربنا ههنا عجب ! شمس تضيء وتساعد الورق بفتحات تختلف باختلاف الأشجار ، وهناك يمتص من الهواء كربونا وتمتص جذور الأشجار بفتحات أخرى أغذية من الأرض فيكون حب على مقتضى هذه المقدمات له تركيب خاص من أنواع الأغذية فيحصله الانسان فيأكله فيتلقاه الجهاز الهضمى فتكون الأغذية موزعة على الآلات الهاضمات فى الجهاز الهضمى ، إذن يا ربنا هناك مناسبات تامات بين الضوء والنبات وفتحات أوراقه وجذوره ثم حبوبه والآلات الهاضمات فى الحيوان ، إذن أكثر النوع الانسانى فى جهل عميق

٢٣٣ تعجب لهذا الجهاز الهضمى الذى حوى مايهضم المواد الثلاث التى فى النبات بحيث كانت فيه مصانع للنشاء وللآزوت وللمواد الدهنية ، ولكل واحد من هذه الثلاث نوعان من المصانع ماعدا النشاء فله ثلاث مصانع فى نفس الجهاز الهضمى ، فاذا جاوزنا هذا الجهاز الى ضوء الشمس وفتحات الأوراق والحجر التى فيها والى فتحات الأنابيب الشعرية فى الجذور ألفينا الحساب هناك متقنا اتقانا بديعا بحيث ترى الأنابيب الشعرية والفتحات كلها لاتدخل فى النبات غير المواد المخصصة له

٢٣٤ نظام الأمم الأرضية والشوق الى مبدع العالم ، وبيان أن بنى آدم غافلون عن هذا النظام ، والا فأى يقين لهم بعد هذا التفصيل ، إن المجموع الانسانى أشبه بالأجهزة الهضمية ، والأرض وما عليها أشبه بالحب والنبات ومافيهما من المواد الثلاثة المختلفة ، فاذا لم تساط مجموع العقول على جميع المنافع فى الأرض أصبحت بعض المنافع عاطلة لم تجد من يستخرجها وهذا نقص للجميع وهذا هو قوله تعالى — من قتل نفسا بغير نفس أوفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا — الآية

﴿ عروج النفس الى العالم الأعلى ﴾ وبيان أن فى تفسير قوله تعالى — إن الذين قالوا ربنا الله — إيضاح أن المادة لعجزها عن إحداث ضوء وحرارة لما عليها برهنت على أنها عن إحداث عقول وعواطف وغرائز أشد عجزا ، ونزيد على هذا أن المادة اليوم ثبت عدم وجودها ، إن هى إلا حركات فى الأثير إذن الفلاسفة الماديون سقطوا من قوائم الفلاسفة ، إذن هناك علم ورحمة وجمال وحب منها استمد الحيوان والانسان مالديهم من ذلك العالم القدسى ، والانسان متى أحس أن علمه ورحمته مستمدة من هناك أحس بالسعاد فى هذه الحياة ولا يحزنه الفزع الأكبر ، والانسان اذا وصل الى ذلك المقام نظر الى أعلى والى أسفل فاستمد وأمد

٢٣٥ بهجة الحكمة وجمال العلم فى آية — ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة — الخ . يقول المؤلف انه نجح فى أن القارئ شاركه فى فهم مقادير النبات وفى نسبتها الى الجهاز الهضمى ، فههنا يبين أن المواد غير عضوية كالأملاح وعضوية وهى النشوية وأختاها ، فههنا ذكر الجدول ليبين أكثر النبات : قمح أرز ، ذرة ، بطاطس ، بطاطه ، لوبية الخ . وبالجملة ففى هذا الجدول (٥١) أكثرها نبات وبعضها حيوان ، وهذه المواد هى التى يتعاطاها الناس غالبا ، وقد ظهر لكل مادة قيمتها الغذائية فى الرطل المصرى الواحد

٢٣٧ قسمة علم النبات بيننا وبين الأطباء ، الطبيب يفرح بهذه المقادير ليحافظ على الأصحاء ويشفى المرضى ، ولكن الحكيم يرتقى فوق ذلك فيقول : « أيها الأطباء ، لتفرحوا بشفاء مرضاكم وبقاء صحة أصحاء الناس ، ولكن نحن ننظر فى توزيع العلوم على مناطق الدماغ كما وزعت آلات الهضم على مختلف النبات ، واذا كانت الأغذية لها مبدأ وهى الشمس ، فهكذا للادراكات مبدأ وهى الذات الغائبة عنا القدسية ومنها انبعث العلم فى نفوس هى واسطة بيننا وبينها كما كان النبات واسطة بين ضوء الشمس

صحيفة

و بين أجسامنا

٢٣٨ وههنا أبان المؤلف انه أوضح آراء الأمم من أيام سقراط الى الآن ، وقد عاملها الله كما فى (٢٥٠٠) سنة معاملة نفس واحدة ، وأنزل العلم قليلا قليلا ، وفى هذا التفسير صار أقرب الى عقول الأمم الحاضرة ، والاستئناس على ذلك بما تقوله الأرواح ، وهو أن العلم لاياتى الى الناس إلا اذا استعدوا له ، و بيان أن هذا التفسير جاء فى زمان استعدت له الأذهان فيها . فاذا قلنا ان المادة التى ثبت أنها لاوجود لها بسقوطها سقط الماديون . فقد بنينا كلامنا على إجماع علماء العصر الحاضر . فأما هؤلاء المدرسون فى مصر وسوريا والعراق ونحوهم فانما يكررون على مسامع تلاميذهم صدى صوت العصور الفائتة فى القرن الثامن عشر . وههنا خاطب المؤلف ربه . انه يحس فى نفسه بانشراح وسرور عظيمين . وانه موقن أن المسلمين سيكونون خير أمة أخرجت للناس بعد ظهور هذا التفسير . وههنا أردف هذا القول بشرح قول الشيخ الدباغ . وهى ان الاحساس بالشىء غير الابتهاج به . فكم من جميل نراه ولايتأثر بجماله إلا قليل وهذا سار فى جميع الحواس . والمؤلف يقول : إن جميع المعلومات والمحسوسات يشترك كثير من الناس فيها ولكن ادراك الجمال قليل . وأكثر الناس إذا عجزوا عن ادراك الجميل اهتموا بشهواتهم التى كأنها ظل من يحموم لابارد ولا كريم لأنهم مترفون . إذن الانسان مغرم بما أحبه . فان أحب الجمال العلمى فهو منهمك فيه . وان أحب الشهوة فهو منهمك فيها . ولما كانت الشهوات مسلطة مع الكسل على كثير من المسلمين ككثير من أهل مصر كان القطن الذى نزرعه سببا فى إذلالنا إذ نبيعه بثمن بخس ونشترى منسوجه بأغلى الأثمان . هذه أغلال فى أعناقنا . بل هذه هى السرابيل التى من قطران المشبهات ما فى الآية — سرابيلهم من قطران — لأنها مصنوعة بقطران الفحم كما هو معلوم . وذلك خطر للمؤلف وهو يتلو الآية فى صلاة الصبح

٢٤١ ﴿ الفصل الثانى ﴾ من اللطيفة الخامسة فى آية — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم — الخ و بيان أن الأميرال (برد الأمريكى) الذى زار المناطق الجنوبية الجامدة . ووصل الى القطب بالطيارة . وصلت الرسائل منه بالتلغراف الذى لاسلك له الى نيويورك . والمسافة عشرة آلاف ميل . وكأنه يخاطب عامل التلغراف على بعد أقدام فقط ﴿ المبحث الثانى ﴾ ان الانجليز قابلوا تاغور الهندى بالاكرام مع ان الأمتين بينهما عداوة واضطراب شديد . فهذا يدل على أن نوع الانسان قابل للسلم ﴿ المبحث الثالث ﴾ فيما شاهده المؤلف فى صحة جسمه . كانت فى جسمه بقع ملونة تظهر وتختفى وقال له الأطباء انها ليست معدية . ولكن لايعرفون دواءها . وأخيرا قالوا سببها نقص فى التغذية . ولما أكل الفواكه والحبوب وزيت الزيتون والخبز الذى لاينخل والبرتقال ونحوه ذهبت تلك البقع . وهنا يقول المؤلف : « إن نقص السعادة الانسانية لنقص العلم بطرقها قياسا على صحة جسم المؤلف بالعلم ومرضه بسبب الجهل . فعلى الأمم الاسلامية أن تتضافر وتتعاون فى البحث عن طرق سعادة هذا الانسان

٢٤٥ ﴿ اللطيفة السابعة ﴾ فى آية — سنريهم آياتنا — الخ وفيها تبيان معنى كلام الشيخ الدباغ : « إن فى الأرض عجائب تعرف الوحدانية بلا دليل . وتعرف وجود الجنة كذلك والنار » ويفسر المؤلف ذلك بأن التوحيد يعرف بالعجائب المذكورة فى هذا التفسير بلاحاجة الى براهين علم التوحيد كعيون النمل والذباب والنحل وتعداده بالمئات . فان هذه العجائب لما ظهرت فى حشرات منبوذات فيما تعافه النفس كانت عجبا ! أشبه بكنز ظهر فجأة

صحيفة

٢٤٦ هذا ولما كانت النفوس الانسانية إما مغرمة بالحكمة . واما مغرمة بالقهر والغلبة والنزاع . واما مغرمة بالشهوات . والأولى أشبه بمن يأكل الفواكه من الانسان . والثانية أشبه بكل حيوان يأكل الرمم والثالثة أشبه بالذباب آكل العفونات . كانت جهنم تؤخذ اعتبارا من القسمين الأخيرين . والجنة تؤخذ من القسم الأول . فاذا تفاوتت الأغذية بتفاوت الحيوان . هكذا تتفاوت أغذية العقول على مقتضى درجاتها . وبالجملة أحوال الآخرة لها نظير فى العالم المشاهد

(تمت)

